كتاب

٤

محمد خليل قاسم

رواية

الشمندورة



أول رواية نوبية فى الأدب العربى

مقدمات : رفعت السعيد - فريدة النقاش - صلاح السروى - إبراهيم فهمى

الشـمندورة

الشمندورة

أول رواية نوبية في الأدب العربي

(الطبعة الثانية)

محمد خليل قاسم

سلسلة "كتاب أدب ونقد"

الكتاب الرابع- يناير ١٩٩٤

سلسلة تعنى بالإبداع الفكري والأدبي المتميز

تصدرها مجلة "أدب ونقد"

مؤسسة "الأهالي"

(حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي)

رئيس مجلس الإدارة: لطفي واكد

رئيس التحرير: فريدة النقاش

٢٣ش عبد الخالق ثروت/ القاهرة/ ت: ٣٩٢٢٣٠٦، ٣٩٢٢٤٠٨

الشمندورة

أول رواية نوبية فى الأدب العربى

محمد خليل قاسم

تصميم الغلاف للفنان: يوسف شاكر

الصف والتنفيذ: مجلة (اليسار)/ ١٢٦ش السودان/ المهندسين

أعمال الجمع والتنضيد: صفاء سعيد/ صلاح عابدين/ نسرين سعيد

مراجعة الصف: مصطفى عبادة

صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٨

مقدمات : د.رفعت السعيد/ فريدة النقاش/

د.صلاح السروى/ ابراهيم فهمى

تنويه

الأسماء فى هذه الرواية أسماء شائعة بين النوبيين، فإذا ماحدث تشابه أو تطابق بينها وبين أسماء أشخاص معينين حقيقيين، فليسوا مقصودين بالمرة.

هذا فيما عدا الشخصيات الهامة التى قامت بدور بارز فى حياة النوبيين..

د.رفعت السعيد

الحكيم الجالس القرفصاء

الأب تاجر صغير في قرية قتة، وتجار الفقراء هم أيضا فقراء، فزبائنه لايمتلكون نقودا، فمن أين تأتى النقود إلى قرية نوبية، كل ما يمتلكونه..النخيل والبلح الذى تواجهه شمس النوبة الصارمة، وإذ يحاول أن يواجهها يجف، ويصبح ثمرا، بعد أن يكتسب من هذه الشمس المميزة حلاوة مميزة هى أيضا. والمراكب تحمل التمر إلى أسوان، ويعود التاجر ليوزع النقود، هنا وهنا فقط يمسك النوبيون بالنقود ويسددون حساب عم خليل قاسم البقال.

والأسرة كلها يتعلق طموحها بأن يتعلم الولد «محمد» كى يفلت وتفلت معه من إسار الفقر الذى يحاصر الجميع. ومن المدرسة الإلزامية إلى مدرسة عنيبة الابتدائية حيث تفوق تفوقا ملحوظا.

ويجلس القرفصاء كما اعتاد دائما، ويحكى لى وكأنه يسبح فى مياه النيل المموه بالطمى، يحكى بصوت أجش«حتى السنة الرابعة الابتدائية لم أغادر النوبة، وعندما أخذونا إلى أسوان كى نمتحن امتحان الشهادة الابتدائية رأيت كل الأشياء المبهرة التى كنت أشاهد صورها فى كتاب المطالعة وأرسم صورا مجسدة لها».

..«ويومها كانت المرة الأولى التى أرى فيها القطار، ساعتها ملأنى الانبهار، وتسارعت دقات قلبى من الدهشة، شدت قامتى، ضربت تعظيم سام، وهتفت بصوت عال فاجأ الجميع «إن هذا هو القطار»..هذه العبارة كانت مكتوبة أسفل صورة القطار فى كتاب المطالعة، ولفرط دهشتى ضحك الجميع».

(كان زكى مراد زميله فى هذه الرحلة المبهرة، وظل دوما يشاكسه- ونحن فى السجن- بأن يعيد ويعيد هذه القصة).

..أنهى محمد تعليمه الابتدائى،ومازال الحلم يراود الجميع . أن يتعلم الولد فيقفز بنفسه وبكل الأسرة من قطار الفقر. ولكى يتعلم فتى نوبى فقير فى مدرسة ثانوية ، لابد أن يبحث عن قريب يقيم معه فى القاهرة فلا أمل غير ذلك.

ووجدت الأسرة حلا..فخاله يقيم فى القاهرة، حيث يعمل طباخا لدى أسرة الخواجة «جون» الذى يمتلك أسطبلا لخيول السباق.

ويذهب الفتى الأسمر، النحيل كنواة البلح، مرتديا ثيابه الباهتة، التى تتحايل كى تبقى معه، ويتحايل كى يبقى معها، فلا أمل له فى غيرها. يذهب ومعه أوراقه ليقدمها إلى ناظر مدرسة القبة الثانوية، أمسك الناظر بالأوراق.. أى شىء يغرى فى هذا الولد كى يمنحه مقعدا مجانيا فى مدرسته، العينان الذكيتان تلمحان الامتعاض على وجه الناظر، وقبل أن ينطق الناظر بكمة الرفض، شد الفتى المبروم كنواة البلح قامته، وبصوته الجهورى الذى لم يكن قد أصبح أجش بعد..صاح بأبيات شعر تواردت إلى خاطره فى مديح الناظر فصاغها وانطلق بها على الفور.. اندهش الناظر من قدرة الشاعر الصغير، وقبل أوراقه على الفور.

..ومن القبة الثانوية حيث واصل نجاحه المتفوق إلى كلية الحقوق. الآن يوشك حلم الفتى وحلم الأسرة أن يتحقق، فها هو يقترب من نهاية المطاف، وربما يصبح محاميا مرموقا، أو وكيل نيابة.

الأسرة كلها تعلق أبصارها بخطاه نحو خلاصها وخلاصه.

ولكن ثمة أبصارا أخرى تعلقت به وتعلق بها، فأنسته نفسه، وطموحه وأسرته، وكل شىء إلا هموم الوطن وهموم الفقراء.

أبصار أخرى تعلقت به. لقنته أنه لاخلاص لنفسه إلا بخلاص الوطن، ولانجاة إلا بنجاة زورق الفقراء جميعا من طغيان الطغاة والمستغلين.

كان الفتى قد انغمس هو وصديق صباه زكى مراد وسط أندية النوبيين المنتشرة فى أرجاء القاهرة الفقيرة، واستطاعا أن يجعلا منها مسرحا لأنشطة ثقافية، وفكرية، وادبية، وسياسية متألقة، وبعد أن كانت جدرانا جاءة لاتستقبل إلا المآتم والأفراح النوبية، وامتلأ الوجدان بصخب الفعل السياسى وضجيج الأداء الثقافى والفكرى المتميز.

..وهناك كان شيوعى متوهج، لايكف عن الحركة، وعيناه اليقظتان قادرتان علي التقاط كل من يحملون قلبا يخفق بحب الفقراء..والتقى الفتى بهذا الشيوعى المتوقد حماسا..«عبده دهب» وأصبح هو أيضا شيوعيا.

همومه الصغيرة توارت، طموحاته الشخصية انكمشت ، وانهمرت في داخله حزمة مكثفة من ضوء باهر، رأى كل الحقائق على حقيقتها، وانكشف الغطاء الذى كان يغلف الأحداث. أصبح الآن يرى أفضل ويفهم أفضل، ويعرف لماذا وكيف هو

فقير، لماذا وكيف يقع الظلم؟.

وفى جلسة القرفصاء التقليدية فوق رمال سجن جناح، حكى لى قصته مع الضوء الجديد تحدث عبده دهب بكلمات متسارعة، كأنه بندقية سريعة الطلقات، كشف الغطاء عن كل شيء، وأمسكنى مفتاح فهم الأشياء والأحداث.

لاتتصور كم السعادة التى غمرتنى وأنا أفهم، واستجمع المزيد من الفهم، لاتتصور كم الكراهية التى ترسخت فى أعماقى لهؤلاء الذين دفعوا بنا بعيدا عن بلدنا وتراب أجدادنا بعد التعلية الأولى لخزان أسوان..هل تصدق أنهم دفعوا لنا ١٥ مليما ثمنا للنخلة المثمرة؟ وهل تصدق أن واحدا من الباشوات قال فى مجلس الشيوخ علنا كلاما سجل فى المضبطة يرفض أية زيادة فى التعويضات قائلا ببساطة: إذا أصبح النوبيون أغنياء فمن أين سنجد خدما يخدمون فى بيوتنا؟.

كلمات عبده دهب غيرت الفتى، سحرته، ومضى كالمسحور نحو مستقبل جديد.

حتى محبوبته هجرها وهو يشق طريقه الوعر نحو الحياة الصعبة لشيوعى نسى نفسه، وكلينه وأحلامه، وأسرته، نسى كل شيء إلا نضاله وكفاحه..

حكى لى طويلا عن محبوبته..طويلا جلس القرفصاء، بحثنا عن قطعة ظل فى أرض السجن الصحراوى الجاف وجلس يحكى «كانت جميلة سمراء، رائعة الحسن، متوقدة الذكاء، ابتسامتها لاتنسى(وصفها طويلا، وأعاد الوصف عشرات المرات، لكنه أبدا لم يذكر اسمها) بعد أن اقتربا أكثر سحبها من يدها إلى جروبى مصر الجديدة قائلا يجب أن تعرفينى جيدا، هؤلاء السفرجية أقاربي وأنا منهم. صمتت، لم تتكلم، ظن أنها تفكر، أو تغالب ترددها، لكنها فى اليوم التالى سحبته من يده عبر شوارع ذات الحى وأمام محل أحذية أشارت هذا أبى، وهذا عمى»

لكن الحب الوحيد فى حياته يتلاشى أمام وطأة حب أكبر وأعمق وأشمل، حبه لوطنه وشعبه وقضيته التى أخذت منه كل وقته، بحيث لم يتبق منه شيء لأى شيء آخر. وأخذت منه كل شعره بحيث لم يتبق منه أى شعر فى أى موضوع آخر.

وتختفى قصائده التى تغنى فيها بمحبوبته لتحل محلها قصائد من نوع جديد. قصائد تتغنى بالوطن:

أنا مصرى وفى مصريتى
ينطوى أمسى وينساب غدى
أنا مصرى وفى مصريتى
نبع أحلامى ومثوى جسدى

وقصائد أخرى تتغنى بأحلام الفقراء:

نحن نبنى لأن فينا جياعا

يعمرون الكهوف بين الجبال

نحن نبنى لأن فينا عراة

يخدمون الثراة فى أسمال

نحن نبنى لأن فينا رضيعا

قارب الموت مستبد السعال

نحن نبنى ومابنى الشعب باق

أبد الدهر ساخرا بالزوال

ولكن..وحتى الشعر آخر ماتبقى له من مباهج البشر العاديين، ظل ينافس اندفاعه المحموم نحو نضال سياسى لايهدأ، كان يقتطع بعضا من وقته كى ينقض على دار الكتب فى باب الخلق كى يلتهم دواوين الشعر القديم، وبعضا آخر كى يشارك فى ندوات شعرية، تكاثرت فى السنوات الأولي من الأربعينات..

ونعود اليه جالسا القرفصاء مرتديا بدلة السجن الزرقاء منتحيا معى فى مسالك سجن جناح بالواحات الخارجة

«ذات يوم تأخرت عن اجتماع تنظيمى هام وسألنى المسئول لماذا؟ فقلت كنت فى ندوة شعرية رائعة، ابتسم المسئول وقال لابأس، ولكن أحذر من أن تكون نصف شاعر، أعرف أن إجادة الشعر تحتاج إلي تفرغ، ولسنا ضد ذلك فلعله من المفيد أن يكون أحد كبار شعراء مصر شيوعيا، ولكن حاذر من أن ترقص على السلم لتجد نفسك فى المنتصف فلا تصبح شاعرا كبيرا، ولا شيوعيا جيدا، وبذات الحدة التى اعتادها مع هذا الأمر، وكما قاطع محبوبته السمراء، قاطع محبوبه المنظوم، لكن الشعر ظل يلاحقه فى كل حدث وفى كل حديث»

ويمضى الجالس القرفصاء في حكايته مؤكدا فى حماس لم تكن تحتاجه الحكاية، وإنما يحتاجه إلحاحه الحميم على تلقينى كل ماتعلم . وكل ما يعتقد، يمضي فيقول: أن تكون شيوعيا تصبح كراهب، تترك كل قديمك، كل الماضى، وكل ماهو خاص، أرة أو كلية أو هواية أو محبوبة وتهب حياتك، كل حياتك لمعتقدك ومبدئك».

وهكذا ظل محمد خليل قسم طوال حياته.

ورويدا، رويدا، وجد قاسم نفسه منهمكا بكل لحظات حياته، وبكل فكره ووجدانه فى نضال متواصل وسط الأندية النوبية، كي تتحول الى منابع للفكر والثقافة والتقدم الحضارى، ومقاوما دعاوى الانفصال عن مصر التى حاول غرسها رجال حزب الأمة السودانى، ودعاوى ترددت سرا بين النوبيين بأن ينفصل السودان، وأن تنفصل النوبة بشطريها المصرى والسودانى لتؤسس دولة جديدة،

وقد استندت هذه الدعاوى إلى قهر وظلم وامتهان حقيقى تعرض له النوبيون وعندما أبديت دهشتى من إمكانية سريان مثل هذه الدعاوى قال الحكيم الجالس القرفصاء:«أنت لاتعرف كم القهر الذى شعرنا به، والذى عانينا منه.. أن تكون فقيرا فهذا شىء، أما أن تكون فقيرا نوبيا- وكل النوبيين فقراء- فهذا شىء مرير مرير».

وانهمك قاسم أيضا فى نضال لايتوقف فى قسم الأحياء (منطقة القاهرة) ليصبح واحدا من أبرز كوادر الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م) ويشارك فى تحرير مجلة أم درمان التى أصدرتها ح.م لتصبح «مجلة الكفاح المشترك بين الشعبين المصرى والسودانى».

وفى عام ١٩٤٨ قبض عليه، وحوكم عسكريا . حكم عليه بالسجن خمس سنوات.

«ضربتين فى الرأس توجع» ضربة السجن، أما الضربة الأخرى فقد كانت قرارا قاسيا يحتوى على كل عنف الفقر الذى يقسو على الإنسان فيجعله أشد قسوة هو يفتش عن لقمة خبز لنفسه ولأولاده..قرار من زوج أخته التى تعلق بها وتعلقت به، والوحيدة من أقاربه المقربين المقيمة فى القاهرة..أقسم زوج أخته «بالطلاق» أنه لااتصال مع هذا الشاب المشاغب..

وظل محمد خليل قاسم طوال الفترة من ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٤ بلا أية علاقة بأقاربه..واكتفى بدفء الرفاق، وحنان الصداقة الرفاقية التى جمعت بيننا وبينه.

وفى عام ١٩٥٣ تنتهى فترة السجن ليخرج إلى عالم مضطرب، وصراع مرير بين «حدتو» (الحركة الوطنية للتحرر الوطنى) وبين حركة الجيش، يخرج من السجن ليواجه بهموم متراكمة فوق أكتاف رفاقه وهم يخوضون معركة نضال لاتهدأ فى مواجهة قهر بوليسى يتصاعد ويزداد تصاعدا.

ولكن..

أى خيط سحرى يمكنه أن يشد اثنين ليربط بينهما بصداقة حميمة لامثيل لها، ولافكاك منها، أى خيط هذا الذى يمكنه أن يفرض على اثنين أن يختار أحدهما الآخر من دون الآخرين ليصبح أخا وصديقا وكى يصبح أقرب وأوثق.

إذا ما اكتشفنا هذا الخيط السحرى فسوف نكشف آفاقا رحبة تكشف لنا أسرار القلب والحب والصداقة..المهم أننى وهو ارتبطنا بهذا الخيط السحرى، وأصبحنا من بين آلاف الرفاق أكثر صداقة وأكثر ارتباطا اصطفى كل منا الآخر، أنا وجدت فيه استاذا حرصت على أن أتتلمذ عليه، أعجبنى فيه إصراره، عناده، ترفعه، رفضه الحاسم لأن يحنى رأسه إلا للحقيقة وللأغلبية وللمبدأ، وهو وجد فىّ شخصا يستحق أن يتتلمذ عليه.. وأصبحنا أصدقاء.

وبعد كل ما سبق، لعل من حق القارىء أن يسأل كيف كان لقاؤكما؟.

كان شتاء نوفمبر باردا وممطرا، والعام كان كبيسا، فمنذ بدايته بدأت حركة يوليو حملتها الشهيرة ضد الدستور والأحزاب، وكان ما لم يكن منه بد، وأعلنت حدتو معارضتها لنظام يوليو ، يسقط نجيب قاتل عصام * «أول منشور صدر من رابطة الطلبة الشيوعيين- حدتو يعلن المعارضة بل والإسقاط، واحتاج الأمر نقاشا طويلا فى قيادة حدتو حول مناسبة رفع شعار الإسقاط وحول حق «الرابطة» فى المبادرة بموقف كهذا..وكان الصدام مفروضا وإن كان فى واقع الأمر مفترضا، وبدأت حملة الاعتقالات وتركزت- كتقليد استمرت عليه حركة الجيش- ضد «حدتو» المنظمة التى بادرت بتأييد الحركة..

..وكانت حملة أغسطس ١٩٥٣ محاولة تمشيط كامل لمنطقة المعز (الاسم الحركى لمنطقة القاهرة فى تنظيم حدتو) وفى حملة واحدة اعتقل عدة مئات من قيادات المنطقة، بل وكوادرها بل وعضويتها العادية..

كنا نحن بعيدين عن الضربة فرابطة الطلبة كانت تنظيما مستقلا عن منطقة المعز، وتابعة مباشرة للمركز، وعندما بدأ العام الدراسى فى سبتمبر ١٩٥٣، اكتشفنا أننا وحدنا فى القاهرة، وبلا علاقة بالمركز فقد تقطعت السبل، الباقون من اعضاء اللجنة المركزية هاربون ومامن سبيل للاتصال بهم، ببساطة اتخذنا قرارا بأن نواجه مسئوليتنا فى رفع لواء المنظمة والتأكيد على استمراريتها..

وبنشاط شاب وحماسى ملأنا شوارع القاهرة كتابات على الجدران ضد ادكتاتورية العسكرية، والتمسنا وسائل بسيطة (شريط الورق اللاصق) يتولى كل عضو كتابة شعارات عليه ثم يقوم بلصقها على صناديق البريد فى المنازل وعلى أبواب الشقق..وتحت كل شعار على جدار أو على شريط من الورق كان اسم حدتو يثير دهشة القادة المختفين، الذين أحسوا فجأة بوجود نشاط متسع لمنظمتهم لكن يدهم لاتطاله، أما السلطة ورجال أمنها فقد كانوا أشد حيرة بعد أن تيقنوا من تمشيط منطقة القاهرة..ولعل مازاد غضب النظام أننا كشباب تفتق ذهننا عن أساليب مثيرة مسدسات رش السائل يحملها الاعضاء ومعها زجاجات من الحبر لتصب غضب حدتو علي صور قادة النظام التى ملأت الجدران.

والكتابة على الجدران تطلبت إنتاج نوع من الطباشير المصنع من زيت

* عصام سرى طالب بيطرى استشهد فى معتقل الصناعات الميكانيكية «فبراير ١٩٥٣» نتيجة لاهمال علاجه ورفض المسئولين عن المعتقل احالته للمستشفى.

البرافين وبودرة اللون الأحمر، مصنع كامل لهذا الطباشير، إدارة محمود العطار وكانت الكتابة به أسهل، أما محوها فهو شبه مستحيل.
..وتزايد نشاطنا بلاقيادة مركزية، حتى وصلتنى كمسئول عن الرابطة وعبر طريق شديد الالتواء إشارة تطلب مقابلة مسئول مركزى.

فى السابع من نوفمبر..ولم أزل أذكر اليوم، كان المساء ممطرا وباردا، وتحت المطر انتظرت. توقفت سيارة قديمة عرفت بعدها أنها ملك لمحام لايحب الآن أن نذكر اسمه ضمن تراثنا.هبط رجل مربع الشكل، سمرته داكنة ملامحه رسمت بشكل متجهم تعطيك انطباعا بأنه وجه لايعرف الابتسام وقلب جاف بلا روح.. أفلت الرفيق الواقف معى والذى كانت مهمته أن يضعنى فى قبضة المركزية.
لم يقل مساء الخير، سألنى بيتك آمن؟ قلت نعم، قال خذنى اليه.
فى يده كانت لفافة من ورق جرنال مبتلة، واتجهت نحو تاكسى مركون إلى جوار الرصيف كاد أن يخلع ذراعى، وسار بى، علمنى أول درس« ،،لاتركب تاكسى واقفا، ولاتركب أول تاكسى يمر عليك فقد يكون الأمن وجهه إليك عن عمد» سكت قليلا وقال وكأنه يعبر عن دهشته من فرط سذاجتى...«هذه التعليمات الأمنية معروفة من أيام ح.م».
فى البيت حيث كنت أختبىء أنا ومحمود العطار زميل الدراسة ورفيق النضال جلست معه، فى ضوء المصباح تأملت الوجه العابس، أسنان غير منتظمة ، شفاة غليظة بعض الشيء: لم يستأذن ولم يسأل إن كانت هناك مساحة لنومه، خلع ملابسه وفك اللفافة المبللة وارتدى كل مابها..كل عتاده الذى ينتقل به من مخبأ لآخر، بيجامة بنصف كم.. ونصف ممزقة، أسرعت وأحضرت له بيجامة صوف أتت أضيق منه كثيرا لكنه كان سعيدا بها سعادة طفل بلعبة جديدة (بعد فترة قال لى هل تعلم سر سعادتى..لقد أحسست بدفء الرفاق وأخوة النضال).
لم يعطنى وقتا كى استوعب مفاجأة وجود ضيف جديد فى مخبئنا (١١رضوان شكرى-العباسية) وبدأ على الفور فى محاسبتى عن كل ما كان.. سأل وكأنه جنرال.« من المسئول عن كل ماحدث؟قلت:أنا. أخرج من جيبه ورقة صغيرة تحتوى على شعارات عديدة كنا قد أضأنا بها جدران الحى الذى كانت القيادة المركزية أو ماتبقى منها تختبىء فيه دون أن ندرى. وبدأت أول خيوط التحاسب والمعرفة الدقيقة بقواعد الأمن فى العمل السرى تنساب ببساطة وهدوء..إنها خطوة جيدة أن تقرر مجموعة من الشبان مثل هذا التحدى..خطوة تدل على شجاعة وعلى ولاء للحزب ، ولكن..!» ولكن هذه بدأت سلسة انتقادات عديدة.

«لقد أربكتم أمن القيادة. كنا نختبىء فى موقع هادىء، أتيتم وكتبتم فى الحى

الذى نقيم فيه، أثرتم شبهات أمنية حول الحى بأكمله، استنفر الأمن، واشتعلت التحريات واضطررنا إلى عدم الخروج لأكثر من أسبوعين، فجأة ضحك ضحكة عالية، أدهشنى أنه يعرف كيف يضحك، قال:«تصور، لقد كتبتم على جدار ذات البيت الذى كنا نختبىء فى بدرومه..أكدت أننا لم نكن نعرف، فقد كتبنا بعيدا عن الحى الذى يسكن فيه معظمنا..ولكن ماقيمة قولى«لم نكن نعرف». .

ثم بدأ التحاسب السياسى، "الشعارات لم تكن دقيقة، أنها أشد وأعنف مما يجب، وانساب جدل بين شاب شعر بالرغبة فى الانتقام من نظام يعتقل الرفاق وبين سياسى عاقل يزن الأمور وزنا موضوعيا.

ثم سألنى بغتة لماذا تلوثون الصور، انه عمل احتجاجى ولكن ماقيمته النضالية، ثم من يعرف أنكم انتم الذين فعلتموها..

دق الباب الدقات المتفق عليها، دخل «محمود العطار» ليجد شريكا جديدا فى المسكن، عندما سألت الضيف:ألست جائعا؟. أجاب بسؤال لم يخطر ببالى «أتعرف أن اليوم هو عيد ثورة اكتوبر الاشتراكية» بالخلو بال هذا الرجل (فيما بعد تعلمت كتقليد نضالى أن المناضل يجب أن يتجاوز مأزق اللحظة وأن يخرج نفسه منه وعن عمد..كى يستطيع أن يتماسك إزاء الحدث) البقال المجاور ناولنا عدة زجاجات من البيرة، وأحضرت ماتبقى من طعام أتانى من أسرتى بالمنصورة.لم أزل أذكر دهشته عندما تربعت تفاحات ثلاث على المائدة ، تباسط معنا صارت ضحكاته تعلو وهو يؤكد أنه لم يأكل تفاحا من قبل. نحن نوبيون، نعيش على هامش الكون،أن تكون نوبيا فقيرا فذلك شىء يصعب ملاءمته مع حياة الترف!. امتد الحديث قال إن أول مرة رأى فيها التفاح كانت بعد حضوره القاهرة بعدة سنوات، سمع عنه، استخدمه كوصف جميل فى أشعاره راه مرة أو مرتين، لكن أن يتذوقه، لم يطمح إلى ذلك، نحن نوبيون..! هل تعرفون معنى ذلك؟.

الحفل مستمر، شربنا البيرة، تفاهمت عيناى مع عينى محمود العطار، تركنا له التفاحات الثلاث؛ أصر أن نقتسمها، ورفضنا ، بدأت أتلو شعرا حفظته أثناء معتقل هايكستب، قصيدة عن وثورة اكتوبر، القيت أثناء احتفال اقيم بالسجن بهذه المناسبة..أذكر منه الآن شطرا يؤكد أنه إذا كنا نحتفل الآن بهذا العيد فى السجون.. فغدا يحتفل الشعب به «فى النوادى وفي النقابات جهارا».

كنت أخطىء، وأنسى وأتعثر، وكان يكمل يصحح ويواصل..عندما انتهيت سألنى: أين حفظت هذه القصيدة؟ قلت فى هايكتسب، صاحبها اسمه محمد خليل قاسم لكننى لم أره فقد ترك القصيدة ورحلوه إلي معتقل الطور، بدأت حكايات المعتقل فجأة سألنى إذن أنت رفعت، ذلك الولد الصغير الذى كان أول من دخل المعتقل بشورت قصير..لقد كنا نتندر فى الطور بالطفل الذى اعتقلوه ،إذن هو

أنت قام واحتضنني، همس في أذني:أنا محمد خليل قاسم ، حذار أن تشوه شعري بهذا الإلقاء المرتبك مرة أخرى، وضحكنا طوال الليل.

كان يبقى أغلب الوقت بالبيت، لكنه نجح في أن يجعل من نشاطنا شيئا أكثر فاعلية وأقل انفعالا، بدأ يوجهنا ويسألنا لماذا تكتفون بهذه المجموعة من الطلاب، ولماذا لايعود من هو غير مطلوب القبض عليه إلى الجامعة لينشط وسط جموع الطلاب..

وبدأ النشاط الطلابي من جديد..سامي برهام، يحيى عبد الرشيد، نهاد أنور، أنور أبو العلا، محمد توكل، عباس رفعت، فؤاد يوسف، سليمان سيداروس وأسماء أخرى تساقطت من الذاكرة، والتهبت حقوق عين شمس بعمل طلابي نشط أثمر لجنة قوية «للجبهة الوطنية الديمقراطية» وفديون ومصر فتاة وشيوعيون ومئات من الطلاب الوطنيين، والتي استمرت حتى بعد اعتقالنا في قيادة عمل طلابي نشاط أثمر انتفاضة حقوق عين شمس مارس ١٩٥٤ والتي استمر فيها اعتصام طلابي مثير لعدة أسابيع، كانت ميكروفونات المدرجات مركبة على جدران السور لتذيع بيانات وأناشيد وهتافات على كل سكان حي العباسية..قطعوا عنهم النور، استخدموا مولد الكهرباء الخاص بكلية الهندسة..(كانت الأنباء تأتيني وأنا في سجن مصر فأعيد الفضل لصاحبه وكان ساعتها في السجن الحربي).

كان لايخرج إلا قليلا، لكن خيوطا سحرية عديدة كانت بين يديه، اتصالات بالحزب السوداني، علاقات بالعديد من أصدقاء حدتو وعشاقها، امكانيات فنية لابأس بها.. ذات يوم عدت إلى المنزل وجدته مبتهجا قال هل لديك مكان لرفيق هارب.. وكنا نمتلك شبكة من مساكن الطلاب من أبناء الأقاليم قلت نعم (عودني ألا أسأل عن أسماء أو معلومات) قال في المساء ستوصل رفيقا إلى هذا المكان، لوح بأصبعه الأسمر: على مسئوليتك كان الهارب أحمد طه.. وأخذته إلى بيت على مجاهد رفيقنا طالب الطب..

تفرقت السبل،تركنا بعد أن اطمأن إلى ضبط إيقاع العمل، وبعد أن تكونت لجنة منطقة المعز من جديد، ولم يعد ثمة مجال بعد لأعمال انفعالية أو غير مخططة.

بعد فترة قبض عليه. إلى السجن الحربي أرسل هو وزكي مراد وأحمد الرفاعي ومحمد شطا وآخرون، أمسكت بالقلم لأكتب منشورا أدين فيه الاعتقال، وأدين إرسالهم إلى السجن الحربي، تدفقت كلمات ساخنة كرصاص مصهور، فجأة وجدته يحذرني: لاتكتب منفعلا، اكتب بموضوعية..وكتبت من جديد.

كنا في سجن مصر، وأتوا إلينا من السجن الحربى، ومعهم ضجيج «بيان السجن الحربى» واشتعلت الاتهامات بالخيانة والعمالة والرضوخ لمطالب الديكتاتورية العسكرية.. الموقعون علي البيان عديدون لكن من بينهم «محمد خليل قاسم» سحبته من يده وأغلقت باب زنزانته وطلبت إيضاحا ، قال: ببساطة أستطيع أن أتنصل من المسئولية بالقول بأن اعضاء المكتب السياسى هم الذين كتبوا ووقعوا لكننى مقتنع بما فعلت، وعلى استعداد أو أواجه الجميع برأيى، حذرته من ذلك فالغليان ضد البيان يسود الجميع حتى أقرب الناس إليه، قال كلمة لم أزل أذكرها، ولم تزل تثير لى المتاعب لأننى أتمسك بها..قال «المناضل الذى لايستطيع الدفاع عن موقف اتخذه لايستحق أن يكون مناضلا، وخير له أن يذهب إلى بيته ويتركنا».

بعد نقاش طويل سألنى«وأنت ما هو موقفك؟» قلت. لست مقتنعا بصحة مافعلتم، ولست مقتنعا بأنكم خونة، وسأسكت، لن أتكلم ولن أتخذ موقفا».

لقننى الدرس الثانى.. «هذا أتعس موقف يتخذه مناضل، خذ موقفا ضدى فهذا أفضل، فمن القول صائبا أم غير صائب يمكن للحقيقة أن تبرز ويمكن للكادر أن يتعلم، أما الصمت فهو جبن

..اتخذت موقفا أعلنته للجميع: «أنا ضد البيان»(وكنت مخطئا فى ذلك) وضد اتهام الرفاق بالخيانة» وغضب منى الجميع إلا هو.

بدأت الاستعدادات لمهرجان محاكمات الدجوى.. ضابط موتور، يقال أنه أشتهر بالجبن فى معارك القتال، أستأسد على منصة المحكمة، وقررت حدتو أن تواجهه بما يستحق، سلسلة من الدفاعات السياسية الشجاعة، كنا قد أصبحنا صديقين حميمين، أخذت أعاونه فى نسخ دفاعه السياسى على ورق البفرة حتى يمكن تهريبه إلى الرفاق خارج السجن..

بعد التمام. أغلقت الزنازين، وأشعلنا نارا لنذيب الأسفلت الذى يغطى أرضية الزنزانة ونكشف عن مخبئنا حيث الكتب والتقارير الحزبية والأوراق والأقلام. اسندت غطاء جردل الماء على ركبتى وأمسكت بالقلم بينما ثبتت ورقة البفرة جيدا بطرف أصبعى، أخذ يملى علىّ «نص دفاع المناضل محمد خليل قاسم» توقفت معترضا على كلمة «مناضل» قلت نحن نقولها عنك، لكن لاتقلها عن نفسك، صمم على موقفه «أنا مناضل، أنا لم يبق لى من الحياة سوى هذه الكلمة، لم أكمل تعليمى حتى أصبح دكتورا أو حتى أستاذا، منذ السنة الثانية فى كلية الحقوق قبض على، ومن ساعتها وأنا من سجن إلى سجن إلى هروب إلى سجن، أسرتى تستنكرنى، ليس لى سوى أختى زوجها حلف بالطلاق ألا ترانى، وألا تراسلنى، وألا تذكر اسمى، يقولون لى أنها تكتفى ببكاء المقهور، دموعها أبدا لاتجف. ماذا

بقى لى سوى الحزب والنضال، وماذا سآخذ سوى هذه الكلمة؟..

اتركها لى.

تركتها له، وأملى دفاعا شجاعا.. شجاعة مزدوجة، فقد أدان أخطاء النظام إدانة حاسمة قاسية، وتهكم على القاضى «الجنرال» كما أسماه تهكما لاذعا يكفى للحكم عليه بالاعدام، وفى نفس الوقت تمسك بموقف حدتو المبدئى من ثورة يوليو فى مواجهة غوغائية العناصر اليسارية المتطرفة..

الحكم أتى فوق ماتوقعنا، ثمانية سنوات أشغال شاقة..

قبلها كان قد أمضى خمس سنوات..

لم تفارقه ابتسامته، بل وعلى الفور ارتجل قصيدة تدعونا للتماسك والاستمرار. كنا نودعهم وهم يغادرون إلى سجن طرة.

اصطففنا فى الدور الأرضى. ألبسوهم الملابس الزرقاء، ملابس المسجونين، ومنحوهم أوسمة الأشغال الشاقة قيودا حديدية تلتف حول الوسط، وتمتد لتقيد الساقين، وسيبقى هذا «الحديد» كما يسمونه ملاصقا لأجسادهم ثمانى سنوات..كانوا عديدين: زكى مراد- محمد شطا- شريف حتاتة- حليم طوسون - محمد خليل قاسم وانطلقنا نغطى دموعنا بأناشيدنا...

ذ يترك السجن رفيقى

إذ ينطلق من قيدنا

كالريح فى الجو الطليق

اذهب إلى رفاقنا

قل لهم أننا ننتظر

كر الليالى والنهار

حقدنا كاد أن ينفجر

والفجر يبدو ينادى

هيا ارفعوا أعلامنا

قد خضبت من دمنا

هيا ارفعوا أعلامنا

قد خضبت من دمنا

توقفنا ، لم نكمل النشيد تغلبت الدموع، انفجر بكاء الرجال. هم لم يبكوا كانوا، أكثر تماسكا ، كانوا يشجعوننا، ويمنحوننا القدرة على الاحتمال.

وفى عام ١٩٥٥ تتم حركة تنقلات فى السجون، ونلتقى ونقترب من بعض أكثر، اكتشف أن لغتى العربية ركيكة..جلس معى نحفظ الشعر سويا، ونقرأ فى كتب الأدب ونقرأ القرآن، واكتشف أننى لاأعرف من الانجليزية إلا حصاد طالب ثانوى. فجلسنا معا ندرس الانجليزية، وبعد فترة أعطانى مثالا صغيرا وطلب إلى أن

أترجمه.. كانت الترجمة متعثرة، فتحت القاموس ألف مرة، وارتبكت الأسطر بالانجليزية أكثر يسرا ومع ذلك فقد أجلسنا في المساء لنحتفل «بمولد مترجم جديد» كما قال هو،وتابعت بعدها بحماس دراسة اللغة الانجليزية وترجمت تحت اشرافه عدة كتب..

هكذا كان يعتبر أن السجن مدرسة..كان ينصحني: بإمكانك أن تضيع وقتك في التنس أو الكوتشينه أو الشطرنج، لكن انظر إلى ما بعد سنوات السجن. أن كنت تريد أن تواصل أقرأ أو تعلم. واتبعت نصيحته.

ودرس آخر..

كنا في «جناح» لم نزل وحده، «المتحد» تمت وفي أثرها وحدة ٨يناير ١٩٥٨، في السجن تمت الوحدة، والوحدة في السجن أكثر صعوبة، فالمواجهة يومية، والخصوصة هي الخبز اليومي، لكن الوحدة تمت، واختلفنا أنا وهو مع المسئول. كان زكي مراد قد رحل إلى سجن قنا للعلاج، وبقي «م.ش» مسئولا، وكان متشددا، وكان الطرف الآخر يرتكب أخطاء جسيمة، وفي كل لحظة، واصطدم التشدد بالأخطاء..وكادت الوحدة أن تنفجر.

جلس قاسم معي، أو بالدقة أجلسته معي وسألته ماذا سنفعل؟ قال نحافظ على الوحدة، نغفر الأخطاء، مرة ومرتين وعشرا. الوحدة تساوي أن نحتمل عشرات الأخطاء من أجلها ولسوف يواصل الانقساميون أخطاءهم سنعلمهم، سنزجرهم، سنعطيهم ألف فرصة للتراجع عن أخطائهم.. فإن استمروا سنركلهم بأقدامنا ، ولكن بعد أن تستريح ضمائرنا إلى أننا قد أعطيناهم فرصة بل وألف فرصة وساعتها، سينقسمون عراة من أي مبرر، ومن أي تأييد ومن أي سند.. سيخرجون أفرادا بلا سند تجللهم أخطاء لاتغتفر، ولاتبرر، واصطدمنا بالمسئول، ورفضنا تشدده، وتحملنا اتهاماته، وكنا على صواب.

مرة أخرى تتفرق السبل.

تنتهي سنواتي الخمس ويفرج عني، ويبقى له هو ثلاث

ونعود لنلتقي بعد رحلة شاقة.. افراج، هروب، سجن ، تعذيب، ثم محاكمة عسكرية وخمس سنوات أخرى..وهذه المرة أشغال شاقة.

نلتقي في الواحات ولكن في سجن المحاريق وكنا في عام ١٩٦٠.

كان لم يزل كما هو. كما التقيته تحت المطر عام ١٩٥٣..نفس التقاطيع الجهمة، والروح الحلوة.شعيرات بيضاء أضاءت هامته، لكن القلب لم يزل فتيا.

كان يكتب روايته «الشمندورة» وكان فزعه الحقيقي أن يحدث تفتيش وتصادر الأصول. وتضيع و روايته، كان يبرر فزعه لي..«لم أتزوج،ليس لي ولد، إذا نشرت هذه الرواية ستكون هي ماتبقى مني..» (وكأنه كان يقرأ المستقبل). كنت أداعبه، وأراوغه ثم عرضت عليه مشروعا..أن ننسخ الرواية فصلا فصلا على ورق البفرة ثم

نرسله إلى الخارج.

أبدى عدم تصديقه لهذه الفكرة الخرافية، من يحتمل أن ينسخ مئات الصفحات على عشرات الآلاف من أوراق البفرة، ترددت قليلا، ثم قررت أن أرد للرجل بعض دينى نحوه.. وقلت أنا. تراكمت مخاوفه وكيف سنهربها إلى الخارج؟ وإلى من؟ وهل تضمن أن يتم الحفاظ عليها حتى نخرج؟ تعهدت أن أرتب له الأمر كله.

وتطلب الأمر تعاهدا سريا، فحتى داخل السجن لابد من ترتيبات سرية، ذلك أن تهريب كميات من ورق البفرة ستغرى الآخرين بالمطالبة بالمثل، كما أن تهريبها لخارج السجن سيغرى الآخرين بالمطالبة بإرسال ما قد يرونه أكثر أهمية.. رسائل شخصية أو حتى رسائل ذات طابع سياسى..

نظريا حللنا كل شىء فى أول جلسة، لكن الصعوبات كانت أكثر من مرهقة، وللمرة الأولي استخدم مسئوليتى عن بعض العمل السرى فى السجن استخداما شخصيا، كنت أسهم فى مسئولية التهريب من وإلى السجن، ووضعت مسألة «الشمندورة» فى مستوى المسائل الأكثر أهمية..كم من الوقت، كم من الساعات، والليالى، استغرق الأمر، لاأدرى، كنا نجلس القرفصاء على أرض الزنزانة وقطعة ملساء من الخشب على ركبتى، هو يمليني وأنا أنقش على ورق البفرة، أكوام من ورق البفرة كتبت ثم لفها بعناية مدربة، أرسلت إلى الخارج، إلى ليلى الشال (أصبحت فيما بعد زوجتى) حيث حفظتها لسنوات..وسلمتها لنا سالمة عندما أفرج عنا.

كان يبدو شاردا فى الأيام الأولى لإرسال وديعته إلى خارج السجن، وظل قلقا حتى تلقينا إشارة من «ليلى» تفيد أنها تسلمت اللفافات ووضعتها فى مكان آمن.

لكن قلقه لم يجف، ولعله لم يكن مستعدا لأن يتخلص من أية قطرة منه، وذات مساء أيقظنى، كان ينام علي برش فى أقصى أركان الغرفة، تخطى أو بالدقة تعثر فى النائمين وأيقظهم وسط سباب غاضب، كى يصل إليّ ويوقظنى ويحكى لى أنه أثناء قلقه تذكر أسطورة إغريقية قديمة تقول: خشى الفتى المحب على قلبه من أن تفتنه إمرأة أخرى غير محبوبته، نزع قلبه وخبأه فى قلب ثور، لكن الثور تاه وسط آلاف الثيران، فظل الفتى طوال حياته يلف بين الثيران باحثا عن قلبه دون جدوى.

فى البداية، دهشت، وصحت وأنا نصف نائم «ياراجل روح نام»، لكنه أفهمنى كيف يقلق وكيف يسهد خوفا على روايته، وأنه يخشى أن يخرج فلا يجدها.

أفهمته، أقسمت له، أكدت، حلفت ، لكنه ظل قلقا.

طوال فترة السجن كنت أشاكسه وأهدده بأننى سأرسل إلى «ليلى» لتتخلص من هذه الوديعة، كان يفزع ولايسمح حتى بالمداعبة فى هذا الأمر..وعندما أفرج عنا، وسلمته تلك المئات من دفاتر البفرة..احتضننى وبكى.. المرة الأولى التى رأيت فيها دموعه.

مرة أخرى تتفرق السبل، لكننا التقينا على موعد، كان يعمل مترجما فى وكالة أنباء ألمانيا الديمقراطية، تزوج، يأمل أن ينجب طفلا، لكنه سألنى..ثم ماذا؟ وفهمت مايقصد، واتفقنا تعاهدنا، وأعطانى موعدا.

لكنه لم يأت،للمرة الأولى خذلنى، كان قد رحل.

سريعا..فى لحظات فقدناه، أزمة قلبية لم تلق العناية الكافية، ارتبكت الزوجة، ولعلها لم تجد ما يكفى لاستدعاء الطبيب، اكتفت بأن كسرت بصلة وقربتها من أنفه لعله يفيق، حاولت أن تتصل بأحد منا.. لكنه لم ينتظر، كان كعادته سريع الغضب، تركنا ورحل..

وفى جنازته تذكرت عبارته فى اليوم الأول..فى ٧ نوفمبر ١٩٥٣.«نحن نوبيون نعرف معنى أن تكون نوبيا وفقيرا»..ساعتها فقط عرفت..

فريدة النقاش

بطولة الناس فى الحياة اليومية

هذا واحد من أكبر الروائيين المصريين وأخطرهم أثرا هو النوبى محمد خليل قاسم صاحب الرواية الوحيدة عن النوبة «الشمندورة» ومجموعة قصص قصيرة هى «الخالة عيشة».. صدرت الشمندورة عن دار الكاتب العربى للطباعة والنشر فى حياة صاحبها، بينما صدرت مجموعة القصص عن دار «الثقافة الجديدة» بعد موته وكان قاسم قد كتب روايته فى سجن طويل حيث حكم عليه فى إحدى القضايا الشيوعية. وجاءت بحق أول رواية نوبية فى تاريخ الأدب العربى..

و«الشمندورة» هى أيضا رواية كفاح من الطراز الأول.. هنالك قرية «قتة» وعدد من قرى بلاد النوبة التى تمثل فيما بينها كيانا وكلا اجتماعيا- تاريخيا متسقا.. تحشد قواها وتستعين بكل مقوماتها الروحية والمادية لمواجهة الطوفان القادم.. فالأرض سوف يغرقها فيضان إثر تعلية خزان أسوان.«نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرن» وهو تشبث يقوم به كيان حضارى واجتماعى متماسك ومهدد بالإندثار من خارجه، عاجز بحكم حدوده عن التناطح مع هذا الفيضان القادم، مع الدقات العنيفة على أبوابه للعالم الخارجي الذى لايأبه به.. فحكومة اسماعيل صدقى المستبدة تقرر كل الأمور بعيدا عن أصحاب الشأن ولاتأبه لشكواهم،ولاتشركهم فى شىء..

العالم الآمن القديم حيث العذوبة والخيال.. حيث اللعب والجموح والشعر هى كلها محصلة للتعامل البسيط مع الطبيعة..وشكل بسيط لإنتاج الثروة واستهلاكها..هو عالم طفولى أيضا..وأول ما يواجهنا رواية علي لسان طفل..نرقب عبر الرواية كيف ينضج ..في عالم يحبو ويصحو من نومه الجميل.

- يتردد الأغراب بطرابيشهم وبصورة غامضة على القرية حيث تكرر أيضا أشكال العذاب المريرة لأم مريضة بلا حيلة..تدافع عن حقوق ابنها ضد زوجة جديدة..وتملأ قلب الطفل«حامد» بحساسية خاصة تنضجها الأحداث والزمن وتظل هذه الأيام قابعة مثلها مثل الشمندورة..ترقب عالم الطفولة والسلام الذى يولى..إن الطفولة والسلام لا ينبثقان من زمن قديم بل أنهما يتدفقان فى الزمن المضارع

ويملأن العالم بحيوية صاخبة محدودة حقا بحدود ولكنها كاملة تماما مثل كماله الاجتماعي الواقعي.

ثمة نبع غزير فى هذا الواقع للحواديت والأساطير والصور، ثقافة مكتملة تعطى ايقاعاتها وألوانها للعالم القادم إليها بقسوة..العالم الذى يجتاحها دون رحمة.. شريفة سنيورة يتيمة يعشقها أبناء القرية جميعا..حسن المصرى الصعيدى الفتوة المشحون بقوة الحياة والذى قتل زوج حبيبته والتجأ إلى سلام النوبة..وهناك ترتطم فتوته الفوارة بأشواقها..ويتراجع المعيار الأخلاقى المحدود أمام شهامته ورجولته وقدرته المدهشة على العطاء والعمل وعلي خدمة كل بيوت القرية فى حياتهم اليومية.. وعلى الغناء أيضا.

فأى الأبطال ياترى يتفرد ويتجلى فى رواية قاسم..وأى ضمائر الحكلي يختار وأى أشكال السرد والبناء..وكيف يحل مشكلاته ليلم بكل أطراف هذا العالم دون أن يسقط قارئوه فى الملل أو يسقط هو الذى يحركه الوعى مع الموهبة فى أسر الدعاية أو الشعار ؟.

لعلنا لانبالغ اذا قلنا أنه فى تاريخ الأدب العربى الواقعى تقدم هذه الرواية مجموعة من الإجابات التى تستحق دراسات مستفيضة.ليس هناك ضمير واحد،كما أنه ليس هناك بطل واحد.. كما أن تيار الوعى يوجد جنبا إلى جنب مع السرد الواقعى المباشر... وشعر الواقع ينبثق لا من اللغة وإنما من تلك الرؤية الأصيلة والعميقة لعمق الحاجة التى تخلقها حياة الناس اليومية..

الحاجة للشعر والحلم واللعب ومباهج الخيال.

يتجلى الاحتياج للأساطير والحواديت فى انتظار الكارثة المحدقة..فى رؤية وحلم الطفل حامد وهو يقرأ على أهله قصة «سيف بن ذى يزن» وكيف خلق الله السود والبيض..ولكنها سرعان ما تشتبك مع الواقع الحى لتكشف عن هذا الاشتباك العميق والمنسوج بمهارة، كيف أن هؤلاء السود الفقراء الذين غضب عليهم يوما أبناء حام فى الحدوتة؟

(يعملون فى الحل والترحال خدما عند أولاد سام خدما فى كل مكان عند أولاد سام!! صدقى والملك وبركات أفندى والمستر هيس»؟.

وهكذا ترتد السمة التراثية فى استخدامها الجديد إلى أصلها فتكشف لافحسب عن الواقع القائم خارجها وإنما عن أصل العلاقة القديمة بين العبيد وملاك العبيد، عن العلاقة بين الفقير والغنى.

وفى واقع الحال يهاجر أبناء النوبة.. ولرحلة الهجرة طقوس وللعودة منها طقوس..والفقر يحكم قبضته عليهم، يترك الزوج زوجته والأخ أخته والأب أبناءه

ليضيعوا في القاهرة ليبرز من بينهم ابن «حسين طه» يسعى لقتل رئيس الوزراء.. ويفشل، وتتعدد أشكال كفاحهم لوقت الفيضان صيفا أو لرفع قيمة التعويضات التى تدفعها الحكومة حينا آخر.. لكن قوة الحياة الجديدة القادمة بدونهم.تقهرهم..يرحلون إلى البر الآخر..جماعات يرحلون..تماما كما عاشوا جماعات.

فالخطر الخارجى لايهدد فردا بعينه بل يهدد الكل الاجتماعى برمته فيستنهض كل البطولة فيه، وتتدفق الرواية بسبب هذا البطولى المميز ويوثق الصلة بأشواق الجماعة، بطموحها وعملها، وحيث التميز الخاص بكل شخصية هو جزء من تفرد ثقافة متكاملة صنعها الناس عبر التاريخ الممتد حتى زمن الصدام- فى قلب واقعهم..وتتوزع على أبطال عديدين.وفى أشكال متباينة غنية ومتنوعة..وخاصة بكل منهم في ذات الوقت.

ففى صنع الملحمة التى هى شكل للتعبير عن بناء اجتماعى جماعي كامل أو ينهض فى طور الاكتمال، ينشق عادة من قلب الكلية الاجتماعية التى تتشكل فى جماعة انسانية ذلك البطل الذى يكشف لكل الناس عن قدراتهم غير المحدودة، قدراتهم على المقاومة والعمل، على الحب النموذجى والنضال البطولى على مواجهة الطبيعة والأعداء، على مجاهدة الغرائز الصغيرة، على الإبداع بالمعنى الكلى..حينئذ نجد لتعبير «الجماهير المبدعة»، تجسيدا فذا.ينساب الشعر دون أن نعرف مؤلفه..ينبثق الرقص تعبيرا عن أشواق الكل.. تقام جبانة جماعية يروى الجميع صبارها.ويشارك الجميع في الزفاف والمأتم على ما بينهم من فروق بسيطة فى مستوى العيش.. وفي مواجهة الموت المحدق بالجميع.تماما كما أن مباهج الحياة البسيطة تكاد تكون ملكا للجميع..بالرغم من بذور التميز»، تبرز الشمندورة كرواية كفاح أيضا..حيث نتبين عبر تطورها تكثيفا وصعودا تلك الوحدة الفاعلة دائما وأبدا والتى تخضع لحالة تغير مستمر.. أى الوحدة بين الفريد والمشترك..والكل فى مواجهة الخطر.

يكون طبيعيا للغاية أن يتوزع الراوى بين كل الضمائر ليقص ـم كل الشخصيات وباسم النخيل الذى هو عمود الطبيعة الفقرى فى البلاد المهددة بالغرق..ويبتدى التكامل الرروائي حين تخرج الصور والتشبيهات وتركيبات الجمل خاصة بكل شخصية ومن واقع حياتها ..فيتراجع الراوى الكلى الحضور الذى يهيمن على العالم لتبرز خصوصية كل ما فى العالم بقوة أخاذة مستمدة من عالمها الخاص، مرتكزة أيضا إلى العالم الكلى.

إن هذه السمة البارزللغاية تقدم ردا عمليا على كل الذين يقدمون الشخصيات البسيطة فى الحياة الواقعية بلغة الأفندية والمثقفين فيتجاهلون- وربما لايعرفون أحيانا أن هؤلاء الناس حتى وهم محدودو الثقافة بالمعنى العصرى- أن لهم ثقافتهم. حكمتهم ورؤيتهم للحياة التى تتشبع بمفردات واقعهم وعلاقتهم بالطبيعة وببعضهم البعض وهم يصنعون الحياة..

فى الفصول الأخيرة وعبر الصراعات الثانوية التى تصب فى المجرى الرئيسي للصراع ضد الكارثة يتراجع الوجود المحسوس القوى للطفل حامد الذي يكبر، فقد دب الشيب المبكر فى القرية، ولكنه الشيب الذى لايجعل الشيخ فضل رغم قسوة الحياة ومرارتها..رغم قطع ساقه يتخلى عن ذلك النزوع شبه الغريزى البسيط. أن ينشب أنامله فى التراب ليشمه..ولايمنع فاطمة الأم المصابة بالصرع والتى صنع من انهيارها العضوى لحظة واحدة بدت أبدية،وهى تصنع خطوطها على التراب ،لايمنعها من أن توقف بوعي شبه صوفى حالة انهيارها لتدعو حامد الصغير وهو على أعتاب المراهقة :أفق ياحامد قبل أن يفيق النيل.

وأمام هذه القوة الروحية الهائلة التي تتوزع علي عناصر الملحمي جميعا ولايستأثر بها بطل واحد- يعود حامد ليتخلق من جديد في قلب الوعى بنفسه.. بمكونات جسده بأشواق هذا الجسد، وبالأفق الذى فتحه هو بدأبه الشديد، وبعناده المتصل لكى يتعلم في المدرسة الحديثة، وهو يقاوم زوجة تريد أن تدفعه للعمل خادما فى بيوت القاهرة، ويقاو م أبا يريده مجاورا فى الأزهر..إنه فى معارك الطفولة والصبا يتعلم أيضا صنع الحياة... إن الواقعى الملموس بقوة فى هذه الرواية يسهم بكل تفصيلاته فى نقل هذه الكلية الاجتماعية في بلد نوبى صغير إلى مرحلة أخرى تدخل هى نفسها بمقتضاها فى نسيج عالم جديد، وتدخل بكل مفرداتها بأحزانها وأشواقها بأغانيها وبطولاتها، بعلاقتها الخاصة بالطبيعة لتبنى لنفسها مرتكزا جديدا فى الصحراء فى حالة جديدة إذ تتغير صورة النجع. إن هذا التغير الذى يتم عبر جزئيات وقائعية صغيرة تتكثف من قلبها وعبرها الرموز لتتجاوز الوقائع للواقع الخاص ثم لتلحق فى خاتمة المطاف فى آفاق ما هو إنسانى عام.. أى أنها تحاكى الحياة تتوصل فى ان واحد إلى العمومى والشامل فيها..فيبدو الطفولى بصفائه وبراءته طفولة للبشرية.. التى تكبر مع النخيل والقمر.. وكأنما العالم الجديد يستيقظ..فى تلك البرهة من الزمن بين فجرهم ..فجر هذه البشرية لقوة شموله وإيمانه وبين ضحاها، ضحاهم، كبر حامد ودخل المدرسة.

النجع يسعى بكل المقومات، بروحه الجماعية الخلاقة...بفضائله ونقائصه..وكله مشبع بروح البطولى التى تحقق فى الحياة اليومية لإناس بسطاء يدبون على هذه الأرض فينفتح أمامهم الملحمى من أوسع أبوابه وأغناها.

وتبقى الشمندورة رمزا باهرا لهذه البطولة اليومية فى حياة الناس....سواء حياتهم الجديدة أو القديمة.. الشد والجذب والنضال دائما وأبدا من جديد..«وقبل أن يختفى النجع رأيت النيل يبرق بثريات باهرة تصعد النيل، ثم حانت منى التفافة جانبية إلى الشمندورة الحمراء فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها إلي قاع اليم.ترتطم، ثم تهدأ..لتعاود النضال من جديد!!».

. انتجت الثقافة الخاصة ببلاد النوبة التى تكونت عبر تاريخ طويل وضربت فى أعماق جنوب الوادى لتمتد إلى شماله عددا من خيرة مثقفى مصر ليسهموا بصورة أكبر كثيرا من الكم العددى لأبناء النوبة، وليصبح هذا الإسهام علامة مضيئة في ثقافتنا المعاصرة، فكان من الطبيعى أن تخرج هذه الرواية العظيمة من عيون الأدب الواقعى المعاصر لتضاف إلى الإنتاج الفنى فى ميدان الغناء والفن التشكيلى المتنوع.ولتقدم ولتضيىء لنا بعض الجوانب النامية فى هذه الحقيقة:

وهى لماذا اندفع المئات ربما الآلاف من أبناء النوبة إلى طريق الاشتراكية والنضال من أجلها مقاتلين على دربها الطويل.. إنهم يرتكزون على ثقافة أصيلة متكاملة الملامح، ديموقراطية، صنع عبرها الناس رؤية لعالم توحد ناسه عبر شكل بسيط للملكية الذوات الصغيرة المحدودة، فكانت أقرب إلى المجتمع البدائي القديم الذى صنع للناس جنة صغيرة.. حيث نبع الحب صاف وحيث الحياة متدفقة منذ القدم..وحيث تسقط حواجز الاستغلال الضارى من الإنسان لأخية الإنسان، فقدموا شكلا عصريا وتحضرا للعالم البدائي القديم أشبعوه حبا وألوانا زاهية وفرحا بالحياة.. وحين خرج الأبناء من اعطافه الحانية ناضلوا فى قلب العالم الذى وفدوا إليه فقراء ليقيموه من جديد على نسق الجمال البسيط. والفرح الوفير الذى يضمه عالمهم.

يبقى أنه على الباحثين ودور النشر أن يعتنوا عناية خاصة بما هو معرض للاندثار من منتجات الأدب النوبى وفنونه، وخاصة الأعمال الوفيرة التى كتبها محمد خليل قاسم ولم يقدر لها أن ترى النور، وبعضهم يجدون فى رفيق وطنه ونضاله سيد اسحق معينا ومصدرا هاما لأعماله وتاريخ حياته وقصة موته المبكر الفاجع قبل أن يحقق الكثير من الوعود التى حملتها لنا الشمندورة.

د.صلاح السروى

جدل الارتباط والانفصال

ترسم رواية «الشمندورة» صورة كلية لجماعة بشرية تواجه تحديا مصيريا فرضته عليها تغيرات محيطية تقع خارجها، راصدة انعكاس هذا التحدى على إنسان الجماعة ، حسب تبايناته الروحية والأخلاقية ومواقعه الاجتماعية المختلفة، ومايطرحه ذلك من استجابات على نفس القدر من التنوع والاختلاف. منتجة بذلك بانوراما إنسانية بالغة الاتساع والشمول والتأثير. فى نفس الوقت. وهى اذ تطرح مصير هذه الجماعة البشرية المحددة- كبؤرة مركزية- فإنها تتجاوز ذلك ، بإيحاءاتها ودلالاتها الكلية، إلى مصير النوع البشرى برمته، من حيث تجليات ودلالات العلاقة الصراعية بين الانسان والانسان، من ناحية ، والانسان والطبيعة، من ناحية أخرى، بما يجعل من قدرة الإنسان على التواؤم والتأقلم مع مستجدات الواقع حوله، وبنفس القدر، قدرته على المواجهة والتجاوز له، معيارا أساسيا لاختيار جدارته بالبقاء والتطور.

يتبدى ذلك من خلال التناول الفنى للواقع التاريخى لإحدى قرى النوبة التى أغرقت كنتيجة لتعلية خزان أسوان فى أوائل الثلاثينيات، فى اشتباك مع مجمل تغيرات الواقع السياسى المصرى، الذى قام على ارتباط الهم الاجتماعى بالهم الوطنى. وهو الأمر الذى يساعد الرواية على طرح رؤيتها التحررية المنحازة للانسان والمؤمنة بحقه فى الحياة والحرية وجدارته بهما.

إلا أن الرواية لم تتوقف عند المظهر البارد للحقيقة التاريخية، وإنما تعقبته إلى رصد آثاره فى أعماق الانسان ، مستخدمة فى ذلك كل المفردات الأسطورية والمعتقدية بالغة المحلية والخصوصية، وكذلك المكونات المزاجية والأخلاقية لهذه الجماعة، فمنحتنا بناء روائيا متسقا، تمكن من طرح «رؤية العالم» لدى هذه الجماعة البشرية، عبر تحديد «وعيها القائم» وتحوله فى خضم تجربة الحدث الى «وعى ممكن» مما ينبئ بإنتاج مصير مغاير لما أفضى إليه وضعها السابق على

التجربة الحديثة.

فى هذا الإطار تطرح الرواية قضيتها ، التى يمكن تلخيصها فى النموذج البنيوى:

«الارتباط- الانفصال» ، وما ينتج عن الجدل القائم بين طرفين من طرح لإشكالية درامية حادة تأخذ بزمام شخصيات الرواية ، خالقة توتراتها، وبنياتها الصراعية، وطرحها المعنوى- الروحى والفكرى، على السواء.

١

تتمثل هذه الإشكالية فى الوضعية المادية والاقتصادية الفقيرة لإقليم هذه الجماعة، رغم غناها الروحى، وهو الأمر الذى يجعل أفرادها دائمى النزوح إلى حواضر الشمال (القاهرة، والاسكندرية.. الخ)، للعمل... ولأنهم لايتقنون مهارات مهنية محددة (لعدم انتشار التعليم)، فإنهم يقومون بأعمال هامشية، ومن ثم يعانون- إلى جانب آلام الغربة- الاحتقار والمهانة وعدم تحقيق الذات، وهو مايجعلهم دائمى الحنين إلى موطنهم وفى حالة ارتباط دائم به، حتى وإن بعدت المسافات وطالت السنون، حتى إذا عادوا، أخذوا يعانون غربة وآلاما من نوع آخر. فقد تغيرت سلوكياتهم وأنماط تفكيرهم واستهلاكهم، فإذا بهم وقد استبدت الرغبة فى السفر من جديد مهما كان الثمن الذى سيدفعونه، أو ستدفعه عائلاتهم من بعدهم، هكذا فى متوالية تعكس أزمة ومأساة إنسان هذه الجماعة.

تتجلى هذه الأشكالية بوضوح فى نموذجين من شخصيات الرواية العديدين، أولهما: «برعى» ذلك الشاب المتحمس، الذى ساهم بفعالية فى حركة الاحتجاج على قلة التعويضات التى تقرر منحها لأهل القرية عن الأضرار التى ستصيبهم من جراء «الطوفان» الناتج عن التعلية، والذى ذاق مرارة السجن نتيجة لذلك، عندما يسمع حكايات «العائدين» من استبداد سادتهم وغلظتهم، فيقرر عدم السفر قائلا:«كله الا الخدمة فى البيوت. أفضل الموت هنا جوعا فوق هذه الصخور على إذلال نفسى. السادة يوقظوننا هناك بأجراسهم فى منتصف الليل ويبددون حلاوة النوم. ويجبرونك على حمل أحذيتهم . كلا ليس فى وسعى احتمال كل هذا الذل، أما الذين يقبلون فإنهم أذلاء». ورغم التبريرات التى يسوقها من جربوا السفر، التى تدور كلها حول الاحتياج وقسوة الحياة فى النجع، إلا أنه يصر قائلا:« ولكننى لا أكاد أتصور نفسى منحنيا أمام كلب» ص ٤٨٣. غير أنه بعد الطوفان

والحريق، اللذين ألما بالقرية فى نهاية الرواية يضطر الى السفر، قائلا لنفسه:« ربما أجد عملا فيه صون لكرامتى» ص ٤٩٩. أما النموذج الثانى فهو «جمال» الذى يسافر إلى القاهرة قبل زمن الرواية، وهناك يتزوج من خادمة بيضاء يكتفى بها عن العالم وعن أهله ، غير أنه يعود بعد غيبة طويلة، ذاقت خلالها أمه وأخته مرارة الهوان والفاقة، ثم لا يلبث أن يسافر الى القاهرة مرة أخرى تحت ضغوط زوجته، التى لم تعد قادرة على مواصلة الحياة(هنا) معبرة عن رغبته هو نفسه. وبعد أن كانت أمه تلح على أن يطلق تلك الزوجة «البيضاء» المتعالية ويبقى معها، إذا بها تكتفى بأن تقول:« إحلف لى ياجمال أنك لن تنسانا، فأقسم بالله، قالت له: بقبر أبيك. فأقسم بقبر أبيه،(....) ثم بكى واختلطت دموعه بدموعها». ص ٤٩٨. إن هذين النموذجين ليلخصان بصورة دالة تنازع القطبين اللذين يجسدهما النموذج البنيوى الذى اقترحناه: (الارتباط- الانفصال) إنه الاحتياج المزدوج للرحيل والاقامة فى نفس الوقت، والمعاناة اللائعة الناتجة عنهما معا، غير منفصلين. إن الموقف الأخير يثبت بوضوح أكثر هذه المعاناة، ولعله من الواضح أن الأم لم تكتف بأن أقسم بالله، بل تستحلفه «بقبر أبيه» وهو العنصر الدال على الجذور التى لايمكن الانفصال عنها ولا الفكاك من أسرها، كما يتضح من بكائهما معا (الابن والأم) مقدار شمول الحالة الشعورية التى يخلقها هذا الوضع الذى يتوتر بين عنصرى الرغبة والضرورة: الرغبة فى البقاء وضرورة الرحيل ، حتى إذا رحل استبدت به مشاعر أخرى من افتقاد للهوية والذات فى الغربة فيتخلق لديه الاعتزاز بالموطن والارتباط الحميم به. وذلك فى مقابل النقمة على عوالم الغربة، خاصة القاهرة. تلك التى تتوه فيها الخطى ويلتبس فيها اليقين، ويضطر فيها الإنسان إلى قبول ماكان يتعفف عن قبوله فى موطنه، خاصة الخدمة فى البيوت «ص ٤٨٣» بينما هم أبناء مجتمع بطريركى ذكورى يمنح الرجل المكانة الأولى من خلال ترفعه عن الأعمال المنزلية.

يبرز هذا الأمر بوضوح أكبر وتزداد حدته نصوعا عندما تصبح هذه «الجذور» ذاتها مهددة بالفناء من جراء «الطوفان» القادم نتيجة للتعلية، والذى سوف يجرف فى طريقه ليس فقط «النخيل» (وهو معطى دلالى بالغ الأهمية سوف نتناوله بعد قليل)، ولكن أيضا «الأرض وقبور آبائنا وأجدادنا» ص ٣٨. فيما يقول أحدهم للموظف المختص بصرف التعويضات. ويتكرر ذكر «قبور الآباء والأجداد» فى الرواية فى أكثر من عشرين موضعا، حتى إذا جاء «الطوفان» وغمر كل شئ بعد أن هرب الجميع من أمامه و«اعتصموا» بالضفة الأخرى المرتفعة، أصبح شغلهم الشاغل هو تلك «المقابر» التى اعتادوا زيارتها فى الأعياد، ومن ثم لم يعد العيد الذى مرعليهم بعد الطوفان عيدا بعد أن طمستها المياه:« هاهو العيد يعود وفى الصدور

شجن وفى العيون قلق لايريم(...) وأطنان الأمواج الصغيرة ترتفع فوق عظام الموتى. فأين هم اليوم؟ فمامن قبة وما من مقبرة يترحمون عليها، إنهم لم يختاروا بعد مكانا لصلاة العيد وأرواح الأجداد لابد تلعنهم. لماذا لم ينقلوا العظام معهم؟» ص ٤٦٩. وهو مايبرز بوضوح مقدار الاعتزاز بهذه الجذور، فهى تجسيد للهوية والانتماء الذى يحفظ عليهم تماسكهم ويحميهم من التحلل والذوبان تحت وطأة الهجرة، والعلاقة غير المتكافئة مع الشمال الغنى المسيطر، والذى لاغنى عنه ولاقدرة على الانفصال فى نفس الوقت.

إن الموقف المزدوج إزاء «الشمال» هو ذاته الموقف المزدوج تجاه المواطنه، فهما وجهان لعملة واحدة، وكلاهما طارد وقاس لايرحم، وإن كان كل على طريقته الخاصة، وانسان الرواية مضيع بينهما غير قادر على مواصلة الانتماء إلى أى منهما. تماما مثل «الشمندورة» التى يجسدها عنوان الرواية

٢

تبرز «الشمندورة» فى هذا العمل كرمز كلى سابغ، يشكل مجمل البنية الروائية ويحدد مراميها ودلالاتها الحديثة والمعنوية، منطلقا من أساس معرفى سابق على هذا الاستخدام، باعتبارها نقطة إشارية تقبع داخل المياه لتحديد المسافات أو الأعماق. إنها إذن كيان دلالى سيميولوجى، محدد لوجود مادى بعلاقة طافية ذات بروز دال. واذا كانت هذه العلامة تسبح فى مياه النهر المتحركة والموارة أبدا (تطفو الشمندورة- فى الرواية- للدلالة على دوامة تتوسط النهر) فإن ثباتها الوظيفى يطرح نوعا من المفارقة الناتجة عن الدلالة السكونية التى تتناقض معنويا مع الحقل الدلالى المتحرك الذى ينتمى إليه النهر، ناهيك عن الدوامة التى تتوسطه. وإذا كانت الشمندورة تحمل تلك الدلالة السكونية فإن هذا ليس ناتجا عن صفة أصلية فيها فهى متحركة طافية من حيث التكوين، وليست قارة ساكنة. ولكن ثباتها يأتى من أن هناك مايشدها دائما إلى القاع، الأمر الذى يتناقض مع صفتها المتحركة ولذلك فهى فى حالة توتر دائم بفعل هذه الوضعية التركيبية التى تكتنفها، خاصة عندما يشتد جريان النهر وما يعكسه ذلك من معان موحية باشتداد وتيرة حركة الواقع الذى يمثل النهر معادله المعنوى كعنصر دلالى كما سيتضح). يقول الراوى:«اننا نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرف. لانريد أن نعترف بالرعدة التى تسرى فى مفاصلنا خوفا من النيل والسكون الذى يلفنا..» ص٥. إن هذا التشبث بمواقع الأقدام الذى يشى بالخوف من الانزلاق إلى عالم الواقع المجهول المصطخب والمتحول أبدا- الذى يمثله النهر، يوحد بين سكان هذه القرية والشمندورة ، سواء كان هذا التشبث إراديا أو قسريا، إنه (أي التشبث) ناتج فى

كل الأحوال- عن انعدام القدرة على التفاعل القوى الواثق مع الواقع الخارجى الذي يطرح نفسه وتحولاته بقوة على عالم القرية الساكنة، ويزداد بؤس القرية واستلابها عندما تتوه بين العناصر المختلطة والقوى المتداخلة التى تشكل هذا الواقع، تماما كبؤس واستلاب أبنائها عندما يطالعون القاهرة ويتوهون بين مكوناتها. وبذلك تصبح حركة الشمندورة -سكونا واضطرابا- (إلي جانب كونها علاقة إشارية لحركة النهر» علامة على الحالة الروحية التى تكتنف سكان هذه القرية. فبعد «السكون» الذى تبدأ به الرواية جملتها الأولى:«كل شىء فى هذا الإطار هادىء ساكن» ص٥، تأخذ عناصر الحدث فى التدفق والتلاحق، وبالمقابل يأخذ النهر فى الهدير والتلاطم، وهو ما ينعكس على الشمندورة فتأخذ هى الأخرى فى الاهتزاز والتوتر، وبالمقابل كذلك يأخذ الناس فى الارتعاد والتحسب لما هو آت..

إن اهتزاز الشمندورة وتوترها إنما هو معبر (بضم الميم وكسر الباء وتشديدها) عن النضال والصراع المستميت بين النزوع نحو الحركة بفعل التيار وبين البقاء والسكون بفعل السلسلة (القيد) التى تربطها بالقاع.«إنها الطبيعة تنهى أحلامها الفجرية لتبدأ نهارا صاخبا من الأمواج الهادرة المتلاطمة فوق خد الشمندورة الحمراء الغارقة المناضلة أبدا لتتخلص من قيودها، لاتخلد إلى اليأس إلا إذا هدأت الريح واستكان النيل..»ص٦١ إن هذه الأحلام الفجرية ليست فى الحقيقة إلا الوضع السابق للتطور الذي يطرحه الحدث قبل الدخول إلى عالم أكثر صخبا واختلاطا وتوترا، وتزداد القيمة الدلالية لصخب هذا العالم عندما يأخذ طابعا مصيريا فى علاقته بالوجود الجمعى لسكان القرية. ومن ثم ، تصبح الشمندورة ذات اللون الأحمر (لون الثورة) بهذه الحركة المتوترة علما على استجابات هؤلاء البشر تجاه الواقع الماثل، وتصبح «القيود» التى تسعى الشمندورة للخلاص منها والسباحة مع التيار، هى نفس قيود هذه الجماعة بكل معانيها الروحية والمادية، التى تمنعها من السباحة- التحاور المتكافىء مع حركة العالم التى تتماس بشكل حميمى مع مصالحها.

ومنذ ذلك الحين تأخذ حركة الشمندورة بعدا رمزيا مصاحبا، على نحو تعبيرى، لجمل تحولات عالم الرواية، سواء فى البعد الخاص بالجماعة القروية أوالخارجي الذى يتجادل مع تلك الجماعة. فعندما تتحدث الرواية عن أن «داريا سكينة» وابنتها «شريفة» اللتين تعيشان بدون عائل ،إلا من قيراطين هزيلين من الأرض، قد وصلهما خبر زواج «جمال» الابن الذى سافر للعمل فى القاهرة ، من امرأة بيضاء، وهو مايشكل تهديدا مباشرا لانتمائه اليهما، وكذلك تمردا علي وضعيتهما الإثنية المتمثلة فى اللون الأسمر، إلى جانب حرمانهما من حوالاته البريدية التى

تحتوى قروشا تعينهما على الحياة، عندما يصلهما هذا الخبر تأخذان فى الكدح والعمل ليل نهار لتعويض هذا الفقد الذى سيصبح نهائيا، والغيظ يأكل قلبيهما، تختتم الرواية هذا السرد بقولها:« وتميل الشمس، لتغوص فى مياه النيل إلى الغرب، عاكسة أشعتها الواهنة على صفحة الشمندورة الحمراء التى تناضل فى الضحى، وتناضل فى الظهيرة وعند السحر، (نلاحظ أن الأم وابنتها تعملان فى كل هذه الأوقات) لتنعتق وتجرى فى النيل كما تهوى، دو ن تلك السلسلة اللعينة التى تشدها إلى القاع»ص٨٨. وبذلك تمارس حركة الشمندورة وظيفة تعبيرية، تعمق من دلالات الحدث المادى وتكسبه أبعادا شعورية ونفسيّة بالغة الأثر، متحدة فى ذلك مع باقى المكونات الطبيعية التى تقوم بأدوار تعبيرية مصاحبة. ويتكرر هذا الاستشهاد بحركة الشمندورة مع كل تطور فى الأحداث المحدقة بالجماعة القروية، دون أن تكون قادرة على الاسهام في صنعها أو مواجهتها بقوة متكافئة، وبذلك تقوم الشمندورة بدور بالغ الإيحاء بحالة المفعولية، تلك التى تمثلها الوضعية المقيدة(بتشديد وفتح الياء) وتوقها إلى الفاعلية من خلال التخلص من القيود.

ورغم أن قضية هذه الجماعة قد حسمت باستسلامها للأحداث التى تصنعها القاهرة، فهجرت القرية ليغرقها الطوفان، رغم كل ما أبدته من مقاومة، إلا أن مستقبل هذه الجماعة لم يوصم بالفناء بصورة نهائية، فمازالت هناك إمكانية للبدء من جديد وتحصيل عناصر القوة التى تتطلبها ضرورات الحوار مع الواقع المتجدد، بالعلم الذى يستطيع وحده وضع هذه الجماعة علي عتبات الندية، ومن ثم تنتهى الرواية وبطلها «حامد» ذاهب إلى المدرسة قائلا:« وقبل أن يختفى النجع رأيت النيل يبرق بثريات باخرة تصعد النيل، ثم حانت منى التفاته جانبية إلى الشمندورة الحمراء فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها إلى قاع اليم،ترتطم ثم تهدأ، لتعاود، النضال من جديد »ص٥٢٨. إن هذه المقابلة بين الباخرة الحرة الطليقة ذات الثريات، بما يوحى بالفخامة والثراء وبين الشمندورة المقيدة البائسة،، هذا الوضع هو نفسه المسئول- دلاليا- عن هذه الحركة المتوترة التى تأخذ بخناق الجماعة وبحثها الدائم عن إمكانيات التحرر والفاعلية.

٣

إن هذه الحركة المراوحة التى تمثلها الشمندورة فى صراعها الأزلى- رغم أنها تسيطر على الجو العام للرواية- لاتأتي منفردة، بل يحيط بها ويشملها كيان أعم وأكثر امتدادا فى المكان وأكثر قدما فى الزمان، إنه النهر الذى توليه الرواية قدرا غير عادى من الاهتمام، وقد أشرت إلى بعض دلالاته وايحاءاته قبل قليل،إلا أنه

هنا، وبالتزاوج مع الشمندورة (كرمز كلى) يأتي ليطرح أفقا متجاوزا لكل ماهو راهن، مكتسبا شخصيته الاعتبارية التى تقوم بوظيفتها الروائية الفنية على قدم المساواة مع كل المفردات والكيانات، سواء الإنسانية أو المادية. يأتى «النهر» ليحمل دلالة الجريان والتحول، وليعمق الإحساس بالرؤية التى تطرحها الرواية، فهو «العجوز» ص٢٣، المتجدد ، الواهن الخطى» العفى المتلاطم» ص٣٢، في نفس الوقت. وهو كذلك وسيلة الارتباط الوحيدة بالعالم، فعن طريقه يبحرون إلى الشمال، وعن طريقه أيضا تأتي بواخر الحكام الذين يخشاهم الناس، كما يأتى البريد ليحمل أخبار الأهل والأحبة بالخير والشر معا. هذا النيل الذى قامت على ضفته الحياة في القرية، هو نفسه الذى سيفيض فيصبح طوفانا يغرق نفس هذه الحياة التى قامت علي مياهه الخصيبة بذات هذه المياه. لذلك فبقدر ما هو محبوب، هو مخيف «يأوى التماسيح» وقد أوشك أن يبتلع «شريفة» بنت «داريا سكينة»، وترسم الرواية المشهد الذى أوشكت فيه شريفة على الغرق، بطريقة توحى أن هذا النيل هو نفسه التمساح بصفاته الانقضاضية الغادرة. يقول الطفل الراوى:

«وفجأة وأنا أمد بُصرى إلى الشاطىء المقابل، تسمرت عيناى على الماء وهو ينشق عن جسم هائل يخترقه من الغرب إلى الشرق، حتى وصل فى سرعة البرق إلى «الموردة» الملاصقة للساقية(..) ثم استدار دون تمهل فى حركة لولبية إلى وسط النيل يشقه تماما مثل محركات البواخر..فارتعدت فرائصى لمرأي التمساح..»ص٢٩، ثم بعد ذلك بقليل:«هاهى الفتاة تقبل على الموردة في خطى لاهثة(..) وفجأة ارتفع صوت نسائي حاد يخرق طبلة أذنى ّوينتشلنى من تأملاتى الصغيرة فى استغاثة باكية»ص.٣٠

هذان المشهدان قد يوحيان للوهلة الأولى بأن التمساح قد ابتلع الفتاة، ولكن الحقيقة التى تتضح بعد ذلك أن الفتاة قد شارفت على الغرق ولم يلتهمها التمساح، وهو الآن الذى يسمح لنا بفهم هذين المشهدين على أنهما يحملان دلالة كنائية توحي بغدر النهر ووحشيته كالتمساح، سواء بسواء.

إن النيل كما تقول الرواية:«هو الحياة، صاخبة أبد الدهر، هو الحياة الهادئة ناعمة على مر الزمن»ص٢٤٨،ولأنه هو الحياة فإن الإقبال عليه يصبح إقبالا عليها والانغماس فيه انغماسا فيها..هكذا يفعل النوبيون عندما يزفون إلى زوجاتهم ف ليس أجمل من النيل.. وهو يحتضن فتيان قريتنا(تقول الرواية) في حنان دَافق فى أمسية دافئة أوباردة قبل أن يزفوا إلى زوجاتهم»ص٢٤٨، بل إن النيل يصل عندهم إلى حد التقديس حين يقف أمامه «شعبان» العريس الجديد فى «خشوع» ويأخذ فى الدعاء في مونولوج طويل وكأنه يقف أمام الإله، وهو الامر الذى تؤكده النخلة العجوز» صراحة عندما تقول:حسب خيال الطفل الراوى، هذا الخيال الموظف

والدال بقوة)..«أما النيل فقد رقد هادئا رقدة الإله، جبارا كعهد الناس به، يرتعش لحظة كعجوز يهرش رأسه مفكرا وينتفض عند الدوامة، ثم يبتسم للشابين الواقفين على حافته في خشوع وتبتل». إن الرواية فى هذا التشخيص الذى يمنح للجمادات الحياة ويملؤها بالمعانى والدلالات يخرج بلغة السرد من طورها التقريرى التقليدى إلى إهاب شعرى محمل بالإشعاعات المعنوية والعاطفية التى تساعد فى تعميق معني الأحداث وإكسابها فاعلية تتجاوز الأثر العقلى المباشر، تستفيد من أساطير ألوهية النهر عند قدماء المصريين، وقداسته التى لاتزال قارة فى وجدان الجماعة والمتجسدة فى السير الشعبية التى يتغذي عليها هذا الوجدان، فهو نهر مبارك لأنه ينبع من الجنة حسب سيرة سيف بن ذى يزن التي يروونها فى ليالى رمضان ص٢١١. المهم هنا هو الإضافة التى يطرحها النهر حيث كونه معبرا عن الحياة بأوجهها المختلفة، فيصبح بذلك طوفانه وعبوسه مصيريا وأثره جذريا على إنسان الرواية الذى لابد وأن يتوافق معه- تبعا لوضعية هذا الانسان المادية المتخلفة- بصورة من الصور، وإلا فالفناء- حيث يلاحظ أن الحكومة بامتلاكها لإمكانيات مادية طائلة قد تمكنت من مواجهة النهر وتقييد حركته وإطلاقها حسب حاجتها من خلال تعلية الخزان، بينما يتحول غضب النهر(الإله) نتيجة لذلك إلى نقمة على من يقدسونه إلى حد (الخشوع) فيتحول طوفانا لايرحم. وبذلك تحسم الرواية قضيتها وقضية هذه الجماعة من خلال طبيعة العلاقة مع النهر الحقيقى والنهر المجازى على حد سواء.

من ناحية أخرى، فإن هذا «الطوفان» الذى أهلك القرية يبدو (وهناك وجه قرابة واضح مع طوفان نوح كما فى الكتب المقدسة) وكأنه اختبار لطاقة الحياة عند هذا الإنسان، وهو اصطفاء وانتقاء على الصعيد المعنوى والمادى فى نفس الوقت، فهو نقطة فارقة فى حياة الناس وأفكارهم وتصوراتهم عن العالم سوف تنقلب معها كل المفاهيم والأفكار والتصورات رأسا على عقب، لتحل محلها أخرى واقعية وأكثر عصرية. إنه بذلك يمثل «برزخ الخطر» الذى يجرى به تعميد هذه الجماعة، ويصبح «العبور» إلى الضفة الأخرى للنهر تجسيدا «لطقس العبور» فى الأساطير البدائية (حتى وإن لم تفصح الرواية عن ذلك)، والذى يمكن أن نقول معه إن هذا الإنسان قد أصبح قادرا على الحياة بصورة مستقلة بعد أن عبر طور الطفولة (سيتضح بعد قليل أن الطفل الراوى يمثل فى نموه البدنى والمعنوى نمو الجماعة نفسها).

٤

إن هذه الطاقة التعبيرية الهائلة التى يبثها النهر، والتى تطرح رؤية الرواية للحياة (بحلوها ومرها)، طامحة إلى مجاراتها والتعامل الندى معها، لولا القيود

التى ترسف فيها الجماعة -الشمندورة- فيتحول هذا الطموح إلى مجرد حركة مضطربة مراوحة فى مكانها، أقول أن هذه الطاقة التعبيرية الي يبثها النهر تقابلها طاقة أخرى على نفس القدر من القوة والدلالة، منتجة توازنا فنيا- بنائيا بالغ القوة والأثر على الصعيد المعنوى. تلك هى «الأرض» التى تتحد فى آن آخر بمفهوم «الأم» مرجعة على عنصر «النخيل» الذى يقوم بدور تأكيدى لمفاهيم الثبات والرسوخ، مؤكدين جميعا الهوية والأنا الجماعية التى تربط وتوحد أفراد الجماعة وتمنحهم شخصيتهم و سمتهم الإنسانى، ومن ثم نعود إلى الارتباط والقرار مرة أخرى، فتصبح الرغبة في التحرر والانعتاق مزدوجة بالانتماء وتأكيد الهوية، وهو ما يجعل من هذا التحرر فاعلية وإيجابية وثابة كما ذهبنا قبل قليل، وليس مجرد انفلات. ولذلك احتلت الأرض مكانة بالغة الأهمية فى نفس ووجدان هذا الإنسان، فقدم فى سبيل الحفاظ عليها كل مقاومة ممكنة، بداية من محاولة اغتيال صدقى باشا التى قام بها الشاب النوبى «حسين طه» وكتابة العرائض والشكاوى، وحتى التقاتل عليها بالناب والمخلب، فيما بينهم بعضهم البعض، حتى أن الشيخ «فضل» الذى بترت ساقه (بعد إصابتها) أثناء هذا التقاتل يبدو وكأنه قد أدمن رائحة الأرض، فهو دائم التشمم فى حفنات منها:«مال الشيخ فضل إلى الأرض وأنشب فيها راحة يده، وعاد بها تحمل حفنة من التراب تركها تتسرب من بين أنامله فى اتجاه الريح وتمعن خالى فيما يفعله وهمس في صوت حزين: ستقتلك الأرض يافضل، فقال هذا إنا إليها راجعون »ص٣٦٨.

وهذا الالتصاق الحميم بالأرض هو المسئول عن أن الجماعة قد عاودت الإبحار إليها وزراعتها بعد الطوفان عندما انحسر النهر، والأرض على هذا المستوى الدلالى لاتختلف عن دلالة«القبور » ولا«النخيل» الذى يدل بذاته على السموق والثبات والقدم (بكسر القاف) والخلود، حتى أنها ثبتت أمام الطوفان ص.٤٩.

وللنخيل حياة خاصة عند إنسان الرواية وفى خيال ووجدان الراوى، فهو يتحدث ويغضب ويعلق على الأحداث ص٦٤، وذلك راجع لكونه- فى نفس الوقت مصدر الرزق الأساسى للجماعة ، وموسم جمعه هو موسم الزواج والثراء واللعب. فهو إذن رديف،- من حيث أهميته الحيوية- ومتواز مع أهمية «السفر» بالنسبة لإنسان الجماعة، ومن ثم تتجسد أمامنا مفارقة النزوح والاستقرار واضحة لامراء فيها، ومتعادلة الأطراف إلى حد التوتر.

فى هذا الإطار تمثل «الأم» كذلك دلالة الثبات والاستقرار ، متماهية مع «الأرض» و«النخيل». وخاصة أم «حامد» الطفل الراوى ، فهى قد أضحت مريضة عاجزة عن رعاية ابنها أو منحه مايحتاجه عاطفيا وماديا، وهى قد أصبحت ذات

وجود هامشي في حياة الأسرة بعد أن تزوج عليها الأب من فتاة يانعة، أليست «الأرض» كذلك؟ حيث لم تعد كافية لاحتياجات أبنائها، ومن ثم تركها معظمهم وسافروا للعمل بعيدا، ولكنها رغم ذلك-كالأرض- لاغنى عنها وهى المرجع والمستقر والمآل.

يتضح هذا التماهي بين الأرض والأم أكثر عندما يأتى الطوفان، فإذا بها تقاوم الرحيل متشبثة بجدران البيت. مثلها في ذلك مثل «أمينة » و«الأعرابية» وأمهات كثيرات، لقد «وقفت حاسرة الرأس مهوشة الشعر، تسد الباب بجسدها وتذودهما عن البيت»ص.٤٤ ذلك البيت الذى يحاول الرجلان نزع سقفه وشبابيكه للاستفادة بها قبل أن يجرف الطوفان كل شيء، ثم تأخذ فى تحسس جدران البيت مستعيدة حياتها وذكرياتها مع كل ركن فيه، وحتى آخر لحظة لم تكن تتصور أنها ستفارقه، حتى عندما قال الأب« سنعود غدا لننقلكم إلى الغرب» تبسمت ابتسامة واهنة وقالت«بل ستعودون أنتم جميعا إلى البيت الكبير» ص٤٤٣. هذه الأم عندما تحاصر بالمياه من كل جانب وتضطر إلى الانتقال إلى الضفة الأخرى المرتفعة من النهر تموت بعد أن فقدت مبرر الوجود متعادلة فى ذلك مع الأرض التى غمرت بالفيضان.

****

هكذا تتحقق أمامنا البنية الجدلية الأخاذة التى قامت عليها هذه الرواية الهامة، التى تضطرم أحداثها فى المنطقة الواقعة بين «الارتباط» و«الانفصال».فمن التحول والجريان الهادر الذى لايلوى على شيء متمثلا فى النهر ، ومن الثبات والارتباط بالأرض- الأم والجذور العميقة للنخيل الضارب فيها والمستعصى على الفناء، من هذا وذاك أو بين هذا وذاك تتجسد أزمة إنسان الرواية ، فإذا به يجد نفسه في وضع المراوحة المتوترة المشدودة الذى تمثله «الشمندورة» أيما تمثيل، هذه الأزمة الوجودية، التى تأخذ بزمام الشخوص وتشكل الحدث الروائي، هى التى تفضى فى نهاية المطاف إلى تمزق روحى ومعنوى، وعجز مادى تمثل فى الكارثة التى حاقت بهم فلم يستطيعوا لها درءا، أو على الأقل تجنب ويلاتها، ولذلك أصبح أمل الفكاك من هذه الوضعية هو العنصر المتحكم فى بنية وعيهم المتحول عبر مخاض التجربة الفارقة (الطوفان) التى أثبتت أن هذه الوضعية لايمكن أن تنتج إلا كيانا اجتماعيا هشا غير قادر على التفاعل المؤثر مع مايحيط به من تحولات عاصفة.

لذلك لاتفلت الرواية فرصة استثمار المزاوجة بين شخصية الراوى الطفل وشخصية الجماعة فى التأكيد على أن إمكانية الفكاك من هذه الوضعية المتأزمة. إنما تكمن فى أن تحرز هذه الجماعة قوة من نوع ما. يقول شهاب الدين:«علينا أن نعلم أولادنا «ياوابور» ليصبحوا أطباء وأساتذة فيحترمنا الحكام. فلا سبيل إلى الاحترام غير المال ولاحيلة لنا فيه، وغير التعليم»ص٥٠٩.

ويتكرر هذا القول مرة أخرى على لسان الشيخ يونس قائلا:«لوكان الحكام يحترموننا لما نزل بنا كل هذا الشر» وعندما سأله أحدهم عن كيفية حملهم على احترامنا «أجاب:« بالتعليم»ص٥٠٩.

ولذلك شق الفتى طريقه إلى المدرسة التى يسهر عليها نخبة ممن وجدوا فيها طريق الخلاص، ويصبح انتساب «حامد» الراوى إلى المدرسة بمثابة انتساب الجماعة كلها إلى المستقبل.إن هذه القناعة الأخيرة تبرز «كوعى ممكن» كان محصلة لتجربة مريرة خاضتها الجماعة، بديلا عن وعى كان «قائما» تمثل فى النزوح إلى القاهرة للعمل الهامشى المهين.

من هنا تطرح الرواية «رؤيتها» المتفائلة للعالم، المؤمنة بالإنسان وبحقه فى العيش بحرية وكرامة.

جاء ذلك من خلال تناول فنى بالغ التعقيد والإحكام فى نفس الوقت، فرغم أن البناء قد جاء على طريقة السرد الحكائي القائم على التتابع المضطرد لحدث طولى، ينمو متطورا إلى «ذروة» حدثية، إلا أن الحدث- إلى جانب ذلك- لاينساب فى مجرى خطى واحد، يتصاعد على نحو مباشر، بل يتشظى ويتناثر إلى أحداث وشخوص فرعية، تصلح سيرة كل منها لعمل مستقل فى ذاته. إلا أن مايجمع بينها هو الحالة أو «الجو» «MiLLiO» الذى يظلل الجميع ويوحد رؤاهم للعالم، رغم اختلاف مشاربهم الروحية ومواقعهم وظروفهم الحياتية والاجتماعية، لذلك لاتعقد الرواية لواء البطولة لفرد واحد- رغم وجود الراوى كأحد شخصيات الرواية- وإنما الجماعة القروية بأكملها تقوم بدور البطل، حتى أن «النهر »و«النخيل» والأرض وقبل كل ذلك «الشمندورة» ،كل يمتلك سيرته الخاصة وعالمه الروحى ودلالته الشعورية الخاصة التى تصب فى المجرى العام للرواية - الجو. وبذلك منحتنا الرواية أبعادا مجازية ورمزية للوجود المادى والروحى لهذه الجماعة التى تم التعبير عنها من خلال بنية مجازية ارتكزت فى بث أثرها الشعورى على الدلالات الكلية للرمز وتبدياته الجزئية المتسقة، فى إحكام بالغ، مع باقى استراتيجيات النص الروائي. ولذلك حلقت الرواية - رغم ارتكازها على تحولات واقعية وتاريخية محددة- فى آفاق شعورية ذات طابع غنائي، وخلقت من مفردات الواقع النثرى للحياة اليومية كيانات أثيرية بالغة النفاذ والفاعلية على الصعيد الشعورى. إن هذا الطابع

الغنائى الشعورى ينقل الرواية من جوهرها الواقعى المرتكز على جدل «العام» الوطنى والمجتمعى مع «الخاص» الفردى الذاتى، والتعليل الاجتماعى والتاريخى للمأزق الروحى والمادى للإنسان، ينقلها من هذا الجوهر، أو قل يضفى على هذا الجوهر، بعدا رومانسيا أسيانا. ساعد على ذلك أن الراوى لايتعدى كونه طفلا لم يتجاوز سنة فى بداية الزمن الروائى السنوات العشر، فجاء رصده لهذا العالم محملا بكل ما تشعه الطفولة من رؤي خيالية وأسطورية ممتلئة بالبكارة والنصوع والضعف الطفولى الباعث على التعاطف»، إنه يمثل بذلك الحقيقة الروحية والضمير الإنسانى الناطق بلسان هذه الجماعة مجسدا درجة وعيها الضمنية فى تعبيره عنها. ولذلك جاء استخدامه لضمير المتكلم الذى يتناسب أكثر مع الاستبطان الذاتى ورؤية العالم من خلال الذات، دالا على أكثر من مستوى على هذا الصعيد..(وقد ذُكِر كيف أن الرواية قد عمدت إلى المزاوجة الرمزية بين تحولات شخصية الراوى الطفل وشخصية الجماعة».

ابراهيم فتحى

الفجّاوى

..نزلت بشواطئ النوبة باخرة عائمة تعرض لأهل قريتنا أفلاما سينمائية عن تهجير السد العالى ومشروعه، وفى ليل النوبة الساكن الساحر غنى عبد الحليم حافظ «قلنا حنبنى وادى احنا بنينا السد العالى» فتركنا الشاطئ هاربين وصرخت البنات والنساء، أعتقدنا فى البداية أن عبد الحليم روح شريرة خرجت من النهر، بعد ذلك تآلفنا مع الغناء الذى لم نتعود عليه وفهمناه وعرفنا معنى التضحية وعرفنا معنى السد، كان ذلك فى منتصف الستينيات قبل تهجير السد العالى، وعرفت يومها من رجل عجوز يعرف الكثير أن بلدناهى مصر من الجنوب حتى الشمال، وأن النوبيين لايذهبون الى المدينة- (مصر المدينة) كما كنا نسميها- كى يشتغلوا خدما فقط انما هناك رجال من النوبة يعرفون أكثر مما يعرفه أسياد المدينة وقتذاك الذين يعمل أهلنا عندهم خدما ، وعرفت ساعتها وكنت فى نهاية التعليم الالزامى، أن السيد لقب من نصيب الحاكم المستبد والمستعمر وأن الخادم لقب من نصيب المستعبد- بفتح الباء. وعرفت كذلك أن الانسان يتحول الى خادم إذا تخلى عن كيانه وسيادته لذاته، وكان عبد الحليم يغنى واغنى معه (رجعت الأرض الحبيبة الطيبة لايدين صحابها)، واشتقت إلى «القاهرة» لكى ألحق هناك بالرجال الذين يعرفون اكثر مما يعرفه الحكام الغرباء ويناضلون ضدهم!

... وبعد التهجير، خرجت من المكان المغلق، (النوبة الأولى) بذكريات الصبا الأول وطموح لأماكن أخرى وآمال أخرى، وكان أول تعارف بهؤلاء الرجال الذين أحلم بأن الحق بهم فى القاهرة.. محمد خليل قاسم ، سمعت اسمه ونحن نلتف حول الراديو لنسمع مسلسلة الشمندورة وعرفت أن هذا الرجل هو كاتبها وانه من (الفجكاوية) من جنوب النوبة ، ساعتها عرفت ماهو الفرق بين أن يغنى «أبو الفهام» أبى لأهله وبين أن أغنى أنا لهموم الوطن من الجنوب حتى الشمال، كما غنى محمد خليل قاسم. وفى بداية المرحلة الثانوية ذهبت الى قصر ثقافة أسوان لكى أقرأ رواية «الشمندورة» مكتوبة ، وقتها عرفت أيضا أن هناك رجلا اسمه «محمد حمام» يغنى لكل الناس وهناك «زكى مراد» و«شندى»، وعرفت لماذا يكون النوبى (يساريا) فقيرا يعيش على التمر والغناء وحب الوطن، وعندما رحلت الى القاهرة ، رأيت هؤلاء الرجال عن قرب وفرحت بهم كما يفرح الصغير بأبويه وأهله وملاعب صباه، لكننى لم أفرح بخليل قاسم كما فرحت بهؤلاء الرجال الأحباب، وكلما اشتقت له رجعت الى «الشمندورة» أبحث عنه فى سطورها، واسمع «محمد حمام» يحاكينى عنه، كيف كان يكتب فى سجن الواحات وكيف كان يعشق وكيف كان يتكلم؟!، ولما بدأت الكتابة جاءنى خليل قاسم ليقف حائلا بين الورق وبينى حتى تخلصت من أسره فيما كتب، وكيف بدأت لاكتب غناء آخر

مخالفا، فالسماء واسعة للعشق والغناء، وكلما رجعت الى الأهل رأيت خليل قاسم فى عيون البنات والصغار، سلاما عليك حبيبى «خليل» ، لأنى عرفت كيف يموت المغنى فقيرا وشريفا، ومازال هناك وقت وأماكن للغناء!

لشمنـــدورة



كل شئ فى هذا الإطار هادئ ساكن، فأشجار النخيل لاتهز أعطافها، والنيل يرقد تحت أقدامنا هامدا لايتحرك، والدوامة التى تتوسطه مابين الشاطئ والجزيرة الخضراء خامدة تغط فى نوم عميق.

حتى المراكبية، أصواتهم خافتة تردد أغنيات دافئة عن عذارى، وأكواب شاى فى الضحى، أعدنها على نار هادئة من خشب السنط، فلا تصل إلى أسماعنا إلا غامضة حزينة. فمراكبهم ماتزال بعيدة، ونقرات أصابعهم على الدف تخنقها غابات النخيل هناك عند المنحنى الذى يفصل شمال قريتنا «قتة» عن «الدر» عاصمة المركز، أو عند المنحنى الذى يفصل جنوب «ابريم» توأم قريتنا عن «الجنينة والشباك».

إننا نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرف، لانريد أن نعترف بالرعدة التى تسرى فى مفاصلنا خوفا من النيل والسكون الذى يلفنا...بل نتطلع إلى وجه «برعى» زعيم أطفال النجع تنفعل بما ينفعل به!..

ونحن فى حقيقة الأمر لا نفعل شيئا غير التأمل فى النيل وتحديق البصر طويلا، لأن الباخرة، ذات النوافذ والثريات الكهربية، ستهل علينا فى هذه الأمسية من المنحنى الشمالى تحمل رسائل وطرودا من المهاجرين... وتحمل فى هذه المرة، كما قال آباؤنا، أفندية بوجوه بيضاء، وطرابيش حمراء، وملابس عجيبة لم نرها من قبل على جسم بشر!

مضينا نغالب الخوف وننتقل من قدم إلى أخرى ونقتل الرعب الذى تملكنا بثرثرة متصلة حتى صاح «برعى»

- هاهى!

وقفز قفزته العالية وهو يشير بأصابعة عبر أجمات النخيل، ثم أطلق ضحكة عالية ساخرة حين صاح «بكر»:

- ستكون لى واحدة مثلها!!

نه...من أين!؟

- أبى سيشترى لى واحدة!

فضحكنا جميعا لأول مرة فى أمسيتنا، وعيوننا لاتبارح شريط النور الأبيض السابح، ولا العلم الذى مضى يرفرف فوقه.

وتلفت برعى نحو بكر وأسكته بإشارة من يده ثم تبسم فى وقار ليقول:

- أرأيتم الأفندية؟ والطرابيش حمراء مثل القوطة!

وكانت الباخرة تواصل سيرها وتتجاوزنا دون أن تقع عيوننا لا على الطرابيش الحمراء، ولا على الوجوه البيضاء، إلا أن برعى أخذ يؤكد ويصف تلك الوجوه: مستديرة تلمع كما تلمع المرايا. واسترسل فى حديثه حتى يؤكد زعامته فلم يعترض أحد إلا «صالح جلق» الذى همس فى حياء: لا أرى شيئا. أين؟... خلف النور؟!

واتجه ناحيتى وكأنه يحتج:

- ولكن لماذا لاتربط الباخرة عندنا أبدا؟

ولمحت الغضب يرتسم على وجه برعى، فلم أجب بينما بادره برعى:

- نه؟ ولماذا تقف هنا؟! ستربط هناك فى «ابريم».

ثم تظاهر أنه يعرف ريس الباخرة، فمضى يرحب به ونحن من خلفه بصيحات داوية، إلا أنها ابتعدت دون أن يأبه بنا أحد.

ولبثنا لحظة والغيظ يأكل قلوبنا، ثم نكس برعى رأسه وابتعد عنا فى خطى سريعة فبدأنا نعود، حتى تفرقت بنا الدروب.

وأخذت أنا أشق الطريق الطويل الذى يفصل بين صفوف طويلة متراصة من النخل، تشكل غابة كثيفة لاترى العين من خلالها إلا أنوارا هامسة تنبعث من بيوتنا، هنالك عند السفح.

كانت أشجار النخيل المثقلة بحبات البلح الحمراء تهتز فى بطء شديد، وتتصافح شواشيها ويسرى بينها همس أضفى عليه المساء الساكن كثيرا من الغموض. كل واحد فى قريتنا كان يملك منها خمسين أو ستين، حتى أن صفوفها كانت تمتد من الشاطئ الى المزارع الضيقة، ثم تترامى بعدها فى صفوف أخرى، تنفرج عند السفح، عند بيوتنا المتلاصقة لا يفصل بينها إلا أزقة ضيقة غير مرصوفة وإن دكتها أقدام السابلة على مر السنين والأجيال.

ومن داخل هذه البيوت، من فوق أسوارها المسلحة بقطع من الزجاج كانت هذه الأشجار تطل علينا، سفح الجبل نفسه كانت تعلوه هذه الأشجار، وقد لفت رؤوسها بعصائب خضراء من السعف والجريد والسباطات الصفراء المثقلة بحبات البلح.

وفى الطريق، عند نهاية الأشجار، رأيت أبى بجلبابه الطويل الأبيض وعمامته المزهرة، ومداسه الأحمر اللامع، الشامخ بأنفه، ومسبحته وعصاه ذات المقبض النحاسى.

كان منهمكا فى حديث طويل مع فضل الماساوى وجعفر وآخرين من رجال النجع، كانت أياديهم، وعذبات عمائمهم، وعصيهم تلوح نحو الشاطئ. يبدو أنهم كانوا يتحدثون عن الباخرة والأفندية والوجوه البيضاء والطرابيش الحمراء ويرددون أسماء بعض الباشوات والصحف.

وسمعت الشيخ جعفر يهتف:

- أرض الله واسعة وسيعوضنا أحسن من أراضينا!

فتنحنح عبد الله الجزار وقال:

- ويرزقنا بيوتا غير بيوتنا؟

ويبدو أن «فضل الماساوى» لم يقنعه كل ماقيل، فانحنى على الأرض فجأة، وأنشب أنامله فيها، ليعود بها تحمل حفنة من التراب أخذ يتشممها. ثم تركها تتخلل أصابعه إلى الأرض من جديد بينما اتجه «جعفر» بناظريه إلى السفوح وهو يقول فى لهجة حزينة:

- من يدرى.. ربما أراد الله بنا خيرا.

وفتح أبى فمه ليقول شيئا ثم أطبق شفتيه فجأة حين رآنى فاستدار ناحيتى وابتسم فى حنان وأمسك برأسى حين دنوت منه وهمس:

- لم تأخرت هكذا ياولدى؟

وتابع سؤاله وكأنه لايتوقع إجابة منى:

- والباخرة... هل رأيتها أنت والعيال؟
- نعم ياأبتى.
- والوجوه البيضاء؟
- كلا..
- ولا طربوشا؟
وخشيت أن أقول لا فى هذه المرة أيضا فوجدت نفسى أردد: نعم! وما أن نطقت بها حتى سمعت الشيخ فضل يهمس فى حزن:
- إذن فقد جاءوا!
ودارت عيناه فى وجوه الآخرين ثم أضاف:
- مساكين..نحن مساكين..لنا رب اسمه الكريم!..
وغمغم عبد الله الجزار:
- غدا يكونون هنا فى النجع بأوراقهم وأقلامهم!
الشيخ حسين:
- ومن يدريك... وهل أنت أفندى حتى تعرف؟
وأحس أبى بما يدور على وجهى من أمارات الحيرة فأشفق على وربت فوق ظهرى، ومسح بيده على رأسى وأدار الحديث مدارا آخر:
- وماذا حفظت اليوم يا ولدى؟
وصمت لحظة يستحثنى حتى قلت:
- الربع الأول من سورة يس.
فبسملوا جميعا وكأنما أخذوا على غرة ومضى فضل يعبث بخصلة الشعر المجدولة المنسدلة خلف أذنى اليسرى وشفتاه تتمتمان:
- بارك الله في ولدك يا «أمين»...قريبا يعود إلينا من الأزهر يلقى علينا دروس الدين بدلا من الأغراب!
وتبسم الشيخ جعفر وقال:
- ولاتنس الجبة والقفطان الشاهى اللميع!
فضحك أبى ضحكة مقتضبة وشكر للشيخ فضل أمنيته ودعاه إلى العشاء وهو يقول:
- ولاتنس أن تأتى معك بأدوات الحجامة...فالوجع الشديد قد عاود ظهرى، وكاسات الهوا أفضل علاج!
فبادره الشيخ حسين:
-أوجاع فى ظهرك: لا أصدق، فإن لك زوجتين!
وقهقه الجميع، بينما دس أبى يده فى سيالته وقدم لى حفنة من التمر ودفعنى فى ظهرى وهو يأمر:
- عد ياولدى..لئلا ينشغلوا عليك، فالدنيا ليل، والظلام يشتد بعد أن يغيب الهلال.

كنت أريد أن أتريث إلى أن يعاودوا حديثهم عن الأفندية والطرابيش الحمراء، ووددت لو فهمت معنى لكل مايقولون، وما سبب الحيرة المرتسمة على وجوههم، ولماذا يشم الشيخ فضل تراب الأرض؟! ولماذا هذا الحديث الحزين عن بيوت غير بيوتنا، وسماء تعوضنا بدل مانفقد؟

وكنت أعرف أنهم لن يعاودوا حديثهم إلا بعد أن أنصرف، وأن شقيقتي وأمي وجدتي لن يهدأ لهن بال إلا بعد أن أعود.

وعلى ضوء الهلال الباهت أخذت أدب على أرض الطريق الزراعية إلى أن حاذيت شونة البلح، وانحرفت إلى الطريق العام الذي يخترق صفوف البيوت.

كانت أعمدة التليفون والبرق تنتصب على هذا الطريق، نفس الأعمدة التي اعتدنا نحن الصغار أن نلصق آذاننا ونصيخ السمع إلى كركرة جوفها ثم نتصايح: مصر تكلم ابريم! مصر تكلم الدر!

وفي تلك الأمسية، وعلى غير العادة، صاح برعي في زهو وخيلاء:

- مصر تكلم بلدنا!

ومن يدري؟ فربما كانت مصر تكلم بلدنا بالفعل في تلك الليلة عن الطرابيش الحمراء والوجوه البيضاء...ربما...

وكان وطواط قد حط على الأسلاك ثم لم ندر ماحدث له، فقد سقط صريعا أمام عيوننا فأسرعنا ندفنه إلا أن «برعي» تشبث به ومضى يغمغم بكلمات مبهمة عن تجفيف الوطواط ودقه إلى مسحوق أسمر! وعن «شريفة» جارته الصغيرة!

وتركناه يحتضن وطواطه وانصرفنا بعد أن تواعدنا على التلاقي، بعد صلاة العشاء في الساحة، نلعب الهندوكية «الحجلة» حتى يثقل النوم جفوننا.

كان بيتنا هنالك في بداية الطريق، تتصدره «مندرة» يفتح عليها الباب العمومي ذو الضبة الخشبية الغليظة، وندلف منها خلال باب آخر صغير، إلى فناء واسع تراصت على جوانبه ثماني غرف مسقوفة بجذوع النخيل والجريد المضفور بحبال الليف.

وفي جانب من هذا الحوش دقت أوتاد للأغنام والماعز تسعى الدواجن والحمام بين أقدامها، تنق وتهدل بينما «لورد» يرقد على مقربة يحرسها بعين يقظة.

هذا الجانب ينتهي بمطبخ، وفي ركن من هذا المطبخ ثلاث صوامع كبيرة من الطين وصومعتان متوسطتان لشقيقتي وأخرى صغيرة لي أنا.

ومن خلف البيت ترتفع مئذنة الجامع، وعلى يسار الجامع بيت برعي على مسافة يسيرة من بيت «داريا سكينة» أم «شريفة» صديقة أطفال النجع...

* * *

دلفت من الباب العمومي، ووجدت نفسي في «المندرة» وتوقفت هنيهة عند الزير الفخاري المنتصب عند الباب، أعب من مائة في صوت مسموع، وأنا أختلس النظر من فوق الكوز إلى «بطة» شقيقتي الصغيرة وهي تطل على وعاء كبير منهمكة في إعداد وجبة العشاء، بينما استدارت جدتي نحوي في هدوء تسأل عن سبب تأخري دون أن تقتنع بما لفقته من أعذار فمضت

تعنفنى، تساندها بطة بنظراتها الحادة.

وهنالك فى الركن الآخر كانت أمى.

مخلوقة غريبة تعمل أناملها دائما فى الأرض ترسم خطوطا تدور وتتشابك، ثم تبسط يدها لتمحوها فى أناة، لتعاود رسمها من جديد!

ولم أدرك طيلة حياتى معنى لتلك الخطوط، ولكنها - على كل حال - كانت شغلها الشاغل الذى لاتكف عنه فى عزلتها الأبدية...

كانت أمى - من هذا الركن القصى الذى استقرت فيه منذ أعوام سبعة - تنفعل معنا بكل شئ: تبكى إذا مابكينا، وتبتسم إذا ماضحكنا دون أن تتبادل معنا كلمة واحدة، دون أن تشاركنا طعامنا من إناء واحد!

ولكنها رغم ذلك كانت تحبنا جميعا! أمها وبنتيها وولدها الوحيد، إلا أننا لم نكن نستبين هذا الحب فى بادرة أخرى غير نظرة طويلة حانية من عينيها الواسعتين ترسلها نحوى حين ترانى أدلف من الباب أو أخرج..

نظراتها الحانية هذه كانت تبدو حين تنتهرنى جدتى، أو حين تتعلق بى «بطة» لتضربنى..أو حين يصب أبى غضبه على رأسى.

كانت ترتفع برأسها وتسدد إليهم نظرة قاسية صارمة، ثم ترتد بطرفها نحوى بتلك النظرة العذبة الحانية، فأرتعش أنا بالحب، إلا أننى رغم ذلك لم أجرؤ فى يوم من الأيام أن أقترب منها ولم تجرؤ هى أن تدنو منى، فإذا ما أرادت أن تهدينى شيئا قدمته لى من بعيد، فقد كان فى أعماقها شىء ينأى بها عنى، فلقد أخبرتنى شقيقتى الكبرى «جميلة» أن أمنا أصيبت بالصرع قبل مولدى، وأن نوبة إغماء منكرة ألمت بها ذات يوم وهى ترضعنى فبركت على دون أن تعى وكادت تختفى..

هاج البيت يومذاك وماج، وأبعدونى عنها منذ ذلك الحين، أما هى فقد أفاقت من غيبوبتها وأدركت كل شئ وقررت أن تبتعد عنى إلى الأبد!

لقد تربى فى صدرها خوف رهيب من ملامستى خشية أن تخنقنى، وظل هذا الشعور يساورها حتى بعد أن كبرت، فأكتفت طيلة حياتها، بتلك النظرة الطويلة الحانية تنفذ إلى قلبى فى عذوبة دافقة.

وما كدنا ننتهى من تناول عشائنا حتى تناهى إلى أسماعنا وقع خطى فى الشارع الملاصق وأصوات رجال ميزت منها صوت أبى والشيخ فضل ورجل آخر لم أكن قد عرفته بعد..

وفتح الباب العمومى، وفجأة ولأول مرة، ولأمر لا أدريه أسرعت شقيقتاى، ودفعتا بى دفعا معهما إلى الفناء الداخلى..

كان الرجل الثالث هو شعبان، الذى تزوج شقيقتى الكبرى، وقد جاءوا فى تلك الأمسية يتحدثون عن هذه الزيجة ويستعدون لها، ويبدو أن أمى كانت تعرف أمر هذه الزيجة، فقد استمعت إلى كل مادار هنالك وأقبلت تنحنى على «جميلة» وتطبع قبلة على جبينها!

وتقدمت «بطة» تعانق شقيقتها بينما وقفت أنا حائرا لا أدرى ماذا أفعل، وأدركت «جميلة»

ماأنا فيه.. فانحت تقبلنى وهى تبتسم، ولا أدرى لماذا أحسست فى تلك اللحظة بالضيق. لقد أردت أن أسالها عما يدور هناك داخل «المندرة»..إلا أن أصوات الرجال كانت تعلو ومعها صوت عائشة- جدتى، كانوا يتحدثون عن الطرابيش والباخرة ذات الثريات المتلألئة، فمضينا نصيخ السمع بينما اقتربت الأم من الباب الصغير الذى يفتح على «المندرة» من الفناء، وتريثت حتى قام أبى بتوديع شعبان وفضل وعاد إلى مجلسه فانطلقت إلى «المندرة».

ومن خلال الباب الصغير، تناهى إلينا، ونحن تحت سماء زرقاء صافية، ينيرها هلال فضى باهت، صوتها الواهن الرقيق يتسلل فى هدوء وحزم، وأبى يحاورها ويداورها..

ودون أن ندرى، لماذا ارتفع صوتها، واحتد على أبى، كانت تتحدث عن الباخرة ودفاتر التسجيل، حديثا أنهته فى كلمات حازمة:

- «أمين».. هذا البيت يكتب باسم «حامد»!!

وصمت الرجل صمتا أدركت هى كنهه فأنبرت تقول:

- يمكنك أن تسجل باسمك ذلك البيت الذى تعيش فيه مع الزوجة الأخرى.. ضرتى- وكذلك البيت الثالث الذى ورثته عن أبيك مع النخيل التى نملكها هنا وهناك، خذ كل شئ لنفسك إلا هذا البيت، فقد بنيته معك طوبة بعد طوبة، وجذع نخلة بعد آخر، وعشت فيه مع أمى العجوز هذه، وأولادى هؤلاء سنة بعد أخرى، ويجب أن يسجل باسم ابنى..باسم «حامد»!

ولا أدرى ماالذى دفع أما مريضة، أن تقول كل ماقالته، إلا أننى عرفت حينذاك أن أمى تملك شيئا ماغير النظرات الحانية، حبا لا حب بعده، أملا عريضا تحاول أن تسعدنى به.. كانت تملك رغم مرضها قوة مواجهة زوجها! تسجيل بيت باسمى كان شيئا كبيرا بالنسبة لى أنا الطفل، كنت لا أفهم له معنى، ولكن كلمات أمى حملت إلى قلبى ماجعلنى أوقن أنها تدافع عنى، بيد أننى رغم ذلك لم أدرك أية علاقة بين الطرابيش الحمراء وتسجيل بيتنا ذى الغرف الثمانية باسمى.

واشتد إلحاح أمى بينما ازداد صمت أبى حتى نفد صبره، فأخذ يقذفها بكلمات جارحة: مجنونة! مخبولة! مالك ولهذه الأمور... انزوى فى ركنك يا... فأجهشت بالبكاء وارتفع صوت جدتى، تحاول عبثا أن تهدئ من روعها وأن تسكت أبى الذى ارتفع صوته يهدر كأمواج النيل.

وفى الفناء كنا نحن الثلاثة نلتصق ببعضنا فى صمت لم يقطعه إلاصوت «جميلة» وهى تبتسم: لماذا يا أبى ..لماذا!؟...

ثم بعد صمت قصير:

- دعها وشأنها..إنها مريضة.. أنت تعرف إنها مريضة!

وهمست الأخرى فى صوت دامع:

- كل هذا من تحت رأس العقربة، حجوبة.

وقاطعتهما فى كلمات مختنقة:

- جميلة..بطة.. أنا لا أريد بيتا..

واختنق صوتى بالبكاء بينما صوت أبى مايزال يهدر، وبدا «لجميلة» أننى أتململ فى موقفى فأمسكت بيدى فى عزم، وأفلتُ أنا منها رغم ذلك فجأة واندفعت كالسهم إلى «المندرة» ثم إلى الركن الذى تقبع فيه أمى أحاول أن احتضنها بيدى الصغيرتين، وهى تدفعنى بعيدا عنها فى حنو، وتنهانى عن الاقتراب منها فى تلك اللحظة المشحونة بالصدام، ولكننى اندفعت إليها أهمس:

- أمى ..أنا لاأريد بيتا..لماذا تريدينه لى؟..سأختم القرآن وأسافر إلى الأزهر!!

ولم أستطع أن أواصل حديثى، فإن دمعة ساخنة كانت قد سقطت على يدى فألجمت لسانى وهمت هى لتحضننى غير أنها ترددت، ثم اربد وجهها فجأة وغامت عيناها فى سحابة من الدموع وبان فيهما بريق غريب اتكأت بعده على الأرض براحة يدها اليمنى، ثم انكفأت على وجهها! وأخذت تحرك ساقيها فى تشنجات..ثم هدأت مستكينة بينما يغلى بين شفتيها سائل أبيض مثل رغاوى الصابون.

وتحركت الأقدام من حولنا، تروح وتجئ..بينما أصابنى الذعر وإحساس بأن روحى تنسل من بدنى، وقطرات من الدمع تنسكب على خدى.

ثم انكفأت على أمى متغافلا تحذيرات جدتى وأبى الذى بدا عاجزا وحائرا فى نفس الوقت.

هذا الرجل: أبى- يعرف متى بادأها هذا المرض الغريب وأين!.. هنالك فى **القاهرة**، فى حى **البغالة** بالذات، أيام كان يعمل غفيرا فى **الكونتننتال** فى أعوام السلطة، وهو مايزال يذكر أنه لم تجد معها أضرحة جميع الأولياء والأطباء، فعاد بها من مصر، كان يحبها وقد ازداد حبه لها بعد مولدى ولكنه فى نفس الوقت لم يحتمل العذاب بجانبها فهرب منها إلى زوجة أخرى، وخليق به اليوم ألا يحتمل الموقف الذى استشاره بعناده، فذرف دمعتين وهو يهتف:فاطمة...فاطمة..سامحينى...فلم أقصد شراً!!

ومضى إلى الباب.. وجدتى تستمطر اللعنات على رأسه ورأس أهله...

وحين رأيت الدموع فى عينيه، وفى عيون الأخريات أحسست أن أمى ستموت فى تلك اللحظة فارتفع صوتى بالبكاء..

ومع صوت بكائى ارتفع عواء الذئب:أووو....أووو!..

ويرعى هو الذى أطلق صيحة الذئب.. ومن كل الأزقة والبيوت أخذ الاطفال يرددون مثله هذه الصيحة التى اعتاد دعوتنا بها إلى الساحة الواسعة أمام شجرة الجميز لنلعب «الهندوكية» (الحجلة) فى ضوء القمر.

وكان من واجبى، شأنهم جميعا، إطلاق نفس العواء..لأسرع إليهم، ولكننى ألقيت نظرة على وجه أمى فأدركت أن واجبى هو البقاء إلى جانبها ريثما تفيق فألتقط من عينيها نظرتها الطويلة الحانية.

تردد العواء مرة بعد أخرى واستجاب له أطفال النجع، إلا أنا فقد احتبس هذا العواء فى حلقى..وبدلا منه أمسكت بالمصحف أرتل منه وقد وضعت يدى على رأس أمى التى كانت ماتزال تعانى نوبة إغماء منكرة.

وبينما عـادت جدتى من الديوانى تحـمل زجـاجة عطر نفاذ ، كـانت بطة تهرول إلى الخارج لتستدعى خالتى أمينة بابا .. فهى خبيرة بأمى وبنوبات إغمائها.

وفى نفس الوقت كان عواء الذئب يتردد فى النجع.



منذ أن ارتفع صوت المؤذن بالفجر.. وأنا مستلقٍ على ظهري فوق «العنجريب».. أحدق في جذوع السقف .. وفي أطباق الخوص والصيني المزخرفة المعلقة على الحائط منكفئة على وجهها!

فالأضواء الخافتة التي تلقيها المسرجة على الحائط والأطباق.. والأبراش الخوصية.. إلى جانب الظلال المرتسمة عليها ترسم عالما خياليا أمام عيني يشغلني من حين إلى آخر.. عن مراجعة صورة ياسين .. عالما خياليا لم يتبدد الا حين أخذت أشعة الشمس تتسرب الى «المندرة» في حياء ، من خلال الكوة العالية المنحوتة في الجدار .. يعلق بها غبار يتراقص أمام عيني.

وفي صمت ، وحتى لاتوقظ أحدا، هبت شقيقتي «جميلة» من نومها .. ومضت تتحرك خفيفة الوطء لتعد إفطارنا: شرائح من «الخمريد» (العيش المخمر) وسلطانية لبن رائب مزجته بقليل من عسل البلح.وازدردت إفطاري على عجل.. وعلقت لوحي من عنقي على صدري .. وكيس الكتب على كتفي.. وطوقت رأسي بالكوفية المزركشة.. وأخذت أمد أذني عبر الجدران والكوى والأبواب علني أسمع نداء «برعي دولحظ» فلقد تباطأ نداؤه اليوم .. ونفد صبري فدلفت الى الفناء أشاغب «لورد» وهو يتمسح بي.. ويهز ذيله بتحية الصباح!

وفجأة، ومن بعيد تردد عواء الذئب..إلا أنني لم أتحرك.. فقد اعتاد «برعي» أن يطلق عواءه الأول..أمام بيت شريفة علها تكون في يقظة ..فتستمع الى صوته القوي.. كان يطلق نداءه ثم يتمهل قليلا أمام بيوت الأطفال.. فيحملون مثلي ألواحهم وأكياس كتبهم.. وينطلقون معه.

وعند الناصية .. على مقربة من شونة البلح رأيت «برعي» يلصق أذنه بعمود التليفون وإلى جانبه صديقاه «صالح جلق» و«بكر» يقضم كل منهما شريحة الخمريد يزدردها مع التمر وهو يهمهم بآيات سورته.

كان «برعي»، رغم قامته المبشرة بالامتداد وعضلاته المفتولة.. ووجهه الأسمر اللامع .. وأنفه الأفطس وشفتيه الغليظتين الحازمتين.. وقدميه الضخمتين المتشققتين في روافد صغيرة، مريضا بأمعائه وصدره ..كان يجري في قوة الأسد .. ويطلق في نفس الوقت سعالا عنيفا يخرج من حلقه في أنغام خشنة مبحوحة تتناهى الى مسمعيك وكأنه يقول:«دولحظ..دولحظ»..ولم يعد على مر الأيام، يبالي حين نناديه ببرعي دولحظ.

أقبل على حين لمحني وسلم بطريقته الغريبة اذ مد قدما لامست قدمي بينما مد يدا الى يدي.. كان حافيا. قدمه خشنة متشققة، فهو يؤم الكتاب ويكدح في نفس الوقت مع أبيه وخاله الشيخ فضل في حقليهما الصغيرين بقية النهار وبعض الليل.

ورغم ذلك كان أكثرنا حفظا واستعدادا،يلتهم كل الدروس، ويتقدم علينا جميعا ..يكاد يختم القرآن هذا العام.. وحينذاك ستنتهي حياته الدراسية ليعمل مع أبيه في الغيط ..

كان في الثالثة عشرة. يكبرنا بأربعة أو خمسة أعوام، ولذلك أحسسنا جميعا بالولاء له فهو حامينا أمام أطفال النجوع الأخرى الذين يتربصون بنا كثيرا خلف جذوع النخيل وعند منعطفات الطريق، وقد حدث مرة أن أشتبك بكر بواحد من أطفال نجع «السوارذب» فضرب حتى احمرت عيناه ، فتواعدنا على ملاقاتهم بعد يومنا الدراسي لنتضارب، وننسف التراب،

فالتقينا بين غابات النخيل متخذين من جريدها الأخضر الطويل كرابيج وعصيا نتبارز بها .. وعدنا ظافرين فى ذلك اليوم، وفى ضحى اليوم التالى كنا، نحن وأطفال «السوارذب» معا فى الكتاب نتبادل النكات، وحفنات التمر كأن نزاعا ما لم يقم بيننا، ثم تربصوا بنا وأذاقونا الهزيمة متحينين فرصة غياب «برعى دولحظ» في تلك الظهيرة الحارة.

ومنذ ذلك اليوم لم نعد نسير إلا وعلى رأسنا برعى. ولا نلعب إلا وهو معنا ، ولا نمر فى طرقات نجع الآخرين إلا إذا كان معنا..

كل واحد منا كان على استعداد لأن يقدم له كل شيء يملكه، النبلة والفخ والسنانير والرطب المبكرة، والبسر الأحمر ، وسنابل القمح الخضراء، بل كنا فى بعض الأحيان نمضى لنسهر معه فى الغيط، إذا ما اضطر الى البقاء هناك فى الليل، ونطارد معه الثعالب والفئران.

كان تلميذا مجدا وفلاحا ماهرا فى نفس الوقت.. ذا صوت جميل يغرد به وهو يروى الأرض ويرمم البتون والجداول .. ويحفظ عن ظهر قلب أغانى قريتنا ويتصرف فيها بالتحوير. ويعدل كلماتها كيفما شاء!.

كان آباؤنا يتهمونه بإفساد الأطفال، اذ اعتاد أن يقتطف شواشى الذرة ويجففها ويلفها لندخنها كما يفعل الكبار، وأن يطارد «شريفة»فى كل مكان، فقد نضج قلبه، وتفتح على مشاعرالحب فى تلك السن المبكرة!

أما صالح جلق..فهو طفل رقيق الحاشية .. مهندم الثياب.. عزيز النفس، يؤم الكتاب.. وهو يرتدى جلبابا أفرنجيا ، ويزين رأسه بطاقية مزكرشة عليها جمال باركة، وأخرى تنهض، ويتنعل صندلا أصفر أرسله أبوه من مصر أم الدنيا. .لا يتقدم فى دراسته كما يتقدم برعى، بينما بكر، عفريت، كثير الشغب.. ألثغ، تعود أن يتسلق النخيل وأشجار السنط بحثا عن أعشاش العصافير.. مكثنا طويلا نلصق آذاننا بأعمدة إلتليفون ونرسل بين الحين والآخر نداءنا الداوى إلى أن جاء «أوش الله» واكتمل جمعنا..

فانطلقنا مسرعين ، والشمس تحلق فوق بيوتنا المائلة على سفح الجبل، والمئذنة المطلة خلف بيتنا ، كنا نجرى موهمين انفسنا اننا نمتطى ظهور حمير أسرجناها، كان برعى يسبقنا ثم يتوقف رافع الرأس فى غطرسة. حتى نكاد نقترب منه ثم يجرى وهو يرسل عواءه، يمطه ويشتد به إذا ما دخلنا دروب «السوارذاب» ليلقى الرعب فى صدور أطفاله الذين كانوا يتسابقون مثلنا، وعلى رأسهم «أحمد البسطاوى» يطلق صياح الديكة- الشارة التى اتفقوا عليها لنجعهم..

وعلى مقربة من سفح الجبل عند الأطراف الشمالية لنجع السوأرذاب كان بيت الشيخ طه، وعلى جانب منه كتابنا العتيق«مندرة» طويلة وطاقات أربع تتسرب منها أشعة الشمس.. مسقوفة بجذوع النخيل والجريد، فرشت أرضها بالرمل الأصفر الناعم، فى مقدمتها مصطبة عالية عليها حصيرة خوصية ملونة فوقها وسادة يتكىء عليها الشيخ ونحن نعيد على مسامعه ما حفظنا، جلوسا على الأرض عند قدميه.

وعند الباب مباشرة إناء ماء، تناثرت حوله قطع صغيرة من الحجارة الجيرية البيضاء، فقد كنا نحفظ ما على اللوح ثم نمحوه بالماء ونعيد طلاء صفحته بهذا الجير الأبيض ونتركه يجف ثم نكتب

عليه آيات أخرى.

وها نحن ندخل الكتاب، ونصطف جالسين نواجه الجدار، وقد أمسك كل منا باللوح نرتل ما على صفحته من آيات فى همهمات عالية تختلط فيها الكلمات حتى يخيل لك أن خلية نحل تطن فى أذنيك..

كنا نهتز يمنة ويسرة: بسم الله ، يس والقرآن، مرج البحرين يلتقيان، أعوذ بالله، فبأى آلاء ربكما تكذبان.. بسم الله.. يس.

وفجأة انطلق صوت العريف.. هس .. فسكتنا جميعا، وشعرنا أن عشرات من الأبقار كانت تخور ثم توقفت فجأة عن خوارهاالرهيب.

وطرقع العريف بكرباجه ، ومر به فى مس خفيف على ظهورنا ، فأسندنا الألواح إلى الجدار.. واستدرنا نواجهه وهو ينتقل بين هذه المجموعة او تلك يملى مسائل الجمع والضرب والقسمة والطرح لنخطها على الرمل، فيراجعها بنشاط وذكاء. ومرة أخرى طرقع العريف بكرباجه فرفعنا عن الأرض وجوهنا. ثم مضينا نردد معا وفى كلمات متكسرة، مصر العزيزة لى وطن... فتنداح أصواتنا عبر البيوت والأشجار وترن أصداؤها على الصخرة العالية المعلقة فوق كتف الجبل مباشرة خلف الكتاب وترتد إلينا: لى وطن .. لى وطن فى نغم جميل.

- وفجأة ونحن هائمون فى النشيد، أرتفع عند الباب همس

- سيدنا الشيخ! سيدنا الشيخ!

فنشطت الحلوق سيدنا الشيخ سيد..سى...سى.. ثم صمتنا صمت القبور واتجهنا بأبصارنا الى باب صغير يصل ما بين الكتاب وبيت الشيخ فرأيناه، وهو الرجل الضرير، يتحسس طريقه بنفسه ويرقى العتبة دون معين إلى أن تقدم العريف وخطا به إلى منصته العالية، فخلع مداسه وأسرع أوش الله لينفضه بينما تربع الشيخ على المصطبة وشفتاه مشغولتان بترديد كلمات القرآن.. ثم كف عن همهماته وساد الصمت العميق وهو ينادى على برعى ليكرر عليه ما حفظه فى نغم لاهث.

ونجا برعى ونهض وتنحى جانبا وهو يرمق البسطاوى بنظرات شامتة متشفية.. فقد مد المسكين فى الفلكة.. أما أنا وبكر وأوش الله .. فقد تلعثمنا كثيرا اذ أخذتنا الر : بعد أن سمعنا صرخات البسطاوى وهو يتلوى فى الفلكة كما يتلوى طائر جريح.. وقد احتجزنا الشيخ فى بيته لنسقى شتلات نخل كنا قد غرسناها له فى فناء بيته.. واختصنى الشيخ بالتقريع وهو يذكرنى بأمنية أبى ، أن أختم القرآن لتقلع الباخرة بى إلى الأزهر الشريف!

وخبا بريق الطفولة المتشيطنة فى عيوننا ونحن نحتجز، وأحسسنا بالجوع يملأ نخاع عظامنا بالألم..فطفرت الدموع وسالت ونحن نراقب الآخرين وهم يتأهبون للانصراف..

لقد كان يستبد بى حنين جارف الى نظرات أمى التى تركتها فى الصباح راقدة فى ركنتها تئن وتتوجع..وأخذنا نتجه فى يأس إلى الدلاء، بيد أننا تلكأنا فى اللحظة الأخيرة نراقب رجلا من النجع الآخر، ينحنى على الشيخ ويلثم يده.. ثم يهمس فى أذنه همسات استدعى الشيخ بعدها برعى والبسطاوى وأمرهما فتصايحا على الأطفال الذين كانوا قد خرجوا الى الساحة الممتدة أمام

الكتاب، فعادوا والحيرة مرتسمة فى عيونهم..

وتجمعنا فى موكب وسرنا خلف الشيخ، عبر طرقات النجع ، الى نهايته، إلى أن تراءت لنا خيمة كبيرة رصت فيها أسرة وعنجريبات متناثرة تربع عليها الرجال يهمهمون، ويترحمون ويتكلمون عن مشاغلهم بينما فناجين القهوة السادة ولفافات التبغ الماكينة تدور عليهم.

كان مأتم رجل شيع إلى قبره منذ أسبوع.

وفى ركن من الخيمة، وفى نهاية صفين متقابلين من الأبراش الخوصية ارتكزت مقاطف كبيرة منبعجة تلمع فيها آلاف من قطع الحصباء: صفراء وحمراء، بيضاء ومجزعة، تنتظر أيادينا النحيلة

وتربعنا جميعنا متقابلين ، وبدأ الشيخ يرتل بصوت منغوم والناس مشغولون عن تلاوته بأحاديثهم.

- عند النتوء الشرقى مرت باخرة الأفندية.
- ولماذا جاءوا
- من يدرى؟..
- ألا تعرف ياشيخ؟.. للتسجيل!
- مسكين محمود.. مات قبل أن يرى الطرابيش..
- دنيا..
- رحمة الله عليه..
- ولا رحمة ولا يحزنون، أنا لا أبكى عليه بل على زوجته وعياله.. مساكين!.
- ترزق .. ربنا موجود ياشيخ!
- يقولون : إن معهم دفاتر لتحصيل الميرى.
- الميرى!؟ ومن أين ندفع الميرى؟ أباطك والشمس..
- كما خلقتنى يا مولاى..

ويستمر الشيخ فى ترتيله رغم كل شيء ، ويختلط ترتيله بأصواتنا ونحن نردد: لا إله إلا الله..لا إله إلا الله فقد كنا نؤدى طقوس المرحمة فنلتقط الحصباء قطة قطعة ونحن نرتل.. ونقذف بها فى سرعة إلى مقاطف أخرى فارغة.

كان الشيخ يهتز وتهتز معه قاماتنا الصغيرة..

وانتهينا والشيخ يقول: صدق الله العظيم، فأشعل الرجال لفافات التبغ، وعادوا الى أحاديثهم، بينما حشرنا نحن فى الركن الاخر .. تحملق عيوننا فى اتجاه الباب، فقد كنا جياعا تصرخ أمعاؤنا بالآلم.

وما هى إلا لحظة حتى تهللت أساريرنا فقد أطلت «أناجر» الفتة يتصاعد منها البخار.. قصاع مليئة عليها قطع كبيرة من اللحم اللذيذ المسلوق، فتخاطفناه فى هرج، وعضلات وجوهنا تتقلص مع المضغ، ونحن نكور اللقمة ساخنة ونلقى بها فى أفواهنا ، نعاجلها ، بأخرى قبل أن تنتهى.

وانتهى المأتم، وتجمعنا فى موكب خلف الشيخ والرجال، نحمل المقاطف على رؤسنا ونخترق دروب النجع إلى الجبانة البحرية.وتوقفنا والحزن يتملكنا على قبر الفقيد ننسق الحصباء على صدره .. ونروى بأباريق الماء، صبارا متهجما ينمو عند رأسه، والرجال وقوف من حولنا، تتناهى أحاديثهم إلى أسماعنا.. كانوا يتحدثون عن النيل والفضيان..

واستدار الرجال ليعودوا إلى بيوتهم وحقولهم.. وحسبنا أن الشيخ سيصرفنا .. إلا أنه أصدر أوامره فتبعناه إلي الكتاب من جديد! وهناك ، أمرنا عن طريق العريف أن نجلب إلى صومعة الكتاب، يوما بعد يوم أربع طورات من البلح!

- أسمعتم؟.. كل واحد أربع طورات؟.

ثم مد كل واحد منا ساقه فمر عليها العريف بالقلم البوص، ورسم عليها علامات يجب أن نعود بها يوم السبت .. وإلا قام ذلك دليلا على أننا قد نزلنا إلى النيل، ثم يأتى دور الفلكة والكرباج!

فالفيضان الذى ملأ مجرى النيل بأمواجه المتلاطمة، قد بعث الخوف فى قلوب آبائنا فتوسلوا إلى الشيخ أن يحذرنا ، فاهتدى الى هذه الطريقة العجيبة ، علامات بالحبر على سيقاننا يفحصها الشيخ ليتأكد أننا لم ننزل إلى النيل وأمواجه الصاخبة.

ولكم تحايلنا علي هذه العلامات ، وعبثنا فى النيل، وعدنا بها دون خوف من فلكة الشيخ. وقبل أن تغيب الشمس انصرفنا من الكتاب.. وعدنا وعلى رأسنا برعى يردد عواءه.. بينما انطويت أنا على نفسى أفكر فى الطورات الأربع وفى الطرابيش الحمراء. وبركات أفندى الذى أخذ اسمه يتردد فى قريتنا فى كل يوم على المصاطب وفى الساحات الممتدة أمام دكاكين التجار!



كل شيء كان بهيجا وجميلا في قريتنا في تلك الأيام. فالنيل العجوز، وسواعد الرجال والنساء، والشمس المشرقة اللافحة قد كسا الغيطان والشواطىء بخضرة يانعة تتخللهامقاطع شتى من الألوان تبعث البهجة والتوثب، ونبات الترمس ينمو ويترعرع فوق الجروف المبتلة «والكشرنقيق» ينشر خضرته بين سيقان أشجار النخيل.. يزخرفها نوار أحمر وأصفر وأبيض هنا وهناك، وعيدان الذرة، ترتفع وتميس على نغمات النسيم، وقد أصابعها الصغيرة تثقلها، فتنحني وكأنها تصلى للأرض الطيبة، وعلى النخيل عناقيد بلح تتزاحم كعصائب من المرجان تلف أعناقها.. والنيل العالى تتلاطم أمواجه الحمراء الدسمة ويهدر كأنه حانق على نجعنا وعلى الجزيرة التى كاد يبتلعها ويحطم بيوتها المبنية من الطين.ولقد تعاون النيل الطامي والشمس الملتهبة في إرهاق الأبدان حتى أصاب الرجال لهاث.. فسقطوا إعياء. وافترشوا المصاطب حول أشجار النخيل وأستسلموا للنوم بعد أن ملأوا بطونهم بشرائح كبيرة من الخمريد والسبروجة والاتر حريفة بالشطة الحمراء.. يزدردونها إلى جانب قضمات من البصل الاخضر ..

وفي يوم من هذه الأيام اللافحة. كنت أتربع على هودية الساقية، تدور بى وأنا أستحث بقرتنا: تنزح المياه فتصبها القواديس الفخارية الحمراء فى الجدول الكبير، ليستقبلها «حسن المصرى» ويجريها فى هذا الحوض أو ذاك .. مترنما بألحانه الصعيدية الحزينة التى لم أدرك لها معنى، فقد كان لا يكف عن إرسال مواويله إلا ريثما يلف سيجارته أو « يدقنها » على حد تعبيره، ويرسل دخانها فى حلقات متتابعة متعجلة بين شواشى الذرة ثم يفرك بقاياها بقدمه العارية، ويعود الى أغانيه يرسلها فى شجو ، وعيناه تتجهان إلى الشمال.

عاش هذا الرجل سنوات طويلة فى قريتنا.. دون أن يدرى أحد من أين أقبل ولماذا وكيف ومتى يترك النجع؟. ورغم ذلك فقد رحب به الجميع. على مصاطب بيوتهم وحفلاتهم .. أحبوا فيه رجلا قويا يصنع ضلوع سواقيهم ويرمم جدران بيوتهم المتشققة..وأحب الرجل نجعنا وأطفاله، وأحبوه هم كأنه واحد منهم... كانوا يتطلعون إلى وجهه.. فاذا ما وجدوه مرحا ضاحكا أقبلوا عليه يشاغبونه ويتصايحون به: الاحمر أهوه.. الأحمر أهوه! أو يمدون أناملهم الصغيرة إلى شاربه الطويل الذى غطى نصف وجهه المائل الى الحمرة، وقد ارتفع طرفاه المدببان الى عينيه الحادتين، يعلوهما حاجب كث وجبهة عريضة تشير تجاعيدها القليلة إلى الخامسة والثلاثين..

وذات مرة فى يوم عيد تجمع الأطفال حوله بملابسهم الزاهية يريدون مشاغبته.. ألا أنهم ابتعدوا عنه بسرعة.. إذ بدا لهم فى جلسته الحزينة، وقد اعتمد ذقنه العصا، شاخصا بعينيه الحادتين فى اتجاه الشمال مهموما مربد الوجه، قاسيا يثير الرعب فى قلوبهم الصغيرة ابتعدوا عنه بينما أطرق هو الى الأرض .. يفكر فى قريته البعيدة . ويجتر ذكريات أعياد قضاها فى«الكلح» إلى شمال أسوان... فاستبد به حنين جارف كسا ملامحه بتعبيرات كالحة هزت كيانه، ونأت به عن العيد ومباهجه وعن التحطيب الذى علمه لبعض شباب النجع.لكن جلسته الحزينة إلي الجدار لم تطل.. فقد هب واقفا على قدميه ومضى بخطوات متثاقلة إلى أبى أمام المتجر وانتصب أمامه بقامته المديدة. ثم تنحنح حتى رفع أبى رأسه وحرك عينيه فى دهشة

متسائلة، فعاجله حسن المصرى بكلمات مختنقة.

- يا شيخ أمين ، لو تكرمت نسوى حسابنا! وعجب أبى من كلماته وحسبه يحكى نادرة من نوادره فقهقه عاليا وقال، بينما يده تشد « حسن المصري» من جلبابه الي المصطبة:

- حساب! ليس بين الخيرين حساب يا حسن. تعال يا رجل.. وصمت الرجل.. فاستطرد أبى يقول :

- ولماذا نتحاسب .. الدكانة دكانتك والغيط غيطك! وفتح الرجل فاه ليقول شيئا إلا أن أبى استرسل:

- وأولادى هم أولادك يا حسن.. أم أن .. وتردد، والرجل يحملق فيه ثم أضاف .

- أم أن شيئا ينقصك؟!

وتلفت نحو باب البيت على مسافة مترين ونادى:

- « بطة» بنت يا بطة.. هاتى شايا لعمك المصرى. وعاد يتفرس فى وجه « حسن المصرى» .. فوجده ما يزال مربدا فسأل:

- مالك؟! أمريض أنت يا أخى؟ إجلس.

فبلع ريقه وقال فى صوت دامع: كلا .. الحمد لله.. لكن مصير الغريب «يردع» لبلده!

فلم يصدق أبى أذنيه فانشغل بإصلاح عمته وغمغم لنفسه: بلده! أى بلد هذا الذى يتحدث عنه؟ ثم ارتفع بصوته:

- ياسلام ياحسن! أكرهت مقامك بيننا يا رجل؟! يبدو أنك قد كرهت مقامك بيننا يا حسن؟! وبصق على الأرض وكأنما يستهجن شيئا وأضاف.

- أغضبت من أحد، أم لعله الحنين إلى تراب بلدك؟.. لا ياحسن.. إننا لم نشبع منك بعد.

وقدم له سيجارة ماكينة وهو يواصل حديثه:

- ولماذا أنت حزين فى العيد؟ فرفش ياعم ! يمكنك أن ترجع لبلدك.. لكن بعد العيد، يابنت يابطة. أين الشاى.. يابنت الإيه.. تفضل يا حسن.. إجلس .. إجلس قعمز ياسيدى قعمز..

وقطب أبى جبينه وفكر برهة ثم سأل:

- وبالمناسبة يا حسن . أين بلدك.. ومن هم الذين ..

واربد وجه الرجل.. واعتصره حزن شديد أخذ يغالبه، وتصاعدت الكلمات إلى حلقه شيئا فشيئا ، كأن فى أعماقه سرا دفينا، كأن يريد أن يشكو لو وجد أذنا صاغية.

وتهاوى فجأة علي المصطبة ، وأصابعه تتشنج على مقبض عصاه، ثم رفع فنجان الشاى الى شفتيه ، وأخذ يحتسيه فى اللحظة التى بدأ يتكلم فيها!.

.. فى«الكلح» فى الكلح عرف فتاة خمرية. غرق فى حبها لشوشته... وتلاقيا وتعاهدا على الزواج، وراح يعد نفسه لحياة آمنة هادئة.. ثم تقدم لأهلها .. فإذا بهم يحقرون من شأنه هو العامل! عامل لا يساوى شروى نقير .. هكذا قالوا..

ولمح الإصرار فى عين فتاته فازداد حبه لها، إلا أن الأيام كرت وهو لا يستطيع لقاءها .. ثم كانت الكارثة.. تزوجت الفتاة من ابن عمها ، جن جنونه ومضى يطوف ببيتها ويتلصص خلال

الكوي وخصائص النوافذ الخشبية.. حتى رآها مرة ترتمى في غنج- نصف عارية- في أحضان زوجها الجلف، فنفرت عروق رقبته. وبدأ يسمع نبضات قلبه خلف أذنه طبولا داوية تدق وتدفعه دفعا فاقتحم الباب وأطل فوقهما والشرر يتطاير من عينيه.

ثم ارتفعت يده القوية ببلطة صغيرة أهوى بها على رأس الزوج ففصله، وانكفأ عليها يطعن، إلا أن صرختها الداوية حفزته إلى النجاة، فولى هاربا ، وقد ترك بين يديها لبدته الصفراء.

ثم بدأت مطاردة أهل القتيل والبوليس، وبدأ طوافه فى أدغال القصب حتى ضاق الخناق عليه فهرب إلى الجنوب وهو يأمل العودة إلى زينب فى يوم قريب، وساقته قدماه إلى أسوان، فعمل فى تعلية الخزان حتى حامت الشبهات حوله فركب الباخرة خلسة إلى القرى النوبية.. ثم هذا النجع يحتمى فيه..

وأجهش فى بكاء مرير، وأبى يربت على كتفه وصوته المختنق مازال يقول:

- لكن مصير الغريب يا شيخ أمين يردع لبلده..

وربت أبى على كتفه .. وهتف :

- لكنهم يامجنون .. ينتظرونك هناك، حبل المشنقة ينتظرك..

ثم أشار بيده وكأنما يبعد خاطرة بدت له وأضاف:

- وأهل القتيل!

- لا أخشى حبل المشنقة.. ولكن زينب.

- هوه هوه؟ تزوجت.. لا بد أنها تزوجت.. أولى بك أن تعيش هنا حتى توافيك أخبارها.

- وكيف؟

وبدأ أبى عاجزا عن الإجابة ، فأطرق برأسه ثم قدم له سيجارة أخرى أشعلها.. وأخذ يرسل دخانها في حلقات تحوم فوق رأسه.. ولانت مع نفثات الدخان عضلات وجهه وانطفأ البريق القاسى فى عينيه واسترخى على المصطبة.. وبدا واضحا أن نزوة « الردوع » إلى بلده قد فارقته إلى حين! فقد عاينته ساكنا هادئا بعد أن انتهى من قصته، يرتشف الشاى الثقيل فى نهم.

زال من قلبه أى حماس يدفعه إلى التفكير فى العودة، أو تمثل السجن والمشنقة .. فوازن بين حياة القرية النائية المؤلمة، وبين القبر المظلم البارد فى سجن قنا فقرر البقاء بعيدا عن الصعيد وأدغاله ومطارداته التى لا تنتهى.وكثيرا ما كان حسن المصرى يتداعى ويخلد إلى الصمت . فلا يبارح الشونة لينطلق بعد ذلك يضحك ويرسل أغانيه الشجية، وناظراه يتجهان إلى الشمال!

وفى ذلك اليوم القائظ ، والقيلولة تشوى الأبدان لم يكن عند الشاطىء غيره، يتلقى مياه الجدول الكبير في أحواض الذرة النامية، وغيرى أنا متربعا على هودية الساقية أتأمل ظهر بقرتنا وهى تدور فى صمت.. وأفكر فى النيل ، تلطم أمواجه الشاطىء فى قوة ثم تعود إلى شاطىء الجزيرة الغارقة لشوشتها، البادية كباقة خضراء ألقاها سكير فى اليم. ولم يكن على شاطىء الجزيرة إلا برعى وقد تعلق بذراع شادوف ينحنى ويقوم معه. وإلا بعض الأطفال عرايا « يبلبطون » فى الماء .. ومع كل دورة وأخرى للبقرة، ومع القواديس الفخارية الحمراء... تصب الماء في الجدول الكبير.. ومع هدير تروس الساقية وحفيف النخيل. ووشوشة وريقات اللوبيا والترمس

« وزمته » القيلولة ولطمات الموج، كان صوت حسن المصرى ينسكب فى أذنى».. بينما عيناى تجولان هنا وهناك لتلتقى مع الظل فوق الصخرة المعلقة على كتف الجبل، والتى اتخذناها ساعة تحدد مواعيد عملنا، ولنلتقى عند الأفق بسفينة ثلاثية الشراع. سوداء ضخمة تقترب من المنحنى الشمالى، غاطسة فى النيل إلى غور.. تغالب الموج وتصعد إلى الجنوب .. نفس السفينة التى تفد إلى شواطئنا فى كل عام.. تحمل الفرحة إلى قلوبنا نحن الصغار.

فيما بعد الجزيرة الخضراء- إلى الغرب- عبر النيل كان «كران نوج» الأثر الرومانى القديم يربض بقمه الشامخة على الصحراء، تمتد إلي ثلاثين ميلا ما بين قريتى «عافية».. و«عنيبة» بمحاذاة قريتينا قتة وابريم.. هذه الصحراء كانت رهيبة تملأ قلوبنا نحن الأطفال بالرعب.. فالقصر مسكون كما تحكى جداتنا.. يغشى الهلع نفوسنا حين نرى رجلا يسير الهوينى على دابته عبر الصحراء، أمام القصر المباشر.. فنبسمل خشية أن تخرج العفاريت إليه لتنتزعه هو ودابته إلى داخل القصر فلا يعود الى ذويه!

وعلى الشاطىء الغربى- أمام القصر- بمحاذاة الشمندورة الحمراء .. كنا نراقب - وفرائصنا ترتعد - ذئابا تعوى وثعالب بلون الرمل تجرجر ذيولها حول القصر ، وضباعا تستدير حول نفسها، وتماسيح تربض فى المغارات السوداء على الجرف ، تماسيح تنهش الأبقار والأطفال وتحملهم الى المغارات تتركهم هناك حتي تتعفن الأجساد فتزدردها لتعربد بعد ذلك بين الشاطئين .

وفجأة ، وأنا أمد بصرى إلى الشاطىء المقابل، تسمرت عيناى على الماء وهو ينشق عن جسم هائل يخترقه من الغرب إلى الشرق، حتى وصل فى سرعة البرق إلى « الموردة» الملاصقة للساقية، ولطم الفلوكة لطمة كادت تقلبها.. لطمة أثارت موجة عالية من الماء ورذاذا تساقط على يدى ، ثم استدار دون تمهل فى حركة لولبية إلى وسط النيل يشقه تماما مثل محركات البواخر.. فارتعدت فرائصى لمرأى التمساح، وكدت أقفز من الهودية هاربا بجلدى، تاركا بقرتنا تدور وتدور حولها فى الساقية.. إلا أن اختفاء التمساح وصوت حسن المصرى سكبا فى قلبى هدوءا أخذت أستعيده لحظة بعد لحظة.. وأنا اتلفت هنا وهناك ، تكاد عيناى لا تستقران على شىء!

ومن الناحية الشرقية ، فى الطريق العام ، لاحت فتاة أخذت تتحرك ببطء وعلى رأسها « كوبية» نحاسى (وعاء كبيريستخدم كالجرة) تتوهج الشمس عليه وتنعكس منه أضواء باهتة صفراء على وجهها الأسمر ذى التقاطيع النوبية وأخذت أحدق البصر لأميزها ، غير أنها اختفت فجأة على مسافة قريبة من ساقيتنا، بين عيدان الذرة ، وفى نفس الوقت سكت حسن المصرى عن ترديد أغنيته.

وتملكنى الفضول فأخذت أرنو ببصرى فى اتجاه الفتاة، أفتش عنها هنا وهناك إلى أن وجدتها تنحنى بين عيدان الذرة، وقد تعرت ساقاها، تلتقط بعض الحشائش والعيدان.. ومن خلفها حسن المصرى يقترب فى هدوء وحذر.. بينما أنا أمعن النظر فيهما، فى الفتاة المنحنية لا تبالى بشىء مما يدور حولها، وفى الرجل المتسلل اليها.

وقفز قلبى فجأة، فقد رأيته ينكب على الفتاة ويحيطها بكلتا يديه، ويمد يمناه الى خاصرتها ويجذبها إليه وهي تقاوم في عناد..

ومد الرجل يسراه وقبض علي فخذها، وقد كمم فمها بيده اليمنى ثم انكفآ علي الأرض، وتدحرجا فوق عيدان الذرة التى تكسرت تحت ثقلهما .. وبدت الفتاة ضائعة ، إلا أنها تمكنت منه ودفعته دفعة كفأته على وجهه .. ثم استوت علي قدميها وهرولت الى الطريق العام، وهى تنفض ترابا علق بجلبابها وشعرها ثم حملت « الكوبية » واتجهت الى الشاطىء وهى تتلفت خلفها، وتضم ثيابها التى تمزقت عند صدرها وتتحسس فخذها. ولبث حسن المصرى لحظة يتتبعها بعينيه صامتا حتى توارت عن ناظريه، ثم عاد إلى غنائه وكأن شيئا لم يحدث.

لحظة خاطفة تم فيها كل شىء ، وفى سرعة أذهلتنى .. وتبدى لى حسن المصرى شخصية جديدة ، فلقد شهدته يصلى ويبكى ويحمل الأثقال ويرمم الجدران ويتسلق أشجار النخل ليجنى لنا نحن الصغار رطبا جنيا مبكرة.. فإذا به اليوم يبدو رجلا قاسيا .. وتذكرت هنا قصته مع زينب فى الكلح، وأصابتنى رعشة إلا أننى أدركت إدراكا غريزيا أن ما يحدث يجب ألا يذاع، إذ كنت أحب الرجل وأتعلق به منذ أربعة أعوام .. منذ كنت فى الرابعة من عمرى.

* * *

وها هى الفتاة تقبل على « المورده » فى خطى لا هثة.. تتلفت إلى الوراء خشية أن يلحق بها الرجل، وهالنى الأمر فإنها «شريفة» صديقة كل أطفال النجع، فتاة فى سن برعى دولحظ.. ممتلئة القوام ، بديعة القسمات سمراء، واسعة العينين تتهدل ضفائرها علي كتفيها من تحت طرحتها الخفيفة السوداء.. متوسطة الطول ،.خفيفة الحركة مثل الفراشات ، يتيمة ، تعيش مع أمها «داريا سكينة».

توقفت عند الشاطىء ، وهى تلهث ، ثم انحنت بعد أن استدارت قليلا لتلقى نظرة على الطريق .. وطفقت تغمس «الكوبيه» النحاسى الأصفر فى الماء. واختلط صوت ارتطام الوعاء بالماء، بصوت حسن المصرى وهو يسكب ألحانه ، بينما انشغلت من جديد بالبقرة ودورانها وحركة القواديس والموج وهو يعلو ويهبط ، والتيار المندفع بلونه الداكن الحمرة إلى الشمال، والمراكب الشراعية وهى تشق طريقها فى جهد، وبرعى وهو يجهد نفسه مع الشادوف على شاطىء الجزيرة والقصر الأثرى والرياح تنفذ من قممه المتثلمة، ومن حوله رمال سافية تدور فى اتجاه الريح..

وفجأة ارتفع صوت نسائى حاد يخترق طبلة أذنى، وينتشلنى من تأملاتى الصغيرة فى استغاثة باكية. وحانت منى التفاتة إلى موضع شريفة فلم أجدها!! فقفزت من مكانى وجريت إلى الشاطىء والصراخ يعلو ويندفع بعيدا . بينما الرجال على مصاطب النخل يفركون عيونهم، وحسن المصرى يجرى على الطريق العام مندفعا كالسهم. وأدركت بعد لحظة معنى تلك الاستغاثة.. فقد كانت الأمواج العالية تبتلع شريفة بينما طرحتها تعوم فى مكان غير بعيد من « الموردة ».

وتغلب رجلان على اضطرابهما، وصاحا بالرجال النائمين على المصاطب ، ثم اتجها إلى الفلوكة واندفعا بها فى النيل.. إلا أن حسن المصرى كان أسرع منهما ، إذ خلع جلبابه والقى بنفسه إلى التيار، يحمله بسرعة إلى أن حاذى شريفة.. فإذا بها تغوص للمرة الثالثة!

المرة الثالثة! نهائية وحاسمة، أقدر للنيل إذن أن يطوى بين ذراعيه نوارة النجع وابتسامتها

المشرقة!؟ إبنة داريا سكينة، حبيبة برعى دولحظ، والتى مزق حسن المصرى جلبابها تماما فوق الصدر منذ حين قصير ، بين عيدان الذرة فى حقلنا.

أخذت أفكارى تلهث بى وأنا أجرى على الشاطىء ثم توقفت أفكارى حين لمحت برعى هنالك على جرف الجزيرة يترك الشادوف ويلقى بنفسه بين أحضان النيل الهائج المائج وترددت أنا لحظة ثم ألقيت بنفسى تحملنى الأمواج إلى حيث تغوص شريفة وتموت، وأخذت ألعن نفسى على ترددى ، ولا أدرى ما الذى كنت سأفعله إذا ما بلغت موضع شريفة، بجسدى الصغير، ولكن « برعى دولحظ» زعيم النجع قد ألقى بنفسه فى النيل لإنقاذ نوارة النجع.. النوارة التى نحبها جميعا.

وتذكرت التمساح بينما التيار يندفع بى إلى الشمال ، فتيبست مفاصلى ولم تعد قدماى تحركان الماء حتى كدت أغوص ، بيد أن التيار كان قد حملنى بسرعة حتى حاذيت الفلوكة ، فمد أحد الرجلين يده وانتشلنى على ظهرها ثم أخذا يجدفان بقوة ليبلغا الموضع الذى رأيا شريفة تغوص عنده ..

ولكن أين شريفة الآن؟

سرحت ببصرى إلى الشمال .. فرأيت برعى والتيار يجرفه حتى غلب على أمره .. فأسلم نفسه للتيار يحمله أنى شاء.

وهناك قريبا من الشاطىء الشرقى ، فى مواجهة نتوء من الأرض يمتد داخل النيل ، كان حسن المصرى ينتشل نفسه من النيل ويجذب وراءه كومة سوداء !! وحدقت فى الكومة .. أهى شريفه ؟..ربما .. فذلك هو جلبابها الأحمر بنقطه البيضاء المستديرة .. المرة الثالثة!.. آخر مرة.. أتراها ماتت مخنوقة في النيل؟

واتجهت فلوكتنا إلى برعى وانتشلته .. وما إن استوى على الفلوكة واسترد انفاسه حتى اتجه إلينا يسأل.

- مالذى جرى؟

ورد عليه أحد الرجلين:

- أهدء الآن وسترى .. صبرك بالله...

- أماتت؟

وأردف فى لهفة قبل أن يجيب عليه أحد

- ومن هى؟

ثم أشار إلىَّ فلم أجب .. شىء غريزى دفعنى إلى عدم الإفضاء بالسر.. أأقول له أن شريفة ماتت؟ ولما لم يجد منى جوابا اتجه إلى الآخرين ببصره وقال فى توسل:

- رأيتموها ؟

وواجهاه بصمت مطبق فأردف:

- أهى..

وقاطعه أحد الرجلين بحدة: سبحان الله ياولد! لماذا تتعب نفسك؟ لا أحد يعرف ، لكنها من

نساء لجعنا.. لعنة الله عليها.

وأضاف الآخر.

- نساء ناقصات عقل ودين.. العفاريت تنام فى مثل هذه القيلولة .. العفاريت ..

وحدق الآخر فى وجهى وقال وكأنه تذكر أبى.

- والشيخ أمين هو السبب. لو أصلح الموردة.. لما زلت قدمها فقلت فى حدة:

- والموردة مالها..

فانبرى برعى يصرخ فى وجهى:

- لو كانت سليمة مبطنة بجذع نخل لما تآكلت ولما انزلقت المسكينة إلى التيار..

وفى هذا الوقت .كان جمع من الناس .. قد ازدحموا على شاطىء الجزيرة وعلى النتوء الممتد إلى النيل.. بينما السفينة الشراعية الكبيرة ذات القلوع الثلاثة تتوسط الطريق بين ساقيتنا والمنحنى الشمالى، وعليها رجال سمر يتجهون بعيونهم إلى النتوء وأيديهم ممسكة بالسكان والشاغول.. وبحبال متينة من الليف والتيل .. يلقونها على بكرة عالية .. وشغلنى منظر السفينة عن النتوء وعن الرجال والنساء الذين تجمعوا هناك. بل كنت فى حقيقة الأمر أمعن النظر فى السفينة حتى لا تتلاقى عيناى ببرعى. فيفهم من حيرتى وارتباكى كل شىء . كنت وحدى أعرف الحقيقة. فماذا أقول له لو سألنى ! أأكذب عليه وأختلق له اسما آخر .. غير اسم شريفة؟ لم نكن قد تعودنا بعد أن نتبادل الأكاذيب حتى ولو كانت بيضاء!..

إنه يكبرنى.. ولكنه فى نفس الوقت يصغر الرجال .. وليس مسموحا لمن فى سننا توجيه الأسئلة إلى كبارنا.. ولذلك أخذ برعى يصب أسئلته على رأسى أنا، وعلّ واحدا منهما يتفضل بالإجابة . ولكنهما كانا لا يعلمان شيئا. أنا وحدى كنت أعرف القصة كلها ، وتمنيت لو استطعت أن أقول له:

- محبوبتك شريفة زلت قدمها عند الموردة.

فيطلق صرخة مرعبة ثم يسأل:

- أماتت؟

- كلا .. مازالت تعيش ..

تمنيت أن أقول له ذلك : لكنى وجدتنى أسبح مع أفكارى هذه وأنا أشيح بوجهى عن برعى.. وأحدق في الأمواج.. وأحسست بحزن شديد .. ومن يدرينى أنها لم تمت بعد .. من يدرينى ؟مسكين أنت يابرعى.. والمسكينة الأخرى هى داريا سكينة.. أم شريفة.

فشريفة وحدها تؤنس وحدة أمها الأرملة الشابة التى لم يعد لها فى الوجود غير ابن اضطر ان يهاجر إلى مصر أم الدنيا ليعمل هناك ولكن سنة كاملة مضت دون أن يكلف نفسه عناء إرسال خطاب واحد شأن كل المهاجرين.

« داريا سكينة» المسكينة تعيش فى النجع على محصول بضعة نخلات والعمل فى البيوت تطحن وتغسل وتغربل وتعجن.. وتربى فى بيتها المتهدم بعض الدواجن والحملان. أما القيراطان اللذان تملكهما فقد رهنتهما عند أبى وفاء لبعض ديونها.. غلبانة.. أنها ستحرم حتى من ابنتها

.. سنحرم منها نحن جميعا.. داريا ستجن.. وتقتل نفسها من الحزن.. ستذرف الدموع وتصبغ وجهها بالنيلة.. كما فعلت أمي حين مات أبوها.

واشتد قلقي على الأم.. وانشغلت بالتفكير فيها عن برعى وأسئلته .. فكف عن ملاحقتى .. وانتصب على مقدمة الفلوكة يمد بصره إلى النتوء الشرقى يستكشف ما يدور هناك.. إلا أن التجمع الصغير من الرجال والنساء كان يحجب كل شيء عن ناظريه فتنهد وضرب كفا بكف ، بينما الرجلان صامتان يضربان الماء بمجدافيهما ..، ويسرعان بالفلوكة الى النتوء الشرقى.. ولا يهمسان أو يقطعان صمتهما إلا بكلمات مقتضبة.

- دنيا!

فيبتلع الآخر ريقه، ويبصق فى راحة يده ويقول وكأنه يردد قطعة من المحفوظات:

- غرورة!

ويمصمص الأول بشفتيه، ويطرقع بلسانه ويضرب الماء بقوة وقد برزت عروق رقبته ويرددلاهثا:

- لا إله إلا الله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

وأرسلت الفلوكة أنينا خافتا.. وهى تجنح إلى الشاطىء عند النتوء الشرقى ، فقفزنا جميعا إلى الأرض .. وفى سرعة كنا عند التجمع الصغير.. رجالا ونساء يستديرون بالكومة السوداء التى لم استطع تبينها من خلال قاماتهم الطويلة.. فأخذت أتنقل من رجل إلى آخر، حتى وجد برعى ثغرة يطل منها فأسرعت إليه، نتلصص معا إلى داخل الحلقة، وأصابنى رعب شديد وتقزز حين رأيت شريفة ملقاه على الأرض وقد التصقت ضفائرها بجبينها الملطخ بالوحل.. وتذكرت المعركة التى دارت بينها وبين حسن المصرى حين رأيت نهدها يبرز من خلال جلبابها الممزق على الصدر.

والتفت برعى إلىّ وفى عينيه بريق خاطف وسأل:

- من؟ شريفة بنت«داريا سكينة»..

ولكن أحدا لم يجب. فانسحب بعيدا وقدغطى عينيه براحتيه حتى لا يرى حبيبته ملطخة بالطين عارية النهد..

كان رجلان عجوزان ينكفئان على جسدها الصغير يجسان بدنها ويتناوبان تدليك صدرها.. وهى ما تزال جثة هامدة.. حتى أقبل عم محمود حلاق الصحة والقى نظرة عليها ثم أمر:

- أبعدوا .. اتركوها تتنفس..

فاتسعت الدائرة ، وركع هو على ركبتيه بينما تنحى العجوزان ثم أمسك بها من قدميها.. ورفعها فى الهواء حتى بان فخذاها ، وفغرت فاها.. فاندلق الماء غزيرا من جوفها إلى الأرض تحت أقدام الرجل.. كان منظر برعى فى هذه اللحظة مشهد إنسان ماتت أمه أمام عينيه . دموع تسيل على خديه، وعينان تتقدان، ووجه مطرق إلى الأرض.. وقدمان ملطختان تتحركان به هنا وهناك.

كل أطفال النجع كانوا يعرفون حبه لشريفة.. لكم بطش بأطفال «نجع السواردة» إذا ما

تغنى أحدهم باسمها..أنا بنفسى سمعته مرة يهدد ويثور لأنه سمع أحد النوتية يتغنى باسمها على نقرات دف.. كان يريد اسمها وقفا على لسانه فهى له .. ولن ينزعها منه احد .. لكن ها هو الموت!

ولم يستطع برعى أن يتحمل الصدمة .. فانزوى بعيدا على جذع ميت ينبش الأرض بقدميه.. وينهض من مكانه بين الحين والآخر ليقترب من الحلقة ..ويلقى نظرة محمومة .. ثم ينأى بنفسه فى سرعة ليعود إلى مجلسه القديم.. وشفتاه تتمتمان بدعاء غير مسموع.. بينما محمود الحلاق قد أعاد شريفة إلى الأرض وأخذ يدلك صدرها وراحة يدها..وتجرأ أحد الواقفين وسأل.

- ترى هل تعيش؟

- غوروا من وجهها وسوف تعيش..بإذن الله سوف تعيش.. ولأمر لا أدرية شعرت بالارتياح . وانا أستمع إلى كلمات الرجل وأطالع صفحة وجهه فقد أوحت كلماته بالثقة ..كما بدت حركات يديه على صدر الفتاة مريحة تبعث الحياة فى جسدها الممدد علي التراب.

ثم توقف الرجل فجأة وقال:

- الحمد لله.

فتفتح الامل فى قلوبنا .. بينما مضى هو يقول:

- البنت تتنفس ولكنها متعبة من الماء الذى ملأ بطنها..

وتلفت وهو يصرخ:

- هاتوا ملاءة من أى مكان..

فقفز برعى على قدميه..وأسرع عبر النخيل واختفى عن أنظارنا ثم عاد بعد ساعة من الزمن. وفى صحبته داريا سكينة تحمل ملاءة بيضاء متسخة.

كانت داريا تصرخ وتلطم خديها وتشد شعرها.. فرق قلبى لمنظرها وذرفت دمعتين وأنا أراقبها وهى تنتفض بشدة.

كانت في الثامنة والثلاثين.. ما تزال شابة تجرجر جلبابها الاسود الطويل.. وتلف رأسها بطرحة سوداء تمزقت أطرافها.. يرتسم فى عينيها وعلى جبينها حزن شديد..

وانحنت المسكينة على ابنتها وهى تعول وتصرخ:

شريفة! بنتى! والهفى عليك يابنتى!

وجالت بناظريها فى الحاضرين الماثلين فى حزن ثم صرخت:

- يالى من مسكينة، أبوك مات .. أتودين الذهاب إليه..

أهو شرير حتى يدعوك إلى جواره وأنت عروس.. وأخوك «جمال» سافر ولم يعد .. ياإلهى.يالى

وحاول البعض أن يمسك بها ليبعدها لكنها ثارت كالهرة البرية المتوحشة ، وانكفأت على ابنتها تقبلها فى كل مكان .

- بنتى ..ردى عليا..أنا أمك ..أنا داريا..مالك لا تردين..لا يمكن أن تكون السماء..ماذا

سأقول لجمال.. انا الغلطانة..تركتك تنزلين إلى النيل فى هذا اليوم الهائج..شريفة ..شريفة..ردى عليا.

ثم انعطفت فجأة إلى الرجال وصرخت فى وجوههم:

– وأنتم.. ألا تملكون شيئا من أجلى.. خدمتكم جميعا..أنا اختكم..سأجن ياناس حرام عليكم.. اعملوا معروف فى ولية غلبانة..شريفه بنتكم ..اختكم ياهوه..مالكم لا تتحركون؟!

وانكفأت من جديد تقبل ابنتها.. والشيخ محمود يحاول انتزاعها ..لكنها ناضلت فى عناد حتى لاتترك ابنتها..كانت تهذى وتدق بيدها على صدرها وترسل آهات تعقبها تنهدات تغوص فى قلوب الناس فيبكون .. وفجأة رأينا على ثغرها ابتسامة واهنة..فإن شريفة كانت تحدق فى وجه أمها تحاول أن تقول شيئا

وترددت على الشاطىء زغرودة طويلة.. وتنفس الناس الصعداء..وراحت الأم تمسح على شعر ابنتها وعلى صدرها.. وهنا فقط تنبهت لحال ابنتها وللعيون التى تحدق فى جسدها، وجلبابها الممزق فوق صدرها، فانبرت تقول:

– ابعدوا من هنا.. لماذا تقفون هكذا؟..أنجاس أولاد أنجاس ..الا ترون ابنتى عارية؟

وألقت بالملاءة على شريفة. ومضت تنوش الرجال بيديها ولم تسمح إلا لبرعى والشيخ محمود بالاقتراب منها، فحملاها إلى حظيرة عبد الله الجزار.

كنت خلال هذه الأحداث قد نسيت حسن المصرى، فلم يكن أحد يفكر فيه.. اليس غريبا هنا؟ لقد انتشل شريفة وانقذ حياتها، ولو .. فإن هذا هو ما يجب أن يقوم به من كان مثله..

وتلفت حولى أبحث عنه، فوجدته على كومة من السباخ..يرسل بنظراته إلى التجمع الصغير وإلى الحظيرة، مبتل الملابس منتفش الشارب.ولربما كانت شريفة هى مدار تفكيره فى تلك اللحظة..شريفة التى قاومته ثم ألقاها القدر بين يديه بجسدها الناعم..فحملها إلى بر النجاة. وارتفع صوت المؤذن بالعصر من مئذنة الجامع خلف بيتنا، ومع صوته خرجت شريفة من الحظيرة، تستند على ذراعى أمها وعلى كتف برعى، فبدأوا ينصرفون..

وسارت شريفة خطوات حتى حاذت حسن المصرى الذى ظل متربعا على كوم السباخ يراقبها وهى تتعثر فى خطاها، ملفوفة فى الملاءة البيضاء، وتلاقت عيناها بوجهه، واستقرتا عليه برهة وشفتاها تتمتمان بشئ أدركت منه داريا سكينة، أن حسن المصرى هو الذى أنقذ وحيدتها من الموت، فاندفعت اليه تشكره، فى كلمات عربية متكسرة، تختلط بها كلمات نوبية كثيرة، اعتاد الرجل أن يفهمها من فرط ما سمعها فى قريتنا منذ مقامه بها..

وتبسم الرجل ، ثم قام واتجه إلى الساقية..كانت البقرة المسكينة ما تزال تدور ، والقواديس ما تزال تصب الماء في الجدول الكبير، إلا أن هذا الجدول كان قد قطع فسال منه الماء حتى كون بركة فى أرض عبد الله الجزار، فى القيراطين المنطرحين خلف الجدول، غائرين عن الأراضى المرتفعة حولهما..

وارتقى الرجل إلى الساقية، وأوقف البقرة عن دورانها، وتناول فأسا ومقطفا، ومضى إلى الجدول يرممه، فاندفع الرجال إليه يعاونونه، بينما وقفت أنا على الشاطىء بعيدا عن الموردة التى

تاكلت ، انظر فى غضب إلى النيل وكأننى ألومه علي فعلته المنكرة..كانت أمواجه ما تزال تهدر وكأنها تتحدانى، فأخذت أسائل نفسى:

ترى من أين يأتى النيل، وإلى أين؟ولماذا يتجه دائما إلى الشمال!ولماذا لا يعود مرة واحدة إلى الجنوب ؟! وقلت لنفسى ربما يعود فى يوم من الأيام..

سمعت أحدهم يقول إن النيل ينتهى عند الشيخ «شبيكة» بعد المنحنى الشمالى فانبرى له أحمد عودة - خالى - يقهقه ساخرا ويوكد أن النيل لا ينتهى هناك، بل هو لا ينتهى أبدا! إنه يمضى بعيدا بحيث لا تدرك العين منتهاه!!

واقتربت السفينة الشراعية من ساقيتنا، وأنا غارق فى أفكارى وألقت ظلال أشرعتها طويلة على صفحة الماء،ومعها ظل ملاح أسمر.

كانت تجرجر نفسها فى بطء .كانت سفينة كبيرة سوداء، محملة بعشرات الصناديق، غاطسة فى الماء حتى لايبين منها غير مقدمها وإلا زيق ضيق من الخشب المطلى بالقار،ينسجم مع لونه دخان ضئيل أخذ يرتفع من داخل السفينة، من كانون زوجة الملاح التى انهمكت فى إعداد وجبة العشاء لزوجها ولاولادها ملاحى السفينة..

إنهم فى كل عام يقبلون بهذه المراكب قبل بداية الموسم: تظهر إحدى السفن ، وتتلوها أخريات من الشمال، تظهر أولا عند المنحنى الشمالى وتصعد إلى الجنوب، وترسو على مرافئنا فى أماكن متباعدة من شواطئنا الجنوبية، وتفرغ حمولتها وتظل راسية هناك، شهرا أو شهرين يعرضون بضاعتهم فيها حتى ينتهى الموسم..

وكنا جميعا: نحن الصغار نحب هذه المراكب ولذلك دنوت من الموردة ، وأخذت أتأمل السفينة السوداء فى شغف ولهفة وإلى جانبى عم محمود.وحين دنت السفينة من الساقية ، وحاذتها ، ارتفع صوت الملاح يوجه كلماته إلى عم محمود:

- **أنان هالى**..كيف حالك؟
- **اشرى يا**.. الحمد لله.. وانت؟
- **سكاركالاجا**.. مثل السكر..

وقهقه الرجل الواقف على الشاطىء، فقد عرف الرجل من لهجته وصوته والفاظه وسمته:

-**آه .. ها** ! ازيك يا باشرى؟

- الحمد لله ، موسم خير إن شاء الله..

واندفع عم محمود خطوات أخرى إلى الشاطىء ليدقق النظر فيما تحمله السفينة ثم سأل:

- وأين ترسو : أليس هنا مكانك؟

وأرسل **باشرى** ضحكة قصيرة وقال:

- كلا؟ ليس الآن. نحن مسافرون إلى حلفا بحمولتنا هذه ثم نعود فى زمن الموسم..

أما برعى فقد ظل يتردد على العنجريب الذى رقدت عليه شريفة يلقى عليها نظرة إشفاق، ثم يعود ليجلس على المصطبة قلقا وكأن زوجته تلد فى الداخل..واقتربت منه ورويت له عن سفينة **باشرى** فأعرض عنى، وكأنه لا يبالى بشىء، وبدا على وجهه أنه يفكر ويصيخ السمع إلى

الحاصل..

ثم أقبل عليّ يفضى إليّ بسر اختزنه فى صدره:

- سأشترى لها شيئا فى هذا الموسم.. غوايش أو طرحة ملونة، مشغولة بالخرز..

وأطرق ثم أضاف:

- وسوف أصلى فى الفجر من أجلها عند مقام الحاج مكاوى، فى الجبانة..

وأخذ يهز رأسه وقدميه المتدليتين على المصطبة، وكأنه قد انتهى من همومه،وقلت له: لكن صومعتك فارغة..لا بلح فيها!

فقال بحدة وكأنه يصفعنى:

- لا شأن لك بهذا..سأملؤها فى أى وقت.. أشجار النخيل كثيرة..



فى قريتنا تعود آباؤنا وأشقاؤنا ،أن يسافروا ، يودعون فى ألم مجبرين على الرحيل ويشربون سطل لبن، وهم يخطون أولى خطواتهم على عتبة البيت خارجين،يزدردون معه حبيتن من التمر، ثم يرحلون فى جمع من أهل النجع إلى المحطة النيلية، راكبين أو راجلين، ثم تقلع الباخرة إلى الشلال، ثم يحملهم القطار إلى مصر أم الدنيا أو الاسكندرية.ومنهم من يعيشون هناك سنوات طويلة، وقد لا يعودون أبدا،ومنهم من يغيب بضعة شهور يعود بعدها الى أهله، ومنهم من يتوهون فى زحام المدينة، فلا يعرف أحد مصيرهم، حتى خطاباتهم تنقطع، فيلح أهلوهم فى السؤال عنهم،ويلحفون فى السؤال حتى تمر الأيام، ويصيبهم اليأس، فيسكتون طاوين صدورهم على حزن مرير..

وعند الرحيل يبكى الناس،أما عند عودة الغائب فإنهم يفرحون، الزوجة تفرح، والخالة والعمة والإبنة والأعمام والخيلان يفرحون لعودته بالسلامة، ولأنه غالبا ما يحمل إليهم من مصر أم الدنيا أشياء قد تكون فى متناول اليد، يمكنهم شراؤها من الدكاكين المنتشرة فى كل قرية،أو فى عاصمة المركز إذا أرادوا، أشياء قيمتها أن تهدى إليهم، أن تكون جسرا بين قلب العائد الى قريته وقلوب الذين ظلوا ينتظرونه، يسألون عن صحته ويوم عودته شهورا أو سنين طويلة، لا ينسونه مهما طال بهم الزمن أو ابتعد المكان. حفنة شاى، جانب سكر ، طرحه خفيفة ملونة لهذه الفتاة، قبضة صغيرة من الحناء لشعر هذه العجوز، ومداس أحمر للصغيرة، وطاقية ملونة للولد، وسبحة طويلة من الكهرمان لهذا العم، وحفنات من الفول السودانى والحمص. وملبس لهؤلاء الأطفال، ومصحف لشيخ الكتاب أو المأذون، وأنواع من العطارة لحلاق الصحة- عم محمود- وزجاجة عطر نفاذ من«**حسنين الماوردى**» فى التربيعة للزوجة، وقوائم طويلة من اخبار الغائبين المزمنين لأمهاتهم وآبائهم وزوجاتهم وعيالهم!

كل عائد فى قريتنا ، يستقبل كما يستقبل المولود أو الحجاج. كل واحد، كل واحدة تستقبله، وفى قلبه أو فى صدرها أمل .. وياويل العائد حين تخلو جعبته من أخبار الناس..

ذلك الوداع الحار هو ما ودع به خالى - **أحمد عودة** - منذ شهور:زوجته تودعه، وأمه تدعو له، وامرأة أخرى من الجيران تستحلفه:أن يتصل بابنها الوحيد الغائب، وأن يعود لها بأخباره، فقد انقطعت منذ شهور، وإذا كان «خالى شغل»أو «بطال» فليس عليه من حرج! ما عليه إلا أن يعود ورزقه ورزقنا على الله!

وهذه أخرى تدنو منه وتميل على وجهه وتسر فى أذنه، كلاما دامعا يظل سرا بينهما : أن يحمل زوجها على استدعائها فى مصر! لقد طال غيابه وهى فى القرية لا تريم، إنه يرسل طرودا وحوالات مالية ورسائل تكفل عيشها. إنه لا يقصر فى كل ذلك، ولا يتخلف شهرا .ولكن الحياة كما تعلم ياأحمد عودة ليست مجرد خطابات وطرود..فالأطفال زينة الحياة الدنيا.. لقد كبر ابننا إبراهيم دون أخ يؤنس وحدته أو أخت تساعدنى فى شيخوختى!

ويضحك أحمد عودة ويداعبها ، ثم يقرصها من خدها على مرأى ومسمع من الناس، ثم يعدها خيرا ليفرغ لغيرها..

هكذا رحل منذ شهور ، الكل يأمل من رحيله خيرا ، والكل يأمل فى عودته خيرا..

ولخالى فى كل عام رحيل وعودة. الناس جميعا يثقون فى أنه سيقوم بكل ما أوصوه به، فهو لا يرحل إلى مصر ليقيم ، بل جدير به أن يعود سريعا إذا ما رحل، فله أعماله فى النجع : زراعته ومتجره، وصحابه الذين لا يملهم ولا يملونه..وهو رجل مستنير ، كثير الصلات بتجار القرى والمركز، خبير بدروب القاهرة وشوارعها وملاهيها ،معتز بنفسه، يصلى كل فرض. ويصوم رمضان، ويؤدى كل فريضة وإن كان لا يهمل ذاته، فهو يحب من الطعام أجوده، ومن الشراب آشهاه وأطيبه، ومن الملابس أزهاها وأنعمها ملمسا، ومن الأصدقاء أرفعهم ذكرا، يعرف لنفسه حقها فى الحياة، وللعمل قيمته فلا يتوانى..

ورحيله ليس إلا نوعا من العمل، يرحل وفى جيبه دفتر طويل.فيه ما على الناس من ديون، يستوفيها من أبنائهم فى مصر وبقية المدن،فهو يرحل إذن للترويح عن النفس وفى نفس الوقت للعمل ، يرحل ويبقى أبى فى المتجر- فهما شريكان- يديره بمفرده ريثما يعود الخال..

كان أبى لا يقرأ ولا يكتب إلا بصعوبة شديدة، وكان علىَّ أن أساعده فى تدوين ما يصرف من المتجر وما يستورد إليه، وما على هذه وتلك من ديون..

وكم رأيت أبى حين تستهويه الكتابة، يفترش الأرض وينكفىء على الدفتر، ويمسك بالقلم فى قسوة بين أنامله، ويكتب الكلمات فى خطوط عريضة متعرجة، فيملأ السطر كله بكلمتين : داريا سكينة، ووقة سكر ووقية شاى، فأهرع لمساعدته فيتأبى، ويدفعنى بعيدا عن الدفتر فى كبرياء، ثم تتعب عيناه وتكل أنامله فيسلم الدفتر لى، ويظل يراقبنى فى حذر وأنا أكتب..

وكان من الطبيعى أن يختصم أبى وخالى على بعض حسابات المتجر، فيصر أبى وهو يشد قامته أن تتم المحاسبة فى وجودى أنا الذى لا أدرك كثيرا مما يقال ، ولكن أبى رغم ذلك كان يصر ، ثم يطمئن إذا ما حضرت، ولكن المحاسبة كانت تتم فى نهاية الأمر كما أراد خالى لها أن تنتهى، فلم يكن حضورى إياها ذا شأن كبير أو صغير.. ولكن الرجل كان يطمئن إذا ما حضرت..

خالى هذا لم يكن إلا ابن عم لأمى، ولكننا فى بلادنا نحب أشقاء أمهاتنا وأبناء أعمامهن الأقربين والأبعدين ، ونعتبرهم خيلانا نعتز بهم، ويعتزون بنا، فإن أخلاق المدن وعاداتها لم تكن قد أفسدت بعد حياتنا ! فظلت علاقاتنا الاجتماعية على الدوام بقية وشائج - التعاطف والحنو.. وكان أبى فى نفس الوقت خاله شقيق أمه، ومن هنا كانت فرحة أبى تتزايد، وترتفع روحه المعنوية حين يعود هذا الخال سالما، فيستريح من تدوين حسابات المتجر ومن مناهدة كل زبونة، فكم كان يعانى منهن وكم كن يعانين منه! ويطمئن عليه بعد هذه الغيبة فى مصر ذات العربات والعجلات والنساء وكان هذا الخال يعتبرنى إبنا من أبنائه، يتعهدنى كما يتعهدهم ، ومن هنا كانت فرحتى، وفرحة جدتى وأمى وشقيقتى، وكل أهل النجع بعودة هذا الغائب العزيز. الجميع يذكرون أياديه، ويحمدون له صنائع قدمها لهم...

فبعد رحيله بأيام كان يتحقق للناس كثير مما أوصوه به، فتسافر الزوجة إلى زوجها ويأتى الخبر بعد عام أو عامين أنها انجبت أطفالا ، ويرسل الأبناء مزيدا من الطرود لذويهم، وبعد عودته يعمر المتجر بالجديد من الحلوى والشيت والفوال والطرح الملونة، فيحمد الناس له عودته..كان

لعودة الغائب فى قريتنا شأن وأى شأن ..

منذ شهر أو يزيد والناس فى نجعنا يعلمون بعودته، فقد أرسل منذ أيام تلغرافا أخذنا بعده نتهيأ لاستقباله على مرسى الباخرة فى « أبريم ». وبدأنا نفرش داره بالرمل الناعم الأصفر ، ونطلى جدرانها، بينما البنات والأم والزوجة يخرجن من السحاحير، اطباق الخوص الملونة،واطباق الصينى المزخرفة يلصقنها فوق جدران الدهليز والديوانى« والمندرة »منكفئة على وجهها ،وملاءات بيضاء نظيفة ، والحفة لامعة ، يفرشنها على أرائك ، وعنجريبات رصت فى الدهليز والمندرة.

كل من فى الدار يتحرك والجيران وجيرة الجيران يأتون للمساعدة، كل واحدة تتقرب إلى زوجه وأمه، لتكون أقرب الناس إلى الغائب حين يعود..

كانت الباخرة تصل عادة فى المساء، وللنوبيين فى انتظار هذه الباخرة «البوستة» عادات وتقاليد، فهى همزة الوصل بينهم وبين مصر، فلا قطارات تصل بلادهم بالسودان أو بالمدن الزاهرة فى مصر،ولا عربات ،كل ماهنالك هو أعمدة التليفون والبرق ، والجمال ، والنيل والبواخر تمشى على الماء كالسلحفاة ما بين الشلال وحلفا فى يومين أو ثلاثة أيام ، لا تربط فى قريتنا إلا مرة كل أسبوع.. ورغم ذلك فقد اعتمدوا عليها فى حياتهم ، فى اتصالهم بالعاصمة وبمن فيها من الأبناء الغائبين،وفى نقل السلع والغلال من المتاجر وإليها..

وفى كل اسبوع.. كنا نذهب إلى المحطة النيلية، وننتظر الباخرة، فتتبغدد علينا ولا تصل فى مواعيدها، فنظل ننتظر وننتظر حتى يصيبنا الكلال، فننام على الشاطىء حتى تصوصو فى عيوننا بأنوارها الزاهية من بعيد، فيهلل الصغار وتصفو نفوس الرجال والنساء..ثم تدنو وتتهادى رويدا رويدا إلى أن تعانق المرسى ،وترمى بالسقالة الى الموردة وتفرغ حمولتها من العائدين والطرود والرسائل ويبتاع ركابها الصاعدون إلى الجنوب علب التبغ ومئات من ثمار الليمون..

ومنذ الأصيل فى ذلك اليوم. رحنا جميعا، أبناء العم والخال نسوق فلوكتنا إلى المحطة النيلية.. وأقبلت الباخرة كما تقبل العروس: علم يرفرف، وثريات تسطع،دنت حتى جاوزت الشمندورة الحمراء، ثم انعطفت إلى الشاطىء ورست، وأطبقت شفتى قلاباتها عن الحركة فأطل العائدون علينا..وعلى غير العادة ، كان العائدون كثيرين فى تلك السنة، وكم كانت مؤثرة مشاهد استقبال الناس لهؤلاء العائدين فى تلك السنة بالذات..فقد كانوا أشكالا وألوانا من الناس، لم تعهدهم القرية منذ زمن بعيد.. فهذا رجل أشيب الفودين، ابن من أبناء القرية ،تركها منذ ثلاثين سنة شابا ، وها هو يعود مع ابنائه اليوم عجوزا ،وهذه البيضاء امرأة من مصر، تزوجها رجل نوبى هناك وأنجب منها ثم مات.. عاد بها ابنها فى هذا العام الغريب الشاذ في حياة قريتنا.. عودة لم أدرك مغزاها إلا بعد شهور طويلة، فهى تتصل **ببركات أفندى**، والطرابيش والوجوه البيضاء ودفاتر التسجيل..

وهذا هو **«عبده الفرنساوى»** : صغير الجسم، لقب فى مصر وفى القرية بلقب«عبده بتيت»..فقد كان يعمل عند عائلة فرنسية منذ كان طفلا صغيرا فاستحق هذا اللقب بجدارة، لا يعرف من لغتنا إلا كلمات متاكلة الحروف والنهايات، ولا يجيد العربية، ويتقن رغم ذلك لغات سبعا منها الإنجليزية والفرنسية يلوى بهما لسانه، كما يلوى الخواجات ألسنتهم..لم يعد « عبده

بتيت» إلى وطنه إلا فى هذه المرة، وكانت له أم وأخت والأم والأخت قد كبرتا حتى بلغتا سن الشيخوخة والكهولة.أقبلتا متساندتين فى صحبة نفر من الأهل تستقبلان الإبن والشقيق الغائب طيلة العمر.ياللعواطف الجارفة التى تجتاحهما وهما تنتظران الباخرة : إحداهما ببصر كليل، والأخرى أرملة، عاشت منذ زمن بعيد تتمنى هذا اللقاء وتتشوق إليه، جدران بيتهما مزدانة بصوره التى اعتاد إرسالها . فصورة له وهو يعمل فى مصر، وثانية في باريس وثالثة فى زيورخ وكارلسباد ، ومن حوله شقروات بصدور عارية وعيون.. ياللعيون!.. لقد طاف بكثير من عواصم العالم ومرافئها وزار مختلف البلدان الأوربية.. نزل هذا الرجل من الباخرة، فأحاطت به الأم والأخت ونسوة العائلة يقبلن صفحة وجهه ورأسه، ويلثمن قدميه ويديه وصدره وفخده،كل قطعة من جسمه..توقف الرجل علي الضفة التى ولدته، برهة قصيرة يمعن النظر فى أشجار النخيل الباسقة، وقف وعلي شفتيه رعشة، لا يفوه بكلمة وكأن شيئا ما يقف فى حلقه، ثم انثالت دموعه، وهو يحاول أن يتجلد، ويظهر بمظهر الرجال أمام نسوته اللاتى التففن به، يمسكن به ويبتعدن عنه يراقبن طوله وعرضه وقسمات وجهه ثم تصرخ إحداهن:

..آه ياابن سهيلة خليل .. كم كبرت؟!

فيرد عليها بكلمات عربية متكسرة فلا يفهمن منه شيئا، ويبدين سرورهن بعودته..ألم يعد غائب مزمن إلى وطنه؟!

وانشغلت أنا بهذا الرجل لحظة، ولم تطب نفسى إلا بعد أن علمت أن أمه جارتنا في النجع القريب من نجعنا، وأننا سنراه إذن في كل يوم، فاستدرت عنه إلى خالى الذى توسط جمعا من المستقبلين، يبش لهم،ويتندر بهم.. وكان كما عهدته: متوسط الطول، عريض المنكبين،شامخ الأنف أفطسه،أسود الشعر غزيره،إلا شعيرات قليلة بيضاء تناثرت فى فوديه ومؤخرة رأسه. أسمر الوجه تشوبه حمرة خفيفة، ساخرا قوى العزيمة البادية فى عينين واسعتين، يشع منهما ذكاء التاجر الريفى الرحالة الذى عرك الدنيا وعركته..وتبسم حين رآنى، ثم شدنى إليه ورفعنى إلى صدره، وقبلنى وهو يمطرنى بأسئلته عن أبى الذى تخلف فى المتجر، وعن أمى والمتجر وشيخ الكتاب، وعما حفظت وهل تهيأت للأزهر أم ما يزال أمامى شوط بعيد؟ وهل دونت أنا كل شيء يتعلق بالمتجر،أم تركت أبى يملأ الدفاتر بكلماته العريضة غير المقروءة،فأخذت أجيبه [illegible]تضاب ، وأنا أتأمل وجهه وأشم رائحة ذكية تنبعث من ثيابه.. رائحة مصر..ثم انهمكنا في حمل شنطه وأمتعته، نتحسسها ونجس ما فيها ففيها ولا شك بعض ما ترقبناه، وسريعا ما حملناه إلى الفلوكة، فأقلعت بنا وبه لترسو على الموردة قبالة ساقيتنا.. وبعد العناق والأحضان ، خلص الرجل إلى «المندرة» وتربع على أريكة ، وبدأ الناس من نجعنا ومن النجوع القريبة يتوافدون عليه، والكوانين مشتعلة وأكواب الشاى ، وفناجين القهوة تدور عليهم..وأمرنا الرجل فأدرنا على الضيوف صندوق سجائره الماكينة، ذلك أن بعض الناس تململوا فتماكروا، وأخرجوا من جيوبهم علبا صفيحية وأخذوا يعبثون بوريقات البفرة، موهمين أنهم يلفون لأنفسهم لفافات من الدخان الأخضر المهرب من السودان عبر الحدود ، موعزين إليه من طرف خفي .كأنهم يقولون:

– وأين الماكينة يا أحمد عودة؟ لقد انتظرناك طويلا

الحلقة وتكبر والرجل يحكى عن

مصر، وعن القطار ويصف المناظر: مناظر قرى كاملة ،وخضرة واسعة اخترقها القطار ست عشرة ساعة كاملة من بوابة الحديد إلى الشلال، وكوبرى سوهاج، والتغيير فى الأقصر، ثم عن الباخرة التى أتعبته وأرهقت بدنه يومين كاملين، وعن مراكب سوداء، ثلاثية الشراع سماها بأسماء أصحابها، شاهدها تشق النيل نحونا، ثم لف بالناس أحياء مصر والاسكندرية: معروف،البغالة، باب البحر وعمارة شارع عدلى والحسين والسيدة عيشه والإمامين والعطارين وعساكر البوليس، وتمن عابدين والفرنساوى فى بولاق ، واستمعوا اليه فى لهفة، وضحكوا كثيرا.. ولمعت أسنانهم بيضاء من خلال وجوههم السمراء الطيبة ومن خلال سحب الدخان المنعقدة فوق رؤسهم. ثم تجرأت واحدة فى منحدر العمر وابتدرته:

- أحمد ياعودة ..

وانبعث صوتها نشازا بين أصوات الرجال فانتهروها:

- اخرسي ياحرمة..

- حرمة في عينك!

وتلتها همهمات أصوات النساء وانبرت أم الغائب تقول:

- دعوها لشأنها.. أليست أختك يا أحمد فى الرضاعة؟

وهدأت الأصوات،فقامت إليه، وقالت متشجعة بالصمت الذى ران بعد كلمات الام:

- كيف حال عقيد؟

وتريث العائد إلى أن رأى أمه تنصرف، فقال بعد أن عبث بشاربه وأمعن النظر فى وجه المتسائلة، ورسم علي شفتيه ابتسامة ساخرة:

- نساء.. ناقصات عقل ودين..

واختلس نظرة إلى الزوجة وأضاف:

- أهكذا تسألين عن زوجك أمام الناس دون حياء.. لعلك تحلمين به طول الليل..

وأضاف الشيخ فضل:

- سمعتها تحلم به فى النهار: عقيد .. عقيد.. عقيد ..ومضى يقلد صوت امرأة تتحرق شوقا إلى رجل، فضج الدهليز بقهقهات الرجال.. واحتجاجات النساء، ودارت المرأة خجلها فى ضحكة خافتة تكتمها بطرف طرحتها، لتقول بعد تردد:

- الله.. إنما اسأل عن صحته!

- وماله .. على كل حال اعرفى أنه أوصانى بك!.. وسكت هنيهة وأضاف وهو يغمز بعينيه:

- طلب منى أن أحل محله.. وكتبت له كمبيالة!

فعادت الضجة والتهليل فقالت غاضبة:

- لماذا لا يرسل جوابا ؟أنا أسأل عن هذا ،ولست أفكر فى السخام الذى تعنيه.

- السخام.. وهل يريد هو هذا السخام ولماذا يريدك للسخام.. النساء بعدد الليمون فى مصر، وجوه سمحة ونهود.. وسروايل قصيرة..

فصاحت: - ليتزوج عشرا منهن.. لن أبالى!.. فقط يرسل لى كلمة بأخباره..

وأضافت بسرعة قبل أن يضحك الرجال..

- لكى أطمئن عليه..

وأجاب العائد:

- عشرا!..ليس له إلا أن يتزوج أربعا فى الشرع.

واندفع حسن المصرى يقول:

- ياه.. ولماذا لا ينزل لى عن واحدة منهن..

فارتجت «المندرة» بالضحك من جديد، واكتسب المجلس حيوية دافقة، يتندرون بالمرأة ويضحكون علي لهجة حسن المصرى.. وأمنيته عسيرة المنال.

ثم يشتد الضحك حين يقول العائد:

- طيب .. ترضى بهذه يا حسن؟

فارتفعت القهقهات هنا وهناك، وراح حسن يتأملها ليلوى شفتيه .. فقد كانت عجفاء معروقة اليدين، ضامرة الصدر، فى عينيها ذبول،تحلى كل أصابع يديها بخواتم ثقيلة..

وأحس العائد أنه قد أثقل علي المسكينة، فقربها وشد على يدها،وأخذ يروى لها أخبار زوجها بسرعة، ثم أمر« أش الله» فأتى لها بطرد كبير أرسله زوجها، فحملته كما تحمل طفلا صغيرا، وتبخترت به عبر الناس، وتركت الدهليز- بين إعجاب النساء - ثم تبعتها شقيقتى بطة بطرد كبير إلى بيتنا وودت لو تركت العائد ، وانطلقت خلفها لأمتع عينى بمحتوياته ولكن..

ومادامت أخبار المهاجرين قد بدأت فإن هناك من يتحرقون شوقا إلى معرفة أخبار أبنائهم وأزواجهن.

ففى ركن بعيد من « المندرة» قبعت «داريا سكينة» وأبنتها شريفه ملتصقتين، وعلى وجه كل واحدة منهما سؤال تترددان فى إلقائه ..يتمنيان أن يسألا عن الابن والأخ الغائب الذى لا تعرفان عنه شيئا..أهو حى يرزق؟ أم هو فى عداد الأموات؟ أيعيش أم ابتلعته عجلات الترام، أو بسمات الغوازى العاريات الصدور.. وتفكران فى قسوة الولد العاق، قسوة لا تفوه بكلمة ، ولا رسالة واحدة. الولد يعرف كم تتمزق الأم خوفا عليه ، وكم تتحرق الأخت لكلمة واحدة منه..إلا أنه رغم ذلك لا يتكرم ..أوصتا العائد به حين سافر.. وأيقنتا أنه لا بد ملاقيه لاقتضاء ديونه..أوصتاه أن ينصحه بالعودة..فهما فى حاجة إلى رجل.أى رجل فى هذه الأيام..أيام بركات أفندى والطرابيش الحمراء.

السؤال ينضح على وجه الأم.. ويكاد يقفز إلى شفة الفتاة.. ولكنهما تترددان إذ تخشيان إجابة محزنة. مجرد توقع رد جاف كان يحول بينهما وبين الإفصاح عن هذا السؤال الحائر بين شفتيهما!

وتجرأت داريا لحظة واقتربت من العائد، وفتحت فاها ثم أحجمت وتعثرت فى ذيل جلبابها الجرجار الطويل ثم تحركت شريفة البادية الحسن من خلفها..تتبعها عيون حسن المصري وبرعى، وتنزلق إلى شفتيها الممتلئتين ..ثم إلى الكرتين اللتين تثقلان صدرها، تنسدل عليهما أطراف طرحتها فى استرخاء..

وتجاوزت الفتاة أمها وواجهت الرجل الذي نظر اليها متفحصا ، ثم مضى يداعبها بكلمات مرحة عن الزوج المرتقب، فتغض حياء وهى تتذكر معركتها مع حسن المصرى وتوددات « برعى دولحظ ». وترددت لحظة كأنها تقرأ شيئا حزينا فى عين الرجل، ثم تجرأت فجأة وألقت بالسؤال.. وكان السؤال كلمة واحدة أطلقتها ثم سكتت

- جمال؟!

وصمت الرجل لحظة.. وقطب كأنما يتذكر شيئا ، وفى هذه اللحظة اندفعت الأم تبكى فى صوت متهدج، وذرفت الفتاة دمعة ،أخذت تضغط علي شفتيها لتحبسها ولكن.. وأدرك الرجل حرج الموقف فقال:

- صبرك بالله ياداريا.. لم أره فى مصر..سألت عنه،.. «**حسين النجار**» هو الذى قال لى .. أنه سافر إلى طنطا!

فقال أحدهم:

- عال.. شى لله يابدوى ؟

وسألت داريا فى صوت مختنق:

- وطنطا ..أهى بعيدة؟

- لا ياست .. وحسين النجار وعد بإرسال جواب حالما يراه .. وران على المجلس صمت ثقيل. ثم بعض النهنهات تنبعث من حلوق نساء، بينما أخذت داريا تنسحب وهي تشد طرحتها علي فمها ومن خلفها شريفة. تسللتا عبر الباب الضيق، فمصمص الرجال بشافههم، وبكت النسوة وجمعن أطراف ثيابهن وخرجن الواحدة بعد الأخرى.

وجاء دور الرجال والسياسة .. فتكلم العائد عن أخبار نشرت فى كوكب الشرق والجهاد والمقطم والأهرام، وعن شباب متعلمين من أبناء النوبة يكتبون في الصحف دفاعا عن حقوقنا. وعن **بدر افندى والمستر هيس** والتقديرات الأولية للتعويضات والمنسوب الذى ستبلغه المياه وأراضى بور لا تعرف الماء نوعد بها في الصعيد ثم انتقل الي إشاعات تدور على دكك البوابين بالذات بوابى وسفرجية وطباخى عمارات وقصور موظفى الرى من الإنجليز والمصريين.. وخدم الباشوات والحكام وسفرجية وطباخى القصور الملكية فى عابدين ورأس التين والقبة.

رأى الخزان وهو عائد : البناء فيه يتم بسرعة وما هى إلا سنة أو سنتان حتى يوفى البناء على غايته ثم يقبل الطوفان..ولن تنتظر الحكومة إلا ريثما يتم الحصر والتعداد وضبط مناسيب النيل.

وحينذاك لن يكون لنا إلا الله.

والأمل كما يقول العائد معقود على سقوط حكومة صدقى باشا.فالمظاهرات تصخب ضدها والناس «خالين شغل» وساخطون،وآلاف الشكاوى ترسل من المدن والقاهرة يكتبها المتعلمون: عجيب والباقر وعبد الصادق ومكاوى والطرابيشى وجمال وبدر أفندى . وحسين طه.

وقال أحد الجالسين وكان رجلا ربعة قصير القامة اصلع تتسم كلماته بطابع الحكمة والجد... شفتاه تحتبسان بعض الحروف فتخرج مضحكة..قال:

- و لكن الطوفان لن يجرؤ على مقام الحاج مكاوى ، فنحن فى رحابه ، وبلدتنا هذه عالية .. عالية جدا ...

ورفع يديه فو ق ر أسه واستطرد:

- ولن يبلغها أى طوفان.. حتى طوفان سيدنا نوح..

ورد الشيخ طه فى سخرية:

- استغفر الله.. لا عاصم اليوم من أمر ربى..

وتهكم آخر:

- أنت ياحموى تحسب الطوفان كوز ما ء يندلق على رأسك، أنت لاتفهم شيئا ياحموى..أنت لا تعرف إلا كيف تبطح الرؤوس!!

فأسكته الجميع، فإن كلمات حموى رغم سذاجتها بعثت الأمل والسلوى فى قلوبهم.

فقد ولدوا جميعا على هذه الأرض، ومن قبلهم ولد عليها آباؤهم وأعمامهم ،إنهم جميعا يعشقون أشجار النخيل، ويحبونها هى والأرض الزراعية والبيوت المبنية من «جالوص» الطين.. والطوب الأخضر.. والنيل ـ شريحته المتدفقة ـ أمام قريتهم.. يعشقونها كما يعشقون زوجاتهم، دار في خلدهم دائما أن بلادهم أجمل بلاد الدنيا، وناسها أحسن ناس فى العالم.. هم الناس وغيرهم ركش لا طائل تحته! حلب لا قيم لديهم! يرحل الواحد منهم، ويحمله الرحيل إلى عواصم بلاد كبرى ثم يدنو الأجل فيعود حاملا كل ما ادخره إلى هذه الأرض ليموت بين أشجار النخيل، وليدفن فى الجبانة المترامية إلى جوار الحاج مكاوى.. فى ظل شفاعته.

فلماذا يصدقون اليوم أن طوفانا يمكن أن يأتى على كل هذا الذى يعشقونه؟أولى لهم أن يصدقوا كل التعلات،أولى بهم أن يحلموا بسراب، يعرف الكثيرون أنه مجرد أمل خادع، إلا أن فى إمكانهم تخيله والتعلق به مادام لم يتحطم بعد..أما الطرابيش فلتتحرك كيفما تشاء وأنى تشاء.

وإذا كان ما يحلمون به من سرابا ، فهناك علي الأقل هذا الأمل الغامض الذى أقامه العائد تمثالا أمام عيونهم الحالمة : أن يسقط صدقى وأن تحل وزارة أخرى محل وزارته،إنهم لم يفكروا لحظة واحدة أن أية وزارة أخرى حتى من ابنائهم ستمضى فى طريق واحد ينساب الطوفان منه الى أرضهم الطيبة،أرضهم التى تحبل وتلد مرتين أو ثلاثا فى كل عام ، وفوق نخيلهم التى يعبدونها ، فإن الطوفان مثل القدر لا مفر من ملاقاته والإذعان له..

لم يفكروا لحظة فى ذلك، فتعلقوا بكلمات «حموى»، وبالتمثال الوهمى.. تمثال الأمل فى وزارة أخرى، تحوش عنهم الطوفان والراجحون وحدهم تعلقوا بتلك الشكاوى، شكاوى ومقالات المتعلمين من أبنائهم.أدركوا أن الخزان ضرورة لوطنهم الأكبر ، مصر، وفكر بعضهم فى كتابة أمثال هذه الشكاوى وانبرى الشيخ فضل يقول:

- حتى النعاج تفعل شيئا حتى لا تساق إلى الذبح!وسكت وكأن عبارته هذه قد عبرت عن كل شيء ، وتدخل عبد الله الجزار ، فى الصمت الذى أعقب كلمات الشيخ فضل وقال وهو يتنهد:

- لو كان اللورد كرومر على قيد الحياة..لما نزلت بنا هذه المصيبة!

ولم يمهله العائد بل بادره بحدة ساخرة:

- دايما تمدح فى النصارى ياعبدالله ..انت غبى وجبان .. مثل الحيوانات النافقة التى تذبحها ولا تعرف إلا كرشك .ملأتها بلحم الخنزير حينما كنت تخدم فى سراى اللورد كرومر..

ورفع يديه إلى السماء وهو يهتف:

- رحمة الله عليك يامصطفى كامل. فترحم الجميع عليه، وان كان الجزار قد طوى صدره على عقيدة جازمة بأن اللورد كرومر كان فى إمكانه إنقاذهم من المصيبة التى تكاد تلم بهم.

وتكلم أحدهم عن النحاس ومكرم ولجنة الوفد فى الدر ورئيسها الشيخ عبد الغفور.. فقاطعه الجزار:

- سفرجى باشا الملك من البلد المجاورة. لماذا لا يتوسط عند الملك أو الملكة ليمنع هذا الطوفان.ألم يتوسط لسعد بن عبد الله ..ليتعلم فى بلاد بره؟

فأجاب العائد: سعد نفسه من الذين يكتبون الشكاوى والمقالات. ثم ألتفت إلى الباب، وانتفض يرحب بصديقه الشيخ«شليب» الذى تبدى على عتبة الباب متهلل الأسارير. .شاب أسمر اللون..ملفوف الجسد، قوى البنية، واضح الذكاء، يجيد القراءة والكتابة، يقوم بتجارة صغيرة تكفل عيشه..

وتعانق الصديقان وتحدثا مليا فى بعض شؤونهما بينما أكواب الشاى، وفناجين القهوة تدور من جديد، على الرجال الذين أستأنفوا مناقشاتهم..

وقبل أن ينتصف الليل كان شليب قد أشار إلى حل سكت عليه الرجال جميعا دون تعليق.

- لماذا لا نذهب إلى «الدر» نستشير بد رأفندى..

ثم فتر النقاش. وبدأ الرجال ينصرفون واحدا بعد آخر ، فهب خالى من مجلسه، وعبر الساحة الممتدة أمام المتجر ، ودلف إلى بيتنا ، فزار أمى وجدتى..

وانتصبت أمى أمامه بعد أن شدت على يده تتفرس فى وجهه مليا ، وحار الرجل في أمرها ثم أدرك أنها بدورها تسأل عن أخويها **محمد وعثمان**، فطفق يحكى عن أخبارهما بعضا مما أثلج الصدر، وبعضا آخر مما سبب القلق والحزن فى قلوبنا ، فهما يعملان ويكسبان..لكن محمدا تزوج واحدة من باب البحر.. وعثمان واحدة من الاسكندرية..

وابتهجت الأم ثم أبتأست .. وفرحت الجدة ثم قطبت جبينها.. وشعرنا نحن الصغار بحنين جارف يشدنا إلى هذين الخالين اللذين لم نرهما.

وانصرف العائد..فقامت أمى الى السحارة.. ورفعت غطاءها المزخرف بنقوش عربية.. ولبثت تدور بأصابعها فى محتويات الطرد دون أن تخرجه من السحارة، ثم استدارت نحوى.. واقتربت خطوتين وتوقفت ثم مدت يدها بحيث لا تلامسنى ..وابتسمت ابتسامة خافتة وهى تقول .

- خذ ياحامد.. خذ.

فاندفعت إلى يدها فى لهفة، وتناولت الطاقية الملونة.. التى كانت تحملها بين أناملها..

كانت مطوية على حفان الحمص والفول السودانى المقشر.



الغائب يملأ قريتنا بالبهجة. .فعند عودته نسمع نحن الأطفال الصغارعشرات القصص عن المدينة الكبيرة اللاهية. .وقد نستمع لأول مرة الى تلك العلب التى تدار بيد مثل «المانيفلة» توضع عليها أقراص سوداء تدور وتسكب فى أذنيك أصواتا حلوة.. نساء ورجال لا ندرى أين يختبئون.. ومتى يستريحون وأى طعام يتناولون ؟! لا بد أنهم يأكلون البسكويت. .« والحلقوم» ولا يقربون طعاما غيرهما..

واحد من هذه الأقراص كان يقول:« أكل الباشوات والأمراء..

الحزمة بمليم يادرة.. صوت امرأة تغنى يختلط به صوت أجش غليظ القلب شرس النبرات يحول بينها وبين الغناء ثم تعود، عصفور حصان المولد.. الحزمة بمليم يادرة. .أكل الباشوات والأمراء!.

فيقهقه أحد الرجال ويهتف:"

- الفاجرة!! باشا يأكل درة وبمليم!!

ثم تنطلق من أحد الأقراص قهقهات عالية، قال بعدها أحد الكبار،

- هذا القرص معجون من البانجو والحشيش والأفيون..وقليل من عرقى البلح المضبوط..وإلا فلماذا يقهقهون بهذا الصوت الذى لايخجل، ومن هو سيد قشطة هذا الذى يتحدثون عنه ؟

ثم ينطلق قرص آخر لا يقل سوادا عن الأقراص الأخرى ، يلمع كما تلمع ويدور كما تدور ،ولا يستغنى عن المانافيلة كما لا تستغنى عنه إلا أنه يختلف عن الأقراص الأخرى بشىء واحد هو هز كياننا بتلك الكلمات التى سالت منه مفهومة ميسورة تنفذ إلى قلوبنا..

كنا لا نفهم ما تقوله الأقراص الأخرى.. أما قرصنا هذا فقد كان يصيح: اسطوانات «ميشان خوجلى عبد المجيد»، ويضغط على المقطع الثانى من خوجلى هذه وكأن السحر والإلهام يكمنان فى ذلك المقطع. .كانت أسطوانة بلغتنا نحن . .كانت تقول:

أبدن أبدنا بالنا تون فابا يمونا

برووش المراية بالناتون فابا يمونا..

فيصرخ الشباب ، ويهب بعضهم واقفين .. ويصفقون بأيديهم .. ويتراقصون ويهزون أقدامهم.. فترج الأرض بدقاتها.. ويبتسم الكبار ابتسامات وقورة وتتكسر أعطاف البنات..ويميل بعضهن إلى الخلف، وقد أمسكن بين أسنانهن بأطراف الطرح ، وتقفز أقدام الأطفال فى مرح وتتلاعب عيونهم فى شيطنة وترد الأغنية من جديد إلى المطلع

ابدن ابدنا بالناتون فابا يمونا

برووش المراية بالناتون فابا يمونا

ويحاول أحدهم أن يرفع القرص، ويدير الحزمة بمليم يادرة. .فترتفع احتجاجات الآخرين وتلمع عيونهم بالغضب فتعود اسطوانات ميشيان:خوجلى عبد المجيد بالتأكيد على المقطع الثانى من خوجلى. .وتفتح أبواب وفى حياء يقبل سرب من الفتيات : سعدية ، بخيته، وشريفه،كل واحدة تشعر أنها بعينها« برو» هذه التى يتغنى بها خوجلى، فتمر بأصبعها على الخدين تتحسسهما لتتأكد أن وجهها كالمرآة فى نعومته كما يتغنى هذا القرص اللعين ويلاحظ الشبان ما يبدينه

من خفر ودلال نابع من أعماقهن دون أن يشعرن به.. فيتغامزون ويضحكون ، وتزداد الأكف تصفيقا، وتشتد الأرجل دقا على الأرض..ويدا حسن المصرى ضائعا وسط هذه الضجة..لا يفهم شيئا من كلمات الأغنية.. ولا يعرف معنى لكل هذه الضجة ..فأخذت عيناه تنتقلان من وجوه الفتيات الى شفاه الرجال.. ثم تطوع المأذون يترجم له كلمات الأغنية.

لن يغيب عن خاطرى إلى الابد.. لن يغيب

وجه عذارء ناعم مثل المرايا

لن يغيب! لن يغيب!

فتهللت أسارير حسن المصرى، وعبث بشاربه وأسدل جفنيه،ليلقى من خلفهما نظرة حب إلى شريفة التى أحست فى نفس الوقت بنظرات برعى النارية من خلفها، تنفذ إلى قلبها، فحار عقلها الصغير وألم بها اضطراب شديد أنكرته أول أمرها به. ثم وجدت فيه عذوبة لا تدانيها عذوبة الرطب التى أخذت تلوكها.

ثم تدار « المانيفلة» من جديد، ويدور قرص آخر لا يثير نفس الضجة بيد أن الصوت السودانى الحنون أسال رقة دغدغت أحلام الشباب والفتيات : إبراهيم عبد الجليل ، خليل فرح عزة فى هواك، عزة نحنا الجبال ونحنا كيلز هور فوق يل تلال(فوق التلال) نشاهد النجوم الحارسة الهلال، خدينى باليمين أنا راقد شمال، فيكاد الشباب يميلون على جنوبهم اليسرى متلهفين أن تأخذهم إحداهن باليمين!

الحزمة بمليم ،«برو» وش المرايا. وش المراية . خدينى باليمين ..باليمين زهور ونحنا كالزهور ..كالزهور ..ثم ينتهى الليل ويشحب القمر ليختفى خلف التلال الغربية أو يغوص فى مياه النيل بعيدا هنالك عبر المنحنى الشمالى ، بينما أحمد عودة وشليب والشيخ فضل يتفقون على عبور الجبل الى الدر، عاصمة المركز لزيارة بدر أفندى ، واستطلاع أخبار غد قريب يتوقعونه، بقلوب متوجسة هالعة، يزيد من اضطرابها انهم لم يقرروا بعد ما الذى يفعلونه لمجابهة ذلك الخوف الذى ينحبس فى صدورهم.

وهدأت القرية ، ونام الأطفال بعد أن مروا بأعمدة التليفون والصقوا آذانهم بها يصيخون السمع، إلى كركرة لا يفهمون لها معنى، لقد تأخروا ولعنة الله على تلك الأقراص السوداء التى تبيع الحزمة بمليم يادرة، وترقد بالشمال لتؤخذ باليمين، وتقهقه كالمجنونة-سهروا طويلا، وربما لن يكون لهم فى السحر وقت كاف لرحلتهم المعهودة عند الغسق..

غاب القمر واستقر على فراشه الوثير، فوق الرمال الناعمة الصفراء خلف التلال الغربية..بينما الشمس تفرك عينيها وتتمطى دون أن تحسر رداء الليل البارد عن وجهها الخاطف الوضيء..

وبعد آذان الفجر، وقبل أن يلقى الليل وشاحه، تردد فى النجع عواء الذئب يرسله برعى، ينادينا الى رحلتنا المعهودة، فبالليل هز نسيم نشيط أعطاف أشجار النخيل، والمراكب السوداء المحملة بكل أنواع الهدايا، قد بدأت ترسو على مرافئنا.

وفي مثل هذا السحر من كل يوم فى الموسم اعتاد أطفال نجعنا أن يحملوا فوانيسهم المضاءة يهبطون بها إلى غابا ت النخيل، فيجوسون خلالها، ويجمعون من تحتها ثمارا نضجت وتيبست

فنا ءت بحملها الأشجار ونفضتها حين هز النسيم جذوعها، ويعودون مع الشمس، وقد ملأوا بالثمار سيالاتهم وطواقيهم ، الى الصوامع الطينية الصغيرة، فيدسونها هنالك فى انتظار بداية الموسم ليحملوها الي المراكب السوداء.. فيشترون المزامير والسنانير وألوانا من المباهج لا يعرفونها إلا فى أيام الموسم .

وما زلت أذكر تلك الصوامع الصغيرة الرابضة فى بيتنا الى جانب الصوامع الكبيرة ، واحدة منها كانت لى أجمع فيها من التمر ما استطيع جمعه، وأسرق لها ما أستطيع سرقته من صومعة « بطة» شقيقتى الصغرى، وكم تشاجرنا أنا وهذه الشقيقة كم خدشنا وجهينا، وحطمنا صومعتينا وأعدنا بنا ءهما!.كانت تضربنى وتأخذ لنفسها كل ما أجمعه.فأتحايل حتى أثقب صومعتها نافذا إليها من القاع، من تحت الأرض لأضم حفنات من البلح إلى صومعتى ..فتكتشف جريمتى فتتعلق بي تضربنى لا يفصل بيننا إلا جميلة الشقيقة الكبرى.

* * *

تردد عواء الذئب مرة، ثم أخرى ، ومن كل بيت كان يتسلل فانوس إلى الطريق، تتلوه فوانيس أخرى ترسم أضواؤها الشاحبة هالات من النور حول أقدام فتية تنتعل المداسات الحمراء..

ويتحول النجع كله فى دقائق معدودة الي نقط مضيئة متناثرة تتقارب ثم تتباعد ، تهدأ ثم يطوح بها فوق الرؤوس هنا وهناك..ثم تسرى فى طابور جميل لا تنتظم خطاه هابطة بنا إلى أجمات النخيل، تسرى فى نجعنا وفى الجزيرة وفي النجوع التى تلى بيوتنا ، وفي كل القري فى نفس اللحظة التى تصوصو فيها مشاعلنا الهادئة..والثمار المتناثرة تحت النخيل فى السحر مشاع لجميع الأطفال وليس فى مقدورك أن تحول أحدا دون التقاطها من تحت نخيل أهلك بل أن أقوى الأطفال ، وأكثرهم حذقا هم الذين يستطيعون جمع أكبر قدر من الثمار..والغريب أننا نحن الذين كنا نرتعد خوفا بين غابات النخيل وعلي الشاطىء إذا ما تمشى الليل بظلامه الكثيف كنا ننسى هذا الخوف فى السحر على ضوء فوانيسنا وعلى صيحاتنا الصاخبة..وكان يكفى أن تلتفت حولك لترى كل أطفال النجع ينحنون ثم يستقيمون ويتقافزون من نخلة إلى أخرى ، والبله منهم هم الذين كانوا يتطلعون إلى ما فوق رءوسهم،بدلا من الانكباب على مواطن الأقدام، ودون أن تخلبهم المناظر الساحرة التى تتلون حولهم مع الشفق.التنافس يبعث الحرارة فى الأقدام فنجرى هنا وهناك ، فها هو «اش الله» يطرح بكرا علي الأرض..ليسبقه الى جمع ثمار أشار اليها صالح جلق بصيحة مرحة من فمه ، وتريث بكر حتى يرى اش الله منحنيا على الأرض، فيقفز ويطرحه علي الأرض بينما شريفه وبطة تصرخان،ويحول بينهما برعى وبصرخة غامضة وبلكمتين، فيتوقفان ..ثم يواصلان نقارهما فى سباب متصل.. ثم ينكبان على جمع الثمار ، وقد تناسيا ما حدث بينهما .

وفى ذلك السحر بالذات تم شيء لم يكن يحدث من قبل!إذ تلفتنا حولنا فلم نجد برعى ولا شريفه، فقد اعتادا أن يجمعا الثمار معا، ويبدو أن برعى أنتهز فرصة النقار واللجاج بين أش الله وبكر، فابتعد بها عن أنظارنا مخفيا فانوسه أمام جسديهما، ثم تواريا خلف غابة أخرى من النخيل.وتردد صوت بطة وبخيته فى الغابة..

- شريفه.. شريفه!

وهتف اش الله ينادى- برعى..أين أنت يا برعى؟

- ثم استأنفنا عملنا من جديد حتى امتلأت سيالاتنا ، وفى النهاية أشارت بطة إلى إشعاعات الشمس الباهتة وقالت:

- يجب أن نعود فجدتى تستيقظ الآن..

وأبيت أن أعود معها بل قررت انتظار برعى وشريفه، فقد تملكنى فضول غريب آنذاك، فلوت « بطة» بوزها ودفعتنى فى صدرى ثم انطلقت ومن خلفها بخيته وبقية أطفال النجع واستندت أنا إلى جذع نخلة وأخذت أراقبهم وهم ينعطفون إلى الطريق العام..

كان الليل يلفظ أنفاسه والكون يتمطى.. والشمس تكاد تقفز فوق التلال الشرقية وتتبدى كقطعة مستديرة من الخشب تتوهج فى كانون بعيد وتلقى أضواءها الحمراء الشفافة على المخمل الأخضر المنطرح فى استرخاء كسول على الأرض فوق الشاطىء وفى الجزيرة ،وبين الجذوع وتعكس ظلال النخيل وأشجار السنط والأثل والدوم طويلة على مد البصر والجنادب تنتقل من حرش اللوبيا الي حرش آخر،والعصافير تستعد للزقزقة، والقصر الأثرى الى الغرب يلقى قتامته على الرمال الغافية حوله، والجروف المبتلة تحتضن الترمس وتغفو ، والأمواج الهادئة المرتعشة تدغدغها الريح لتستيقظ وتنهض لتشترك فى زقة الصباح. بينما السواقى النائحات الدامعات أبدا، والشواديف الراكعات الساجدات مطرقات لا يبد ين حراكا، مرهقات من نوح الامس وصلاته الخاشعة.

إنها الطبيعة تنهى أحلامها الفجرية لتبدأ نهارا صاخبا من الأمواج الهادرة المتلاطمة فوق خد الشمندورة الحمراء الغارقة المناضلة أبدا لتتخلص من قيودها، لا تخلد إلى اليأس إلا إذا ما هدأت الريح واستكان النيل.ولكن فى نفس الوقت كان يستيقظ فى قلبى تطلع جارف لمعرفة ما يدور هناك بين برعى وشريفه، فجعلت استحث الخطى بين أشجار النخيل وعيناى تدوران هنا وهناك بحثا عنهما وعبر أشجار النخيل «صوصو» فى عينى ضوء خافت وجهت خطاى نحوه ثم تناهى إلى سمعى همس ووشوشة يختلط بهما حفيف الاشجار وهمهمة النيل».

وأخيرا وجدتهما غائبين عن كل ما حولهما فلم ينتبها لوقع خطاى. الفتاة بسمرتها الناضرة وصدرها الناهد وفى عينيها بريق عجيب...والفتى بملامحه الفتية الصارمة عليها شفافية الفجر..

وأشارت الفتاة الى نخلة يملكها أبى وقالت :

- سباطة واحدة من هذه تملأ صومعتى!!

ونفش برعى صدره وصاح فى زهو:

- لك النخلة كلها اذا أردت!

وعضت الفتاة يدها وهزت أصبعها فى وجهه وهى تقول:

- أتسرق!؟

- فى سبيل رضاك أسرق يا شريفة..

فشقشقت بلسانها تنهاه ولكنه أولاها ظهره وأقبل على النخلة يحيط ساقها بذراعيه.. ويهزها هزات مسعورة تساقطت الثمار معا على الأرض- كالمطر - والفتاة تصرخ مرحة وتضحك ثم تحسر طرحتها عن شعرها ، وتنحنى وتجمع البلح المتساقط فيها وهى تصرخ:

- يا لله ..كم هى كثيرة!؟

وتوقفت كأنما أنبها ضميرها وتلفتت هنا وهناك، بينما تواريت أنا ثم تغلبت على ترددها ومضت تجمع حتى ملأت طرحتها وهى تهتف:

- كفاية..كفاية!

وحدق الفتى فى الأرض ثم ترك النخلة وساعدها فى جمع الثمار حتى أوفيا على غايتيهما من سرقة نخلتنا وأردت أن أصرخ فيهما لكننى ترددت وأحجمت إبقاء على صداقة برعى وخوفا منه، وحبا فى استطلاع ما سيدور بينهما بعد جمع الثمار..

كانت الفتاة قد استندت إلي جذع نخلة.. ومضت تحدق فى السماء خلال السعف والجريد فتنعكس الإشعاعات الأولى فى عينيها فتبرقان بينما يداها منطرحتان إلى الخلف ، وصدرها بارز إلى الأمام، وضفيرتاها منسدلتان فى استرخاء على منكبيها، ثم انزلقت بعينيها إلى الفتى الأسمر الذى طفق يتملاها ويتأمل وجهها صامتا!!

ثم قرر الفتى شيئا ، وخطا خطوتين نحوها حتى توقف أمامهاوبدت الفتاة وكأنها تنكمش وتندمج فى الجذع،لقد رأت فى عينيه شيئا روعت منه،نفس الشىء الذى لمحته فى عين حسن المصرى يومذاك، بين عيدان الذرة!

ثم تحول الشىء الى غضب أحست به فاضطربت وأرادت أن تنفلت وتعدو ، ولكنه مد يده اليمنى وثبتها علي منكبها، يضغط بشدة وهو يهدىء من روعها..

- لا تخافى ياشريفة.. أريد ..

وأجفلت الفتاة وقالت فى فزع:

- مالذى تريده؟

فتلعثم الفتى وهو يهمس:

-أريد أن أسأل..

وازداد ضغط يده على كتفها وهى تقول:

- هوى.. برعى.. إنك تؤلمنى. فلم يبال..بل ثبت عينيه فى عينيها وقال بحزم:

- ماذا يفعل حسن المصرى فى بيتكم؟

حسن المصرى؟ماذا يفعل فى بيتنا إنه لا يفعل شيئا..ولكن لماذا يسأل برعى عما يفعله الرجل.. وما شأنه؟ أيكون أحد قد أفضى إليه بما حدث بين عيدان الذرة؟ ربما يكون حامد..برعى لا يزال يضغط على كتفى وفى عينيه بريق..إنه مجنون..لماذا يسألنى؟ إنه يكرر.

- لماذا تصمصمتين..ردى..لماذا يتردد عليكم فى الضحى وفى الليل وفى العصر يا شريفة..لماذا؟

وأحسست أنه يعرف كل شىء وتساءلت ، ولكن لماذا يعترينى هذا الخوف أمام نظرات برعى؟!

لقد قاومت الرجل إلى أن تغلبت عليه..لماذا لا أقول لهذا الآخر كل شيء؟كلا لا يجب أن يعرف..وتذكرت نفسها وهى تغوص بين الأمواج، وتذكرت حسن المصرى وهو يسبح بها إلى النتوء،وأحست بصوتها يخترق سمعها.

- حسن المصرى!لا شيء يابرعى..لا شيء، انقذنى من الموج يا برعى..

وابتلع الفتى ريقه وتنحنح ثم قال فى غيظ:

- أنقذك ! ليته ما أنقذك!

فروعت الفتاة وصاحت:

- تتمنى لو مت!

فأسرع ينفى بشدة..

- لا..لا والله العظيم..بل أردت أن أقول : ليتنى أنا الذى أنقذتك..ثم ،أيحق لحسن المصرى أن يدخل بيتكم لأنه أنقذك..كلام الناس يا شريفه..

صمتت الفتاة لحظة وشفتاها ترتعشان، ثم صاحت:

- لكن ..ألا يدخل حسن المصرى بيتا غير بيتنا ؟!

- البيوت الأخرى فيها رجال يا شريفه!

وتذكرت صراعها مع الرجل، وافلاتها منه بين دغل الذرة بعد أن كفأته على وجهه فقالت فى حماسه:

- أنا الأخرى رجل!

فضحك برعى ضحكة جافة وكرر تهديده ـ الكلب لو جاء عندكم مرة واحدة .وأمسك عن إكمال تهديده، وتريث بينما الفتاة تواصل تفكيرها حتى اهتدت إلى فكرة نفذتها على الفور:

- إنما يأتى لإصلاح الباب والعنجريب..

وتفرست فى وجه برعى ثم أضافت فى صوت هامس :

- ولماذا لا تأتى أنت أيضا ؟أمى تقول إن سقف البيت فى حاجة الى إصلاح..

وتنهدت تنهيدة عميقة ثم قالت

-لو كان جمال هنا ..لو لم يسافر

ثم ابتسمت ابتسامة واهنة ..بينما قهقة برعي وكانة وجد الخلاص ومضت

هى تغوص في دوامة أفكارها ..إنها تحذر من حسن المصري وتخشاة ولا تسمح لنفسها أن تلقاة على انفراد ..بيد انها رغم حذرها منه لا تكرهه أبدا وكيف تكرهه وهو الذى انقذ حياتها ؟! ولا يزال يقدم يد العون لها ..حتى روث البهائم يجمعه ويجففة ويحمله إلى بيتها.. وهو حين يغشى البيت لا يأتى منكرا ..صحيح إنه يغشي البيت في الضحى ..ويغشاه في الاصيل ..ثم ماذا ..لقد رأيته مرة يترك البيت فى منتصف الليل ولاحظت الارتباك على وجه أمها التي أشارت بسرعة إلى جذع نخلة قائلة :.

- جاء به من شونة الشيخ امين في الليل حتى لايراه أحد ..

كان يأتى ويجلس على المصطبة الداخلية يشرب الشاى ويزدرد حفنة أو حفنتين من التمر

والقشار الأبيض،ويظل يدردش مع أمها ، حول الغربة والابن الغائب..فلماذا لايأتى برعى مثله؟«آه» كم أتمنى لو رفع يده عن كتفى، ثم أحسست بموضع في فخذها يلتهب ، موضع قبضة حسن المصرى التى لن تنساها، القبضة التى لا يكررها..ولن تسمح له أن يكررها..فإنه ليس من ولد العم ولا ولد الخال، وليس من شباب النجع..إنه غريب..من مكان بعيد ، ولا تعرف عنه شيئا

وبدأت العصافير ترسل دفقات طروبة من الشقشقة ، وترفرف بأجنحتها الصغيرة فوق رأسيهما ، ولمع علي صفحة النيل، رفاص مضت قلاباته تشرخ النيل،فاتجهت شريفة كما اتجهت أنا ببصرى إلى هذا الرفاص..أما برعى الكلف بكل ما يجرى في النيل من مراكب ودوامات وبالشمندورة وبكل رفاص أو باخرة ،فقد انشغل عن النيل فى هذه اللحظة بما كان يعتل فى صدره ، من حيرة ورغبة عارمة..

راقت له فكرة اصلاح السقف، وسيعمل من غد علي إصلاحه وليذهب الكتاب وشيخه إلى الجحيم إنه مشغول فى هذه الأيام بالرية الخامسة للذرة ، ،وبزراعة بعض المحاصيل الشتوية مثل الفول واللوبيا تحت الذرة ويشتل الباذنجان، وغدا سينشغل بقطع الذرةوالنخيل ، ولن يذهب إلى الكتاب..أبوه نفسه يقول ذلك..وفى وسعه أن يفرغ حينا لإصلاح هذا السقف..

كان الرفاص لا يزال يدمدم على صفحة النيل وينفث الدخان من منخره العالى العريض، بينما برعى لاه عنه، يفكر فيما قالته شريفه ، فرصة طيبة يجب انتهازها، وليس في وسع الجزار أو البسطاوى أن يعترضا بحجة قرابتهما لداريا سكينة ..سيسميها خالته ، ولا دالة لهما عليها إذلا يهتمان بشئونها ولا يقدمان أبدا أية مساعدة..

ومد يده الأخرى ووضعها على الكتف الأخرى وخطا خطوة وهم بها يريد أن يقبلها فأشاحت بوجهها فى سرعة تركت له فرصة للتفكير:فمضى يقول لنفسه :الذين يريدون الزواج من فتاة فى قريتنا..لا يقربونها بسوء ولكنها جميلة ومغرية.شفتاها.صدرها.ثناياها.واللمعة التى فى عينيها،وضفيرتاها الفاحمتان..يده ما زالت تضغط على مكنبيها، وجسده يكاد يلاصق جسدها وأنفاسه الساخنة،مختلطة بندى الصباح ،تلفح وجه الفتاة..

وأحست أن عضلات يده تتراخى،ثم رأته يرفع يديه ويهوى بهما الي جانبه،ثم يخلى سبيلها ويتراجع خطوتين وهو يهمس:

-آن لنا أن نعود..

فأفاقت لنفسها على كلماته، وجالت بعينيها فى بطء فيما حولها ،فى أوراق الشجر والغصون، وإشعاعات الشمس المتكسرة، يسبح الغبار فى ثناياها، وفى الدنانير المضيئة المتناثرة على الأرض، وفى لمعة الماء على صفحة النيل ، وفى الدخان المتصاعد من بيوت الجزيرة وقالت:

- تأخرنا..

وانحنت على الأرض، ترفع الطرحة المثقلة بحبات البلح، فلمحتنى وارتسمت الدهشة على شفتيها حين رأتنى، وتراجعت يداها عن الطرحة وأحسست بالحرج فتركت مكانى، ومضيت استحث الخطى بينما انعطفا إلى دروب أخرى وأسرعا إلى الطريق العام يواجهان الشمس التى كانت قد ارتفعت من خلف التلال،فوق الصخرة المعلقة فى كتف الجبل، وانفصلا عند تحويشة عبد

الله الجزار، وتفاديا مجموعات الرجال الذين أقبلوا من البيوت إلى المزارع..

ومضيت أفكر في برعي وشريفة وأيقنت أن ما بينهما محظور، وإلا لما اختفيا عن الأنظار بين النخيل..

٦

في مثل هذه الأيام من كل عام، من أوائل سبتمبر الى نهاياته، يزدحم المتجر بالرجال والنساء من نجعنا، ومن النجوع القريبة..وينهمك أبي وخالي طوال الليل والنهار في مراجعة دفتر «الأستاذ» واليومية..الدفاتر تفتح في مثل هذه الأيام كثيرا وتطوى، حتى تتمزق أوراقها ، فالتشطيب بقلم الكوبيا ، يمر على صفحاتها بقسوة ولا سيما دفتر اليومية، بعض الرجال يأتون من الغيط ..والطواري والفئوس معلقة بين الأعناق والأكتاف يركنونها على الحائط ويتربعون على البرش ويديرون الحساب في هدوء، ثم تعلوا الأصوات أحيانا، وترتفع الأيدي وتعم الجلبة، وتنطلق أغلظ الألفاظ من أفواه الرجال:

- سبع كيلات ذرة..

- لا..بل خمس..ولا حبة زيادة.

وعليَّ الطلاق من مراتي،عليك أربع كيلات من القمح..كلا عليَّ الطلاق ما علي إلا ثلاث كيلات وطرحة ونصف قمع سكر،لا غير.ثم يسوى الحساب التفصيلي في نهاية الأمر..لكن الرجل يكتشف أنه مطالب بخمسة جنيهات كاملة فيشتجر الخلاف ويتفرع .ثم يضطر خالي إلى فتح دفتر اليومية من جديد ليبدأ العنت..وعليَّ الطلاق من مراتي،ورأس السيد الميرغني ومقام الحاج مكاوي..

وينفد صبر التاجر فيصرخ:

- يا ضلالي..

وتتقد عينا الرجل ، وتنبض عروقه وهو يهتف:

- أنا ضلالي ،والله والله أنت الضلالي..أنت وخالك، ويضحك أبي ، ويعصر البنك الزنك..ويهدىء من روع الرجل ثم يجلسه من جديد وهو يقول:

- طيب.. طيب.. نبدأ الحساب من الأول، واحدة واحدة ويلتفت إلى خالي ويوعز إليه:

- افتح الدفاتر من جديد..

ويضرب خالي كفا بكف، ويتسخط.. ثم يبدأ الحساب من أوله..

- ألم تأخذ خمس أقات سكر؟

- متى؟

- يوم تنزيلة الذرة خلف المحراث..

فيسكت الرجل، ويعتبر التاجر سكوته علامة الرضا فيؤشر بقلم الكوبيا ليقول من جديد:

- وأخذت من الولد حامد ثلاث قطع صابون فرنساوي يوم تلقيح النخيل منذ أربعة شهور.. وعشرة أمتار دبلان يوم تعشير بقرتك..

ويتذكر الرجل ذلك جيدا، ويومىء برأسه.. ويعترف بكل شيء إما بهزة من رأسه..أو تكشيرة في وجه التاجر ولكنه في نهاية الأمر لا يعترف بالحساب الإجمالي، ويقسم أن التاجر ضلالي، خرب الذمة ثم يتسلص وينهض غاضبا، يسب ويلعن كل التجار وينصرف،فيطوي التاجر دفاتره، ويشعل سيجارة ينفث دخانها وهو يزفر، ويضرب كفا بكف، وتأتي خديجة وتدلف من الباب «فضيلة» ثم تنصرف لتحل محلها أم سعدية ويدور الحساب وينتهي على خير أو على

نكد.

ومن جديد يعود الرجل الأول مع ابنه الصغير رقيبا على الحساب: غلام فى الثامنة من عمره لا يعرف غير فك الخط.ثم يدور الحساب من جديد، والوالد لا يفعل شيئا غير الدوران بعينيه على رفوف الدكان، الا أن الحساب ينتهي بعد أن يكون الرجل قد طلق أم هذا الولد مرات عشرا..تنتهى بتنازل دفتر الأستاذ عن ستين أبيض، فيقول الرجل لا راضيا ولا ساخطا ، مطمئنا إلى أن ابنه الذى يعرف القرادة والكتابة كان رقيبا على التاجر فى الجمع والطرح..يقوم ويعلق طوريته بين عنقه وكتفه ويبارح المتجر والولد ما زال يدور بعينيه على الرفوف فى نهم.

وتأتى زبونة أخرى، صاحبة زار.معطرة، يلمع الذهب فى معصمها وحول رقبتها ، شعرها المصبوغ بالحناء يتنافر مع الوجه الأسمر المتعرج..ويدور الكلام قبل الحساب عن مصر وعن ابن تملص من دفع ديون أمه هذه ..دع الاسياد يدفعون لها فهى تبدد كل ما نكسب فى الزارا وعن شقيق رفض أن يدفع إلا خمسين قرشا يخصمها التاجر بالكوبيا من حسابها مطمئنا إلى أن نخيلها الكثير سوف يفى بديونها، وينهضان إلى البنك ويعرض الرجل عليها طرحا سوداء فتأبى أن تأخذ منها وهى تحتج:

– أتحسب أننى عجوز ..هات طرحة من.. أم التاجرا..فيضحك التاجر ويشب على قدميه، ويفض صندوقا ، ويضع أمام عينيها طرحة من .. أم التاجر وملونة، ناعمة وخفيفة..

تلك كانت حالة المتاجر وعملائها فى قرانا قبل بداية الموسم، يكاد التعامل بالنقود فيها لا يوجد إذ لم تكن قد اكتسبت بعد قدسيتها المعبودة!..

كل أسرة تفتح حسابا فى المتجر وتجر ما تشاء ، واثقة أن الموسم سيأتى .. ثقتها فى طلوع الشمس من خلف التلال الشرقية كل صباح، وحينذاك يستوفى التاجر ديونه على داير مليم، يستوفيها تمرا، كيلة الذرة بكيلة بلح، والقمح بكيلتين.. وقد يفيض ما تقدمه فلا تأخذه بل تتركه رصيدا لها، وقد يقصر المحصول، فلا يكف التاجر عن تقديم الديون، إلا أنه قد يتخذ بعض الإجراءات مثل كتابة كمبيالة أو تحول إليه الأسرة ما يصلها من حوالات مالية من الأبن أو الزوج الغائب فى مصر يكدح ويرهق نفسه فى إحدى العمارات أو الفنادق والمشارب، طباخا أو بوابا، مرمطونا أو سفرجيا..

وقد تنقطع الحوالات شهورا بل سنين طويلة، فيطمع التاجر فى قيراطين تملكهما الأسرة وتعض عليهما بالنواجذ، فتبكى وتستعطف، ثم ترهن وترسل ابنا آخر صغيرا أو زوجا إلى مصر..ليعمل هو الآخر فى نفس العمارات والفنادق والمشارب، فليس من المعقول لرجل أو طفل صغير يرحل فجأة على هذه الشاكلة أن يمتهن عملا لا دربة له عليه،عملا قد يكلفه اتقانه وقتا طويلا، فيندفع الى أسهل المهن ، مرمطونا يرتقى إلى سفرجى بعد كدح طويل، ثم يرسل كل ما يكسبه إلى الأسرة لتسدد ديونها وتبقى على القيراطين فى حوزتها، فالأرض ضنينة فى قريتنا ، وإن كانت تجود ـ فى زعمهم ـ كما لا تجود أرض فى الدنيا بحالها..

كانوا جميعا يحتضنون القيراط،والقيراطين..كما يحتضن الانسان أطفاله،أو معشوقته..ثم يهاجرون ويتركون هذه المعشوقة لتبقى لهم على البعد..

هكذا هاجر الألوف،فعاشوا بعيدين حتى شاخوا،ثم عادوا الى القيراطين اللذين دفعوا حياتهم ثمنا لا ستبقائهما ، عادوا اليهما يخربشون فى الأرض بفئوسهم، ثم ماتوا ليمزقهما الإرث إلى شرائح تتبدد ما بين الجسور والأقنية والبتون.

– ومنذ عام هاجر البعض، ومنذ شهور عاد آخرون يتوج الشيب رؤوسهم، وهم الذين تركوا القرية سود الشعر فى ميعة الصبا..

ومنذ عامين هاجر جمال: وحيد داريا سكينة..ليعمل ويستبقى قيراطين أو دعتهما أمه رهينة عند أبى ثم تناساهما جمال.تناسى أمه وشقيقته ،لقد ابتلعه زحام المدينة العاتية! وها هى أمه الحائرة تدلف من باب المتجر والنكد باد على وجهها رغم أمل خافت يداعب صدرها:أن يرحمها التاجر فلا يثقل عليها ،ويدور الحساب ، وهى ترسل دمعة مع كل رقم وآهه عند كل صفحة تقلب، لتتجمع ديون الأيام الطويلة كما تتجمع الغيوم وتنذر بحساب كبير تنوء المسكينة بحمله، فتغص بدموعها، وتلهث وكأنها قطعت شوطا كبيرا على قدميها.. من بداية العام الى نهايته وتهتف:

– وونور..يارب..لماذا تركتنى ياجمال؟!

وتنزلق دمعتان على دفتر الأستاذ وتذيبان السكر على الشاى.. والجاز على الزيت ..فتختلط الأرقام ، فيقطب التاجر ويزوى ما بين حاجبيه،لكنه يكظم غيظه حين يرى ما يرتسم على وجهها من نكد جاثم كما يجثم الكابوس، فينشغل برش حفنة من التراب الناعم على موضع الدموع فى الدفتر ثم يطويه ويتمخط ويبصق قبل أن يشعل لفافة ويقول مواسيا:

– صدقينى ياداريا..أنا لم أره..آخرون رأوه رأى العين..أبعدى الشر عن قلبك: فجمال خالى شغل..

كل الناس تمر عليهم الأعوام دون أن يجدوا عملا ..ورفعت داريا رأسها فى تثاقل ..ثم همست من بين الدموع ..

– ولكن لماذا لا يرسل لنا أخباره: تعريفه..بارة ستين أبيض!

– مكسوف منك،ماذا يقول فى خطابه..عما قريب يعمل.. لن ينساك الله ياولية.. استغفرى الله ياداريا..ياحلوة!

وأحست المرأة بالرقة التى تخللت كلمات التاجر، فتشجعت وسألت:

– ولكن ماذا أفعل فى الديون؟

فمد يده وربت على كتفها ثم همس:

– ما عليك ياداريا..المحصول، والذى يتبقى تستدينه حين يعمل جمال.. انه يحبك..ألا تذكرين تعلقه بك؟..

نعم !انها تذكر،ولكن الرجل يكذب لتهدئة خواطرها ،وغدا يطالبها شريكه بكل ديونه–اضرب ولاقى–وجمال..قلبها يحدثها.انها ستعرف خبرا عن جمال ،فإن براحة يدها اليمنى دغدغة متصلة منذ أيام ، أمارة على أنها ستتسلم خطابا..و(كلو)أيضا وزيارته.

وعاشت فى أحلام اليقظة لحظة وبان البريق الناضر فى عينيها من جديد،وأحس الرجل بما

أحدثته كلماته فى نفسها..فواصل حديثه:

- حرام عليك!أنسيت أيام الشباب..وأنت رخصة مثل ورقة اللوبيا..كنت لا تبكين ..أما الآن فإنك تذبلين من فرط البكاء..إنك تدفنين جمالك، ولكنك ما زلت جميلة.. وما زلت صغيرة،لا تستطيع العين أن تفرق بينك وبين شريفة!..

كانت هذه الكلمات تتدفق من لسان خبير.وداريا تتغلب على انفعالاتها المؤلمة وتبتسم حتى خيل لى أنها قد نسيت «جمال» تماما..

- أنت عروس: الشيخ أمين لن تضيره زوجة ثالثة..

ومدت يدها ودفعته فى صدره وهى تقول:

- بلا زواج بلا سخام..هىء ..هىء..هىء.. زوجة ثالثة!

- ايه ..وكم تطلبين مهرا؟

فتتثنى المسكينة ، رغم أنها تعرف أن الرجل يمازحها ثم تفيق لنفسها وعيناها تقعان على البنك،فعليه تعودت أن تجلس «جمال» وهى تشترى له الملبن والحلوى،وأمام هذه النتيجة وقف يوم رحيله يودع التاجرين، ويقسم لهما أنه سيسدد ديون أمه ، ويوصيهما بها خيرا ويوصى «حامد» الصغير بأخته شريفة..عيدان مرا دون أن يرسل شيئا..لماذا لا يرسل؟أتراه مات ولا يعرف أحد عنه شيئا.. وهنا سالت دموعها من جديد، وأحست أنها ضائعة، ولا يزال أحمد عودة يتحدث ضاحكا عن الزواج..هكذا دائما يتحدث أحمد الى النساء..ولكن لو رضى الشيخ أمين هل يرضى جمال؟ كلا:أمين طاعن فى السن ولن يجديها .. وهل من المعقول أن يتزوج رجل مثل أمين امرأة مثلها ابنة جارية وعبد أعتقهما جد عبدالله الجزار؟..أغلب الظن أنه يعرف شيئا عن الإشاعات التى تدور حولها وحول حسن المصرى! جسمها يسومها العذاب..فهى لا تزال شابة!..ولكن هل تقبل الزواج؟..وماذا تفعل شريفة إذا ما تزوجت هى؟ والقيراطان.. وهل يرضى جمال؟.. ثم رفعت رأسها فجأة! لتهمس فى صوت مبجوح مختنق:

- اسمع ياأحمد : القيراطان فى ذمتك وفى ذمة الشيخ أمين..وتلفتت لترى أين أبى فوجدته عبر البنك الزنك فحذرته بأصبعها:

- ليس من حق أحد أن يبيع القيراطين.. جمال لن يرضى..

وأطرقت ثم قالت فى عنف:

- خربتم بيتى، أخذتم القيراطين وكل مصاغى ومعيزى..كل شىء أخذتموه، حتى جمال أرسلتموه إلى مصر. دمه فى رقبتكم يوم القيامة ..يوم القيامة!

فصاح بها أبى:

- الحق علينا يا ولية..سكتنا له دخل بحماره.. اخرسى.. منذ عامين ترددين هذا الكلام الفارغ!!..

- حرام عليك يا «أمين كلثومة»..أمك كانت صاحبة أمى بالروح.. زوجى المرحوم كان صاحبك،وشريفة ابنتك..حرام عليك ! لم تترك لى إلا معزة واحدة والآن تريدون بيع الأرض ..

وتدخل أحمد عوده،وأمسك بيدها ودفعها الى الباب وهو يقول:

- اذهبى الآن..اقصرى الشر واذهبى..وتعالى بعد قليل..كلا .. ابعثى بشريفة.

فخطت خطوتين، وتوقفت عند الباب ، تعانى احساسا غريبا بأن الدنيا تدور بها ،ان الرفوف والبنك يطبق عليها ، فتشد ضفيرتيها المجدولتين بينما أخذ أحمد عودة يطوى دفاتره وهو يردد:

- لا اله الا الله..لا حول ولا قوة الا بالله.. ابعدى يا وليه عن الباب، اتركى الخير يدخل علينا!..

فانبرت لتهاجم ، لكنها أطبقت شفتيها علي صوت خشن يلعلع من خلفها عند مدخل المكان:

- السلام عليكم..

فتلفتت لترى « ماهر أفندى » بجلبابه الافرنجى تنسدل من فوقه جاكته صفراء قديمة، وفى يده حزمه من الخطابات..

وتفاداها الرجل ودخل وصافح أحمد عودة، وسلمه حزمة الخطابات وانصرف بعد أن اعتذر عن شرب الشاى..

ونشر أحمد عودة الخطابات على البنك ومضى يقرأ فى همهمة مسموعة: **عبد الراضى مختار.. خويلد، الحاج علي سلطان**..ثم توقف عند خطاب، كتب عنوانه بخط منكوش مثل نبش الفراخ، المحترم الفاضل **أحمد عودة** ومنه إلى الست الماصونة..

كانت داريا لا تزال عند الباب، تختلس النظر فى لهفة الى حزمة الخطابات، فقد دب الأمل فى قلبها، جمال هناك بين يديك يا احمد عودة ..قل لى.. بربك.. لا تخف على شيئا..لن أبكى.. لن أجن؟.

وأخذ شىء ما يدق فى رأسها، وانطلق وجيب قلبها يعربد بين ضلوعها ، ثم أحست بقدميها تتحركان بها الى الداخل حتى توقفت خلف التاجر ،وهو لا يزال يفك طلاسم الخط ويهمهم: ومنه الى الست ..آه..إنها هذه المرأة المنكودة النسكينة داريا سكينة..

وتلفت خلفه فوجدها تحدق فى يده بعينين دامعتين:

- داريا ..جواب يا داريا..

فشهقت شهقة والهة، ومدت يدها واختطفت الجواب.وانطلقت تجرى عبر الباب مرتطمة بأبى، وخرجت منه إلى الطريق،لم تفكر لحظة واحدة أن عليها أن تتوقف لتقرأ الخطاب ـ ولماذا تقرؤه،فانه الخطاب الذى تنتظره منذ عامين وكفى..انها تتحسسه وتجسه ثم ترفعه الى شفتيها وتستقر به على رأسها..

مضت تصرخ وهى تجرى، وتزغرد وتهتف:يارب..وونور الله يحرسك يا جمال...ياابنى..أخيرا تذكرت أمك! ثم سكتت فجأة وتوقفت عند المنعطف وكأنها حائرة:أين تتجه !؟ ومضت تهتف بعد تردد: وأختك شريفه ..«أفتكرتها» بعد كل هذا الوقت.. إبن حلال..

ثم ارتفعت بصوتها تنادى فى النجع كله..شريفة..يابنت ياشريفة شريفة داريا ، جواب من جمال.. من جمال ..من جمال ..ياهوه يا ناس..باركوا لى ..ياهوه.. تعالوا باركوا لشريفة!..وفتحت أبواب، واندفع منها أطفال ونساء وهى تجرى لا تلوى على شىء ، حتى ارتمت على عتبة البيت بين أحضان شريفة التى اختطفت الجواب منها تقبله وتبلله بدموعها ، وأمها لا

تزال تهذى..

- نلنا المنى بعدما صبرنا ، يا سلام يا شريفة..أخوك افتكرنا .. وسوف يتذكرنا على الدوام ..وامتزجت دقات قلبيهما ثم تهالكت الأم على المصطبة، تروح بطرحتها ، وتهتف: جمال يا حبيبى..ضنايا..ياكبدى..أخيرا ..كنت خالى شغل،الله يجازى أمين كلثومة..هو السبب .. شريفة هاتى قمع السكر بليه ووزعى الشربات..

ورفعت رأسها لتجد ابنتها واجمة تتفرس فى الظرف،فإنه لم يكن قد فتح بعد..

أدركت الفتاة أن أمها لم تعرف بعد مضمون الخطاب، فدق قلبها بسرعة ثم انتزعت طرحتها وأسدلتها على شعرها ، وتخلصت من يد أمها وانطلقت تعدو فى الطريق إلى المتجر..ثم تعدل عنه حين تصادفنى، فتندفع نحوى وتمسك بيدى وتجذبنى بشدة وهى تصيح فى صوت متهدج:

- حامد..تعال ياحامد.. تعال..

وقادتنى مهرولة بى عبر الطريق حتى مثلت أمام أمها التى كانت لا تزال تزغرد وتغنى أغانى شبابها ، وأمسكت بالخطاب تقضه بيد مرتعشة حتى بدا أنها ستمزقه فانتزعته أنا من يدها وفضضته بعناية ولمعت عيناهما ببريق الأمل، فقد أضاءتهما ورقة صفراء، حوالة بريدية. جنيه كامل تلقفته الفتاة منى وطبعت عليه قبلة، ثم جذبتنى من كمى وأجلستنى على المصطبة بينها وبين أمها ، وأمرتنى أن أقرأ .

كان الخط رديئا ، نبش فراخ لا أكثر ، من رجل اسمه **حسين النجار**، وما أن نطقت باسمه حتى وجمتا ، فإنهما تعرفانه، وهو نفس الرجل الذى أرسلتا له تستفسران عن جمال.. وماذ يقول الرجل؟ ولماذا كتبه هو ولم يترك جمال نفسه يكتب الى إمه ام أنه مريض أم مات وانتهى أمره!؟

وضغطت شريفة بصدرها على ظهرى، تتفرس من فوق كتفى في كلمات الرسالة،تحاول أن تقرأها ، بينما الأم مطرقة إلى الأرض تصيخ السمع فى صمت إلى الكلمات وقد جمدت نظراتها . وبدت قسوة الحياة على ملامح وجهها.. اذن فمازال جمال سادرا فى جموده! ياللمغفل ابن المغفل، الكلب ابن الكلب.. ماذا يقول حسين النجار عن ولدى يا حامد.. انه يشكو من جمال ، اختفى منذ عام..لم يعد أحد يراه لا فى مقهى البلديات ولا فى الجمعية الخيرية، بحثت عنه منذ رسالتكما .. هنا وهناك .. فى باب البحر فلم أجده وفى مصر الجديدة والبلاقسة وبولاق ..وفى الجيزة، فلم أجده حتى عثرت عليه صدفة فى شبرا خلف جامع الخازندار، حاول أن يتحاشانى ولكننى لحقت به، فأسقط فى يده، ودعانى إلى بيته فانتزعت منه هذا الجنيه لكما بعد محاورة ومداورة.. واتسعت حدقتا عين الفتاة ولمعتا عند ذكر الجنيه رفعت الأم رأسها فى زهو، ثم جف البريق، وانحنت الأم تحت وقع الكلمات التى تلت: وهل تعرفين يا داريا من الذى يعيش مع جمال؟! وزوجته!..

قرأ ت الكلمات ثم توقفت، ولا أدرى لماذا توقفت ؟ ربما لأراقب يد الأم التى تشنجت على معصمى وكأنها يد ميت، وربما لأن الفتاة اندلقت على كتفى وكأن نوبة إغماء قد ألمت بها حين فاجأتها الكلمة..فلقد تزوج جمال كما يقول حسين النجار هنالك في مصر ، من بيضاء فى سن شريفة، أمها كانت تومرجية فى القصر العيني ثم ماتت فعملت خادما مع جمال فى قصر أحد

داريا سكينة تعرف تماما معنى هذه الزيجة البيضاء، فلسوف تنقطع بسببها صلة جمال بأهله هنا، وهناك فى مصر،فلا يزورهم ولا يزورونه، لا يحس بواجب إزاءهم ولا يحسون بواجب إزاءه..هذا الولد الجاحد لن يجد من يقف إلى جانبه ويشد من أزره، إذا ما ألمت به مصيبة.. إذا ماتت أمه مثلا، لن يسمحوا له بتلقى التعازى فى جمعية القرية في عابدين..آه من الدنيا ومن جحود الأبناء..كتب علينا الشقاء فى الحياة الدنيا وفى الأخرة.

وتداعت المسكينة، وانكفأت على تراب المصطبة تكبش منه بيديها وتهيله على رأسها بينما لوت شريفة بوزها فاستطال وجهها اليانع وكساه حزن قاتل.

وتتالت الطرقات على الباب، وقمت لا فتحه، فوجدت نسوة النجع وقد جئن للتهنئة.واندفعن فى هرج تلمع الابتسامات على شفاههن ثم صمتن صمت القبور حين وقعت العيون علي جسد الأم المتكوم علي المصطبة..ثم عرفن الخبر فانقلبن باكيات واستدرن بالأم وأخذن فى عويل منظم منفعل داعيات على مصر.. وعلى بنات مصر الغوازى.. بنات لا أهل لهن، وإلا فلماذا تركوهن هكذا على «حل شعورهن» يتصيدن أبناءنا ورجالنا هناك!!، ألم يتزوج عثمان خال حامد من الأسكندرية؟ وأخوة محمد أبايا ألم يتزوج من باب الشعرية؟.. وأخذن فى تحريض الام!.. ارسلى لكل الناس فى مصر ليسعوا حتى يطلق تلك الفاجرة.. وراحت أم سعدية تحاول بظرفها المعهود تخفيف لوعة الأم فقالت: وإذا ما عاد جمال بالسلامة فعندى له عروسة..

وتغامزت مع الأخريات ثم أضافت.

- سعدية بنتى.. قمر فى ليلة أربعتاشر..

وبعد صمت وتردد خلصت فضيلة صوتها من الدموع لتقول:

- سعدية ليست فى جمال بنت شبرا:

وتدخلت أخرى:

- وليس جرجارها الذى يكنس التراب والشوك والعقارب والخنافس من خلفها مثل فساتين البيضاء: قصيرة، وتحت الركبة.. تكشف عن سمانة الساق.

وتبتلع جرعة ماء وتستطرد.

- ولا جدائل سعدية الملتصقة بفروة رأسها، المدهونة بزيت الخروع مثل شعر الأخوى: فاحم تعطره وترسله لينزلق على الكتفين أو تحبسه داخل منديل يزينه الترتر المشغول، وتغضب أم سعدية وتخجل ابنتها وتتوارى بينما تسترسل السيدة التى عادت من مصر منذ سنين:

- نه.. اسكتى أنت..كلكن عبيطات، رأيتهن بعينى هاتين فى مصر، وكتر خير رجالنا الذين يرضون بنا ومن حولهم كل تلك الوجوه البيضاء اللامعة.

- فترد أخرى فى حماس:

- وقلوب مثل قلب أبليس..لا تعرف الرحمة.. إلا أنهن على كل حال مريضات.. ممصوصات العود ولا يصلحن للفراش، ولا أدرى ما الذى جعل «جمال» يندب فى حبائل هذه الغجرية البيضاء؟!

وتطوف بعينيها فى وجوه الأخريات ثم تضيف:

- ابنك ياداريا هبيل، وأنت نفسك هبيله..لو كنت فى شطارة كل الناس لما وقع ابنك فى حبائل البيضاء لتمتص عوده ولا تعيده إليك إلا ليمونة صفراء.

وتضج الدار بالضحك ، حتى داريا سكينة سمحت لنفسها أن تضحك وتضحك: ذلك أن زوج هذه الشاطرة التى عادت من مصر منذ شهور هجرها إلى زوجة بيضاء، فعادت تندب حظها وتنفث حقدها كلما جرى اسم المدينة على لسان الناس ، تكره كل وجه أبيض ، تكره سعدية لأنها بيضاء ولا تتصور حسن المصرى .ثم أخذن فى ألوان شتى من الحديث..واستمطرن اللعنات على بنات مصر وعلى المدينة نفسها، وتمنين على الله أن تفقد البيضاء التى تصيدت «جمال» وغير جمال من أبناء النجع نعمة اللنظر فلا ترى .. ونعمة السمع فلا تسمع..وأن يسد باب الرحم فى بطنها فلا تلد.. فالحية لا تلد إلا حية تمسك بجمال وغير جمال وتشدهم اليها ،فلا يستطيعون الفكاك ، وربنا قادر علي كل شيء. هو الذى أعطى وهو الذي يأخذ!!

وأقبلت نبوية- سيدة من النجع الآخر عرفت بخفة الدم، يروى الناس نوادرها فى كل نجع ، علمت بالمصيبة التى حلت بداريا سكينة فأقبلت لتواسي وتخفف من لوعتها.

فتحت الباب ووقفت باسمة الثغر لحظة ثم راحت تتحرك وتقهقه وتلقى بمقطع أغنية مرحة تنم عن الدلال،فأخذن يوجهن إليها نظرات تحذير فلم تبال بهن بل اندفعت وقامت وسطهن ولفت جلبابها حول ساقيها حتى بانت سمانتاها، وراحت تتثنى بينهن تقلد بنات مصر ، تغنج وتدل وتتقصع في مشيتها وتطرقع بلسانها وكأنها تلوك اللبان مثل بنت مصر، ثم أمعنت فى المحاكاة وهزت أردافها وبطنها وهى تعلن :

- هكذا تفعل بنات مصر..تعلمى ياشريفة.. فترسل الفتاة شهقة وتتوارى خلف أمها بينما راحت نبوية تحوم بينهن تهز أعطافها وخاصرتها وترعش صدرها.

- تعلمى حتى لا يفلت منك زوجك.

لقد عادت نبوية هذه منذ شهور من الاسكندرية بعد سنوات طويلة عاشتها هناك،كانت تبالغ فى دلالها وحركاتها ولكنها تمكنت من انتزاع بعض الضحكات والبسمات حتى من درايا سكينة نفسها ومن شريفة التى وقفت مشدوهة تتصور زوجة جمال فى الصور التى عرضتها نبوية.

وعندما حل المساء انصرفن إلا نبوية ، فأنها لم تبرح الدار إلا بعد أن مسحت الدموع وطبعت على ثغر الأم والفتاة الجريحة بسمة وحفرت فى قلبيهما أملا فى جمال..

٧

قبل أن يبدأ الموسم وفى انتظاره،ظل المتجر يعمل طول النهار على ضوء الشمس، وفى الليل على ضوء كلوب كبير. خالى روحه تكاد تزهق من فرط العمل، وأبى يسب ويلعن « خاش» الزبائن يتغيب الخال ساعات بالنهار - وبالليل - يستقل فلوكته الرابضة على الموردة إلى الجزيرة، وقد علق طوريته بين كتفه وعنقه ، وفى جيبه دفتر طويل بالديون التى على أهل الجزيرة ، ويظل هناك يشخط فى أبنائه ثم يعود مرهقا ليسهر مع الكلوب .يشطب صفحات من دفتر اليومية بالقلم الكوبيا ، بينما يعلق أبى فأسه على كتفه وينحدر إلى الغيط ليعاون حسن المصرى وبطة.

فقبل مهرجان النخيل يجب أن تتعرى الأرض من الذرة فتترك لتستريح وتستجم فى ضوء الشمس.

وثمة حركة دائبة فى الحقول، تنغمها خشخشة أعواد الذرة ، وصوت الشراشر والمناجل، ودبيب أقدام وأكف تطلس مساحات عارية من الأرض تكرم عليها قناديل الذرة، ثم تدب الأقدام والهراوات على هذه القناديل لتخليص الحبوب منها، بينما النساء يستدبرن الريح ويذرين ، وكل طفل يمد يده إلى ظهره وصدره من خلال تقويرة الجلباب الأزرق ليهرش وينفض عن جلده الملتهب ذرات القيشة المتسربة إليه.

وما زال وجه داريا سكينة متجهما ، تلمع الدموع فى مقلتيها ، ومازالت شريفة متحفزة الاعصاب- تدوران هنا وهناك، تلتقطان قناديل نسيها أصحابها وتذريان وتقتضيان أجرهما فى العصر: قدحا تحملانه إلى دارهما وهما تلهجان بحمد الله وتستمطران اللعنات فى نفس الوقت على مصر، وبنات مصر ، وعلى جمال.

وبين الحقول أناس ليس من عادتهم العمل فى الحقول.

فهذا هو نجار السواقى وحلاق الصحة والمأذون وشيخ الكتاب والمؤذن وجزاز الأغنام.. يتوافدون على الأجران جماعات وفرادى يلقون بالتحية ، ويتمتمون بالدعاء، فيهز الناس رؤوسهم ويفهمون، فإن هؤلاء قد صلوا بهم طوال العام وفى الأعياد وعلموا أبناءهم ،وقصوا شعورهم وجزوا أغنامهم عند نهاية الحسوم، وألصقوا«كاسات الهواء» على ظهورهم .. ومن حقهم اليوم كيلة أو كيلتان يجود بهما الناس طواعية، فلسوف يجزون أغنامهم ويصلحون سواقيهم وفئوسهم من جديد حتى يحل موسم جديد..

وإلى المتجر ترحل بعض غرارات المحصول، فيعمد القلم الكوبيا إلى تشطيب صفحات كاملة من دفتر اليومية إلا سطورا تنقل إلى دفتر جديد لتستوفى فى موسم البلح، الموسم الذى يقف الآن على مشارف القرية ينتظر انتهاء الناس من مهرجان الذرة البهيج.

وأمام البصر وتحت الشمس المحرقة تأخذ الأرض العارية ببصرك وهى ترقد متشققة .تنبثق منها هنا وهناك نباتات إبرية غاضبة فيمسك العاقول بأقدام الناس، ويلتصق،«حسن شبكة» بثيابهم وجلودهم ، فيصرخون.

كانت هذه النباتات الغاضبة تبدو مثل شعيرات تبقت على رأس عجوز أصلع، بينما الأرض نفسها تبدو كامرأة أسلمت مولودها للدنيا ورقدت لاهثة على فراشها ، متشققة الشفاه، تهمس

وتتوجع وعليها تنطلق قطعان من العجول والماعز والأغنام ترعى وتجتر الحشائش والعاقول المزهر وبقايا البوص الناتئة. وتخور وتثغو وتهش الذباب بذيولها ثم تحملق فينا بعيون بلهاء..

وفوق سباطات البلح وعلى تلال الذرة، وبين أحراش اللوبيا تنتقل العصافير وأسراب القمري واليمام ، تطير من فنن إلى آخر وتغرد لنا ونحن ندب بأقدامنا على قناديل الذرة، وتأتى ساعات الراحة فنترك العمل، ونكسر بصلة نزدرد بها لقيمات من الخمريد، ثم نسعى وراء الهدهد، وتاجه الملوكي الخاطف اللون، نكيد له ، فيتآمر علينا ويطير بعيدا عنا بعد أن نكون قد ضيقنا الخناق وكدنا نوقعه فى شراكنا..

وتظل الاقدام والهراوات تهوى على قناديل الذرة، والنساء يذرين ويظل العرق يتصبب على الجباه حتى يتكوم الحب تلالا صغيرة، فيجتمع حولها الورثة يصرخون ويتشابكون بالأيدي،وبالهراوات كما صرخوا وتشابكوا منذ مئات السنين.

عائلتنا الصغيرة نفسها كان جوها يتوتر فى مثل هذه الأيام، فليس من حق هذه العمة أن تركن قنديلين جانبا ، ولا من حق هذه الخالة أو الزوجة أن تجلس هادئة على جدول تراقب جباهنا الغارقة فى العرق إلا «بطة» شقيقتى الصغرى فلقد تعارفت الأسرة عن رضا أو على مضض أن من حقها وحدها أن تفعل ما تشاء بالقناديل، فقد سهرت على الزرع وانتزعت «الهالوك» من بين جذوره، وعزقت الأرض وبتنتها وحولت الماء، وحفظت مواقيت الرى. فمن حقها إذن حين يكوم المحصول أن تعزل لنفسها كيلة أو كيلتين وتشترى لنفسها شيئا من المتجر أو من السفينة السوداء التى ترسو على مرافئنا فى الموسم .. ومن الغريب أنها كانت تحجم عن دكان أبيها ، وتشترى من غيره وتقول حين يعاتبها : الدكانة دكانة أبى.. وكل ما فيها لى فكيف أشترى منها ؟.. وهل يمكن أن أفاصل أبى أو أن أدفعه فى صدره وأسبه إذا ما غشنى فى الكيل؟! الناس جميعا فى أسرتنا يعترفون لها بهذا الحق إلا حجوبة. فقد دأبتا على النقار معا فى كل موسم ، تصر بطة على أن تستوفى حقوقها رغم أنف «حجوبة»، زوجة أبيها. وكان الأمر يصل بينهما إلى حد التشابك باليد، وقد تشابكتا فى هذا الموسم، ففى أحد أيامه. والأسرة كلها مجتمعة فى الغيط تعمل وتدق وتدرى أقبلت حجوبة فى خطى متثاقلة. فقد كانت فى شهرها السابع أو الثامن، وألقت نظرة هنا وهناك حتى أستقرت عيناها على بطة ثم جلست فى محاذاتها على الجدول الكبير ومضت تراقب حركات الصغيرة وسكناتها. وأخذت بطة تختلس النظر إليها ويداها تعملان بسرعة، وتعجب منها. سيدة فى مقتبل العمر، معتدلة القوام، بوجه مستطيل، وشعر مجدول ملتصق بعناية تحت الطرحة علي جانبى رأسها وعينين واسعتين فيهما ترقب تقولان: إننى أراك من مجلسى فاحذرى. وبشرة سمراء يلمع فوقها لون الذهب الأصفر من قطع مثلثة تتراقص على الجبهة ، وأخرى مستديرة ، صغيرة تحيط بالجيد. وشفتين ممتلئتين تتدلى أسفلهما، ويدين تتشابكان على بطن منتفخة، تربتان عليها بين الحين والآخر وكأنهما تهدئان الجنين الكامن فيها، وتمتدان مرة بعد مرة أخرى، وتغوصان فى الغلة تنقيان عن قطع صغيرة من الطين تندفعان بها إلى فمها بسرعة فتزدردها إذ تتوحم على الطين يقينا منها أن ذلك يزيد من سعة البطن ويترك براحا للجنين يتحرك ويتنفس فيه..

ظلت تزدرد الطين حتى انتهرها أبى فكفت ، ثم مدت يدها إلى سيالتها ، وعادت تحمل بها علبة مستديرة من الصفيح فضت غطاءها وركزتها على الأرض، وتناولت قطعة صغيرة من النطرون ضمت حولها حفنة من الدخان ودفعت بها إلى شدقها الأيمن، وأعادت العلبة الصفيحية إلى مكانها، وراحت تلوك المضغة ، وتزم شفتيها، إلا فتحة صغيرة ترسل منها بين الحين والآخر خيطا طويلا أصفر من الرذاذ. يمتد مترا أو يزيد .. رذاذ يحمل لعابا اختلطت به رائحة الدخان وطعم النطرون. ومضت بطة تختلس النظر إليها حتى وقع المحذور فقد امتد الرذاذ الى يدها مرة فتململت وتذرعت بالصبر. ثم مرة أخرى فتحفزت حتى كانت المرة الثالثة فانتفضت تصرخ فى وجه حجوبة، وتعبر عن احتقارها الشديد .

والحق إن حجوبة كانت تعد فى غير محيط أسرتنا الصغيرة ورغم الأوصاف التى أجملناها إمرأة ظريفة تهش للناس وتبذل لهم من جوذها، وقد عرفت عنها فصاحة لسان وحلاوة صوت وفطنة وخفة دم..ولايدرى المرء سببا محددا لذلك الشعور الغريب الذى تربى فى صدورنا إزاء زوجة أبينا..أهى السبب أم الرجل الذى تبنى بها على كبر أم تلك الاوهام الغريبة التى تصبها كل أم وجدة وشقيقة نحو زوجة الأب، فنخاف منها ولا نقرب طعاما تقدمه لنا!! الا اذا اكلت منه هى أو زوجها، فقد تدس السم لنا فيه؟!!

إننى أنفجر بالضحك اليوم وأنا أتذكر مشاهد موغلة فى الشذوذ بينى وبينها..كنت أصحب أبى الى بيتها، فتخلو بى ،وتحاول أن تتقرب إلىّ وتقدم لى رطبا، وحلوى يتحلب لها ريقى، وأكاد أدفع بها إلى فمى ثم أتردد حين أتذكر تحذيرات جدتى: أياك ..ستدس لك السم فى الطعام.فاقذف بها إلى جيبى ثم انتحل عذرا وأترك بيتها، وأعرج على الخرابة القريبة ، واقذف بقطع الحلوى واحدة بعد الأخرى إلى التراب واقلب سيالتى أنفضها باتقان من آثار السم!

انكفأت بطة تعمل من جديد بعد أن ابتعدت عن نطاق الرذاذ إلا أن حجوبة كانت مصممة على التحرش بها، إذ بدأت تشهر فى وجهنا سلاحا تعرف جيدا أنها تصيب به مقتلا فينا حين تشرعه..بدأت تغنى وتلقى كلمات مزدوجة المعانى ، حمالة أوجه..تنظر إلى شقيقتى جميلة العروسة وتقول:

– داريا، مالبنتك شريفة تتقصع؟ ويدها متحنية..دعيها تتحشم!! وتدرك بطة أن شقيقتها هى المعنية بذلك فيملأ الغيظ قلبها بينما جميلة تبدو هادئة باردة الأعصاب كعادتها تتحرك وكأن ما قيل لا يعنيها فى شىء.. وتتأكد بطة من مقصد حجوبة حين لا ترى شريفة فى الغيظ على مرمى البصر. وتحس حجوبة أن سهمها قد طاش فى هذه المرة، فتستعد لجولة أخرى وتتخذنى مرمى، وتتحدث فى كلمات منغومة عن الخيبة التى أعيش فيها: لا شغل ولا مشغلة.. نهايته يتلو القرآن فى المياتم.. ولا يغيب عن بطة ما تعنيه ولكنها تتذرع بالصبر بينما خالتى «أمينة بابا» تحذر حجوبة بنظرة جانبية فلا تبالى بل تمضى قدما إلى إلقاء قذيفة أخرى:

– داريا..مالك مخطوفة اللون مثل المجنونة..

وتغمز ثم تضيف:

- ..ومن أين رغاوى الصابون التى تسيل بين شفتيك..

مخطوفة اللون.. مجنونة.. رغاوى الصابون بين الشفتين..

حجوبة لا تعرض إلا بأمى، تتهمها بالجنون!! أدركت كل ذلك وأمسكت بقطعة حجر بعد أن رأيت أبى بعيدا فى نهاية الغيط ورفعت يدى لاقذف بها فى وجه حجوبة، إلا أن جميلة اختطفتها من يدى، وانتهرتنى.وقررت بطة أن تنتقم من حجوبة فى نفس اللحظة التى انشغلت جميلة فيها بأمرى ، فأمسكت بقطعة مستديرة من الصوان وطوحت بها على رأس الزوجة التى أطلقت صرخة داوية انكفأت بعدها على الأرض والدم الأحمر ينحبس من رأسها بينما الصغيرة تعدو هاربة لتختفى بين أشجار النخيل. لكنها اصطدمت بأبى لسوء حظها فأمسك بها، ثم ضربها علقة ساخنة لم تنسها طوال حياتها.

أخذ الرجل يضربها إلى أن سقطت على الأرض فاقدة الحس، وركلها وأقبل علي حجوبة ، فوجدها منطرحة علي الأرض،فجن جنونه خشية أن يكون مكروه ما قد أصاب الجنين فى بطنها، فارغى وأزبد وصفعنى صفعة أطارت صوابى، وانحى بالائمة على جميلة وكأنها هى المسئولة ثم أقسم وأغلظ فى ايمانه وتعهد بألا تدخل حبة واحدة من الذرة أو القمح هذا العام فى بيتنا...

ورفعت أمينة بايا رأسها، من فوق الراس الجريح فى غضب ثم انكفأت على الجرح تغسله وهى تصرخ فى ابنتها :

- عيشه.. بسرعة.. قليلا من البن..

فأسرعت هذه إلى البيت عدوا ، ثم عادت بالبن، فمضت أمينة بايا تحشو الجرح به وحجوبة تتأوه وتئن.وتجمع رجال ونساء النجع حولنا إلا الشيخ فضل، فقد أطلق، بعد أن ألقى نظرة على حجوبة، ضحكة مقتضبة والتفت إلى أبى يسخر منه:

- هيه..الزوجة الصغيرة.. مسكين.. وحبلى. مسكينه!!

فثار أبي فى وجهه!!

- الوقت ليس وقت مزاح يا فضل.. ألا تراها تموت؟

- تموت !! وتلك الأخرى ألا تموت؟

وتلفت نحو بطة التى كانت قد أفاقت ونهضت تنفض الغبار عن ثيابها ، وتختلس نظرة جانبية إلى أبيها، متأهبة للجرى فى أى وقت، ورمقها الشيخ فضل بإعجاب وقال:

- عفريته وشقية، .زوجها لى أمين ..

فتفرس أبى فى وجهه نافر العروق ثم مضى يلعن أمى وجدتى حتى أقبلت عليهما أمينة بايا تبتسم ابتسامة ذات معنى وتقول:

- حجوبة بخير.. جرحها ليس إلا خدشا بسيطا..وتفحصها أبى بنظرة غاضبة ، ثم مد يده إلى بطنه يشير إلى الجنين- فى بطن زوجته- فقالت على الفور:

- لا شىء ..لم يحدث له أى ضرر..

فارتخت عضلات وجهه قليلا، وبدا لأمينة أن الجو ممهد لإصلاح ذات البين فاقترحت..

- وأين تلك العفريتة.. هاتها يا فضل نصلحها على الزوجة الغاضبة..البنت الثانية « على

وش فرح، ولا داعى لكل هذا النكد.. وأشارت باصبعها إلى «جميلة» فانعطف الشيخ فضل إلى «بطة» وأخذ يحاورها ويشدها من يدها شدا إلى «حجوبة»..

- تعالى ، بوسى راس حجوبة فهى فى مقام أمك!!

فتقفز الصغيرة وتكاد تفلت منه وهي تصرخ ..

- وأنا مالى!!.. هى التى شتمت أمى. ويميل عليها فضل ويسر فى أذنها شيئا..تتفلت بعده إلى شقيقتها ثم تنقاد فى تقزز لكن فى يسر إلى حيث كانت حجوبة ترسل رذاذها الاصفر وقد لفت رأسها بقطعة بيضاء من القماش لطختها بقعة مستديرة من الدم..توقفت بطة برهة على رأس الزوجة التى أشاحت بوجهها ،تبدى تمنعا ممزوجا بالتشفى..

فأمسك الشيخ فضل برأسها وأماله على الزوجة.فأطاعت الصغيرة وطبعت قبلة خاطفة على رأس الزوجة واستقامت لتهمس

- معلهش.. سامحينى..

ولكنها لم ترد حتى فى هذه اللحظة أن تفلت الفرصة منها ،فانعطفت وبصقت على الأرض بصقة تعبر عن اشمئزازها، فكظمت الزوجة غيظها وبيتت في نفسها أمرا:أن تثير حفيظة الأب على البنت وعلى الأم، فهى ترمى إلى أجلائنا عن بيتنا الكبير ذى الغرف الثمانية لتحل فيه هى، والرجل لا يمانع ، لكن الضرة - أمى - والجدة تقفان دون تحقيق رغبتها، إنها فى كل يوم تسر إلى الرجل: بيتك لا يليق بك وبضيوفك..لماذا لا ننتقل إلى البيت الكبير؟

البيت الكبير الجديد المبنى من جالوص الطين مجال حرب أخرى بين الزوجتين، حرب لا تهمد، والرجل حائر ماذا يفعل، فهو يعانى من هذه المشكلة منذ سنين طويلة، يخلو إلى فراشه فتثير الزوجة الشابة حفيظته ثم تثير إشفاقه علينا وعلى الأم المريضة فيسكت..

وبدا واضحا فى تلك الظهيرة أن الرجل نادم على إيمانه التى أطلقها لحرمان بيتنا من الذرة والقمح، ولكن التراجع أيضا كان عسيرا، إذ لابد من استشارة الشيخ عبد العزيز فى استرجاع يمينه ولا بد له أن يدفع كفارة!!

وبدت الشقيقتان حائرتين ماذا تفعلان ؟.. الصغرى ترمق شقيقتها نادمة على ما بدر منها من أذى ومن تنغيص!!والكبرى تخفف عنها ببسمة رانية حلوة وتهمس:

- أنت تعرفين أبى ..يقسم كثيرا ولكنه سيرجع كعادته..
- ولكن الأيام قد تطول إلى أن يتراجع..
- صحيح ..إلا أنه سيتراجع فى آخر الأمر..
- ولكن لا بد لنا من قمح للشعرية ولزفافك.
- بدرى «يابطه»..لا تشغلى نفسك.
- كيف؟!ألم تقولى أن فردوسة وحفيظة شقيقتى شعبان ستزوران بيتنا؟!
- وماله؟..لا تهتمى فذلك لن يتم إلا بعد أيام..

فدعت الصغيرة على نفسها بالعمى والكساح ثم أقبلت على عملها بهمة كأنما تريد أن ترضى أباها الغاضب المتجهم، بيد أنه أغاظها أن رأت حجوبة مرحة ضاحكة،لاتبالى بجراحها بل تبدو

وكأنها سعيدة بهذه الجراح..

وحل الأصيل بإشعاعاته الذهبية، وهب نسيم نشط هزنا له نحن الصغار رؤوسنا طربا فى انتظار سحر لذيذ نتعقب فيه الثمار المتساقطة على أضواء فوانيسنا.ولربما توارى فيه برعى وشريفة عن الأنظار وتهامسا كما فعلا بالأمس القريب فأستمتع بتناجيهما والتلصص عليهما!! وامتلأت الحقول بسحر الأصيل،ونشطت الأيدى،وأخذت داريا سكينة وشريفة تحشران فى كيس كبير ما جمعتاه من كدهما طول النهار فى الدق والتذرية ثم انسحبتا عائدتين،وعيونهما لاتزال شاخصة غائمة كأنهما لا تريان أمامهما إلا وجوها بيضاء ملطخة بالأحمر والأبيض وملاءات تكسم أجسادا ملفوفة، تقتنص أبناء النجع هنالك فى مصر، لعنة الله على الشيخ أمين وعلى القيراطين فلولاهما لما هاجر جمال ولزرع شريحة الأرض وكفاهما مشقة العمل فى الشمس لغيرهما - إنهما تلهثان من فرط العمل، بينما حجوبة تراقبهما وكأنها سيدتهما أو سيدة قصر تشرفان هما على خدمته تماما كما يفعل جمال فى مصر!! ورغم كدهما، فإن دفتر أحمد عودة مازال يحمل اسم داريا سكينة، وأمامه أرقام كبيرة رهيبة، تسبب الهم بالليل والعرق المتصبب بالنهار دون جدوى إلا لقمة العيش.ومن يدرى، هل يكفى محصول البلح أم يقصر؟ فتذرفان الدمع طوال الشتاء في انتظار موسم جديد.. وتميل الشمس لتغوص فى مياه النيل إلى الغرب عاكسة أشعتها الواهنة على صفحة الشمندورة الحمراء التى تناضل في الضحى، وتناضل فى الظهيرة وعند الأصيل وعند السحر، لتنتعق وتجرى في النيل كما تهوى، دون تلك السلسلة اللعينة التى تشدها إلى القاع..وتنحدر الشمس وهى تتبدى قرصا أحمر بظلال الأشجار فتمدها وتجلدها على الأرض وتهبط معها العصافير من تحليقها لتستكن في أعشاشها ،وتشرع الجنادب في إرسال صريريها الخافت يطغى عليه نعيق الضفادع وثغاء الحملان الصغيرة وخوار البقر ونهيق حمار،ونباح «لورد» يطارد :كلبة عبد الله الجزار..

حينذاك بدأنا نعود فرادى وجماعات..

كنت أدب على الطريق العام بين شقيقتى وأنا أفكر فى بطة الثائرة دائما وفى جميلة التى لا تثور أبدا، وعنَّ لى أن أسأل جميلة عن شىء ما فالتفت ناحيتها، وذهلت إذ وجدتها تنسحب بسرعة لتتوارى خلف جذع نخلة..

وحانت منى التفاتة إلى الناحية الشرقية ،وعرفت السبب فى اختفائها المفاجىء، فإن شعبان الرجل الذى اختارها عروسة له كان يقبل على نجعنا فى خطى متوثبة، فاختفت حتى لا يراها!! فهكذا جرت التقاليد فى قرانا ..والشىء العجيب حقا أن جميلة نفسها كانت تلتقى بهذا الرجل قبل أن يخطبها، فلا تختفى منه بل وتحييه وتقدم له الشاى في المتجر سافرة، فلماذا تختفى اليوم عن ناظريه؟! لماذا ترتبك ويصيبها الاضطراب لمرآه، فلا تشعر بالهدوء إلا حين تجد نفسها فى مأمن من عينيه!؟..

هكذا كانت كل فتاة تستقبل الزواج ..تتوارى حين يلوح رجل المستقبل ،وقد تراقبه من طرف خفى..ولكنها لا تسمح له أن يراها ومازال الناس في قريتنا يذكرون ماحدث **لأمينة** عروسة **أمين حجى**، توارت عن عينيه بعد أن خطبها..إلا أن الفتى اتفق مع لداتها

فاستدرجنها فى أصيل يوم إلى شاطىء النيل لتفضى اليهن بدخائل نفسها، بينما يراقبها هومن طرف خفى..

ركزن الكويبهات على الشاطىء، وأخذن في إثارة أمينة إلى أن انفجرت تتباهى، وتذيب على شفتيها كل ما تحلم به فى ليلتها الأولى مع أمين عريسها: سأذله وأتغلب عليه !ثم لا أستسلم له إلا بعد أن يجن وهزت أعطافها وهى تتدلل، ثم تبسمت وهى تقول : بعده..لن ينالنى إلا بعد أن يتعذب، إنه يتعقبنى في هذه الأيام، رأيته وهو يراقبنى من سطح بيت خالته.فرميته بحجر واختفيت عن ناظرية..

ومضت تحكى بالتفصيل، كل ما سيتم بينها وبينه فى ليلتهما الأولى واستمع الفتى بقلب نابض إلى أحلام فتاته،وقرر أن يفاجئها فخرج إليها من خلف نخلة وتوقف أمامها بينما الخبيثات يتظاهرن بالدهشة والغضب!أما هى فقد احتبست الكلمات في حلقها ،فمضت تغمغم جاحظة العينين ثم أطلقت صرخة داوية أخذت تعدو بعدها إلى سفوح الجبل الشرقى..ظلت تعدو والفتى يناديها ،واللدات يستصرخنها ،ثم كانت الكارثة فقد سقطت أمينة وهى تعدو فى بئر جافة انتشلت منها فاقدة الوعى مختلة العقل وعاشت بعد ذلك تلطم خديها حتى فارقتها الحياة..

ويبدو أن جميلة قد تذكرت قصة أمينة حين لاح شعبان عند منعطف الطريق..فتوارت عن عينيه ريثما تفحصنا الرجل، وشق طريقه إلى المتجر ودلف من بابه ،فانضمت إلينا من جديد ثم أخذنا نسرع الخطى لنعبر باب الدهليز وصوت عم نوح يلعلع بآذان المغرب يطلقه من مئذنة الجامع خلف بيتنا.

وفي ركن من الدهليز رأيت أمي،مطرقة الرأس ترسم خطوطها وتذرف الدمع وتبكى بحرقة ،فقد سبقتنا إليها أخبار معركة ابنتها مع حجوبة فى الغيط..

ومضت جميلة تواسى أمها وتهدىء من روعها بينما انكفأت بطة مع جدتها تعدان لوجبة العشاء..

وران صمت ثقيل على الدهليز، وبدت وجوهنا على ضوء المسرجة متجهمة غاضبة يعتمل الغيظ علي قسماتها ،الغيظ من حجوبة ومن الأب الذى أسلم نفسه للغضب،فأغلظ فى ايمانه وأوقع علينا الحرمان ..إلا أن الوجوم لم يطل بنا ،فإن شيئا جديدا قد انبثق بيننا فى تلك الأمسية ،وجوه باسمة ضاحكة: وجوه فردوسة وحفيظة ومسكة شقيقات شعبان،أقبلن علينا بعد العشاء فى زيارة ودية للعروس، كل واحدة كانت مثقلة بهداياها للعروس وللأم والجدة وللشقيقة الصغرى..

وفرحت أنا بهديتى : طاقية مزركشة عليها جمال باركة بأحمالها وأخرى على أهبة النهوض ومن خلفها نخيل.

وسهرنا الليل كله في مرح تضج الصالة بضحكات متشرخة تنبعث من بين شفتى جدتى العجوز وبضحكات شابة.حتى أمى تناست خطوطها واشتركت بابتسامة بينما جميلة محرجة مرتبكة يزاد اضطرابها كلما داعبتها مسكة أو حفيظة..

وانتصف الليل ،ونحن ما نزال في دعاباتنا ..وانقضت السهرة ،وحينذاك أمسكت «مسكة»

برأسى وهى تقول:
- ألست رجلا؟
فهززت رأسى فى زهو:
- رجل وألف رجل!
- ألا تخاف من الضباع؟
فارتعش جسدى كله عند ذكر الضباع، ولكننى أجبت رغم ذلك :
- ضباع !..أنا لا أخشى الضباع ولا الفئران..
وضحكت جدتى فإنها تعرف أننى أرتعش لمجرد ذكر الضباع ،ثم توجهت إلى مسكة تسأل:
- ولم تسألين ؟..
- ليقوم حامد بتوصيلنا..
وتدخلت فردوسة:
- ما عليه، .شعبان ينتظرنا في الدكان.
وأقسمت جدتى ألا يبارحن الدار إلا فى الضحى من غد، وتشبثت جميلة بمسكة وبطة بفردوسة، بينما أنا بحفيظة..فقد أصبحنا صديقين منذ أول لحظة ـ أرجوها أن تبقى الليل كله معنا، فأذعنّ ورجوننى أن أخبر شعبان فى الدكان..
وعدت بعد حين لأجدهن يتهيأن للنوم..
ولا أدرى ما الذى حفز شقيقتى الكبرى..فقد سمعتها تقول بعد تردد:
- مسكة!.
قالت: نعم..
- وأنت يا فردوس وحفيظة..
قلن: نعم..ماذا تريدين..أتريدين أن تسألى عن شعبان..
اسألى عنه دون حياء! طوله وعرضه !هواه وملبسه! ومزاجه..اسالى وسوف نجيب بصراحة..إنه زين الرجال ياست..
وارتبكت جميلة لكنها قالت:
- كلكلن مثل بطة،طويلات اللسان..لا نفع فيكن غير المهزأة.. فاحتجت الصغيرة..ثم انبرت تقول:
- جميلة خجلى..تريد أن تقول : يابنات انتن ضيفاتنا بعد اسبوع من تاريخه ..يوم الإثنين..من الصباح إلى ضحى اليوم التالى.
- ولماذا ؟..لست أنا التى أتزوجك..بل شعبان..أعزميه هو..
- قالتها مسكة ثم أردفت:
- سمعت إنك تصنعين أحسن شعرية فى البلد يا جميلة من دقيق القمح،سوف نرى،أينا الأشطر..أنت أم أنا ؟.
القمح والدقيق..يالله..ومن أين لنا بهذا القمح بعد أن أقسم أبى.ولمحت دمعة تسيل من عين

«بطة» دارتها بطرحة..وتوسمت ربكة فى عين جميلة،وندما على الدعوة التى وجهتها دون تفكير فى القمح!

* * *

ومرت أيام ثلاثة على سهرتنا، وأبى لا يزال على خصامه معنا، لا يعرج إلى بيتنا ولا يدعونا للعمل فى الغيط، ولا يوجه كلمة واحدة إلى بطة حين يراها، كان يجتاز بيتنا بسرعة دون أن يلقى نظرة واحدة إلى داخل الدهليز، وبدا وكأنه قد تناسانا جميعا وأسقطنا من حسابه.

وباتت الجدة والشقيقتان يعانين ..فقد تورطن ودعون شقيقات العريس، وها هى الأيام تقترب دون أن يكتمل لهن ما تتطلبه الوليمة.اللحم يمكن تدبيره، فالدواجن تملأ فناء البيت..ولكن أنى لهن بالسمن، وفى الصومعة ذرة وفول.وفى السحارة سكر وشاى ولكن لابد لهن من دقيق القمح، يعدون منه خبز ذلك اليوم ناعما رقيقا شفافا أبيض مثل بياض اللبن،والشعرية.؟

أيلجأن إلى الجيران؟.عيب !أم يلذن بمتجر حسن حسين يستدن منه؟ عار كبير! إبنة تاجر تستدين لتولم لضيوفها؟.

وحارت جميلة فى أمرها وتشفعت بخالتها..لكن أبى كرر إيمانه من جديد مما غرس اليأس فى قلب الفتاة فراحت تنتحب وتبكى سوء حظها..

أتقدم لهن عيشُ الذرة؟ دون ذلك قطع الرقاب..لا بد من قمح ..والغريب أن القمح متوفر فى المتجر، في مخزنه الصغير - على بعد شبرين من الدهليز - عبر الحائط الرقيق الذى يفصل بينهما..

وقررت الجدة فى نهاية الأمر أن تستدين ولكن من قرية أخرى، أن تسافر إلى عنيبة فى البر الغربي، عند أبيها الذى لم تره منذ سنين طويلة،وشق الأمر على جميلة وأخذت تستعطفها ألا «تسافر»فلسوف يعرف الخبر مهما حاولنا إخفاءه :أولمت لشقيقات عريسها من قمح استدانته، مع أن القمح فى دكان أبيها على بعد شبرين!!

وتمنت لو عاد أحمد عودة من أسوان، فقد سافر إليها منذ أسبوع لقضية رفعها أمام المحاكم تشغل باله منذ سنين طويلة..

* * *

كانت جدتى تعرف أن مشكلة القمح ستحل بطريقة ما، بإذن الله،فراحت تستعد للوليمة..وتنظف البيت فى انتظار الفرج..

كلفتنا أنا وبطة أن ندور بكل الجدران..ونرمم كل الشقوق والجحور فى الدهليز..ونطلس الجدران من جديد،ونرتب العنجريبات كما يحلو لنا، ونطارد خيوط العنكبوت،حتى يبدو البيت بهيجا يوم الوليمة، فشمرنا عن سواعدنا، وغرسنا فى مونة أعددناها منذ الليل وبدأنا بالحوش منذ الصباح..وعرجنا على الحاصل والديوانى ثم على الدهليز نوصد الجحور والشقوق.

وفى الدهليز توقفت بطة أمام جحر صغير ..وفى يدها قطعة كبيرة من الطين، ومضت تصيخ الصوت، فمن الجحر كان ينبعث صوت خافت رفيع عرفته على الفور، فألقت بالطين جانبا واقتحمت الجحر بهراوة صغيرة، فازدادت الصوصوة ثم هدأت، ومضت بطة تعربد بالهراوة فى

الجحر حتى وسعته، فأدخلت يدها..تدور فى جوانبه لامعة العينين ثم أخرجتها ممسكة بفأر كبير صرعته الهراوة!.

وأخذت أنا ألهو بالفأر بينما مدت هى يدها من جديد فى الجحر، وأفقت من لهوى بالفأر على صرخة مكتومة أطلقتها بطة، وجزعت فربما يكون ثعبان قد لدغها داخل الجحر،فانكببت عليها أسأل:

- مالك..ألدغتك عقربة..ثعبان!؟..

ولكنها لم تجب بل استمرت تحرك يدها داخل الجحر..:

- يا مجنونة ماذا تفعلين؟.

- اخرس الآن..

ثم لمعت عيناها ببسمة وهى تشير إلى مقطف كبير فى الركن:

- هذا المقطف ..عجل يالكعى..عجل!

وأخرجت يدها تحمل حفنة كبيرة من القمح مختلطة بالطين،فإن جحر الفأر كان يصل ما بين الدهليز ومخزن القمح فى الدكان عبر حائط رقيق!.

ومضت تطلق صرخات الفرح، وتندفع بيدها فى الجحر، وتعود بها محملة بحفنات كبيرة تصبها فى المقطف الكبير وأنا أراقبها بشغف، وأحاول أن أدخل يدى معها وهى تدفعنى بعيدا وتهتف:

- لا تدخل يدك، ألا ترى القمح؟ ليأكل أبى أيمانه وسوف نقيم الوليمة!..

وبدا أنها تنتقم لنفسها من أبيها ومن حجوبة:

- لا تقل لجميلة شيئا، سأقول لها إننى اشتريت القمح ..

- من أين؟..

- لا شأن لك..إياك أن تقول شيئا لأحد..

وامتلأ المقطف الكبير بسرعة، فأتت بمقطف آخر ، ومضت تملؤه.. وبينما هى منكفئة على عملها فتح باب الدهليز فجأة،ووجد ت نفسى أمام أبى،فتيبس لسانى وجف حلقى، ولم أستطع حتى أن أحذرها ، وفى لحظة صغيرة كان أبى يقف على رأسها والغضب يتقد شررا في عينيه كان صامتا يراقبها فى ذهول، وهى لاهية عنه، تعمل يدها فى الجحر بشراهة غري[illegible] التفتت ، لتأمرنى بشئ ووقعت عيناها على الرجل يتفرس فيها ، فأطلقت صرخة وهبت واقفة لتعود إلى الفناء أو إلي الخارج ..لكن الرجل عاجلها وأمسك بها وهو يقول:

- مجنونة ،..أتسرقين يابنت المخبولة؟

وتأوهت وهى تحاول أن تتخلص منه..وعجزت فانحنت على يده،لا لتقبلها ،بل لتغرس أسنانها..

فلم يتمالك نفسه،بل أهوى بيده على صدغها ،فصرخت صرخة أسرعت بخطى جميلة من الفناء الداخلى إلى الدهليز..

وبنظرة واحدة أدركت هذه كل شيء،فقد رأت الجحر وحفنات القمح والمقطفين وأدركت موقف أختها وغضب أبيها فانبرت تقول فى هدوئها المعهود!..

- مجنونة!أتحسبين أننا سنقيم وليمة من السرقة؟!.

وهتفت بطة من بين دموعها وهي «تفلفص» لتنفلت من يد أبيها كلمات مضحكة:

- سرقة!إنه مال أبينا وليس مال أبيه.

وعند هذه الكلمات أطلق أبى ضحكة عالية وأفلتها من يده وأقبل على الكبرى التى وقفت جامدة ،وربت على رأسها ثم مضى يهمس:

- مجنونة مثل أمك. .أنت الأخرى مجنونة!

فتفرست فى وجهه بنظرات باردة وقالت:

- أنا مجنونة!أنا يتيمة لا أب لى، وأمى مريضة؟

وأجشهت بالبكاء ثم ارتمت على صدر أبيها الذى ضمها إليه،يربت على ظهرها في حنان، وهو يهمس في صوت خافت:

- أتحسبين يا جميلة أننى أمنع القمح عنك!..أصدقت!؟.أنت غشيمة مثل هذه الشعنونة..تعالى..تعالى..

وأمسك بطرف طرحتها ومسح دموعها..وقادها من يدها وهو يأمر:

- وأنت يا مجنونة..هاتى هذين المقطفين.

والتفت ناحيتى وقال:

- وانت ياولد عليك أن تسد هذا الجحر بالطين .

فانهمكت في عملى بينما خرجتا معه..

وما هى إلا لحظات حتى عادت بطة،تهز رأسها فى عجب وتغنى وراحت تقفز وتحجل حتى دلفت الى الفناء،وهى تنادى على جدتها .

ثم فتح باب الدهليز من جديد،ووقفت جميلة على عتبته،تحمل فوق رأسها مقطفا كبيرا ،ملأته بقمح نظيف لا يختلط به التراب.. وفى يدها اليمنى عشرات من قصاصات الحرير اليابانى الملون، اعتزمت أن تعد منهامناديل وهدايا لشقيقات العريس : مناديل حمراء وصفراء وخضراء، وما عليها إلا أن تبعث ببطة إلى السفينة الشراعية السوداء أو إلى دكان ألف صنف فى أبريم لتعود بالخرز الرفيع اللامع..تطرز به هذ المناديل، وسوف تساعدها فى ذلك شريفة وسعدية..ويقولون أن يد البيضاء التى وفدت من مصر منذ أسابيع يد صناعة..ولسوف تستعين بها..

وشغلت أنا بالقصاصات الملونة فترة،ثم ارتفعت بعينى فأحسست أن الدهليز قد تغير منظره: كل شىء كان فيه بهيجا ،الأطباق الخوصية والصينية المنكفئة على وجوهها..حتى الطين الذى كان لا يزال طريا على فوهة الجحر بدا شيئا جميلا،على ضوء الابتسامة العذبة التى رفت على شفتى جميلة،فأضاءت وجهها الأسمر الطيب ،وألقت بظل مشرق على غمازتيها ،وانعكست كالنغم الحبيب في صوتها وهى تنادى:

- بطة ..تعالي يابطه..

فهرولت هذه مع جدتها من الفناء الداخلى ..وارتمت بين أحضانها ،تتلقى على جبينها قبلة عرفانا بالجميل..



تعرت الأرض،ورقدت تستحم فى ضوء الشمس،ومع ذلك فمئات الأقدام لا تزال تدب عليها من السفوح إلى الشاطئ، ومنه إلى السفوح من جديد،والهرج والمرج يبلغان مداهما فى كل مكان ..

فلقد بدأ الموسم الكبير،موسم البلح.

وفيه منذ بواكيره الأولى ،تعج القرية بصنوف من الغرباء ،يملأون الدروب،وينزلون على المصاطب ،يملأون عيوننا بمشاهد من البهجة والفرح،مشاهد تحفر في الذاكرة فلا تنسى إنه غزو غريب،تتلقاه القرية بالترحاب فى كل موسم،ونهيص له نحن الصغار،ونهجر الكتاب ونترك كل عمل لنغمر أنفسنا فى أحداث هذا الغزو،نسعى في ركاب الحلب..وطبولهم الداوية ،وخيولهم المزدانة الراقصة،تدك الأرض بحوافرها ،وتملأ الجو بصهيلها المنغم،أغانيهم على الربابة ،عند عتبات الدور،وفتياتهم يخطرن ،خلف الركاب،قسيمات الوجوه،تكاد الأرداف تشقل بهن عن السير..ويبدو أن بعض رجال الدين يقررون عند بداية الموسم أن مواعظهم لا يمكن أن تروج إلا فيه،فيتوافدون على النجع يستدير بهم الناس فى دروس الدين والذكر،ويتبركون بهم ثم يبذلون لهم فى سخاء..وكم عانيت من هؤلاء فإن أبى اعتاد أن يجبرنى على الجلوس إليهم أستمع إلى شىء كثير مما يشقشقون به دون أن أفهم شيئا مما يقولون .. وما زلت أذكر واحدا من هؤلاء بالإسم : **الشيخ الرحمانى**... ما زلت أذكر جبته الجرباء وقفطانه الشاهى الذى كبت لمعته ،وزر طربوشه المغربى وقامته الطويلة العريضة ووجهه الأملس.

أقبل فى أصيل أحد الأيام،وتربع على سجادة صغيرة في الساحة الممتدة بين الشونة والمتجر،فاستدار به الناس،يلثمون يده،ويتبركون بأطراف ثيابه وهو لاه عنهم بتسبيحاته وإيماءاته الوقورة!

تمهل حتى أزدرد عددا من فناجين القهوة،وتريث حتى طوى فى أحشائه من الحمام زوجين..ثم تجشأ ومسح فمه بظهر يده،وراح يتلو من القرآن آيات يفسرها فى كلمات طنانة وجمل مسجوعة عسيرة الفهم..

توقف هذا الرجل مرة عند مقطع،وترك عيون الناس تتعلق بشفتيه برهة من الزمن حتى بان فيا الشوق والتطلع وهز رأسه ثم قال:

- هذا ما يعنيه المفسر..والله أعلم!

ثم تفرس فى الوجوه الطيبة السمراء وأردف:

- أما الواو هنا فهى واو الحال..

ولأمر ما سمعت الشيخ طه يردف على الفور فى صوت خافت

- واو الحال..والمحتال!؟..

بينما رأيت وجه أبى يتجهم ،وجبينه يتقلص كعادته ،حين يحاول أن يفهم شيئا ..وبدا أنه سيرفع أصبعه فى وجه الشيخ مثل تلميذ صغير ليسأل،ولكنه تريث حتى طاف بنظراته فى وجوه الآخرين إلى أن استقر بها على الشيخ فضل فوجده هادئا لا يتغضن *جبينه..وأدرك أن فضلا قد فهم حال هذه الواو فتردد فى القاء سؤاله ثم نكص فى نهاية الأمر مؤثرا السلامة،فإن هذه

الكلمات الكبيرة غير المفهومة تصدع رؤوس الناس،ولكن هؤلاء ظلوا يرحبون بالشيوخ فى كل موسم،ويبذلون لهم العطاء ،فلا تنتهى جولاتهم إلا بأكياس طويلة من التمر يبيعونها هنا أو هناك.

وقد امتلأ قلبى باجلال هؤلاء الشيوخ في تلك الأيام ،فإنهم،كما أدخل أبى فى روعى،رجال لايكذبون،ولا يرتكبون المعاصى،قريبون من الله ورسوله،تتهدج أصواتهم أسفا على كل إنسان ضل سراء السبيل،بل تسيل الدموع من عيونهم ،عند أقل معصية ترتكب.

ثم بدأت أضيق شيئا فشيئا بهم عند أقل هفوة يرتكبونها ،بدأت الصورة الحلوة التى رسمتها لهم فى ذاكرتى تتشرخ..

والشيخ طه هو أول من فتح عينى على الحقائق الصغيرة التى أخذت تهوى على هذه الصورة لتحطمها.

ففى إحدى هذه الأمسيات،وأنا أنعم بلذة صب الماء على يد الشيخ طه أساعده فى وضوئه وشفتاه تتمتمان.

- بارك الله فيك يا ولدى..أنبتك الله نباتا حسنا..

فى هذه الأمسية ،ولسبب لا أذكره أهو الغيرة من الشيوخ الوافدين أم الغيرة على الحق ترك الشيخ طه تمتماته وقال على نحو فجائى أصابنى

بالرعب:

- إذا أردت أن تكون من مريدى الأزهر فاياك من هؤلاء!!..

وأشار إلى الشيخ الرحمانى ثم أردف:

- فليسوا من الدين فى شيء!..

ومسح بيده على رسغه ثم طاف بأصبعه فى أذنه واستطرد:

- إنهم محتالون..كذابون لا يعرفون الله!.

يا لله اكذابون ،محتالون ولا يعرفون الله؟!ومن الذى يعرفه إذن!؟..

وانزعجت لهذه الكلمات ،ورحت أنكرها كلما أدرتها فى ذاكرتى إلا أننى بدأت أراقب حركات الرحمانى وسكناته،إلى أن كان الليل بعد صلاة العشاء،فنشبت معركة رهيبة بين الشيخين على مسمع من رجال النجع .

كانوا يلتهمون فى هدوء ،شرائح من البطيخ والشمام،وطاب للرحمانى أن يسلى مائدة القوم،فأدلى بحديث نبوى عن البطيخ زعم فيه أن آكله يدخل الجنة دون حساب!!وانتظر الشيخ فضل إلى نهاية الحديث،وقال وهو يضحك!

- إذن فسوف أدخل عشرين جنة..بل مائة جنة!.

وصاح عبد الله الجزار.

- اللورد كرومر نفسه سيدخل الجنة رغم أنه نصرانى..فكم اكل البطيخ بالثلج ..أحسن بطيخ،ياسلام..

وتلمظ وفرك فمه بيده بينما ضج الاخرون بالضحك،وراح الشيخ يعيد الحديث من

جديد،ليضيف فى نهاية الأمر: - بشرط أن تكون موحدا مؤمنا بالرسول يا عبد الله.

فردد الحاضرون فى صوت واحد:

- عليه الصلاة والسلام.

بينما تأسف الجزار،ومضى يبحث عن كلمات يعتذر بها،كلمات لم يجدها فاكتفى بالقاء قطعة أخرى من البطيخ فى فمه..

وأحس الشيخ طه أن فرصته قد سنحت فانبرى يتكلم فى وقار وفى كلمات هادئة يسفه الحديث وقائله،ويتهمه بالذمة الخربة،وأبى يحاول أن يهدىء ويلطف من كلماته،فالرجل على كل حال ضيف على النجع.

وتشرخت الصورة الحلوة مرة أخرى ثم تلطخت في اليوم التالى فعند الضحى من هذا اليوم وقفت أمام الرجلين :أبى والشيخ الرحمانى أصب الشاى فى فنجانيهما ،وقبل أن أنتهى رأيت«برعى» يجتاز الساحة من الطرف الشمالى للشونةويقترب من مجلسنا حتى حاذانا وحيانا ،ثم جلس على طرف البرش،فى أدب وحياء جديرين بمن كان فى مثل سنه،وتريث إلى أن فرغ الرجلان من شرابهما وابتدر أبى:

- عم أمين.

- هيه يا ولدى..خيرا..

- خير يا عمي..

وصمت وكأن أبى قد فهم ما يعنيه.واتجه بناظره إلى الشونة ثم أضاف:

- مشوار بسيط إلى أبريم..

ولعب الفأر بعب أبى فتيقظت حواسه وهتف- ومالى أنا وما لهذا المشوار يا أبنى يا برعى؟

وتردد برعى لحظة : ثم قال متلعثما..

- لو سمحت بالركوبة..

فاربد وجه أبى بينما استطرد برعى:

- والسرج واللجام والفرو..

كنت أعرف أن«برعى»اتخذ أحسن ثيابه، وتهيأ للرحيل على الركوبة إلى ألف صنف فى أبريم،ليشترى شيئا لشريفة،واعتقدت وهو رابض أمام أبى أنه يريد السرج واللجام والركوبة،فأشفقت عليه.وخفت أن يرده أبى خائبا..وتمنيت لو استجاب له أبى ليحقق رغبته الجارفة لكن الرجل مضى دون تردد وأقسم ثلاثا:

- والله والله العظيم يا برعى الركوبة أخذها نوح..

وبانت الدهشة على وجه برعى بينما أبى يستطرد فى حديثه قائلا:

- منذ الفجر ولم يعدها!

فقال برعى متلعثما:

- لكن الركوبة..

وقبل أن يكمل جملته انبعث من الشونة ،من مكان قريب ،نهيق متصل ،نهيق حمارنا الأبيض

الفاره،وبدا وكأنه يقول:

- أنت تكذب يارجل..أنا هنا لا نوح ولا حاجة

فأصاخ أبى السمع اليه وراح يتلعثم:

- ولد ..ولد يا حامد..لماذا لم تقل لى وانبرى برعى يقول:

- الركوبه هنا من الصبح..

فقاطعه الرحمانى:

- اخرس ياولد،الشيخ أمين أكد لك أنها كانت مع نوح..وقد رأيت بنفسى «نوح» يركبها فى الفجر..

وفتحت فمى لأقول شيئا بيد أنى آثرت الصمت ،وتحطمت تماما صورة الشيخ فى ذاكرتى،وبدا حمارنا وبرعى يخرجه من الحظيرة... وكأنه يخرج لسانه لهذا لشيخ!أنت تكذب يا شيخ..شخشخ ركبك.

واكتمل النهار،وعاد الشيخ إلى مجلسه فى الأصيل وحيدا بعد أن بارحه أبى إلى داخل الدكان تتبعه شريفة لتشترى شيئا .

كان الرجل مشتبكا معى فى حديث ولكنه انشغل عنى حالما رأى شريفة فأتبعها عينيه يتفحصها من رأسها إلى خديها ،إلى صدرها فحص المعجب الولهان،فازدريته: شيخ بجبة وقفطان ولا يتورع!..

اسفخص..

ولا أدرى كيف انبثق«لورد » يجرى عبر الشيخ ويطأ طرف جبته ويزوم لا أدرى ألا إننى رأيت الشيخ ينعطف فجأة على الكلب بهراوة غليظة نزلت بساقه فهشمتها فى الحال.. وارتمى «لورد » على مد الذراع وأخذ يرسل عويلا متصلا نفد إلى قلبى كما ينفذ جرح غائر ،لينعكس في كراهية شديدة للرجل،صممت بعدها أن أنتقم منه..

لورد العزيز يتلوى أمام عينى،صديقى الأليف الذى يتمسح بى كل صباح،ويهز ذيله بالتحية،ويحزن إذا ما حزنت ولا يأكل إلا إذا أكلت..«لورد » يرقد جريحا..لا يتحرك إلا ليعوى ويصرخ ويقطب غرته المستديرة البيضاء!!انكببت عليه،ألف ساقه بخرقة كانت ملقاه هناك بينما أبى يعاتب الشيخ فيرد عليه هذا فى وقار وبالأحاديث المزعومة كأنه لم يفعل شيئا..

- الكلاب لن تدخل الجنة يا أمين..ظلها ..مجرد ظلها ينجس وودت فى تلك اللحظة لو تجمعت كلاب الأرض كلها ،لتلقى ظلالها على هذا الشيخ،بل وددت لو طرحته الكلاب أرضا وراحت تبول عليه أو على قصاع الفتة التى يزدردها كل ليلة..الكلب ابن الكلب..

وحملت كلبى إلى الدهليز،ثم عدت فى غبش المساء أبحث عن أصدقائى أطفال النجع وأسر بكلمة واحدة فى آذانهم..

وفى الأصيل من اليوم التالى،والرجل يغادر نجعنا تربصنا به عند مشارف النجع الآخر،نمطره بوابل من الحجارة وروث البهائم حتى تركناه دامى القدمين ،ملطخ الثياب..يرسل صرخات فزع

،وولينا الأدبار ضاحيكن من عويله!!..

وعدت إلى الشونة اشترك مع أبى وحسن المصرى،فى تغطية أرضها بأكوام من الرماد..تحول بين السوس والبلح ،فهنا سوف نكوم جرن«الابرتموده» وإلى اليمين« القنديلة»..و«الحجازى» «والقرقودة» وإلى الشمال سنكوم«السكوتى»إلى آخر أنواع البلح الأبريمى التى اشتهرت بها قرانا،ورحنا نعد غرارات طويلة،يمر على ظهرها زيق أحمر عريض،وننظف المكاييل،فمن غد ،منذ الصباح سنحمل كل أدواتنا هذه إلى غابات النخيل..نستوفى ديوننا

* * *

مئات ..من الرجال والنساء والأطفال يهبطون مع الشمس الصاعدة إلى الشاطىء على موعد مع عشرات الألوف من أشجار النخيل،ومئات الألوف من السباطات ،وملايين حبات التمر ،فالنجع يبدو وكأنه ليس إلا غابة نخل..نخل من كل لون،من كل مذاق،ولكل نخلة حياة كاملة،وصفات متوارثة يحفظها عم نوح ..عن ظهر قلب..

هذه نخلة سامقة،حانية على النيل،قمتها منفوشة اصفرت نهايات شواشيها،تهتز مع النسيم وتحتضن ثمارها فى حنان،تنحنى قليلا ثم تهمس لجارتها:

- أتعرفين يا صغيرة كم بلغت من العمر؟

- كم يا جدتى ؟ عشرين سنة؟..

- عدى على أصابعك.استراح المماليك تحتى منذ ..

- مماليك؟!

- نعم مماليك ..ألا تعرفينهم؟هربوا من مذبحة،ومروا من هنا،ورحل بعضهم وبقى آخرون ،سعدية من بناتهم..بيضاء ،جميلة ..فى عينيها بقايا زرقة..

وتتلفت الشجرة الصغيرة لترمق سعدية ثم ترفع قامتها لتهمس:

- مماليك !!سعدية ..أنت تخرفين يا جدتى ،فتصخب الكبيرة،وتمد جريدها تصفع حفيدتها،بينما انبرت عجوز تهمس فوق الأتير:

- دعى الصغيرة ،أنها لا تدرك شيئا..ولا تعرف إن الدراويش استراحوا فى ظلي ..وهم يطاردون الكفرة ببنادق الصيد والسهام .

- صحيح يا بنتى..رأيتهم بعينى ونجوت منهم فقد كانوا جائعين ينزعون من النخلة قلبها ،ويفترسون البلح وهو ما يزال مرا،ولا يتركون شيئا أخضر- تماما مثل الجراد؟

- ويلتهمون الجلود التى تمسك بضلوع الساقية،أيام صعبة لا أعادها الله على أحد من المؤمنين.

ثم تضحك وكأنها تذكرت شيئا وتهمس :

- انظرى إلى هذا الرجل : الشيخ أمين ..يمشى وكأنه ملك. لقد شهدته فى تلك الأيام مربوطا إلي حبل- ربطه الانجليز- يشد مراكب ذخيرتهم حين توقف النو..أيام حرب الدراويش..كان يبكى ويصرخ والسياط تلسع ظهره..والآن - دنيا!!

فتطلق العجوز الأخرى ضحكة متشرخة وتردد:

- أنظرى إلى ساقى ،ألا ترين اللون الأحمر..إنه دم..دم عسكرى انجليزى،أراد أن يعتدى على فضيلة..

- فضيلة!؟

- زوجة الشيخ فضل صاحبى،بالطبع قبل أن يتزوجها..

- وتركته يعتدى عليها ؟!..

- كلا فقد عاجله فضل وقطع رأسه بفأس.ألا تسمعينه دائما يضحك فى زهو وهو يقول: كلب ومات ولم يسأل عنه أهله.

ثم صمتن فى أسى حين لاح بريق الشراشر فى يد نوح وصحابه فقد أقبلوا يقطعون السباطات،وليتهم يقطعون السباطات فحسب أنهم لايرحمون بل يخربشون بمناجلهم فى القلوب بحثا عن الجمار،فيتوقف نبض القلب حين ينتزعونه..

وتضحك الصغيرة مرة أخرى وهى تقول:

- انظرى يا جدتى إلى هذا الرجل،إنه سكران!..

فتهمهم العجوز وتشقشق لتقول :

- شرب العرقى بالأمس فمنذ أسابيع أشعلوا النار تحت آنية كبسوها بالبلح يستقطرون الخمر..

وتردد العجوز الأخرى فى صوت متهدج باك:

- عروا جسدى من الكراديف،والشتاء آت ببرده ،أشعلوا فيها النار فى الكوانين تحت أوعية الخمور..حتى العيال الصغار يشربون الخمر- العرقى فى الموسم- انظرى إلى هذا الطفل!..

فتقاطعها الصغيرة:

- دعيهم يمرحون فإنهم ما زالوا صغارا:

ثم تقطب وتزوى ما بين عراجينها وتقول:

- الأدهى من ذلك يا أمى أنهم يغازلون البنات مباشرة تحتنا ودون حياء!..

- اسكتى يا ابنتى ..ربنا أمر بالستر قلبى يبكى على جدتك تحولت إلى جذع يمتد على سقف بيت هناك..

وأشارت إلى بيت الشيخ فضل:

- وعلى قوامها الطاهر حصيرة من جريدى،وحبال من ليفى أنا ،لعنة الله على الدنيا!..وفوق الجدران أطباق وأبراش من خوصى أنا وخوصك ،وعراجين هذه الجارة المسكينة..الحياة قاسية لا تستحق كل هذا العناد!متى يأتى الطوفان الذى يتحدثون عنه متى!؟

وهب نسيم نشط فتراقصن معه،وأرسلن أغنية مرحة سكتن بعدها فجأة حين تكاثر الرجال والنساء تحتهن ،ولمعت الشرشرة فى يد نوح،وهو يتسلق النخلة العجوز،فأرسلت أنينا خافتا أعولت له الجارة الصغيرة وهى ترمق أبي يرص زكائبه ويرتب مكاييله،ونسوة العائلة وهن يتجمعن فى الظل،ويتطلعن إلي هامات الأشجار في انتظار السباطات التى ستختنق وترتمى على

الأرض وتقع السباطة الأولى:دب..دب..والثانية والثالثة..دب دب.. بين تهليل الأطفال ،فتمتد أيدى النسوة يجمعن البلح المتناثر ويكومنه فى جرن كبير،ثم يستدعين أبى فيجلس القرفصاء ويغمغم بالحمد لله.. ويغرس المكيال فى كومة البلح يسنده بيده اليسرى ،بينما اليمنى تمتد إلى المحصول فى شراهة،وتنتقلُ بخفة بحفنات كبيرة منه إلي قاع المكيال الكبير،دفعة بعد أخرى إلى أن يمتلىء ويتكوم البلح فوق فوهته،وتحسب «داريا » أنه سينتقل بالمكيال إلى فوهة الشوال فتتأهب لتقول: الله واحد ماله تانى،فإذا بالرجل يضرب بيمناه على ضلوع المكيال ضربة قاسية..ترج البلح فيتقلص ويتراجع إلى القاع من جديد.فتتنهد المسكينة وتقول لنفسها:

– المحصول لن يفى بالديون..

ثم ترفع صوتها وتحتج :

– حرام عليك يا أمين كلثومة ..قطعت فرط البلح!.

فيرميها الرجل بنظرة غاضبةْ ثم يواصل عمله فتنكب على يده وهى تصرخ:

– بددت بركته يا شيخ ..حرام ..أولادك ياأمين كلثومة..

فلا يبالى بل ويدفع يدها عنه،ويتمتم فى غيظ فى كل موسم تأتى هذه الولية تناكف وتشكك فى ذمتى ،بنت الكلب تتهمنى..ما عدت احتمل ،وتكاد بطة وشريفة تشتبكان لولا صداقتهما الوطيدة،فتكتفيان بنظرة عتاب..بينما ينفد صبر الرجل فيهب غاضبا:

– خلاص ياداريا يابنت سكينة،حرمت التعامل معك، ابحثى عن غيرنا تستدينين منه.

ثم يرفع يده فى وجهها محذرا:

– لكن بعد أن تسددى ديونك على داير مليم!..

فتتعلق شريفة بكمه وتهمس في تضرع:

– لا عليك يا عم أمين ،من غيرك نتعامل معه،المرحوم أخوك صاحبك بالروح.

فيتذكر الرجل أباها ،ويصمت هنية تتشجع فيها داريا وتهتف:

– ولكن المكيال كبير وأنت تدكه يا أمين بيدك.

– ياوليه ..حرام عليك ،لا تكفرينى ،المكيال عليه خاتم الحكومة.. ويرفع المكيال أمام عينيها ثم يقذف به إلى كومة البلح وهو يهدر فتعترض طريقه ثم ترفع المكيال من جديد أمام عينيها وتقول:

– صحيح!عليه خاتم لكنه اتسع بسبب الشروخ!

ثم تمسك بقطعة حجر وتدق عليه من جوانبه لتضم الشروخ بينما أبى يصرخ وهو يضرب كفا بكف :

– خلاص ..خلاص.. هاتى كيالا آخر..الحق علينا ،تركنا له دخل بحماره..

وتلح المسكينة عليه فيعود إلى التكييل والدك والتعبئة من جديد ،ويظل يدك ويحصى ويسجل فى دفاتره ،ونظل نحن ننقل كل زكيبة تمتلىء على ظهور الدواب للشونة إلى أن حلت الظهيرة فركنا إلي الهدوء،وافترشنا المصاطب ثم تحلقنا حول صحاف الأكل: شرائح من الخمريد ورؤوس بصل نكسرها على الركب ،وحفان من الشطة نزدردها بسرعة.. لا نبالى بالالتهاب الذى

يكوى أشداقنا فقد اعتدنا نحن الصغار أن نتبارى فى التهام الشطة ونحن نردد كلمات تنتهى بالحاء قدح: بلح..قمح..صح..

وما أن انتهينا من تناول طعامنا حتى لاح«باشرى»عند الساقية يتسمت مجلسنا مديد القامة،نحيل الجسد ،جاحظ العينين أحمرهما يكاد شعر صدره الرمادى ،يخترق قميصه الكريشة الأبيض ،فى شفتيه عزم.. صفحة وجه تلمع ببريق يوحى اليك أنه يعيش على مدار السنة في الماء.

دنا منا ثم ألقى بالتحية فى صوت خشن يحمل إلى أذنيك صوت الشمندورة المرتطمة بسلسلتها وهدير الدوامة واصطفاق قلوع المراكب.

وتلقاه أحمد عوده بالترحاب ،فضمه إلى صدره مرة،ثم تباعدا وشدا الأيدى،وعادا بهما إلي الصدر تحت القميص،تماما فوق القلب..وهما يرددان:

- حبابك عشرة..

- حبابك عشرة يا باشرى

واستدار الناس بباشرى يستعيدون ذكريات المواسم ،ويرددون النوادر عن رحلاته في شمال القرى وجنوبها ،فالرجل من « الكنوز»«المتكية» قبائل الشمال فيما يلى الشلال إلى الجنوب،والتى تنتسب إلى عرب الشرق وتتكلم لغة أخرى غير لغة لجنوبيين ،أغرق الطوفان الأول والثانى ،منذ بناء خزان اسوان ثم تعليته مرة فى سنة١٩١٢ قراهم فانتقلوا إلى قمم الجبال يحاولون أن يعاشروا الطبيعة القاسية ثم أصابهم اليأس فهاجروا إلي المدن الكبرى أو إلى الجنوب،واتخذ بعضهم من سفن شراعية كبيرة متاجو تنتقل بهم من مرفأ قرية إلى موردة قرية أخرى وترسو شهرا أو شهرين على مرافينا في كل موسم.

والرجل فى كل موسم ،ومنذ عشرات السنين يحل بنجعنا حتى انعقد بينه وبين رجال النجع ونسائه أواصر ووشائج ود ،يعرفهم بالاسم ويعرفونه كأنه واحد منهم ويهتمون بشئون زوجته وعياله مثلما يهتم بشئون زوجاتهم وعيالهم.

تربع الرجل على المصطبة المستديرة بالنخلة العجوز،وأخذ يدور بعينيه هنا وهناك كأنه يبحث عن شىء أو يخزن في ذاكرته صورة يخشى أن يطويها النسيان،ودار الحديث مليا عن الأسعار وعن أبنائه بحر وعهدون حتى أقبلت بطة تحيى وتقدم فنجان شا ى أعدته تحت جدار الساقية فتلفت اليها وهو يقول:

- باسم الله ما شاء الله ..هاتى يا عروسه..ياسلام!

والتفت إلى أبى باسما يغمز بعينيه ليهتف فى مرح:

- كبرت بطة يا أمين وطاب الأكل للأكال!

فغضت الفتاة حياء وهربت وهى تخفى ابتسامتها خلف طرحتها بينما أبى يضحك وَيقول:

- طاب الأكل ياباشرى والأكال أهتم لا أسنان له..

فدفعه الرجل فى صدره بلكمة وهو يصرخ:

- هيا لمجرب،زوجها لى يا أمين.

ثم انشغل فجأة عن هذا الحديث وأخذ يحدق فى قامات النخيل السامقة وهو يغمغم :مساكين سيطويكم الطوفان مثلما طواناولا نخلة واحدة هناك. ثم قطع أبي عليه كلامه وهو يسأل:

- وكيف حال الكنوز ياباشرى ،ومشاريع الرى فى بلاد المتكية.

فانتفض الرجل كأنما لسعته عقربة وتنهد ودار بعينيه فى النخيل ثم قال:

- كنوزا.. ما عاد هناك أحد ..الكل هاجروا .

وتذكر قمم الجبال الشاهقة التى لاذ بها الناس بعد الطوفان الأول والثانى فى «دابود » و«الكلابشة»و«خور رحمة» منذ عشرين عاما:تلك القمم التى لاينبت فيها إلا الصبار المتجهم كأنما هو وجه الموت نفسه..وتذكر الدروب إلى الثعبانية المنحدرة منها ،وتذكر نساء« وهن ينحدرن من تلك الدروب إلى النيل،يجلبن الماء،فيتبدين ديدانا سوداء تزحف،تذكر كل ذلك وهتف فى يأس :

- أى مشروع رى تتحدث عنه ياأمين !ولا نخلة واحدة هناك مذاق البلح نسيه الناس هناك،إلا ما نشتريه من هنا..وماذا سنفعل غدا إذا ما..

وضرب صفحا عن تكملة نذيره..وقال:

النبى علية الصلاة أمر بالتمر ففيه شفاء..

ثم أخذه سعال حاد جعل عروق رقبته تنفر..وعينيه الحمراوين تجحظان ،فتريث حتى تمخط وبصق فى اتجاه الخزان ثم أكمل :شفاء سبعين«داقا »- بعد حين لن نجد ولا حبة واحدة من التمر .مساكين مساكين نحن..

وتلفت إلى أحمد عودة،وهو يقلب عينيه فى حيرة:

أتعرف يا أحمد،لقد مررت بالديوان،فرأيت رفاصا راسيا هناك،فانقبض فؤادى وأحسست أن دمعة تقفز إلى عينى وتأثر أحمد عوده بكلماته الحزينة وصاح فيه:

- ماذ جرى ياباشرى ..مالك تبكى مثل النساء ..حرام عليك..الله موجود .الرفافيص كثيرة ..كلها تمر من هنا.

وهرش باشرى على رقبته وأكمل :

- إلا هذا الرفاص يا أحمد .كان المستر هيس واقفا على حافته يراقب النخيل والبيوت والجبل بمنظاره المبكر..

وأصاخ فضل السمع إلى كلمات الرجل وقال:

- ومن هو المستر هيس هذا ؟ أهو عزرائيل؟.. لماذا تخاف منه؟

وتردد باشرى قبل أن يجيب :

- إننى أخاف عليكم أنتم..فبعذ الرفاص سوف يأتى الطوفان..

وتلهى عنه فجأة ،وانتبه إلي مشهد استثاره وصاح:

- يابنت يا شريفة،اتركى هذه الخلفة.

وسرسع صوت الفتاة فى حدة:

- لماذا ؟

- عجايب إسنشتلها يابنت الرفضى .اتركيها وإلا..

فأجابت الفتاة بجرأة:

- النخلة نخلتنا والخلفة خلفتنا يا عم فضل!..

وقطب الرجل جبينه ،وقذفها بقطعة صغيرة من الطين تفادتها الفتاة،ثم عادت تجذب فى الخلفة ..كانت تحاول انتزاع جمارها الحلو لتمتصه وانتبه برعى إلى النقار الدائر بين شريفه وخاله،فأسرع إليها يهمس فى صوت خافت:

- اتركى هذه.. أنا سأنتزع لك جمارة أخرى.

ورمقته الفتاة بنظرة متسائلة ثم لوت شفتيها وتركت المكان:

وأطرق باشرى يفكر..هؤلاء الناس لاهون عن الكارثة المعلقة فوق رؤوسهم إنهم لم يجربوا النار بعد ،لقد جربتها أنا ..جربتها صغيرا ورأيت الموت يزحف أمواجا على نجوعنا هناك في الشمال.إنهم لا يعرفون ما قاله النائب عبد الصادق عبد الحميد،ولا ما قاله سليمان عجيب،لا يعرفون ما عرفناه نحن هناك فى أسوان عندما كانت سفينتى ترسو فى مينائها قبل أن تجتاز هاويس الخزان،يجهلون أن مجلس الشيوخ ناقش تعويضاتهم:قروش قليلة عن كل نخلة،والأرض بتراب الفلوس..مساكين يساقون إلى الذبح كما تساق النعاج..لم يعد أحد يدافع عنا بعد عبد الصادق وعجيب،أما النائب الحالى على طه فلا يفعل شيئا غير تملق حكومة صدقى،لا يدافع عنا بل عن الحكومة:

وهنا تمخط من جديد وبصق،وأنشأ يتكلم عن أفكاره،والناس يستمعون إلى أشجانه فى ذهول،بينما نهض أبى من جديد إلى العمل يكيل وأنا أمسك له بفوهة الزكيبة.

كنت أعمل وذهنى منصرف بكليته إلى باشرى وكلماته عن النواب والانتخابات فسرحت بفكرى إلى سنوات مضت،وعشت من جديد صور جموع كبيرة من الناس تطوف بالنجوع،تحجل وتهتف:فتى أسمر ممصوص القوام،يطوح بخيزرانته ويرفع عقيرته ويهتف:

الطير يقول:

ويسكت لتردد الجموع من خلفه:

- سليمان عجيب..سليمان عجيب..سليمان عجيب.

- زرزور يقول:

- سليمان عجيب

- زغلول يقول:

وأخذت أربط بين تلك الهتافات وكلمات باشرى عن النواب والتعويضات فلم أستطع أن أدرك العلاقة فازددت حيرة وأرخيت يدى وأفلتت فوهة الزكيبة التى كنت أمسك بها فطاشت كيلة البلح التى رفعها أبى ليصبها ..فدفعنى بعيدا عنه وهو يسب ويلعن:

ولد خيبان ،ينام واقفا على قدميه ،عاد يدك الكيل،ويغرس يده فى المحصول المتكوم ..والنسوة من حوله يصرخن فى احتجاج ويملى هو على أحمد عودة دون أن يبالى بالصرخات.

- اكتب عندك..داريا سكينة ... ١٣٠كيلة..٥٠سكوتى ... ٧٠ ابرتموده والباقى قرقوده!..

وينهض إلى جرن آخر من البلح لعائلة أخرى ،وتبدأ المناهدة والنقار بينما ينضم الشيخ شليب إلى المصطبة ويشترك فى الحديث الدائر عن الحكومة ومجلس الشيوخ ويقول متأنيا :
- أسمعتم بتليغراف بدر أفندى..
فسأله فضل بعد أن نفث دخان سيجارته:
- بدر أفندى!؟.أى تلغراف؟!
- تليغراف شكر إلى «أبو الفضل الجيزاوى».
ومضى يشرح معنى هذه البرقية،فالرجل كان مأمورا فى مركز الدر يعرفه جميع النوبيين ثم أحيل إلى المعاش وأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ،وهناك دافع عنا بكل ما يملك من بلاغة وحب..هكذا قال بدر أفندى،فالرجل جدير بالشكر ..هو الوحيد الذى دافع عنا وكعادتهم ..كعادة القرويين سكت أهل النجع فى كل شىء فلم يبالوا بكلمات الشيخ شليب بل صمتوا ،ثم عادوا إلى أحاديثهم المليئة بالشجن والحزن ،تمتزج بما يدور حولهم من ضجة وجلبة،النساء وهن يصرخن فى وجه أبى ،وصوت عم نوح وهو يصرخ فى ابنته..وأصوات مزامير وخشخشة غوائش زجاجية ملونة اشتريتها من مركب باشرى،وصرخات نقار يثيرها الأطفال،حول الأفخاخ والسنانير والطواقى الملونة،قايضوها عند باشرى بالبلح الذى جمعوه ،فى السحر من كل يوم،قبل بداية الموسم.
وعلى مد البصر ،كانت جماعة من النسوة يتحلقن بمصاطب النخيل يشتاجرن ،ومواكب ألوان جميلة من الطواقى والطرح ومناديل الرأس الحمراء والخضراء والصفراء.
وفجأة صمت كل شىء،وأحس الإنسان أنه قد سقط فى هاوية،فى نفق عميق غائر لا حس فيه ولا صوت،فقد توقفت«الغوايش الزجاجية عن همسها ،والتوت الألسنة،وتوقف دك المكيال ولجاج النسوة واستدارت العيون كلها فى اتجاه واحد.. كل العيون كانت تنظر فى اتجاه النتوء الشرقى،حتى عم نوح الذى هبط من آخر نخلة ألقى بالشرشرة فى يد ابنته مندوهة،وأشرأب بعنقه، يرمق النتوء بنظراته الكليلة ،فعنده كان« رفاص»أبيض جميل المنظر يلقى مرساه بعد أن أوقف قلاباته ،ومنه كان يقفز إلى الشاطىء رجال بملابس غريبة محبوكتعلى أجسادهم فى ضيق شديد،وطرابيش حمراء وبرانيط تنعكس عليهاشعاعات شمس الأصيل.
وعلى الشاطىء توقف العمدة يلقاهم بترحاب شديد،وما هى إلا لحظة حتى أنعطف بهم إلي الطريق العام يقودهم إلى داره،هناك فى الطرف الشمالى من القرية بينما بدا الرجال والنساء،والأطفال تحت أشجار النخيل وحول أكوام البلح عيونا واسعة تحملق فى الوجوه البيضا ءوالطرابيش الحمراء ،والبرانيط.
ومرت لحظات مثقلة بالرعشة واللهفة والخوف..لحظات دامت حتى توارى الوافدون الجدد خلف الربوة الفاصلة بين نجعنا ونجع «السواردة» ..قبالة الصخرة المعلقة على كتف الجبل..
ثم أنكفأ الناس على أعمالهم ،يراقبون الشمس المائلة إلى الغروب يلمع ضوؤها الباهت على سطح الشمندورةالحمراء التى طفقت تتحرك فى قلق شديد تحاول الفكاك من إسارها الأبدى..
ونفض أبى يده من التراب ،بعد آخر كيلة..أفرغها فى الزكيبة وبدأ يجمع أدواته ويتأهب للعودة،بينما ودع باشرى صحابه،وانطلق بخطى واسعة هاربا إلى متجره العائم ،ومن خلفه الشيخ

فضل يضرب كفا بكف ويهمس:

-- مسكين باشري،الرفافيص تخيفه..مسكين!!

وقال أحمد عوده:

- معذور يا فضل.

٩

الشرشرة تلمع فى يد نوح ،والسباطات تتهاوى إلى الأرض فى جلبة دائمة ،والدواب تتحرك من الشاطىء إلى الشونة تنوء بحملها،والأطفال يتواثبون فى ضجيج لا ينقطع من النتوء إلى السفينة الشراعية السوداء،ويحشون أفواههم بالحلوى..وحفنات الفول السودانى والحمص،وبين النخيل ألحان تنبعث مختلطة بوشوشة الأجراس الصغيرة المنتظمة حول«الخلاخيل» المحدقة بالسيقان ،موسيقى ينتظم إيقاعها مع الخطى الصغيرة الواثبة والأكف الرخصة المخضبة السارحة فى دلال بين الطرحة المسدلة تصلح من وضعها وبين الجرجار الطويل تخلصه من التراب والعاقول.

فى مثل هذا الجو الساحر،كنت أمسك بفوهة الزكيبة لأبى،وهو يدك المكيال دكات تختلط بشهيق النسوة،وفجأة انبعثت على الشاطىء صيحات مسرسعة وضحكات ألهتنا عن مشاغلنا فأدرنا الرؤوس فرأينا حلقة صغيرة من الأطفال تتشكل،يتوسطها«اش الله» وهو يردد فى نغم راقص:

- هيه هيه،كلو هيه
- هيه..هيه ،كلو هيه..

وابتسم الرجال والنساء ،وتواثب الأطفال من كل مكان لينضموا إلى الحلقة يرددون نفس النشيد،ويلقطون حجارة يطوحون بها من فوق رؤوسهم إلي رجل كان يسرع الخطى،على الشاطىء،رجل غريب الأطوار والمظهر،مديد القامة ،عريض البدن، مستدير الوجه،لامع السواد،تنفرج شفتاه الغليظتان عن أسنان ناصعة البياض،ينتشر شعره على رأسه مثل حبات الفلفل ويغزر وينسدل طويلا على صدره وبين فخذيه ،عارى البدن تماما كما ولدته أمه..طيب الملامح،يسيل اللعاب من بين شفتيه على نحره،يختلط به،نثار كلمات خافتة.. يرددها عند كل خطوة:

- واحد..أحد لا شريك له ..واحد ..أحد..

ظل يدنو وصيحات الأطفال تنداح من حوله ،إلى أن توسط الحلقة كرجل يسعى إلى حتفه بظلفه،ثم توقف يتلفت حوله..يلمس وجوههم فى حنان وهم لا يبالون به.بل يدورون حوله يرددون نفس النشيد،ويرجمونه حتى سال الدم من عقبيه.

وبينما الصغار يتراقصون ،انعطف اش الله ..إلى الجدول الكبير،ومضى يجدل الشوك أكليلا قفز به إلى منكب الرجل وأحاط به رأسه فانغرز الشوك فى فروته،والرجل يتواثب محاولا الفرار..

مخلوق غريب تراه فجأة فى طرقات النجع،تراه ثم لا تجده ويتبدى لك عبر النيل،على شاطى الجزيرة،ولا يمر وقت طويل حتى تراه يدب على الشاطئ الآخر! يظهر ولاتعرف لماذا دون أن تدر سببا لرحيله..كان يعرف الناس جميعا ،ويحفظ أخبارهم،ويتنبأ لهم بما سوف يحدث فى غ قريب..يستقبله الرجال بالترحاب،ويحاولون أن يغطوا عورته فلا يبالى بما يفعلون،ثم يتبدى مر أخرى كما ولدته أمه ،إلى أن كفوا عن محاولاتهم،وترمقه الفتيات فيغضضن البصر عما بي فخذيه،ويتبركن به،فبركته تحل بأى مكان يضمه ولو للحظة واحدة!لقد بات فى خلد النساء جميع والرجال أيضا أن«كلو» ولى من أولياء الله،انكشف الحجاب عنه يوم طرق باب الرحم،وخرج إلى

الوجود ،ألم يدخل منذ شهور بيت أحمد عوده-قبل عودته-وطاف بحجراته وفنائه والزوجة تتبعه إلى أن توقف عند سحارة ينفض عنها الغبار ،وعند طبق من الخوص يتلمسه،وعند كرباج طويل يلقى به إلى سطح الجيران؟ألم يتوقف عند صورة لأحمد عوده يتأملها ليتركها إلى الفناء.يبارك الدواجن والحملان الصغيرة،وينفلت منه ليعود عبر باب الدهليز وهو يشير بيديه إلى السماء؟ثم تتسلم الزوجة فى نفس الأمسية برقية عاجلة بعودة زوجها؟! ومتى خاب «كلو»؟ولماذا يخيب ؟..أليس من أولياء الله؟!

هكذا عاش«كلو» ينتقل من قريته إلى الدروب والنجوع يستدير به الصغار ويشاكسونه..ويغرزون الشوك فى أديمه،فيتأوه ويبتسم فى نفس الوقت،ولا يمد يده ليؤذيهم..فالعيال أحباب الله ،أحباب «كلو»ثم يقيل الكبار عثرته ويترفقون به وينتظرون الوحى من بين شفتيه ،ويتوقعون معرفة أحداث الغد منه،فلربما دارت هذه الخواطر فى أذهان فضل واحمد عوده وأبى الذى توقف عن العمل حالما سمع صيحات الأطفال الذين واصلوا غرز الشوك فى جسده،ثم قام فضل إليهم يلبسع ظهورهم بخيزرانته،فتفرقوا وأصواتهم ما تزال تملأ الجو بنشيدهم وتسبيحاتهم..

أمسك به فضل من معصمه وقاده بين نظرات النساء وهن يتصنعن الحياء من بدنه العارى،وأجلسه على واحدة من مصاطب النخيل،تربع عليها ومضى يغمغم ويتلفت حوله ليتفرس فى العيون الوالهة التى تراقب حركاته وسكناته،ثم كف عن تقليب عينيه،وتحسس شعر رأسه وتأمل فناجين الشاى مليا ،ثم مد يده واختطف فنجان داريا سكينة وتفل ثلاثا فيه وأعاده وهو يأمرها أن ترتشفه جرعة بعد أخرى.

فتهللت أسارير داريا ،وقربت الفنجان من فم ابنتها ،فزام كلو وعبس فى وجه شريفة يأمرها ألا تشرب،فذهلت داريا وترددت لحظة وأبعدت الفنجان عن شفتيها ثم عادت فشربته حتى الثمالة حريصة على كل قطرة من الشاى تتحلبها وتمتصها..

وانتهزت جدتى الفرصة وراحت تشدنى من كمى وهى تغمغم:

– تعال لكى تقبل يد«كلو».

ولاحظت ترددى فأضافت:

– ستحل بركته فيك،وتسافر إلى خالك فى مصر..إلى الأزهر..

ولا أدرى لماذا انبعثت صورة الرحمانى فى تلك اللحظة ،ولماذا تراقصت أمام عينى كلمات الشيخ طه،إياك من هؤلاء ..لا تقبل إلا يد أبيك والشيخ الذى تعملت القراءة والكتابة على يديه..إياك.

فتوقفت عن متابعة خطوات جدتى وهى ماتزال تشدنى وظلت المسكينة تناضل وأنا أقاوم دون أن أدرى سببا للعناد الذى ركبنى..حتى هب الرجل واقفا وقفز فوق أعناق الرجال..وأسرع الخطى والناس مذهولون حتى حاذى الجدول الكبير ثم الساقية وتوارى عن أبصارنا خلف بنائها الكالح المنشق،وهنا أطلقت الجدة آهة متحسرة ثم تركتنى لتداعب شريفة التى بدت تعيسة منذ أن أبى عليها الرجل أن ترتشف جرعة واحدة من فنجان أمها فلربما دل ذلك على أن شرا ما سوف ينزل

بها ،بيد أن همهمة النيل ووشوشة النخيل وأزير الفلوكة .وخشخشة الفوايش الزجاجية الملونة«الاضانى» ومزامير الأطفال وبريق الخرز الرفيع فوق ذؤابات المناديل على رؤوس لداتها وصيحات حسن المصرى :عا..عا يستحث بها الدواب ،ربما ردها عن خواطرها الحزينة..فاستسلمت لدعابات جدتى،وعادت تعمل وتغزز يدها فى أكوام البلح تساعد أمها.

وفجأة تمايلت الأم وانحنت ببطنها وتتأوه وفى عينيها ألم، وعلى جبينها تقلصات..وفزعت الصغيرة حين أرسلت أمها قيئا أصفر ،فأحاطت أمها بذراعيها ،وساقتها إلي مكان تستريح فيه وهى تنادى على بطة:

– ينسون يا بطة ..اسرعى يا بنت..

فأسرعت هذه إلى مركب باشرى لتعود بسرعة

ولأمر لا أدريه تمايلت كل أمرأة برأسها نحو داريا ،يرمقنها بخناجر النظرات المليئة بالشك والريبة،لقد فهمن ما لم يفهمه الرجال:تيوس لا يدركون شيئا ،وهمست فضيلة ومن خلفها سبيلة زوجة المأذون :ملعونة..نجسة.. ثم أتجهن بنظراتهن المتوهجة إلى حسن المصرى الذى استند على كتف حمارنا ،ووقف يبرم شاربيه سارحا ببصره فى كل شىء .

وحارت الصغيرة فى أمر أمها ،فمنذ مدة يغشاها هذا القىء تعالجه بالكراوية والينسون والحلبة المغلية دون جدوى ،حارت وقررت أمرا لكنها تريثت إلى أن استعادت داريا أنفاسها فأنهضتها تستند على منكبها وانعطفت بها إلى الطريق الزراعية وهى تهتف ببطة :امتعتنا..خذى بالك منها.ثم عادت بأمها إلى دارهما هنالك عند السفح بينما النسوة يحدجن حسن المصرى بنظرات مسمومة..

وفى نفس اللحظة كان«لورد » يعوى ويحاول أن يجرى فيزك بساقه المكسورة ،وعجبت من أمره بيد أننى أدركت كل شىء حين رأيته يتعقب كلبة عبد الله الجزار التى توقفت غير بعيد رافعة ذيلها موجهة إليه نظرات بلهاء.

وحز فى نفسى أن الكلبة تغرى «لورد » فيلهث للحاق بها ،حتى إذا ما دنا وكاد ينالها هربت منه! فظل المسكين يحاول مرة أخرى ،والكلبة بنت الكلب تعبث به مرة بعد أخرى إلى أن تهالك واستكان،وخيل لى حينذاك أن فى غرته البيضاء بقعة سوداء ،..وأن فى عينيه [illegible]ة تكاد تسيل وهما ترمقان ساقه الجريحة فى أسى،فرحت أطارد الكلبة وأقذفها بالطوب حتى ارتطمت عيناى بمشهد آخر شغلنى عنها ،مشهد جماعة متنافرة الشباب تتسلل من بين نخيل السواردة ،وتتجه إلى النتوء ،ثم تعرج علينا في خطى ثابتة..توقفت لحظة أراقبهم ثم أدرت ظهرى وعدت لأفضى بالخبر إلي المتجمعين هناك حول أكوام البلح ،فوجدتهم يشرئبون بأعناقهم إلي الوافدين الجدد ،ويرمقون ملابسهم بانفعالات غاضبة حائرة تبدت على وجوههم..

ومن فوق الرءوس كان النسيم يعبث بهامات النخيل فبدت وكأنها تتقارب وترسل همسا خافتا متوجسا ،ومن تحت أقدامهم انتفض النيل في حركة ضجت لها ضلوع الشاطىء !

وفى حدقات العيون–خلال الأشجار– حلقت أسراب من الغربان تتجه إلى الشرق،وعصافير ترتعش أجنحتها ترسل زقزقة خافتة يطويها نعيق الغربان الملقاة ظلالها على الأرض وهى تولى

الأدبار،بينما استعاد لورد أنفاسه وتفرس فى الوجوه البيضاء والطرابيش الحمراء والقبعات،ثم أطلق عواء طويلا متصلا راح يزك بعده ليطارد فراشة صغيرة بين أحراش اللوبيا ..مطاردة يئس منها ،فتوقف فى بلاهة يهز ذيله لشريفة التى عادت على الطريق..

وجدت الصغيرة وجوه الفتيات والرجال والنساء مريدة،تنظر فى اتجاه واحد،اتجهت اليه بعينيها،فرأت رجالا غرباء ،يدبون على الشاطىء ،وفى صحبتهم العمدة والمأذون ومشايخ الحصص،وقد ارتدوا أحسن ملابسهم ،ومن خلفهم شيخ الخفر على رأس عدد من رجاله فى أزياء الخفر المعتادة..

وعجبت شريفة من الملابس الغريبة التى تبدى فيها الغرباء فوقفت تراقب رجلين كانا يتقدمان الموكب كله،أولهما ممتقع الوجه، على رأسه شىء كالطبق الصينى،وفى يده عصا ذات مقبض مثل رأس الثعبان ،يطوح بها وهو يتلفت هنا وهناك، والثانى قمحى على رأسه طربوش أحمر ،ومن خلفهما شاب بملابس رثة وشعر منكوش يحمل علبة ملطخة باللون الأحمر تتدلى منها فرشاة صغيرة،ظل يتفرس فى كراديف النخل وسيقان أشجار السنط..

دنا الرجلان من موقف شريفة يتبعهما الآخرون..يطأون أحراش اللوبيا بنعالهم الغليظة دون تحرج،وودت هى لو صرخت فيهم لكنها أحجمت ..ثم تنحت لهم عن الطريق وأسرعت الخطى لتنضم إلى بطة وغيرها ممن توقفن غير بعيد من رجال النجع..

وتحفز الشيخ فضل ،ونفض أبى يده مرة بعد أخرى من التراب بينما علق أحمد عوده قلمه الكوبيا على أذنه اليمنى ،واختلس النظر الى ملابسه المعفرة نادما على أنه لم يعمل حسابه لمثل هذا اللقاء..فها هم العمدة ،ورجال القرية قد اختاروا من السحارات أحسن ملابسهم..

ولا أدرى فيم كان يفكر الشيخ فضل،فقد أنحنى على الأرض ،وانشب فيها أنامله ،وعاد بها محملة بحفنة من التراب أخذ يتشممها ليتركها بعد حين تتسرب من بين أصابعه إلي الأرض من جديد!

وقبل أن ينفض يده كان الرجل ذو القبعة يتوقف بالقرب منه، على مبعدة قليلة من أبى وخالى،يلقى بالتحية فى لكنة كادت تطلق ضحكة من فم برعى الذى كان مختفيا وراء ظهر أبى ،ومن خلفه النساء والأطفال.

لقد أزاح الرجل قبعته وقال بصوت له رنين الذهب

- السلام على أنتم.

وتلعثم الرجال فأطبقوا شفاههم ،لا يدرون ماذا يقولون :أيقولون عليكم السلام يا سعادة الباشا أم سعادة البيه أم يا خواجه؟! ولا حظ الرجل ارتباكهم فقال وهو يبتسم:

- مسكاجرو.

فما أجاب أحد بل صمتوا وكأنهم أصيبوا بالبكم ،فران على وجه العمدة خجل ،وتقدم ينتهرهم:

- أنه يقول السلام عليكم..مسكاجروا فلماذا لا تردون؟!

وفى نفس اللحظة عاد الرجل يكرر تحيته ويمد يده ففتح الله على فضل واحمد عوده فصاحا

على الفور:

- عليكم السلام يا سعادة..يا فخامة.

وضحك الرجل ضحكة عريضة أطبق بعدها على أيديهم يصافحهم واحدا بعد آخر،لا يبالى بالتراب العالق بأكفهم.

ثم استدار إلى الخلف ليصرخ فى زميله:

- بركات أفندى ..بركات أفندى .

فتقدم الرجل يشد على الأيدى،وعلي شفتيه ابتسامة عريضة تشع من عينيه بطيبة وثقة بادية ،ثم أخلى مكانه لرئيسه الذي مضى يتلفت حوله،وهو يهتف في مرح:

- الله ها الله فنتى كويس..بلغ بتاع سنه دى.

وبدا أن الرجل يريد أن يتباسط مع القرويين ويذيب الخوف المرتسم على وجوههم بينما هم مرتبكون لا يدرون ماذا يفعلون ،فقد أخذاوا على حين غرة ،وفي الغيط حيث لا مكان يستريح فيه الضيوف،كانوا يظنون أن الرجل وصحابه سيمضون في طريقهم دون أن يشرفوهم بالتحية ،وها هو الرجل يريد أن يكمل حديثه،ثم جاء الفرج علي يد «عبده الفرنساوى» الذى أقبل لاهثا ،وتسلل بين الرجال بسرعة فحاذى العمده،وأسر في أذنه بكلمات أوما الرجل بعدها إلي الخواجة فاقترب منه يحيى برطانة غريبة فاستدار اليه والفرحة تتراقص على أرنبة أنفه ،ثم أطبق على يد الفرنساوى يهزها ،والرطانة نفسها تنطلق من فمه يرد عليها عبده الفرنساوى دون خوف،دون أن يرمش له طرف،ومن حولهما رجال النجع يتغامزون ويعجبون بصاحبهم الفرنساوى الذي لا يهاب الانجليز،ويلوى لسانه برطانتهم،لسوف يتندرون بالحادث طول عمرهم،انفرجت التكشيرات والتقطيبة التى أنعقدت على وجوههم منذ لحظات فراحوا يضحكون فى صوت خافت، ويراقبون الغريب وهو يعبث في جيوبه ويخرج غليونه ويطبق عليها بين شفتيه ويشعله وينفث دخانه دون أن يتوقف عن الكلام ،بينما أشتبك العمده في حديث طويل مع بركات أفندى أخذ الأخير خلاله يشير إلى أشجار النخيل وإلى الأرض تحت أقدام الرجال، وإلى الجزيرة والساقية وإلي البيوت هناك عند سفوح الجبل..

وعند رأس الطريق كانت جماعات من رجال النجع ونسائه قد تجمعوا حائرين يراقبون الغرباء بعيون متوجسة ،ثم اطمأنوا قليلا حين تناهت إلي أسماعهم ضحكات عبده الفرنساوى وشيخ الغفر ،فراحوا يتناقشون حتى تعالت أصواتهم حين تساءل أحدهم:

- ومن الرجل؟

فقال نوح فى ثقة غريبة:

- ألا تعلم ؟وأنى لك أن تعلم يا ثور الله في برسيمه؟!

وغضب الآخر وقطب جبينه وصاح في وجه نوح يتحداه:

- وهل تعرفه أنت يا جحش؟

- كيف لا ؟..أننى أعرفه.. أليس هو مدير أسوان؟

وتمعن حموى فى الوجه الممتقع وصاح في ثقة:

- كلاكما لا يفقه شيئا:

فأربد وجه نوح وهو يصرخ:

- ما شاء الله ياحموى .وهل تعرفه أنت؟أقول لك أنه مدير المديرية.

فأسكته حموى بإشارة من يده وقال فى زهو :

- بل هو مدير خزان اسوان !

وضحك عبد الله الجزار من عبط الجميع وقال:

- وهل للخزان مدير ياعبيط يا «أفق» فراح حموى يزوم:آخر الزمن ..أنا أفق..أنت الهبيل ياعبد الله وليس غيرك،.إياك أن تسبنى مرة أخرى وإلا.

وكاد الأثنان يتشابكان بعد أن ارتفع صوتهما فجأة ومن حولهما رجال النجع يهدئون من روعهما وهم يرددون:

- عيب يارجاله.ماذا يقول العمده عنكم..ماذا يقول الغرباء ..غجر..حلب!! صعايده!!

واحتج حسن المصرى بغمغمة صغيرة استداربعدها يبتعد عن الرجال الذين واصلوا صراخهم وأخذوا يتدافعون .

وأومأ العمدة إلي الخفر والجنود فراحوا يدفعون القرويين ويشهرون الهراوات فى وجوههم،فيزومون فى غضب دون أن يتراجعوا إلا خطوة أو خطوتين.

ولا حظ الرجل الغريب ذو القبعة ما هم فيه فابتسم ثم صاح:

- جناب العمدة..خلوا يبجوا هنا!

فتركهم شيخ الخفر بعد أن أمر حموى بالابتعاد عن المجلس فإن ثيابه كانت متهرئة تكاد لاتستر عورته ،فانزوى خلف نخلة يتطلع إلي المشهد من مكمنه بينما الآخرون يقتربون من الغريب،والعمدة يتجهم فى وجوههم.

وأشعل الرجل غليونه من جديد ،وربت على كتف الفرنساوى ورطن معه مليا قال بعده الفرنساوى:

- المستر هيس باشا مدير مصلحة المساحة والرى يريد أن يكلمكم.

وسادت الهمهمة لحظة انبرى الرجل بعدها يحدثهم فى هدوء،وعيناه تلمعان وتتفرسان فى الوجوه السمراء الطيبة تقرآن ما يرتسم عليها من انطباعات ،ظل الرجل يتكلم ويتلفت من حين لآخر إلى العمدة وإلى عبده الفرنساوى ويلقى اليهما بكلمة ثم يعود إلى حديثه.

واستمع الناس إلى كلماته بإحساس متبلد كأن شيئا مما قاله لا يعنيهم ،فقد ؟أفاض الرجل بلكنته المضحكة عن **الملك فؤاد المعظم وصدقى باشا ،ومحمد شفيق باشا وكيل وزارة الأشغال**،وحبهم **المفرط للنوبيين**،والرحمة التى تفيض من قلوبهم ،وأنهى اليهم أن **بركات أفندى وصحابه** من الأفندية ضيوف فى القرية ،سيمكثون عند العمدة ،و يسجلون الأطيان والنخيل حتى تستقر الحكومة على تقديراتها الأخيرة للتعويضات!

وأنطلق الرجل يضحك مرتين أو ثلاثا أثناء حديثه وبالذات عندما كان يتملق شعور الناس ،وعندما ذكر أنه صديق حميم **«للنائب على بيك أبو زيد**،وفى نفس الوقت لسفرجى باشا

الملك،وعندما أكد أنه يحب البلح مثلما يحب التفاح ،وعندما تريث ليلتقط حبتين من التمر،نفخ فيهما ثم أزدردهما فى بساطة أذهلت الناس من حوله ،فمضى الشيخ فضل يغمغم ويتهامس مع أبى،وخالى يحاول أن يسكته.

كان واضحا أن الرجل يتقرب إليهم،ويفضى إليهم بدخيلة نفسه دون أن ينفذ إلى قلوبهم إذ يبدو أن كل واحد كان يفكر فى الكارثة وفى الطوفان ،فها هو بركات أفندى الذى تحدثوا عنه طويلا على المصاطب ،يقف خلف الخواجه ومن حوله رجال يتأبطون دفاتر طويلة ذات جلدات سميكة،ويبدو أن وجه المستر هيس قد ذكر أبى بوجوه أخرى أيام السلطة حين كان يعمل فى الكونتننتال ..نفس الوجه أعاد إلى ذاكرة الشيخ فضل سحنة رجل آخر تشبه وجه هذا الرجل سحنة فصلها فى يوم من الأيام عن جسدها بفأس،هنا تحت هذه الشجرة التى يجلس المستر هيس على مصطبتها،ومن يدرى فربما كان هذا المستر هيس قريبا للذلك الآخر!

وانتهى الرجل من حديثه ،وهب واقفا وعاد أدراجه إلى النتوء الشرقى ،إلى الرفاص الذى كان لايزال راسيا هناك ،وقفز إليه وهو يلوح لبركات أفندى والعمدة ويهتف فيهم:

- سأزور معبد« أبو سمبل» وأعود.

ثم بعد صمت:

-انتهوا من عملكم فى أسرع وقت..

وظل الرجال صامتين يراقبون الرفاص وهو يقلع ثم يتوسط النيل ويجتازهم،فانقلبوا يتهامسون ثم يصخبون ويضجون بالضحك وهم يلومون أنفسهم .لقد دارت عشرات الأسئلة في خواطرهم :متى يكون الطوفان وإلى أى مكان يذهبون،وهل سيمنحون أرضا غير الأرض وبيوتا غير البيوت ،وشتلات نخل؟ أم سيتركونهم للضياع،وكم سيكون التعويض عن كل نخلة وفدان وبيت؟

كانوا يريدون أن يعرفوا من الرجل كل شىء ولكنهم صمتوا ..صمتوا جميعا كما يصمت البكم! وتوهم بعضهم أن الفرنساوى حينما رطن معه تكلم بالنيابة عنهم،ثم شعروا بالحسرة فإن الرجلين قد تكلما طويلا عن لندن وشوارعها وهايدبارك وغوردون:أمور لا يدركون عنها شيئا ،وما بهم حاجة إلى إدراكها .

اتهموا بعضهم ،ثم تناسوا كل شىء إلى حين وعادوا يدكون المكيال ويغرسون أيديهم في البلح المكوم بينما أنطلق برعى يقلد الرجل،والأطفال والفتيات الصغيرات من حوله يضحكون كان قد عرى دومة صغيرة من لحائها وثقبها ثم دفع فيها قطعة من البوص مضى يمتص نهايته وعلى رأسه طبق من الخوص ،كبسه إلى أذنيه ومنديل أحمر عقده حول رقبته وترك نهايته تتدلي إلى كرشه ،وطاب له أن يلوى لسانه مثل عبده الفرنساوى فألقى نظرة جانبية على شريفة فوجدها مهتمة به وبحركاته ،فداخله سرور انقلب بعده ينادى وهو يشير بأصبعه:

- خامد .. نو..خامد..خامد ..يس!

وأراد أن يواصل رطانته بين ضحكات الجميع فصاح وهو يضرب على فخذه بكفه:خامد فاشيه ترانتاريه يا خامد..

ورنت الضحكات داوية من جديد على نفس الشاطىء .رنت ومازال الرفاص يلمع على صفحة النيل ويستدير عند الطر ف الجنوبى من الجزيرة الخضراء.



يخطى ثابتة متثاقلة الى النتوء الشرقى على الشاطىء وفوق رأسها عمرة كبيرة على جانبيها زخارف ،وفى يدها مقطف صغير ،وعلى رأس الطريق ،قبيل انعطافها إلى النتوء وجدت نفسها وجها لوجه أمام فضيلة فألقت عليها بتحية الصباح فردت فضيلة عليها بابتسامة ماكرة وسألتها:

- الله ..هذه البلدة أحسن من غيرها..إلى أين ياداريا؟

فضحكت هذه ضحكة جافة مقتضبة وقالت:

- منذ زمن وأنا لم أزر خالتى فى«عافية» فى البر الغربى..المركب هناك.

فسكتت الأخرى لحظة قالت بعدها:

- مع السلامة،لا تغيبى .سلمى لى على خالتك .

- سبعة أيام وأعود ..خلى بالك من شريفة

- فى الصون يا داريا.

واستداوت أم شريفة ومضت إلى النتوء بينما عادت فضيلة تحدجها بنظراتها وتفكر فى أمر داريا :لماذا تسافر إلي خالتها العجوز بعد ذلك القىء، الموسم شغال فى أوجه ومازالت لها نخيل لم تقطع بعد! عجايب !ولكن مالى أنا بالناس..ربنا وحده علام الغيوب.

ومرت أيام سبعة أيام عادت بعدها داريا غائرة الخدين،منهوكة القوى رغم الهدوى الذى شمل أعصابها ،وتلاقت فى طريق العودة من الشاطىء بواحدة وثانية وثالثة من نساء النجع مضت تبادلهن التحية وعلى شفتيها ابتسامة واهنة،فأخذت تحدجها بنظرة مسمومة لتعقب من وراء ظهرها:

- نجسة..ماذا فعلت فى عافية ..خالتها !هيه..خالتها!

فترد أخرى :دائما تعيبين فى الناس يا فضيلة!

- يوه..أنت دائما هكذا :مثل اللقمة !اليابسة فى الزور!

- والله انت عبيطة ..رأيتها تفىء وحسن المصرى بشواربه!

وظللن يتحدثن عن داريا بينما هى تنعطف عند الطريق العام إلى دارها وفى رأسها دوامة: التعسات يتقولن على أنا ،والله إننى أشرف منهن جميعا ،آه لو كان جمال هنا!ثم تفكر قليلا وتتنهد لتهمس لنفسها:كلا ..خير له ولى أن يكون بعيدا عنى فى مثل هذه الأيام، فحسن المصرى ليس إلا رجلا شرسا،قتال قتلى ،لقد سر إليها بذلك فى ساعة صفاء..

ولاقتها شريفة بفرحة،وقادتها من يدها إلي المصطبة الداخلية وهى تسأل:

- كيف تركت خالتك ،جدتى؟

- بخير يابنتى ،تدعو لك الليل والنهار بالعريس..

- كبه !وأنت أما تزال بطنك

-لا شىء ..أرينى ماذا فعلت فى البيت..غبت عليك..آه يا بنتى ..

- استريحى على صدرى ..مابك يا أمى؟

- لا شىء غير جمال..لو كان هنا..

ثم بعد دمعتين سالتا على الخد أمسكت بذقن ابنتها وهمست :
- اذبحى دجاجة واسلقيها لى أما زال عندنا ينسون؟!..
واضطجعت فى مكانها بينما انهمكت الفتاة في إعداد شوربة دجاج وحلبة مغلية تجرعتها المرأة وهى تتحدث دائما عن جمال وعن الغازية البيضاء التى تصيدته في مصر ،ثم قامت وطافت بصوامع البلح وذرت عليه رمادا من الكانون وعادت تستسلم لنوم عميق بينما ظلت الفتاة حائرة في أمر أمها ،والقيئ الذى يصيبها ولماذا أصرت على الرحيل إلى عافية دون سبب ،رجتها حينذاك أن تأخذها معها لترعاها في الطريق إذا ما فاجأها القيء ولكنها اصرت أن تذهب وحدها ،وها هى تعود شاحبة الوجه غائرة الخدين متشققة الشفاه مثل الأرض البور.
وأصابها الملل فتنهدت وأسندت رأسها الصغير ونامت ساعات الظهيرة تحلم بجمال وعودته فلربما تستعيد الأم صحتها وشبابها حين يعود .ولم يكتمل الحلم فقد أفاقتا معا-هى والأم- على صوت حاد يملأ النجع كله وينداح إلى سمعيهما من خلف مئذنة الجامع- عبرالخرابة الملاصقة.
وروعت الفتاة وشبت على قدميها إلا أن داريا ابتسمت وهمست :
- لا تخافى أمرأة جاءها المخاض!
ثم أصاخت السمع وقالت
- الطلق والصوت لأمراة لم تلد من قبل آه،إنها حجوية زوجة الشيخ أمين ..فهذا هو شهرها التاسع.
وهدأت شريفة ولكنها ظلت قلقة تسأل نفسها :أهكذا تتألم كل أم.. أهكذا تألمت داريا يوم جمال وفي يومى أنا ؟ثم :هل أتألم أنا مثل حجوية فى يوم من الأيام.
وأصابتها رعشة وقشعريرة عند هذه الخاطرة فطردتها بهزة من رأسها ثم رفعت عينيها إلي أمها فوجدتها تحدق فيها مليا ثم تقول:
- عجلى يا شريفة إلى بيت حجوية وسوف ألحق بك هناك..
فهبت الفتاة من مجلسها صامتة وأسدلت الطرحة على رأسها واتجهت نحو الباب واستدارت لتقول:
- استريحى أنت فإنك متعبة..
- لا ياابنتى افالعتاب ثقيل على النفس.سأغتسل ثم ألحق بك... أما أنت فأسرعى فقد يحتاجونك هناك.
وبعد لحظة دقت شريفة بقبضتها على باب بيتنا الصغير ودلفت منه لتشهد منظرا مفجعا ..حجوية جاحظة العينين،منتفشة الشعر،لامعة الوجه بخطوط من العرق ،تطلق الصرخات متوالية وتستند إلى جدار ثم تنكفىء وتحبو على الأرض،لترقد وتكبش فى التراب وتحثوه على رأسها وتركل وترفس بقدميها فى اتجاه معاكس لاهتزازات بطنها وبين يديها الست آسيا ،المولدة وشقيقتاها هى وبطة وجميلة وبقية نساء العائلة يتمنين من الله أن ينتعها بالسلامة.
استندت شريفة علي كتف الباب تغالب احساسا بالغثيان ، فظلت تردد:وونور..ونور..يارب ورأت من بين سحابة الدموع بطة وجميلة وشقيقتى حجوية يتحركن ويطلقن بخورا فى فناء

البيت ،وينتقلن بسرعة بين المطبخ والفناء وفى أيديهن صحاف يتصاعد منها البخار،والست آسيا المولدة تنتهرهن بينما حجوبة تطلق صرخاتها وتتكىء على الجدران،ثم تنفرج ساقاها وتحتهما طشت كبير ،وتترك مكانها وتنكفىء على الأرض وتحبو من جديد .مسكينة .يالله إنها تتألم وتخور مثلما تخور بقرة،ولا تدرى شريفة كيف تغلبت على الغثيان والشعور بالاغماء ،فقد وجدت نفسها تتحرك مع بطة هنا وهناك وتنفخ ف« الكانون وتطيع أوامر الست المولدة،وترمق حجوبة فى إشفاق ثم تألف النظر إليها وتشترك في حديث الأخريات..

قالت أمرأة في التسعين.:

- مسكينة .أمها ولدتها بعد ثلاثة أيام من الطلق!

فوجدت نفسها تقول دون وعى :

- لا ياشيخه .ستلد اليوم بإذن الله

- إن شاء الله بحياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام.

ورقدت حجوبة على الأرض ،وقد اطبقت شفتيها تصر على أسنانها ثم هدأت وبدت كأنها لا تعانى شيئا وقالت فى صوت مختنق:

- لعنة الله عليه!

وأردفت بعد آهة طويلة :

- هو السبب في كل هذا ..يستريح هو..وأموت أنا!

وتلفتت حولها وأشارت إلي النسوة واستطردت:

- الرجال قلوبهم من الصخر لاتعرف الرحمة..إنهم السبب

وعادت تطلق آهاتها الحزينة بينما انبرت آسيا المولدة تقول وهى تطرقع بلسانها:

- كفاك معرا.أنت سمحت له بملء الجراب ثم تشتمينه ثم أعملت يدها فى بطن الزوجة وهى تقول:

- اعدلى نفسك ..دعينى أقوم بشغلى .

ثم من بين شفتيها المزمومتين:

ساعة حظ في الليل ثم تندمين .ألا تذكرين ساعة الحظ؟!

وانبرت سبيلة زوجة المأذون تهاجم:

- كلهم بلا رحمة..مثل الثيران..

وضحكت فضيلة وقالت:

- تمام مثل التيوس!

وقهقهت زوجة حموى ثم همست لنفسها:

- أما زوجى أنا فمثل الديك ينقر بسرعة ويمضى لحال سبيله. لا يترك أثرا ..كم أتشوق لجنين أحمله فى بطنى!!

ومضين يهاجمن الرجال فى جلبة غطت على أنين حجوبة،فأشارت اليهن المولدة تأمرهن بالسكوت وقالت فى سخرية:

- أسكتي أنت وهي .كلكن تشتـمن الرجـال ومن يدري مـاذا كـانوا يفـعلون بكن ليلة بارحة..ومن يدري ماذا سيتم الليلة..أوف.

وانبرت سبيلة تقول وهي تشمر كمها الواسع:

- وأنت؟

فاستدارت آسيا المولدة في حدة وصاحت:

- اخرسي يا بنت..قطع لسانك ..قلة حيا.

وأدارت الحديث مرة أخرى إلى الرجال ويدها تتحرك في بطن الزوجة:

- والرجال أيضا لا يصدقون قلت لهم عشرات المرات أن القيء علامة الحمل إلا إذا كان برد في لبطن،أو أكلت شيئا مسموما ..أخص على الرجال..داهيتهم داهية لا تنتهي!!

وتنبهت شريفة إلي الكلمات الأخيرة ومضت تفكر : القيء والحلبة المغلية واليـنسون؟ إلا إذا كان عندها برد في البطن،أو أكلت شيئـا مسموما!.عجيبة..لماذا تقيء أمي؟..وأرسلت نظرة إلي لبـاب فـوجـدت أمـهـا تدخل وتحيي وتجلس بين النسوة ذابلة العـينين،ثم عـادت إلى دوامـتـهـا :مستحيل..أبي مات منذ سنوات..

كلا..كلا..أمي عندها برد في البطن وسألف شالي الأحمر على بطنها اليوم حتى لا يغشاها لقيء من جديد.

وأفاقت على صرخة حادة أطلقتها حجوبة لتجد المولدة تنتزع قطعة من القماش الأبيض من يدها هي..

* * *

وعلى المصطبة الخارجية جلس أبي ،متقلص الجبين،تتشنج أصابعه على سبحته الطويلة،ومن حوله رجال النجع،يهدئون من روعه،بينما صرخات حجوبة تنطلق وتنفذ إلى قلوبهم مثل جراح غائرة فيهب من مجلسه ويكاد يقتحم الباب ثم يتردد ويعود إلي مجلسه يهذي ويخطرف!

- يارب..إنها تموت..دعوني أقوم فأجهز الكفن!

فينتهره فضل فيهدأ ثم تنطلق الآهة الطويلة الممدودة،فيعود إلى حديثه عن الموت،ويزيح عمته إلى الخلف ويمر بمنديل محلاوي كبير على صلعته وهو يهتف غاضبا:

- كفي يا مسكينة..نامي..لا تمزقيني بصراخك..ستموتين!

وتغرورق عيناه بالدموع،فيدعوه الرجال إلى ذكر الله والتذرع بالصبر ويرددون حكايات طويلة عن أمـهـات تعـذبن ثم قـمن بالسـلامـة،ولـم يكفـوا عن أحـاديثـهـم إلا حين ارتفع صوت المؤذن بالمغرب،فلم ينهضوا من مجالسهم،بل ظلوا يرتشفون فناجين شاي أقبلت بها بطة عليهم.

وفجأة هدأ الصراخ ،وعمت في الفناء الداخلي جلبة وصخب قام أبي بعدها ومضى يتسلل إلى الباب ،وهو يكاد يسقط اعياء ،يحسب أن الموت قد أراح زوجته من العناء.

وقفز فضل إليه يسنده ويدعوه إلى ذكر الله،ثم رنت من الفناء زغرودة طـويلة ممطوطة،اقتربت الخطا بعدها من الباب،ثم فتح هذا الباب وأطلت منه بسمة عريضة تلمع في ظلمة المساء ،بسمة تكشف عن أسنان متآكلة في فم المولدة والعرق لا يزال يتصبب على جبينها.

وتنحى لها فضل فاندفعت إلى أبى فى صدره وهى تهمس :

- جدع يا أمين ..جدع ،مبروك!!

ونظر إليها الرجل في ذهول وقال بصوت يمزقه البكاء:

- الله يبارك فيك..أهى بخير؟

- ولا الثور..

وصمت الرجل ،فمدت يدها تهزه كأنما توقظه من نوم عميق:

-ألا تسمع ؟أقول لك مبروك ..ولد..يا أمين!

فراح الرجل يردد :ولد!بالله..ولد!.أحقا ما تقولين؟

ثم مد يده وأمسك بمعصمها وقادها وهى تتعثر إلي المتجر ودس فى يدها ورقة خضراء ،وقمع سكر،وشكرها وودعها وهو يقول:

- تعالى يوم السبوع..وفى الطهور.

- بإذن الله.

واتجهت إلى الباب فاصطدمت بها بطة تقول فى كلمات متعجلة :

- تعالى ياخالتى ..نسينا الذرة!!

وعادتا إلى الفناء،وصبتا كيلة كاملة من الذرة فى عمرة كبيرة من الخوص الملون،ثم شدتا المولود ووضعتاه على الذرة تعمدانه وأمه تراقبه من خلف جفونها المسدلة.

ثم مدت بطة يدها إلى المكحلة..وعبثت فيها قليلا ثم قربت المرود من جبين المولود ورسمت عليه فى عناية شديدة صليبا مضت تتأمله ثم أعادت المولود إلي أمه!

وفى غمرة الفرح تناست حجوبة وبطة خصامهما،وبدتا صديقتين تجمعان علي حب الإنسان الجديد،تتلقفانه وتعنيان به.

وجاء يوم السبوع وتنادى الناس فى النجع إلى بيتنا ،وأرسلوا أغانيهم على نقرات الدف،وشربوا ثم أكلوا ووقفوا صفين يرتلون المولد وبردة الميرغنى حتى كلت أقدامهم فاتكأوا على العنجريبات،وعادوا إلى أحاديثهم عن الطرابيش وبركات أفندي والمستر هيس باشا،يرددون نوادره مع عبده الفرنساوى.

وعند الأصيل نهض رجل من رجال العائلة وتسلق نخلة أفضت به إلى سطح البيت،فتخير مكانا مرتفعا منه،ورفع يديه إلى أذنيه وكأنه يؤذن للصلاة ثم نادى فى النجع ثلاثا باسم أخى الصغير منغما يتردد فى النجع ثم يرتد من الصخرة المعلقة في كتف الجبل وينداح بين أشجار النخيل:

- محمود أمين!



الموسم يزدهر،ويبلغ أوجه من الصخب والضجيج.. وتحت كل نخلة كومة من البلح ،وكومة أخرى من النساء والأطفال،والنقار بينهم يبلغ أشده..

– النخلة غرسها «حمزيلى» جدى وأنت تلهفين فى كل موسم نصيبى..

– نصيبك!جدى هو الذى رواها والأرض أرضه..

– أنا حفيدته ومن صلبه..

– من صلبه ! من صلبه!ولكنك لست إلا إبنة جارية..إبنة «مراسيلة»!.

وتقوم المرأة الأولى وتنشب أظافرها في عنق الأخرى:

–أنا إبنة جارية ياشر.يابنت الكلب!!

– أنا بنت كلب..أنا !وهذه الأبعدية ..أبعدية أبى!

وأشارت إلى قيراطين منطرحين خلف الجدول الكبير بعد أن خلصت نفسها من براثن الأخرى.ثم وقفت فى مكان غير بعيد تردح وتحكى عن أمجاد أسرتها وزوجها بينما الأخرى منكسة الرأس تنتظر دورها ،والأخريات يحاولن تهدئتهما عبثا ،ويتوقف حموى عن التكييل،وينتزع عصا من الجريد الأخضر،يهوى به على النسوة ،فيتفرقن وهن يعولن بينما يأخذ في بعثرة كومة البلح وشفتاه تصبان سيلا من الشتائم والسباب ثم يتوقف على كومة أخرى من البلح يحدجهن بنظرات غاضبة وبكلمات تصيب كل واحدة فى شرفها ومقامها:

– نسوان!..نسوان!

ويصمت قليلا وهو يجز على أسنانه ثم يضيف:

– كيلة بلح واحدة ..لا عقل :ماشية..غنم .كلاب

ويتريث ريثما يزدرد بلحة استطابها ويقول:

– عام أول نالك أنت..

وأشار إلى عجوز يبرق الحناء علي شعرها..

– نالك قدح..قدح واحد.

فاقتحمت حديثه بحدة:

– بل قدحان..

فيتميز غيظا ويصرخ فى وجهها:

– اخرسى يا ضلالية ،وانت نالك ربع كيلة ،والأخرى نصف! ثم تعيرين غيرك:بنت جارية!وكيت وكيت.والأبعدية..هاها.. أبعدية يا ستى!وكأنما أنتن قريبات الخواجة..اسفخص عليكن بنات الكلب!.هيه..

ثم نزل من كومة البلح وطفق يجمع البلح الذى كان قد بعثره فتغامزن ثم تحركن ببطء إليه وأعملن أناملهن بعناية في جمع كل ثمرة خشية أن تتبدد ،وهو يرمقهن بنظرات غاضبة فى أول الأمر ثم بنظرات باسمة يسترحن لها فيعدن إلى نقارهن الأول ولكن فى أصوات خافتة.

ومن فوق رؤوسهن .وعلى نخلة ملاصقة كان فخذا نوح يتدليان،ويداه تتحركان بالشرشرة بينما العصافير تطير أمام برُيقها وتهرب إلى أشجار السنط القريبة،ثم توقف نوح لحظة عن قطع

السباطات وتشذيب القحوف ومد أصبعا إلى فمه يمتصه بين شفتيه ليبصق دما ،فقد انغرزت «سلاية» حادة في جلده ،وأراد أن يستريح قليلا فسكن لحظة وأخذ يصيخ السمع إلى النساء والثرثرة الدائرة من تحته.حول كومة البلح ،وكاد يصيح بهن في صوت غاضب:

- وأين نصيبي؟!

ولكنه تريث حتى خلص جلبابه من الشوك ثم مضى ينتقل بقدميه في خفة من كردوف إلى آخر حتى قفز بينهن ،بساقين عاريتين يسيلان دما من خدوش انتشرت عليهما وجلباب أزرق شمره إلى أن بلغ به الركبتين،وشده إلي خاصرته بحبل غليظ من الليف الخشن،يحز في جلد بطنه،ومن فتحة الجلباب - عند الرقبة- بانت ضلوع صدره وتجاعيد عنقه النحيلة التى تحمل رأسا صغيرا أشيب،وفما واسعا خلا من بعض أسنانه ومنخرين أفطسين،وعينين صغيوتين تلمعان في وجه أسمر وتشهدان بالطيبة وإن اتقدتا بالغضب في تلك اللحظة:

غضب اختمر منذ الليل،حين طفق يفكر في هؤلاء النسوة والملل الذى أصابه من طول لجاجه معهن في كل موسم،يبكرن إلى بيته،ويطرقن على الباب ،وتفتح لهن «مندوهة» الصغيرة- ابنته الوحيدة-ويبددن حلاوة النوم من عينيه حين يصرخن من فتحة الباب وكأنه أصم:نوح ..يانوح..اليوم قطع نخل «أصيلة عثمان» في النجع القبلي فينهض ويبتلع بكسرة جافة وكوب شاى ثم يبكر إلى هذا النجع ويظل ينتظرهن ساعات طويلة حتى يتكرمن بعد طول تمهل بالمثول تحت النخلة،ويظل يعمل ويكدح ويشقى كأنه عبد ثم يلقين في طرف جلبابه بحفنيتن من البلح تتناقصان في كل موسم! ثم يرمقنه بنظرات حاسدة تقول :حفنتان كاملتان يانوح!

ومضى نوح يبرطم يائسا من لجاجتهن

- بنات الكلب !أيحسبن أن النخلة تلقح نفسها ؟ولاى لما أثمرت ،أيحسبن أن السباطة تلقى نفسها بين أيديهن؟! عجاريب! وتعال قسم لنا يا نوح..أنت عجوز وحضرت القسمة وأنا لا أزال طفلة،ألا تذكر كم حفنة كانت أمى تأخذ؟إنك تذكر فأنت عجوز ! كنت في سن إبنتك مندوهة ،عروسة ،وأنت كبير تتسلق النخلة مثل العفاريت،تعال يانوح ،أليست هذه النخلة من غرس جدى ؟كلا ..بل رواها عثمان ولكن الأرض أرضه!بنات الأيه..لقد أصابنى الملل.ليتنى أكف عن تسلق النخيل..ولكنى أعشق النخيل،وانغراز السلايات في سمانة ساقى لا يهم!

إنه ينتظر هذا المشهد منذ البارحة وقد حدث ما توقعه،إذ أستدرن به يتكلمن في نفس واحد،لا يبالين بحموى وتهديداته فصرخ نوح فيهن؟

- لا أذكر شيئا.أريد نصيبي الآن:

ويظل نوح يردد:

- نصيبي أريده الآن!!

فتنبرى له ذات الشعر المصبوغ بالحناء:

- وهل أنكرنا نصيبك ؟ستأخذه بزيادة حبتين.

- ياسلام ..يافرحتى بالحبتين!أريد اليوم كيلة كاملة..

- كيلة!وماذا فعلت حتى تأخذ كيلة كاملة!

- عشر نخلات ثم لا آخذ كيلة.أتستخسرين كيلة على نوح..طيب يابنت الأماثل..طيب..
ورمى بالشرشرة جانبا وأخذ يلوح بيده يهددهن:
- طيب ..ابحثى عمن يقطع لك بقية النخيل؟
صحيح!من الذى يمكنه أن يحل محله؟هناك غيره ولكنهم لا يقربون نخلة اعتاد نوح أن يتسلقها.كلهم تعلموا على يده..كلا..تعال يا نوح لا تغضب ،،ولكن الكيلة شيء كبير!تعال ياعجوز.خذ نصف كيلة..
ويقبل في نهاية الأمر ويقسم بينهن ثم ينطرح على المصطبة ويخلو لذكرياته:دنيا..مات أصحاب النخل وهاهم الورثة يتقاتلون على حفان من التمر،والخواجة ذو الوجه الأحمر جاء ليسجل كل نخلة!
وضحك ضحكة جافة أعقبها سعال حاد هز جسده النحيل فارتطمت قدماه بحافة المصطبة فاتكأ على كوعه،وعاد إلي ذكرياته..
عشرون سنة مضت وهو يتسلق كل نخلة في هذا النجع ،زوجته المسكينة ماتت تاركة له مندوهة:صغيرة لا تعى شيئا،ألا إنها كبرت وأصبحت راعيته والساهرة على راحته.أتراه يعيش حتى يزفها إلى زوج؟أم أن الأجل قصير؟رحمتك يارب.لا أريد شيئا من الدنيا ،أرحنى منها بعد أن تتزوج مندوهة فإنها يتيمة لا أعمام ولا أخوال.. وحيدة فى الدنيا!ومضى يهز رأسه ويمد أصبعه بسرعة إلى أذنه يحجب عنها ضجيج المزامير،وصخب الأطفال،ثم يعجب من أمر الصغار .إنهم يسألونه فى كل يوم !كيف تعرف عمر النخلة يانوح؟..هذا سر حفظته عن أبى.ولماذا تريدون أن تعرفوا ؟حتى الرجال الكبار لا يصدقون حين أقول لهم:هذه النخلة لن تثمر بعد عامين!خير لكم أن تستفيدوا من جذعها وسعفها ؟فيهزون رؤوسهم مكذبين !وأرفع عينى مرة وأصعد النخلة وأصرخ فيهم:هذه النخلة عمرها مائة سنة فلا يصدقون :عجائب!..
لقد تحول نوح على مدار السنين إلي رجل خبير بأشجار النخيل يحبها ويعشقها،ويتكلم عن خصائصها،وينام الليل والنهار فى ظلالها،ويطارد الثعابين التى تأوى إليها،وينوش العصافير والغربان والبوم عن شواشيها وعراجينها،ويحدد عمر كل نخلة بتصعيد نظراته على ساقها،ولكم ألحت عليه أن يفضى إلى بسره فأبى وألح فى أبائه..سرقت له مرة باكو دخان من الدكان لأغريه فردنى بلطف بعد أن أخذ الباكو ووضعه في جيبه..

* * *

وانتهى النقار بين النسوة،وعاد نوح إلى تسلق شجرة بعد أخرى ،يهوى بالشرشرة على أعناق السباطات،ومن حوله صخب وضجيج ومهرجان من الألوان،وأقدام فتية تروح وتجيء بين النتوء الشرقى وسفينة باشرى ومساومات مع رجال من قبائل«البشارية» يبيعون الدخان الأخضر المهرب من حدود السودان:عراة الأجسام إلا من مئزر يستر عوراتهم، وشملة بيضاء واسعة تنسدل من أكتافهم ،حاسرى الرأس إلا من شعر مثل حبات الفلفل،ترك حتى طال فتشابك ،ثم دهن بالزيت والشحم وغرس فيه سواك،ينيخون بجمالهم،وعيونهم تتلفت هنا وهناك في يقظة ،خشية أن يرسو رفاص ينزل منه رجال المركز فيسوقونهم إلى السجن بتهمة تهريب الدخان والبانجو من

السودان ..

أناخ واحد من هؤلاء جمله عند جدار الساقية..فأقبل عليه رجال النجع،ومن بينهم أبى الذى أعتاد أن يبيع هذا الدخان فى متجره.ومضى الرجل بقامته الفارهة وشعره المتعقد فوق رأسه وكتفيه العاريتين،وقدميه اللتين دسهما في صندل متشقق- مضى يرمق رجال النجع في كبرياء وأنفة وكأنه إله لا يقبل فصالا.شنوا يازول!..هذا الدخان من أرض الجبل.أحسن دخان فى السودان،لصق بلاد الأحباش!..سافرت به عشرين يوما بلياليها بين الجبال،عشر كيلات بلح سكوتى بكيلة من هذا الدخان..ماذا تقولون :بشير باع لكم بخمسة .حمار والله أو غشاش،أنا لا أغشكم مثله،بشير يستغفلكم ويخلط الدخان بورق السكران..شنو؟!..ما أبيع اليوم يازول.. بعد أيام أبيعه بعشرين كيلة هنا أو في النجع الآخر!!..

وأذعن أبى ورجال النجع واكتالوا الدخان وهم يعطسون ،ثم ركب الرجل جمله..عا..عا..وانطلق به بين أشجار النخيل وهو يغنى«واحد وأربعين بنت اللهيب عبد الله ماحامت فريق،ماجالست بالحلة..نهدك برتكان..حاجبك هلال هلا..شفتك تسند اللى أدوه الشهادة وولى..ما حامت فريق،ما جالست بالحلة »والجمل يخب به حتى توارى عن الأنظار..

وحينذاك أسرع الرجال لاخفاء الدخان الذى أشتروه بعد أن أوكلوا الينا مراقبة الطريق وصفحة النيل،وبينما نحن نحدق بأبصارنا إلى الشمال انطلق على الشاطىء عواء ممطوط،لوينا له رقابنا،فإذا ببرعى قد تناسى نفسه،وارتقى ربوة عالية،ورفع عقيرته يطلق عواءه ..ومن خلفه اش الله يردد نفس العواء

ومن خلال العواء تسرب إلى آذاننا نغم جميل كنا نتوقعه منذ أيام ...دم...دم ..تراتتتا..،طبول يتداح صوتها فى الوادى وينفذ إلى قلوبنا.

١٢

استيقظت النجوع على دقات الطبول ،تتناهى إلى أسماعنا بين النخيل،فتهتز أجسادنا الصغيرة معها،ونجتر ذكريات موسم العام الماضي،بقلوب متشوقة وعيون تلمع فيها رغبة في الجرى،لولا مشاغل صغيرة تشدنا إلى أكوام الرجال والنساء تحت أشجار النخيل،نفس المشاغل التى ألهت الكتاب عنا فى هذه الأيام.وضربت باشرى كفا بكف وأخذ يجمع حاجياته ويضمها فى صناديق ليبارح النجع،فقد أنتهى موسمه،وبدأ طواف الحلب فى القرية، وهو يعلم أن الصغار لا يقربون مركبه عندما يلوح هؤلاء فى القرية من طرفها الشمالى .

وتوقف برعى عن تفريط عناقيد البلح مع خاله، وجنح إلي مرتفع انطرح عليه مرتفقا كوعه يرسل أغنية خافتة تردد فيها اسم شريفة مرة أو مرتين ،وسرعان ما انضم اليه بكر ثم جلق واش الله وراحوا يثرثرون من حوله وهو لاه عنهم لا يشاركهم إلا بكلمة مقتضبة بين الحين والآخر.

- فرقة الشيخ حمدان هى التى دخلت النجع الشمالى..

ولأمر لا أدريه ارتفع صوت صالح جلق محتدا..

- لا يابكر قلت لك أنها فرقة **الشيخ مسعود**.:ضع أذنك على الأرض واسمع :أليس كذلك يابرعى؟!..

فأشاح برعى بوجهه ولم يقل كلمة واحدة وانتهز اش الله الفرصة: وانبرى يقول:لاحمدان ولامسعود.

وسكت وكأنما قال الكلمة الفاصلة،ثم رأي في عيون الاخرين حيرة وتساؤلا :أغير أش الله رأيه؟..ألم يعد من أنصار فرقة الشيخ **مسعود**!أنهم يذكرون كم تنازعوا على الفرق وتمنوا أن يأتى اليوم الذى تتجمع فيه كل هذه الفرق لتتسابق خيولها وحميرها فتفوز واحدة من الفرق ويفوز أنصارها من كل نجع..

كان أش الله من حزب **الشيخ مسعود**..لكنه بالأمس فقط خلا ببرعى الذى طفق يحدثه عن فرقة الشيخ«**أبو رحاب**» فى حماس شديد،الفرقة التى فيها «**فكيهة**»ضاربة الرمل والودع،**والشيخ الشاذلى** كاتب الحجابات..لقد غير برعى رأيه ونقل عواطفه إلى هذه الفرقة التى كان منذ عام يحقر من شأنها..لماذ؟هذا مالم يفهمه اش الله ولا أحد .ألا أنه فكر بالليل واستقر هو الآخر،وصب عواطفه فى نفس هذه الفرقة..لكنهم على كل حال سوف يتابعون كل فرقة ويتمتعون بمباهجها ..

- ماذا تقول يا اش الله:لا حمدان ولا مسعود!..

- نعم يابكر ..لا حمدان ولا مسعود ..أبو رحاب..

- لماذا؟..

وهنا فقط ارتفع برعى برأسه واعتدل في جلسته.فالتفتوا إليه في انتباه شديد فقال:

- لماذا !؟لأن «أبو رحاب»أحسن..

فسكتوا جميعا وأصاخوا السمع مرة أخرى فإذا بدقات الطبول ترتفع دقة بعد أخرى حتى أصبحت واضحة فصاح برعى:

- هم فى نجع«السواردة»..

فتقاذف اش الله وبكر وصالح وإخذوا يصرخون:

- الحلب ! الحلب في السوارده.

وكنت منذ الضحى منهمكا مع أبي أمسك له فوهة الزكيبة ،ريثما يدك المكيال ويفرغ البلح فيها ،ويهتف مع كل كيلة :الله واحد ماله تاني ثم أربعه،سبعة ،عشرة،ويتوقف ليرد على احتجاجات النسوة،كنت بائسا أراقب برعي وشلته في شغف،واستمع إلى كلماتهم وأكاد أترك الزكيبة وأعدو إليهم،وقد بان نفاد صبري في قدمي اللتين بدتا وكأنهما تتحركان وتركضان ،وفي التواء رقبتي ،وفي السهوم الذي تجلى في عيني،وقد لاحظ أبي ذلك فأخذ ينتهرني ويأمرني بالانتباه لعملي.قاطعته مرة بعد أخرى حتى كانت الصرخة الأخيرة.. الحلب في السواردة ..فلم إتمالك نفسي حينذاك وتركت الزكيبة فجأة ،منتهزا فرصة انهماك أبي في لجاجة مع النسوة،وانتقلت في هرولة إلى شلة برعي التي كانت تتقافز وتصرخ وتنادي:هيا بنا ياحامد ..هيا..فأخذنا نعدو على الطريق الزراعية،نسابق بعضنا حتى انعطفنا عند الطرف الشمالي من نجع السواردة على الشاطىء،وتريثنا قليلا نصيخ السمع ثم عاودنا الركض إلى أن لاحت البيارق في عيوننا وتبدى الموكب في الساحة الممتدة أمام دكان حسن شاهين،وهناك كان مصطفى ابن التاجر يركب حصانا من خيول الحلب يرقص به ،فملأنا الغيظ عند مرءاه،وبدا واضحا لنا أن الحلب قد باتوا ليلتهم في هذه الساحة مكرمين وأصبحوا ليعاودوا طوافهم بالنجوع..

توقفنا نراقب مصطفى يتشبث بعرف الحصان في خوف ،ويدور به بين صفوف من الناس ظلوا يرمقونه في إعجاب ،فقد أصبح مصطفى هذا منذ شهور حديث الناس في القرية بعد أن قرر أبوه أن يهجر الكتاب وأن يلحقه بالمدرسة الابتدائية في الدر-عبر المنحنى الشمالي، فلم يعد يتخذ من الجلباب الأزرق زيا ،بل استبدل به جلبابا من البوبلين المقلم بياقة تنسدل على كتفيه ،وأطال شعره الناعم حتى كاد يغطي مؤخرة رأسه..

وتعالت أصوات الطبول فجأة فتوقف الحصان وترجل مصطفى عنه وأسلم لجامه لرجل طويل القامة يكبس رأسه في لبدة صفراء ظل ممسكا به حتى ظهر الشيخ على عتبة المتجر عريض المنكبين ،مستدير الوجه على رأسه عمة خضراء لفها باحكام حول طربوش مغربي واسع ،حليق الذقن والشارب،تنسدل على جسمه جبة رمادية فوق قفطان من الشاهي كبت لمعته،وما أن وقعت عينا برعي عليه حتى صاح في مرح:

- الحمد لله..الشيخ «أبو رحاب»

ومضى يلكز اش الله بكوعه ويقول لبكر:

- ألم نقل لك..لا حمدان ولا مسعود!

فأطرق بكر ثم قال:

- سوف يأتيان بعده..أسبوع ثم..

لكن برعي لم يعره انتباها بل شدني من ساعدي ،وبدأنا نتنقل في الساحة ونلقي نظرة على الموكب كله.

كان الشيخ قد ترك عتبة المتجر،وامتطى صهوة جواده الذي ازدانت غرته بقطع فضية وأخرى

بلون الذهب ،حولها أجراس صغيرة تصلصل كلما أدار الشيخ رقبته باللجام أو كلما هز الجواد رأسه،منتشيا بدقات حافريه الأماميتن على الأرض..

وعلى شعره البنى الداكن الذى ينعكس عليه ضوء الشمس فيبرق تناثرت قطرات من العرق تلمع كلما رفع رأسه ولا ك لجامه بين شدقيه ليرسل حمحمة وصهيلا ينسجمان مع ذدقات الطبول،وعلى السرج من مقدمته سارية متوسطة فى نهايتها بيرق أخضر مطرز بكلمات مذهبة متشابكة مثل الطرة وفى إطار المثلث زيق أحمر تتدلى منه شوارب صفراء ،تتناسب مع لون الكلمات المتماوجة على البيرق كلما تماوج مع النسيم ليلقى ظلاله المتراقصة على وجه الشيخ وجبته.

ومن حوله الحصان وعلى بعد خطوتين منه رجلان قصيرا القامة عريضا البدن،بجلبابين باهتي اللون من الزفير المقلم،ولبدة صفراء عليها عمامة بيضاء ضئيلة الحجم،بذؤابات صغيرة مبرومة وعلى عنق كل منهما سير غليظ من قماش خشن يحز فيهما ،يتدلى على الصدر ويشد على البطن جانحا بها إلى الجانب الأيسر طبلة كبيرة ينقر عليها بمطرقتين تنتهيان برأس مستدير من الجلد الأسمر يمسكها فى خفة وبراعة بيديه اليسرى واليمنى ويميل رأسه إلي الجانب الأيسر ،ومن خلفهما رجل آخر مرصوص القوام بنفس الزى،يحمل دفا ينقر عليه وآخر يزامله وفى فمه ناى يصفر فيه منتفخ الأوداج،جاحظ العينين لامعهما،ثم بقية الموكب:**الشيخ الرفاعى** :طويل القامة معروق الرقبة أسمر الوجه،بعينين حادتين مثل عينى الصقر،وجبهة عالية تطل عليها عمة خضراء باهتة اللون.يهز رأسه ،وهو يزم شفتيه ويضمهما ، ثم يربت على «مرجونة» من الخوص محكمة الاغلاق،ويهتف كلما خطا خطوتين:حاسب !حاسب !مدد يارفاعى..حاسب من الحنش!

وفى مقدمة الموكب رجل متوسط القامة بوجه أحمر علي صدغيه رسم عصفور يحمل ربابة ويعزف عليها ،ويرسل ابياتا من الشعر.. أول مانبدى نصلى ع النبى المختار،يختلط بصوته المبحوح صوت جميل ..صوت امرأة ملفوفة القوام ،بجلباب طويل من الفوال يضيق عند الصدر فيشرئب النهدان ويكادان يقزفان في العيون ،ثم يستوى الصدر بعدها إلى أعلى حتى بدايات عنق تحمل وجها ما يزال شابا ، قمحى اللون،بوشم أزرق على الشفتين ،وشم يمتد من الشفة السفلى إلى الذقن فى ثلاثة خطوط متوازية ،وفى الوجه المستدير عينان واسعتان مكحولتان،تلمعان تحت جبهة مشرقة تتسعان وهى تمط صوتها الجميل: أبين زين أبين وأشوش الدكر..

ثم عشرة أو اثنا عشر رجلا آخرون بأزياء متنافرة ،ومهن شتى يتقدمهن **الشيخ الشاذلى** كاتب الأحجبة..

أخذ هذا الموكب يتحرك إلي أن حاذانا الشيخ الشاذلى فرمقه برعى في تطلع وثبت عليه نظراته وهمس فى أذنى:

- ألم أقل لك؟..الشيخ الشاذلى سيحقق لى أمنيتى.
- أمنية ..أية أمنية؟

فضحك وربت على ظهرى وهمس مرة أخرى:

- مازلت صغيرا لا تفهم!

والتهب وجهي وأحسست بالمهانة وأردت أن احتج عليه ألا أن الموكب المتحرك،والطبول الداوية،والبيارق المتماوجة وأصوات النساء والرجال..كل ذلك قد جرفنا نحن الاثنين فتبعناه بعيون والهة وأقدام نشطة.

أخذ الموكب يتحرك وينعطف عند كل طريق ويتوقف عند كل بيت ،الفارس الشيخ يرقص بحصانه ،والربابة تتقدم إلى ربة البيت وتغنى ثم تتقدم فكيهة ضاربة الرمل،وتفرش على الرمل وتوشوش الدكر وينفلت الرفاعى من الموكب،يتلصص على الجحور والشقوق فى البيت ويخرج وهو بحكم اغلاق مرجونه،ويغمز لأمرأة أخرى تزحف مع الموكب ،دون عمل نستبينه نحن.

وتتقدم ربة البيت يحفان من التمر لاتباع الشيخ ولفكيهة وللربابة والرفاعى ،ثم تحمل صغيرها الي الشيخ ،فيردفه على الحصان من خلفه ثم يهمز الجواد ،فتدق الطبول دقة خاصة يدق معها الجواد بحافرية على الأرض فى دلال فتاة صغيرة «دلوعة» ،ويظل الطفل يضحك مع رقصاته منتشيا حتى يمله الشيخ:كفى !ثم يتحرك الموكب ليتوقف عند بيت آخر،ونبين زين وأول ما نبدى ومدد يا رفاعى..

وعند الكتاب دنا برعى من الشيخ الشاذلى ولمس ثوبه ثم سأل فى حياء:

- أتبيتون فى نجعنا ؟

فنظر إليه الرجل مليا لعله يتذكره ثم أطلق صيحته:الله..الله ..الله..

ومال عليه يسأل:أين!..

فأشار برعى إلي الجنوب..إلى نجع الزينية فاتجه اليها الرجل بعينيه كأنه يقيس الأبعاد،ثم قال فى رزانة قبل أن يتراقص:

- إن شاء الله.إن شاء الله.

وتقدم خطوات وعاد إلى برعى يسأل:

- ولماذا تسأل ياولدى ؟

-أريدك..

فلمس رأسه بيده يباركه ثم مضى يذكر الله ويهتز مع النغمات والطبول الداوية..

الموكب يزحف ويزحف إلى أن بلغ نجعنا وأطفال كل النجوع يتراقصون حوله،ويقلدون كل رجل فى وفرقة الحلب، التى توقفت لحظة عند الدكان ،باعت فيها كل ما جمعته من بلح بينما تقدمت أنا والتصقت بأبى أوحى للشيخ أننى أبنه فأردفنى من خلفه على جواده الراقص وأنا أنظر إلي الآخرين من أطفال النجع فى زهو ..ثم توقف الموكب على عتبة بيتنا..

وعلى العتبة استندت جدتى وأمى إلى كتفى الباب ،ومن خلفهما - فى الدهليز- شقيقتاى.

وفجأة والجواد لا يزال يتراقص بى أنطلق الرفاعى بصيحته الداوية ..مدد..مدد.مدد وانفلت يعدو ،ومرجونته تهتز على جانبه،حتى توقف أمام جدتى وأمى يشير إليهما بهزات من رأسه أن يفسحا الطريق،كان يتشمم بأنفه هنا وهناك،ولما لم تفهماه فتح المرجونة فأطل منها رأس ثعبان فزعت له الشقيقتان ،وتنحت الجدة والأم عن الباب عندما بدا الثعبان يتلوى على يد الرجل..

وفى اللحظة التى تنحتا فيها عن الباب انطلق الرفاعى إلى داخل الفناء يدور هنا وهناك يطلق صرخاته:أخرج يا ملعون حتى عاد إلى الدهليز،وتوقف عند الجحر الذي اغترقت منه بطة حقان القمح منذ أسابيع ،وهو يسب ويلعن،يا عدو الله ..اخرج ،ثم مضى يتمتم برهة وشقيقتاى تطلان من فوق كتفه حتى أطل من الجحر ثعبان أخذ يتلوى برأسه .

فمد الرجل عصا صغيرة لف رأسها بقطعة من القماش الناعم وألقاها في فم الثعبان ،وشدها بسرعة ثم مد يده وأمسك بالثعبان وهو يلعنه وألقى يبه فى المرجونة.

وأحست بطة بنوبة أغماء فانزوت في الركن الآخر من الدهليز بينما تركت جميلة الدهليز كله إلى الخارج تبتعد عن البيت إلى الساحة ،وتوقفت عند حلقة من النساء استدرن بذات الوشم.

وقدمت جدتى قدحا كاملا من التمر للفرقة،دار الحصان بى بعدها مرتين.

ثم ترجلت ومضيت في خطى مرحة إلي حلقة النساء ،وهناك رأيت فكيهة تفرش الرمل وتخطط عليه وتغنى بصوت حلو :أبين زين أبين .وأوشوش الدكر

وهمست أختى فى أذنى:

- أتريد أن تكشف بختك يا حامد؟

قلت :نعم

فأعزت إلى فكيهة التى جذبتنى من كمى وأوقفنى إلي جانبها وسألت:

- ما أسمك

- حامد

- أمك؟

- فاطمة

- آه ..حامد بن فاطمة

ومضت تخطط على الرمل ثن تفرست في عينى وفى وجه شقيقتى كالمترددة ..ثم قالت:

- حامد فى بختك شيء غريب!

فسألت جميلة فى جزع:

- خيرا

- خير ..لكن هناك خطوط أخرى غريبة!- قولى يا فكيهة..كله خير إن شاء الله فجابهتنى ذات الوشم الأزرق وقالت عابسة الوجه:

- ستقف يا حامد مرات ثلاث أمام المحاكم!

فهتفت أختى فى هلع:

- محاكم!

- محاكم ..محامى..يتزوج أويطلق

ولم أفهم أنا شيئا مما تقوله فكيهة.الا أن خالى أحمد عوده كان يطل علينا في هذه اللحظة فاستمع إلي كلماتها وقال في صوت حاد:

- ماذا تقولين يا مجنونة؟!

فاستدارت إليه فى عنف.

- مجنونة حرام عليك الرمل هو الذى يقول.

فمد يده ودفعها فى رأسها ثم وطىء الرمل بقدمه وأمرها :قومى من هنا وابتعدى قبل أن..

وأمسك عن وعيده حتى جمعت أدواتها على عجل ومضت إلى نهاية الطريق وفرشت رملها من جديد. ثلاث مرات أمام المحاكم ؟ويلى فربما تصدق الملعونة .

وصل المساء ،وعسكر« أبو رحاب»وفرقته فى الباحة أمام بيت الشيخ جعفر..فى نجع المجراب،باحة من حولها أحراش نخيل تطل على مستنقع من الماء الراكد انعكست عليها أضواء خافتة من كلوب وفوانيس علقت على غصون الشجر .

ومن كل مكان ،من كل نجع ،توافد الناس ،الرجال والنساء والأطفال علي معسكر الحلب ،يقايضون ويشترون ويقيمون حلقات الذكر ويصيخون السمع إلى شاعر الربابة يحكى لهم عن« أبو زيد الهلالى» ودياب بن غانم ، ،وعنتر الأسمر..

وعلى حافة المعسكر من الناحية الشرقية، ،تحت شجرة جميز باسقة يطل منها فانوس جلس الشيخ الشاذلى.

ويبدو أن برعى كان يبحث عن هذا الرجل ..فقد اتجه إليه وهو يحمل كيسا من البلح القاه تحت الشجرة وجلس اليه صامتا حتى فرغ الشيخ من غمغماته ثم أدلى إليه بسره فقال:

-وما أسمها يا ولدى،ما اسم صاحبتك يا ولدى؟

- شريفة..

- بنت من؟

- ابراهيم عثمان.

- كلا .أمها يا ولدى؟

- داريا ..داريا سكينة!

وتأمل الرجل وجه برعى مليا ،وفتح كتابا ثم نظر إلى وجهى وفهمت أنه يأمرنى بالانصراف ابتعدت قليلا ،وربضت عند مكان قريب استمع منه إلى كلمات متفرقة من همسات الشيخ

- خد..ورقة من الحجاز..اكتب ..مرة..على ذراعك.ثم قدم له برشامات ثلاث صغيرة ومسح على رأسه بيده وهو يهمهم.

- وفقك الله يابنى..

ثم انصرف برعى إلى حلقة الذكر بعد أن أخفى هدية الشيخ فى جيبه..فوقفت عند الحلقة أراقبه وهو ينتشى بذكر الله.

ولأمر لاأدريه حانت منى التفاتة إلى الطرف الآخر ،وهناك رأيت حسن المصرى يستند إلى جذع نخلة..ويحرك يديه فى إشارات خفية تتبعتها بعينى ،فذهلت من نفسى حين رأيت فكيهة ذات الوشم الأزرق تزين نفسها على عجل،ثم تتحرك ببطء وفى حذر حتى تسللت إليه فقادها إلى حيث لاأدرى ،هنالك خلف المستنقع ولربما انكفآ على الأرض وتدحرجا كما تدحرج مع شريفة بين عيدان الذرة،ولربما قبض على فخذها كما فعل بشريفة ربما.. إلى انها عادت بعد ساعة ،وفى

عينيها بريق..تسوى شعرها بيد بينما اليد الأخرى تحمل كيسا ،..ومن خلفها حسن المصرى الذى انعطف إلى حلقة الذكر وانهمك فيها..

وعند الظهر فى اليوم التالى سئمنا الفرقة..بعد أن طاردناها إلى حدود القرية ..وعدنا أنا برعى ندب على الطريق في خطى متثاقلة .أمام بيت شريفة،وفجأة قلت لبرعى:

- قادها إلى المستنقع في الظلام.

فتوقف برعى واستدار ناحيتى وسأل:

- من؟

قلت:حسن المصرى..

قال: لا اسألك عن الجلف..من هى؟

وتريثت حتى أتذكر أسمها فعاجلنى:

- لماذا لا تنطق؟!

وأمسك برقبتى وهو يهدر

- قل لى ..أهى شريفة؟!

فتحشرج صوتى وأنا أقول :

- كلا ..شريفة لم تكن هناك بالقرب من حلقة الذكر.

- بل كانت هناك مع أمها..

- لم أرها..لم أرها..

- أنت تكذب..قل لى من هى؟

- فكيهة..

فأرخى يديه ثم قال:

- ابن الكلب الحلبى ابن الحلبى..تعال معى ياحامد..

- إلى أين؟

- إلى بيتنا ..

- لا يابرعى ..لا أريد أن أتأخر

- بل سنتغدى معا في بيتنا.

ولم أستطع أن أفلت من أساره ..وهناك في الحاصل الصغير فى بيته أعد برعى محبرة وقلمين من البوص ،ثم أخرج ورقة بيضاء من جيبه ومد يده لى بشطر منها وهو يهمس حتى لا تسمعه أمه:

- أكتب ..

فأمسكت بالقلم وأنا أسأل :ماذا أكتب؟

-اسمها..

- فكيهة!

-آه يا ملعون..ياغبى،مالى أنا وفكيهة..اكتب على الورقة بخط جميل ورفيع اسم شريفة

ثلاثمائة مرة.

وعجبت لأمره ،بيد أننى أطعته وأخذت أكتب حتى فرغنا معا عند الأصيل..وقمت لأنصرف ولكنه جذبنى من كمى وقال:

- كلا ..ليس الآن.. سنذهب معا إلى حاكم الاسكافى ..

- لماذا ؟ لقد تأخرت يا شيخ.

- كفى لكاعة واتبعنى.اياك أن تقول لأحد عما فعلناه..اسمعت؟

- .....

نعم سمعت..ولكن لماذا يكتب اسمها ،ثم لماذا يخفى عن الناس كل ذلك،ولماذا يقودنى إلي عم الاسكافى،وأحسست أنه سيضربنى إذا لم أجب فتلعثمت.

- حاضر .ليصبنى الله بالعمى والكساح إذا قلت لأحد.

فهز رأسه وتقدمنى إلى أن دلفنا معا إلى بيت الاسكافى وورشته الصغيرة،فهش فى وجهينا.

وأسر برعى إليه برغبته،فمضى الرجل يعمل حتى أحاط الورقتين والبرشامات الثلاث بكيس من الجلد بينما انصرفنا نحن نداعب«نور الصغير ابنه ،ندغدغه فى جنبه فينقلب،ويرسل ضحكات مرحة ويبرطم بكلمات غير مفهومة ،مضى أبوه يفسرها لنا،حتى أقبلت أمه فاحتطفته من بين أيدينا وهى تنتهرنا :

- ستقتلون الولد!.

- يقتلونه!دائما تخافين عليه!دعيه..لن يقلته أحد..

- طبعا..طبعا..أنت لا تخاف عليه كما أخاف..لم تتعب فى ولادته..

وتركها الرجل وسأل:

- وما هذا الحجاب يا برعى؟.

وسكت برعى فاستطرد الرجل:

- من الذى كتبه لك..الشيخ يعقوب؟

- كلا ..الشيخ الشاذلى.

فأطلق الرجل ضحكة ثم قال:

- نصاب ..يكتب حجابات للمغفلين!

فذهل برعى لكنه قال:

- عمتى فضيلة جربت حجاباته..

ومد يده واختطف الحجاب واحتضنه فعدنا أدراجنا حتى توسطنا الطريق العام وفجأة تركنى برعى واتجه إلى تحويشة عبد الله الجزار..

فوقفت أتأمله ثم عاودت سيرى دون تعجل..حتى وجدت نفسى أمام بيت سعدية..وقبل أن اجتازه برزت سعدية ولوحت لى بيدها وهى تقول :

حامد تعال ياحامد..تعال هنا!.

- مـاذا تريدين يا سعدية؟..ربما ترسلين بى فى مشوار كعادتك..كلا ..لن أذهب فى أى

مشوار..أنا متعب اليوم.

ولكننى رغم ذلك تقدمت نحوها حتى حاذيتها وسألت - هيه..ماذا تريدين؟

- تعال في الداخل ..فأنا خائفة..

- خائفة..مم تخافين؟..

- أمي ليست هنا ،..وهناك عفاريت فى الحاصل؟..

- عفاريت!.

- نعم وهم يخروشون فى الحاصل طول الوقت..

وأمسكت بيدى ،واندفعت بى إلي الداخل،وأنا أحاول أن أفلت منها ،ثم توقفت فى الديوانى أمام سحارة أمها ورفعت الغطاء قليلا ثم مضت تعبث وجسدها يخفى عنى ما تفعله..ثم استدارت إلى ووضعت فى فمى مصاصة أخذت ألوكها وهى ترمقنى بنظرات غريبة !وطوقتني بذراعيها ،ثم رفعتنى إلي صدرها ..ومضت تضغط على صدرى بنهديها ،وتحتك بى وأنا ألهث وأحاول أن أنشب أظافرى فى عنقها..«المجنونة» ماذا تريد سعدية منى ؟ إنها تخنقنى وأنا أصرخ:عينى دعينى اتركينى يابنت الكلب!..

فلا تبالى بل تظل تمرغ صدرها بصدرى..وتطوقنى بقسوة،وتكاد تهشم ضلوعى وتلهث كما تلهث الكلاب،والعرق البارد يسيل على وجهى ..وأحسست أن زمنا طويلا قد انصرم منذ طوقتنى بذراعيها فمضيت أتساءل:

متى تنتهى المجنونة من لعبتها السخيفة هذه؟.. ثم غامت عيناها وتراخت يداها حتى ارتمت على السحارة وتركتنى وهى تهمس :

- هبيل وعبيط!.

ومدت يدها بالطرحة تمسح العرق من وجهى وهى تبتسم وتهمس

- ألا تعرف هذه اللعبة ياعبيط؟.

قلت:أى لعبة.

- لعبة حلوة:مسكين..إنك لاتعرفها.

ونظرت مليا في عينى ثم قالت:

- إياك أن تقول لأحد ..خذ ..

وملأت طاقيتى بحفنتين كبيرتين من الحمص.وأحسست أنها تقترب منى وخفت أن تكرر لعبتها ،فقررت أن أهرب..

وفي هذه اللحظة فتح الباب الخارجى ..وسمعنا معا صوت أمها:

- سعدية يا بنت يا سعدية..



وقفت وحدها على الشاطىء الرملى ،لا تفعل شيئا غير مراقبتنا ونحن نتبارى فى العوم..ونغوص فى الماء لنظهر فجأة فى مكان آخر، أو نعبر شريحة الماء الضيقة،إلي شاطيء الجزيرةونتسلق نخلة مائلة،ونقفز منها إلي النيل،نتحداه بعد أن شاخ وهزلت قواه،وجلا عن مساحات واسعة من مجراه لينحسر في شريط ضيق يلمع تحت وهج الشمس رائقا من الحمرة الداكنة التى تشوبه أيام الفيضان..

.ومن حول المجرى الضيق-على الشاطئين- بدت الأرض خالية من كل خضرة ،إلا سعف النخيل فقد أنشب الخريف أظافره فى كل شجرة أخرى وعراها من ثيابها المخملية،بنما بدا النتوء ربوة عالية،من حولها علي الجانبين أخاديد عميقة من الرمل تتخللها برك صغيرة من الماء تخلفت فلم تستطع اللحاق بالنيل في هروبه أمام الخريف،برك تربض من خلفها أراض عاطلة من كل زينة ترعى فيها القطعان دون رعاتها الذين تركوها تسرح وعادوا يلعبون السيجة والطاب فى ظلال الأشجار والبيوت،

ولولا صرخاتنا ،وعبثنا وأجسادنا العارية السمراء ،لبدت القرية مكانا مهجورا، لا يتنفس فيه أحد غير الأطفال والفتيات الصغيرات فقد استقر آباؤنا في البيوت يستريحون ريثما يعودون لحرث الأرض وبذر القمح ،لم يعودوا يخافون علينا من النيل وسطوته..ولم نعد نحن نهاب منه،فإننا نستطيع أن نخوضه أو نعبره على أقدامنا،إلا في موضع الدوامة والصخرة الناتئة التى انطرحت عليها الشمندورة الحمراء.

حتى الفتيات بتن ينزلن اليه ويلعبن،كما نلعب،ويجمعن قطع الحصباء الملونة،ويتعلمن العوم،مستعينات بطوفة أو «قرع»يعلقنه حول الظهور بحبال من الليف،يطفو بهن فوق الماء،ألا «مندوهة» فإنها أبت أن تنزل إلي الماء وإن بدت سعيدة في وقفتها هنالك على الشاطىء الشرقى تراقبنا دون أن تسمح لنفسها بالنزول والعوم معنا..

تعللت أن«نوح»أباها سيضربها إذا ما ابتل ثوبها الجديد الذى اشتراه من كده طوال موسم قطع النخيل،ولكن بخيته وسكينة أخذتا تهتفان لتخلع ثيابها الجديدة وتتركها على الرمل ،بينما تسلل إليها اش الله من خلفها ودفعها إلي الماء فكادت تسقط فيه غير أنها تشبثت بعارضة الفلوكة،ورفعت جلبابها إلي صدرها وهى تصرخ:

- أتركنى يا اش الله..أقول لك دعنى.

فصاحت نبيهة:

- بشرط أن تنزلى إلى الماء..

فترددت لحظة ثم قالت:

- أتركونى وسوف أنزل.

وتركها اش الله وهو يهتف بها:

- احلفى برحمة أمك!.

- ورحمة أمى،..!

ثم تخلت عن ثوبها ،وارتمت فى الماء متهيبة إلى أن اعتادته فمضت تعوم فى المجرى الضحل

وتحاول أن تسابقنا عبثا ،ثم سئمت وقالت في مرح:

- جعنا ولا بد لنا من الأكل..

فأطلقت سكينة ضحكة ضغيرة سكبتها فى الماء ثم قالت:

- مفجوعة ..لا تشبعين!.

- وأنت ..ألا تريدين أن تأكلى؟:..

- ولكن ماذا نأكل..أنترك كل هذا اللعب ونعود إلي البيوت ؟

- كلا .تعالوا نصطاد سمكا..

فرحبنا باقتراحها وانطلقنا إلي برك الماء وارتكزنا فيها على أعجازنا .كل اثنين يمدان سيقانهما منفرجة،يحجزان بينهما مياة البركة الضحلة،ويعبثان بالأيدى فى الماء ويلتقطان الأسماك الصغيرة التى تخلفت فى البرك،فبدت فريسة سهلة،تنوش أفخاذنا بزعانفها الصغيرة ثم تقفز محاولة الفكاك،فننقض عليها ونرمى بها إلي الشاطئ الرملى لتجمعها مندوهة عارية الجسد،بينما ركزت سكينة قطعة من الصفيح مسطحة على كانون صغير أعدته وقبست نه النار من قيمنة الفحم التى أقامها «بشير عثمان» خلف جدار الساقية،فقد اعتاد أن يبيع فحما يصنعه من خشب السنط بعد كل موسم..

مضينا نصطاد صغار السمك ونشويها ونلتهمها دون أن نبالى بالشوك..حتى امتلأت البطون..

وبينما نحن نحفر فى الرمل .نتصيد منه الماء البارد .بدا على الشاطىء شبحان يتحركان من خلف النتوء في اتجاهنا..

وهنا تنبهت مندوهة لعرى جسدها .فاندفعت إلي ثيابها ولم تجدها فمضت تصرخ:

- يا عيب الشوم!أين ثوبى..جلابيتى يا هوه!..

وصاحت بها سكينة..

- ومن يدرى يا مندوهة..أين جلابيتك؟

وراحت بخيتة تضحك وتقول:

- الملائكة أخذوها!..

- الملائكة إنهم لا يسرقون ..قولى الشياطين..

- طيب ..الشيطان هو الذى أخذها..

وتلفتنا جميعا إلي «بكر» الذى جلس على الأرض يشيح بوجهه بعيدا..

وكان الشبحان يقتربان والفتاة تكاد تجن وتحاول أن تخفى نفسها في مكان ما،ثم تخلت عن فكرة التوارى ،واندلقت على بكر تخربش جسده لتجبره على استرداد ثوبها ،والفتى يقسم أنه لم يأخذها ..

واجتمعنا من حولهما نحاول أن نحمل«بكرا » على الاعتراف ،غير أنه لم يتخل عن عناده إلا حين أشارت الفتاة إلى الشبحين.فرأينا بركات أفندى والعمدة على مقربة منا ،وقد انهمكا في الدوران حول زكاتب سكر وقمح مرصوصة بعناية على الشاطىء ،هنا فقط قال لها بكر:

- والحلاوة..

ودفعته بقدمها وهى تقول:

- الحلاوة !خذ ياابن الكلب..أين جلابيتى؟..

- الحلاوة!..

- طيب ماذا تريد؟..

وصمتت وهى تتوارى خلف أجسادنا ثم قالت:

- سنارة!.

- كلا- طيب ..فخ أسرقه لك؟..

- عندى فخان..

- ماذا تريد ياألدغ؟.

- تتزوجينى الآن!..

- الآن!؟..

- الآن..

- لكن أبى يقول إننى سأتزوج حين أكبر!

- يا غشيمة..نتزوج في لعبة العروسة.

وتلفت الجميع نحوى ،فإن مندوهة،أبت دائما أن تتزوج غيرى فى هذه اللعبة لكنها قالت:

- طيب ..سأتزوجك اليوم واتزوج «حامد» فى نفس الوقت..

-أنا الأول..

ونظرت إلى ثم قالت:

- موافقه..

-أحلفى..

- إن شاء الله أعمى ويصيبنى الكساح لو لم اتزوجك اليوم قبل حامد..

- وتموتين..

- وأموت يارب،،وونور..

واطمأن بكر وجرى إلى« الفلوكة ،وأخرج جلابية الفتاة،وألقى بها أمام قدميها ،ثم مضى يحجل فى الأرض الرملية،وهو يرسل أغنية عن مندوهة عروسه.ويرمقنى فى زهو ملأنى بالغيظ فانعطفت على مندوهة أقول:

- أنت يا كذابة..لن تتزوجيه قبلى..

- لكننى سأموت أو أعمى أو يصيبنى الكساح ما لم أتزوجه قبلك!..

فجززت على أسنانى وأنا أقرر أمرا أنفذه حين يأتى أوانه..

وكنا قد قطعنا مسافة من المجرى الجاف واقتربنا من الشاطىء نحاول أن نتفادى بركات أفندى والعمدة ولكن صوتيهما كانا قد ارتفعا،فتوقفنا تحت الجرف الطينى نستمع إلي ما يقولانه:

- ولماذا يتركها الشيخ أمين هنا؟.

- اعتاد التجار ذلك،ينقلونها- على راحتهم- يا سعادة البيه..
وصمت بركات أفندى هنيهة،ثم قال:
-ألا يخشون من اللصوص..ففى الغرارات سكر وقمح!..
ورن صوت العمدة عاليا،وكأنه يفتخر :
- لصوصاليس فى بلدتنا لصوص..
وبانت الدهشة واضحة في صوت الآخر:
- ألا يسرق أحد هنا شيئا
- السرقة عار
وطفق يتحدث فى كبرياء عن الأمن فى قريتنا .لا سرقات يا سعادة البيه،إلا الأطفال الصغار فيسرقون أفخاخ بعضهم أو الرطب أول ظهورها،أما الكبار فإنهم لا يسرقون .وإلا وصمت القبيلة بعار كبير ،ولا جرائم قتل يا بركات بيه،مرة واحدة قتل فيها مدرس من بحرى حمار زميله،وليست هناك فى القرية إلا مشادات صغيرة بالنبابيت لا يجرح فيها أحد،ولا تشج رؤوس!.
- عجيبة يا حضرة العمدة ..كنت فى أبنوب الحمام،والدم هناك للركب والرصاص في كل مكان ..الأطفال..حتى الأطفال يلعبون بالبنادق ،لقد سرقوا منزلى أمام عينى،بعد أن أوثقونى ،وكمموا فم زوجتى ،وحشروا الصغار فى المطبخ..
- وأين أبنوب هذه..ليست من قرانا ؟
- فى أسيوط يا حضرة العمدة.. أجارك الله..خسارة أن بلدتكم هذه لن تعيش ..أنا معجب بأخلاق أهلها،الصراحة ،والذى فى القلب برتسم مباشرة على الوجه،ولا سرقات ولا رصاص،لم أصدق المأمور وهو يروى لى عن الأمن فى المنقطة،سأقابله وأعتذر له..
وسر العمدة بهذا الحديث،وتقافز مثلنا نحن الأطفال،وهو لا يعى بنفسه ،فمضينا نكتم أنفاسنا حتى لا يسمعا ضحكاتنا ،ولكن العمدة توقف فجأة وقال:
- ولكنك تشكو يا بركات بيه من العمل!
- وماذا أفعل غير الشكوى؟..أهل القرية طيبون ولكنهم يتنازعون عند تسجيل النخيل والأرض فيعطلون عملنا.
وسكت ريثما أشعل سيجارة وقال:
- ألا تذكر الرجل ..اسمه..
- الجزار .عبد الله الجزار..
- والآخر ..اسمه فضل،أبى كل منهما تسجيل قيراطين من طرح البحر باسْم الآخر،مدعيا أنهما من أملاكه،والقيراطان يواجهان أرض الجزار وقطعة صغيرة من أرض فضل.
- الليلة ستحل المشكلة؟ مجلس الصلح سينعقد..
- ولكن العمل يتعطل،والمستر هيس سيعود ويسود عيشتنا..
- سود الله وجهه!..

ثم بعد صمت:

- الناس يقولون إنه كلما تعطل التسجيل كلما تأخر الطوفان،ولذلك فإننا لسنا متعجلين..

- صدقنى ياحضرة العمدة،سجلنا أم لم نسجل،سوف يأتى الطوفان بعد أشهر ..ويصخب الماء فوق نفس المكان الذى نقف عليه.. بل فى بيتك وبيوت الآخرين..

وأردف بعد صمت:

- أنتم طيبون،ولكنكم لا تعرفون مصالحكم..وهذا الرجل الذى تسمونه بدر أفندى وكيل البريد يملأ رؤوسكم ..الحكومة قوية، وصدقى باشا إذا صمم على شيء لا يتنازل أبدا ألم يدفن عمال العنابر أحياء..فهل يبالى بكم؟..

- سمعت ذلك من أحمد عودة..لنا الله

- والأنجليز يتعجلون..

- ولماذا يتعجلون على خراب بيوتنا..خرب الله بيوتهم .

- القطن يا حضرة العمدة.

- ومالنا نحن؟ نحن لا نزرع قطنا هنا.!

وطفق بركات أفندى يشرح للعمدة وهما يبتعدان فى خطى متثاقلة فظللنا نحن نراقبهما حتى تواريا ،ثم ران علينا الصمت وانغرزت حيرة وقلقل غامض فى ضلوعنا ، فمضينا نعبث بأقدامنا فى الرمل،ولا نكاد نلفظ كلمة حتى ضاقت مندوهة بالصمت فقالت:

- مازلت جائعة..تعالوا نصطاد السمك من جديد..

فصاح بها بكر:

- بل نلعب لعبة العروسة يا مندوهة..

فهللنا ،ودبت الحيوية فى موكبنا الصغير،والتقط اش الله قطعة الصفيح وأخذ ينقر عليها ،ويردد على أيقاعها مقاطع أغنية الزفاف.. بينما نخب فوق الرمال، ونتجه و إلي غابة صغيرة من غابات أشجار النخيل،ذات ظلال وأرفة،يتشابك فيها السعف والجريد،بحيث تبدت الغابة وكأنها سقيفة تظلل الأرض كلها من حولنا..

أسرعت مندوهة بعد أن لكزها بكر بكوعه إلى جذع شجرة سنط باسقة بين النخيل..واستندت إليه،واصطفت لداتها من حولها يسدلن شالا أحمر علي وجهها ،ويطلقن الزغاريد بأصوات مسرسعة ويعرنها غوائش وحلقانا تتزين بها..

وتقدمت سكينة وبخيتة ووقفتا عند مم ضيق بين نخلتين تحجبان العروسة عن عيوننا.وتوصدان الطريق إليها..

ومن بعيد أقبلنا نحن نزف بكرا الذى أسدل على رأسه ركتفيه وصدره عمة بيضاء طويلة.وعلق على ساعده خنجرا اصطنعه من جريد النخل،وتأبط كرباجا طويلا من الجريد الأخضر الطرى شذبه وطواه تحت أبطه فى عناية بالغة.

بدا بكر سعيدا مرحا،ينقل خطاه في خفة ونحن من حوله نطرقع بالكرابيج فوق رأسه إلى أن دنونا من بيت العروسة ،فتوقفنا قليلا نتغنى بمندوهة وجمالها الآسر ،وبالفتى الفارس وأبعدية

أبيه!.

وتحركنا من جديد بموكب الزفاف حتى بلغنا الممر الضيق ،فتصدت سكينة وبخيتة لنا..تحولان بين العريس وبغيته ،فظللنا نحاورهما ونهددهما فلم تباليا ،بل تمادت بخيتة وقالت في صوت حاولت أن تقلد به صوت عجائز النساء:

– المعلوم يا بكر؟!

وغمزت بعينها وأردفت:

– الأميرة بنت الأمرا لا يدخل عليها أحد بدون المعلوم !..

فتقدم منها بكر وعبث في جيبه ،ثم ألقى بخمس قطع من الحصى الملون والقواقع في يدها ،وهو يعد في فخار:

– عشرة..عشرون.. خمسون قرشا!

ثم توقف ،فهزت الفتاة رأسها في إصرار.فعدنا نحاور ونداور بينما مندوهة منكفئة عند الجذع ترمقنا في حياء تتصنعه ،وعلى رأسها نبيهة تقف مثل وقفة الخادم تروح عنها وتعدل من وضع شالها ،وتبدو صارمة الوجه،تزم شفتيها حتى لا تضحك ثم تقتحمها لنطلق زغرودة صغيرة تعود بسرعة بعدها إلى وشوشة سيدتها العروسة..

ومضى بكر يعد من جديد:

– ستون..سبعون..ثمانون..

وتوقف فهزت الفتاة رأسها من جديد فاستأنف بكر:–تسعون– جنيه!

وهنا تنحتا عن الطريق،وهما تطلقان زغرودة حلوة ،فانطلقنا بموكبنا ،وقد رفع اش الله من صوت نقراته على الدف،وتعجل بلحن أغنيته فأصبحت هادرة كالموج، ثم توقفنا على رأس مندوهة.. وصلى بكر ركعتين ،ثم وقف على بعد خطوة واحدة منها ،ومد يده بين تهليلنا إلي ذؤابة مرتفعة من شعرها ومسها وهو يقول:

– أنت زوجتي الآن ..مبروك!..زوجتي علي سنة الله ورسوله!.

فلمعت أسنانها الدقيقة من تحت الطرحة السوداء بابتسامة بيضاء ألا إنها أطرقت بسرعة في حياء ،دون أن تنبس بكلمة واحدة ،بينما صديقاتها يتغامزن ويشرن اليها من طرف خفي..من وراء ظهر العريس:

– اياك..اياك.

وأشرن بالسبابة إلى الشفاه،في هسهسة فهمتها مندوهة ،فزمت شفتيها تكتم ضحكة،واشاحت بوجهها بينما بكر يحاول أن يظهر بمظهر الرجال ويهدر كما يهدرون:

– تكلمي..أين طاجن الحمام؟!

وانبرت خادمتها تهمس في إذن العريس:

– الأميرة تطلب المعلوم!.

فصاح بكر:

– لامعلوم ولا حاجة.اخرسي انت!.

وانتزع كرباجه الطويل،وفرّقع به فوق رأس العروسة،يكاد يلسعها لكنها تفادته بحركة خفيفة إلى الخلف، مطلقة آهه خافته، لتزم شفتيها وتطرق من جديد.

ومضى بكر يحاول، وهى لاتبالى، حتى فقد صبره، فأمسك بمعصمها ورفعها اليه.يريد أن يضمها إلي صدره،فتمنعت فى دلال و،بينما لداتها يشجعنها باشارات وتلميحات وكلمات خافتة،وخادمتها تتدخل بينه وبينها..

وأذعن بكر ومد يده إلى جيبه،ودفع إلى يد الخادمة بالمعلوم.

- خذى..عشرة.. عشرين.. خمسين.

ثم قبض يده وقال فى توسل:-

- تكلمى ياابنة الأكابر..تكلمى..

فهزت الفتاة رأسها ، ولوت الخادمة شفيتها تستشوى المعلوم،

فأسقط فى يد بكر،ومضى يهتف من جديد:

- ستون..ثمانون..مائه..كفى!.

وهنا هتفت بخيتة:

- كفى يامندوهه..

فافتر ثغر العروسة عن ابتسامة ثم قالت وهى تشير إلى زوجها:

- وماذا تريد؟..الطاجن. ؟ هناك..

ثم أومأت إلى الخادمة في دلال:

- هاتى عشاءه؟..

وارتدت إلى جذع النخلة تستند عليه وهى تروح عن وجهها بفضله الشال،تنتظر الزوج ريثما يفرغ من عشائه ،لكن اش الله انبرى يقول:

- يلا لكاعة..هيا يا بكر أأنت وراء بطنك أم زوجتك؟.

وتدخلت بخيتة تهمس:

- لو كانت شاطرة لما تركته ينصرف عنها إلى الطاجن..

واندفع صالح جلق ليقول:

- ولو كان للمغفل عينان لما تركها..

فالتهب بكر بالحماس واندفع اليها- تعالى.

فهمست وهى تومئ إلى خادمتها-ماذا تريد؟فتفرس بكر فيها وقال:

- الرطب الحلوة من شفتيك..

وتلفت نحونا ووجدنا نشجعه فأردف:

- والدوم الأخضر من صدرك..

فابتسمتوقالت:

- ألا ترى ؟الدنيا نهار،وفى الليل تطيب الرطب والدوم..

فمد يده واختطفها من بين صويحباتها واحتضنها وهى تصرخ وتتمنع.ونقرات الدف تعلو تمتزج بها زغرودة طويلة وأشار الفتى إلينا أن نجلو عن بيتهما السعيد فى الحال،فخطونا إلى الخلف، توارينا بين أشجار النخيل.ومكثنا نتسمع إلي الوشوشة التى تدور بينهما ،ألا أن عيشة التى كانت تتلصص وجدت بكرا يحاول أن يغشى عروسه كما يغشى الرجال نساءهم بينما هى تحاول الإفلات منه فاندفعنا إليه نحثو التراب على رأسه ونحول بينه وبينها..

وتوقفت مندوهة تنفض التراب وتبتسم لتقول:

- فلنزف «حامد» إلي عيشة ..

وصاحت هذه :كلا..ليس اليوم..فقد تأخرنا..

وصاحت مندوهة من جديد:كلا..زفوه إلي أنا..

واتكأت إلى الجذع من جديد،وأنا أتأملها فى غيظ واتمتم:سأنتقم منك يا مجنونة..لقد رضيت ببكر قبلى،وسوف ألسع جلدك بالكرباج.

وانطلقت إلي الشاطىء مع رفاقى ،ثم عدنا في زفة كبيرة على نقرات الدف وترانيم اش الله واجتزنا الممر الضيق بين النخلتين إلى أن توقفنا على رأس مندوهة،فلم أبال بشىء بل اندفعت بيدى إلى ذوابة الشعر وهى تطرق في حياء ،وقبل أن تلمسها يدى مزق الصمت شىء يشبه العويل أخذ يعلو ويعلو،ويملأ الشاطىء،تمتزج به أصوات رجال مبحوحة تسب وتلعن..

وانتزعت العروس نفسها وانطلقت تعدو..وانطلقنا نحن من خلفها،والعويل لا يزال يعلو ويعلو ويرج المكان كله.



والتقت أبصارنا ونحن ما زلنا نعدو بالعمدة يولينا ظهره فوق ربوة مرتفعة.كان هائجا يلوح بيده هنا وهناك، ويصرخ بكل ما يملك من قوة:

- آه يا ولد.. ياابن الكلب..امسكوه ..بلد بهايم..لا شيء يا بركات بيه،.لاتخف ،انت وصحابك..تفضلوا من هنا ،

وأشار إلي مصطبة عالية،تحدق بمجموعة من أشجار النخل،وتلفت يتابع اشارته فلم يجد أحدا ممن يوجه إليهم كلماته المشجعة،وابتأس حين راهم يركضون هنا وهناك يتعثرون بالجداول وينهضون ليركضوا من جديد ولا يبالون بالتراب الذى علق بثيابهم،حتى بركات أفندى أسلم ساقية للريح،وترك قبعته تنزلق وتتمرغ فى الوحل الأسود ،ومضى يقفز من جدول إلى آخر حتى أوفى على الشاطيء وألقى بنفسه إلي الفلوكة الرابضة،وتوارى عن الأنظار فى خن الفلوكة..

والعويل مايزال يعلو،لا يقطعه إلا أصوات سباب ولعنات واهات تنبعث من تحت سحابة كبيرة داكنة تنعقد فوق أشباح،ترتفع الهراوات والنبابيت فى أيديها ،وتهوى فى سرعة على رؤوس أشباح أخرى فتشجها أو تلقى بأصحابها إلى الأرض يهدرون بالأنين ويسفون التراب.

وثمة أذرع ترتفع بالنبابيت تطوح بها فى الهواء فتبعث هسيسا ينقلب إلى صفير ينتهى إلي ارتطام ،وصوت تكسر إذا ما اعترضت طريقها هراوات غليظة ،تمتد افقيه على الرؤوس تحميها لتنقض هى الأخرى وترتطم بجماجم الرؤوس وتهشمها.

ومن كل درب، في كل لحظة ،هرع الي الساحة رجال ونساء، الرجال يندفعون إلي جوف السحابة الداكنة،يطوحون بنبابيتهم ،ويهوون بها على الرؤوس ،ولا يدرى المرء كيف أمكن لكل واحد منهم أن يميز خصومه فى الزحام ،لينهالوا عليهم دون غيرهم ..

أما النساء فاندفعن إلي الأخربات،يطلقن نفس العويل المتصل الطويل،ويتراشفن بالحجارة،والألفاظ الجارحة ألفاظ مثل السياط تلسع الأعراض والأنساب،وأكف مثل المخالب تتشابك بالضفائر فتتجندل على الأرض..

ولم يشعر العمدة في يوم من الأيام بمثل هذه المهانة التى شعر بها فى تلك اللحظات ،فمنذ ساعة كان-هو وبركات بيه- يتحدثان عن الأمن فى القرية.والكلمات لا تزال تطن فى أذنيه: حتى المشادات لا توجد،،ولا جراح .ولا نقطة دم تسيل.أعوذ بالله ..أبنوب الحمام..مجلس الصلح سينعقد الليلة..ثم هاهم أولاد الكلب يلطخون شرفه! ويصفعونه أمام الأغراب!.الحق على أنا..لم أكن حازما معهم مثلما كان أبى ولا يجدى معهم إلا الكرباج والفلكة،ومندرة السلحليك المظلمة،لا بد من الحزم مع عبد الله الجزار بالذات.أنزل عن هذه الربوة التى أقف عليها:وأدخل في هذه الدوامة بنفسى لأجرجر الجزار وفضل وأقيدهما بنفسى؟!

تأخر الغفر..هاهم يركضون وينعطفون ،ومن خلفهم العسكرى يخب فى التراب بحذائه الثقيل.ويتعثر فى جلبابه .ابن الكلب كان يغط فى نومه ثم أيقظوه ..لكاعة لماذا لا يأتون بسرعة ؟ لقد وقع الطربوش اتركه يابن الإيه واسرع..

ثم التفت فجأة إلى الساحة ،وعويل النساء ما يزال يخترق أذنيه ،ويتغلغل في كل ذرة من أعصابه ورأي السحابة تزداد كثافة واتساعا ،ولمح النبابيت تعلو وتهوى.واستمع الي كلمات

السباب ،ثم صاح فجأة:
- ملعون أبوك يا حموى.أمسكوه!
وأشار إلى أول غفير وصل إلى المكان:
- آه ياابن «سبيلة»ادخل وامسك حموى ..كتفه..اسرع يا ولد..ماذا تنتظر..،تعال ..مطرحى أدخل وهات حموى واكسر ضلوعه.

وقبل أن ينهى أوامره اندفع إلي الدوامة من الناحية الأخرى شاب طويل نعرفه نحن الأطفال جميعا ولانميل إليه: البسطاوى زعيم أطفال نجع السواردة،وفى يده نبوت طويل..وسرعان ما سمعنا تكسره،وارنطامه فوق الرؤوس ..ولا ندرى لماذا عدل العفريت عن الرؤوس فانحنى ،وأخذ يهش بالنبوت على سيقان الرجال ،يدور به مثل المجنون يضرب هنا وهناك دون رحمة ،ومن خلفه صوت عبد الله الجزار يهتف:
- عفارم يا ولد،،عفارم ياابن الاخت..برافو!.

ثم أطلق آهة ،هرع اليه بعدها حموى «البطاح» فهكذا اعتاد الناس أن يلقبوه،ليسنده ويطمئن عليه،ثم انطلق بهراوته يضرب هنا وهناك دون رحمة والدوامة تزداد اتساعا ،والغبار يزداد دكنة وظلاما ،فالخفر والعساكر الذين طفقوا ينفخون في صفاراتهم دون أنْ يفعلوا شيئا ،كانوا قد دخلوا الدوامة..وراحوا يدورون بين المتنازعين، يحاولون الإمساك بأحد، ويفلتونه فجأة حين يشعرون بأزيز نبوت ينهال على أكتفاهم ومضى العمدة يصرخ فى رجاله وأبناء قبيلته الذين جاءوا يفضون النزاع الناشب..
- امسكوهم ..اقبضوا عليهم جميعا..لا تتركوا واحدا منهم..

ثم استدار إلي الناحة الأخرى،فإن قطعة من الحجر الصلد مرت لصق أذنه اليسرى وأطارت عمته فاحتدم غيظه وراح يسب..
- وأنتن يا..ماذا أفعل بكن يابنات الكلب..
وتفرس فيهن وهو يهدر ..
-وانت يا عحجوزة ياكركوبة..ماذ! تفعلين يا مجنونة أنت يا فضيلة..
ثم دوت صرخة عالية من الدوامة انطرح بعدها الشيخ فضل على الأرض يمسك بساقه ويتأوه:
- كسرتنى يا ابن الكلب.الهى يكسر قلبك يا بسطاوى.
وفى هذه اللحظة أطلق صالح جلق صرخة:
- برعى برعى!..

فقد اندفع هذا الأخير إلى الدوامة ،فى نفس اللحظة التى كان فيها العساكر يجرجرون خاله إلي الربوة،ومضى يصول بنبوته ويفسح طريقه بضربات طائشة هنا وهناك،حتى دنا من

البسطاوى ودهمه من الخلف،وأمسك به من رقبته وطرحه أرضا ،ثم برك عليه ومد يده إلى عنقه يخنقه ،ففتح البسطاوى فمه،وهنا كف برعى عن ضربه،ودفع بيده اليسرى حفنات من التراب إلى فم الآخر الذي أخذ يصرخ ،- برعى ياابن البهيم.سأقتلك ،.لو كنت «جدع» اتركني ..

ورنت ضحكة في صفوفنا نحن الأطفال..فقد أحسسنا براحة عميقة ونحن نرقب برعى زعيم نجعنا يجندل البسطاوى ويحشو فمه بالتراب..لم نكن قد نسينا مشادته معنا.ولا تربصه بنا عند كل منعطف،ولا سرقة شراكنا،وها هو برعى يجثم على صدره..ويحشو فمه بالتراب:

وتحمس اش الله وهتف:

- أيوه ..البسطاوى سيقتل برعى! الخيبان يهدد،،هاهاها..أرفعوه من فوقى وسوف أقتله !هيا نرفعه يا بكر!..

وضحك بكر ،وقفز ينكت رأسه فى التراب ويرفس بقدميه فى الهواء،ومضينا نضحك بينما الكبار يتأوهون .ثم انطفأت الضحكات في الحلوق فقد أهوى أحد العساكر بهراوة على رأس برعى ألقته على الأرض ،فأخذ يجرجره إلى الربوة حتى طرحه إلي جانب خاله الشيخ فضل!..

وأصابنا الفزع ،ولا أدرى ما الذى دفع بكرا وحفزه ؟ربما الضربة التى تلقاها برعى هى التى دفعته إلي الإنقضاض على «مبروك» أحد صغار «السواردة» نجع البسطاوى يضربه ويخربش وجهه..

ودون أن نعى تجمع الصغار من كل مكان وتشابكوا يتضاربون بالأيدى وبجريد النخل.

ظللنا نتضارب ونحشو بعضنا بالتراب..ثم توقفنا فجأة لنجد العمدة قد بارح مكانه،والخفر يحملون الشيخ فضل ،على أكتافهم ويوثقون يد حموى وبرعى والبسطاوى..ويسوقونهم لينعطفوا بهم فى السكة السلطانية إلي بيت العمدة،فتوقفنا عن التضارب..وخطونا بسرعة إلي السكة نتعقبهم وهنالك عند المنعطف وقفت شريفة منكسة الرأس.ترمق برعى في حنان والعساكر يسوقونه مكبل اليدين أصفر الوجه وازدادت حيرتها حين رأت البسطاوى ،ولمع فى عينيها بريق غضب واحتقار اخفتهما بسرعة ،فإنه من أبناء عائلتها وإن كانت تكرهه..

وقفت تشيعهم جميعا حتى ابتعدوا .فانخرطت فى البكاء لحظة استدارت بعدها وبارحت المكان،تتعثر في جلبابها الطويل.

ومن خلف جذوع النخيل،ومن خن الفلوكة انبثق بركات افندى وبقية الموظفين ،ينفضون التراب عن ستراتهم ويمسحون العرق المتصبب على جباههم..

وتنجينا لهم عن الطريق ،لكنهم توقفوا على رأسه حائرين لايدرون إلي أين يتجهون ،وزاد الصمت بينهم لحظة وهم يتأملون ميدان المعركة ثم تمتم بركات أفندى:

- شريحة أرض صغيرة ثم..

وانبرى بديع أفندى يقول..

- لا شيء غير قوة من الجيش ،،لا بد من ضباط وعساكر.. والمصيبة أن علينا تسجيل آلاف أشجار النخيل ،داهيتنا سوداء ،لن ننتهى من عملنا إلا بعد سنوات..

وتقدم عزوز أفندى ،الموظف الصغير من بركات أفندى وغمغم

- والمستر هيس سيعود ويسود عيشتنا..متى نعود من هذا المنفى ؟..

فهز الآخر رأسه وهمس:

- كل نخلة يعقبها نزاع،كل قيراط ،الغريب أن العمدة منذ ساعة فقط كان يحدثنى عن الهدوء الذى يشمل قريته..

صاح عزوز أفندي فى طيش

- ثور الله في برسيمه ،،ومن أدراه ..ثور وحكموه في بلد!..

ووجه بركات أفندى نظرة صارمة إلي عزوز أفندى وأمره :

- إياك أن تردد مثل هذه الكلمات ..فإنهم يسمعونك.. وأشار إلينا نحن الذين توقفنا نراقبهم.ألا أن عزوز أفندى لم يبال بنا بل أطلق ضحكة ساخرة وراح يقول:

- أتحسبهم يفهمون؟..

وطاف على وجوهنا بنظراته، ثم أشار إلى بكر:

- انت ياولد.. أتفهم؟.. أنت حمار

واستدار إلى بركات ؟أفندى وقال وهو يشير إلينا من جديد:

- أرأيت ؟إنهم لا يفهومون شيئا ..حيوانات لا تعرف غير..

ودار علي عقبيه ليواجه صحابه ضاحكا ،وفى هذه اللحظة ارتفعت يد بكر،وانطلقت منها حجرة صغيرة أصابت مؤخرة رأس الأفندى فتأوه بينما أطلق بكر ساقيه للريح..

* * *

واعتدنا في هذه الأيام أن ننفلت من الكتاب عند الظهر ونجرى سراعا إلي بيت العمدة فى النجع الشمالى ،لنتجمع أمام دهليز السلحليك وننادى:

- برعى ..برعى يا دولحظ..

فيرتفع صوته من خلف الجدران غليظا خشنا:

- أيوه يا حامد.وأين بكر وصالح؟

- هنا..

ثم نشب على أقدامنا ونروى له أخبار النجع..
وفى اليوم قبل الأخير سألنا برعى من خلف الجدران:
- وساق الشيخ فضل..
فقلنا له بعد صمت:
- بخير ..يتوكأ على عكاز ويزك بقدمه الشيخ محمود الحلاق يؤكد إنها ستشفى عما قريب..

وهنا ارتفع صوت حموى والبسطاوى:
- والجزار.هل أصابه شىء؟!
فأجاب بكر:
-لا يابرعى..

وساد الصمت لحظة ريثما انعطف شيخ الخفر عند الركن الشمالى ثم ارتفع من خلفنا صوت يقول:
- ستخرجون باكر يا حموى ..برعى كيف حالك ياولدى..
وعرفه برعى من صوته فصاح:
- الحمد لله ظيبون يا عم« حاكم»..

حاكم الاسكافى هو الذى كان قد تسلل من خلفنا ليفضى بهذه الأخبار إلى الذين عاشوا في السلحليك منذ أيام سبعة طويلة:
- لقد تم الصلح،وقبل الجزار رأس الشيخ فضل بحكم المجلس
فسأل حموى ..
- والأرض..
- أجل بركات أفندى تسجيلها ،إلي أن يسأل رؤساءه.الشيخ فضل هو الذى أرسلنى لك يابرعى بعد أن سمعنا إنكم تتشاجرون هنا مثل الأطفال الصغار..

وبان الخجل فى صوت برعى ،وتذكر ليلة الأمس ،حين حاول أن ينشب أظافره فى عين البسطاوى لولا حموى الذى حال بينهما ..آه لو تمكن من ابن الكلب ..آه لو رأيته يا حاكم وهو يتكئ على كوعه ويرتفع برأسه ثم يسأل تماما كما يسأل الرجال:
- عم حموى، أصحيح ياعم حموي؟
ويسكت ليلقى نظرة علي برعي ثم يردف:
- أصحيح أننا أخوة فى الرضاع.. شريفة وأنا؟..

وحار حموى ثم قال:
- لا ياولدي... من الذى أدخل هذا فى مخك؟
- يقولون!
- لاتصدق.. أنت ولدت في مصر!. وولدت هى هنا!..
فأطلق البسطاوى ضحكة وقال:
- اذن، يمكن أن أتزوجها. كادت المسكينة تقتل نفسها حين رأتني أساق... أما غيري.. أما أنت فان أحدا لم يسأل عنك غير زوجتك.

وأدرك برعي أن البسطاوي يعرض به، فهب من مكانه وأمسك به وهو يهدر : أخرس ياكلب.
ثم مد قدمه وضرب بها فى ساق الاخر، وانكفأ علي الارض وراح حموي يصرخ ويستنجد بالخفر، فدفع الباب ودخلوا وفرقوا بينهما وساقوهما الي العمدة الذي مدهما في الفلكة، وأوسعهما ضربا وهو يلعن خاشهما.

***

وعاد برعي يدب في طرقات النجع، متوتر الاعصاب، يتحرش بالبسطاوي، ويثور كلما رأي خاله يزك علي قدمه ، ويعكف على العرقي، «يطفح» منه ولايبالي بتهديدات أبيه العجوز.
ومرت أيام ، دون أن يفكر برعي في زيارة داريا سكينة وشريفة. لعله غضب من حديث البسطاوي وتعريضه به وبها، لعله فكر طويلا في صلة القرابة التي تربطها بعائلة البسطاوي، ولعل الهواجس ملأت قلبه من ناحية حسن المصري..

كل ذلك كان يحول بينه وبين زيارتهما، الا أن رغبة عارمة في رؤيتها اجتاحت قلبه في أحد الايام، وهو يلقي بكومة من الدريس علي سطح بيته، فقد تذكر في هذه اللحظة كلمات شريفة:
ولماذا لا تأتي أنت أيضا؟... أمى تقول أن سقف البيت.. وامام عينيه في الفناء كان جذع طويل ممددا. فلماذا لا يحمله الي بيتها، والفرصة مواتية.. فقد رأى من مكمنة فوق سطح البيت داريا سكينة تترك بيتها منذ لحظة ولن يجد هناك غير شريفة، الا اذا كانت بطة شقيقة حامد هناك فهي صاحبتها بالروح ولاتفترقان.

ووجد نفسه يهبط من السقف الي الفناء، ويحمل الجذع . ويتسلل به مارا بأعمدة التليفون، ثم يدق بقبضته على الباب، ويدفعه بقدمه ويدخل، ويلقي بالجذع علي الارض ثم يهتف:
- دستور يا أهل البيت...احم...
ومن الدهليز برزت شريفة، حاسرة الرأس منبجعة الصدر حتي كاد جلبابها يتمزق عن الصدر...

حارت قليلا لكنها تمالكت نفسها، وقالت
- اهلا .. حمد الله علي السلامة..
وبان في صوتها رنة عتاب فانتهز الفرصة وقال..
- هاتي السلم، ودعيني أصلح السقف.

وراها تستدبره، وضفيرتاها تهتزان علي عنقها وظهرها، ثم تقبل وهي تجرجر السلم الطويل على الارض لامعة لعينين، منفرجة الشفتين عن ابتسامة واهنة..

وتذكر السحر الجميل واستنادها الي جذع النخلة هناك. والفانوس المنطرح عند جذع آخر. تذكرها ناضجة، رخصة القوام مثل الرطب، وشاقته الابتسامة الحلوة التى رفت على شفتيها واستدارة ردفيها وتكور صدرها، ثم التهبت حواسه فجأة، فألقي بالسلم جانبا وأمسك بمعصمها بقسوة وهو يتمتم:
شريفة.
- هيه!
قالتها وهي تتنهد وكأنها تغنى:
- أعدت الي فعالك مرة أخري.. ماذا تريد؟
وتفرس الفتى فى وجهها وقال:
- شريفة.. ألم أقل لك...
وصمت ريثما يبتلع ريقه ثم أردف:
- حسن المصرى؟

وبانت الدهشة فى عين الفتاة، وأحست بالكلمات الغاضبة تصرخ في جوفها: مالك تسأل عنه؟.. ولماذا تأمرني؟ لست أختك. وراحت تنظر الى الارض وقدمها تغوص في الرمل:
وتأملها الفتى مليا ثم غمغم:
- لاتزعلي، فأنا زوجك... أقصد... سأكون زوجك! أم أنك تريدين البسطاوى؟
فأسرعت تقول دون وعى منها:
- البسطاوى؟.. لا أريد البسطاوي.. أنا لا أطيقه..
- واستدركت - ولاغيره!
وأضافت بعد صمت:
- لكنه من أقاربي

وهمست لنفسها- ما من رجل قال لفتاة،سأتزوجك..إنهم يفكرون فى الزواج ثم يقررون، ولا يقربون الفتاة، بل يتقدمون إلى أهلها ويستعدون للزفاف، أما هى فقد تكتفى بفنجان شاى

بالنعناع تقدمه ثم تنزوى عن عينيه، وها هو برعى يفاتحها فى الزواج، مجنون! لو كان جمال هنا لما تجرأ، ولكن مالك تتلكئين؟!.. لماذا لاتقولين له..لأ..لماذا تتركينه فى حيرة؟..ربما كنت تميلين اليه؟؟..كلا..

ثم حانت منها التفاته عابرة إلى وجهه، فأحسست بنفس الشيء الذى أحست به وهى تواجه حسن المصرى بين عيدان الذرة، ثم واصلت تفكيرها، وقد قفزت صورة هذا الرجل أمام عينيها، وربما أحست بخدر غريب يدب فى كيانها، ويلتهب عند فخذها، فى الموضع الذى فركه حسن المصرى منذ شهور هنالك بين عيدان الذرة..آه من تلك القبضة.. إنها ماتزال تنز من جسدى مثل الجرح، ثم ينتقل إلى القلب فى ألم استعذبه وأحبه!.

وغامت عيناها وهى تفكر، وأهوت بيدها على فخذها تتحسسه وتهدىء من روعه، وظلت منحنية فى صمت تستند إلى السلم بيد وتدلك فخذها باليد الأخرى، ثم أفاقت على صوته:

- شريفة..مابك؟ أمريضة أنت؟!

فأسرعت تقول متلعثمة:

- لا شىء..لا أعرف ، لاريد أن أتزوج.

ثم ارتفعت برأسها وشدت من قامتها واندفعت برأسها إلى الخلف تحاول أن تبعد وجهها عن مرمى أنظاره، فبرز نهداها، وبدت جميلة تنغرز فى قلبه بآلاف الصور البديعة، فلمعت عيناه ببريق غريب، أدركت كنهه: نفس البريق الذى رأته فى عين حسن المصرى.. أدركت كنهه فتراجعت خطوة إلى الوراء وانعطفت بوجهها تريد أن تستدير وتتركه إلى الدهليز الداخلى، إلا أنه اندلق عليها فجأة، وجذبها من منكبها وضمها إلى صدره بقوة، فأحست بأنفاسه تلفح وجهها، وبرائحة العرقى تفوح من فمه، وأفاقت على صوتها يصرخ صرخة ممطوطة ارتبكت لها.

وازدادت حيرتها وارتباكها حين فتح الباب الخارجى فى هذه اللحظة وأطلت من فتحته «داريا سكينة» بوجهها المستدير الأسمر ومن خلفها عم نوح. كانا عائدين بعد تسوية حساب بينهما فى المتجر منذ قطع البلح.

وبدت الحيرة والاضطراب واضحين فى عين برعى، ودون أن تدرى كيف واتتها الفكرة راحت تبحث عن أكذوبة تعلل بها صرختها الطويلة وقد وجدتها عند برعى فتبرعت بها..وجدته يشير إلى السلم، منحنيا على ساقه يفركها ويتأوه، فاندفعت تقول بسرعة وفى ألم..

أمى..عجلى..وقع المسكين من السلم.

يالله..إنها تحبنى وتريدنى. وإلا فلماذا تكذب؟ أم أنها تخشى الفضيحة أن تنكشف أمام

رغم ذلك فقد وجد نفسه سعيدا، ومضى يمثل دور إنسان كسرت ساقه، فتأوه كما يتأوه خاله، حين أخذت أنامل نوح تدلكها بعناية فائقة، وراحت الفتاة وأمها تجريان بين الغرف، تعدان ماء فاترا وزيتا سخنتاه، تدهنان به ساقه.

ومكث برعى ساعة أو تزيد هنالك حتى شرب شاى العصر ثم نهض واتكأ على عصا، وبارح البيت يزك على ساقه اليمنى، ثم ألقى بعكازته، وأسرع إلى بيته وهو يطلق قهقهة عالية سمعتها وأنا أمام المتجر.

١٥

أخذت أطوح بالكيس فوق رأسي ، وأصفر وأنا أراقب الطريق ، علّ واحدا منهم يشق الدرب الخالي بقامته الى أن يأتي الآخرون .

تأخروا . وها هي الشمس تتخطى الظهر ، وتخطو بإشعاعاتها إلى الأصيل دون أن يبدو واحد منهم ، حتى برعي الذي انقطع عن الكتاب منذ شهور ، وعد بمصاحبتنا في رحلتنا الشهرية المعهودة الى قمة عالية في الجبل ، تماما خلف الصخرة المعلقة على كتف الجبل ، خلف مئذنة الجامع ، ففي مغارة صغيرة هناك منجم جير نقتطع منه بالبلطة قطعا بيضاء نطلي بها «ألواحنا» قبل أن نخط عليها بالحبر آيات القرآن !..

وفي المغارة ، وبالذات منذ الأصيل ، ترف الخفافيش بأجنحتها وتكاد تلطم وجوهنا ، ولقد أخذ برعي يهتم باصطياد هذه الخفافيش يدقها مسحوقا أسمر وهو يتمتم بكلمات مبهمة عن شريفة !

ومرت لحظات طويلة سئمت الانتظار ، فأطلقت من جديد عواء الذئب أقلد برعي وأش الله ، كررته مرة بعد أخرى دون أن يستجيب أحد لندائي ، فاستندت الى جدار البيت أفكر في الازهر والشيخ الرحماني وبركات افندي وقلمه العجيب ، فقد رأيت هذا الافندي مرة يجوس بين أشجار النخيل ، يتأبط دفترا طويلا يتوقف به عند كل نخلة يسأل عن صاحبها ثم يخرج قلمه الاسود اللامع ، ويرفع عنه الغطاء ويشير بسنه الى الصفحة ، فيظل يكتب ويكتب دون عناء ، دون أن يغمس طرفه في المحبرة كما نفعل نحن ، في الكتاب ، بأقلام البوص .

قلم عجيب ! لا يحتاج الى حبر ! ولا يتوقف عن الكتابة أبدا حتى أصبح حديث كل أطفال النجع ، كنت أول انسان عرف سره الغريب ومن أين يتسلل الحبر الي سنه ؟ فأخذت أحكي لهم عنه في كل يوم وأزعم أن خالي عثمان سيرسل لي قلما مثله من مصر في يوم من الأيام حرصت ألا أحدده ، ولم أفض لأحد كيف عرفت سر القلم العجيب إلا بكر فإنه تحداني مرة ، وهو يسخر مني :

– أنت تكذب .. أنت لا تعرف شيئا عن قلم بركات افندي

وملأني الغيظ فقلت :

– أنت ألف كذاب .. عبده الفرنساوي هو الذي قال لي .

– عبده الفرنساوي ؟ .. وماذا قال لك ؟ وهل يعرف ؟ وتريثت لكي أثير انتباهه وتشوقه ورحت أحكي :

– في القلم مكان للحبر.. بداخله دواية .. والرجل يملأ هذه الدواية كل يوم في الصباح .

وتفرست في وجهه ثم أضفت ..

– وأنا أعرف اسم القلم أيضا .

– لا يا شيخ .. وحياة أبوك .

– وحياة أبويا اسمه أبو نوس «قلم أبو نوس» تعال نصنع قلم أبنوس شبيها له !

وانكببنا على أعواد البوص الجافة نفرغ جوفها ونبريها ونملؤها بالحبر ثم نحاول الكتابة .. ولم نعدل في نهاية الأمر إلا منذ عرفنا أن البوص يتشبع أو يندفع بالحبر مرة واحدة على ملابسنا ،

وكراريسنا .

منذ ذلك التاريخ والقلم «الأبونوس» لا يبارح مخيلتى ، كنت أفكر فيه وأنا آكل ، واهتم به وأنا نائم ، والح على أبى أن يشترى لى قلم أبنوس فاضطر وكتب لخالى عثمان يطلب منه أن يرسله فى طرد هدية لى فعشت أترقب وصول الباخرة والطرود فى كل أسبوع الى أن سئمت .. الا أن صورة هذا القلم ظلت تنبثق أمام عينى كلما خلوت لنفسى ولهوت مع أترابى .

ولا أدرى لماذا عاودنى التفكير فى تلك اللحظة فى تلميذ المدرسة مصطفى ؟ » .. ربما دفعنى الى تذكرة ادعاؤه مرة أنه يملك مثل هذا القلم فى المدرسة ، تخيلته يمسك به ، ويدفعه الى الكتابة دون توقف ، ثم يحكم غطاه ويعيده الى جيبه الصغير ، مزهوا بنفسه كأنه ابن العمدة ، ودون أن أدرى سمعتنى أقول :

- أبوك - انعل أبوك -- لأبو أبوك !

فعجبت لكلماتى غير أننى تناسيتها بسرعة ، ومضيت أشب على قدمى ، وشرئب بعنقى ، افتش فى الطريق ..

ومن بعيد ، لمحت «أش الله وبكر» يتأبطان كيسين ويدبان على أرض الطريق ، ومن خلفهما برعى ، يدفعهما دفعا وكأنهما معزتان صغيرتان جافلتان .

اقتربوا وهم يتلاحقون فى أصوات عالية برعى : بلا لكاعة .

بكر : تأخرنا ولا فائدة اليوم من تسلق الجبل ...

والتفت الى أوش الله يطلب تأكيدا لكلامه الا ان برعى لم يترك الفرصة لأحد بل قال : - حامد ليس فى كيس كتبه قطعة واحدة من الجير .

فهززت رأسى أؤمن على كلماته ، فاندفع بكر يقول :

- سأهديه أنا قطعة ..

وأسقط هنا فى يد برعى فصاح فى ملل وغيظ :

- والخفاش .. أنا أريد خفاشا الليلة .. ويتبرع أوش الله يقول :

- فى هذه الخرابة خفاش يطير فى كل مغرب .

- أين !؟

- هنا ..

وأشار الى الخرابة الملاصقة لبيت درايا سكينة فانطلقنا جميعا بأبصارنا اليها وأوش الله لا يزال يشرح .

كان واضحا أننى وأوش الله وبكر وصالح جلق نخشى تسلق الجبل فى الأصيل، فسوف تغيب الشمس وتظلم الدنيا..ونحن على قمة الجبل أو عند سفحه. وقد نضل طريقنا..أو تصادفنا الضباع والذئاب التى يقشعر بدنى حين أذكرها!.

وأرد برعى أن يكذب أوش الله ويدفعنا دفعا إلى الجبل إلا أن شيئا بدا فى بداية الطريق جعلنا نتوقف ونطيل التحديق..

كان مصطفى «تلميذ المدرسة» بشعره الناعم المرجل. وطاقيته التى تنزلق إلى الخلف وجلبابه

البوبلين ذى الياقه يقبل علينا، وقد أرخى لجام حماره الأبيض الفاره والذى أسدل مصطفى على سرجه فروا طويلا بنى اللون يتدلىّ على جانبيه..

لقد تبدل مصطفى وأصبح إنسانا آخر غير الفتى الذى اعتدنا تمريغه فى التراب حين مشاداتنا مع أطفال «السواردة»..تبدل منذ أن ترك الكتاب وهجر القرية..وعبر المنحنى الشمالى إلى الدر..والتحق بالمدرسة الابتدائية هناك..تبدلت ثيابه وعاداته، فلم يعد يجرى مثلنا فى الطرقات..لم يعد يلعب فى النيّل.. ولم يعد يشاركنا التهام قصاع الفتة فى «المياتم» بعد طقوس المرحمة.. لم نعد نراه إلا يوم الخميس فى العصر أو يوم الجمعة اللذين يقضيهما أمام متجر أبيه، متكأ على دكة طويلة يتصفح كتابا أو مجلة مصورة. وتبدل موقف الناس منه منذ أن أصبح حديثهم: الأفندى جاء، والأفندى راح..الأفندى نام.. الأفندى فى الحمام..مشغول فى استذكار دروسه! هذا الولد المفعوّص الذى اعتدنا حشو فمه بالتراب أصبح مثل بركات افندى، حديث القرية، فالصغار يحسدونه أو يهزءون به. والكبار يتندرون بأقواله وأفكاره الغريبة.. فالأرض كروية.. هذه الأرض التى ترتفع البيوت والجبال فوقها تدور دون أن تقع! وهى كروية مثل الدوم أو البيضة..يالله!! العفاريت والجن لاوجود لهم..والشمس حين تغيب لاتنام.. بل تصحو فى مكان آخر..والقمر ساهر إلى الأبد!!

ولم يعد هو يبالى بنا ولا بالكتاب وشيخه. بل تناسانا جميعا منذ أن رحل.. وها هو يقترب، وفي صدورنا شعور غريب بالتحدى والتطلع إلى مساجلته وهزيمته..ومعرفة كل شئ عن مدرسته..فلماذا لانلاقيه فى هذه اللحظة؟ لماذا لانعترض طريقه ونشبع فضولنا الدائب الذي لايمل؟.. نفس الفضول الذى يتحرك فى صدرى وفى صدور كل الصغار.

فى هذه اللحظة ماتت رغبة برعى في تسلق الجبل..واطمأن بكر وأوش الله وتغلبت أنا على ترددى..وقررنا- وكأننا لم نتشاجر منذ لحظة- أن نهجر رحلتنا وأن نبقى لحظات مع صديقنا القديم..

فانتصبنا فى عرض الطريق نسد عليه السبيل.

أخذ يدنو حتى توقف فجأة، يقلب الطرف في وجوهنا..وفى عينيه خوف بالغ تبدي فى اتساعهما وفى رعشة يده باللجام..ثم حاول أن يفلت منا إلا أن برعى أمسك باللجام وهو يتحول: علام العجلة يامصطفى؟.. تفضل، فارتبك الغلام وتلعثم:

- ماذا تريدون ..معى جوابات من البوستة.

وقلت له، وعيناى تنزلقان على هندامه وعلى جيبه الصغير:

- كيف حالك يامصطفى..لماذا لانراك؟.

وقبل أن يجيب انبرى بكر يهتف، وهو يرمق السرج والفزو.

- ولاحمار الملك.. انزل حتى نمتحنك لنرى أينا أجدع..أنت أم نحن؟..

فتلفت الفتى من حوله ولم يجد مناصا...فترك السرج وقفز إلى الأرض.. ثم تخير مكانا نظيفا جلس عليه وهو يرمقنا بنظرات حائرة، بينما استدرنا به خشية أن يفلت منا، وران الصمت وبرعى يحدجه، وأنا أتلصص على جيبه الصغير فوق صدره، وفى الجيب الآخر حتى أخذته الهيبة

فسأل.

- ماتريد؟ ليست معى أية حلوى...فتلعثمت وأطرقت برأسي أدارى خجلى وابتلع ريقى..

ثم قلت هامسا:

- لاأريد حلوى..متى كنت اخذ منك؟.

ورفعت عينى إلي وجهه أسأل:

- أين القلم الأبنوس!؟.. إنما أبحث عنه..

- أبنوس..آه.. فى المدرسة..فى «الدر».

فأطلق برعى ضحكة ثم صاح..

- كذب..ليس عندك قلم أبنوس..

- أنا كذاب..طب والله العظيم. أنا عندى قلم..

- أبنوس؟.

- أيوه ..أبنوس.

- أسود مثل أبنوس بركات أفندى؟.

- أكثر سوادا منه!.

ثم تقدمت نحوه أرجوه:

- *وحياتك يامصطفى..دعنى أراه يوم الجمعة .. أريد أن أراه*

فرمقنى وهم يبتسم فى ارتباك وقال.

- لا..لا.. أنا لاأحمله معى أبدا.

- ولماذا لاتأتى به لنراه يا..

وقبل أن أنهى كلماتى انتهرنى برعى بينما انطلق بكر يقول:

- كيف وجدتِ الدر يامصطفى..أهى أحسن من بلدتنا؟.

- ألف مرة.

فاحتد برعى: اخرس..بلدنا اجدع بلد فى الدنيا..ناسها أجدع ناس..

ثم طامن من صوته وهو يقول: وكتاب الشيخ طه أجدع من مدرسة الدر!

فتأمل الغلام وجوهنا وكأنه يسخر منا نحن البلهاء..ثم مضى يتكلم عن مدرسته التى تفضل الكتاب عشر مائة مرة..ألف مرة

- فهناك لانفترش التراب ونكتب عليه..

- وعلام تكتبون إذن؟. وأين تجلسون؟ إننا لانصدق..

سؤالان انطلق بهما بكر وأوش الله، أجاب عليهما الغلام فى هدوء: نكتبُ على التختة بالطباشير، وفى الكراريس بريشات معدنية جميلة.

وماهى التختة يامصطفى، والطباشير؟.. فمضى يشرح ونحن من حوله ذاهلون..وهناك لايمد التلاميذ فى الفلكة..ولايأكلون اليخنى الذى ينفخ البطون بل يأكلون الصلصة والعنب.

وسأله برعى: ألا يضربكم أحد بالكرباج؟.

اذا أخطأنا يفرك الشيخ مرسى آذاننا بأصبعه.. ويضربنا مكى أفندى بالمسطرة على أطراف أصابعنا..وكذلك المصرى أفندى..

فقهقه برعى وصرخ فى نشوة:

-هنا ضرب.. وهناك ضرب..كتابنا أجدع..

- ولكننا نتعلم هناك الجغرافيا والتاريخ والحساب والانجليزى!

ومضى يلوى لسانه، ويلوك الفاظا غريبة كتلك التى لاكها عبده الفرنساوى..والمستر هيس فى تلك الظهيرة بين أشجار النخيل.. ثم سكت ليتأمل دهشتنا، وعلى وجهه إمارات النصر.. كان يرمقنا وكأنه يقول: ألم أقل لكم: المدرسة أفضل من الكتاب عشر مائة مرة.

إلا أن برعى تحداه وصرخ فى وجهه:

- وماذا يهمنا نحن.. لماذا نتعلم الانجليزى..كلام نصرانى؟ثم أردف بعد صمت:

- وعلى كل فإننا نعرف الكلام النصرانى كما تعرفه أنت..

ومضى يلوى لسانه وهو يقول لى:

- خامد..بيس ياخامد..

وقطب جبينه وهو يصرخ فى بكر:

- قلت لك «نو»..أما أنت يامصطفى فلست إلا فاشيه ترانتاريه!.

وخجل الغلام ونحن نغرق فى الضحك..وتريث حتى عاد الهدوء.

فقال فى صوت خانق:

- وهل تعرفون الكسور.

فقال برعى بسرعة: الكسور.. هاها.. كيف لانعرف الكسور.

عشم.. الكسور على الله..ها...ها..أهع

وجاء دوره فضحك طويلا ثم استدار وهو يقول:

- أنا أسألكم عن الكسور العشرية.أتعرف ياحامد كيف تكتب ٥ . ٠ ؟

خمسة من عشرة المسألة أبسط مما تظن يامصطفى. أتحسب أننى لا أستطيع كتابتها، أنا الذى كنت أتفوق عليك دائما فى الحساب..

عجايب!..

ومددت يدى وسويت التراب وكتبت خمسة من عشرة»،

- وصحت والباقى خمسة.

فأطلق الفتى ضحكته من جديد وقال.

- الكسور العشرية ! إنك لاتعرفها ، حتى الشيخ طه لايعرفها..

وبسط راحته على التراب وسواه وكتب الرقم بطريقة غريبة أذهلتنا جميعا.. ثم مضى يشرح معنى الكسور العشرية والاعتيادية ثم رسم خطوطا أخذ يضع نقطا فوقها هنا وهناك..

ثم تأمل الرسم لحظة وقال فى نشوة وزهو:

- هذه مصر، وهذه هى أسوان وهنا الدر.

فغفر برعي فاه، وانكببنا على الأرض جميعا نسأله:

- وأين بلدتنا؟.

وأشار الفتى إلى نقطة صغيرة وقال:

- هنا..

وحملقنا بعيوننا وعدنا نسأله: وأين البيوت..وأين الجزيرة والجبل..وأين الكتاب يامصطفى.. والنيل وأشجار النخيل..وقبة الحاج مكاوى..أتحسب أننا نصدقك؟..نقطة صغيرة مثل حبة القرطم نسميها بلدة؟. اتحسب أننا معاتيه يامعتوه؟.

ولم يستطع برعى أن يحتمل..بل بان الشر فى عينيه ..كما تحفز بكر وأوش الله يناوشان الفتى ويسبانه..وهو يحاول أن ينفلت ليتعلق بلجام حماره ويهرب من حصارنا.

أما أنا فقد أحسست بالإشفاق عليه..إذ امتلأ قلبى بحب كبير نحوه. وبإعجاب لاحد له دفعنى إلى التنحى عن طريقه.. وترك الفرصة له.. فانفلت من قبضة برعى الذي انطلق خلفه يريد أن يدفعه عن حماره لولا أن ظهر حسن المصر عند المنعطف عائدا بركوبتنا من البئر القبلية عند نجع المحراب بعد أن سقاها هناك.. فقد أبى حمارنا دائما أن يشرب إلا من مياه الآبار..فاعتاد حسن المصرى أن يسوقه فى كل أصيل إلى ذلك النجع ويعود به يمتطيه دون سرج أو فرو.

وبينما كان مصطفى يبتعد عنا توقفت أنا فى الطريق اعترض طريق حسن المصرى وأنا اهتف به:

- عم حسن..اركبنى!

ولم أكن أدرى لماذا اعتاد حسن المصرى أن يضحك كلما سمعنى أردد هذه الكلمات..كان يضحك ثم يستعيدنى ليعاود الضحك من جديد. إلا أنه كان يردفنى من خلفه في كل مرة ولايتركنى إلا أمام بوابة بيتنا الكبير..

وتوقعت أن يتوقف بحماره ليردفنى خلفه. فإذا به يبتسم فى وجهى قائلا: ليس الآن فعندى مشوار أعود بعده!.

فأخرجت له لسانى وعدوت خلفه أريد اللحاق به إلا أنه ابتعد بسرعة وتركنى ألهث مستندا إلى عمود التليفون.. أراقب الآخرين ينصرفون.. وتنصرف معهم ظلالهم الطويلة التى ألقتها الشمس المائلة إلى الغروب وتختلط بالظلال المديدة لأشجار النخيل وأعمدة التليفون والبيوت ومئذنة الجامع..حتى ظلال العصافير والحمام كانت تبدو هائلة تمتزج بالصور الغريبة التى انبرت تصرخ في جوفى: مصطفى فى الدر وفى المدرسة ولايمد فى الفلكة..ولايجبر علي حفظ القرآن بالكرباج.مصطفى لايكتب على الأرض بأصبعه بل يمسك بريشات معدنية للرقعة وللثلث والنسخ.. أتراهم يفترشون الأرض فى الأزهر؟أذكر أن الشيخ الرحمانى روى لأبى مرة عن شيء مثل هذا فى الأزهر..أتراهم هناك أيضا يمدون فى الفلكة ولماذا لاأذهب إلي المدرسة مثل مصطفى الذى قال لى وهو يتعلق بلجامه:

- أبى كان يكلم أباك ويسأله: لماذا لايذهب حامد إلى المدرسة؟.

فسألته فى لهفة؟.

- وماذا قال أبى؟

- سيبعث بك إلى الأزهر لتعود كما قال أبى مثل الشيخ الرحمانى الذي لايعرف إلا كرشه وأناجر الفتة.

وددت لو بقى ليكمل حديثه معى.. إلا أن برعى وملاحقاته دفعته دفعا.. فاستحث دابته وانطلقت به في اتجاه نجع السواردة..

ومضيت أنا أقفز من ظل شجرة إلى ظل أخرى وأنا غارق فى أفكارى الصغيرة بينما الشمس تردف نفسها خلف التلال الغربية لتزف وتنام فى فراشها الرملى الوثير. كلا ياحامد..إنها لاتنام بل تظل تحلق فى سماء أخرى؟ كيف؟.، عجائب يامصطفى..في المدرسة يمكننى أن أعرف.. هل الشمس تنام فى الليل أم تصحو في مكان آخر؟ وهل الأرض مثل الدوم كما يقول مصطفى.. أم هى مبسوطة مثل سطح البيت..

أمسكت هذه الدوامة بى. وأنا أمشى متثاقل الخطا بعد أن غابت الشمس..ولف المساء كل مكان فى النجع بظلامه الشفاف.

وعند الباب وجدت «بطة» ترتفق كتف الباب وتحدق فى وجهى وهى تقول:

- أين كنت؟.. أبوك عند جدتى..

فقلت لها:

- وأنا مالى..

- مله تمل جنابك..إنه ينتظرك ياقليل الحيا..تعال..وأمسكت بكم جلبابى وأخذت تشدنى وأنا حائر اتساءل : لماذا ينتظرنى أبى.. وارتعشت من الخوف..فقد يكون الشيخ طه قد عاود شكواه منى.. ولعل أبى يريد أن يعاقبنى بلسعات خيزرانته؟.

وددت لو أفلت كمى وانطلقت إلى بيت خالى استجير به.. إلا أننا كنا قد دلفنا إلى الدهليز..ولم تعد هناك إلا فرصة الإفلات إلى الفناء الداخلى..والفرصة متاحة لولابطة التى تشبثت بذراعى لاتريد أن تتركنى..فالمسرجة لاتنير إلا الركن الذى فيه عنجريب جدتى..تلقى بنورها الباهت على وجهها وعلى رأس أبى وعلى أمى التى كانت ماتزال منكفئة فى ركنها مطرقة ترسم خطوطها الأزلية.. كما أن أبي كان منهمكا فى حديث طويل مع جدتى..فلم ينتبها لدخولنا ولا لوشوشاتى وأنا أعاند بطة وهى تعاندنى وتشدنى من ذراعى إليهما..

وفجأة استعطت أن أتخلص منها وانطلق لأعبر الدهليز..وأختبىء خلف الصوامع هنالك فى الفناء إلا أننى ارتطمت بصفيحة فارغة عند الباب الداخلى فرفع أبى رأسه وصرخ::

- حامد ..تعال هنا ياحامد!

فأسقط فى يدى..ودفعت بطة فى صدرها بشدة فراحت تشهق وتشكو بينما مضيت أنا متثاقل الخطا إلى أبى أنحنى على يده فأقبلها فجذبنى إليه وهو يقول:

- أين كنت؟ برعى سيفسدك علينا..

وأردف بعد صمت:

- الشيخ طه يشكو منك... لم تعد تحفظ شيئا..بل تنسى كل شيء حفظته..

وخيل لى أنه سيطرحنى أرضا.. وينهال على بخيزرانته إلا أنه تحول عنى وصرخ فى وجه جدتى:

- أنت تفسدينه..تربية نسوان.. وعلى أنا اللوم..

فصاحت بحدة في وجهه وعضلات وجهها ترتعش:

- أنا..وأنا مالى؟.. خذه عندك في بيت زوجتك! وهنا رفعت أمى رأسها فى إنكار شديد.. وحدجت أمها بنظرة قاسية.. بينما واصل أبى حديثه:

- خذه عندك! وكأنك ترضين..الولد يضيع وأنت السبب..

أنت السبب!.

وانعطف نحوي وأمسك برأسى وهو يهمس:

- لاتخف..لكن عليك أن تختم القرآن لتلتحق بالأزهر..

وسكت هنيهة يتأملنى ثم قال:

- ستعيش هناك عند خالك عثمان. فهو يحبك وإن كان يكرهنى!.

فصاحت الجدة تحتج:

- لماذا يكرهك؟ حرام عليك..أليست المسبحة الكهرمان التى فى يدك هدية منه..ولماذا تحشو رأس الولد بهذا الكلام الفارغ؟. أسأت معاملة أخته أم الولد فى مصر.. فغضب عليك عامين ثم رضى عنك..

ولم تعر أمى هذه الكلمات أى انتباه..بل مضت تخطط فى الرمل كعادتها دون أن ترفع رأسها بينما انشأ أبى يقول:

- نهايته الواد لازم يروح الأزهر.

وأردف بعد صمت وكأنه يقدم رشوة:

- البيت سجلته باسم حامد يافاطمة.

ولوح لأمى بيد بينما الأخرى تعبث بالمسبحة الكهرمان، فلهجت جدتى بالشكر والدعاء لأبى بطول العمر أما أمي فقد اكتفت بحركة واحدة: رفعت رأسها قليلا وتفرست فى أبى بنظرة لاهى بالراضية ولاهى بالغاضبة، ثم عاودت الانكماش والانطواء على نفسها.

وترك أبى قصة البيت، وعاد يؤنبنى ويشرح لي أحلامه..

- ياسلام على الأزهر ياولدى،ياسلام حين تعود بالجبة والقفطان، فيقبل الناس يدك وأنت متكىء علي المصطبة فى أجازتك..

ونظر فى وجه جدتى مليا ثم همس:

- ادعى لى ياست عيشة بطول العمر إلي أن أراه فى هذا الزى..ادعى لى أن يطول عمرى مثل أبيك الحمزيلى.

كل إنسان كان يتمنى على الله أن يطيل عمره مثل جدى الحمزيلى جد أمى والد جدتى

عيشة. رجل نحيل القامة حاد العينين. لم تتآكل سنة واحد من فمه، ورغم أنه كان قد بلغ المائة كان مازال يتزوج ويزرع ويقلع فى «عنيبة»، وجدتى فخورة بأبيها، تحبه وتزوره وتعود محملة بالهدايا فى كل موسم. وما أن ذكر اسمه حتى رفعت عينيها إلى السقف ومضت تدعو له أولا، ولنفسها ولأمى ولنا ثم لأبي فى نهاية الأمر.

وهنا كانت شقيقتى جميلة قد أقبلت من المطبخ بفنجان القهوة لأبى. فأحسست وهى تقف إلى جوارى بالأمن، وشعرت أنها ستقف إلى جانبى، إذا ما أفضيت بما كان يدور فى صدرى، ففي كل لحظة كانت الكلمات ترتفع إلى حلقى ثم تحتبس نفسها هنالك لاتبارحه هاربة من وجه أبي ومن الأزهر أمنيته العزيزة. فى كل لحظة كانت صورة مصطفى ومدرسته ترتفع أمام عينى وتقف بينى وبين أبى كأمل اتطلع إليه، بينما يترا ءى لى هذا الأزهر الذى يتحدثون عنه خرابة واسعة ذات أعمدة متثلمة مثل «الكرة نوج» يتحلق فيها جماعات معممة فاغرة الأفواه والكروش تلتهم قصاع الفتة فى نهم وتتلفت هنا وهناك ، وتهشم ضلوع كلاب ذوات غرة بيضا ء فى رأسها مثل «لورد» جماعات تشبه الرحمانى طولا وعرضا. فى كل لحظة أصرخ صامتا، لاياجدتى، أنا لاأريد الأزهر، بل المدرسة هنالك فى الدر مثل مصطفى وفوزى ابن عمدة ابريم ابن عمدة وابن تاجر. أنا لست أقل منهما وليس مصطفى أشطر منى.

هذه الأفكار مع الخوف من أبى كانت تعتلج فى صدرى وتنضح على وجهى عرقا باردا لاحظته جميلة وانحنت على فى حنان الأم ورفعت رأسى وأدارته إلى الضوء ثم قالت فى صوت هادىء وهى تتأملنى:

– حامد..أمريض أنت؟.

فصرخ أبى فى وجهها:

– دعيه وشأنه، كفاه تدليلا، إنه ليس مريضا، بل يفكر فى مصر وفى خاله وفى الأزهر بعدأن يختم القرآن..

لكنها أصرت على موقفها وأنشأت تهمس:

– ألا ترون العرق على وجهه..دائما يشكو من بطنه.

وبدأت تنصرف إلى المطبخ وهى تهمس:

– سأعد لك فنجال حرجل!.

ألا أنى أمسكت بيدها!.

– لست مريضا ياجميلة..ابقى معى.. فأبى يحدثنى عن الأزهر..

فأذعنت وافترشت الأرض بجانبى بينما مضى أبى يقول:

– ألم أقل لكم.. أنه يفكر فى الأزهر وليس مريضا..

ثم التفت فجأة إلى بطة التى شرعت تفرك بالرمل إناء نحاسيا فقال يأمرها:

– أنت يابنت، عليك بالحوش ودعينا نتكلم.. قلة حيا ء..

فمطت شفتيها ولوت بوزها وانحطت إلى جانب أمها تنفض يديها من التراب وترمق أباها بنظرات غاضبة..

وعلى حين غرة وأنا أمسك بيد جميلة انفجرت الكلمات من حلقى فجأة وجدتنى أصرخ، وأنا أتزحزح من مجلسى قليلا إلى الخلف هاربا من مرمى عصاه.

- أبى..أنا لاأريد الأزهر!.

وعلت الدهشة وجوههم وانبرى الرجل يقول:

- هيه.. ماذا يقول الولد؟!.

وتلعثمت وأنا أقول من جديد:

- لأريد الأزهر!.

فضرب كفا بكف وأدار عينيه فى لاشئ ثم صرخ:

- ما شاء الله..ماشاء الله.. ماذا تريد إذن.. أتريد أن تعمل سفرجيا..أو مرمطونا.. أو فلاحا فى الأرض؟.

وهنا صاحت بطة وقد رفعت رأسها واشرأبت بعنقها:

- جدع ياحامد، بلا أزهر ، بلا مدارس..دعه معى ياأبى فى الغيط..بلا مياعة ودلع وتعليم.

فرد الرجل عليها بغلظة:

- اخرسى يابنت الـ..غورى من وجهى.

فزامت لحظة، وغمغمت ثم سكتت بينما انبريت أقول فى صوت خافت كأننى أريد ألا يسمع الرجل كلماتى:

- بل أريد أن أدخل المدرسة..مدرسة مصطفى..فى الدر..

فمد يده وصفعنى فأطار صوابى فقبضت على حفنة من التراب نثرتها فى وجوههم دون تمييز، وانطلقت أعدو إلى الفناء، ومنه إلى جذع النخلة التى ترتفع لصق الجدار الفاصل بين بيتنا وبيت خالى وتسلقته بخفة دون أن ألقى بالا إلى لورد الذى أخذ يزوم ويخدش ساق النخلة بمخالبه ويهز ذيله كأنما يسألنى:

- لماذا تهرب ...وإلى أين؟.

ومن جذع النخلة ألقيت بنفسى على سطح البيت، وتكومت على حزمة من الدريس أبكى وأراقب من خلال سحابة الدموع هلالا باهتا كان يرتفع فى السماء، واصيخ السمع إلى هدير أبي وتوسلات جدتى،وإلى نداء بطة وجميلة اللتين اندفعتا إلى الحوش تبحثان عنى فى كل ركن..



سارتا فى الطريق العام . والشمس ترتفع فوق البيوت وتبرق على قمم الاشجار وعلى كتفيهما فأسان وفى يديهما مقاطف من ليف النخيل . وعلى جبينهما أمارات جد . وتوقعتا نهارا شاقا تقضيانه تحت وهج الشمس بين الحقول .

وتعثرت الكبرى وكادت تنكفئ على الأرض . ثم تماسكت وخلصت جلبابها الازرق الداكن الطويل من العاقول واستدارت تقول :

- شهلى ، فقد تأخرنا !

وترددت الأخرى لحظة ثم همست :

- ألا يعترض أحد علينا ؟

- كلا يا ابنتى .. اتفقت مع الجزار ليلة أمس ، والبسطاوى وعد بمساعدتنا ..

فمنذ شهر قررت درايا أن تزرع قطعة أرض .. فراحت الى الدكان وجاءت تستعطف أبى ليخلى بينها وبين قيراطيها المرهونين حتى يئست ..

فلجأت الى عبد الله الجزار .

وتأملها الرجل قليلا ثم قال :

- أنت تزرعين !؟

- لماذا لا أزرع .. أنت تعرف أننى كنت أزرع أيام المرحوم .. وقبل أن يسافر جمال .. القيراطان كنت أزرعهما قبل أن يأخذهما التاجر .

- ومن أين أعطيك الارض ؟ الارض ضيقة يا ولية !

ثم أطرق قليلا بينما راحت تهمس !

- المرحوم قريبك ، وشريفة ابنتك .. استرنا .. ربنا يستر ولاياك .

ورفع الرجل رأسه وكأنما قرر شيئا ، وأشار لهما الى قطعة أرض صغيرة تنطرح خلف الجدول الكبير .. بالقرب من ساقيتنا .. قطعة أرض غائرة بعد أن أتخذت معجنا .. تنضح الاملاح على سطحها ولا تنبت الا العاقول .. قطعة تلاصق أرضه ومن أملاك زوجته .

وفرحت درايا وعادت فى جنح الليل الى بيتها بعد أن استعارت فأسين من حسن المصرى .. وانهت الى ابنتها بالبشرى ..

وها هما تدبان على الطريق ، تريدان أن تنقلا طينا من الجرف الى قطعة الأرض الغائرة .

وتساءلت شريفة :

- ترى هل يساعدنا برعى أم أنه سيغضب .

ثم أفاقت على صوت أمها الضاحك .

- من أجل عين تكرم ألف عين يا بنتى !..
البسطاوى يريدك ..

وصمتت الفتاة ، وغرقت من جديد فى أفكارها الحائرة ، وحسن المصرى ، ألا يساعدنا ؟ كلا .. انهم جميعا مشغولون لشوشتهم فى هذه الأيام .

وتنحت «درايا » عن الطريق وتبعتها شريفة ، فمن حولهما كانت قوافل من الحمير تروح وتجئ بين الحقول وسفوح الجبال وحظائر المواشى .. تنقل السباخ البلدى من هذه الحظائر .. ومن الانقاض الأثرية القديمة المتنشرة عند السفوح ، ومن خلفها اطفال يهشونها بعصى صغيرة من الجريد الاخضر ، وعلى وجوههم عرق يختلط به الطين والغبار والذباب وعند كل حقل كانت بعض الحمير تتوقف وتلقى بأحمالها ثم تعود ومن خلفها أو على ظهورها نفس الاطفال يستحثهم آباؤهم الذين أخذوا منذ الصباح ينحنون ويهوون بالفئوس ويخربشون الارض ويعزفون ويسوون ما بين البتون والجسور ويرممون الجداول الكبيرة والقنوات الصغيرة المطموسة ..

ثم عاودتا سيرهما لا تنبسان بكلمة حتى حاذتا الرجال الذين كانوا يكدحون لا يبالون بسياط الشمس ، تفكران فى العمل الشاق الذى ينتظرهما ..والارض من حولهما كانت ما تزال ترقد متشققة عارية .. وليس فيها إلا العاقول والشوك البرى والنجيل . وأعشاب برية لا يقطع عليها السبيل الا شرائح صغيرة هنا وهناك من الباذنجان وأحواض الفجل والبصل الأخضر والخس بأوراقه العريضة اللامعة فى وهج الشمس .. وخافت درايا أن يشمت فيها الرجال .. فمضت تتلفت اليهم ، تلقى بالتحية ، تداعبهم وتعرض عليهم المساعدة فيضحكون ، بينما زمت الفتاة شفتيها كارهة لمداعبات أمها وغزل الرجال فيها ..
- كيف الحال يا أمين ؟
- زرعى سيكون أجدع من زراعتك!
- باذن الله .. لو اشتغلت ، لكن قطعة الارض مالحة .
وأردف حسن المصرى :
- لو كان فى الغراب خير ما فاته الصياد ؟
- غراب .. ياغراب البين .. بدل الهذر تعال ساعدنا ..

ثم انحنتا على قطعة الارض الغائرة ، ومضتا تغالبان الملح بمقاطف من الطين والوحل تجلبانه من الجرف .

وبين كل نقلة وأخرى من السباخ كان البسطاوى يمنحهما نقلة من الطين الاسود .. يرشدهما الى العزق والتبتين .

ومضت درايا تشمر كمها الواسع وجرجار جلبابها وتمسك الفأس وتتأفف ثم تبصق فى راحة يدها وتهوى بالفأس وتتوقف لتلهث ثم تعود الى العزق والتسوية فى سرعة .. حتى يتعب قلبها فتتوقف قليلا ملقية برأسها الى الخلف بينما تستند بيدها على مقبض الفأس وتتأمل الرجال من حولها وتتنهد :

- شريفة .. استريحى يا ابنتى .. لو كان جمال معنا !

فزرت الفتاة عينيها وراحت تهوى بالفأس كأنها لا تسمع كلمات أمها :

- قلت لك استريحى وامسحى العرق الذى يسيل على وجهك ..

- ألم تقولى اننا سنزرع ؟

- ولكنك تهلكين نفسك يا ابنتى ..

- أمر الله .. ماذا نفعل .. إرادة ربنا ...

وجالت الأم بعينيها .. تعجب للحماس والنشاط اللذين دبا على الارض من حولها : برعى ينحنى ويقوم فى سرعة ، لا يبالى بسياط الشمس ولا بالعرق ، ومن خلفه أبوه يسوى .. بينما أمه تبذر القمح والفول والشعير ، ومحيى بن الشيخ جعفر يجرى خلف أبيه هنا وهناك ، يرقع الارض بأكوام من السباخ يتصاعد الغبار منها ، وبطة تبتن وتسوى الجسور ، بينما حسن المصرى يرسل أغنياته الصعيدية ، والفأس تتأرجح فى يده وكأنها قطعة عصا رخوة .. يطوح بها ، والشيخ أمين يخبط خبطتين ، ثم ينهض ويتكئ على مقبض الفأس تماما مثلها ويمسك بخاصرته وأنا أجرى اليه أخبط خبطتين ثم أمسك بخاصرتى مقلدا أبى ، فتضحك درايا وتعود الى إجهاد نفسها ، فتمل ثم تراقب شريفة وتفكر فى الشتاء وليالى الجوع فيعاودها الحماس فتنحنى من جديد .

حتى أحمد عودته رأته يقفز فى فلوكه أقلته من الجزيرة وقدماه ملطختان بالطين وعلى كتفه فأس .

ومر بهما وهما غارقتان فى العمل :

- هيه .. درايا .. ماذا تفعلين ؟

- ازرع يا أحمد ..

- عال .. ماذا تزرعين ؟ .. أعندك تقاوى ؟

- كيلة قمح أخذتها من خالك الشيخ أمين .

- الله ها الله ...، يظهر إن خالى يريد أن يتزوجك .

- ولماذا لا تتزوجنى أنت ؟
- نتزوجك نحن الاثنين .. كلا .. بل يتزوجك هو وأتزوج أنا هذه !
وأشار الى شريفة فأطرقت وأشاحت بوجهها بينما راحت أمها تضحك وهو ينصرف بعد أن شجعها وارشدها الى مكان عند السفح تجلب منه السباخ .

***

التعب والارهاق يشمل الرجال والنساء والاطفال ولكنهم سعداء .. ولا يخلو الجو من دف يرسل نقراته .. وأغنية عمل يتردد صداها بين أشجار النخيل .. وصيحات يرسلها عم رمضان نجار السواقى ، وهو يشد ضلوع الساقية بسيور الجلد نداها بالماء منذ الليل .

على الجباه آثار تعب ولكن العيون تبرق بفرحة غريبة .. ببهجة تدفع الى العمل والى مزيد من الإرهاق .

فكل رجل وكل إمرأة كان يمكنه أن يتخيل حبة القمح التى يبذرها وقد رواها الماء وشدتها حرارة الشمس لتنبثق وتشق الارض برءوس خضراء صغيرة كل انسان كان يمكنه ان يتخيلها وهى تنمو وتستوى على سوق نحيلة ، وتهز رأسها للنسيم ، ضاحكة مثل الاطفال ، ثم تشب على الطوق فتشتد عيدانها وتتراقص فى الغيطان - فى اتجاه الريح - أمواجا خضراء متلاحقة ، ثم يكتسب حفيفها خشونة وبحة تختلط بصرير الجنادب ونقيق الضفادع ، نشوى بنسيم الليل وندى الصباح ، ثم تبرز سنابلها كالنهود تمتلئ باللبن .. يتحول مع لفح الشمس الى حبيبات دهنية متسقة فى ابداع ترسل شواربها الابرية الدقيقة وتتطلع الى السماء .

وتبلغ النشوة مداها عند فضيلة ، وآسيا المولدة وأصيلة .. عند كل طاعن فى السن أو صغيرة مثل شريفة وبطها . عند كل امرأة أو فتاة حيث يتصورون الحب الذى يبذرنه فى الأرض المعزوقة حبوبا وفيرة يفصلنها عن التبن بالتذرية ، ويطبقن عليها الرحى .. يحولها الى دقيق ناعم يعجن فى المواجير الفخارية ، ويدحى على الدوكة فطائر لذيذة تقدم فى الصباح ، يحف بها فى السلطانيات لبن يشوب بياضه الطازج عسل البلح بحمرته الداكنة ، فيغرزن فيها الايدى دون رفق ، ويلعقن الاصابع ويمصمصنها فى حمد وشكر لله ، أو يفتلن هذا الدقيق .. «شعرية» جميلة يقدمنها للرجال فى السحور من كل رمضان .

كل حبة تبذر .. كل فأس تهوى .. كل جدول يرمم .. كل حبة عرق تلمع على الجباه تتحول الى أحلام وردية تدفع الأيدى والأذرع ، وتقيم الاصلاب ، فيندفعون ، لا يكادون يستريحون

لحظة واحدة ، حتى درايا وشريفة اندفعتا فى حماس بالغ .. تردمان وتسويان التراب .. كادتا تسقطان من الاعياء لولا برعى الذى انتهى من عمله وقدم لهما يد العون حتى حسن المصرى هوى بفأسه فى شريحتها الصغيرة يساعدهما .. فمصمص أبى شفتيه وحاول أن ينتهره لولا انه انشغل عنه بمشادة صغيرة بين حجوبة وبطة كادت تؤدى الى نفس النزاع القديم ففصل بينهما وأمر حجوبة أن تعود الى البيت بصغيرها محمود ، الا انها تشبثت بموقفها من الارض .. فهى تحب الارض وتعشقها وتتأملها وهى تعزق وتعانى وتقضى فيها الساعات وهى تخضر .

ولاحظ أبى عنادها فتركها ثم أمتلأت عيناه بالدهشة وهو يرى الشيخ فضل يتجه الى الجدول الكبير ، يتوكأ على عكاز ويزك بساقه الجريحة ، فمضى يراقبه فى حزن حتى حاذاه فابتدره غاضبا :

حرام عليك يا فضل .. لماذا لا تستريح ، ساقك يا فضل ..

ولم تتحرك شفتا فضل بكلمة بل تقلص وجهه .. ولوح بيده فى وجه أبى .. ومضى يزك الى أن جلس على حافة الجدول الكبير يتمتم :

- دنيا !!

ثم غرق فى دوامة أفكاره الحزينة بعد أن أشار على برعى بترقيع شريحة من الارض ازدادت ملوحتها ربما قال لنفسه : أنا طريح الفراش وغيرى يعمل .. حتى درايا وشريفة تعملان .

وسقطت دمعة ساخنة على ظهر يده مسحها بسرعة .. وعاد من جديد الى أفكاره .. منذ عام ، منذ عشرات السنين عاش فضل على هذه الارض يفلحها فتجود بما لا تجود به أى أرض ، فليس فى القرية كلها بل فى كل القرى المجاورة رجل له مثيل خبرة فضل فى الارض .. هو الذى اعتاد أن يجوس فى الأرض يتأملها ليقول فى ثقة : أريحوا هذه الشريحة .. ازرعوها فولا ، وهذه شعيرا .. أما التى على يمين الجدول فازرعوها قمحا .. لابد من تسميد هذه الشريحة قبل الجدول بالرماد وبتراب الكفرى .. هذا السباخ لم يخمر ويقلب .

فضل قعيد الدار ، يزك بساقه ، وهو الذى لم يمسك أحد بالفأس ولم يهو بها أحد على الارض بالسهولة ولا بالحذق اللذين تعود أن يهوى بهما على الارض ، وهو الذى لم يشرب الخمر ليسكر بل اكتفى برائحة الأرض المحروثة .. يعبها فى رئتيه فيسكر .. وبالماء يترقرق وينزلق من الجداول الكبيرة الى القنوات ، ويتأمل النبت الجديد الأخضر يشق الأرض وينمو ويتماوج فى قبضة النسيم.

أما الآن .. الجميع يشفقون عليه وينصحونه .. وليس فى مقدوره الا أن يتكئ على المصطبة الداخلية ويتحرق شوقا الى الأرض والى العمل .. فلا يستطيع أن يتحرك ، فينتظر وينتظر الى أن تعود زوجته فضيلة وتقص عليه قصة الحرث والعزق والجداول التى وسعت ، فيعنفها ويشير الى أخطائها دون ما خطأ تشعر به .

- دنيا!

قالها ورفع رأسه ليجد أبى يطل عليه فى حزن ثم يقول :

- تعشق الأرض يا فضل .. تموت فيها مثل أبيك ؟

فمضى فضل يقلب الطرف حتى استقر به على شريحة طرح البحر التى قام النزاع بسببها .. فوجدها مهملة .. فقد تم الاتفاق على ألا يزرعها أحد الى أن يفصل فى الأمر .. هكذا أمر العمدة ..

وغاظه أن يجد الأرض السوداء الخصبة ترقد كما ترقد أمرأة عقيم فتحسر وأرسل تنهيده روعت أبى فأسرع يهمس :

- لا تثقل على نفسك يا فضل فالأرض لم تعد لنا نحن!

فانتفض فضل يسأل :

ماذا تقول ؟

- الأض سجلها بركات أفندى فى دفاتره ، الطوفان ..

ثم صمت وكأنه يغالب حزنا ثقيلا يرين على قلبه وأردف :

- سجلوها كما تسجل الوفيات فى الدفاتر .. آخرة الدنيا وما الفائدة ؟ ولماذا نجهد أنفسنا ؟

وألقى بالفأس بعيدا فى يأس ، وانطرح على الأرض الى جانب فضل الذى أنشأ يقول :

- أحمد الله يا أمين .. احمده يا شيخ !

- الحمد لله ... نشكر فضله ..

- فضله كتير عليك ... فان لك متجرا باسم الله ما شاء الله يدر عليك وعلى أولادك خيرا .. زادك الله من فضله ..

ولوح أبى بيده وهسهس :

- وما فائدة المتجر لو جاع الناس .. واذا ما ضاعت الارض - والنخيل ..بم يشترون .. بم يسددون ديونهم ؟!

ورمقه فضل فى نظرات مشفقة تقول :
- معك حق ..
ثم مد يده الى ساقه وتحسسها ثم أرسل آهه قال بعدها :
- أخشى من السوس يا أمين ..
فصاح أبى على الفور :
- سوس! لا تيأس من رحمة الله يا رجل .. جرح .. كسر بسيط ثم تحدثنى عن السوس .
ثم مال برأسه وأردف :
- ولماذا لا تسافر الى مصر؟
- مصر ماذا أفعل هناك؟
- الأطباء .. الحكما ..
- الطبيب الله يا أمين .،.. ماذا أفادوا زوجتك فاطمة .. اتكل على الله من دون عبيده !

وتنهد أبى فى عمق وهو يتذكر أمى و امراضها المستعصية . وانصرف فضل عنه يصرخ فى حسن المصرى :
- أترك هذه الشريحة .. لا تبذرها قبل أن تسبخ بالرماد ..

وأراد حسن أن يداعب «فضل» فاتجه اليه وهو ما يزال يبذر القمح ، فاستشاط الرجل غضبا وحاول أن يقوم اليه لينتزع منه مقطف البذور ..

ثم راحوا جميعا يقهقهون وهم يتفرسون فى أقدام تتدافع من الأرض الزراعية الى السكة العمومية الى الشاطئ ..
وضحك فضل فى سخرية وصاح :
- الافيون .. مسكينات !..

فان كل امرأة فى الغيط كانت تلقى نظرة واحدة على الرجال ثم تلقى بيدها وتلتقط أية قصاصة من الورق تصادفها ، تطويها وتدسها فى صدرها .. ثم تسرع الى الجرف تسدل طرحتها على الرأس والنحر وتمسح وجهها بيدها وتنفض الغبار العالق بثيابها وعيناها ترمقان شراعا أبيض يخفق من خلال الاشجار ، فوق سفينة بيضاء صغيرة مزدانة بالبيارق الملونة والأجراس الصغيرة المصلصلة .. الشراع مرخى الشاغول واللبان والمدراة ملقاة على الشاطئ .. والدفة منعطفة الى الغرب بينما المقدمة جانحة على الشط .. وفوق مقبض الدفة «تنده» مستطيلة بيضاء بزيق أحمر .. يدور حولها شراريب صفراء تنتهى بخرز رفيع لامع ..

ومن تحت التنده نقر دافئ على الدف وصوت رخيم يرسل أغنيـة شابة تنداح خافتـة على الماء فتجعد صفحتـه .. أغنية صفقت لها العصافير بأجنحتها ثم حطت على الصارى ترمق التنده بعيون خرزية .

وعلى الموردة أمام السفينة تجمعن: كل واحدة تدس قصاصتها فى صدرها..وتدس أحلامها فى قلبها المكدود، وتنسى إرهاق العمل لحظة.

وتنبرى أصيلة وتنادى:

- هيه.. لماذا تختفى تحت التندة؟.

فلا يجيب أحد، بل تتصل الأغنية، فترمقها الأخريات فى عتاب ثم ينفد الصبر فتنبرى أم سعدية تنادى:

-أنت ياحسين..ياحسين يافييس يافشار أأنت نائم؟!

فتسخر واحدة منهن:

- نائم!! يالك من عبيطة..ألا تسمعينه يغنى؟

ومضين يستمعن:

انت ياسمراء مثل الليمون

انت يارقطاء الفراش

اسمعينى ضحكتك العذراء

لترتد روحى فإننى أموت

أموت يارقطاء أموت

النقر خافت والآهة حرى، والصوت عميق يسرى ويتسلل إلى القلوب، إلى الروح كما يسرى الخدر اللذيذ..

وسكت الصوت، ورفع باب التندة، وبرزت يد سمراء دقيقة..ثم رأس..ثم رجل خطا خطوتين وتوقف على حافة السفينة يرمقهن فى فضول واعجاب..وظله يرتمى على صفحة النيل..

بدا فى وقـفـتـه على حـافـة المركب رجـلا فى الأربعين، أسـود اللمـة إلا شـعـرات قليلة بيضاء..مستدير الوجه، حاد العينين، متوسط القامة على رأسه عمامة عليها شملة داكنة الحمرة تتدلى علي الكتفين وتنطرح على الصدر معقودة الطرفين.. تحت الشملة جلباب مفتوح على الصدر ينسدل فى اتساع، بألوانه الزاهية حتى يغطى صفحة مداس لامع الحمرة فى قدميه..

وبرز حسين فييس من تحت التندة.. وانتصب على حافة المركب يرمقهن فى إعجاب.

وتبسمت كل واحدة حين برز اليهن فأخذن يداعبنه فهو معروف فى كل نجع. يملأ مركبه بالفلايات والمناديل وعصائب الرأس.. وأنواع العطور والعطارة، يتوقف بها عند كل موردة، فيقبلن عليه فى لهفة ويشترين ويدفعن فى الحال أو يؤجلن إلى موعد آخر.

ولكن أحلى وأعذب سلعة يبتغينها عنده كانت تندس فى حلقه وفى ذاكرته وفى عذوبة لسانه.

كان الرجل يعرفهن جميعا: يعرف أحزانهن والأحداث التى جرت لهن، فينسج لهن منها أحلاما وردية جميلة، يسكبها فى الآذان مسجوعة فتخلب اللب وتبعث النشوة فى النفوس.
وأنشأت واحدة منهن تقول:
- سلام ياحسين..

فلم يجب، بل راح يتفحصها بعناية ليقول فى نهاية الأمر:
- ماشاء الله..ألم يأت العريس بعد.. جمالك زاد وفاق كل جمال!.

فرن الشاطىء كله بضحكات ناعمة بينما أطرقت هى لحظة انغمست بعدها فى الضحك تجارى الأخريات، فليست إلا عجوزا تطبق شفتيها على خواء وتمضغ الكلمات مضغا يجعلها مثار تندر الأخريات..قالت:
- لاياحسين..لم يأت بعد.أمر الله!.
وترددت قليلا ثم أضافت:
- لماذا لاتتزوجنى أنت ياحسين؟!
فضحك وهتف بها:
- فى المرة المقبلة..اسأل أبى وأرد عليك!.

ثم التفت إلى أم سعدية، وإلى ورقة أبرزتها له، فمد يده عبر الماء وتناولها وهو يقول فى نشوة:
- عال.. جواب.. سأقرأه لك..

ومضى يقلب الورقة ويدقق النظر فيها، ويعرضها لضوء الشمس ثم هتف فى ضجر:
- نبش فراخ..مغفل هو الذى كتب الجواب..نهايته سأقرأه لك..
وجلس على حافة المركب وفرك عينيه ومسح عليها بطرف شملته وانطلق يتلو كلمة كلمة، فى لغة نوبية مسجوعة، يرفع صوته لحظة ثم ينخفض به إلى وشوشة خافتة، ويرفع عينيه حينا. يجول بهما على الوجوه المحيطة به فى شغف، وعلى العيون العالقة بشفتيه:

- ياروحى ياجنتى..سأعود..سأعود مهما طال الزمن.لأتربع من جديد فوق العنجريب..لتتشابك ساقانا فى جنح الليل والأطفال نيام.. ياجميلة مثل نوار الفول، ياجرة العسل المصفى، يازبدة حياتى، كم أحن إليك..أناظمآن..ظمآن وكاسات الخمر لم تعد تشبع حسى..تذكرى أيامنا تحت أشجار النخيل..قبل الزواج..كم كانت جميلة يانور عينى..لاتيأسى فسوف أعود لنسترجع أيامنا الخالية، ياحمامتى الوادعة يابلطية النيل الهائمة..ياسمراء قلبى..

وبدت أم سعدية، وهى تستمع إلى هذه الكلمات وكأنها تعيش فى حلم: غائمة العينين، منفرجة الشفتين، ويدها اليسرى ممدوة معلقة فى الهواء..

مسكينة..تعرف أنه ما من جواب يصل إلى زوجة أو إلى أية فتاة فى القرية بمثل هذه العواطف الجميلة المنمقة..تعرف أن زوجها لم يبادلها كلمة حب واحدة. تعرف أنه لم يصلها منه جواب..ورغم ذلك فها هى تهيم فى الأحلام، وتنتشى ..والأخريات من حولها يتغامزن عليها إلى أن يأتى دورهن فتتغامز هى عليهن..

وتقدمت أصيلة بقصاصتها..حتى سبيلة زوجة المأزون والتي تعيش معه ليل نهار تقدمت بجواب أخذ حسين فييس يقرأه وينسج لها أحلاما وردية جميلة.. ثم ألقى بقصاصتها إلى الأرض فتلقفتها ونظرت فيها فإذا بها قطعة ممزقة من المقطم تنعى رجلا فى الفيوم..

وأفاقت على ضحكات وصرخات فإن حسين فييس كان قد التفت فجأة إلى «داريا» يقول لها:
- مالك تمطين بوزك.. أهو لايريد..؟. المغفل من الذى يراك ولايريد؟.. تعالى هنا تحت «التندة!!»..

وارتسمت ابتسامة واهنة على وجه «داريا» ثم تراجعت إلى الخلف وكأنها تخشى أن يقفز اليها ويضمها إلى صدره ويعبر بها السقالة إلى المركب تحت التندة.ولاحظ هو حركتها وهتف ضاحكا فى سخرية:
- آه إننى أرى.. ماهذا التبن لعالق بشعرك..مغفل.. قلبك على ظهرك فى حاصل التبن.. أو فى مربط حمار..

وأردف بعد ضحكة عالية رنانة:
- مسكين لم يستطع الاحتمال..

ومدت المسكينة يدها دون أن تشعر إلى شعرها تزيل التبن عنه، التبن الوهمى الذى خلقته خيالات حسين فييس.. وأحجمت فلم تتقدم بقصاصتها. وراحت تراقب وجه فتاتها شريفة التى توارت من الخجل.

وظل حسين ساعة أو تزيد يسكب فى آذان النسوة أنفاسا جميلة وأحلاما وردية، تذكر كل واحدة بأنوثتها المهدرة المهجورة بعد أن تغيب الرجال وارتحلوا منذ سنوات، فتتخيل أنامل الزوج على فخذ جفت عصارته، تتخيلها فى الكلمات العطرية من بين شفتيه.

وانتهى صف النساء من جواباتهن..ولم تبق إلا «داريا سكينة» التى مضت تقبل وتحجم بعد سخريته اللاذعة.. فنظر الرجل إليها مليا ثم استعد لفتح صناديقه لتشترى كل واحدة ما يروقها من فلايات وزجاجات عطر نفاذ؟. إلا أنها استوقفته ودفعت إليه بورقتها الصغيرة فقلبها وعرضها للشمس ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يقرأ:

« أمى الحنون، أمى التى أعبد وأطيع ..أمى ياأحسن أم فى الدنيا..سأعود عما قريب..لاتصدقى تخاريف حسين النجار. إننى لم أتزوج لابيضاء ولاسمراء..سأعود ياأمى الحنون. لقد كبرت شريفة ..زوجيها من رجل شهم مثل حسين فييس»..

«جمال»

والتصقت بها شريفة بينما مضت هى تشرب الكلمات وتغرزها فى قلبها، وتنتشى بها وتسكر: إذن فإنه لم يتزوج!! يخرب بيتك ياحسين النجار.. لماذا تكذب؟.. لابيضاء ولاسمراء..سيعود سيعود ياشريفة!

وتنسى زمانها ومكانها وتهيم وتتأمل ولدها الحبيب عائدا يرتمى بين أحضانها، ويملأ دنياها بالأمل والبهجة. متى..متى ياولدى جمال؟!.

ويعود حسين فييس إلى مزاحه.. ويأخذ فى عرض بضاعته: الصندلية والجاولي، والفلايات الحديد ومشابك الشعر والغسيل والصابون الفرنساوى..وعصائب الرأس والطرح الملونة من ماركة..أم التاجر..فتشترى أم سعدية شيئا وهى ماتزال هائمة فى أحلامها الوردية، وتبتاع فضيلة شيئا آخر وتنفصل لتعود إلى الغيط وتتبعها داريا وابنتها. وتتجه فورا إلى فأسها. وتهوى بها من جديد على شريحة الأرض.تردم وتسوى بينما يراقبها حسن المصرى، ويتأمل حركاتها وانحناءات قوامها، وهو يتكىء علي مقبض فأسه..

ويأخذ الشيخ فضل فى السخرية منهن، فلا يبالين بل ينهمكن فى العزق والتبتين، لايبالين به، فإنهن يعرفن الرجال وكيف يهزأون بهن عاما بعد عام، حين يحل حسين فبيس فى النجع، ويبيع لهن أحلام الورد والعطر والمناديل من مختلف الألوان..

إنهم يسخرون ويتركونه ينصرف بمركبه. ثم يحل المساء. فيهرعن اليه يلتمسونه فى مرافىء النجوع الأخرى، ويسهرون معه، يغرقون آلامهم وهمومهم وخوفهم من الطوفان فى نفاثات البانجو وكئوس العرقى ثم يعود كل رجل إلى بيته وقد قبس منه مرحا تستطيبه كل زوجة عندما ينتصف الليل.



رفع أحمد عودة رأسه وتأمل النتيجة المعلقة علي الحائط وطوى الدفتر الطويل وأسند القلم الكوبيا خلف أذنه، ونهض إلى الجدار ، ورطب بلسانه اصبعا امتد به إلى النتيجة، وقطع الورقة الأخيرة من شعبان

وغمتم وهو يستدير لأبى:

- رمضان..غدا نصوم..

فيعبر أبى بنك الزنك وهو يمسح الزيت العالق فى يده بخرقة باليه طوح بها بعيدا ثم قال:

- على خير..

ثم جال بعينيه فى المتجر وتأسف على رفين خاليين، وتطلع إلى «داريا» التى استندت إلى كتف الباب وفى عينيها دموع فصرخ فيها

- لولا رمضان ياداريا..

- الله يخليك ياأمين..البنت طرحتها مثل المنخل..

وصمتت هنيهة لتضيف فى لهفة:

- مسكينة..الصداع يشق رأسها..لم تشرب شايا منذ الليل..

فانشغل عنها أبي بأوراد يتلوها فلم تنصرف بل تعقبته:

- وجمال لن ينسانا ياأمين..

فقطع الرجل تلاوته وقطب جبينه وزوى مابين حاجبيه وهتف لها:

- دائما جمال.. جمال ولاخبر عن جمال..كلام فارغ!..

وعادت هى إلي كتف الباب تعتمد عليه وفي صدرها إحساس بالإغماء ..وفى قلبها حزن ينغرز إلى الأعماق..فتغالب دموعا تصعد إلى العين فلا تتجع بل تطلقها فى صمت دون أن تعول.

وران الصمت لحظة قطعته هى بكلمات متهدجة:

- الدنيا رمضان ياأمين..اتق الله فى الشهر المفترج.. لماذا أصبح قلبك كالصوان ..لماذا؟.

وتلفتت إلى أحمد عودة..كلمه وحياة أمك خديجة.. كلمه.. ما الذى جعله يتبدل ويقسو علينا، كان المرحوم صاحبه بالروح..

وقبل أن يفتح أحمد فمه ارتفع صوت أبى:

- مثل الصوان! عجائب!..تحسبيننى أعمى ياوليه..

فصاحت على الفور: بعيد الشر عنك ياأمين..

فلم يبال بها، بل انطلق يهدر:

- تركت «حسن المصرى» يعمل عندك : فى البيت وفى الغيط،،وتركتك ترعين أغنامك فى أرضى..

- أغنامى: أخذتها أنت ولم تبق إلا معزة واحدة...

- وهو الذى يخفى لك ذرتى ويحملها إلى بيتك، والجذع سرقه ليصلح سقف بيتك..

أتحسبينني لاأرى..وكل هذا دون مقابل..والديون تتراكم عليك، ولماذا تريدين طرحة جديدة وجلابية جديدة.. على قد لحافك..

فصاحت به: لم يعد هناك لحاف ياأمين.. البنت تعرى جسمها.استرها ياأمين...الله يستر بنتك جميلة وبطة..

وتهدج صوتها بالبكاء ثم رفعت صوتها:

- أمين، أمين ياكلثومة، بنتى منذ أيام لاتترك البيت.. تمزق جلبابها عند الصدر، رفعته فانتسل الجلباب عند الرقعة وتحول لى شراريب، وفوق الفخذ خرق واسع يكشف فخذها..حرام عليك...حرام..!!

- حرام..حرام وأنا مالى!.

ورغم ذلك فقد لان قلبه وغمز لخالى الذي عبر بنك الزنك ومد يده إلي رف، عادت منه محملة بأثواب من الشيت والدبلان يعرضها على البنك وهو يقول:

- تعالي ياداريا..فالدنيا رمضان، وربنا أمر بالستر..تعالى..

أهلا وسهلا ياحسن يامصرى..أعدت من الجزيرة؟.

- عدت قبل أن أكمل عملى فإن برأسى صداعا أليما..

- سلامتك..تعالى ياداريا..

فنظرت مليا إلى رأس حسن المصرى لترى الصداع الذي يشكو منه ثم تقدمت ، تنتقى قطعتين من الشيت وطرحتين تلفهما بعناية، وتتأمل يد الرجل وهو يقيد دينا جديدا فى الدفتر الطويل فتنقم عليه بينما أبى يقول لها:

- خلاص ياداريا..اتركينا لأشغالنا..

- والسكر والشاى ياأمين!؟.

وهنا يعود أبى إلى تقطيب جبينه ويصرخ فيها:

- كفاك دلالا ياوليه.. كبرت ومع ذلك تتدللين مثل الفتيات الصغيرات..ليس فى الدكان سكر ولاشاى..تعالى بعد يومين..

- يومين!.. البنت ستموت من الصداع ياأمين؟!..

ثم تسكت وهى تحاول أن تفهم إشارات حسن المصرى، وتتنهد وتتخلى عن السكر والشاى وتنصرف وهى تفكر فى قسوة التاجر.. لماذا يكذب؟.. عندهم سكر وشاى.. ومع ذلك ينكر..رأيت «بطة» ابنته تخرج من باب الدكان وفى يدها قرطاس سكر وشاى..سأذهب اليها واستلف «تلقيمة» شاى إلى أن يفتح الله علينا أبواب رزقه ولربما حمل إلينا حسن المصرى بعضه فيغنينا عن مد اليد، وونور..لماذا لاترحمنا يارب..وونور..

وتناهى إلى سمعها وهى تنصرف صيحات الأطفال وتراءي لها على مد البصر فى كل الطرقات هالات مستديرة من الضوء تبرق فى غبش المساء، فتذكرت« جمال» فى صغره، كان يلح عليها فتجلب له سلبة طويلة يشعل طرفها يوم رؤية الهلال ويطوح بها فوق رأسه ويدور بها وهو يرسل

صيحات..تماما مثل هؤلاء الأطفال.. حتى البنات يلعبن بالسلب..ما أسرع ما يكبرون ويهجرون..وما أجحد الأبناء! ليتهم لم يولدوا..ليتنا ..ولكن علام الندم! ؟.

ودنت من عتبة الباب ووجدت شريفة بجلبابها الممزق تطل من الباب حائرة كأنها تفكر فى سر غامض، فمنذ لحظات جاء كلو عاريا وجلس فى الفناء والحاصل وأمسك ببراد الشاى هنيهة وهى تدور من خلفه ثم بارح البيت، دون أن تنال منه نظرة واحدة، دون أن تمسك بيده وتضعها على رأسها ..لعل الصداع يتلاشى..

وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه شريفة وهى تتلقى أمه وتتلقف منها الشيت والطرحة.. ولكن البسمة تلاشت حين لم تجد الشاى والسكر في يد أمها..وكادت ترفع يديها إلى السماء وتدعو على الشيخ أمين وتلعن الصداع ولكنها تأنت ومضت إلي الداخل لتشعل فانوسا تعمل على ضوئه طول الليل فتخيط جلبابها لنفسها..

***

ومن المئذنة العالية خلف بيتنا يرتفع صوت نوح يسبح ويكبر ويعلن فى النجع كله رؤية هلال رمضان.. ويهتف فى كلمات منغومة:

- ياعباد الله..وحدوا الله..

ويهبط درج المئذنة فى أناة وعند الباب نستقبله نحن الصغار بالتهليل والصياح ونستدير به.. نرج الأرض بأقدامنا، ونطوح فوق رأسه بهالات الضوء ثم نسرى خلفه ندق بقبضاتنا على كل باب..وحدو الله ياعباد الله.

وبينما نحن لانزال ندور يقودنا عم نوح: ياعباد الله... وحدوا الله..شهر البركات والصيام.. مرحبا بك يارمضان..! ارتفع صوت يقول:

- لامرحبا ولاحاجة.زمبليطة فاضية..بهايم..

كلمات غريبة ارتفع بها من خلفنا صوت مبحوح..كلنا نعرفه ونعرف صاحبه، فعلى ناصية الطريق عند ملتقى نجعنا بنجع المجراب تراءى المحامى لنا، يطوح بخيزرانته فى الهواء، ويشق الطريق بقامته الطويلة..قامته النحيلة، ويحرك يديه المعروقتين البارزتين من أكمام واسعة ذات حفيف متصل كلما اتصلت الخطى..

ويرمقه نوح فى غضب.. ويستعيذ بالله، ويحاول أن يتفاداه..لكنه لايملك نفسه فيسأل.:

- لماذا تكفر بكلام الله يامحامى..؟

فيرسل ضحكة ساخرة ويهتف:

- أكفر ..ماأصنى فؤادك ياعجوز..تور الله فى برسيمه.

فيتلعثم نوح ويرتبك ثم يهمس:

- التيران ستدخل الجنة..أما أنت فجهنم تنتظرك.هداك الله ياولدى..هداك الله..

ويدفعنا من جديد فى الطريق إلا أن المحامى يستوقفه:

- بالله عليك يانوح.. لماذا تصوم رمضان؟.

حقا.. لماذا يصوم الناس رمضان يانوح؟ سؤال غريب..

لأنهم يطيعون الله، لكن لأى غرض يانوح ، ماالحكمة يانوح..

- الحكمة..الحكمة.

ويتوقف لحظة ثم يقول: وفى صوته احساس بالنصر:

- ليشعر الأغنياء والموسرون بجوع الفقراء.

فيعاجله المحامى:

- وأنت غنى؟

- كلا ياولدى لكن الغنى غنى النفس..

- وهل أنا غنى؟

- أغناك الله..لماذا تحسد الناس..

- أنا لاأحسد ..لكن..لماذا لانترك الأغنياء يصومون ليشعروا بجوعك وجوعى؟ خمسة أو عشرة ميسورو الحال فى البلدة كلها...

يصومون هم وحدهم أما نحن.

ويرسل قهقهة عالية حين يلاحظ ارتباك الرجل الذى أخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، الشيطان الذى سكن جسد هذا الشاب..

نوح يعلم ..كل الناس يعرفون أن الفتى لايفيق من خماره منذ أن حط رحاله فى النجع بعد غربة طويلة: فى لسانه فصاحة ينفر منها الناس، كثير التذمر،يحن إلى مصر لكنه لايجد سبيلا إلى العودة.. فقد طرد من هناك..طرده شباب نجعه هناك وتخلصوا منه لكثرة مشاجراته، وهرب إليها مرة مخالفا نصح رجال نجعه هناك فى مصر فأعادوه من جديد ليستقر فى النجع ويفكر فى مصر ومباهجها حيث عمل ساعيا فى مكتب محام كبير، تلقى القانون على يده وحضر معه المحاكم يحمل دوسيهاته فحفظ كثيرا من جمله الطنانة، مضى يتفاصح بها فى المقاهى،...ثم مله عملاء المحامى فطرده، فراح يتسكع فى المقاهى ويشرب الطافيا والسبرتو والبوظة اذا ماضاقت به الحال، يلعب القمار وهو يثرثر فيخسر كل قرش معه حتى ساءت حاله فطفق يستدين ويتهرب من دفع ديونه

وانتهى به المطاف إلى القبوع فى مقهى شجرة الدر بعابدين يرتع الذباب على وجهه والقمل على ملابسه.

وعافه الناس هناك. ثم تخلصوا منه فى سخاء، استداروا به مرة وساقوه إلى الموسكى، اشتروا له ملابس جديدة، ودسوا فى جيبه جنيهات قليلة، ولم يتركوه إلا بعد أن قطعوا له تذكرة إلي البلد متعهدين بنفقات عيشه فى النجع، فعاش فيه، يتفاصح على الرجال والنساء ويحضر مجالس الصلح، ويترافع فيها بصوت داو حتى أبعد عنها...

فاكتفى بكتابة جوابات النسوة الى الأزواج الغائبين... وبقراءة الصحف للناس على المصاطب

وكتابة شكاواهم إلي المسئولين.. كان يكتب بجرأة ويفصل كل حالة، ويعتقد أن كلماته تعزل المآمير اذا ما ظلموا..وتخيف الحكومة وقد تسقطها اذا ماعاندته..

طافت هذه القصة برأس نوح وهو يدفعنا إلي الطريق نهلل من خلفه، وراح يرويها لنا بينما توقف المحامى يرمق« نوح» بنظرات محتقرة متعالية..ثم هتف:.

– لاضرر فى رمضان..ففيه أشهى الأطعمة والسهرات..

– هداك الله ياولدى..يرزقك الله..

– بهيمة..ما أصنى فؤادك..إننا دككنا الجبال دكادكا..

ثم رسم شيئا فى الفضاء بحركة من خيزرانته ومضى إلي حال سبيله..بينما واصلنا نحن هتافاتنا خلف « نوح» وحدوا الله ياعباد الله

وكعادتهم في كل رمضان، يتجمع رجال النجع فى العصارى، فى الساحة الممتدة بين الدكان والشونة يسلون صيامهم بقراءة الأوراد جلوسا على الأبراش الخوصية الملونة، ومن حولهم صوان نحاسية صفراء رصت فيها القلل القناوى ذات الأغطية النحاسية البارقة فى وهج الشمس الغاربة، بينما تنهمك فضيلة في المطبخ شأن كل زوجة، فى التشطيبات الأخيرة لمختلف الأطعمة التى تقدمها فى الإفطار لزوجها، وتفكر فى جارتها أم سعدية وفنونها فى الطهى، وفى تعليقات الرجال فى الساحة على شطارة هذه أو تلك في نوع محدد من الطعام، فتتفنن وتبدع، وتشعر بالزهو حين تتناهى إليها كلمة طيبة قالها الشيخ فضل أو شليب فى طبق قدمته، وتحس بالحزن حين تتسرب إليها كلمة استهجان قالها أبى أو أحمد عودة:

– لماذا لم تغسلى القلة..والأبريج ساخن. فتطرق وتشتم ابنتها الصغيرة.

– ياللعار.كسفتينا يابنت!! بلى الأبريج فى الماء البارد وزيدى السكر قليلا، ولماذا لم تقدمى لهم شعرية يابنت فى رمضان المفترج.

فتلوى الفتاة شفتيها وتذرف دمعة ثم تعتزم زيارة بطة أو سعدية لترى كيف تعدان إفطار الرجال..

فمنذ شهر أو يزيد استعدت كل امرأة لهذا الشهر: تتلقى طرود قمر الدين، وتفتل الشعرية من دقيق القمح، وترعى حقول الفجل والطماطم والبصل والرجلة لإعداد السلطات والمشهيات اللازمة وتفرك بالرمل أغطية االقلل لتلمع، وتدفن حبات الليمون فى الطين، تعصر منه قطرات فى الماء، وتخمر دقيق الذرة تدحو منه ابريجا شفافا مززا تنقعه فى ماء مسكر، تملأ منه سلطانيات بيضاء، وتتركها في مهب النسيم ثم تقدمه شرابا مرطبا للزوج أو الابن يتبلغ به فى المساء ويبل به ريقه بعد صيام مرهق أما هى فقد تتجرع رشفة من هذا الإبريج، وقد تكتفى بالماء القراح أو بحفنة من التمر تزدردها.. المهم أن يرضى الرجال المجتمعون فى الساحة، المهم أن تسلم من سخرية فضل وشليب والمحامى، ومن ثرثرة الولد الصغير،« سعيد » شقيق سعدية الذى يتخذ مكانه– من دون كل العيال– بين الرجال، يستمع إلى نوادرهم ويتلصص على كل إناء وينقل كل كلمة إلى أمه. فتكون الفضيحة التى تسرى كالنار.

لكنها تلقى نظرة على ما أعدته وتتنهد فى ارتياح وتهمس لنفسها:

- ولافضيحة ولاحاجة ! مازلت أقدم أشهى طعام لزوجى وضيوفه..

وتلقي نظرة أخيرة لتتأكد ثم تأمر ابنتها:

- هيا فإن الشمس تكاد تغيب!

وتلقى بقطع الخبز«الكابيد» فى الفالاكا..فتعوم على «الباميا» ،،وتغطى الفالاكا وسلطانية الابريج والسلاطة بأطباق خوصية مزخرفة، ثم تخرج تتقدم ابنتها، وقد حملت الفالاكا على رأسها دون أن تسنده بيدها، فاليمنى مشغولة بسلطانية الابريج، واليسرى ممسكة بطرف الجلباب خشية أن تتعثر فى الجرجار الطويل وتصرخ في ابنتها:

- هاتى أنت طبق السلاطة..عجلى..مالك تقفين مثل العبيطة..وتخطو على الطريق خطوة خطوة وتتوقف على حافة الساحة وتهمس:

- هوى..هوى!!

وتظل تردد: هوى..هوى دون أن تذكر اسم الرجل، فيبتسم أحمد عودة ويقول:

- ياسلام ياست فضيلة..مكسوفة مثل العروسة!!

فيضج الرجال بالضحك، وترمقهم الزوجة فى غيظ وتهمس:

- هوى..هوى..الأكل سيبرد.

فينهض برعى بسرعة ويتلقى عنها ماتحمله، فتعود متثاقلة تصيخ السمع إلى كلمات الرجال، وتستنكر صوت عبد الله الجزار الذى تعالى بقهقهة بائخة..

وفى الساحة رفع الشيخ فضل غطاء«الفالاكا» وهو يتلمظ وأعاده ونظر ليرى الشمس الغاربة تكاد تختفى بين غابات النخيل، فيعاود التسبيح بينما أبى يتوضأ ويتجه هو الاخر إلى الشمس يرجو أن تغيب بسرعة، فلا تبالى به بل تخرج من بين الأشجار كرة حمراء تلقى إشعاعاتها الذهبية على السعف، والكراديف..وترسم ظلال البيوت والناس طويلة.

وسعيد الصغير يجلس بجوار الشيخ جعفر الذى تحفز نافذ الصبر من الشمس التى لاتريد أن تغيب ويسب عم نوح الذى لايرضى أن يؤذن ، فيميل إلى الصغير:

- ولد..كيف حال أمك؟

- الحمد لله.

- وهل تصوم أمك؟

- تصوم..

- وأنت؟.

ويتردد الصبى قليلا قبل أن يقول:

- أنا أيضا أصوم والله العظيم..

فيضحك الرجل ويمسح على شعر الصبى ويسأل ضاحكا:

- ومن الذى يغطى أمك بالليل..قل لى ياولد من يغطيها بالليل.

فيصمت الولد ولا يجيب بل يطرق برأسه فى حياء، ويعتزم ترك الساحة والركض إلى أمه،

لكنه يواصل جلسته، فأمه ستضربه وتصرخ فى وجهه! ألست رجلا، أبوك مسافر..وأنت رجل البيت، تحل محله فى مجالس الرجال! إياك أن تلعب كما يلعب الأطفال..اجلس كما يجلس الكبار..كل كما يأكلون، اشرب مثلما يشربون، وصل حين يصلون، وحاذر أن تضيع ملاعقنا هناك فى الساحة..

وهاهى أمه تقبل بالأكل، وتتوقف عند حافة الساحة وتنادى:

- هوى..هوى..

لعلها تتخيل زوجها ، فلا تذكر اسمه، فالصبى هناك ليمثله..ويضحك فضل وأبىّ وينهض اليها أحمد عودة ويتلقى عنها طعامها وهو يهمس:

- أتعرفين ماذا قال جعفر لسعيد؟.

- ماذا قال؟. لعنة الله عليه..

- سأله من الذى يغطيك أنت بالليل؟

فترسل ضحكة وتسب الشيخ جعفر.

- رجل ضلالي! لا يصوم رمضان!.

- والله أنا صائم.. أما زوجك هذا فهو المفطر.

ويشير إلى الصغير: أما أنت فلا تصومين.

- أنا! ، فشر..زوجتك هى التى لاتصوم.

- والله إنها تصوم حتى فى الليل..لاترضى أن أمسها بحجة الصوم.. والمصيبة أنها تصوم كل شهور السنة..

فتضج الساحة بالضحك من جديد، وتنسحب أم سعدية هانئة تبتسم لنفسها..

وتختلج الشمس ثم تصفر وتتكىء على الرمل وتغيب وتنطفىء.. فيرتفع صوت نوح بالآذان وتنطلق معه صيحات الأطفال، وقبل أن يكمل تسبيحته تندفع الأيدى إلى سلطانيات الابريج، وتعب الأفواه ثم تزدرد حفنة من التمر، ويقوم الرجال للصلاة، ثم يعودون فى شوق إلى السلطات وآنية الأكل، ويرين الصمت لحظة، لايسمع المرء فيها غير صوت المضغ، وخرير الماء فى الحلوق، ثم يرتفع صوت الشيخ شليب:

- قال النبى:

- عليه الصلاة والسلام..

- قال..تحدثو على الطعام ولو بثمن أسلحتكم..

ويصمت ريثما يرسل لقمة إلي حلقه ويضيف:

- كنت فى الدرو هناك اشاعات تدور فى المقاهى:

وينتظر حتى يسأله الناس، ولكنهم يواصلون المضغ ويصيخون السمع، فيطول الصمت ولايقطعه إلا فضل بسؤال:

- هيه ماذ يقولون ياشليب؟.

فيزدرد الشيخ شليب لقمته ثم يقول:

- فى مصر كادوا ينسفون بيت صدقى باشا..

فلاينصتون بل يندفعون جميعا.

- الله يخرب بيته!

ويتردد عم نوح ويهمس:

- اللهم أعمر بيوت المسلمين!!.

فيسكته الشيخ فضل بإشارة من يده ويسأل:

- وهل قتلوه ياشليب؟.

- لاياشيخ..عمر الشقى كما يقولون طويل..

ويمضى الشيخ فضل يسرد قصصا عن الطاغية، أسر بها صفوى الذي يعمل فى بيت الباشا: وبرغم ذلك فهو يبطش بالشعب ويهشم رءوس الطلبة بالرصاص، ويكسر ضلوعهم وسيقانهم..

ويصمت قليلا، ويلمس ساقه الجريحة ويحدج الجزار بنظرة قاسية ثم ينشغل بالمضغ بينما صوت شليب يرتفع من جديد..

- وفى مصر..الشوارع تموج بالمتظاهرين يهتفون بسقوط الباشا..

- فى داهية..الله يخرب بيته..

فتلمع عينا المحامي ويهتف:

- إذن فسوف يستدعون النحاس للوزارة!

ولكن أحدا لايسمع إليه بل إلي شليب الذي استرسل:

- وعشرات الصنايعية فى السبتية قتلوا أو دفنوا أحياء فى أماكنهم وهم يتهفون بسقوط الباشا..

وهنا يصيح الجزار:

- عفارم..يموتون من أجلنا! يرحمهم الله..

ويتدخل أحمد عودة فى الحديث:

- لاياعبد الله، إنهم يتظاهرون فى سبيل الدستور.

وينتهى الإفطار، ويواصل الرجال أحاديثهم الشجية عن الأرض والطوفان، وبركات أفندى أثناء رشفات الشاى ثم يقومون لصلاة التراويح..

***

وتمضى أيام رمضان تباعا، ينامون فى النهار، لايعملون إلا قليلا ويسهرون الليل كله إلى السحور، بين حلقات الذكر والاستماع إلى القرآن يتلوه الشيخ يعقوب عليهم في الساحة مرتين أو ثلاثا فى الإسبوع، وقد يديرون أقراص الحزمة بمليم يادره، أكل الباشوات والأمراء، أو يستمعون إلي أساطير البطولة، يتلوها عليهم المحامى أو المأذون من كتب صفراء: غزوة أحد.. غزو بدر.. أبو زيد الهلالى سلامة.. وعنترة..

ويستقر رأي أبى فى إحدى الليالى أن يفخر بى أمام الناس فيسره فى نفسه إلى أن تنتهى

صلاة العشاء فيصفق بيديه ويدعونى:

- حامد..ولدياحامد..تعال هنا..

فأهرع إليه أخشى أن يكون الشيخ طه قد شكانى إليه من جديد، ولكنه يقربنى إليه، ويمسح على رأسي وهو يتمتم بالدعاء، ثم التفت وتناول كتابا أصفر وضعه فى يدى وأمرنى:

- اقرأ لنا ياحامد..

وارتبكت وأنا أزن الكتاب الأصفر وأقلبه أقرأ عنوانه:

« قصة سيف بن ذي اليزن»..

وشجعنى فضل بنظراته فمضيت أقرأ قصة هذ الرجل: فارس مقدام يحارب ويجندل الأبطال، ويغشى مجاهل الغابات والأحراش، ويصاول الوحوش ثم يقرر أن يكتشف منابع النيل، فحط به سهل وشال به جبل، جبال القمر. وهناك يحمل حملا إلى الجنة..وفيها ينابيع النيل..

وفغر الرجال أفواههم وهم يستمعون إلي قصة النيل. واستثيرت حماستى، فاندفعت أقرأ وأقرأ: أفهم بعض ماأتلوه ويغمض علي فهم معظمه، لكن القصة رغم ذلك كانت جلية واضحة، فالرجل نفسه، سيف بن ذى اليزن، يتوقف فى ذهول وخشوع أمام عيون ثلاثة، ترتسم فى شكل ميمات ثلاثة، تسيل منها المياه وتتجمع وتجرى فى أرض الجنة، ثم تنفذ إلى أرض الدنيا من حيث لايدرى، وتشق السهول إلى السودان وإلى مصر، تحمل الخضرة والرفاء للمسلمين ولأهل الكتاب من غير المسلمين..

ويدقق الرجل ويفحص فى الميمات- ميمات العيون- فيجدها ميمات البسملة، فيخر ساجدا لله شكرا على آلائه ونعمه..

وأحسست أننى وأن الرجال المستديرين بي يخرون سجدا مثله يشكرون الله، فقد عرفنا من أين ينبع النيل، وإلي أين يتجه؟! ولماذا يسيل بالخير فى وادينا؟ كشف عجيب أزال الحيرة التى ارتسمت دائما فى ذهنى كلما وقفت على شاطئ النيل..

إنهم يكتشفون الله فى النيل فيحبونه ولكنهم يخافون منه كما يخافون من الله نفسه. أليس مبعث رحمة..وفى نفس الوقت مبعث نقمة اذا مافاض أو غاض؟.

وتوقفت عن القراءة: أفرك عينى، وأنا غارق فى الميمات الثلاثة وسحرها العظيم، لكن« الشيخ فضل» يلكزنى بكوعه ويهمس:

- اقرأ ياولدى بارك الله فيك..

والرجل.. سيف بن ذى اليزن، يقطع وهادا أخرى، وينزل فى بلاد: وجوه أهلها سوداء مثل القار ويتساءل : لماذا اسودت البشرة..لماذا لم يخلق الله الناس جميعا بيضا مثل القمر..ثم يروى:

« فى غابر الأزمان نام النبى نوح عليه السلام فى خباء أعده فى الصحراء، يسهر عليه ولداه سام وحام، ثم هبت الريح واصطفق باب الخمية، واصطفقت معه ثياب النبى، فتعرت ساقاه ثم فخذاه وبانت عورته!!

« ولايبالى حام بمقام أبيه، فيشير إلى العورة، ويضحك ساخرا فيلاحيه سام وينتهره فيرتفع صوتاهما باللجاج..

ويستيقظ النبى ، فيدرك ماهما فيه ثم يرشق حاما الذى لم يرع حرمته بنظرات غاضبة..

«ويبدو أن الغضب قد استبد بنوح، إذ رفع يديه إلى السماء وقال:

رب ياذا الجلال ..رب يامن وهبتنى نعمتك..رب..

ويرتفع صوته حادا حانقا يختلط بالريح المعولة.. ويقول:

« رب.. لتجعلن وجه حام ولدى الجاحد أسود مثل القار!!

وعلى الفور بدأ وجه الولد يتحول، يربد ويغبر ثم يسود، حتى أصبح لامعا مثل الأبنوس..

« ولم يكن غليل النبى قد شفى بعد، فقد ارتفع صوته مرة أخرى «رب ياذا الجلال.. وليكن أولاده جميعا سود الوجوه..

ثم احتدم وأردف:

« وليكونوا جميعا خدما عند سام وأولاد سام. فى الحل وفى الترحال.آمين..

فردد سام من خلفه:امين.. بينما أطرق أخوه إلى الأرض كاسف البال نادما علي مابدر منه، ثم طرده النبى من أرضه، فحط به سهل وشال به جبل حتى كان فى هذا الوادى الذى توقف فيه سيف بن ذى اليزن..يدب فى طرقاته، يلمع تحت وهج الشمس كما يلمع الأبنوس، بين جماعات بيض الوجوه، يحارون فى أمره، ويجتمعون حوله ثم ينقذ لله أمره، فتقع عينا أميرة البلاد- ابنة الملك- على الأبنوس اللامع فتجن به وتشغفه، ثم تضمه إلي قصرها وتتزوجه!.

وجاء الابن الأول أسود مثل القار، والثانى والثالث، وجاء الأحفاد سودا مثل جدهم، يلمعون فى وهج الشمس مثل الأبنوس حتى امتلأ بهم الوادى الذى سمى باسم السودان فيما بعد»..

وتوقفت عن القراءة، ولم يلكزنى الشيخ فضل ولاغيره،! لم يأمرنى أحد بمعاودة القراءة، فقد كانوا يعلمون جميعا بقية المأساة!! أليسوا هم جميعا سود الوجوه بأمر النبى، بأمر الله سبحانه وتعالى؟

أليس أبناء حام من النجع: جمال وخالى عثمان ومحمد يعملون فى الحل والترحال خدما فى مصر عند أولاد سام؟.. خدما فى كل مكان عند أولاد سام! صدقى والملك وبركات أفندى والمستر هيس؟.. أليسوا جميعا من أولاد سام. أما عبده الفرنساوى، أم هم فليسوا إلا من أولاد حام الذين غضب عليهم النبى، فاسودت وجوههم مثل جدهم حام!!..

لقد تحققت النبوءة واكتملت حتى أوفت، بل إنها لم توف على غايتها بعدا!.

وعلى وجه فضل كان يرتسم ألم.. وهو يتذكر أهله جميعا الذين يعملون فى مصر، عند أولاد سام..ولعل فضلا كان يتساءل:

- ماضرك ياسيدنا نوح رضوان الله عليك، ماضرك لو عفوت عنه؟.

ويبدو أنه كا ينكر الأسطورة كلها إذ مد يده فى غضب وانتزع الكتاب منى وهو يهمس:

- قم فنم ياولدى..لقد اتعبت عينيك!!

وقاموا جميع يصطفون لصلاة التراويح، بينما اتجهت أنا يخطى حزينة إلى دهليز بيتنا..وارتميت بظهرى على العنجريب إلى جانب جدتى أقص عليها قصة الميمات الثلاث، وحام وسام فلم تتركنى أكملها بل أمرتنى:

- نم ياولدى ولاتفكر فى مثل هذه الأمور.

فأطبقت شفتى وأخذت أفكر: تري كيف كان حام..أكان مثل الشيخ فضل أم مثل أبى، أم فى لون جدتى هذه التى ترقد إلي جانبى فوق العنجريب..

ثم شملنى النوم وأنا لاأزال غارقا فى أفكارى، فإذا بى أرانى فيما يرى النائم واقفا على حافة جبل، أراقب الميمات الثلاث وعيونها، إلا أن العيون كانت تفرز لهيبا أحمر، يتدفق مثل السيل ويخترق الوديان ويشق مجراها ليسيل أمام نجعنا، أمام الساقية والفلوكة الرابضة عند الموردة، وإذا بى انتقل فجأة إلى هودية الساقية أراقب بقرتنا، وهى تدور وتدور ثم أفزع على صوت عويل ومرأي طرحة تعوم فى اللهيب، فأرى شريفة تغوص فى السيل، سيل اللهيب، للمرة الثالثة!!.

فأقفز من الهودية كالمسعور وأرمى بنفسى بين أمواج اللهيب لأنقذ شريفة فأرتطم بالنار، وأفيق على صرخة داوية تنبعث من حلقى وترج الدهليز كله..



فى الأيام الأخيرة من رمضان يتطلع الناس إلى العيد بأمل، ويراقبون السماء فى لهفة، ينتظرون ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، فتتحول رءوسهم دائما بعد صلاة التراويح إلى الفضاء، وتحدق العيون فى كل نجمة ونتوقع أن تنشق السماء عندها عن القدر نفسه!..

فيواصلون السهر، وقد أعدوا دعاء موجزا مقتضبا يهتفون به جميعا دفعة واحدة أمام القدر حين يتجلى لهم!.

ويندرون عند الشونة فيتساءل أحمد عودة:

- ماذا تطلب من القدر يافضل لو تجلي لك؟.

فيتنحنح الشيخ فضل ويهمس:

- ومن قال لك أنه سيتجلى لى! النحس يلازمنى ياأحمد..

- ليس شئ على الله ببعيد يافضل.. هب أنه تجلى لك فماذا تقول للقدر!!

فيصمت الرجل ولكنه يرمق ساقه الجريحة فى ألم، فلا يلح عليه أحمد عودة بل يتركه ليداعب المحامى..

- وأنت ياأستاذ..ألنفسك تدعو أم لنا جميعا؟.

فيتمخط ويبصق،ثم يتنحنح ليقول في صوت يدوى فى الساحة:

- لاجدوى..سيان بعد الطوفان أو قبله.. الفقر هو الفقر والبؤس نفس الشئ! فلماذا نتعب القدر معنا؟.

- لاياشيخ..كفاك فصاحة! ألا تريد أن تتزوج بدلا ..ثم يصمت إذ يقاطعه المحامى:

- القدر لم يمنعنى من الزواج ..المصيبة التى نحن فيها هى.. ما أضنى فؤادك ياأحمد..مالك بليدا لاتفهم؟.

ويسكت و،يبتلع ريقه ثم يضيف:

- سأقول جملة واحدة: اللهم مر الطوفان أن يكف أذاه، ويسر الآخرون هذه الكلمات فى نفوسهم، سيهتفون بها للقدر فى سرعة إلى جانب أمنياتهم الشخصية..

وينصرفون إلى شئون العيد، ويدلفون إلى المتجر ويقطعون أمتارا من الدبلان والباتستا والشيت والطرح الملونة وقدرا من السكر والشاى، ويعودون إلي بيوتهم ظامئين يقولون لأنفسهم : أيام خمسة ثم ينتهى الصيام ويهل العيد..مرحى!..

الحركة دائبة بين الدكان والبيوت وجزارة عبد الله ودكانة عم شاهين الترزى. والفتيات فى البيوت يطرزن، وينظفن كل ركن فى البيت، لاستقبال العيد ويسهرن علي ضوء الفوانيس، لكشكشة الجلاليب عند الصدر وتطويقها بزيق أحمر، ويجددن تسريحة الشعر بعد بله بمنقوع الشاى، والصغار ينشرون جلابيبهم على الصدور ويقذفون بها بعيدا.

- جلابية صالح أحسن من جلابيتى..أريدها بياقة..

ويعزقون بالموسى أقدام مداساتهم ثم يلحون فتتوسل الأم عند حاكم الإسكافى ليعد زوجا آخر..وأين جيب الساعة!؟ وأين الجوذلان والكاتينة والسلسلة ..أما الطاقية المزركشة فمخبأة فى

السحارة..

حتى أمي تنسى خطوطها، وتنصرف لمشاغل العيد، وتراقب ابنتيها وهما تعدان ملابس العيد لها ولجدتي ولنفسيهما فترشدهما وتنهاهما عن تمزيق الجلباب عند الصدر، والكشكشة في الجرجار يجب أن تكون عريضة حتى لاتجمع التراب والشوك، ويجب أن تتسع حتى لاتشتبك بالخلخال، ثم بخي يابطة طاقية حامد واطويها حتى تلمع..تقول هذا وترمقني في حنان وتشمل وجهي بنظرتها الطويلة المشفقة ثم تسأل:

- حامد..ماذا تتمنى على الله في ليلة القدر؟.

حقا مذا أتمنى؟ المدرسة؟.. أي شيء؟... حرت كيف أجيب ثم قررت مثل المحامي أن أطلب من القدر أن يكف الطوفان أذاه، لكنها انشغلت عني قبل أن أجيب لتلقي نظرة على جميلة وهي تجرب جلبابها.

وإذا كان المساء خلوت إلى بطة أوشوش في أذنها:

- ماذا نتمني يابطة في ليلة القدر؟.

فتركت الأبرة في الغرزة ومالت بوجهها وقالت:

- أمنا ياحامد مريضة.

أمنا مريضة!..يالي من غبي!.. لماذا لم أفكر في هذا؟.. سوف نطلب من الله أن يمن عليها بالشفاء، فلا تنتابها الإغماءة ولاترسم على الأرض تلك الخطوط.

واستقر الرأي واتفقنا أنا وبطة أن نسهر كل ليلة في فناء البيت وأن ننم مباشرة بعد الإفطار وننسحب بعد أن نصحو إلى الفناء نتلفع بحرام ثقيل لننتظر طاقة القدر حين تفتح.

قررنا أن نحظى وحدنا بشرف هذا الدعاء، فلم نفض به لأحد لا لأبي ولا لشقيقتنا..وحين تشفى الأم سيكون في مقدورنا وحدنا أن نتباهي ونحظى بأكبر قدر من عطفها.

وأخذنا منذ تلك الليلة ننام بعد الإفطار، ثم نصحو ونتوضأ ونصلي ونسهر في الفناء، ثم شعرت أننا بعيدان عن السماء، فأخذنا في كل ليلة نتسلق جذع النخلة ونهبط منه إلى السقف، ونرتكز هناك في صمت نرقب السماء ونتطلع إلى الشرق والغرب وفي كل اتجاه. وقد تنام بطة فألكزها بكوعي وقد أنام فتزغدني هي لتوقظني.

قلت لها مرة: لكن هل يطلع القدر لنا نحن الصغار؟...سيطل على الكبار يابطة وليس لنا! قالت : كم أنت عبيط! إنه يطل على الصغار ماداموا طاهرين.ألم نتوضأ؟.. ثم زغدتني وهي تهمس: لاتشغلني فقد نتشق السماء وأنت تثرثر فلا نراها..اصمت ولاتتكلم.

والتصقنا تحت الحرام نتلمس الدفء، وعيوننا تتفرس في السماء التي بدت صافية كعين الديك. زرقاء، مزدانة بالقمر وبآلاف النجوم تبرق هنا وهناك، وتنهض إليها مئذنة الجامع: كتلة طينية سوداء طويلة، مدببة- يتصل النور بينها وبين الصخرة المعلقة علي كتف الجبل، بينها وبين غابات النخيل، والنجع صامت إلا من همهمات عند دكانه الترزي، وأدعيات التراويح تنبعث من الجامع، وضحكة خلية، واهة مكتومة ، السماء كبيرة واسعة، وقد خلا الفضاء في شهر رمضان من مواكب الجن الذين يحاولون تسلق الملكوت الأعلى واختراق السماء. إنهم محبوسون في قماقم

بأمر الله! بصرانا لايكلان،بل يتفرسان. ونحن صامتـان نكاد نسمع دقات قلبينا، يفزعنا من أحلامنا سعال الجدة وهمهمة «جميلة» في منامها.

وفي منتصف الليلة الثانية قبل الأخيرة من رمضان، كنا لانزال نتفرس في السماء، ونحملق بعيوننا في النجوم، وفي الزرقة المعتمة المحيطة بأنوارها البارقة.

وفجأة ، وبينما نفتح أفواهنا لنقول شيئا انشقت السماء عن خط لامع بارق يجر ذيلا طويلا من خلفه. ذيلا من النور الزاهي، تزايلت النجوم فيه وتلاشت الزرقة الصافيه في حواشيه.

وشملتنا نحن رعشة أفاقت منها بطة تصيح :حامد... حامد.. ليلة القدر ياولد؟ فدب الارتباك في جسدي، وأحسست بشئ يقف في حلقي مثل الخازوق أحرك لساني فلا تخرج الكلمات من فمي، ثم تألقت الدموع في عيني، وبطه مازالت تصرخ: ليلة القدر.. اه..لقد اختفى كل شيء، وعادت السماء إلى زرقتها المعتمة، وعادت النجوم تتألق والقمر يسطع.. وحينذاك عاد لساني إلى حركته واختفى الخازوق من حلقي فرحت اهتف، واقفا على قدمي، مطوحا بيدي للسماء: أمي..أمي..أشف ياربـاه أمي.. ثم اختنق صوتي بالبكاء،وتهاويت على سقف البيت، وارتمت بطة فوقي وهي تبكي وتصرخ: رباه.. أشف أمي ياربـاه..

وصمتنا ، وفي قلبينا إحساس بحزن ثقيل يجثم علينا، وعلى الكون كله، حزن تضاعفه قتامة المئذنة والصخرة المعلقة على كتف الجبل، حزن يتسرب إلي كل ذرة من جسدينا. ثم تحول الحزن إلي ندم شديد ينيخ على صدرينا..ألم نغفل؟..ألم نعجز عن الدعاء حينما انشقت السماء لنا.. تعيسان منحوسان..لم ننتهز الفرصة المتاحة.

وانكفأنا نبكي ونصرخ إلى أن تنبهت جميلة التي استيقظت لتعد السحور إلي صوت بكائنا فراحت تنادي:

– من الذي يبكي فوق السطح..من؟.

وصمتنا فجأة حين وقفت تحتنا مباشرة تستمع إلي وشوشتنا ثم أصابها الذعر فراحت تهس : باسم الله ..باسم الله..أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وأقبلت عليها الجدة من الداخل تقول في صوت متثائب:

– جميلة..أين حامد..أين بطة؟.

– أليسا في الدهليز ياجدة؟.

– كلا.

وصمتت لحظة ثم أضافت:

– البنت العفريته سحبت أخاها لتسهر في انتظار ليلة القدر شعنونة..

ورفعت جميلة رأسها إلى السقف وقالت: بطة..أنت ياولد؟.

فأجبنا بعد صمت، ثم تسلقنا جذع النخلة من جديد إلي الأرض،وارتميت في أحضان جدتي وأنا أصرخ: ليلة القدر.. انشقت السماء ..لكننا ..سامحيني ياأماه، فأدركت الجدة كل شيء من كلماتي المتقطعة، فتحسست شعري وساقتني إلى العنجريب، ولم تتركني إلا أنا أغط في نوم

عميق لم أفق منه إلا حين طرق «نوح» بقبضته على باب بيتنا يدعونا للسحور، ومض ينشد فى طرقات النجع أنشودة الوداع: لاأوحش الله منك ياشهر الصيام ..لاأوحش الله منك يارمضان..

ومر يوم الوقفة فى هرج، وازدحم الناس على دكانة عبد الله الجزار والترزى ،وراج متجر أبى، وعاد الرجال من الحقول مبكرين يسوقون دوابهم. وانفض مجلس الإفطار ورقد الأطفال،وسهرت كل أم إلي أن غلب النعاس عيون الصغار، فاقترين منهم على أطراف الأصابع، وفى أيديهن زجاجات عطر نفاذ يسكبن منها قطرة واحدة على الشعر ويفردن القبضات الصغيرة المطوية، ويلقين فيها بقطعة صغيرة من الحناء، ثم يلتفتن إلى الأزواج يداعبنهم ثم يسلمن أنفسهن للنوم وعلى الشفاه بسمة، وفى العيون المغلقة تطلع إلى شمس العيد..

وسهرت داريا عند أم سعدية وعادت بقلب مثقل، فخيال جمال والبيضاء لايبارح فكرها. صحيح أن جلبابيهما– هى وشريفة– مازالا جديدين، ولكن العيد ليس جلبابا فحسب بل لحوما مشوية ومسلوقة وأنى لها بكل هذا، ولولا الكوارع التى تخلى عنها الجزار لهما لما عرف بيتهما «الزفر» في يوم العيد، والعصيدة التى تقدم فى الصباح لابد لها من سمن وعسل ،والعسل ميسور.أما السمن فحسبها ما استعارته من أم سعدية.

دلفت إلى بيتها فوجدت شريفة ساهرة فمضت تدردش معها إلى أن نامت الفتاة بعد قبضة من الحناء فى يدها، وقطرة ماء كبتها على شعرها بعد أن رجتها في زجاجة عطر قديمة فارغة اختلستها من بيت فضيلة وواصلت «داريا» تفكيرها فى جمال، بينما حسن المصرى فى الشونة ينطرح على برش ، يقلب طرفه فى السماء، ويغمغم بأغنية صعيدية ثم يصمت وفى عينيه حنين جارف إلي قريته وصباه فى ليلة العيد..

١٩

وعند السحر أفاقت أشجار النخيل من نعاسها ومضت توشوش ، وتنبهت عيدان القمح القصير على النسيم يعانق خصورها الضامرة .

ومن خلال الغلالة الفجرية الرمادية الباهتة لا تتناهى الى أسماع الكون ولا الى الابصار إلا همهمات وأشباح نفر قليل من الرجال تناثروا على الشاطئ عاكفين فى ضوء الفوانيس على المراكب الصغيرة البيضاء يرتقون ثقوبا فى الشراع ، ويعلقون فوق الصارى والشاغول والراجة بيارق ذات ألوان وأجراس صغيرة ذات صليل مثل صليل الفضة والذهب .

ثم أطلت الشمس وفتحت الابواب الموصدة ، تغير لون النجع كله اذ انتشر فى الطرقات كرنفال تنعكس عليه أشعة الشمس الصباحية الفاترة كرنفال رجال ونساء وأطفال يندفعون الى سفوح الجبل ، فى زحام من الاردية الملونة ، جلاليب طويلة تجرجر ذيولها خلف مداسات النساء الحمراء ، جلاليب من الباتستا والشيت والفوال المقلم و الحرير اليابانى برسومه الصارخة وجلاليب بياقات وقفاطين وعمم بيضاء ، «طواقى» عليها جمال باركة وأخرى رابضة ، وطرح تنسدل على جدائل بارقة بالزيت يهتز طرفاها فوق النهود ، وأكف مخضبة ومناخر مثقوبة تتدلى منها حلى ذهبية مستديرة ، وقطع مثلثة تتراقص على الجباه ، ولبات صغيرة صفراء تهتز على النحور فى نغم يوشوش وينسجم مع الخطى الصارخة برنة الخلخال .

«درايا » عاطلة فقد باعت مصاغها كله للتاجر منذ شهور ولم يبق لها الا خلخال صامت يضيق الخناق على ساقها ، تخب على الطريق وفى يدها ابريق .. تنسكب قطرات الماء من بزبوزه ، ومن خلفها شريفة تتعقب خطاها فى صمت ، مطرقة مثل أمها ، تفكران فى «جمال» وزوجة بيضاء تلك الفاجرة فلولاها لكان جمال هنا فى العيد .

العصى المقوسة ذات المقابض النحاسية المعقوفة تنغرز فى التراب لترتفع الى مستوى الاكتاف ، حيث يتأرجح كرباج مطوى تحت الأبط ومصاحف صفراء تبعث منها رائحة العتة والقدم..

وعند التقاء نجعنا بنجع المجراب ارتفعت همهمة تتضخم حتى أصبحت داوية : الله أكبر .. لا اله الا الله .. الله أكبر الله أكبر .. تنبعث فى صوت عميق من حلق الشيخ عبد العزيز .. يرتلها من خلفه عشرات الرجال ، انضم اليهم موكبنا الزاحف ، فسرى التهليل والتكبير يتداح بين أشجار النخيل ، ويتردد فى الوادى كرجع الصدى يرتد من الجبل .

من كل فج كان الموكب والتهليل يتحرك من الغرب والشرق ، ومن النجوع القبلية ، والبحرية ، ولا يتوقف الا عند الجبانة . حيث يرقد أعزاء ، لا تدل عليهم الا شواهدهم : حجارة بيضاء مدببة ، وصبار متجهم ظامئ يطل على رجال راحوا ، رجال تسلقوا أشجار النخيل مثلما نتسلقها وعبروا النيل كما نعبر ، نساء شغلن هؤلاء الرجال فى يوم . ووهبن الحياة لزهرات سمراء دبت هى الأخرى على نفس الطريق ، زهرات ضاعت كما ضاع جمال فى زحام المدينة اللاهية .

وتوقفوا قليلا فوق الشواهد وترحموا ، وذرفوا دمعة وفاء لا تباح الفرحة بالعيد الا بعدها ، ثم انفلتوا تاركين نساءهم يبكين على المقابر .. انفلتوا الي الساحة الرملية الواسعة الممتدة أمام قبة الحاج مكاوى ، يتخففون من مداساته ثم يفترشون الرمل الأصفر ، ويندفعون بحناجر داوية الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله .. الله أكبر ، الله أكبر . الله أكبر .. حناجر يتردد صداها

على الجبل الشرقى ، وينعكس علي القبة البيضاء ويندلح على الرمل الأصفر .

ثم أنهى الامام تكبيراتهم ، اذ وقف ولوح بيده ثم نشر ورقة أمام عينيه وألقى خطبته التى نسخها من كتاب أصفر ، عاش فى القرية يحمله تحت أبطه فى غدوه ورواحه ، ثم انتهت الصلاة ، وتشابكت أيدى الرجال وقفزت الامنيات الى الشفاه ، الا الشيخ «فضل» ، فقد حيا الجميع ، وأبى أن يمد يده الى عبد الله الجزار ، فاستشاط هذا غضبا وانتفض.

وكاد جلال العيد يتبدد.

ثم توقفوا على المقابر يرتلون ايات : «الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر. واذا جاء .. والضحي ، ومن شر النفاثات فى العقد» ، وراحوا يستمطرون شآبيب الرحمة على أرواح عزيزة تعيش فى دار الأبدية ، وانسلوا ينفضون أيديهم من كل حزن ويطلقون الضحكات الداوية ، ويشرقون بالابتسامات العريضة ترتسم على وجوههم الطيبة السمراء .

وعاد الكرنفال يدب من جديد علي طرقات النجع ويتفرع هنا وهناك بألوانه الزاهية - وعند المنعطف توقفت جدتى تستقبل درايا ، وتهلل :

- درايا .. درايا «سكينة» كروج آجانلى .. تعيشين يا درايا أعواما سعيدة .. عدد الرمل والحصى.

فافتر ثغر درايا عن ابتسامة مضيئة مشرقة وراحت تهلل :

- تعيشينها أنت وأبنتك فاطمة وأحباؤك ، وأحباء أحبائك مدد الشهور والسنين والأعياد .

وتتعانقان ثم تنفصلان الى أخريات ، يسرى بينهن أطفال صغار يملأون الدنيا هتافا وصياحا مرحا فى أصوات مسرسعة .

وتلتقى جدتى بزوجة حاكم الاسكافى وتبادلها أمنيات غالية ثم تنعطف على «نور» الصغير ترفعه الى صدرها وتقبله ولسانها يلهج : مبروك عليك ثوبك الجديد يا ولدى ... لتعش حتى يذوب غيره وغيره ، وليحفظ الله أباك وأمك ورعاك لهما يا نور.

فيبتسم الصغير ويلثغ ثم يقفز الى الأرض ويجرى ليختلط بالصغار الآخرين الذين مضوا يتقافزون وينسلون بين سيقان الرجال والنساء .

وعلى المصاطب ، أمام كل دار صفوف من الأوانى الفخارية ، تغطيها أطباق الخوص .. ثم تلال صغيرة من التمر والفشار الابيض ، والى هذه الاوانى تسابق الرجال والشباب يرفعون الأغطية عن الأوانى ، ويتأملون لحظة عصيدة تسيل فوقها - فى قنوات - قطرات من السمن البلدى وعسل البلح ، فيأتون عليها فى سرعة مذهلة اذا ما راقت لهم ، ويتلفت الشباب ، ويكبشون حفنات من التراب يذرونها فى سرعة على كل عصيدة لا تروقهم ، وينفلتون ضاحكين إلى صفوف أخرى .

وعلى عتبة باب بيتها توقفت درايا سكينة ، وانقبض قلبها بالأسى وهى تراقبهم يكبشون التراب وينشرونه علي عصيدتها . خسارة أرهقت نفسها فى الصباح لتعدها ، وقطرات السمن التى أراقت ماء وجهها فى سبيلها ، والعسل .. كل ذلك نثر عليه التراب ! انقبض قلبها

وتهامست : يا الله .. عفاريت .. أولاد .. لو كان جمال هنا .. آه يا قلبى!

ثم انسحبت الى الداخل كاسفة البال حزينة تدق على صدرها تسب وتلعن صالح جلق ، وبرعى وسعيد الصغير

وسمعتها شريفة تقول :

- جمال .. لو كنت هنا يا جمال !

فابتسمت وهمست : ثلاث سنوات مرت على غيابه . وقبلها كان جمال نفسه يعفر بالتراب مثلهم عصيدة الآخرين ، وكنت تفرحين لشقاوته فاستدارت داريا اليها دون غضب ، فلعلها استعذبت الذكري ذكرى ابنها الغائب ، لعلها أرادت أن تستعيد الذكرى حين قالت:

- فاكرة يا شريفة حين جاءت أم سعدية تشكو «جمال» في يوم عيد بعد أن عفر ما قدمته بالتراب .. كانت كاسفة البال مثلى .. حزينة مطرقة حزنى يا شريفة.

- وأنت يا شريفة كنت ساعتها تنظرين اليها فى شماته ..

بينما المسكينة تذرف الدمع .. قلة أدب.

فعبست الفتاة قليلا ثم قالت :

- وأنت ضربتينى يا داريا فى يوم عيد .. ما كان من حقك يا أماه ما كان من حقك !

- اسكتى يا ابنتى .. ولا تقلبى المواجع الهى يرزقك بمن يسعدك .

ثم مضت ترمق صدرها الناهد فى أعجاب وأردفت : كنت صغيرة أما الآن فقد طاب الثمر للأكال..إلهى يابنتى..

فضحكت الصغيرة ثم قالت فى تردد: لاأريد أحدا يسعدنى..ثم لاحقتها الدوامة من جديد.. الأفكار والذكريات، ووجدت نفسها تفكر فى برعى وفى السحر الجميل وفى حسن المصرى.

وتراخت عيناها لحظة وهى تلوك هذه الأفكار فى مكان ما خلف رأسها ، فنحت بيدها ضفائر ظللت عينيها ، وهزت رأسها بعنف ثم استسلمت وانحنت تمسك بفخذها. ثم شدت من قامتها ، وألقت نظرة سريعة على صدرها متوهمة أن جلبابها تمزق عند النهدين الصلبين، فأسدلت طرحتها بدافع غريزى ثم أفاقت من دوامة أفكارها على صوت داريا يئن:

-يوم زفافك سيكون يوم عيدى يابنتى!

وصمتت فجأة وكأن شيئا رهيبا ضغط على صدرها ، وشخصت ببصرها إلى الفتاة ثم همست: شريفة، تتزوجين بشرط واحد..تبقين هنا معى ولاترحلين. وأشارت بيدها: هذا الديوانى سيكون لكما ، والدهليز ، أما أنا فهذا الحاصل يكفينى ، ولقمة صغيرة ، وفنجان شاى، سأعيش معكما ومع أطفالكما إلى أن أسلم الروح، ستسمين أحدهم باسم جمال.. والثانى- وقاطعتها الفتاة قبل أن تكمل جملتها: لن أتزوج ياأماه.. لن أتركك ماحييت!فتقدمت الأم منها واحتضنتها وهى تهمس: لاشئ ينتزعك منى ياحبيبة..ثم كفكفت دمعة وواصلت حديثها: كفانى ماعانيته من جمال..آه منك ياجمال. وتهدج صوتها واكتست عيناها قتامة رمادية محزنة:فقط لو أرسلت لى خطابا واحدا فى العيد..طردا صغيرا لايزيد عن قبضة اليد..ياخيبتك في ولديك ياداريا سكينة مات البكرى وضاع الثانى!.

ومضت تبكى بينما الصغيرة تحاول تهدئة روعها فلا تملك نفسها ،بل تبكى هى الأخرى فى صمت بينما تسترسل الأم:الولد سر أبيه. كان أبوه يهجرنى أعواما . . لايسأل عنى. ثم يعود ليهجرنى من جديد. . لعنة الله عليه. . فتنتفض الفتاة وتتملص من أحضانها وهى تقول اتركى أبى في حاله. أنه هناك ينام فى قبره لهفى عليك ياأبى. لو كنت معنا وتهدج صوتاهما بالبكاء مرة أخرى وقد عادتا إلى أحضان بعضهما، ثم تشعر داريا أنها أفسدت بهجة العيد على ابنتها، فتنتزع ابتسامة ترسمها علي شفتهيا وتبعد وجه الفتاة وتنظر إليها مليا ثم تهمس: ابنة أمك ياشريفة. جميلة. . وتلمس الكشكشة عند الصدر وتردد: فى أيامنا لم يكونوا يسمحون لنا بهذه الكشكشة. فتبتسم الفتاة وتمسح دموعها بطرف طرحتها وتقول أيامنا غير أيامكم. . أما رأيت جلابية سعدية. . حتى أمها العجوز. فتتنهد داريا وتقول: أيامنا يابنتى كانت أحسن: السمن فى البيت. والقيراطان. . كل شىء وأبوك. . وجمال. . وتوقفت عن الكلام مع صرير الباب. . واستدارت اليه بوجه متهلل تستقبل نسوة جئن للتهنئة بالعيد: نبوية التى رقصت يوم جواب حسين النجار والسيدة البيضاء «أم زين» وانفلتت شريفة تعد أكواب الشاى وعيناها لاتتركان هذه الزائرة الجديدة:بيضاء، جميلة. . تعدت الخامسة والثلاثين. شعرها فاحم ورغم ذلك ، ينسدل على كتفيها ورقبتها من تحت الطرحة الخفيفة ويلامس تقويرة الجلباب الذى لايختلف فى شىء عن جلابيب نساء القرية إلا فى ضيقه هنا وهناك، حتى أنه امتلأ بجسدها البض، وانبعج عند صدرها وفوق ساقيها، في عينيها ذكاء وشطارةتحدقان من وجهها الأبيض المستدير ومن خلال إطار الكحل الثقيل.

أم زين هذه أصبحت محط أنظار الرجال، والنساء فى القرية يرمقنها فى إعجاب وفى غيظ فى نفس الوقت. وقد أدركت هي مايعانينه فمضت تداورهن بذكاء غريب فألفتها كل واحدة ولأمر ما وفى بيت داريا سكينة مضت أم زين تعرض بزنوبة زوجة جمال وكأنها تعرفها: أما أنا فإن زوجى لم ينس أهله أبدا، كان يرسل لهم. كنت أدفعه إلى مساعدة أخته. كذابة والله. ولكنها كانت تواصل رغم ذلك اطراءها لنفسها وتعريضها بزنوبة. تضغط على كلماتها لتصيب مرماها فى قلب شريفة وأمها.

وتمكنت بالفعل من قلبيهما فأنستا إليها، بينما مضت تتحدث عن العيد فى مصر، ومباهج العيد والمراجيح وعن كل شىء تدريه أو لاتدريه حديث العالم الخبير. . !

وتنتهى الزيارة حين يحل المساء، فينصرفن للفرجة على حلقات الذكر وملاعب الشباب فى ضوء القمر، ويستمعن إلى المنشد يعلو صوته: حتى ولا فى يوسفا. . في يوسفا. . فى يوسفا الرجال يتطوحون ويذوبون فى ملكوت السماء، ويغيبون عن الوجدان، دون أن تغيب رائحة العرقى فى أفواه بعضهم ثم يستريحون ويتربعون على الأبراش يحكون نوادر العيد، ثم ينتفضون من جديد يرجون الأرض بأقدامهم الشابة والدف يتابعهم بنقراته الخافتة الهادرة تصاحب لعلعة صوت المغنى: سمراء ياسمراء مثل الليمون. قد سئمت تلويحات يديك من وراء الشباك فاهبطى من عليائك ياسمراء وناولينى يديك!. .

وخلف الأبواب ، وفى الساحة نفسها ، عند الحافة وقفت بعض السمراوات يستمعن إلى الكلمات العذبة وقلوبهن تهتز بالطرب.

وانتهت السهرة، وشرع الناس ينصرفون، والأقراص السوداء تدور وتضغط على المقطع الثانى من خوجلى عبد المجيد- اسطوانات ميشيان!

ثم راحت الأنوار الهامسة تخبو فانوسا بعد فانوس، فرقد الرجال فى أحضان النساء، اهبطى من عليائك.تاولينى يديك.. اهبطى لترتفع الهمسات والضحكات الخافتة،تتصل بين صدور متشابكة وذراع تعبث بخصلات شعر على مفرق وجه أسمر..



الضحى من اليوم الثالث، النجع لايزال يتبادل الزيارات ونحن وقوف على الشاطىء بملابسنا الزاهية وجيوبنا منتفخة بمناديل صرت فيها قطع الملبس والقروش والهدايا..

وعلى مدى البصر فوق صفحة النيل مراكب بيضاء تخطر هنا وهناك، ونحن نهلل لها، ونتقافز في انتظار دورنا للركوب والتجول في النيل..

ورست مركب «عوض كتية» على الموردة، وتوقف الملاح على حافتها ينادى علينا وهو يمسك بالشاغول ويهزه فتصلصل الأجراس الصغيرة صليل الذهب والفضة، ويهز الراجة فينتفض الشراع، ويشد الشاغول من جديد فيمتلئ القلع بالنو ثم يتركه ليصفق وكأنه ينادينا..

المركب مزدان مبرقش، والبيارق، تنعكس ظلالها الخفاقة، في أغوار النيل، في مياه الشتاء الضحلة..

تواثبنا عبر السقالة إلى المركب ونحن نهتف..

- كروج آجا نللي ياعوض.. كل عام وأنت بخير ياعوض..

- أكون نللي. وانت ياابني وأبوك واهلك جميعا.

ثم فضفضنا مناديلنا ووهبناه ملاليمنا، وتوقفنا على حافتي المركب نستند على الشاغول والصاري ونرسل ضحكات صاخبة تتداح عبر الماء وترتد إلينا فنفرح أيما فرح..

وأمسك عوض كتية الدف ينقر عليه نقرا خافتا ثم هادرا ينبه الذين كانوا لايزالون يتسكعون ليهرعوا اليه..

ثم رفعت السقالة أقلعت سفينة المرح. وأصواتنا تعلو بالضحك والغناء خلف النقرات المدَاوية بينما صوته الرخيم العميق يغني للعيد..

ثم ألقى بالدف، ويبدأ يتلاعب بنا فوق صفحة النيل: يملأ الشراع بالريح. ويدير الدفة فتميل المركب الى جانبها الأيمن وتكاد تغرف من الماء البارد وتنقلب، ويوشك الشراع المائل أن يمس صفحة الماء ونحن نتشبث بالليان والأمراس خشية الانزلاق في النيل، بينما حلوقنا يشقها الضحك المتصل، فلا نبالي بصرخات العجائز على الشاطىء ودعائهم المتصل: أن نعود ولانتوغل في النيل.

ثم يرخي الملاح شاغوله فينفض النو، وتنعطف الدفة وتستقيم المركب لتجري رخاء وتخطو كاليمامة هونا على صفحة النيل، تحدوها أصوات بأنغام حلوة نرسلها وراء نقرات الدف..

وفجأة يندفع الريس بالمركب إلى غابة من السنط متشابكة تميل على الجرف، فيكاد الشراع يعلق بها ويتمزق فنصرخ وننبهه إلى الخطأ الذي يرتكبه فيبتسم لنا في هدوء. ثم ينعطف في اللحظة الأخيرة ويوغل من جديد في النيل، ويسري بنا والدف في يده حتى يرسو بنا في ابريم، في محاذاة دكانة أحمد عبد الله حيث نشتري علب الحلاوة الطحينية وصناديق الملبن والحلقوم

والبسكويت، ونعاود لهونا ومرحنا الذى لاينقطع..

وإلى الشرق والغرب من كل اتجاه بدت مراكب شراعية أخرى.. كل واحدة تقل أطفال نجع من النجوع، يهللون ويملأون النيل بأغانيهم وصيحاتهم المرحة، ويلوحون لنا فنلوح لهم بتحية العيد..

وعادت المراكب كلها فتجمعت عند الظهيرة فى خط واحد، فى محاذاة الشمندورة الحمراء، مابين الجزيرة والضفة الشرقية، وراحت تتحرك وتتقدم وتتأخر إلى أن تراصت وكأنها طابور عسكرى بديع..

وعلى حافة كل مركب أطفالها المتحمسون يهتفون..

- سنغلبكم..

فيتحداهم الآخرون فى صيحات دافقة.. وفجأة ونحن نغرق النيل بصيحات صدرت إشارة البدء على نقرات دف، فشد كل نوتى شاغوله وأدار الدفة،.وفغر كل طفل فاه، وانتفخ كل شراع، ثم انطلقت المراكب تركض فى خفة على صفحة النيل تسابق الأخريات..وعلى حافة مركبنا صمتنا فى حزن، فإن مركبنا أخذت تتقاعس حتى أصبحت فى مؤخرة الصف. والمسافة مازالت طويلة، فلابد لنا أن نبلغ القرن الشمالى للجزيرة ثم نعود عند الشمندورة قبل الآخرين..

هذه مراكب الآخرين تحاذينا فيهتف أطفالها لنا :آفيالوجو..آفيالوجو(مع السلامة) ملوحين بأيديهم مرسلين ضحكات الشماتة والفرح، فنرد عليهم فى حسرة ثم ننقلب على «عوض كتية» نستحثه ونشجعه . ونقدم له كل ما فى جيوبنا من حلوى وقروش، فيأخذها دون أن يبالى بنا.. ونصمت قليلا ثم يجن جنوننا، فنعود نستحثه ويظل هو هادئا ينقر على دفه، ويرسل نظرة مختلسة إلى المراكب الأخرى، ثم يهمس لنا من بين أسنانه الممسكة بالشاغول: ولايهمكم..سنسبقهم. كيف بالله عليك ياعوض..فها نحن فى المؤخرة؟..ولايهمكم..دعوها تسبقنا الأن.. وبعد قليل سترون بعيونكم فنهتف له ونطمئن، إلا أن المراكب كلها ظلت تتقدمنا، فعاودنا القلق والحزن ثم عدنا نصرخ فى وجهه: شرف النجع كله فى يديك ياعوض..هيا ياعوض..وحياة أمك ياعوض!..

ولاندرى كيف استطاع عوض أن يلتوى علي صفحة الماء بمركبه..كيف أمكنه أن يتخير مجرى تيار مائي يندفع فى سرعة شديدة إلى الشمال..إلى نقطة النهاية.. تيار خطر سريع الحركة أخذ يندفع بمركبنا فى سرعة مضاعفة، وعوض لايزال يعض على الشاغول بأسنانه ويهمهم اصبروا ياعيال..اصبروا! وحاذينا أول مركب وتجاوزناها ونحن ننقر على الدف ونهتف:آفيالوجو..آفيالوجو..فيلوحون لنا فى آسى..ثم حاذينا المركب الثالثة فالرابعة، والشاغول لايزال بين أسنان عوض..

وها نحن في القرن الشمالى للجزيرة، نستدير عنده ونملأ الشراع بالريح،ونعود نحاذى مركبا..لاتزال تتجه إلى طرف الجزيرة،..

وتوقفنا عند نقطة البداية من جديد.. بينما الآخرون يجاهدون للحاق بنا، وظل أطفال نجعنا يرقصون ويهللون يقودهم عوض كتية بدفة وصوته الرخيم..

ثم مالت الشمس إلى الغرب، ورست المركب عند الموردة. وقفزنا إلى الأرض. وفى عيوننا بهجة وحسرة فى نفس الوقت، على يومنا الأخير فى العيد..

وعلى الشاطىء وجدنا أبى «والشيخ فضل» يراقباننا حتى دنونا منهما فصاح أبى بنا:

- خشينا أن تغرقوا فى النيل..إياك ياحامد أن تنزل إلى النيل مرة أخرى..

فتبسم الشيخ فضل وقال:

- دعهم ياأمين.. فهذه أيام العمر..نشقى فى سبيل ساعات مثل هذه ..ليست كل حياتنا أيام عيد..

وأمسك بذراع أبى وابتعدا. هو يزك بساقه وأبى يمرجح عصاه، بينما انفلتنا نحن نعود، وننعطف إلى السكة الزراعية، من حولنا عيدان القمح الخضراء، ترسل حفيفها المتصل وتتراقص على هبات النسيم..

***

وقبل أن انعطف لأشرف على الطريق المؤدى إلي بيتنا، وجدت برعى يتربع فوق ربوة مرتفعة عن الأرض..وراحتاه تعتمدان رأسه، وعيناه تحدقان فى اتجاه واحد- لايحيد عنه، وعلى وجهه وقار، اتخذه منذ اعتقاله فى السلحليك سمة من سماته ، فابتعد عنا نحن الصغار، وعاف مشاركتنا فى لهونا البرىء بل مضى يجالس الكبار، ويحك شفته العليا بالشفرة يستحث شاربه على البزوغ..

اقتربت منه فى حذر..وألقيت عليه التحية فرفع رأسه ورمقنى بنظرة غاضبة ورد التحية فى فتور..

كنت أتوق إلى الإفضاء بأسرار فوزنا على الآخرين،، وبراعة عوض كتية ومخاطرته فى التيار، إلا أن وجه برعى كان ساهما واجما كأن أحزان الدنيا تثقل على صدره..

عجبت لأمره وقلت: مابك يابرعى؟.. فانفجر وكأن كلمتى رفعت الغطاء عن مرجل ظل يعمل ويحترق فى صدره..انفجر بعد أن هب واقفا على قدميه يصرخ فى وجهى: لورد ياسيدى..

- ماله.. أكسرت ساقه الأخرى؟..

- ليتها كسرت ياسيدى..ليته مات،،هذا الكلب ابن الكلب..

طاب لى أن أضحك من كلماته..إلا أن نظرته الغاضبة ردت الضحكة إلي صدرى فكظمتها وأنا أقول: ربما نجس شيئا فى بيتكم!؟.اغسله سبع مرات ..فهكذا قال الشيخ طه..

-كلا يالكعى ألا تعرف ماذا فعل؟..

- أصابنى الكساح لو كنت أعرف..كنت فى المركب مع عوض كتيه..

فتفرس فى وجهى وكأنه لايصدق ثم هدد: والله والله سأبلغ السماوى عنه فيسمه ونستريح منه..

- وحياتك يابرعى لاتفعل، فإنه غلبان.ألا تراه يزك بساقه..؟

وشدنى برعى من كمى حتى أجلسنى على الربوة، وبدأ يقص على قصته مع لورد: أتذكر

الخفاش الذى اصطدته من الجبل. جففته فى الشمس وصحنته حتى تحول إلى مسحوق أسمر.. وأردت أن أسأله لماذا؟ لكنه اسكتنى بإشارة من يده واسترسل: وراقبت شريفة حتى عرفت أين تقضى حاجتها..ثم نثرت المسحوق فى نفس المكان أملا أن تمر عليه بقدميها..» وسكت ريثما يبتلع ريقه فانتهزت الفرصة لأسأله ولماذا يابرعى؟.. فقال بصوت خشن: اسكت..أنت لاتفهم هذه الأمور المهم أننى نثرت المسحوق وتواريت هنا أراقب الجو حتى فتح باب بيتها الخلفى وخرجت منه واتجهت إلى نفس المكان، لكنها انحرفت فجأة تتفادى شيئا لم أكن قد رأيته. فوق النقطة التى اخترتها كان لورد قد ظهر فى نفس اللحظة وتوقف واستند إلى الحائط بعجزه ومضى يتبول..

وسكت بينما أنا حائر فى أمره: وماالذى جناه لورد..وماالذى اغضبك منه يابرعى؟.. مسكين«لورد» فرمقنى بنظرة غاضبة ثم انفجر يقول بسرعة: لولاه لمرت شريفة فوق المسحوق الأسود، لقضت حاجتها عليه، وحينذاك كنت أتوقع كما قال الشيخ الشاذلى أن تجن شريفة بى فتجرى إلى وتطلب منى الزواج، ولاتتركنى إلا وأنا زوجها، !!أرأيت ماذا فعل «لورد»..لوردك الوسخ؟.. أرأيت؟.. ألاتدرى ياحامد أن أمها تمانع من زواجها منى..وأن البسطاوى قريبها ويريدها لنفسه، وشريفة نفسها لاتريدنى!..

ورويت له قصة رؤيتى لهما فى السحر بين أشجار النخيل..فابتسم ثم غامت عيناه فأغلقهما وكأنه يسترجع ذكرى حبيبة دفنت فى أغوار سحيقة منذ أعوام طويلة..

وفى نفس اللحظة كان باب بيت شريفة يفتح لتخرج منه، وهى تحمل على رأسها جرة صغيرة، تسندها بيدها اليمنى، بينما اليسرى تمسك بجرجار ثوبها الطويل..

تريث برعى إلى أن حاذتنا شريفة فانطلق يتعقبها بينما هى- لأمر لايدريه- لاهية عنه، ربما كانت تفكر فى ليلة الأمس حين زارهما البسطاوى مع عبد الله الجزار الذى لمح لتوددات برعى لها وحذرها منه..وإلا..ثم قال إنها محجوزة للبسطاوى، وأمرها أن تكف عن الحديث مع برعى، وغاظها أن أمها انضمت إلى عبد الله الجزار، وانتهرتها وقالت أن برعى صايع لايرجى منه نفع..

تذكرت كل هذا وبرعى يتعرض لها فى الطريق فخشيت أن تراها عين فعرضت عنه، وأشاحت بوجهها وراحت تتعجل الخطى، فامتلأ قلبه بالغيظ، ومد يده يمسك بمعصمها، فاختطفت يدها بسرعة، وأمرته فى غلظة ألا يتعرض لها فى الطريق، وهمهمت بشئ عن عبد الله الجزار، فانبثقت صورة البسطاوى أمام عينيه، وهو يعرض به فى السلحليك، فجن جنونه، ورفع يده ولطم الفتاة على خدها، فتوقفت ذاهلة تترنح حتى وقعت الجرة فانكسرت وسال منها عسل أخذ يتبدد فى التراب، فتطلعت إلى الجرة المكسورة، وإلى وجهه، وهو لايزال يرفع يده ليهوى بها مرة أخرى على خدها فتفادتها ومضت تصرخ: إننى أكرهك..لو كان جمال هنا.. أنت شرانى وصايع كما قالت أمى..

ودب الذعر فى قلب برعى حين تذكر «جمال» صديق طفولته وتساءل كيف سمح لنفسه أن يضرب أخت جمال! ماالذى دفعه إلى هذه الفعلة المنكرة؟.. إنه البسطاوى الملعون. وأراد أن يقول كلمة رقيقة إلا أن الفتاة كانت لاتزال تصرخ: أنت صايع وضايع، فصاح بها اخرسى. أنا ماضربتك

إلا لأنني أحبك..

تحبني! فلماذا تضربني.. والله لو كان جمال هنا..

- أقول لك اسكتي فلا يسمعنا أحد.. ثم هذا الحلبي..

- الحلبى لم يضربنى بل أنقذ حياتى من الامواج بينما أنت تضربني وتشتمه.

- اياك أن تذكري اسمه أمامي.. اياك أن تكلمينى عنه أو عن البسطاوى أو عبد الله الجزار.

ومد يده مرة أخري ليمسك بها، لكنها أفلتت منه ومضت تعدو الي الخرابة حتي دلفت من باب بيتنا الخلفي..

وعاد غاضبا يتربع علي نفس الربوة، لا يحدثني بل ينكت الارض بقدمه ويسب الدنيا ويلعن الناس، فتركته الي الطريق المفضى الي بيتنا..

وعلي ناصية الطريق رأيت شقيقان شعبان يدلفن الي بيتنا، بينما في الساحة الممتدة بين المتجر والشونة، كان الشيخ فضل وأحمد عودة وأبي وآخرون من النجع يتجمعون حول «الاهرام» يطالعونها في اهتمام. فتوقفت خلفهم أستمع الي مايقولون، وأحاول قراءة العناوين العريضة فى الصفحة الأوليك مجلس الشيوخ يناقش التعويضات.. التعلية تتم بسرعة.... أراض جديدة للمنكوبين..

وفي الصفحة الرابعة: تقديرات حكومة الوفد السابقة مبالغ فيها. أزمة البطالة مازالت شديدة... الحكومة توزع الدقيق الاسترالي مجانا علي الفقراء في العيد. محاكمة عمال العنابر.. صدقى باشا يصرحك المياه المخزونة ستحول رى الحياض الى الري الدائم، علي سرى باشا يسافر الي مناطق التخزين تصحبه عقيلته عند السدة الشتوية الاولى... المستر هيس باشا يعلن.

وبخط صغير علي الركن الأيمن: شكوى من أهالى الدر بتوقيع بدر أفندي... فدمدم الشيخ شليب:

- اشمعنى؟.. وأين شكوانا ؟

فابتسم الشيخ فضل وقال وهو يعبث فى التراب: الدر عاصمة المركز ياشليب وفيها أفندية. شكاوانا نحن شكاوى فلاحين لايلتفت اليها أحد. فثار المحامى، فأنه هو الذى كتب الشكوى، فصرخك ماأصنى فؤادى.. وتفرس فى وجه الشيخ فضل ثم وجه اليه نفس السؤال: ماأصنى فؤادك يافضل؟

كان المحامي يلقي هذا السؤال دائما دون أن يتوقع اجابة من أحد، فأنهم لايدرون ماالذي سأصنى» فؤادهم.. وماهي أصنى هذه؟ هو نفسه لايدرى!... أهو الخزان أم الرفافيس الصاعدة الهابطة فى النيل امام قرانا تحمل المستر هيس... أم هى البرانيط والطرابيش.

وتمخط الشيخ فضل وبصق على الارض بصقة صفراء، وتلفت الى جعفر شيخ «المجراب» وهتف: كاذا يريد المحامى أن يقول؟ فهز الشيخ جعفر كتفه دون أن يجيب.

ثم قاموا لصلاة العشاء، فتركتهم ودلفت من باب الدهليز لأجد شقيقات شعبان يتحدثن فى همس مع جدتى، بينما أمى منزوية في ركنها، ترسم خطوطها المستديرة.

وحين دخلت كانت «مسكه» تقول:

على خيرة الله..بعد اسبوعين أن شاء الله...

وهمست جدتى.

- أن شاء الله.

وسكتن حين دخلت عليهن تحمل العشاء



صفحة النيل ناعمة ملساء تبرق برماح من النور تنثال عليها ماذلة هنا وهناك، ثم يهب النسيم ويركض برقة فوق سطح الماء فيجعده ويحيل المجرى كله الى جسد بديع راقص، يترقرق فى العيون مثلما يترقرق فيها موسيقي الألوان المتبدية علي شاطئ الجزيرة. وعلى الضفة الشرقية أمام نجع صغير من نجوع أبريم..

نوار الفول الابيض يتسق مع خضرته المخملية، وسنابل القمح توشوش ثم تهتز مثل رءوس العذراى، وتتطلع في طموح الي أشجار النخيل الباسقة المطلة على ساقية، تربع جابر شقيق شعبان فوق هوديتها يلسع البقرتين بكرباج رفيع، فتدوران فى سرعة بينما الصبى يلسع ظهريهما، مفتونا بالقواديس الحمراء التى راحت تتواثب مع السلبة أما م عينيه فى سرعة محمومة، لتغوص من جديد فى البئر العميقة.

ثم ترتفع يد آخيه نعمان من فوق سنابل القمح الغضة تلوح له:كفى! فيقفز من الهودية،ويعترض طريق البقرتين فتتوقفان، ثم يصعد على الترس الكبير، ويحل وثاق البقرتين، ويهبط بهما من مصطبة الساقية ،يقودهما الى الحظيرة القريبة المنتصبة خلف الجدول الكبير. والتقى به نعمان على باب الحظيرة فسأله:

- انتهينا بسرعة.. أروينا الأرض كلها أم..

- كل الأحواض والحمد لله..نحن هنا منذ السحر..

- أنمت فوق الهودية كعادتك ياجابر؟.

- كلا. عيناك منتفختان وأنت فى حاجة إلي النوم، سهرت طويلا بالليل.

- الواجب ياجابر، شعبان سيتزوج ولابد من أداء الواجب.

- الحمد لله. فكل شيء على مايرام..وهل سيأتى الأفندية؟.

- سيأتون . ولابد أن يكون الحفل جديرا بهم. ذلك هو ماجعلنى أسهر بالليل. فقد رجانى شعبان أن أبذل كل جهدى فزرت عبده الفرنساوى فى بيته، فى منتصف الليل أطلب منه أن يشرف على المطبخ، فالرجل شاطر وخدم الخواجات كثيرا ويمكنه أن يقدم أشهى طعام.

وصمت ريثما يغلق باب الحظيرة على البقرتين، ثم فرك يديه وهو يقول: وأبلغت السفرجى باشا رجاء أبى أن يكون ضيفنا فى هذا اليوم ليتصدر المائدة مع أبى إلى جوار عمدة أبريم وقته وبقية الضيوف، فهو يعرف آداب المائدة، وفى إمكانه أن يروى لهم نوادره فى السراى وهم يأكلون..

- سيكون أبى فخورا بضيوفه..

- هو جدير ..أليس شيخ حصة.. أما شعبان فسيكون سعيدا للغاية ..هيا ..هيا لئلا نتأخر.

وانطلقا فى الطريق الزراعية بين صفين من عيدان القمح والفول يتحدثان عن نوادر ليلة الجلوة والنقوط والأغانى التى ملأت النجع ليلة البارحة:

- أرأيت العروس؟.

- نعم..بنت ناس طيبين..الحمد لله.

وأسرعا الخطى حتى بان لهما البيت بأسواره وأشجار النخيل المطلة فوقه، ترمى ظلالها على الباحة الممتدة أمامه، تنعقد فوقه سحابات من الدخان يعرفان أنها تنبعث من الكوانين المشتعلة منذ الصباح يشرف عليها عبده الفرنساوى، يشخط ويلقى أوامره بكلمات نوبية متعثرة..

وفى الباحة نفر من شباب العائلة ينهمكون فى إعداد صيوان كبير يرتبون فى جوانبه أرائك وعنجريبات وكراسى، ويفرشون بينها سجاجيد عريضة، وأبراشا خوصية ملونة، بينما أبوهما يلقى أوامره ويشير بخيزرانته، ويلتفت إلى سفرجى باشا ويسأله: ألا ترى هذا المفرش لائقا؟.

- لائق جدا ولكن السجادة تحت المائدة مكرمشة..

فتركه وصاح فى غلام صغير..

- عبده..تعال هنا.

وأنهى اليه أوامره ثم استدار يواجه الطريق المتعرجة. من الشمال إلى النجع، يتطلع فى قلق ثم يلقى نظرة على الصيوان ويهتف: الحمد لله ..كل شيء قد أعد، ستأتى معى على الضفة نستقبل الأغراب..أم تفضل البقاء هنا ياأفندى؟.

ولم يجب الأفندى على الفور بل انطلق فى الصيوان يدور بعينيه فى كل ركن ويأمر بزحزحة عنجريب، وينقل أريكة إلي مكان آخر، أو ينقل حفنات من الرمل الأصفر.. ثم هداه تفكيره وصرخ فى جابر الذى دخل الصيوان خلفه..

- أيمكن ياجابر أن تغرس هنا- على جانبى الباب- فروع شجرة: سنط أو أثل، وعيدان فول بنوارها.

وفكر قليلا ثم قال:

- وإياك أن يدخل أحد فى الصيوان بعد رش مدخله.

- حاضر.

فاستدار الرجلان وابتعدا عن الصيوان وافترشا مصطبة يتبادلان الذكريات، وهما يشدان فى أنفاس شيشة أعدها لهما جابر، ويطالعان بداية الطريق المتعرجة من الشمال إلي البيت الكبير، ويتحدثان عن شعبان الذي يستريح فى الداخل تحف به الزغاريد والأغانى ونقرات الدف ،ويرحبان بين الفنية والأخرى، برجال القبيلة، الذين بدءوا يحضرون من كل نجع ومن الجزيرة ومن القرى المجاورة، وينزلانهم في مكان غير بعيد من الصيوان.

ثم هب الشيخ عثمان واقفا يستقبل المأذون ويرحب به، ثم يعودون إلي حديثهم المتصل عن الحفلة وبركات أفندى، وأشجار النخيل التى لم تسجل، والبيوت التى اعتبرت خارج الكنتور، والإشاعات المتواترة عن التعويضات. وماذا قال العمدة للمستر هيس حين زاره، ثم لاح عند المنعطف الشرقى فى الطريق موكب صغير، تخب دوابه بين حقول القمح، عليها رجال نجعنا، فتحفزوا وأصلحوا من عممهم، وتوقفوا عند بداية الطريق، بينما انتصبت النسوة على عتبة الباب، يتهيأن لاستقبال الموكب الذى دنا حتى أشرف عليهن فانطلقت الزغاريد، وامتدت أيدى المستقبلين تصافح، ولهجت الألسنة بالترحيب:

- أهلا بك.. مرحبا بك ياأمين..

- كيف الحال ياحاج عثمان؟..

- الحمد لله..وأنت ياأحمد عودة،..والله زمان..

- اعذرنى ياحاج..فالدنيا تلاهى..الدكانة والغيط ثم القضية

- دائما تحب القضايا ياأحمد..ليس فيها غير خراب البيوت.!..

فضك منها يارجل.

- حقا..فضنا منها.. فاليوم يوم عمار بيوت..أليس كذلك ياشيخ فضل. ؟

فابستم الرجل وزك بساقه حتى لاصق سفرجى باشا وحياه.

وبينما صابر وصغار عائلة العريس يسوقون دواب الضيوف إلى المرابط التى أعدت لها، اتكأ الرجال على مصاطب أشجار النخيل يشربون الشربات، ويعاودون حديثهم عن التعويضات والمستر هيس باشا وبركات أفندى ثم استدار أبى إلى والد العريس يسأله:

- سمعت أنهم سيحضرون. ؟

- طلبت من العمدة أن يدعوهم. سوف يقبلون ومعهم عمدتكم وعمدة بلدنا ومشايخ الحصة الآخرون في رفاص.

- ذلك أفضل.. سيشهدون كرمنا واحتفاءنا بالضيف..والحق أنك أجدر الناس ياعثمان.

- لاياشيخ ..على الله التوفيق.

وأقبل شعبان– العريس– وحيا الجميع. وجلس بينهم يتلقى التهنئة حتى رن فى الجو صفير

يتداح من النيل على الشاطىء ويتناهى إلى أسماعهم، فهب والد العريس وأبى وسفرجى باشا وأحمد عودة، فنفضوا ملابسهم وعدلوا وضع عمائمهم على الرءوس، ومضوا عبر الطريق. ومن خلفهم العريس، يطوحون عصيهم، بينما تجمع فى الباحة عدد من الشباب يتوسطهم المغنى، ينقر على دفه فى حماس، ويرسل أغنية جديدة أنشأها للمناسبة، راحت تتردد من الحناجر وتشد النسوة والصغار إلى حلقة بدأت تتشكل حول شاعر القرية..يرجون الأرض بأقدامهم وصيحاتهم.

وعلى الشاطىء رسا الزورق البخاري، وقفز منه بركات أفندى ورفاقه، ومن خلفهم العمد، فاستقبلوا بالترحاب.

وعادوا عبر أشجار النخيل، وبين صفين من عيدان القمح حتى دلفوا إلى الباحة ثم إلى الصيوان، واستقروا على الأرائك يشربون وعبده الفرنساوى يطل عليهم ويدلف إلى البيت من جديد ليتبعه فى لحظة عدد من الصبيان يحملون صحاف الأكل والطواجن يرصونها فى نظام بديع على المائدة، وسفرجى باشا يرمقهم، ويشير بعينيه إلى عبده الفرنساوى ويدلى اليهم بأوامر هامسة.

وانتهى الاعداد الصبور للمائدة حتى بدت كباقة من الزهور: مفارش صغيرة مطوية إلى جانب الأطباق الصينية اللامعة، وعلى الشمال واليمين ملاعق وشوك، ودوارق زجاجية شفافة، بينما صفت بجانب المائدة حوامل تحمل قللا فخارية ماؤها معطر بماء الورد، وفى الجو رائحة بخور تتصاعد وتخلق خدرا لطيفا فى الرءوس والأعصاب..

وقف عبده الفرنساوى صامتا فى ركن ومن حوله الصبيان يحملون مناشف على أذرعتهم، وأمضى لحظة يحملق فى الصيوان ثم همس مبتسما: مضبوط ياشيخ عثمان.

وهنا هب والد العريس، وأشار إلى الشبان الراقصين فكفوا، ثم استدار للضيوف يلقى كلمة ترحيب ويعلن بدء الحفلة إذ تقدمهم إلى المائدة، فجلسوا يأكلون فى صمت حتى ابتدرهم بركات افندى:

- نظام بديع ،وطعام شهى ياحضرة العمدة.
- سببه وجودك بيننا يابركات بيه.. لقد نورتم.

وقال والد العريس:

- شرفتمونا وزينتم حفلنا.

ثم انفلت عبده الفرنساوى يقدم للأفندية نبيذا ، فمضوا يشربونه فى نهم، يمصمصون بشفاههم ويعجبون من مذاقه ونكهته فى هذه القرية النائية.

ثم انعطف الحديث حيث قال سفرجى باشا:

- بركات بيه.. ماذا فعلتم بالبيت؟.
- ننتظر رد الحكومة.
- إذن فقد ضعنا..يوم الحكومة بسنة!
- وماذا نفعل؟.

وضحك ثم أردف: ولماذا بنيت بيتك فوق السفح بعيدا عن الكنتور.
وتدخل عمدة ابريم يقول:
- وماالذى أدرانا بالكنتور والمنسوب؟.
فمال بركات أفندى إلى أحد الأفندية يسأل:
- ألم تنبهه وهو يبدأ البناء؟.
- كلا ..كان البناء قد اكتمل..
وقال أحمد عودة:
- وأشجار النخيل التى لم تسجل؟.
- إن شاء الله سيعمل لها ملحق حين يأتى رد الحكومة.
وسأل الشيخ فضل:
- وكيف تقدر التعويضات..أظن النخلة بجنيه.
وقال عمدة قتة:
- لاياشيخ، بل جنيهان.. النخلة هى حياتنا يافضل.
ولكنها ليست حياة الحكومة!.
وأجاب أحد الأفندية:
- الفلوس شحيحة والأزمة متحكمة، والجنيه ليس قليلا.
وتدخل عمدة أبريم يقول:
- ليتهم يعوضوننا عن النخلة بجنيه..ولكن ماذا يفعل هذا الرجل الذى لم يسجل بيته؟.
- بيته لن يغرق..ويمكن أن يعيش فيه.
- أيعيش وحده فى الجبل بين الضباع والوحوش..
- يمكن أن يشترى بندقية.
وكف عمدة قتة عن المضغ وصاح:
- بنادق..كلا، لانريد بنادق ولارصاص عندنا..كفى مانعانيه من العصى!.
وأدار بركات أفندي الحديث فالتفت إلى العريس يقول:
- مبروك ياشيخ شعبان
- الله يبارك فيك ياسعادة البيه.. عقبال الأنجال.
- إن شاء الله حين يكبرون.
وانتهت الوليمة، واتكأ الضيوف على الأرائك يشربون القهوة وينفثون دخان لفافاتهم، ويراقبون من خلال فتحات فى الصيوان حلقة الشباب والنسوة الذين استداروا بالمغنى من جديد، يرجون الأرض بأقدام فتية، وألحان داوية وزغاريد ترتفع إلى السحب.
واستدار اليهم بركات أفندى ورفاقه يملأون عيونهم بمنظر الرقص ويعجبون بالألحان الساذجة التى تملأ الجو من حولهم، ثم ارتفع صوت الشيخ عثمان يقول:
- آن الأوان..هيا ياشيخ صابر.

فتقدم المأذون إلى المائدة وجلس على كرسى يتصدرها، وتقدم وكيل العريس والعروس ولبثوا لحظة صامتين يستمعون إلى الشيخ يعقوب يرتل آيات من القرآن حتى ختم وقال : صدق الله العظيم: ثم تناول، شعبان مصحف مضى يرتل آيات منه فى صوت راعش ويتوقف طويلا عند المقاطع فتستقبله بالتشجيع دفقات من الزغاريد.

ثم مد الوكيلان يديهما فتشابكتا تحت منديل أبيض، ثم أخذا يكرران مايمليه المأذون عليهما:

- زوجت موكلى شعبان ابن الشيخ عثمان البالغ من العمر عشرين عاما، المسلم من جميلة بنت أمين هاشم، المسلمة البالغة من العمر سبعة عشر عاما.

- قبلت على سنة الله ورسوله..

فسجل المأذون كلماتهما في قسيمة الزواج ثم طلب منهما فوقعا بخط عريض. وتريث الشيخ عثمان فى انتظار توقيع العمدتين كشاهدين ثم وقف يعلن فى زهو:

- شعبان ياولدى..أشهد هؤلاء الناس جميعا..أشهد الله من قبلهم على ما أقول.

ثم تلفت الى اليمن واليسار فى زهو ونشوة وأضاف:

- وهبتك بنفس راضية عشرين نخلة.

وأشار إلى جابر أن يكتب فمضى يسجل بينما انطلق أبوه يضيف وهو يترنح بالفرح:

- وياولدى..وهبتك بنفس راضية قيراطين فى الحوض القبلى فى الجزيرة.لاينازعك عليهما أحد من اخوتك، لافى حياتى ولابعد مماتى.

ثم تقدم وعانق العريس وجلس يمسح وجهه بمنديل حريرى. بينما تقدم- بترتيب السن- أعمام العريس وعماته وأخواله وخالاته ، يرددون نفس الكلمات فى زهو، ويهبون أشجارا هنا وهناك وفى نجوع مختلفة وشرائح من الأرض، بينما الزغاريد تصاحب كلماتهم.

واستمع بركات أفندى إلي كلمات الإهداء، وتلفت إلى زملائه، ثم تطلع فى عجب إلى وجوه الواهبين والواهبات، وإلي النشوة إلتى تعربد فى عيونهم، والزهو الذي يرفع رءوسهم ويشمخ بأنوفهم وهم يعددون هباتهم، فأخذ يسأل نفسه: ومافائدة كل هذه الهبات؟!.كلها للسمك بعد حين قصير! لقد سجلتها في دفاترى..كلها ستضيع،،يالكم من مساكين، لعلها العادة لايستطيعون التخلى عنها، العادة التى تحولت إلي طقس يجب أن تراعى تماما مثل مراسم الزواج الشرعية والرسمية، وسيان أن تضيع الهبات وهى على ذمة واهبيها، أو على ذمة الموهوب إليهم ..سيان مادامت العادة تبعث كل هذه الفرحة والبهجة فى نفوس الناس!! وتلفت إلى عزوز أفندى يهمس واضعا يده فوق فمه:

- أرأيت إلى هؤلاء..ياالله..كم هم منتشون وفرحون!

- زادهم الله سعادة.. ولكن ماالفائدة ياسعادة البيه؟.

- الفائدة يابنى أن يفرحوا..ألا تراهم فرحين؟!

- رقصة ذبيح!

- ذبيح أو لا ذبيح كفانا أنهم سعداء.

ثم قام بديع افندى ووجه الة التصوير إلى الحفل الراقص، فأسر العمدة بكلمة فى أذن بركات أفندى، تلفت بعدها ليرى الوجوه حانقة فأمسك بيد زميله وجذبه بشدة وحال بينه وبين التصوير.

ثم لبثوا ساعة يتحدثون ويشربون مشارب من كل لون استأذنوا بعدها ، وقاموا إلى الزورق البخارى بينما شرع موكب أبى ورجال نجعنا يخب فى الطريق عائدين.

وعلى مسافة يسيرة من صيوان العريس كان بيتنا يعج بالناس، وجدرانه تهتز بالزغاريد، وبصياح الأطفال ودعابات العجائز، بينما حسن المصرى وبرعى وغيرهما من شباب النجع، يعملون فى الساحة الممتدة بين المتجر والشونة. يمهدون الأرض ويفرشونها بالرمل الأصفر، وبرذاذ خفيف من الماء، وينضدون الأرائك والكراسى التى استعيرت هى الأخرى من بيوت النجع المختلفة،.وأنا مثل أم العروسة أروح وأجيء ولا أفعل شيئا..ألقى الأوامر ، فيبتسم لى حسن المصرى فى هدوء، ويتركنى لينشغل فى عمل ما.. فيمتلئ قلبى بالغيظ، وأعود مسرعا، أدلف من باب الدهليز، لأجد البيت يموج بصفوف من النسوة والفتيات الصغيرات، يغنين ويرقصن حول العروسة أو ينهمكن فى المطبخ، حتي حجوبة كانت هناك تعمل وتبرق عيناها من فرط النفخ فى النار، تحت الكانون ، بينما «بطة» تروح وتجيء بثيابها الجديدة وطرحتها الملونة، تعجن أو تصحن شيئا، وتطلق البخور، وجدتى تسرع إلى الحاصل وترفع غطاء السحارة الكبيرة، وتخرج شيئا ما تسرع به إلى العروس التى حفت بها شريفة وبخيتة وسكينة يزغردن، وينقرن على «الدربكة» نقرا خفيفا، ثم يوشوشن فى أذنها بكلمات تبعث الخجل علي وجهها، فيتغامزن ويضحكن ضحكات عالية، لايبالين بى وأنا أرمقهن، بل اندفعن يلقين النكات على رأسى حتى هربت إلى الدهليز لأجد أمى تترك ركنها الأزلى وتندفع إلى ابنتها العروسة تقبلها وتسدى إليها النصح على مسمع من الأخريات، فتهز العروس رأسها..وهى تقول: حاضر. لاهية عنها بأفكار تنوشها منذ الصباح.

إنها تعيش فى قلق ، تخشى من المجهول، من الليلة الأولي التى تجمعها مع رجل. كانت تروح وتجيء منذ الصباح ثم تنزوى فى ركن لاتبالى بالمحيطات بها من العجائز والفتيات. تبتسم لهن وتستمع اليهن، ذاهلة عن نفسها، فهى منذ الصباح تستمع إلى النصائح الغالية: تدخل امرأة عجوز.خالة أو عمة أو جارة، تدنو منها وتقبلها ثم تهمس:

مبروك يابنتى..الله يبارك فيك..

اسمعى يابنتى. ثم تمضى فى ثرثرة متصلة عما يجب عليها أن تأتى فى بيتها الجديد وعما يجب أن تدع..عليك ألا ترفعى صوتك مادام الرجل قد حل فى البيت، لاتطلقى العنان لصوتك، تمنعى فى إباء حتى يعرف عزتك..أما حماتك فعامليها كما تعاملين أمك. أخوتك لايجب أن يزوروك إلا لماما...ولايجب أن يدخل عشاؤهم على إفطارهم، وليقبلوا عليك بهداياهم. الدقيق والسمن والمؤن التى يظن الزوج أنها تفى أسبوعا ، دبرى أمرك حتى تفى أياما عشرة..والغسيل..الغسيل أهم شىء ، فالناس لن يقولوا شيئا عنه بل عنك، اشبعى قبل أن يشبع امرضى- وقاك الله شر المرض- دون أن يشعر أنك مريضة..

ثم تشعر العجوز أن الفتاة لاتستمع اليها فتلمس كتفها وتقول: مالك تجلسين هكذا كالمأخوذة، اربطيه وشديه اليك بولد ذكر. زوجك هو الأم هو الأب والشقيق، فلا تفرطى فيه..

شرفه هو شرفك يابنتى.

وتحاول العجوز أن تسترسل ولكن العروس تنهض فجأة وتسرع الخطى إلى بطة شقيقتها فى أقصى الفناء وتهمس:

- تهلكين يابطة.. اتركينى أساعدك..

فالتفتت الصغيرة إليها بحدة.ورمتها بنظرة صارمة وهى تصرخ «اسمعى ياستى.. اسمعى ماذا تقول العروس.ياشيخة الزمى مكانك واستريحى»..ثم في شيطنة «ستتعبين الليلة كما يحلو لك»!.

وأسرعت الجدة إليها وهى تضحك وتأمر فى صوت حازم: جميلة ارجعى إلى مكانك.. ياعيب الشوم.. ماذا يقول الأغراب عنا؟.

وهنا لاحت الأم تحاول أن تلعب دور أم العروسة، تذرع الفناء وتبتسم لهذه ولتلك وتتلقى التهنئة..وترد بكلمات رقيقة.. ثم تترنم بأغنيات شبابها..فهذه ليلتها هى ، وليست ليلة أحد غيرها ، ليلة بكريتها .أول العنقود..

لقد غير زفاف ابنتها من حياتها المنزوية فراحت تتحرك فى خفة وتشترك فى العمل بينما تراقبها الجدة وتحول بينها وبين الكوانين المشتعلة.

والتقت العروس بى فى الحوش فاستدارت الى تسألنى: متى تكبر ياحامد وتصبح رجلا لأفرح بزفافك.

ولم أترك لها فرصة الكلام فقد صحت فيها غاضبا :أنا كبير..أنا راجل!!

فضحكت وانقادت لشريفة التى همست فى أذنها : تعال إلى المنصة.

تعال نجرب، وقادتها بين الضحكات إلى آخر الديوانى حيث رفعت منصة على يمينها باب ضيق لحاصل صغير، تراءي فيه طشت واسع للحمام، وقطعتان من الصابون ولوفتان، وعلى شمالها، وفي مواجهتها، وعلى جانبى الديوانى كله أرائك مرصوصة، مفروشة بملاءات بيضاء ووسائد مريحة ومساند ومتكئات، وفوقها وعلى الجدران أطباق خوصية وأخرى صينية مزخرفة منكفئة على وجوهها، وصورة كبيرة للإمام على، يركب فرسا ويدفع رمحا طويلا فى فخذ عمرو بن ورد العامرى، وأخرى للهلالى، بشاربيه اللذين يشبهان شاربى حسن المصرى ثم مرآة متوسطة تعكس ألوان الأطباق والرمل الأصفر وخضرة السعف الذى انتشر معقودا فى أركان الديوانى.

وفي الركن الآخر من الديوانى باب صغير يدلف إلى بيت الأدب تواريه ستارة ثقيلة تكنس أهدابها الأرض.

وقفت أتأمل كل هذا وشريفة والعروس تتغامزان، بينما سعدية تلح : هيا..اجلسى ياجميلة ودعينا نجرب.. وحين ترددت العروس اندفعت سعدية وجلست على المنصة ضاحكة مطرقة، وأسدلت شالا واسعا على رأسها وهى تهتف:

- تعال ياحامد..هيا تزوجنى..

وراحت شريفة تدفعنى إلا أننى أفلت منها ووقفت فى نهاية الديوانى؛ فرحن يضحكن ثم توقفن فجأة على صوت جلبة وصخب فى الفناء، أسرعنا بعده نتدافع عبر الباب إلى مصدر

الصخب. ويبدو أن العروس تنبأت بما حدث فانكفأت على الأرض تبكى: فالأم هى التى كانت مكتومة على الأرض. وراعنا أن الدخان كان يتصاعد من رأسها فاندفعت اليها أرتمى على صدرها، فدفعتنى حجوبة بعيدا، بينما جدتى تنتزع طرحة اشتعلت أطرافها، من فوق رأس أمى وتهمس الحمد لله: كل واحدة إلى شغلها ..بطة.. لاتبك يابطة ، ثم رفعت عقيرتها وأطلقت زغرودة طويلة، تاركة خالتى أمينة بابا تسكب قطرة من العطر النفاذ على رأس أمى، فتتابعتها الأخريات بالزغاريد..

وانكفأت أنا على أمى أناديها، وفجأة تذكرت ليلة القدر، وندمت وشعرت بنفس الإحساس، فى صوت بطة المختنق وهى تنحنى علينا نحن الاثنين.

ومن بعيد كان صوت جدتى يتردد: يابنتى..أمك بخير. قومى.. نفضى ثيابك من التراب.. عيب..الدنيا غيمت والمساء يحل، والرجال آتون..قومى واغسلى وجهك..طيب تعالى..وشاهديها بعينيك ماذا يقول الناس؟ وينضم صوت شريفة الى صوت العجوز ثم صوت داريا: يابنت يا«جميلة».أمك بخير.. طرحتها هى التى..أرادت من فرحتها بك أن تشعل الكانون ففاجأتها نوبة الاغماء فى غفلة منا..

لو رأتك أو سمعتك تعاندين هكذا، سيفاجئها الإغماء من جديد.. هيه..

هذه الكلمات الأخيرة جعلت« جميلة » تفيق لنفسها، فنهضت تتجه الينا فى خطى متعثر حتى أطلت فى خوف، ثم اشتركت مع خالتها في تدليك صدر أمها، وهى تنادى أمى..أمى.. أنا جميلة.. أنا العروسة..أفيقى..وفجأة فتحت أمى عينيها.. وانتزعت ابتسامة أشرقت على وجهها، ثم هبت واقفة وارتمت على صدر ابنتها، وهى تهمس: سامحينى ! مبروك عليك، ثم أمسكت بها من خاصرتها وطوقتها بذراعها الأخرى ونحن من حولهما واجمون، ودلفت بها إلى الديوانى فعاود الغناء ضجيجه الصاخب..

ومرت لحظات عادت الأم بعدها باسمة تتحرك فى خفة، تحذر أن تدنو من الكوانين المشتعلة خشية أن تفسد الحفل من جديد، إلا أنها لم تعد، لتنزوى فى ركنها الأبدى، بل مضت تنتقل هنا وهناك، وتترنم من جديد بأغنيات شبابها، فانطلقت الضحكات من جديد فى الديوانى، وفى الدهليز وعاودت الزغاريد ترن فى النجع..

ولاحت التفاتة من بطة إلى حجوبة، فمضت تتفرس فيها لتضبطها متلبسة بالشماتة، لكنها وجدتها تروح وتجىء فى حركة دائبة وعلى شفتيها ابتسامة بيضاء مشرقة..

وامتلأ وجه بطة، بالدهشة حين رأتها تمسك بالدف وتميل إلى ركن ومن حولها بعض النسوة والفتيات تنقر عليه فى خفة وتنغم فى صوت خافت بالمقطع الأول من أغنية الزفاف، ثم ترتفع به فى نغمة عالية حلوة، وتسكت مشيرة إلى الأخريات ، فيندفعن فى أصوات جميلة:

لى أنا وحدى ياأماه..

ياأماه،

لأحبائى ياأبتاه،

ياأبتاه

لك وحدك ياأختاه.

ياأختاه،

ثم ينخفضن بأصواتهمن ليرتفع صوتها من جديد..:

لى أنا وحدى ياأماه.

هذا الثوب الناصع مثل البدر،

هذا العطر السارح فوق الورد،

والحناء اللامع فوق الكف.

ياأماه... ياأماه..

فينطلقن من جديد ..لى أنا وحدى ياأماه..لأحبائي ياأبتاه..ويعدن إلى النغمة الهامسة، بينما يهدر صوتها فى طبقات عالية:

وليعو كما تعوى الذئبان..

بين الكثبان من وخز البرد

من لايفرح مثلى

فى اليوم الناصع مثل البدر

ياأماه.ياأماه..

فيتلقفن النغم منها، ويملأن البيت بشفافية غمرت قلب أمى بالنشوة، فاندفعت ترقص وتدور حول نفسها، وقد أمالت رأسها على المنكب الأيمن مندفعة به إلى الخلف قليلا، بينما يدها اليسرى تمسك بجرجار ثوبها الزاهى، والنسوة يصفقن لها، ويرددن على نغمات الدف:

لى أنا وحدى ياأماه

ياأماه..ياأماه..

هذاالثوب الناصع مثل البدر

هذا العطر السارح فوق الورد..



النيل هو الحياة ، صاخبة أبد الدهر، هو الحياة الهادئة ناعمة على مر الزمان..فالنيل والهواء والشمس، وعرق الجباة يحول التراب الأصفر الكالح إلي خضرة مخملية باسمة..

وعلي ضفته في قريتنا تصلى الناس لله فاطر السموات والأرض ولكنهم في نفس الوقت يعبدون النيل عن حب، حين يرضى ، ويتقربون اليه عن خوف حين يطغى ويتغنون بقوته.. وينشدون مزاميره حين يهب الحياة..

لم يكن في مقدوري.. حينذاك أن أصدق أن هناك من يستطيعون العيش في بقاع نائية .. لا يسيل النيل في نجوعها .. ولا أن أتصور أن في مقدور الناس في الصحراء أن يتزوجوا دون أن يطهرهم النيل من آثامهم ..

فقد وقر في ذهني منذ تلك الأيام أنه ليس أجمل من النيل .. وهو يحتضن فتيان قريتنا في حنان دافق في أمسية دافئة أو باردة قبل أن يزفوا الى زوجاتهم.

فليس في الدنيا من الفتى النوبي في ليلة زفافه وهو يغوص في النيل عاريا كما ولدته أمه ، لا يبالى بلسعات البرد في الشتاء ولا بمخاطر الموج الأحمر أيام الفيضان .. ليس أجمل منه الا.. الا النيل وهو ينساب هادئا بعد أن يعمده لحياته الجديدة .

أليس «شعبان» جميلا ونقيا ، وهو يرمق النيل في خشوع ، على الضفة الشرقية ، يلفه غبش المساء ، وينعكس عليه وعلى رفاقه وعلى الماء والساقية والأشجار والتربة السمراء نور قمر باهت ما زال يرتفع في السماء ..

كان لا يزال بملابس الجلوة ، مخضبة عند الكم والذيل ، ببقع حمراء ومن حوله عشرات من رفاق صباه ، ينظرون اليه والى الرجل الاسود الذي وقف في صبر نافد يحمل صره كبيرة ، وفانوسا لم يشعل بعد، يستمعون الى الكلمات الخافتة التى راح شعبان يتمتم بها : رب وفقنى هب لى من لدنك رشدا .. رب اجعل لى من زوجتى مسكنا ومستقرا واغفر لى ذنوبى .. وامنن على في ليلتى هذه .. رب فلتكن السعادة لى ولأهلى ولزوجى .. واعمر بيتى بذريتي يعبدونك ويخرون سجدا أمام جبروتك يا رب ، ومد يده ، ومسح بها علي وجهه وشفتيه ، ومر بها على شعره من تحت عمته البيضاء ، وخيل لي ولرفاقه وهو يهمس أن النيل يستمع الى رجائه ويفتح ذراعيه له ولهمم جميعا .. فأستأنف دعاءه من جديد .. الا انهم استلوا كرابيجهم فجأة وفرقعوا بها فوق رأسه كأنما ينبهونه ويوقظونه من غفوة طالت به .. ومضى أحدهم يسخر :

– يبدو أنك لا تعرف العوم.

فتنمر العريس لهم وقال :

– أتنسون أننى في صباى كنت أسبقكم جميعا!؟

– كنت .. آما الآن فانك تخاف من لسع البرد

ثم انهالت دفعة أخرى من الكرابيج فوق رأسه ، تطن في أذنيه دون أن تمس منه شعرة واحدة .. فلم يتزحزح .. الا انهم مضوا يصرخون فيه : اخلع ملابس الجلوة وإلا ..

– مهلا .. اتركونى أصلى ..

- بل اخلع أولا ثم صل كما تريد .. صل بعد أن تغتسل

فأسلم أمره ، والتفت الى حامل الصرة يأمره أن يستعد ثم مضى يتجرد من ثيابه قطعة .. قطعة يلقى بها الى الرجل فيتلقفها فى لهفة و يحول بينها وبين الآخرين الذين أسرعوا يحاولون اختطافها .. فهى هديته.

- انها هديتى .. فملابس الجلوة لحامل الصرة.

- ليس كلها يا حمار..

- بل كلها يا أسيادى .. دعوها لى ..

وانضم جابر اليه ينوشهم بكرباجه بينما العريس يواصل تجريد نفسه من ملابسه ، حتى وقف عاريا تماما ، يستر عورته بيده ، ويتأمل النيل الذى بدا باسما يضحك ويهش له ، تعال يا ولدى .. تعال أضمك الى صدرى العريض .. تعال يا فتاى الحبيب:

وتتوالي الصيحات : انزل .. انزل .. أرنا شطارتك .. والكرابيج تطن في أذنيه ، فيقذف بنفسه الى النيل .. ويرتطم بالماء البارد ولا تصدر منه آهه واحدة ، فذلك عار لا يحتمله ! ثم يألف البرد ويحرك يديه وقدميه فى الماء ويوغل فى النيل ، ثم يغوص ليظهر فجأة فى مكان آخر .. ويعاود الاختفاء والظهور من جديد ، وكأنه يقول لهم أرأيتم .. ما زلت كما كنت .. ثم ينقلب على ظهره .. فوق سطح الماء ويرقد كأنما على فراش وثير .. ويحرك قدميه فتخلقان دوامة من الزبد الأبيض ، والرفاق على الضفة يهللون ، برافو .. برافو يا شعبان فيواصل فنونه في السباحة ، يثبت لهم أنه ما زال فارس النيل ، لكن صوت النقر على الدف والتصفيق على الأيدى كان يتداح اليهم من النجع مؤذنا بتجمع الناس وابتداء الزفة ، فيتواثبون مع الايقاع على الشاطئ ويهتفون بالصلاة على الرسول ، ويكبرون ثم يصرخون فيه : أخرج فقد آن الأوان.

ويتمهل شعبان قليلا ، ثم يغوص تاركا خلفه دوامة صغيرة .. ليظهر مباشرة أمامهم .. فى الماء الضحل .. يبطش بكفه ، فيثير رذاذا من الماء يتطاير الى وجوههم ، فيواصلون الهتاف بالصلاة على النبى ويردفون : أخرج والا نزلنا لك وضربناك حيث أنت .. لا تتهرب .. فقفز الى الضفة ليتلقى لسعات الكرابيج دون أن يتأوه أو يتوسل الى أحد.

وتلفت الرفاق الى حامل الصرة يستحثونه ، فأشعل فانوسه ومضي يفك الصرة فى تمهل عجيب ، والعريس الذى خرج من النيل يرتعش من البرد ويمد يده ، فناوله بشكيرا كبيرا اختزنه شعبان لمثل هذا اليوم ثم مضى يناوله قطعة بعد أخرى .. والكرابيج لا تزال تنهال على جسده وترف فى براعة وتلمس بدنه لمسا رفيقا لا يخلو من اللسع .. آه يا ابن الكلب .. انك تلسعنى .. أيريد الملعون أن يجرحنى ليلة زفافى ! ولكن لماذا تشكو ؟ ألم تفعل مثلهم من قبل .. أبوك لم يتأوه يوم زفافه منذ أربعين عاما حتى لا يحملك عارا . وابنك لن يتأوه ، فتجلد واياك أن ترسل آهه واحدة ، ولكن هل يتركونى أزف الى عروسى والدماء تسيل من جسدى .. ياللعنة .. هذه ليست تقويرة بل فتحة الكم ينحشر فيها رأسى ، اسرع يا رجل فانهم سيمزقون جسدى بالكرابيج ، الملعونة تكة السروا ل يجب أن تتدلى من الأمام لا من الخلف .. اخلع والبس من جديد .. أتراها يا رب هادئة عاقلة كما تقول مسكة أم انها .. على كل أهلها ناس طيبون .. لا أدرى كيف

سيكون موقفها من أبي .. سنفتح سويا متجرا .. آه يا للمعلون .. هات الطاقية أولا يا جدع .. لابد منها قبل الشال والعمة ، واختطفها بسرعة وضغطها فوق رأسه ولف عليها العمة فى إحكام .. و اسدل عليها الشال .. ولم يبق الا أن ينتعل ، فأتكأ على كتف أخيه جابر .. وغسل قدميه فى الماء ثم دسها فى المداس الاحمر البارق فى ضوء القمر .. والكرابيج لا تزال تطن فوق رأسه وحول رقبته.

ثم توجه الى النيل وانحنى عليه مفتر الثغر .. وجهه الاسمر المستدير يلمع مختفيافي زحام أبيض من الشقة والعمة والجلباب الطويل حتى بدا فى الاطار المخملى ، نوارة قطن بيضاء تفتحت فى جنة خضراء .

واستدار - ومن حوله رفاقه - يتقدمهم الفانوس بضوئه الباهت وانعطف الى السكة الزراعية ، تحرسه العصى المشرعة والكرابيج الصاخبة بفرقعاتها.

وراحت أشجار النخيل تميل وتهمس كأنما تحييه ، ومضت عيدان القمح توشوش كأنما تزفه ، بينما الرفاق يهللون بالصلاة على النبى .. فتختلط أصواتهم المرحة بالضجيج الذى حملته الريح اليهم من النجع ضجيج الاقدام التى ترج الارض أمام الصيوان ، والطار الذى يهز الاعطاف فى الساحة الممتدة أمام الدار.

ومن بعيد ، ومن خلال الاشجار لاحت لهم الفوانيس تتحرك لاستقبالهم عند المنعطف .. ثم أحاطت بهم الجموع تدفعهم دفعا الى الساحة حيث توقف الشيخ عثمان متهلل الوجه باسما فى دعة.

وتقدم شعبان الى أبيه ، وانحنى على يده وقبلها ، ويمسح بها جبينه ويطلب منه الدعاء .. فمضى الرجل يتمتم بالرفاء والبنين يا ولدى بالرفاء والبنين !

ثم أمسك بيده ، وأداره فى اتجاه الطريق المتعرجة الى الشمال ثم دفعه الى وسط الموكب ، وهو يهمس : الى السعادة يا بنى .. وفقك الله وقر عينيك بذريتك ، فالتف الشباب به ، اخوته ثم أولاد عمه فأصدقاؤه من النجوع المختلفة ، رافعين عصيهم متقاطعة فوق رأسه.

أمسك الشاعر بزمام الموقف يواجه العريس رافعا دفه فوق رأسه ينقر عليه بشدة ويحجل بخطاه الى الخلف .. ويحدو الموكب بصوته الدافئ مزهوا بقامته المديدة وعمته المزركشة ،.. والعطر النافذ المنبعث من أردائه ، تختلط به رائحة العرقى المتناثرة من بين شفتيه مع الكلمات المنغومة المتكورة فى حنجرته العميقة والتى تتدفق لتنسكب سحرا فى الاسماع .. الكلمات قديمة ، لكنه يجددها ويحورها مع المناسبة ويلوى اسم العريس ، واسم عائلته وصفاته وصفاتها ، ويذيبها فى النغم الراقص .. فتطرب القلوب وتميل الاعطاف ، وتتلاشى تجعيدات جباه العجائز وتبدو الفتيات أكثر نضارة فى وهج الفوانيس والمشاعل المرتفعة فوق الرؤس ، وتبرق عيون العائلة فى زهو .. عند مقاطع تتغنى بأمجادها وبساتينها وسواقيها يسلكها المغنى جميعا فى شجرة النسب العريقة الممتدة الى الحجاز.

ولا ينسى علم العريس فيمجد حسن تلاوته للقرآن فى الصيوان ويصف خطه الجميل ورسائله المنمقة ثم يطمئن الى انتظام الموكب فيلقى بالدف الى صاحبه ويكتفى بالغناء يتعالى الى القمر

وينصب منه الى الاسماع .. لا تقطعه الا زغاريد أخوات العريس يطلقنها ، وهن ينثرن العطر فوق ثيابه .

ثم انعطف الشاعر بالموكب ، ودار به الى الطريق الضيقة الطويلة التى تصطف البيوت على جانبيها ، فتستقبله الزغاريد على عتبات البيوت .

وعند بدايةنجع - أول نجع - تقدمت عجوز تحمل عصا طويلة تعترض طريق الموكب .. وترفع يدها وتزم شفتيها بها ، وتطلق زغرودة ممطوطة ، وتحجل حتى تتوقف أمام العريس تباركه ،وتدعو له ، بينما قطع الذهب المتراقصة حول عنقها وعلى صدرها تتهامس وتختلط بصوتها العجوز.

ثم استدارت الى الشاعر ، فتوقف عن ارسال غنائه ، وفضت منديلا وألقت اليه بقطعة فضية ، وهمست فى أذنه باسم ابنها الغائب فارتفع صوت المغنى يهتف:

- دايما .. حسن بن سكينة دايما..

فرددت الحناجر هذه الهتاف ثلاثا .. ومضى الشاعر بعدها يغنى للعريس وللفتى الغائب ، بينما انفلتت العجوز ترقص وتدور حول العريس حتى انهكت قواها ، فأمسكت بيده وقادته .. فانقاد الموكب خلفه الى عتبة البيت.

وهناك قدمت للعريس «سطل» لبن وهى تهمس :

- مباركة لك زوجك يا ابن اخى ، ولتكن حياتكما صافية صفاء هذا اللبن ، حلوة حلاوة هذا التمر..

ودفعت بحفنة من التمر اليه ازدرد منها واحدة ، وهو يتمتم بالدعاء لعمته العجوز .. ثم عاود الموكب مسيرته المرحة ، لتعترض طريقه خالة أو جدة .. فتدفع «النقوط» وترقص على أغنية يرسلها الشاعر حولها وحول رجالها المغتربين . حتى يرهقها الرقص .. فتتقدم بسطل اللبن وحفنات التمر . ثم ترسل الزغاريد لتتبع الموكب فى سيره ، الا أن شيئا ما حدث جعل هذه الخالة العجوز تقطب وتستدير بسرعة الى النسوة تسبهن ، وقد ارتفعت اصواتهن فى صخب وهى تزغرد ، فأمتلأ قلبها بالغيظ دون أن تدرك سببا لصرخاتهن.

ثم راحت تضحك وتسخر منهن ، حين رأتهن منكفئات يتمرغن في التراب ، تحاول احداهن ان تنهض فتتعثر ، وتوقف الجميع يسخرون بينما الاطفال يتقافزون مثل الشياطين .. ويضربون بأكفهم علي أفخادهم .

فلقد انتهز الاطفال توقف الموكب فانسلوا وراء ظهور النسوة وربطوا ذيل جلباب هذه بذيل تلك ، ووقفوا يراقبون من بعيد ما يحدث لهن حين يتحركن.

وتحرك الموكب وأسرعت واحدة منهن ترقص فاذا بها تنكفئ على الأرض ، تتبعها الأخري حتى تشكل طابور أسود على الأرض يصخب ويسب الاطفال.

وتوقف الشاعر عن الغناء وأرسل ضحكة عالية وهتف:

- ولماذا تصرخين يا سكينة .. ارقصى وأنت فى الأرض

فصاحت سكينة هذه ضاحكة :

- فلترقص أمك يا ابن الكلبة

وضج الموكب بالضحك ، ثم عاود زحفه النابض بالبهجة ، لينعطف عند أول نجع في قرية العروسة . يبدأ بأحراش كثيفة من نبات الحلفا وأشجار النخيل المتلاصقة.

لاح في بداية النجع شبح يزك بساقه ، فوقف يراقب الموكب عن كثب ، ثم لوح بيده الى أشباح كانت تتحرك بين الأحراش .. اشباح اندفعت بالهروات والكرابيج الى الموكب وهي تطلق صيحات الحرب .

فساد الهرج .. وتعرض أخوة العريس وأصدقاؤه لهذه الاشباح يدافعون عن الموكب : صيحات حرب أخرى .. وكرابيج تطن في الهواء . والعريس يبتسم وكأنه كان يتوقع هذه الحرب المفاجئة.

وتقاطعت النبابيب فوق الرؤس ، والتوت الايدى بينما النسوة يضحكن ، والشيخ الذى يزك بساقه يلوح بيده من جديد ويصرخ :

- هيا ..

فانطلق من بين الأحراش عواء رهيب .. عواء ذئب تكرر مرة ثم أخرى .. فألقى في نفوس النسوة والاطفال رعبا جعلهم ينكمشون ويحتمون بظهور الرجال الذين تحفزوا .. يتفرسون في الأحراش ، فاصطدمت عيونهم بجسد مكتور يمشى على أربعة ، يزوم ويطلق عواء ، فتقدموا بهرواتهم بينما تجمعت الكلاب تنبح.

وكادوا يهوون بعصيهم على رأس الذئب .. الا انه انتصب على قدميه .. ورفع هرواة غليظة بدأ يشق طريقه بها ، بينما صاح جابر : يا الله .. انه برعى اللعين ، ودنا الشيخ فضل يزك بساقه ويهتف في مرح :

- برافو .. غلبناهم .. برافو..

فالتفتوا اليه ضاحكين ، ثم استداروا الى العريس ، فوجدوه فى حماية شباب نجع العروس .

لقد أعد هؤلاء هذه المعركة الهزلية منذ الصباح .. وكمنوا منذ الاصيل فى الأحراش ليتسلموا الموكب عنوة واقتدارا .. مدللين بذلك أن العروس ذات منعة ، ورجال يذودون عنها ويحمون زوجها.

،همس والد العريس للشيخ فضل :

- عفريت يا فضل .. هكذا كنا نفعل في أيامنا .. أما في هذه الأيام فبهجة الزفاف أعمال صبيانية وأغان لا نفع فيها.

- لكنها أيام سعيدة ، وما كان فى أيامنا يموت الآن لنجد غيره، ألا تعرف أن أمثال هذه المعارك الهزلية كانت جدية في قديم العصر أيام الفروسية.

- عجبا .. وبالسيوف والرماح يا فضل ، ولكن هل كانت هناك ذئاب تقف على قدمين وتحارب !؟

وتوقفا عن الهمس والشاعر يلعلع بصوته .. ويذكر لأول مرة واكراما لنجوع القرية التى دخلها الموكب اسم العريس مشفوعا باسم العروسة .. كان يردد فى نغم هادر لتردد الجموع من خلفه :

أنت يا أختاه أنت

يا شعاع البدر أنت

ثم تكف الجموع ، فينطلق صوته العميق :

جاء صيادك ألقى بالشبك

يا حماما طار فى أوج الفلك

فأضحكى للسعد يا أخت القمر

وينقر على الدف لتردد النساء والرجال من خلفه :

أنت يا أختاه أنت

يا شعاع البدر أنت

فيخيل للرائى أن الكون كله بمباهجه ومسراته قد ذاب فى هذا لموكب البديع .. وجوه الشباب من كل نجع باسمة ضاحكة . يهزون الارض باقدامهم .. والسمروات فى أبهى زينة .. والعريس الذى تبدى زهرة بيضاء فى واحة سمراء ، وأشجار النخيل التى حلق البدر فوقها ، تلقي بظلالها الراعشة على الأرض تحت الأقدام والبيوت الطينية ، وهى تبدو سعيدة راقصة فى عيون الراقصين ، والنجوم الباهتة ، ومئذنة الجامع خلف بيتنا ، وشريفة التى تركت العروس ، واستقبلت الموكب عندما أشرف على النجع .. «وداريا » التى انضمت اليه أمام بيتها ، وسعدية ، والعطور النفاذة ورائحة العرقى ودقات الطار ، والكلمات الجميلة الصادحة تنفذ الى القلوب ،، وتكتسح ما غلفها من ركام التسجيلات ، وشجن الحديث عن بركات افندى والمستر هيس .

فالليلة ليست لهما ، ولا للطوفان ، فالليلة لشعبان وعروسه ، الليلة ليلة القلوب فلتفرح غير مبالية بأيام الشجن والحزن والطوفان .. كل شئ بدا بهيجا فى تلك الامسية الجميلة ، كل شئ كان يبدو سعيدا كلما اقترب الموكب ، وارتفع صوت المغنى وانسكب جليا واضحا فى آذاننا نحن الذين توقفنا بالكلوبات والفوانيس نستقبله عند ناصية الطريق يتقدمنا أبى وخالى والمأذون والشيخ طه .وتقدم أبى ، فحيا العريس واقتاده مرحبا به فى كلمات رقيقة ، ثم بأهله وبضيوفه ، وأحله على منصة عالية يحف به أهله : أبوه واخوته بينما انهمكنا أنا وحسن المصرى وأوش الله نقدم الشربات ، وندعوهم الى مائدة قريبة أعددناها للضيوف ، ولا يزال الموكب يغنى ويرقص ، ويردد اسم العروسة ، ويتغنى بجمالها وطيب أخلاقها .. أنت .. أنت .. أنت أخت البدر أنت .

وتوقفت بين الشاعر وصاحبه أراقب الموكب المهتز وأفكر فى شقيقتى .. ما هى فاعلة فى هذه اللحظة وهى تسمتع الى كلمات الاطراء التى يسكبها الشاعر ؟ .. أتراها منتشية أم حائرة شأنها منذ الصباح ؟ .. ووددت لو دلفت لأراها فى هذه اللحظة ... الا اننى تذكرت أن خالتى أمرتنى أن أكف عن مضايقتهن ، فبقيت أراقب الموكب الراقص ثم بدت حركة رأيت بعدها الرجال والشبان، يقفون فى نصف دائرة يكملها نصف آخر من النساء والفتيات الناهدات .

ثم غير الشاعر ايقاعه على الدف الى نغمة فانفصل عن الرجال عدد من الشبان يقودهم برعى يتأرجحون ويدقون علي الارض بالقدم اليسرى ويصفقون مع الايقاع ، ثم يدقون عليها بالقدم اليمنى ، زاحفين كما يزحف الحمام ، شامخين بأنوفهم ، دافعين مناكبهم الى الشمال واليمين ، يرمقون الفتيات الصغيرات ،حتى توسطوا الحلقة ، وما تزال اكفهم تصفق ، وتهز الساحة ولا تزال

أقدامهم ترج الأرض .

وفجأة وحين تعالى الايقاع انفلتت شريفة من بين النساء .. انفلتت مثل نوارة الفول .. ترقص وقد أمسكت جلبابها عند الخاصرة بيدها اليمنى تطوح بها ، وأمسكت طرف الطرحة بيدها اليسرى ، تغطى بها عينيها حينا ثم تسفر عنهما حينا آخر .

ومضت تدور وتدور ، وتتقدم الى صفوف الرجال ، والشبان الزاحفون يضيقون الخناق عليها حتى بدا المشهد وكأن كل واحد منهم يريد أن يطبع قبلة على جبينها ، وهى لا تزال تميس ، وتدور ، وترمقهم بنظرات ترسلها من خلف جفون مسدله ، هذا هو برعى يرج الأرض بقدمه وعلى عينيه بريق .. انه لا يستحى بل يهمس : شريفة ! لكنها لا تبالى تمر به فى سرعة خاطفة ..و تتريث عند آخر ، ثم تعود وتدور فيرج الأرض ويهز الجو بتصفيقه ويشمخ بأنفه ويقترب ويهمس : شريفة فلا تبالى .. فيزداد غيظه ويرمق الآخرين الذين يضيقون الخناق عليها ، فلا يتخلى عنها بل يتراقص بحيث يكون أقرب انسان اليها هى التى تذكرت حسن المصرى فى هذه اللحظة فأرسلت الى صفوف الرجال الذين لم يشتركوا فى الرقص نظرة عابرة تبحث عنه ، فوجدته يبرم شاربيه .. ويرسل نظرات والهه الى أمرأة أخرى خلف ظهرها .. فاستدارت ترقص حتى ايقنت أن نظرات حسن المصرى انما تتجه الى درايا سكينة أو الى البيضاء «أم زين» .. فارتسمت فى عينيها نظرة حائرة .. ثم راحت ترقص .. وخناق الشبان يضيق عليها وكأنهم يريدون اختطافها ، يضيق حتى تكاد أناملهم أن تلمس صدرها المنبعج وتكاد شفاههم أن تلامس شفتيها لم يغير ضارب الدف ايقاعه فيتراجع الموج الزاحف وتتراقص هى ، وكأنها تخطو على الاثير .. وتفرش الارض بجرجارها الطويل : تتراجع فى خفة حتى تلقى بنفسها بين أحضان لداتها من الفتيات اللاتى استقبلنها فى اعجاب .

وهمست سعدية :

- يا سلام يا شريفة .. لو رأيت برعى وهو يرقص :

- ماله ؟..

- كاد أن يأكلك كما تؤكل العجوة

فابتسمت شريفة وهمست :

- فليأكلك أنت

ودهشت حين سمعتها تقول :

- يا ريت .. ليته فعل .. لكن هل تسمحين ؟

فأشاحت بوجهها ، ثم ردت اليها مصاغها وانفلتت من الصف تسرع الى باب الدهليز ، فقد وعدت شقيقتى ، جميلة ، أن تكون بجانبها ساعة الزفاف .

كادت تغيب ، وراء الباب ، لولا أن حركة فى الموكب جعلتها تستدير وتتوقف على العتبة ، وتطل على الجمع الراقص لترى ما يدور هناك .

رأت صف الشبان يزحف كالموج الصاخب ويضيق الخناق على راقصة أخرى أمعنت النظر فيها حتى ارتسم الذهول على وجهها ، فانها لم تكن سعدية كما ظنت ولا بطة ، بل أمها درايا سكينة !

ففتحت فاها واستندت الى كتف الباب لتراها وهى تتثنى فى دلال فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة تدق الارض بقدميها ، وتتوقف لتغمض عيناوتفتح أخرى ، وتلوى عنقها وتميله الى الخلف لينبعج صدرها ، ثم تدق الارض من جديد وتهز صدرها وتتقدم وتسعى كما يسعى الحمام ، لكن فى سرعة خاطفة ، وطرحتها تتطاير فوق رأسها تنسدل منها لتلامس ردفيها بينما الجرجار حول قدميها يتحرك كما يتحرك ذيل طاووس ، والخلخال لا يرسل الا رنينا خافتا يبعث النشوة في قلوب الرجال فيهتزون ويزدادون تصفيقا بالايدى .. يا الله .. يا الله ان فى درايا دلالا وجمالا وليونة جسم ما زال يغرى الرجال ويسحر قلوبهم ..

وعند هذه الخاطرة تلفتت شريفة الى حسن المصرى ، وغاظها أن وجدته يفتل شاربه ، ويحدج «داريا» بنظراته الوالهة التى ارتسم فيها نفس البريق الذى ارتسم فيها بين عيدان الذرة ، فأصابها ما يشبه الدوار وشعرت بالتهاب لذيذ يشمل فخدها محل قبضته اللعينة فاستدارت ملقية رأسها الى الخلف ، وصفقت الباب خلفها وعبرت الدهليز بسرعة الى الفناء ثم الى الديوانى حيث ارتمت لاهثة بالقرب من شقيقتى جميلة التى تهيأت على منصتها فى انتظار الزفاف ، متلفعة بشقة بيضاء خفيفة ، ومن حولها الفتيات يستمعن الى الاغانى المنداحة اليهن من خارج البيت .

وعرفن من شريفة أن «داريا» هى التى ترقص فى اللحظة التى دخلت فيها الفتاة ، وانها ترقص كما ترقص أية فتاة ، وودت جميلة لو تركت شقيقتها وتلصصت عليها لحظة لترى كيف ترقص .

وتعالت الهتافات ، وتعالي النقر على الدف فان «داريا» ظلت تحوم فى الحلقة وترف ، مسدلة الجفنين مائلة الرأس قليلا ، تميس وتهز الاعطاف وتنسحب خطوة خطوة حتى ارتمت بين أحضان النساء ، باسمة لامعة بحبات العرق .

توقفت بجانب «أم زين» تلهث وتمسح العرق بطرف كمها ، وترفع عينيها لتراقب الاعجاب فى عيون زميلاتها ، فاذا بها تواجه جسدا عاريا يطل عليها بعينين ساجيتين وفم مفتر يتمتم : واحد .. أحد .. فكادت تصرخ لولا انها عرفت فيه «كلو» الذى مد يده ولمس ذراع البيضاء فالتفتت هذه إليه تشهق وتشيح بوجهها وتنكمش ملتصقة بجسد «داريا سكينة» .

ظهر كلو فجأة فى النجع ، وسرى على ايقاع الدف ، فتوقف خلف النساء يلقى نظرة على داريا وهى ترقص .. ويبدو انها آثارت أعجابه فتسلل الى مكانها يريد أن يقول كلمة ، يريد أن يباركها الا أن عينيه ا- تدا تا الى أ م سعدية التى مضت ترقص ، فمضى يبتعد وهو يصفق ويدق الارض بقدميه ، والاطفال لاهون عنه ، ثم توقف عند باب الدهليز ورفع يديه الى السماء وهتف :

- واحد . أحد .. صمد !

ودلف الى الداخل مسرعا فارتطم بجدتى .. وعبر الدهليز الى الفناء فى خطوات مسرعة ، ثم اقتحم الديوانى على العروسة وصويحباتها وانحنى عليها يمسح بيده على رأسها وهم يتمتم : واحد .. أحد مبروك ..،.. والفتاة ذاهلة سعيدة فى نفس الوقت .. ء .

وأفاقت على صوتها الذى كان يقول : بطة .. شربات لكلو .. اسرعى يا بطة ، الا ان كلو قد

انفلت يعدو ويطوف بالفناء والمطبخ والدهليز ثم خرج من الباب لا يلوى على شئ فى نفس اللحظة التى كانت أم سعدية تنهى فيها رقصتها.

ثم توقف الدف عن ارسال دويه فارتفع صوت ينادى بالصلاة على النبى ! صوت نعمان يقود الى الباب العمومى موكب العريس واخوته وأصدقائه .

- أما الباقون فليواصلوا غناءهم .

فتعالى النقر من جديد بينما موكب العريس يتوقف على الباب الخارجي الذى أوصد دونه بجسدين عملاقين من أتباع عائلة العروسة يعترضان طريق الموكب فى عناد ، لا يباليان بالوعيد ولا يستميلهما وعد .. ظل الموكب يناوشهما وهما لا يتزحزحان قيد انملة ، وأبى يضحك ويصدر اليهما أوامره فلا يبتعدان .. ثم تقدم الشيخ عثمان ودس شيئا فى أيديهما ، فابتسما وهتفا بالدعاء للعروسين ، وتنحيا عن الطريق فمضى الموكب يعبر الدهليز وهو يرتل نهج البردة ويهمهم بالصلاة على الرسول .

وفي الفناء توارى شبح أمى فهى حماة من واجباتها أن تختفى كلما لاح زوج ابنتها ، ولا سيما فى الايام الاولى ، فراحت تراقب الموكب الذى أوصد هو الآخر دونه بجسدين لامرأتين هما زوجتا العملاقين الآخرين وقفتا تعترضان طريقه فحاول شابان من نجع العريس أن يقتحما الطريق عليهما الا ان العريس أشار عليهما أن يتنحيا عن المرأتين .. ثم تقدم منهما ونفحهما ريالين .. زعردتا بعده وتنحتا عن الطريق ، فاندفع الموكب الى الديوانى المضاء .. بين التهليل والتصفيق .. والشبان يصفقون يطوحون بعصيهم ، وجابر يتلاعب بكرباجه كأنما يحاول أن يبعث الرهبة فى قلب شقيقتى التى أطرقت على منصتها .

وأخذت أخطو بقامتى القصيرة بين سيقان الرجال أحاول أن أستشف ما يبدو هنالك على منصة شقيقتى أشب على أطراف أصابع قدمى وأشرئب بعنقى واستند على كتف جابر .

ولا أدرى لم شملتنى حيرة فى تلك اللحظة ، ثم سألت نفسى ترى ماذا تفعل شقيقتى جميلة هنالك تحت الشقة ... أراها تبتسم أم تراها حائرة يملأ الخوف قلبها .. أم أنها هادئة كما عهدها الناس ؟

ورفعت رأسى لأملأ عينى وهى على المنصة ومن حولها الفتيات وهن يتهامسن ويشرن الى العريس الذى بدا مثل الملاك فى ثيابه البيضاء ملاك أسمر ، مجنح بشملة بيضاء ترف من حوله وهو يتحرك بخطى ثابتة وعلى ذراعه خنجر وتحت أبطه كرباج طويل وفى يده المخضبة بالحناء سبحة طويلة ووجهه الأسمر المستدير لا يكاد يبين من تحت عمته الكبيرة البيضاء .

وأردت أن أقلد الكبار ، فمددت عنقى ، وأطلقت صيحة بالصلاة على النبى ، ولكن كرباج جابر الذى ظل يطرقع به التف حول عنقى ولسعنى لسعة ، كتمت الصيحة فى حلقى حتى أننى تعثرت ووقعت على الأرض .. أبكى والعن جابر الذى انحنى بسرعة ، ينتشلنى ويجس على عنقى ليطمئن واحتضننى بعد أن أيقن أننى لم أجرح .

وذرفت أنا دمعتين ثم مسحتهما بطرف جلبابى واندسست من جديد بين الرجال أتحسس رقبتى ... وأراقب الموكب الذى توقف فجأة أمام المنصة ، أمام العروسة التى راحت وهى مطرقة تختلس

النظر من تحت شقتها البيضاء التي برزت من فتحتها ، وفوق الرأس ذؤابة من الشعر مثل عرف الديك.

لعلها كانت تفكر في حياتها الجديدة ، في رجلها الذي تراه ماثلا أمام عينيها ... ما له لا يتقدم فتنتهي من كل شئ ، من هذا العذاب اللذيذ الذي سيقت اليه منذ ساعات طويلة . تقدم يا رجل واتركني أدلف الى هذا الحاصل الذي على يميني فأتخفف من ثيابي واستريح كما تستريح مخلوقات الله .. تقدم فأنني أريد أن أخلص الى حامد الذي جرحه كرباج جابر لكن العريس لا يبالي بها بل يتجه الى القبلة ويصلي في أناة ، ينهض ليواجهها لحظة صامتا لا يدري ماذا يقول والصيحات تتعالى من حوله .. ثم تشجع ومد يده في بطء ، ورفع الشقة البيضاء وامتد بيده الاخرى الى ذؤابة الشعر المرتفعة فوق رأسها ومسها مسا رقيقا ، وتراجع بيده وهو يبتسم للرجال الذين مضوا يتواثبون من حوله ويقودونه من يده الى عنجريب بمساند مريحة يتكئ عليها بينما الفتيات والنسوة المحيطات بجميلة ينهضنها ويسرعن بها الى الحاصل .

ووقفت أنا مترددا : أأمضي اليها أم أنضم الى هؤلاء الذين اصطفوا في الديواني ينشدون «النسيب» من أشعار المرغني ، ورائحة العرقي تفوح من أفواههم.

ولم تطل حيرتي اذ وقفت بطة على عتبة الحاصل تهمس وتشيرحامد .. أنت يا ولد تعالى .. العروسة تريدك! فالقيت نظرة على شعبان ثم تسللت الى الحاصل لأجد العروسة واقفة في الركن المقابل للباب تنتظرني ، فتحت ذراعيها حين رأتني ، فارتميت على صدرها وأنا أقول مبارك .. مبارك .. فلم تجب بل رفعت رأسي بيدها ومضت تتحسس رقبتي في حنان وتهمس ! أجرحت يا حامد ؟

ولا أدري لماذا طال صمتي فانبرت شريفة تقول :

- يا شيخة .. بلا وسوسة .. لم يجرح كما ترين .

فلم تطمئن العروسة بل مالت على تخلع جلبابي لتتأكد من ان جرحا لم يصبني ، وأطمأنت ثم استدارت الى سحارة صغيرة ورفعت غطاءها ودفعت الى يدى بعلبة من الملبن ، وطبعت على جبيني قبلة وهي تقول :

- اذهب الى شعبان فانك رجل ..

ورأيت سعدية تقترب مني وتمد يدها تختطف علبة الملبن مني فاستدرت ونظرت إلى باب الحاصل أعبره بينما ارتفعت اصواتهن بالضحك ..

****

٢٣

لم يعد ساهرا فى النجع الا بيتنا تتسرب منه أضواء خافتة الى الشارع الملاصق ، والينا فى الساحة .

العروسان ساهران وحدهما فى الديوانى بينما أسهر أنا فى الساحة أمسك بنبوت أطول من قامتى ، وأتلفع بشملة صوفية ، أراقب الطريق العام بينما جابر وبرعى يراقبان الناحية الشرقية من البيت .

وبينما نحن نقص نوادر الزفاف لاح فى الظلام فجأة شبح ثم اثنان فثلاثة فتحفزنا نحن وشرعنا أسلحتنا .. ثم ركض برعى وجابر الى الناحية الشرقية واشتبكا فى سرعة خاطفة مع شبح كاد يتسلق الجدار .. طرقعة كرباج ثم آهه سريعة وأصوات ركض ومطاردة عادا بعدهما يهمسان .

- المجرم البسطاوى جاء يتلصص على العروسين . قليل الحياء

- لو كان فى نجعنا لضربته حتى تسيل الدماء منه.

- كفاه ما ناله من لسع كرباجى ..

وتذكرت فى تلك اللحظة نوادر تحكى فى قريتنا بعد كل زواج :

تسلقنا الجدار وفتحنا كوة فى السقف فوق سريرهما مباشرة ورأيناهما رأى العين وسمعناها تصرخ .. رأيناها تدفعه فى صدره وتوقعه على الأرض .. لقد غلبته !! عجيبة ! .. فلانة غلبت فلانا .. أما فلانة فانها لم تنطق بكلمة واحدة الابعد المعلوم، لم تبال بتهديداته ، ولا بالخنجر الذى استله ، ولا بعصاه التى مضى يهشم الاطباق بها .. اطباق الخوص والصينى .. استمرت تطبق شفتيها حتى أذعن لمشيئتها .. أما فى الساعة الفاصلة فإنها اطلقت صرخة حادة وغابت عن الوجدان .

تذكرت كل ذلك وعرفت لماذا نقف نحن حراسا على البيت ، ففركت عينى طاردا النوم ، وشددت قبضتى على النبوت وأنا أصيخ السمع الى برعى وهو يحكى لجابر قصه غرامه وعذابه ثم رن فى النجع صوت نوح يؤذن لصلاة الفجر .. وسمعت برعى يسأل جابرا :

- متى يخرجان . الآن أم بعد طلوع الشمس ؟

- بعد قليل ..

فسألت أنا ..

- والى أين يذهبان ؟

- الى النيل !

- فى هذا البرد الشديد لماذا ؟

فضحك برعى وقال وهو يغمز لجابر .. انهما لا يشعران بالبرد .

ولا أدرى لماذا خجلت من سؤالى بعد هذه الكلمات ، فانزويت أراقب الباب ، والليل من حولى يخلع شيئا فشيئا جلبابه القاتم ، يكاد يميط اللثام عن وجه السحر الفاتن ، فبانت رءوس الإشجار جلية واضحة .

وتحركت الأعشاش قليلا ، وبكرت عصفورة فشقشقت مرة واحدة وسكتت وأنا ما ازال اراقب الباب ، وأفرك عينى وأوسع من حدقتيهما .

وانبعث صرير الباب فجأة ، فقفزنا الى أقدامنا وفتح الباب ، فلم أر الا خالتى أمينة بايا و معها «مسكة» شقيقة العروس ، تقفان على عتبة الباب ، وتختلسان النظر هنا وهناك على ضوء فانوسين تحملانهما وكأنهما تخشيان شرا على العروسين فى صباحهما الأول. ثم انبرت الخالة تسأل

– هل مر رمضان النجار من هنا ؟

وأجاب برعى بالنفى وهمس لجابر: رمضان النجار هذا عينه تفلق الحجر، وهى تخشى أن تقع عينه الحاسدة على العروسين فى أول صباح يطلان فيه على الكون معا..

واستكشف الطريق ثم همس: لاأحد فى الطريق..تعالوا..فتنحتا عن الباب، وخطرتا إلى الساحة تحملان فانوسا. ومن خلفهما العروسان بنفس ثياب البارحة..

وسرى موكبهما ونحن من خلفهما..فى السكة الزراعية المتعرجة بين عيدان القمح المتمايلة على أنغام النسيم وبين أجمات النخيل حتى أوفت بنا الى الموردة حيث الفلوكة لاتزال رابضة تحتك بالجرف وتئن.

توقفا على الشاطىء، والفانوسان يرسلان بريقهما رماحا تنثال على سطح الماء الراكد الصافى، ورماحا تنطلق لتنعكس على الشمندورة التى كانت لاتزال ترتطم بسلسلتها تحاول الإفلات.

والليل لايزال يخلع جلبابه الداكن..ويكشف شيئا فشيئا عن مفاتن الصباح.. ليفيق الكون على ابتسامته الساخرة، ابتسامته المتألقة على شفة الشفق الأحمر..المنكشفة رويدا رويدا عن ثنايا بيضاء تبرق لينعكس بريقها على سطح الماء..

والنخلة العجوز التى استراح المماليك تحتها تهمس:

– أرأيت ياابنتى؟ للمرة المائة أرى الأزواج الجدد يقفون على الشاطىء فى صباحيتهم الأولى رأيت أباها وأمها..

فتضحك النخلة الصغيرة وتعود النخلة العجوز التى استراح المماليك تحتها تهمس:

وهنا وقف فضل وفضيلة منذ ثلاثين عاما. أما النيل. فقد رقد هادئا رقدة الإله، جبارا كعهد الناس به يرتعش لحظة- كعجوز يهرش رأسه مفكرا وينتفض عند الدوامة، ثم يبتسم للشابين الواقفين على حافته فى خشوع وتبتل:

ثم انحنى شعبان على الجرف، وخيل لى أن النيل قد ارتفع قليلا ليلتقى به، انحنى وتمتم بدعاء: فغمس يديه فى الماء، وارتفع بها إلى وجهه تمسحان عليه.

ثم استدار إلى «جميلة» يهمس: هيا..فمالت هى الأخرى وشربت جرعة ثم مسحت على وجهها وهى ترتعش من البرد ووقفت تدعو لزوجها ولنفسها ولنا نحن أهلها بينما استغرقت الخالة ومسكة فى دعاء مشترك متصل أفاقنا منه على صوت شعبان يقول:

- حسبنا فالشمس تكاد تظهر.

وانطلقنا نحن إلى الغيط وجمعنا حزمتين من عيدان القمح والفول بنواره فتأبطاهما، وعاودا سيرهما البهيج نتقدمهما نحن إلى أن أسلمناهما للديوانى الذى لن يفتح إلا فى الظهر ثم يغلق ليفتح فى المغرب. فيتوافد الناس يهننون ويقيمون حلقات الذكر وينقرون على الدف..

وتوافدت النساء على جدتى فى الأيام الأولى يهننن ويقدمن مساهمتهن فى نفقات العرس، فتأمرنى أن أكتب فى دفتر طويل خصصته لهذ الغرض:

- داريا سكينة: خمسة قروش. أصيلة: عشرة قروش، بنت الأيه دفعت لها عشرين فى زواج ابنتها فلماذا تدفع أقل، فتهمس خالتي: معذورة ياعائشة ..مسكينة..

وفي اليوم السابع خرج شعبان- لأول مرة..يطوف بالنجوع ويتلقي التهنئة والهدايا..أزواجا من الحمام والدجاج وأطباقا خوصية ملونة..

وتتتالت الأيام وجميلة لاتزال قعيدة الديوانى لايسمحون لها بأن تعمل عملا ما..يكفيها أن تتمنى شيئا فتجاب على الفور. وتنهض بطة أو شريفة لإنجاز ماتريده..

دارت بطة طوال شهر العسل كما تدور النحلة: تخدم وتكنس وتغسل وتعد الطعام..وتحلم فى نفس الوقت بزفافها.. وتستعيد فى نشوة ذكريات هذا الشهر لتحققها يوم زفافها، فقد أرسل حسنين- ابن عمها- من القاهرة إلى أبى يطلب يدها هى الأخرى.

وانقضى أربعون يوما خرجت بعدها العروسة تتلقى التهانى والهدايا ثم ران فى عينيها وجوم يستمر لحظة ثم ينطفىء حرت فى سببه، فقد أسرعت الأيام بنا وتقرر أن تبارح جميلة بيتنا إلى بيتها الجديد..

***

وجاء يوم الوداع. ومنذ الضحى مضت العروس تطوف بكل ركن فى البيت، تتأمل الجدران والصوامع عند مربط نعاجها ومعيزها وتربت على ظهر خروف أصفر «كرجاوى»..وتناجى «لورد» وهو يزك بساقه خلفها.

وتتعجلها «مسكة» فتقول جدتى:

- دعيها يامسكة فالوداع مؤلم..إنها ترحل عن بيت عاشت فيه طول العمر..

ثم التفتت الى جميلة تقول:

شعبان زوجك بح صوته ياجميلة..أسرعى.

فنهضت العروس وارتمت على صدر جدتها وهى تغص بالبكاء وتبذل الوعود: سأزوركم مرة كل أسبوع..زورونى أنتم، لاتتركوني وحدى.

وتردد صوت شعبان ينادى عليها فاستدارت بعد أن عانقت أمها واستمعت الى نصائحها متجهة الى الباب وإلى يمينها بطة..

أما أنا فقد كنت فى هذه اللحظة أراقب المشهد المؤلم بعينين دامعتين وفى قلبى دوامة من الذكريات والغيرة والألم لقد طافت جميلة بكل ركن فى البيت.. بكل نعجة وخروف، بكل صومعة وجدار ودجاجة وديك.. بكل إنسان إلا أنا.. أنا الذى لسع الكرباج رقبتى ساعة زفافها.أنا الذى سهرت الليل وبرده فى سبيل حمايتها!..

كانت تتجه إلى باب الخروج لتذهب إلى الأبد دون أن تودعنى وكدت أصرخ: جدتى.. أمسكيها..دعيها تقول لى كلمة واحدة.. ولكننى أحجمت وأخذت أغمغم: اذهبى ..لن أزورك..أنت لاتحبيننى. كنت أحسبك..لن أراك بعد هذا..سأهرب من البيت كلما جئت لتزوريه ..والله والله العظيم..

وأفقت على صوت الجدة وهى تطلق زغرودتها المتشرخة، وفكرت أن أجرى إلى «جميلة» واعترض طريقها وأمنعها من الخروج. ثم ترددت وقررت أن أختفى فى الفناء..وبينما أنا أستدير دارت «جميلة» على عقبيها تواجه الدهليز والأهل وعيناها غائمتان لاتريان شيئا، لاتريان هذا الولد الصغير الذى يحدق فيها ذاهلا عن نفسه ناقما عليها..

وظلت ساكنة تحدق فى كل شىء، وطال صمتها حتى ظننت أنها أخرجتنى من قلبها إلى الأبد، فخطوت أعبر الباب الصغير المفضى من الدهليز إلى الفناء إلا أن صوتها الرقيق ارتفع يقول: حامد..حامد..

فأسرعت نبضات قلبى..وأدرت جسدى كله لمواجهتها، ففتحت ذراعيها وأسرعت إلى تحتضننى والدموع تسيل على خديها: ثم راحت تهمس وأنا أتمرغ على صدرها، حامد..تعالى معى. زرنا فى كل يوم.. لاتخف فالطريق عامرة بالناس..

كان صوتها الحبيب يترقرق فى قلبى وهى تهمس..حامد..ياشقيقى ياابن أمى.. لاتنس..ثم لمست بيدها ضفيرتى المسدلة خلف أذنى اليسرى وقالت: لقد كبرت ياحامد..ولا داعى لهذه الضفيرة..قصها عند «شبيكة»..والخروف الأصفر ربيته أنا لمثل هذا اليوم.

وتردد نداء شعبان فطبعت قبلة على جبينى ثم نهضت، وفي عينهيا دموع وألقت نظرة جديدة

على كل شيء. واجتازت الباب الخارجي لتنضم إلى موكب وداعها..الموكب الذي رافقها يحمل أمتعتها، الموكب الذى استقبل فى نجعها بالزغاريد.

وهناك، وقبل أن تخطو العروس أولى خطواتها فى البيت، أمرها الشيخ عثمان والد العريس بالوقوف لحظة فتريثت إلى أن ألقى الشيخ بخروف كبير عند قدميها وذبحه وأسال دمه على العتبة لتخطو فوقه العروس.

وعاد بنا الأصيل - بعد أن تركنا العروس فى بيتها الجديد- إلى نجعنا..وعند مشارفه تلكأت وانفصلت عن أبى، واستندت إلى جذع نخلة أفكر فى مصيرى بعد رحيل هذه الأخت وبعد أن تتزوج بطة، ثم تداعت الصور وتمثل لى بركات أفندى وقلمه العجيب، ومصطفى ومدرسته، وأخذت أقارن بينه وبينى، بين مدرسته وكتابى.

وفجأة وكأنما كنا على موعد برز مصطفى من جانب الطريق فأخذت ألوح بيدى وأجرى حتى لحقت به.

تصافحنا ثم مضينا نتسكع ونثرثر فى كل شىء: لقد نقل إلى السنة الثانية وسيمتحنونه بعد شهور وينتقل إلى السنة الثالثة فالرابعة ثم القاهرة.

حدثنى عن العنب اللامع ومذاقه الحلو «واليوسف أفندى» فتحلب ريقى، وتمنيت لو وافق أبى فأكون معه فى نفس المدرسة..

ووجدتنى أسأله..

ألا تحس وأنت هناك بالشوق إلى أختك وأمك؟. فهرش فى رأسه وقال فى وقار..

- أحس به.. لكننى أراهم مرة فى كل أسبوع..الخميس والجمعة؟.

- وهل أستطيع أن آتى معك..

وقبل أن يجيب أضفت:- لأرى المدرسة والدكاكين والمركز..

فقال ببساطة متناهية:

- ولماذا لاتدخل المدرسة؟

وأجبت فى حزن ،أبي لايريد، فصمت الفتى واستأنفنا سيرنا، فى السكة السلطانية لصق أحراش الحلفا، والمساء يرخى قتامته، الرمادية على النجع وعلى أعمدة التليفون والبرق.

والصقنا أذنينا بهذه الأعمدة، نصيخ السمع إلى كركرة جوفها كانت الكركرة تعلو فى جلبة حتى خيل لنا أن جموعا من الناس تتلاحى على مقربة منا حول أشجار لم تسجل وبيوت لم يدونها بركات أفندى.

وربما كان بدر أفندى الذى طال الحديث عنه فى نجعنا يتحدث ..وهنا وجدتنى أسأل مصطفى ..وهل تعرف بدر أفندى. وقبل أن يخرج مصطفى يده من جيبه ليجيب وهو يلوح بها تناهت

إلينا صرخات محتدمة ترتفع من نفس المكان الذي ارتفعت منه منذ شهور فتسا لنا: ماذا جري هنالك، دون أن نتحرك، أو نعدو كما عددنا خلف مندوهة منذ شهور ..يوم كسرت ساق الشيخ فضل..

فتسا ءلنا: ماذا جرى هناك، دون أن نتحرك أو نعدو كما عدونا خلف مندوهة منذ شهور.

وأجاب أحد العابرين، وكأنما كنا نسأله..شريحة الأرض لاتستحق بارة واحدة، عمك فضل والجزار يقتتلان بسببها، وبصق على الأرض فى اشمئزاز ثم أردف. لعنة الله على الأرض وعلى الناس، ومضى فى اتجاه الجامع بينما مرق من جانبنا فى سرعة نبوت طويل يحمله برعي وهو يبرطم بكلمات غير مفهومة فأخذنا نهتف ونصيح به..

– برعى... برعى!

فلم يبال : بل انعطف هائجا مثل الثور الى السكة الزراعية المتعرجة..



هبت الريح وامتلأ الشراع، فأقلعت السفينة بنا، تعبر النتوء الشرقى، وتتجه الى الطرف الشمالى للجزيرة، وأنا أحدق فى الشاطىء وأفكر فى هذه الرحلة التى أعد لها أبى منذ الأمس، حين تذكر كلمات العروسة فى الدهليز يوم الوداع فأمسك برأسى وتلمس ضفيرتى الطويلة بيده ونادى:

- عيشة. .غدا موعدنا مع «شبيكة»..

فأجابت، وبسمة الرضا ترتسم على شفتيها: شىء لله ياشبيكة..

وانبرت تعد الفطائر والهدايا، بمساعدة« بطة»..ولم تأو إلى فراشها بالليل إلا بعد أن حزمت بعض الأمتعة وأعدت كل شىء لرحلتنا هذه إلي «شبيكة» هذا الشيخ الذى أقيم له مقام مرتفع، على قمة جبل عالية فى «الدر» يتبرك به الناس من كل قرية، يذبحون له القرابين عند الطهور أو الزواج، أو يوفون بنذر قطعوه على أنفسهم، ويعودون والرضا يشع من عيونهم..

مجرى النيل يتسع ، والشاطىء يصعد فى بطء، إلى الجنوب بينما حسن المصرى يهدىء من روع الخروف « الكرجاوى» الذى ربط بحبل إلى الصارى ، فمضى يثغو ويحاول الفكاك من وثاقه..ويحتك بظهر جدتى التى أستدبرته، لاهية عنه، فى حديث متصل مع أحمد عودة، وأبى عن شبيكة ومعجزاته..والحديث كله زهو وفخر.. فليس شبيكة إلا جدا أكبر لعائلتهما. كان وليا مقربا إلى الله، يعبر النيل فى قفزة واحدة.. أو يخطو على سطح الماء فى يسر، تماما كما يخطو الناس على الأرض، أو يتكىء على فرو أو فلوكة، أو ينفلت فى الجبل حيث لازرع ولاضرع ولاماء.. ويتكل على الله فى الهجير، فتظلله الغمامة..وتمطر له السماء فيرتوى، وتقع الطيور مشوية عند قدميه..

مضيت استمع إلى حديثهما فى سرور بالغ مزدوج، فسوف أزور هذا الولى وأقص ضفيرتى عند أعتابه، وآكل من لحم هذا الخروف الذى سيكون مباركا بفضله، فتزداد قوتى لأصبح فى قوة برعى، فأصرع البسطاوى وعبد الله الجزار..

وفى نفس الوقت ، يمكننى بعد زيارته أن أرى مصطفى فى الدر..

أدرت هذه الأمنيات فى ذهنى، وأنا أحدق فى المجرى الواسع، فحرت فى أمر «شبيكة» الذى كان يعبره فى قفزة واحدة.. ربما كان المجرى فى أيامه ضيقا ضيق جدول ساقيتنا الكبير، ربما كان هو كبيرا كبر الجبال!..

ووجدتنى أسأل جدتى فى فضول: كيف أمكن له ذلك ياجدتى، فقالت: بإذن الله ياولدى، وقهقه أبى وقال: كان رجلا طويلا واسع الخطوة قويا يشرب كوز سمن فى الصباح وآخر فى المساء، أيام كان كوز السمن رخيصا ، ثم انطلقوا يتحدثون عن أيام زمان ورخص أيام زمان: كان الربيع رخصا تلتهمه الأبقار..فتدر اللبن والسمن، والأرض خصبة تجود ،..وأشجار النخيل عفية تهب فى كرم ثمارها..أما الآن فكل شىء فى حكم العدم: لماذا؟.. كثر الناس..أم أن الله ناقم

علينا؟.

وتنهد أبى وهمس: وأيامنا هذه أسعد من أيام هؤلاء ..وأشار إلى، فانبرت جدتى تقول ربنا موجود..فعاد أبى يقول:

- ألا ترين؟.. هذه الأراضى لن تكون لنا..

وأشار إلى الشرق ثم التفت إلى الضفة الغربية واردف: وهناك ليس إلا الرمل الأصفر..لازرع ولانبات..

فأدرنا رءوسنا إلي الضفة الغربية. صفراء قاحلة عالية. تنحدر من كثبان الرمل والتلال الصغيرة المتناثرة، وتنتهى على الجرف بمغارات سوداء يسيل من أطرافها ماء بارد يصب فى المجرى، ولايمتد خلفها غير الصحراء الخالية إلا من « كرن نوج » القصر الأثرى الرومانى. القديم بقمته المتثلمة والذى أشار إليه أبى ليقول فى صوت غاضب:

- خبرنى ياأحمد ..أيمكن أن ينبت شىء فى هذه الضفة القاحلة؟.

- إذا أراد الله..

وردد عوض كتية النوتى كلماته وأردف:

- بإذن الله..

إلا أن أبى قاطعه بقوله:

- لكنه لم يرد، فجعلها صخورا وكثبانا وأخاديد..أنظر بالله عليك ، أنظر ماوسعت عيناك أن تبصر، هل تجد إلا نباتات الموت.. إلا الصبار..حتى العاقول لاينبت هناك..

وفرك أحمد عودة يده وأشعل سيجارته من عقب لفافة حسن المصرى وجال بطرفه فى الضفة الغربية وقال:

- لم يجرب أحد حظه هناك بعد..

وأمعن بناظريه ثم أردف: أى أرض يمكن أن تجود مع الخدمة..وبدون خدمة يمكن أن تتحول الأرض الخصبة السوداء إلى أرض قاحلة شاحبة..حتي هذه الضفة الصفراء يمكن أن تخضر..

فصاح أبى : هذه مغارة شياطين لاتأنس إليها الخضرة..لايأنس لها إلا الساحالى والثعابين والضباع، والصبار والعفاريت..

فاستعاذت جدتى ومضت تطوف بيديها على رأسي ترقينى، وهى تتمتم بينما واصل أبى حديثه: شتلات النخيل ستختنق فى قبضة الصخور..كلا.. لامقام لنا هناك..لو طاوعتمونى لاخترنا مكانا بعيدا ولطاب عيشنا وعيش أبنائنا..

وهنا ولأول مرة منذ أقلعت بنا السفينة تدخل حسن المصرى فى أدب ليقول: ولماذا لاترحلون؟..

وعاد يعبث بالشاغول ويدير الدفة وأذنه تتلقف سؤال أبى:

- وإلي أين يامصرى؟.

فأجاب على الفور ودون وعى: إلى الصعيد. أرض الله واسعة..

وحدجه أبى بنظرة ثم قال فى صوت مستريب:

- ولماذا لاترحل إلى السودان؟ هنالك أخوتنا نفس اللون. والقبائل لها نفس الجد، والأرض واسعة..

وفكر حسن لحظة، وتمثل له الصعيد بمطارداته وبوليسه وأدغال قصبه فارتعش صوته وهو يقول:

- الرأي رأيك ياأمين.. الجنوب أحسن!

وأمن أبى على كلماته، وراح يروى خبرا سمعه من أحد المداحين السودانيين : المهدى يرحب بالنوبيين فى السودان..

واعترض أحمد عودة يقول:

- الميرغنى وليس المهدى هو الذى رحب بنا.

ثم انتصب مستندا إلى الصارى، يحدق إلى الشمال والشرق. فقد عبرنا المنحنى الشمالى..ولاحت لنا الدر، فظلل أحمد عودة عينيه وحدق فى الجبل،، فرأي نقطا صغيرة مثل الخنفس تتحرك وتعبر الجبل، من طرقه المتعرجه..وقال وكأنما رأي ملامح الناس: ذلك هو الشيخ فضل والجزار ومعهما..آه.. من الذى معهما ؟..الولدان برعى والبسطاوى، يقودهم الشيخ جعفر إلى المركز..

واستدار الينا يقول : نفد صبر العمدة فساقهم إلى المركز.

وهمست جدتى:

- وعلام البهدلة..كان الأولى أن تعقدوا الصلح بينهما..

وهتف أحمد عودة:

- لم يوافقا، لعنة الله على بركات أفندى ودفاتره..

ولم يكمل جملته بل تنهد وألقى بسيجارته للأمواج فى صبر نافد..

وفى هذه اللحظة كانت الدواب السارية على الجبل قد اختفت عن أنظارنا، بينما السفينة تتجه برأسها إلى شواطىء الدر التى بدت بمبانيها ونجوعها، كبيرة ذات حقول صفراء متماوجة ومآذن عالية ترتعش فى حدقات عيوننا كلما اهتزت المركب بنا على صفحة النيل..

ورست بنا المركب فى محاذاة غابة من النخيل تتبدى قبة شبيكة البيضاء من خلالها سامقة هنالك إلى الجنوب تبعث الرهبة فى النفس.. ومن أمامها..إلى الشمال والشرق وفى امتداد سفح الجبل والسهل كانت تمتد نجوع «التتراب» والتنكياب(الغريباب) والبزرجناب ونجوع الخليلية والكرياشية والسرودية..

وبينما خالى أحمد عودة يعدد أسماء النجوع والقبائل مدت السقالة فنزلنا إلى الشاطىء لنجد فى استقبالنا الشيخ غلاب، أحد أقارب العائلة.

بتنا عند هذا الرجل ليتنا، وصحونا فى الفجر لنتجه إلى الجبل، حيث القبة البيضاء المطلة على الكون قائمة فى غبش أضواء الفجر.

وعند السفح المزدحم بالناس الذين وفدوا من كل قرية يتبركون بأعتاب« شبيكة» دون أن يتطاولوا ليبلغوا قبته توقفنا جميعا. جدتى وأبى يتضرعان إلى مقام الولى أن يسعدنا، ويفضون إلي سدنته برغبتنا التى دفعتنا إلي عبور الجبل، فتقدموا بنا إلى مكان قريب من القبة، وهنالك نحر الخروف الأصفر وسالت دماؤه على الصخور قربانا لولى الله..
ثم امتد مقص واجتز ضفيرتى التى لفتها جدتى فى قطعة من الحرير الأصفر دستها في صدرها وهى تتمتم بالدعاء..

وفى ضحى اليوم التالى عاد أبى مع جدتى، بعد أن تركنى فى الدر مع أحمد عودة وحسن المصرى بعد أن توسلت وتضرعت إليه..

وما أن غابت المركب عن أنظارنا حتى بدأنا نحن نوغل فى القرية نحو الشمال يقودنا الشيخ غلاب إلى أن حاذينا كوبرى «أبو زقان» فتوقفنا عليه برهة نتأمل الأخدود العميق الذى ينفلت تحت الكوبرى لينحدر من الجبل إلى النيل..

وسأل حسن المصرى:
- هل يرتفع الماء فى هذا الأخدود ، فيصلح لري الأرض..
فقال الشيخ غلاب:
- كلا ..هو يابس طول العام..
وأضاف كأنما تذكر شيئا:
- مرة واحدة منذ سنوات، انحدر من هذا الأخدود سيل جارف حطم الأشجار ،والبيوت وكل نبات..
وابتلع ريقه واستطرد:

-ويات الناس فى العراء وجاعوا..لكن الله جبر بخاطرهم فتبرع الناس فى مصر والاسكندرية والمدن المختلفة بألوف الجنيهات لإغاثة المنكوبين..
عفارم..
- لكن المنكوبين رفضوا هذه الألوف..

- عجائب ياشيخ علام..عجائب!

- رفضوا واشترطوا ايداعها فى خزانة مديرية أسوان لتنفق من ريعها على أبناء النوبة المتقدمين المعوزين فى المدارس..

وهز حسن المصرى رأسه فى إعجاب، وأراد خالى أن يقول كلمة إلا أنه صمت وهو يلمح الشيخ فضل يزك بساقه ومن خلفه عبد الله الجزار وبرعى والبسطاوى يقودهم الشيخ جعفر وبرعى حثيثا إلى الكوبرى يريدون عبوره مثلنا..

وألقوا بالتحية حين اقتربوا منا ثم استداروا يهنئوننى على قص ضفيرتى وتبركى «بشبيكة» وزيارتى لمقامه!

وسارت الجماعة تعبر الكوبرى، وأنا من خلفهم أستمع إلى كلماتهم: قال أحمد عودة يسأل: وماذا قال المأمور ياشيخ جعفر؟ فأجاب هذا: ألم أقل لكم أنه رجل طيب؟.. لقد نصحنا بالصلح، فالتفت أحمد عودة إلى فضل والجزار يسألهما: أليس الشيخ فضل محقوقا؟ فابتدره الرجل: اخرس ياولد ..دع الكبار يتكلمون .. حتى عبد الله الجزار نهره بشدة.. فزم شفيته وتراجع خطوات وانحاز الى الناحية الشرقية من الطريق وهو يغمغم، بيمنا استأنف الشيخ جعفر يقول: ونحن الآن فى طريقنا إلى بدر أفندى دعانا إلى بيته ليتدبر الأمر بنفسه.. كان مع المأمور واستمع إلى المشكلة فقرر أن يتدخل فى الصلح..أتأتى معنا ياأحمد؟..

وأشار إلى بيت الرجل وقال:

- حجة وتجارة..فتتعرف على الرجل فقد ذاع صيته..

وقبل أن تدلف بنا الطريق إلى كوبرى«أبو زقان» اقترب برعى منى، وعبث فى جيبه ثم دفع بيده، أمام عينى بعقد جميل من الخرز يلمع، اشتراه بالأمس من الدر، وهمس فى أذنى: أليس عقدا جميلا ياحامد؟. فقلت.: ليس أجمل منه..هل اشتريته لأمك؟ فهمس من جديد: كلا ياعبيط سأهديه إلى شريفة!

فتذكرت على الفور مسحوق الوطواط و«لورد» واللطمتين اللتين اغضبتا شريفة، وصراخها فى وجهه: أنت صايع..وتبسمت فى يأس .ويبدو أنه أدرك ما جال بخاطرى فقال فى صوت خافت..كلا ياحامد إنها ستنسى الحادث، ولن تعود إلي ذكره فهى تحبنى أنا وليس هذا الجلف، وأشار إلى البسطاوى الذى كان بعيدا عنا يخب فى الطريق كأنه ليس واحدا من الجماعة السارية فيه..

ووصلنا إلى ميدان «أبو زقان»..

الميدان صغير ومستدير إلا أنه يغص بأشجار الجميز الوارفة وذقن الباشا والأتل الملقية ظلالها على أديمه المتجعد بأقدام السابلة، وتحتها أزياء فخارية حمراء..

ووقفت أتأمل الميدان والمبانى المرتفعة أمامه، تفتح أبوابها عليه!

«مكتب البريد» حيث يعمل بدر أفندى . يخرج ويدخل منه أناس من أشكال وألوان

مختلفة.. وبينما نحن ننعطف أمام هذا المكتب سمعت خالي أحمد عودة يقول:

- حسن : خذ حامد معك إلى السوق..وعد به بعد ذلك إلى بيت بدر أفندي..هناك تجدنا..

فأمسك حسن بيدي ودار بي في الميدان، حول مبنى البريد إلى أن حاذينا حائطه المقابل لرصيف النيل ومرساة الباخرة التي ترد من الشمال مرة في كل أسبوع تحمل البريد والطرود والمسافرين..

وأمام المرساة مباشرة، وفي مواجهة النيل كانت المحكمة والمركز يتصل بينهما وبين مكاتب الموظفين فناء واسع ينتهي الجانب الشرقي منه بسلحليك وسجن صغير ليس فيه سجين واحد..

واستدار بي حسن الى شارع جانبي أطل علينا فيه بناء كبير، صلصل منه صوت جرس ونحن نكاد نعبر الطريق أمام بابه الكبير..

فتذكرت أحاديث مصطفى عن هذا الجرس الذي مضى يصلصل في دوي يفوق صلصلة عشرات الأجراس الصغيرة المعلقة على صاري المركب الشراعي في يوم عيد..

أيقنت أنني أمام المدرسة فتلكأت ثم طلبت من حسن أن نتوقف قليلا فقبل على مضض، فرحت أنا أراقب المدرسة في فضول..

ومرت لحظة بعد أن سكت الجرس ثم فتح الباب الكبير، ليندلق منه إلى الشارع عشرات من الصغار في سراويل قصيرة مختلفة الألوان يتأبطون كتبا، ويمسكون في أيديهم مساطر وأقلاما، ويلكزون بعضهم بعضا.،ويتقافزون في شيطنة غريبة، فيملئون الشارع ضجيجا يصم الآذان..

ثم فتح الباب من جديد وخرج منه إلى الشارع أربعة رجال استرعو انتباهي : اثنان في ملابس مثل ملابس بركات أفندي، يتوج الطربوش رأسيهما والآخران يتخذان زي الشيوخ: جبة زاهية وقفطانا لامعا يشدانه إلى الخاصرة بحزام عريض، أحدهما حليق الذقن والشارب، مايزال في مقتبل العمر، بينما الآخر قد تخطى مرحلة الشباب..

ومضى الأولان يتهامسان بينما ابتسم الشيخ الأول الشاب لنكتة أرسلها زميله، غير أنه زم شفتيه فجأة ثم صرخ في صوت آمر ارتعدت له مفاصلي:

- خليل ،أنت ياولد ياخليل. تعال هنا.

فذعر الصبية الذين كان الشارع يموج بهم، ورمقوا زميلهم الذي كان يتواثب في الشارع، ويشوط بحذائه الأسود ذي الرقبة العالية حجرة صغيرة أخذ يدحرجها من أول الشارع إلى آخره، وهو يحجل ويصرخ في مرح اختنق فجأة على شفتيه حين دوى صوت الشيخ فتوقف عن لهوه، ومد يده بمنديل يمر به على طرف الحذاء، يزيل خدوشا بيضاء أحدثتها الكرة الصخر ، قبل أن يقبل على الشيخ مطرق الرأس.

وأمسك الرجل بشحمة أذنه اليمنى، ومضي يفركها في قسوة بينما الغلام يستجير: والنبي ياشيخ مرسي...وحياة ابنك صالح، لن أعود إلى تمزيق حذائي..لن أعود.. والنبي..

وقال الشيخ أرحم أمك المسكينة..

وأهوى أحد الأفندية بمسطرته على رأس الولد وقال وهو يبتسم:

- خلاص..الولد تاب.

ولم يستجب الرجل، بل مضى يفرك أذن الغلام الذي استمر فى إرسال صرخاته: والنبى يامكى أفندى تبت.. والنبى ياشيخ يسن، إلا أن هذا كان قد ابتعد مع الأفندي الاخر ليدلف الى مكتب التلغراف..

إذن فهذا هو الشيخ مرسى الذى حدثنى مصطفى عنه..كم هو قاس هذا الشيخ!.

ورمقنا الشيخ بنظرة مستفسرة وهو يتجاوزنا فهفهفت منه رائحة عطره إلى أنوفنا، ولكزنى حسن بكوعه وأمسك بيدى وانعطف بى، وأنا ما أزال أحدق فى المبنى وأتساءل: لابد أن الفصول هناك خلف السور وفيها الكراسى والأدراج والطباشير والتخت السوداء المعلقة على الجدران..ولكن أين مصطفى؟.

ومضى حسن المصرى يصعد بنا طريقا متعرجا حتى استدرنا حول المدرسة فلاحت لنا خلفها بحيرة ضحلة تحف بها أشجار السنط والأثل والجميز، وعمارة ذات طوابق ثلاثة يتعرج من خلفها طريق ترتفع على جانبيه دكاكين متباينة الشكل..

وتلقانا أحمد شور.. صاحب المطعم بابتسامة عريضة فجلسنا نلتهم أرغفة بيضاء وقطعا صغيرة نتصيدها من طبق الفاصوليا العائمة فى الصلصة الحمراء.

وخلصنا بعد ذلك إلي مقهى حامد نشرب شايا مرا ثقيلا عافته نفسى، وأردت أن أطلب من حسن المصري شئ آخر إلا أنه كان لاهيا عني بأفكار يجترها، ولمحت فى وجهه إمارات مثل التى رأيتها ليلة «فكيهة» أيام موسم البلح.

وسمعته يتنهد ويشير إلى الجرسون ويهمس فى أذنه بكلمات قال بعدها: ابق هنا ياحامد وسوف أعود، وقبل أن أحتج كان قد ترك المقهى بينما الجارسون يشيعه بتلعيب حاجبيه ويقول :أمال ياعم..«دنجل شوفو» وحرت فى أمر «الدنجل شوفو» هذه ولم أدرك معنى لها إلا بعد زمن طويل: مجرد مكان للسمر عند سفح الجبل يصخب سحابة النهار بجواريه ويسهر حتى منتصف الليل على ضوء الكلوبات وعلى أنغام الدف وألحان تنبعث من أصوات مبحوحة: خدينى باليمين أنا راقد شمال تفوح منها رائحة العرقى والخمر..

وعاد حسن بعد ساعة وأمسك بيدى، فعدنا من حيث أتينا الي ميدان «أبوزقان» ثم إلى بيت بدر أفندى وانضممنا إلى الجماعة التى افترشت المصطبة الخارجية يحلقون بالاستاذ بدر، كما ظلوا ينادونه طوال جلستهم هناك.

رجل نحيل قصير القامة، بشارب طويل يغطي شفته العليا ويرسم ظلالا على وجنتيه الضامرتين وتضيف إلى سمرته..وعينين متقدتين بالذكاء ،بان فيهما ألم ربما كان سببه مرضا يشكو منه.

والرجل يرتدى بدلة رصاصية وقميصا أبيض تسترخى ياقته على بداية صدره، بينما يلتف حول رقبته رباط تختفى أطرافه فى صديرى من نفس لون البدلة. وعلى رأسه طربوش طويل أزاحه إلى الخلف قليلا فبانت صلعة خفيفة فى مقدمة رأسه..

كان حين وصلنا يشد على يد شاب طويل تشوب سمرته حمرة خفيفة..كانت الريبة والقلق يكسون وجه الاستاذ وهو يقول له:
اياك ياحسين ..اياك وإلا..
فما كان من حسين هذا إلا أن زوى مابين حاجبيه وزم شفتيه وكرر الأستاذ تحذيره وأضاف:
- سوف أرسل لك بعد أن تصل إلى مصر أمازلت تعيش فى غرفة السطح فى عابدين..
فهز حسين رأسه بالإيجاب وأسرع وهو يتمتم: غدا تروون عنى الحكايات..الصبر الصبر!.. الزم الصبر..!

وتريث الأستاذ إلى أن اختفى حسين وعاد إلى مجلسه مقطب الجبين، فبدا وكأن هموم الدنيا تنصب على رأسه. وخيل للمرء وهو يستعيد حديثه عن الطوفان أن هذا الطوفان لن يحل إلا به هو دون غيره من عباد الله.
تحدثوا طويلا عن البيانات والشكاوى التى يكتبها صباح مساء، فوق معالجته لمشاكل الطلبة المغتربين فى سوهاج وأسيوط والسعيدية وحلوان وكلية كتشنر الطبية فى الخرطوم.

ويبدو أن الرجل كان قد عقد الصلح بين الشيخ فضل والجزار فقد سمعته يقول وهو يشير إليهما: فى مثل ظروفنا يجب علينا أن نتناسى كل شئ. يجب ألا نتنازع على شريحة صغيرة من الأرض ستكون فى جوف الطوفان بعد زمن قصير.
وطلب منهم جميعا أن يقرءوا الفاتحة، وماكادوا يقولون آمين حتى قال الاستاذ. أنت ياشيخ جعفر تعرف كيف تم الصلح، الجزار يزرع الشريحة ويستفيد منها ،أما الشيخ فضل فتسجل الشريحة باسمه جزاء لما اقترف الجزار حين كسر ساقه.

وحاول رجال نجعنا أن ينصرفوا بعد ذلك إلا أن بدر أفندى قال لهم: كلا. فأنا أريدكم فى مسألة أخرى، وبدأ يستعد للكلام إلا أنه قطع حديثه وهب واقفا يستقبل الشيخ مرسى والشيخ يسن ومكى أفندى والمصرى أفندى وبعض الآخرين أفسح لهم مكانا على المصطبة..

وأدار الشيخ مرسى عينيه فينا. فقال الأستاذ بدر:

- لامانع فإنهم منا وليسوا علينا.

فبدأ الشيخ مرسى يتكلم ويسرد قصة طويلة عن المدرسة الابتدائية فى الدر وكيف أنشأها رجال من النوبة يشكرون: حسن عجيب وعلى بك خيرى ومكاوى الطرابيشى. أنشأوها هى ومدارس النهضة النوبية فى الاسكندرية من ملاليم وقروش جمعوها من النوبيين، وجلبوا لها المدرسين، ثم سعوا عند رجال الحكم والانجليز متشفعين بكل رجل يعرفونه حتى ضمت الوزارة هذه المدرسة إليها وبدأت منذ سنين تنفق عليها وتبعث بالمدرسين وتدفع مرتباتهم..

وسكت الشيخ مرسى بينما يرتشف جرعة من الشاى فواصل مكى أفندى حديثه:

-و الآن فإن الوزارة تريد أن تغلق المدرسة.

وبدون وعى صاح الشيخ فضل:

- ولماذا ..لماذا؟.

فتلفتوا اليه وأساريرهم تهلل لهذا الاهتمام الذى بدا من الرجل ثم استرسل مكى أفندى:

- الحكومة لم تقصر بقدر ما قصرنا نحن- أقصد النوبيين- فإنهم لايرسلون أولادهم إلى المدرسة.

وتدخل الشيخ ياسين يكمل الحديث..

- الحكومة تقول- عدد التلاميذ فى المدرسة لايتجاوز السبعين وتزعم أنها لايمكن أن تتحمل نفقات مدوسة كبيرة وترسل مدرسين إلى أقاصى البلاد، إلى المنفى، - فإنها تعتبر بلادنامنفى- وقد أنذرتنا إنها ستغلق المدرسة مالم يتضاعف عدد التلاميذ..

وسكت الشيخ ياسين ليتمخط، فتدخل بدر أفندى يسأل..

وماذا ترون. أنرسل شكوى..ولمن نرسل الشكوى؟.

وقال الشيخ مرسى- الشكوى لن تفيد والأساتذة يقولون بحلين لاثالث لهما- نسعى لتصبح المدرسة داخلية مجانية وأن نقوم فى نفس الوقت بدعاية واسعة فى مختلف القرى ليرسل الناس أبناءهم إلى المدرسة..

وقال بدر أفندى- الرأيان مناسبان لكن أولهما صعب وإن كان فى إمكاننا استغلال النكبة التى ستحل بنا فى سبيله، أما الحل الثانى فيمكن القيام به منذ هذه اللحظة..

والتفت الى رجال تجمعنا يسأل- أليس عندكم كتاب؟.. فهزوا رءوسهم بالإيجاب.. ثم التفت إلى أنا وسأل- ما اسمك؟ فأجبت وأنا أتلعثم ثم تغلبت على ارتباكى وقلت: وأنا أريد دخول هذه المدرسة فتهللت أساريرهم، واستدار إلى الشيخ مرسى يسأل : ولماذا لاتأتى؟. قلت إن أبى يريد إرسالى إلي الأزهر، وتدخل أحمد عودة يؤكد : أبوه يصر على ذلك، ولكنه بإذن الله سيدخل

مدرستكم..

وارتفع صوتا فضل وجعفر يؤيدان خالى. واكتفوا بهذا القدر وتركونى وأنا ماأزال أحاول الكلام وعادوا يتحدثون عن الحلول المناسبة وانتهوا إلى الكلمات التى أكدها بدر أفندى:

- سنرسل إلى مصر ونكتب فى الصحف، ونكتب إلى الناس فى كل القرى نستحثهم على إرسال أبنائهم.وعليكم أنتم فى قريتكم أن تقنعوا الناس..

فأمنوا على كلامه رغم أنهم يعتقدون أن الناس فى قريتنا لاهون عن المدرس وشئونها، ولايعرفون عنها شيئا وأنهم مشغولون ببركات أفندى وبالمصيبة التى يتوقعونها..

وتهامس المدرسون قليلا مع بدر أفندى واتفقوا على كل شىء بشأن المدرسة، ثم عاد الحديث من حديد إلى الطوفان فقال بدر أفندى:

- الناس يجب أن يهتموا بمسألة التعويضات.. وبالأماكن التى يرحلون إليها عندما يتم الطوفان.

وارتفع صوت الشيخ جعفر يسأل:

- ولماذا يقيمون الخزان ليخربوا بيوتنا؟! أراضيهم واسعة.. فلماذا لايغرقون جزءا منها؟!

وابتسم بدر أفندى وقال:

- الخزان يبنى فى أنسب مكان ياشيخ جعفر..بناؤه أمر لابد منه..فسوف تروى مياهه أراضى واسعة يقتات منها ملايين الناس..

وقال جعفر من جديد:

- سيعم الخير هناك ونموت نحن من الجوع.

- هذا يجعلنا نطالب بأرض جديدة..وتعويضات مجزية..

وتنحنح وابتلع ريقه وحل رباط ياقته واستطرد.

- لكن يبدو أن حكومة صدقى لن تصل بنا إلي بر الأمان. فهى تعرف أن الناس عاطلون يتشوقون إلى المليم والقرش..فتتعسف وتعمل على تخفيض التقديرات الأولية التى أعدتها حكومة الوفد للتعويضات..

وهنا تدخل فى الحديث الشيخ عبد الغفور رئيس لجنة الوفد بالدر:

- لاشيء ..لاشيء... صدقى لم يقدم لنا شيئا..الداهية ابن الداهية ..حتى الدموع لن يذرفوها علينا..لو كان النحاس باشا لتبدل الحال.

وانتهز الجزار فرصته فقال بصوت خشن:

آه.. لو كان اللورد كرومر..

فقاطعه أحمد عودة بحدة : لعنة الله على كرومر.

فسكت عبد الله الجزار على مضض، ثم راح بدر أفندى يعدد أسماء قرى تزمع الحكومة أن تبيعنا فيها أرضا جديدة. تكلموا عنها وكأنها أماكن رهيبة: الطود والزينية، ودار السلام وجبل السلسلة فتساءل الرجال:

- وهل يقبلنا الناس.. وعاداتنا ليست مثل عاداتهم..

وانشب الشيخ فضل أنامله في التراب،.واشتمه وتركه يتسرب من بين أنامله وقال:

- والأرض هناك ليست مثل أرضنا..فاندفع عبد الله الجزار يسأل:

- ولكن لماذا لانرحل إلى السودان..المهدى يرحب بنا هناك.

فانبرى الاستاذ يتكلم فى حماس:

- مجرد إشاعات..صحيح أن السودانيين إخوتنا، صحيح الأراضى واسعة هناك ولكنها تموت من العطش، والذين يحكمون هناك ليسوا إلا انجليز حمر الوجوه يكرهون الجميع: المصريين والسودانيين ويكرهوننا نحن سواء بسواء..إنهم يريدون استغلال نكبتنا لينقلونا إلى السودان..ثم يدعون على مصر حقوقا، أنسيتم حادث السردار ؟!..

- لعنة الله عليهم..

وبصق فى اتجاه الجنوب وأضاف:

- لعنة الله عليهم..

ولم ينته الحديث إلا بعد أن نادى بدر أفندى على ابنه كامل الذي هرول إليه، فأمره أن يسلم بعض البيانات للضيوف.

وعندما هب رجال نجعنا وقوفا يشدون على يده ويودعونه قال لهم:

- مأذون قريتكم يأتي كل أسبوع هنا.. يمكنكم أن ترسلوا أى شكوى عن طريقه.وإذا وصلنى أي شيء من مصر أرسله اليكم مع المأذون..وسأوصى بكم عوض أفندى وكيل البريد فى أبريم.شرفتمونا.

***

ولا أدرى لماذا أصر أحمد عودة علي عبور الجبل فى الظلام، إذ لم نتريث إلا ساعة..استأجرنا فيها دابتين ومضينا جيمعا نشق طريقنا عبر الجبل حتى حاذينا شبيكة. فتوقف الرجال عند مقامه يقرأون الفاتحة، ثم أخذت حوافر الدواب تنقر على الأرض الجبلية الصلدة وهى ترتفع على كثيب وتنخفض بنا فى أخاديد ، لانصادف فى الطريق إلا شجيرات الصبار القاتمة، وآثار أقدام الضباع، وهياكل عظمية تبرق فى ضوء القمر.

وتشبثت بظهرخالى فى خوف حين اندفعوا يقصون نوادر صادفتهم فى رحلات مثل هذه مع الذئاب والثعالب والثعابين..

وقبل أن ننحدر فى نهاية الجبل - عند مشارف القرية- قال الشيخ جعفر:

- الخير هو ماتم يافضل..

فصاح الشيخ فضل:

- الحمد لله..الخير فيما اختاره الله.

بينما صمت الجزار صمتا مريبا ثم قال:

- على خيرة الله..

ولم ينبس البسطاوى ولابرعى بكلمة..فإن أحدا لم يصلح بينهما، وانحدرت بنا الدواب تخب فى الطريق العام حتى اقتربنا من النجع، وصرنا عند مشارفه، وحينذاك ارتفع صوت لورد ينبح وكأنه يرحب بنا، ومضى يتفرس فينا ثم هدأ حين ميز أشخاصنا..

ودلفت إلى الدهليز وألقيت نظرة على أمى متكورة فى ركنها ، ثم صعدت إلى العنجريب، ووجدت جدتى قد أفاقت على صرير الباب،..وهمست فى أذنها: سأدخل المدرسة ياجدتى، فهكذا قال بدر أفندى فمدت يدها وتحسست موضع الخصلة وقالت : إن شاء الله..نم الآن يا ولدى ، فطبعت قبلة على جبينها..وارتميت إلى جانبها ألوك ذكريات اليوم السعيد..



وتواتر الحديث فى النجع عن مصر، والأندية النوبية فيها وعن الإشاعات المتعاقبة والتقديرات المجحفة للتعويضات والتهب احساس الناس بالظلم، فنفثوه علي صفحات طويلة، يكتبها المحامى أو مأذون القرية أو يحملها اليهم هذا المأذون أو برعى من بدر أفندى، يتلونها على المصاطب وفى الساحات أمام المتاجر، ثم يوقعونها ويرسلونها إلى المسئولين فى القاهرة.

كان برعى يتريث فى الساحة- فى كل مرة- حتى تتم التلاوة، ثم يحملها إلى مكتب البريد فى أبريم، حيث يتم تسجيلها وإرسالها.

وقد بدا برعى فى هذه الأيام ..مزهوا بمهمته الجديدة، فخورا بها ،يتعالى علينا نحن صغار النجع، فلا يجالس إلا الكبار، ولايحلو له إلا حديثهم، وإن كان لايفهم منه إلا القليل.

تعلم برعى الكثير من كلمات بدر أفندى وإرشاداته، فبدا يهتم بالمشكلة عموما..لايشوب تفكيره إلا القلق الدائب الذى يفترس قلبه على مصير حبه، وإلا التفكير الدائم فى شريفة.

اعترض طريقها بعد يومين من عودته من الدر وأهداها عقد الخرز اللامع، فتقبلته بسرور، وتناست اللطمة التى أوجعتها، ولكنها رغم تقبلها هذه الهدية ونسيانها نقسوته لم تعد تراه كثيرا، فهو فى غالب الأحوال يستقل مركبا شراعيا يحمله هو والمأذون إلى الدر، ويرحل اليها عبر الجبل، وقد يلتقى فى الدر بصديقه أحمد محمود وبعشرات من الشبان أمثاله يفدون من مختلف القرى لنفس الغرض: يحملون الرسائل والبيانات الى بدر أفندى ومنه.

مازال صغيرا..إلا أنه فارع الطول يملأ العين بالثقة.

لايتكلم إلا فى حزم، فقد تعلم كثيرا من خبرة الحياة بعد أن هجر الكتاب، وتنحى عن مشاغباتنا نحن الصغار مع أطفال النجع الآخر.

ورغم كثرة تنقلاته مع المأذون، فإنه ظل يسهر على زراعة أبيه ويساعد خاله فضل الذى ساءت حالة ساقه، وبدأ اهتمام البنات به يشتد حتى أن سعدية كثيرا ما كانت تعترض طريقه، وتتبادل معه الدعابة دون حرج، حتى الكبار من رجال النجع بدءوا يعاملونه كما يعامل الكبار ،إلا أنهم رغم ذلك كانوا لايتركونه يتصرف إلا وفق مشيئتهم فانحصرت مهمته فى نقل الرسائل إلى الأستاذ بدر أو إلى مكتب البريد فى أبريم.. مجرد مرسال!.

وقف مرة أمام مكتب البريد فى أبريم.. يطل من الكوة المفتوحة فى الجدار، ويحمل في يديه عدداوافرا من العرضحالات مضى يتصفحها ريثما يفرغ له عوض أفندى، فلاحظ أنها خالية من توقيعات الرجال..

لقد نسى المأذون ذلك.. ولابد له أن يعود.

وتردد لحظة ثم سأل عوض أفندى:

- انتظرنى فأعود إلى البلد ثم أرجع؟

فابتسم الرجل فى وجهه وسأله: ولماذا ألاتريد أن ترسل هذه الشكاوى؟!

- أريد إرسالها ولكن أسماءهم ليست هنا كما يحدث فى كل مرة.. هل يمكن إرسالها بدون أسماء؟.

فهز الرجل رأسه بالنفى وأعاد الأوراق إليه وهو يهمس:

- ولكنها ياولدى مستعجلة! ونحن سنغلق المكتب بعد حين والنجع بعيد.. وغدا الجمعة!.

واستند برعى إلى الجدار حائرا لايدرى ماذا يفعل.. أيعود بها بعد غد أم..

وكاد اليأس يديره علي عقبيه ليعود إلى النجع، لولا صديقه أحمد محمود الذى ظهر فى هذه اللحظة، وحياه بحرارة ثم لاحظ حيرته، فمضى يتندر بالتبويزة المرتسمة على وجهه فازداد وجومه وحيرته حتى سأله أحمد:

- فيم هذ العبوس يابرعى..أمات أحد؟ فهمس برعى كلا..

لكن الأسماء ليست هنا..والمكتب سيغلق بعد لحظة ولاأدرى ماذا أفعل!.

وتمعن صديقه فى الأوراق ثم قال:

- ولماذا لاتوقعها أنت بدلا منهم؟.

فارتسمت الدهشة علي وجهه وهو يسأل وهل هذا ممكن!

وتردد ثم أضاف:

- أنت لاتأخذ المسألة مأخذ الجد يا أحمد!

واتسعت عيناه بالدهشة مرة أخرى حين قال صديقه:

-ممكن وأبوه ياجدع.. ألست رجلا مثلهم؟ فيم يتميزون عنك؟..أنت تعرف القراءة والكتابة..وامضاؤك خير من بصمات الأصابع

- ولكن الرجال سيثورون، خصوصا الشيخ أمين، فهو رجل موسوس، والجزار سيظن أننى عملت فيهم ملعوبا.

- كلام فارغ ، وقع ولاتبالى..المهم أن تصل هذه الشكاوى وتردد برعى لحظة ثم تناهى إليه صوت وكيل البريد:

- ماذا قلت؟..أهلا بك ياأحمد.. أوجدتما حلا..أم أغلق المكتب وانتهى؟!

فحزم برعى أمره وتناول الأوراق واستدار بها إلى الكوة وركزها على حافتها، ومضى يبلل القلم الكوبيا بلعابه، ووقع على كل واحدة باسمه فى خط جميل واضح.

وتردد قبل أن يسلمها وسأل: ولكن هل ترضى الحكومة باسم شاب صغير مثلى؟.

فصرخ فيه أحمد:

- مازلت تخطرف يابرعى! ومن أدراهم أنك صغير؟.

فسأل برعى من جديد:

- وهل يكفى اسم واحد..

وذهل حين امتدت يد صديقه تختطف الأوراق منه ،ليوقعها باسمه في سرعة غريبة وهو يضحك: اسم واحد..اسمان ماذا يهم؟.

طبعا الأسماء الكثيرة أفضل..لكن ماذا أفعل الآن؟..

وقبل أن يسلمها أمال ورقة منها إلى ضوء الشمس الغاربة يقرأها بسرعة، ثم رفع رأسه وسأل : من الذي كتب هذه الشكاوى..

فأجاب برعى:

- هذه كتبها الشيخ صابر، نقل فيها جملا من خطبة للنحاس باشا!.

فابتسم أحمد وقال:

- إنها شكوى قاسية الكلمات تهاجم صدقى باشا وتتهمه بالخروج على البريد، وعلى المسلمين..عفارم..هكذا تكتب الشكاوى وإلا فلا ..لم يتعود المأذون أن يكتب مثل هذه الشكاوى فكيف واتته هذه الفصاحة والجرأة على الحكام؟!..

ثم ناولها جميعا لوكيل، المكتب، واستدارا يتحدثان عن بدر أفندي وشهامته ، وتواضعه رغم أنه أفندى كبير« قد الدنيا » ولقد التقيا في بيته كثيرا..أو فى الطريق اليه عبر الجبل.. واجترا ذكرياتهما فى الدر مع شبان صغار مثلهم التقوا بهم هنالك، شبان من مختلف القرى: عبد العال من «الجنينة» ميرغني والحارس من « أرمن» واسحق من « توماس »..كلهم كانوا مثلهما يحملون رسائل الرجل إلي قراهم..

وانفلت أحمد فى حديث طويل مشحون عن المشكلة التى يعاني منها النوبيون، كان ينسى نفسه ويتكلم بلغة القاهريين، ثم باللغة النوبية حين يستمهله برعى أو يستفسر.

كان أحمد يكبر برعي بعامين، وكان يعي بالقضية كلها ويعرف حدودها ، وصل في دراسته الى الثالثة الابتدائية في الدر ثم قطعها عند وفاة أبيه، ورحل إلى مصر أعواما ثلاثة عاد بعدها إلى القرية، ولم يبارحها منذ سنتين، يداوم الاطلاع على الصحيفة التى لاتصل إلا فى الباخرة مرة كل أسبوع، ولايخلو جيبه من كتاب..يخطب فى كل المناسبات ويندد بصدقي، ولايخفي ميوله الوفدية.. بينما برعى يكاد لايعي شيئا، لايكاد يحس شيئا، غير أن مصيبة ستحل بقريته،إن طوفانا مثل طوفان نوح سيبتلع داره ودار شريفة..أما لماذا سيحل الطوفان، ومن أين يقبل وكيف، ولماذا يتمهل رغم كثرة الحديث عنه.. وماذا يفعل اذا ماحم القضاء، فليس إلا أنوارا غائمة في رأسه، إلا أنه كان يدرك أن هذه الشكاوى والعرضحالات إنما ترسل إلى أصحاب هذا الطوفان، بعد أن يوقع عليها رجال النجع والنجوع الأخرى، وها هو اليوم قد أناب نفسه عنهم ولربما وضع الله سره في أضعف حلقه، فاستجاب لشفاعته!

هذه الشكاوي تسترحم حينا في رقة ثم تشتد وتعنف حينا آخر كما هو الحال في هذه المرة، وتتكلم طويلا عن التعويضات وتطالب بجنيهات أربعة للنخلة الواحدة، وتلح فى طلب شراء أرض جديدة في أماكن خصبة وعامرة..أو تستفسر عن البقاع الجديدة التى ينتقلون إليها..وقد تعترض على بلاد فى الصعيد حددتها الحكومة.

وقد سأل برعى صديقه فى هذه الأمسية عن هذه البقاع واسترعى انتباهه أن رأى صديقه يختلف عن رأى بدر افندى ، فلقد همس صديقه كما همس الجزار : خير لنا أن نرحل الي السودان ، فهناك أناس طيبون ، وجوههم مثل وجوهنا.

ورفع برعى رأسه فى دهشة وسأل :

– وماذا يهم ذلك ؟

– ماذا يهم .. كيف يا برعى ؟ انك لم تسافر بعد الى هناك .. فى السودان لن يعيرنا أحد بسواد وجوهنا كما يفعلون فى القاهرة .

– وماذا يفعلون ؟

– يضحكون علينا فى الطرقات .. هناك رجل اسمه علىّ الكسار يسمى نفسه بربرى مصر الوحيد ! والعيال يجرون خلف أكبر كبير منا وهم يصرخون : البربرى أهو .. البربرى أهو ..

فانطلق برعى يضحك ويقهقه حتى أمال رأسه الى الخلف فقد تذكر كيف طارد هو وبعض صبية النجع رجلا أحمر الوجه يسمونه عدو الشمس ، وراحوا يرجمونه بالحجارة وهم يصرخون الأحمر أهوه وعجب لأمر الناس يبيحون هنا ما لا يبيحونه هناك فالوجوه السوداء شاذة فى القاهرة..أما هنا فالوجوه الحمراء هى الشاذة غير المألوفة .

وصمت وهو يتخيل نفسه فى شوارع القاهرة والعيال يحيطون به مثل الشياطين ، ويختطفون طربوشه أو عمته ويتصايحون من حوله ، فوجد نفسه يغضب ويكور قبضته ويصرخ : أولاد الكلب .. لو فعلوا بى ما قلت ، أخلع رقابهم، أجلدهم بالسياط كما كنت أفعل بأطفال نجع السورداب لو تجرأوا ..

وضحك أحمد مليا ، ومن الذى يتركك تفعل ذلك فهناك البوليس والعساكر .

- العساكر ! وماذا يخيفني منهم .

وتذكر العساكر الذين رآهم فى الدر ، يدبون على الطريق ، ويلهثون من فرط السمنة وكبر السن فسخر منهم ومن صديقه الذى يحذر منهم ! ترى ماذا يفعل العيال فى القاهرة بجمال ؟

ومر أسبوعان ، ثم رأى برعى نفسه يدب على نفس الطريق لكن خلف ركوبة خاله الشيخ فضل تتجه به ومن حوله عدد من رجال النجع الى مرساة الباخرة فى أبريم ؟ اذ قرر أن يسافر اليوم الى مصر فى الباخرة العائدة من حلفا ليعرض نفسه على الأطباء هناك ، فقد عاودته آلام شديدة فى ساقه . ثم تجد معها الضمادات ولا التفصيد ولا التجبير ولا الحمصة التى غرزها فى جلد ساقه لتمتص الدماء الفاسدة وتأبى كثيرا لا يريد السفر رغم الحاج أبى .. ثم رضخ أخيرا وركب دابته واعتزم الرحيل متحسرا على نجعه ، وودع الناس وفى عينيه سحابة من الدموع ، وفى ساقه وجسده ألم ممض .. ثم أقلعت الباخرة به .، وعيون الناس معلقة بها حتى غابت عن الأنظار..

وامتطى برعى ركوبة خاله عائدا وفى قلبه ألم يعتصر كيانه ، حيرة مستبدة ، تري ماذا يفعل «الحكماء» بساق خاله ، الطبيب الله ، ليته استمع الى نصيحتى فلم يرحل ، كم كنت أود أن أفاتحه فى أمر شريفة فهو على عكس أبى بشوش ، وأين تقع المستشفى النمساوى فى مصر ، وكيف أرسل له الخطابات ، هناك تمورجى من أقاربنا يعمل فى هذه المستشفى كثيرا ما أرسل لنا زجاجات القطرة وبرشام الديك والششم وأنواعا ناعمة ناصعة البياض من القطن .. سأكتب له ..

وهل سيقدر لى أن أسافر الى مصر فى يوم من الأيام كما سافر خالي ، وكما رحل جمال شقيق شريفة ، فابتعد عن الأهل والخلان ، وعن النجع كله .. لكم أحب النجع وأهل النجع .

وأرخى اللجام لركوبته ، وأرخي العنان في نفس الوقت لافكاره فعاش فى دوامتها ، يحترق بنارها ، ووجد نفسه يتساءل : وما الذى يربطنى بالنجع ؟ ليس كل شئ فيه جميلا ، ليس كل الناس أخيارا ، ولكنه رغم ذلك حبيب الى القلب ، وها هو قد كبر ولم يعد يعبث كما يعبث الأطفال ، وها هم الصغار الذين أسلموه قيادهم من قبل يطيعون أوش الله اليوم ، وما زال بكر يصيد العصافير ، ولم يعد هو بقامته الطويلة وشاربه الذى بدأ يطل على شفتيه جديرا باللعب مع العيال ، ولا الانطلاق فى طرقات النجع كما كان يفعل منذ زمن غير بعيد ، ولكنه بدلا من ذلك يخالط الكبار ويهز رأسه كما يهزون ، ويلف عليه عمة كبيرة كما يلفون ، ولم يعد فى وسعه أن يدخل أى بيت كما كان يفعل قبل أن يطيل هذا الشارب ويميل صوته الى الخشونة . حتى شريفة لم تعد تستدعيه الى بيتها لإصلاح العنجريب أو السقف منذ أن أفسد لورد الجو بينهما ، حتى العقد الخرزى لم يجعلها تدعوه إلى كوب شاى : تناهى إليه أنها صدت البسطاوى كما

صدته هو ، لكنها فى نفس الوقت تفتح قلبها له ، فما الذى يشده الى هذا النجع وهمومه وبلاويه التى لا تنتهى ؟ .. كم أنت سعيد هناك يا جمال فى مصر .. لكنك فى نفس الوقت ملوم فقد نسيت ، ويلى يا جمال فشريفة هذه التي تنساها هى التى تشده الى النجع بل أن النجع رغم كل همومه حبيب اليه بسببها ..

ولماذ لا يتقدم للزواج منها ؟ أهو عبد الله الجزار الذى يحول بينه وبين بغيته ؟ أم شريفة نفسها لا تريده .. أم هو أبوه الذى يعارض رغبته ..؟

إنه حائر حقا فى أمر هذه البنية ، لعل حسن المصرى يشغل بالها ويداعب أحلامها فهى لا تصده رغم استنكاره هو لدخوله بيتها ؟ والبسطاوى رغم صدودها يغشى بيتها المرة بعد الأخرى ، كم هو حانق على أبيه الذى قال في سورة غضب حين عرف رغبته : ولماذا تتزوج هذه الفتاة البائسة ؟..

أمها نجسة ركبتها الديون يا برعى ، فضك من هذا الحديث ولا تذكره مادمت حيا ، ثم لمح الى حسن المصرى والى الجزار وقرابته لها ، وأراد هو أن يتمرد لكنه سكت على مضض وقد ازداد تصميمه على الظفر بأمنيته بشريفة يضمها الى صدره .

وها هو الرجل الوحيد الذى يشفق عليه ويوافق على زواجه من شريفة حبا واكراما له وفى نفس الوقت مكيدة منه للبسطاوى والجزار قد رحل الى مصر .. فمن له بعد رحيله ؟

وفى اليوم الخامس من رحيل فضل أفاق برعى من نوم القيلولة والشمس تكاد تغيب ونظر فى الديوانى ثم قام وغسل وجهه وارتدي جلبابه البوبلين المقلم ذا الكمين الواسعين ، ونفض الغبار عن عمته ولفها حول طاقيته المزركشة ، وأمسك بعصا ذات مقبض نحاسى ، وأغلق الباب خلفه وتحول الى الطريق يهيم فيها فوصل الى المتجر والقى التحية على أبى وابتاع قرطاسين من السكر والشاى . ودسهما فى جيبه وانصرف بينما أبى يتأمله،يفكر فى الأمارات الغريبة البادية على الفتى ليغمغم لنفسه والفتى يختفى عن ناظريه : لقد كبر وأصبح رجلا ، فيه الكثير من خاله الشيخ فضل - أعاده الله بالسلامة . انضجته مشاويره الى الدر والى مكتب البريد فى ابريم .. وتنهد وأردف : ليت حامدا ينمو كما نما هذا الصبى ..

ومضى الفتى الأسمر يغذ سيره الى بيت داريا سكينة ، غارقا فى أفكاره الا انه توقف فجأة اذ لمح شبحين عند نباتات الحلفا على يمينه يلفهما غبش المساء ، شبح رجل ينحني على فتاة ، يمسك بها من يدها وهى تقاوم فى دلال ، فاقترب منهما فى حذر الا ان قدمه داست على أعواد هشة ، فشعرا به وانفلتا هاربين ، واختفيا عن ناظريه ، وتركاه ذاهلا يتساءل : ترى من هو ..

والاخرى من هى ؟ .. لعله البسطاوى .. ثم أسرعت دقات قلبه ترتفع الى رأسه .مثل خنجر حاد يمزقه حين قال لنفسه : ولعلها شريفة - الملعونة بنت الملعونة .. اذن فهذا هو ما ترمى اليه .. العبث مع البسطاوى ؟ ولكن لماذا تظلمها .. أأنت على يقين ؟ .. كلا ... لعل الشبح لغيرها ..

وقرر أن يطمئن فساقته قدماه فجأة الى أرض نباتات الحلفا ، فخاضها مختصرا الطريق ، واستدار حولها ليلحق بهما وهما يوليان ، فاذا به وجها لوجه أمام البسطاوى ، أما الفتاة فقد انعطفت الى الخرابة الملاصقة لبيت درايا سكينة واختفت فى الظلام عن ناظريه .. جن جنونه .. انها اذن شريفة ما دامت تندس فى الخرابة لتدلف منها الى البيت .. بنت الكلب فلتكن الفضيحة .. ولكن على أن أتأكد ..

وهنا تخلى عن مطاردة البسطاوى وهرول الي بيت سكينة وطرق الباب طرقات عنيفة جعلت درايا تطل من فرجته ويداها ملطختان بالعجين !

تأملت وجهه فى استطلاع ، فدفع الباب ونحاها عن طريقه وهو يقول: خذى هذين القرطاسين ، ثم اندفع إلى الديوانى وهو ينادى شريفة .. شريفة ، ودرايا تسرع من خلفه مذهولة .

وتوقف فجأة أمام المصطبة الداخلية ، فلقد فوجئ بها راقدة على شفتيها ابتسامة .. اذن فلقد ظلمتها ، ومن أدراك يا مغفل ؟ لعلها تتصنع النوم ، وود رغم ذلك لو انكب عليها يقبلها لكن وجه داريا ، كان يطل عليهما ثم رفعت صوتها تسأل :

- ماذا هناك يا برعى ؟

فالتفت اليها مرتبكا وتلعثم :

- لا شئ .. فقط سمعت انها مريضة فقالت وهى تشهق :

- بعيد الشر .. أنهكت نفسها ونامت هنا منذ العصر ..

فتراجع الي الخلف ، يكبت الرغبة العارمة فى صدره ، وقال وفى صوته حشرجة : خالتى .. أريد شريفة ..فقالت : شريفة أختك .

فقال دون وعى :

- لا أريدها أختا !

وأضاف بعد تردد : أريدها مع أمى فى البيت !

فقالت وفى صوتها استطلاع : ولكنكما ما زلتما صغيرين !

فوجد قامته تشرئب ، وسمع صوته يصرخ: لست صغيرا ! فقالت مستسلمة : أبوك يمانع .. ثم هناك البسطاوى والجزار .. فهما من أقاربنا ولهما الكلمة يا برعى!

فقال على حين غرة : البسطاوى .. اسفخص عليه ..

ولاحظ دهشتها وأضاف : البسطاوي يدور ويلف حول كل البنات رأيته منذ لحظة .. ثم كف

عن حديثه ..

واستيقظت شريفة على صوتيهما ولكنها واصلت رقادها تصيخ السمع اليهما ، فأدركت مغزى زيارة برعى وحارت فى أمر نفسها : ترى بم تجيب لو سألوها ؟ .. فبرعى من شباب النجع ولن تجد خيرا منه .. لكنه ضربنى ومرت بيدها على الخد الأيسر ، ثم لمست العقد الخرزى حول عنقها فأحست بالراحة لملمسه ولكن شيئا ما طفق يلتهب فى خدها فهى لا تزال تشم رائحة العرق وعيدان الذرة ، والشاربين والقبضة العنيفة .. تبا لك يا حسن المصرى فقد تذكرت نظراته الوالهة الى أمها داريا سكينة يوم زفاف «جميلة» وهى ترقص وتدور فى الحلبة كأى فتاة صغيرة ! انه غريب لا تعرفين أصله ولا فصله ، هل ترضين بالزواج منه .. انه حلبى وأبيض ولكن ماذا فى ذلك ؟ الم يتخذ جمال من بيضاء غازية زوجة له فى مصر ؟

ترى ما الذى يمكن أن يقوله جمال لو عرف أن أخته تتلهف على حسن ؟ كل الناس ظالمون .. حتى جمال ظالم لا يرحم .. الم ينسنا ؟ الم ينس أمه ؟ .. وجاءها صوت برعى يرن فى الديوانى : البسطاوى حمار ، فقالت لنفسها : صحيح ، لكنه قريبى هو والجزار يا برعى .. لقد وهبنا الجزار قيراطين مالحين ، الزرع قد مات .. أكله الملح ولكنه سيصبح فى الموسم المقبل ، لهما فى عنقنا جمائل .. لا تصخب هكذا فقد طلب البسطاوى يدى فصددته كما صددتك أنت ، الا انهم ما زالوا يلحون ، أنا أعرف انه يلاحق سعدية .. كم أتمنى أن يتزوجها فأخلص منه .. فهو ثقيل على القلب .. ثم انعطف بها تفكيرها الى أمها ، ترى ما الذى تفكر فيه داريا ؟ انها توازن لتختار .. البسطاوى فى نظرها أوفق زوج فهو ميسور الحال بينما برعى فى نظرها ولد صايع .. انها لا تعرف اننى أمقت البسطاوى !

وتناهى اليها صوت برعى : لماذا يا «داريا» سأكون هنا فى موضع جمال ! ستعيشين معنا .

تناهت اليها هذه الكلمات فأيقنت أن العبوس قد ران على وجه أمها ولربما قالت لنفسها : فى موضع جمال !؟ ليس هناك انسان يمكن أن تجعله داريا فى قلبها موضع جمال !

وارتفع صوت أمها راعشا يقول :

– ولكننا لابد أن نسأل : «جمال» .. وربما صبرنا قليلا لنرى ماذا يكون وراء البسطاوى !

وكفت عن الكلام فقد تجددت الطرقات على الباب وتناهى اليها صوت الجزار ، فأسرعت شريفة تخرج من الباب الخلفى فتبعها برعى ، وهى تمشى بسرعة متجهة الى بيتنا هاربة من الجزار فانشرح صدره وناداها من خلفها ثم هرول حتى لحق بها وقال :

– شريفة .. أسمعت ؟ أم كنت نائمة طوال الوقت ؟ .. لماذا تهربين من الجزار ؟..

– أنا لا أهرب .. انما أردت زيارة بطة .. فهى تريدنى أن أكون دائما بجانبها منذ أن رحلت شقيقتها «جميلة». فكرر عليها سؤاله الاول أسمعت قولى لداريا ؟

فأشاحت بوجهها ثم قالت وهى تقفز فوق حفرة تجمعت فيها مياة متسخة : سمعت ، ولكننى لا أريد أن أتزوج .. ثم أشفقت عليه حين وجدته مقطبا وقالت : ربما أفكر فى الأمر! .. ولكن ..

فمد يده ليمسك بها الا انها انفلتت منها تجرى الى بيتنا ، وأراد أن يلاحقها ، الا انه توقف ذاهلا عن نفسه .. ثم انبعث يسبها ويسب أمها .

وقال لنفسه من شدة الغيظ : سعدية أجمل منها وقريبة المنال لماذا لا أتزوجها كيدا فى شريفة وأمها ؟ . يا سلام .. ربما تفكر فى الامر كأنها بنت العمدة أو بنت بركات افندى ، وكأننى عبد حقير ؟ سعدية أجمل . ناهدة ، عفريته تلعب بالبيض والحجر ، ست بيت ، فلأتزوج منها لأرى شريفة تذوى من الغيرة .. وتولول كما تولول الثعالب فى الجبال حين يشتد بها البرد والجوع ..

وأطرق لحظة ثم قال لنفسه متحسرا : لكن سعدية تحتك بكل الشباب .. حتى حامد الصغير لم ينج منها .. رفعته الى صدرها وغامت عيناها كما قال حامد .. وربما كانت سعدية هى التى كان البسطاوى يميل عليها منذ لحظات .

سعدية الاخرى بنت كلب !

وبخيته ؟ انها جارية بنت جارية ، لا تلاتمنى ، أما بطة فقد طلبها ابن عمها حسنين وسرعان ما تتزوجه وتنزح معه الى مصر .. كلا ليس أمامك الا شريفة .. ولكن علام تتكبر هذه الفتاة ، سيسبقنى اليها البسطاوى ، والجزار يتحدث الآن مع داريا فى هذا الأمر هنالك حيث تركتهما ، والله والله سأكتب لجمال .

وهنا توقف حائرا ، فهو لا يعرف عنوانا له فى مصر .. ثم انعطف فكره عند ذكر مصر الى خاله الذى رحل وتمنى لو عاد فى هذه اللحظة ، وقرر أن ينزل من غد الى غيط خاله ليرويه فانه لم يرو منذ أيام طويلة وسيهلك الزرع من العطش ..

مجرد التفكير فى خاله الشيخ فضل اعاد اليه هدوء نفسه فاستكان ، وألقى بالحجرة الصغيرة التى كانت فى يده بعيدا ثم ترك الخرابة الملاصقة لبيت درايا سكينة ، واتجه الى بيت المأذون فى نهاية النجع ليسأل عن بدر افندى ، فقد مرت أيام طويلة دون أن يعرف شيئا عنه .

******

انتهى من رى أرض خاله ، ونفض يده من الطين ثم غسلها فى المياه المتبقية فى الجدول الكبير ، الغريب انه لا يرى أحدا فى الحقول ، فالوقت وقت الظهيرة .. وقد آووا الى بيوتهم ليتناولوا

طعامهم..

وظل عينيه بيده ونظر فى اتجاه الشاطئ وتساءل : ولكن ما الذى يجرى هناك عند النتوء ؟ ومدبصره فرأى رفاصا راسيا تخفيه أشجار النخيل والاثل .. ولم يستطع أن يعرف متى رسى ولماذا ؟

وقرر أن يعرف كل شئ .، فانطلق بالبقرة الى الحظيرة وأغلق عليها الباب ، ثم انسل الى الطريق العام ورأى فى بدايته الشيخ صابر مأذون القرية ، ومن حوله أربعة عساكر ، وغفيران ، فاندفع اليهم يريد أن يسأل المأذون عن الاخبار ، فأنه لم يجده البارحة عند المساء فى بيته .

ظل يمشى اليهم دون أن يلاحظ أن أحد الخفيرين ، يلوح له بيده دون أن يلاحظ نظرات المأذون المحدقة ، بل ربما ظن أن المأذون يستدعيه ليفضى اليه بأخبار الدر وربما حسبه سيستقل الرفاص الراسى على النتوء الى الدر مع هولاء العساكر الذين يعرف برعى اثنين منهم ، فقد رافقا بركات افندى ودخن البانجو معهما ، على مقربة من مصطبة العمدة فلماذ لا يسلم عليهما :

ودنا واقترب حتى حاذاهما ، فرأى لمحات من الخوف ترتسم على وجه الخفيرين ، ولكنه لم يبال بل اندفع اليهما ، وقال أحدهما شيئا باللغة النوبية كرره حتى سمعه :

- كتتام ! دافيمي ! ولا تأت ! ابتعد ! كتتام !

ولم يدرك برعى أن الرجل يحذره الا فى اللحظة الأخيرة ، فاستدار ليعدو الا ان اثنين من العساكر كانا اسرع منه اذ تقدما منه ، وأمسكا به من معصمه بشدة ، تفوق قدرته على الافلات وأمراه أن يتبعهما مع المأذون الى الرفاص فقال فى صوت جاف :

- لماذا ؟

- مطلوب فى الدر ..

- من الذى يطلبنا ؟

فزم العساكر شفاههم وهم يدفعون بهما الى الرفاص .. وفى اللحظة الأخيرة وعلى السقالة لمح برعى شريفة تحمل «الكوبيه» النحاسى وتنعطف فى السكة الزراعية متجهة الى الموردة ، فصاح بها ": وو شريفة وو شريفة داريا .

فتلفتت لتراه بين العساكر ، وتوقفت ذاهلة لا تعى شيئا وأرخت يدها دون أن تشعر عن الكوبيه ، فتدحرجت على الأرض ترتطم بالحصى والحجارة الصغيرة محدثة صوتا امتزجت به الكلمة الأخيرة :

- خبر كاتيجي .. بلغى الخبر ..

وأدار الرفاص قلاباته فحركت الماء ، وهي تجتاز به النتوء الشرقي وتحفر مجرى مائيا أبيض ينداح ويرتطم بالشمندورة الحمراء التي مضت تغالب السلسلة الغليظة ، التي تشدها الى القاع .

وقبل أن تنتهي شريفة الى النجع وتروي للناس ما رأته بعينيها كان الرفاص قد أجتاز القرن الشمالي للجزيرة وانعطف عند المنحنى الشمالي يتجة برأسه الى شاطئ الدر ليرسو .

وما هي الا ساعة حتى كان برعي والمأذون وأحمد محمود وعددٍ كبير من شباب القرى المختلفة يحشرون في سجن المركز هنالك في الدر ، في حجرة وحيدة واسعة ذات باب حديدي غليظ مرتفعة النوافذ معتمة ، ليس فيها عنجريب أو دكة فظل برعي على قدميه ثم رقد على الأسفلت وفي ذهنه دوامة هائلة من الأسئلة :

ولماذا جاءوا به ؟ وما الذي يريدونه ، ومتى يعود الى النجع ..
ومن هو حسين طه هذا الذي أخذ اسمه يتردد ، بعد أن نطق به المأمور ؟..
ومضى يلوك على لسانه : حسين .. حسين .. حتى غمره النوم فتوسد ذراعه في سبات عميق ؟



قبل ذلك بأيام قصيرة ، وفى غرفة صغيرة ، فوق سطوح عمارة كبيرة تطل على شارع البستان وعماد الدين ، تمدد حسين طه على ســرير سفرى صغير دون أن يكلف نفسه عناء خلع حذائه البنى اللامع ، ولا بنطلونه الرمادى ، وقميصه الناصع البياض الذى كشف .. من خلال فتحته على الصدر .. عن بشرة سوداء تتشرب بحمرة داكنة.

رقد وقد جحظت عيناه الواسعتان تحدقان فى السقف كأنهما تتأملان حشرات البق الزاحفة بين الأعمدة الخشبية ، تتخذ منها منطات تقفز منها الى السرير فى مهارة فوق الوصف ، لكن صاحبنا لا يشعر بوخز هذه الحشرات اذ غرق فى أفكاره التى لا يستطيع المرء أن يدرك أغوارها الا اذا تأمل وجهه المدبب الأسمر المشرب بحمرة ، وشفتيه المنفرجتين دائما عن كلمات يهمس بها ، ويديه اللتين ، بين الفينة والاخرى .. يرفعهما من تحت رأسه ، ويكورهما ويطوح بهما فى الفضاء كأنما يطارد أشباحا تلوح له أو يهدد انسانا ما ويخيفه ..

انه يبدو وكأنه يعد خطبة نارية يلقيها فى مأتم سياسى بعد اغتيال أحد الباشوات أو كأنه سيطرد الانجليز بكلماته اللافحة !

واذا ما طافت عين المرء بالغرفة لرأى على جدار منها جاكتة من نفس لون البنطلون ، وطربوشا طويل القامة بجانب طربوش أخضر ، ومن تحت الجاكتة - على الحائط نفسه - صفحة عريضة من جريدة « الجهاد » تشير عناوينها العريضة الى مناقشات فى مجلس الشيوخ تتخللها صور للوزراء ثم صورة كبيرة لدولة الرئيس .

ثنى ركبته فجأة ثم تململ فى مرقده ، ونهض برأسه قليلا واتكأ بيده اليمنى على السرير الذى أخذ يئن ، ثم دلدل قدميه وجلس واجما برهة وانتصب واقفا بعدها .. وتراءى ، وهو يذرع الغرفة الضيقة شاب طويل القامة عريض المنكبين ، شعره يحاكى حبات الفلفل وعلى وجهه أمارات قلق واصرار فى نفس الوقت ، ثم تحرك لسانه ومضى يهمس :

قلت لهم أن الذى يألفونه لن يجدى ، لابد من عمل حاسم .. يتكلمون عن الدستور كثيرا ، ولا يفعلون شيئا جديا لاستعادته.

وتأمل السقف مليا واسترسل : أما الآخرون هنالك- وراء الشلال - فانهم لا يعرفون غير كتابة الالتماسات الركيكة الى مراحم دولته .. تبا لهم من بلهاء !

وصمت قليلا وهو يهبط الغرفة ويصعدها ، ثم توقف أمام مرآة صغيرة يتأمل وجهه ، ثم عاود حديثه الخافت المحموم : أما أبى فقد باع نفسه .. وتربى فى أحضان الانجليز فى السودان وعاد

الى مصر حين أحيل الى المعاش ليلعب لعبته ، بينما أهله هالكون بعد حين .

وعاود تأمل السقف مستغرقًا فى تفكيره ، وتذكر الأحاديث التى دارت بينه وبين بعض الشبان من لونه ، من الذين يكتبون تلك الالتماسات ، ومن غير لونه من الذين يتحدثون طويلا عن الدستور ..

- قلت لهم لا فائدة فيما تفعلون ..
- ولكن ماذا تريد منا أن نفعل يا حسين ؟

وتفرس فى وجوههم كأنما يعجب من سؤالهم وصرخ :

- لابد من ضربة مميتة ،، لابد من انسان جسور يريح الأمة منه ، فيهمس أحدهم : ولكن هذا يضر بالقضية .. هناك العشرات من أمثاله. وتذكر أنه فى هذه اللحظة .. عند هذه الكلمات تلفت حوله ليتأكد أن الذين حوله شبان مخلصون ليس بينهم جاسوس ،وأطمأن فقد كان هناك عدد من أصدقائه وبعض عمال عنابر السبتية الحانقين على دولة الرئيس فمضى يقول :

- لابد من انسان جرئ .. أين النخوة والشهامة يا ناس .. الى متى نظل راكعين ؟ قلب أسد .. من أكل قلب أسد هو الذى يمكنه ، وكف فى خجل حين تذكر أنه الوحيد من بين الجميع ، الوحيد الذى أكل قطعة صغيرة من قلب أسد هنالك فى السودان ، عند بحر الغزال ..

ثم تزايلت تلك الوجوه من مخيلته ، وقد عاود هبوط الغرفة وصعودها ، وانبعثت بدلا منها صور جلسائه فى النادى النوبى الذى ينتصب خلف محكمة عابدين ، فى محاذاة كركون عابدين وفوق سينما ايديال الوطنية وتذكر تفرسه بعينين محموتين فى وجوه كل الشبان السمر الذين ظلوا يتكلمون ويمسكون بالقلم يهزونه وكأنه سيف أو بلطة ! ثم يكتبون الالتماسات الرخوة ، ثم تذكر أيامه فى كلية غوردون فى الخرطوم ، وكيف رفع العلم المصرى وأنزل العلم الانجليزى فى ١٩٢٤ أيام اللواء الابيض .. ترى ماذا هم فاعلون بعلى عبد اللطيف ، ما زال يتذكر حديث أبيه عن النوبة المصرية حيث كان مولده ، والباخرة التى اقلته مطرودا من السودان الى هذه النوبة .. ما زال يتذكر خطب سعد وكلمات بيرم عن فؤاد . عفارم يا بيرم .. أليس فؤاد هذا هو الذى استدعى الجيش فترك السودان لقمة فى يد الانجليز ؟ لعنة الله عليه ..

وتذكر بدر أغندى ووقاره وكلماته الناهية التى كادت تثبط همته .. تذكر يوم كان عنده منذ شهور فى الدر .. ثم هز رأسه بشدة ليطرد صورته فللرجل سحر لا يقاوم .

وتوقف فجأة أمام الجاكتة وتفرس فى صفحة الجهاد .. ثم انتزع الجاكتة والطربوش الأحمر القانى وارتداهما على عجل ، وجس جيبه ثم أوصد الباب من خلفه ومضى يهبط سلم العمارة ، وحيا مكوجيا على يسار الباب وبقالا على يمينه ، واخترق شارع عماد الدين وانعطف عند ناصيته الى شارع الساحة ومضى فيه حتى حاذى أرض شريف وانعطف الى اليسار ومشى فى شارع عبد العزيز والتقى فى الطريق بصديق تبادل معه كلمتين هامستين .

- آن الآوان ، ستنتظرنى بالعربة..
- بالتأكيد .. بالتأكيد .

ثم مضى بعد أن شد على يده مسرع الخطى الى سوق هنالك فى أول الموسكى دخلها فى حذر شديد يتلفت حوله ، ومر على الواجهات حتى وجد ضالته فدخل .

ولم يكن فى وسع المرء أن يدرك ما الذى كان يعنيه هذا الفتى الأسمر حين دس ما اشتراه بين صفوف جاكتته وشعر صدره .. كان شيئا لامعا أخفاه بسرعة بعد أن خطا خطوتين بعيدا عن المتجر ، ، ثم أسرع الخطى فى ميدان العتبة من حيث آتى ، وتوقف حتى اشترى جريدة «البلاغ» وعاود سيره وهو يفر بسرعة صفحاتها الستة عشر ، وتوقفت عيناه عند صفحة الأدب ، ورجع منها الى الصفحة الرابعة لتستقر عيناه على سطور قرأها فتأكد من الخبر ، ثم طوى الجريدة وأودعها جيب سترته ، وعاود خطاه على مهل وهو يفكر .. أيذهب الى بيت ذلك الشاب فى معروف ؟ زوجته البيضاء الرقيقة .. ولكن مالى ولهذه الزوجة ؟ فان على كاهله رسالة يجب أن يؤديها على الفور ، وهو لا يملك وقتا لمثل هذه الترهات .. أما الزوج فلطيف ، خالى شغل منذ مدة طويلة ، أسمر طويل القامة مثله ، ملابسه تكاد تكون مفصلة على قده وكسمه .. عالى .. ورآه مرة بالقفطان الأبيض يتوسطه الحزام الاحمر ، ورآه مرة فى مناسبة أخرى بالبدلة المقصبة أيام عمل سفرجيا فى بيت أحد الوزراء فى مصر الجديدة .. نفس البيت الذى التقى فيه بزوجته البيضاء .. ورآه ينفق عن سعة أيام «المكسب» أما اليوم فالازمة متحكمة فى مصيره وفى مصائر مئات بل ألوف من أمثاله الذين أصبحوا لايفعلون شيئا الا لعب الورق فى المقاهى والانتظار الى أن يستدعيهم أحد ليعملوا «ظهورات» فى حفلة أحد الباشوات أو فى وليمة من ولائم الذناب كما اعتاد هو أن يصفها .. وقد مد له يد العون فأبى مرات وتقبلها مرات أخرى فى تأفف ولن يخيب له اليوم رجاء .. وقد يمنحه هو جنيها كاملا يعوض به قفطانه اليوم مع الحزام .. لابد اذن من زيارته فى غرفته البغدادلى التى يعيش فيها مع زوجته البيضاء فى معروف خلف المستشفى النمساوى منذ تركا شبرا هربا من أهل الزوج ومر بالنادى - خلف محكمة عابدين - وكاد يدخله الا انه لعن خاش النادى وقرر ألا يدخله ولو للحظة واحدة حتى لا يزعزعوا ايمانه .

وهشت البيضاء فى وجهه وأعدت فنجانا من القهوة قدمته وهى تبتسم بعينيها الحلوتين فعف

عن النظر اليها ، وجس ما بين سترته وصدره ثم نشر البلاغ على طاولة ، وأخذ يقرأ فى انتظار الزوج بينما هى تروح وتجئ وتقلب هذا الوعاء أو تسقط ملعقة أو تشعل وابور الجاز ..

«البلاغ» تتحدث عن الأزمة : فى الصين يأكل الناس بعضهم من الجوع .. رئيس الصين يبكى .. فى أمريكا يرمون فى البحر الدقيق والتفاح والبن .. السلع تبور وتفسد على الأرصفة وفى المتاجر فى كل بلد .. البطالة بالملايين فى أوروبا .. هندرسون يصرخ .. الوفد يطالب بدستور ١٩٢٣ ، مكرم يخطب فى جماهير طنطا .. مجلس النواب والشيوخ يناقشان التعويضات .. شفيق باشا لا يجيب .. آخر محاكمات عمال العنابر ، أرامل شهداء العنابر يقدمن شكوى .. أهالى الدر يشكون عامل يوزع منشورات .. قبض عليه .. «لأ» هى الكلمة الوحيدة التى يرددها : مصيره السجن ! صبرى باشا يسافر الى موقع الخان .. مساحات جديدة من الأرض .. البولمان يعد لدولة الرئيس .. الى الثغر..

ثم أمعن فى قراءة مقال للدكتور طه حسين ، وآخر لعباس العقاد بعنوان : «ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا» .. ثم خلص الى صفحة الفن ونجوم المسرح ومنيرة المهدية ودولت أبيض .. وبدا أنه منزعج فما باله يقرأ كل هذه الخزعبلات .. وعاود الى صفحة الأدب .. العقاد هائل الا ان فى أسلوبه شيئا من اسمه .. طه حسين أجمل لولا أنه يعيد ويبدى فيما أعاد وأبدى -، - ليته - هو- يكتب مقالا بمشاعره الملتهبة كالتهاب الشمس عند مدار السرطان الذى يمر « بكرسكو» قريته على مبعدة من الدر .. ليته ولكن من يسمح له بنشر مثل هذا المقال .. كلا .. الوقت ليس لكتابة المقالات «أخى ابراهيم طيب» أما أبى .. ليتنى لم أولد لمثل هذا الأب ، فهو يزهو بالبكوية تماما كما يزهو الطاووس بريشه !! ولا أدرى ماذا سيكون رد الفعل عنده .. كل الناس سيعجبون بى .. ليتك يا بيضاء تكفين عن هذا الضجيج ، ولماذا تأخر زوجك اللكعى . ما زال العلم الأخضر الذى رفعه على مبنى كلية غوردون يرفرف فى قلبه وان داسه الانجليز بأقدامهم .. وليرتفع علم آخر هنا ..

وأفاق على الباب يفتح فى غرفة البغدادلى فوق سطوح العمارة ، خلف المستشفى النمساوى فى معروف .. نفس الغرفة التى تضمهما هو والبيضاء ..

وأقبل جمال ، نحى زوجته عن الباب وهو يقول : انك تذكرينني بشريفة وأنت تلحين .. حاضر يا ست .. سأجد عملا فى أقرب وقت .. اليك عنى يا شيخة .. أقصرى الشر يا زنوبة .. وتراجعت وهى تقول وكأنما كانتمناسية : الله ، الاستاذ هنا يا جمال ، ينتظرك منذ ساعة ! فتهلل جمال وأقبل على حسين يحيى وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه الاسمر الشاب الذى يشبه وجه شريفة لولا بروز عظمتى الوجنة قليلا ؛ بل انه يشبهها تماما لولا طول القامة : شفتاه مثل شفتيها وأسنانه .. الا انها مصفرة من أثر التدخين .

وخلص من التحية وانفلت اليها يقول : زنوبة .. شاى للأستاذ يا زنوبة ، ثم جلس الى جانبه على كرسى بثلاثة قوائم والرابعة جريحة مثل ساق لورد .. إلا انه أسند الكرسى من جانبه الجريح الى الحائط واستدار يكرر : شاى للأستاذ .. فقال حسين - يا سيدنا .. متشكر .. الست قامت بالواجب .. شربت قهوة.

- وماله .. لازم تشرب شاى.

وحارت زنوبة اذ انها لا تملك سكرا ، فقد نفضت السكرية فى فنجان القهوة منذ حين ، الا انها تستطيع أن تستعير قالبين من الجارة غير أن الاستاذ أراحها باصراره ، فعادت الى الركن الآخر تطرز مفرشا جديدا تبيعه للست الرومية التى تسكن فى نفس العمارة ؛ بينما مضى الشابان يتهامسان ربع ساعة قام بعدها جمال وأعد لفة قدمها للاستاذ الذى وضعها تحت ابطه وخرج ..

وما أن اغلق الباب خلفه حتى انبعث جمال يضحك ويقهقه ويفرك يدا بيدا ، فأقبلت عليه تهمس : ما الخبر يا حبوب ؟ فواصل قهقهاته غير ملق بالا اليها فانحشرت فيه وهى تهمس ثم تضحك .. شربات والنبى يا أسمر وأنت تضحك .. فزاد من قهقته حتى مدت يدها ووضعتها على فمه .

كانت تتصرف وكأنها تملك زمامه تماما ، وحين رغب عن الافضاء بسره قطبت جبينها الحلو واظهرت الغضب فأذعن وقال :

- تصورى .. الاشتاذ ترك فى يدى جنيها .. جنيها كاملا ..

فابتسمت وغمزت وهى تقول : كتر خيره .. ابن ناس .. أمك داعية لك .. فقال فى نفور : أمى .. دعيها وشأنها .. المسكينة لم يصلها منى خطاب منذ سنين طويلة..

وأشاح بوجهه واردف : مسكينة داريا .. الديون ركبتها كما يركبك الزار .. فصاحت .. بعيد الشر .. أنا لا يركبنى الزار .. الذى يركبنى هو خلو الشغل والجوع !! .. وأضافت بعد صمت : وما دام حسين أعطاك جنيها فلماذا تسخر منه ؟

- ابدا .. أنا لا أسخر منه .. أنا أضحك لانه أخذ القفطان الابيض والحزام ..

فلم تملك نفسها وضحكت هى الأخرى ضحكا متصلا هوت بعده على الارض وهى تقول : ربما يقيم حفلة تشخيص مثل على الكسار .. ليتنى أراه بالقفطان فهو دائما شيك .. ليتنى آراه فى زى سفرجى .. اذن لما اعتبرته أعلى مقاما من زوجى الحبوب جمال .

- اخرسى .. قطع لسانك يا بنت ..

فلوت بوزها ثم زامت : عدنا الى الغيرة التى لا فائدة منها ، علام الغيرة وربنا لم يفتح عليك بولد ؟ شاب ليس فى صلبه أولاد ؟

- أنا ؟ والله أنك أنت العاقر .. لا تلدين .. مصيبة

- أنا .. فشر ..

وكادا يتشابكان الا ان ورقة الجنيه الخضراء على الطاولة استرعت انتباهها فتلقفتها واستدارت الى جمال وارتمت عليه تقبله قبلة طويلة امتصت غضبه فاستراح الى صدرها ثم خطا خطوة وأحكم اغلاق باب الغرفة وأسدل على الشباك ستارة متهرئة بينما هى تمد يدها تزيح عن رأسها منديلا برتقالى اللون ظل يحتبس شعرها ، فتهدل وارتمت خصلات ناعمة منه على الوجه فمضت تنفضها بزفرات هامسة بينما مضى هو يطوقها بذراعيه ، ويميل عليها ليطفئ الزفرات بقبلات دافئة ، نسيا معها الجوع والنكد الذى يطالعهما فى كل لحظة ، حين يتذكران خيبات الأمل التى يلقاها جمال .. وهو يبحث عن العمل .. أى عمل منذ شهور طويلة..

٢٧

الساعة الثامنة والنصف فى الصباح .. فناء المحطة مزدحم يملؤه صوت القاطرة بدوى صاخب .. الناس يتدافعون أبواق السيارات ، تنفذ الى الآذان من الميدان خارج المحطة وتختلط باحتكاك الأقدام على أسفلت الارصفة .. الشيالون يروحون ويجيئون مقوسى الظهور تحت أحمالهم الثقيلة .. الموظفون ببدلهم الخاكية يصرخون هنا وهناك .. القطار الراحل الى الاسكندرية يصطف على اهبه السفر .. وعلى غير العادة هناك عربات فاخرة ملحقة بالقطار يسطع لونها الفضى ويبرق فى ضوء الشمس بينما نفر من ضباط وعساكر البوليس على رأسهم حكمدار القاهرة يتجهمون فى وجوه الناس ، ويضربون حصارا حو تلك العربات ، وثمة شبان لامعون يتلفتون فى كل اتجاه بحركات مفضوحة ويسجلون فى مفكرات صغيرة بعض الملاحظات ، الجو مشحون بالقلق والترقب .

وداخل عربة من عربات البولمان الفاخرة ، عند مؤخرتها وفى الصدارة عدد من الحرس ، مهندمون لامعون يرعب الانسان مجرد لمسهم أو الاقتراب منهم ، فوجوههم صارمة وحزينة فى نفس الوقت ، يشخصون بأبصارهم فى قلق وكان أشباحا خافية تتلاحق أمامهم .. أشباح تتشنج أناملها على مقابض مسدسات صامتة خرساء وخناجر ومدى قاطعة.

ومن الحرس من كان يفرك عينيه ويوسع من حدقتيهما لتشمل نظرته محيطا أوسع.

ومن أمام عربات البولمان عربة أكل تبرق كأنها دمية من الفضة وقد نهض على شرفتها وداخلها عدد وافر من الخدم والحشم والسفرجية بقفاطينهم البيضاء أو أرديتهم المقصبة بالذهب يزجون فراغهم بالتطلع الى وجوه الناس ويكادون يقفزون كلما رأوا رجلا اسمر يدنو منهم ، فجدير بهم لولا الرسميات أن يتخلو عن مواضعهم ليحتضنوا أى إنسان من بنى جلدتهم .

ومن بينهم شاب جاحظ العينين ، قلق النظرات يحاول أن يهدئ من روعه بتأمل الغادين والرائحين فى نظرات تعكس ألما باطنيا يعانيه ولهفة لا مزيد عليها .

وجهه الأسمر مسرح لكل أنواع الاضطرابات التى تكشفها الا عين خبير ، فأنه كثيرا ما يوجه نظراته الى وجوه الآخرين على الرصيف مستغرقا فيهم كل الاستغراق .

وكان واضحا أنه يتفادى النظر فى وجوه أولئك الافندية المهندمين الذين ظلوا يتفرسون فى الرصيف ويسجلون شيئا فى مفكراتهم ، أما الضباط فقد كانوا لاهين عنه بتأمل اناس من شاكلة أخرى يتوجسون الخوف منهم .

وفجأة أحس الفتى بقلبه ينخلع من صدره ، وعيناه تطوفان فى المشهد الجميل الذى كان يتحرك أمامه ، فى الشعر الفاحم الناعم المنسدل على المنكبين فى استرخاء مريح ، يحيط بهالته البارقة وجهها مستديرا كالبدر لسيدة فى مقتبل العمر . كل ما فيها مرسوم بدقة وكأن فنانا تأمل الطبيعة فى وجهها وجسدها وأزال عيوبها برتوش من روحه..

كانت تسرى فى تمهل شديد وزهو بالغ تنعكس من عينيها الزرقاوين بسمة هادئة ليست خليعة وان فاضت بالانوثة والاعتداد ، والى جانبها امرأة فى منتصف العمر وأخرى كهلة تسيران فى خطى متمهلة وتحدقان دائما فيها هى ، وبين ذراعى احداهما قطة جميلة ناعمة الفرو هادئة مثل سيدتها ، تتفرس بغطرسة فى الغادين والرائحين ، وبدا واضحا أنها الصديقة المدللة للهانم

التى مسحت من عينى الفتى الأسمر كل قلق فطفق يملأ ناظريه منها غائبا عن كل شئ حوله .. ثم أفاق على صوت يهمس ، ديدى هانم حرم على باشا المهندس وكيل وزارة الأشغال والمشرف على تعلية الخزان ، ست عظيمة ، اشتغلت فى قصرها ، لم تحاسبنا ابدا على المليم كما تفعل الاخريات.، .. تنفق فى حفلاتها مئات الجنيهات ولا تبالى .. فساتينها تصل من باريس .. أمال .. بنت ناس أكابر ..

وصمت الهمس حينا ثم عاد يقول : أترى تلك القطة ؟ انها «بوسى» تتكلف فى كل شهر ما يعادل مرتبك ومرتبى لسنة كاملة ، دكاترة وحقن وحمام ساخن وخادم .

أصغى الفتى الأسمر الى الهمسات الاولى وتاه من جديد فى أحلامه النزقة الحلوة ، ثم استرد أنفاسه ومضى يعاتب نفسه ، انشغلت بهذا العرض الزائل عن مشاغلك وهمومك ، قلت لهم أن أسلوبهم لا يجدى ثم جس ما بين قفطانه الابيض وصدره وأطمأن وجال ببصره فى الحرس والشبان اللامعين على الرصيف .. سيكون للحادث دوى ، ثم يستريح الشعب ، وقد يكف الطوفان ..

وتنبه من تأملاته على هرج صاخب ساد فناء المحطة ثم الرصيف فرأى الناس والحمالين والباعة يدفعون دفعا بدباشك البنادق ويحشرون فى شريط ضيق بعيدا عن العربات الفاخرة المتحفزة للانطلاق .

وأطل الشاب الأسمر فرأه مقبلا ومن حوله عدد من ذوى الكروش والثياب الانيقة والياقات المتصلبة حول الرقاب ، وأربطة العنق التى تنغرز فيها على الصدر أحجار كريمة فى شكل دبابيس بارقة.

كان يتقدمهم مهيب الطلعة ، ذكى الملامح ، حاد النظرات ، يتلفت كثيرا هنا وهناك ، باسما فى ثقة يشوبها حذر فسره الفتى الأسمر بدكتاتوريته وخوفه من مغبة استبداده ومأساة عمال العنابر ومعركة الدستور ومظاهرات الطلبة الصاخبة وبشكوى الجائعين .

وحدق الفتى الأسمر فيه خشية أن يكون قد أخطأه ، وفرك عينيه ليزداد يقينا فأطمأن .. فهذا الذى يمشى فى خشوع الى يمينه متأخرا عنه بنصف خطوة هو على باشا المهندس وكيل وزارة الأشغال ، وزوج الفاتنة .. أما الثانى الذى على يساره فهو وزير المالية ،والثالث محمد شفيق باشا وزير الأشغال نفسه . أما هو فدولة الرئيس : صدقى باشا ، مخ كبير ، واقتصادى كفء .. لكن خسارة الحلو لا يكتمل .. لقد رأه من قبل فى هذا الزى وشاهد رقبته هذه ، رقبة مليئة ، وانه معجب بهذه الرقبة .. أحقا ما يروى أن زوجته تذيب شبشبا على رأسه كل ليلة ؟ مستحيل والا فلم كل هذا الاستبداد بالشعب ؟ .. انه ولا شك رجل قدير تحتاج اليه مصر لكن .. خسارة .. ليته يعدل عن سيرته القبيحة .. اذن لأصبح أفضل أداة فى يد الشعب .. فى وجه قصر الدوبارة والسراى ، لكن ذيل الكلب لا يستقيم حتى ولو .. ذيل الكلب .. تعبير جميل .. الغريب أن لهذا الذيل رقبة سميكة ولذيذة فى نفس الوقت .. ومد يده عند هذه الخاطرة وتحسس ما بين القفطان والصدر فكاد يجرح يده .

واستقر دولة الباشا فى مقعده وأشار الى أحد الضباط وأصدر اليه أمرا صدع له على الفور . ثم دق ناقوس صغير وسعلت القاطرة ومضت تنفث دخانا غيم لحظة على مساء المحطة ثم

انطلقت أسوار المحطة وأعمدة البرق والأبنية والعربات فى الشارع تعدو فى سرعة جنونية الى الخلف .

وأخذ السفرجية يروحون ويجيئون ، يوازنون خطاهم مع حركات القطار ، ويحملون المرطبات الى الهانم ودولة الرئيس ورفاقه ، ثم يعودون بالأكواب والأوانى الفارغة .. وقد رسموا على شفاههم ابتسامات لا تفارقها ابدا ما داموا فى الخدمة .. قد تفارقهم وهم بين أطفالهم .. أما الخدمة فلا .. لقد تدرب كل واحد منهم كيف يقدم صحاف الأكل والمرطبات فى رشاقه ، وكيف يهمس بالشكر حين يستقر البقشيش فى يده ، وكيف ينأى بنفسه بعيدا فى اللحظة التى يهم فيها الباشا بالحديث الهامس الى من يصاحبونه وأن تعلموا على مر الزمن - كيف يفهمون الكلمات المتناثرة التى تصل الى أسماعهم وكيف يربطون بينها ويدركون مقاصدها .. كانوا يطالعون وجوه السادة فيدركون فى لمحة واحدة أهم غاضبون ناقمون فيبتعدون ؟ أم راضون فيقبلون عليهم بالخدمة الطيبة والطاعة والانحناء المدروس ثم يتشفعون بهم فى ساعات الصفاء .

لكن الباشا فى هذا اليوم متكور الوجه عابس لا يبتسم ، يشرب كوب الماء المثلج فى لحظة على غير عادته ويقذف به بعيدا فيلتقطونه ويبتعدون عنه .

ومن خلف الباشا فى العربة ومن أمامه فى الصدارة مضت العيون اليقظة تراقب كل حركة وتتفرس فى كل وجه ، وصاحبنا - الفتى الأسمر يعد الدقائق والثوانى ويحس كل دقيقة تمر أن شجاعته تتسرب منه وتخونه لتحل محلها رقة انسانية لا لزوم لها فى مثل هذا الموقف : رجل وانسان مثله .. فيلسوف اقتصادى ورئيس وزارة وزعيم حرب وزوج واب تجرى الدماء الساخنة فى عروقه .. خلقه الله وقدر له الحياة ثم يأتى هو - حسين طه - متسللا ليقوم بفعلته .

وود فى لحظة لو انه تخلف هنالك على الرصيف .. على نفس الرصيف الذى مشت عليه الفاتنة .. آه .. أترانى أعيش حتى آراها من جديد ؟ ثم اختلطت بصورتها صور أشجار النخيل .. نخلته بالذات التى افترش ظلها كرسكو - قريته - وصور الشواديف والسواقى فضاعت الملامح الآسرة فى ملامح آخرى متجهمة عابسة تذرف الدمع .. تلاشى وتزايل كل ما هو جميل فى قبضة القدر المحتوم ، ثم تخيل النادى القابع خلف محكمة عابدين ، واستعاد صورة العلم الذى رفرف يوما ما هنالك فى السودان ، وتذكر برقية الملك يستدعى فيها الجيش من السودان واستعاد مناقشات الدستور وعمال السبتية الذين دفنوا أحياء فغلى الدم فى صدره وتدفق فى عروقه فمضى يدق دون وعى منه على صفحة معدنية مدسوسة بين قفطانه وصدره .. ثم ألقى نظرة من الشباك على الحقول والأشجار والدواب المسرعة لتختفى وراء العربة ثم القطار كله : هذه الحقول الواسعة ترويها مياه يعرف هو منبعها .. رآها تتلاطم عند المقرن فى الخرطوم، فى المكان الذى يتزاوج فيه النيل الابيض بالنيل الازرق الهابط من هضاب الحبشة موطن أمه ، وهى نفس المياه التى تسيل أمام قريته كرسكو تكاد لا تروى الا شريحة ضيقة تختنق ما بين الشاطئ والسفح ، وهى نفس المياه التى يعترض خزان أسوان مجراها فتتراجع بنفس المياه التى يريدون لها : زوج هذه الفاتنة ودولة الرئيس ومن خلفهما الاسياد الحمر - أن تتراجع فى طوفان هادر يكتسح كل شئ أمامه .. وغدا حين يتم ذلك سيتسع نطاق هذه الحقول وتزدهر وتحبل مثنى وثلاثا فى

السنة الواحدة وتصب الخير فى جيوب هؤلاء الانذال من الباشوات .. بينما الآخرون من الشعب هنا وهناك يشرفون على الهلاك ، أنا أفهم أهمية الخزان وضرورته ولكننى أفهم أيضا أهمية أن يتم هذا كله فى ظل حكومة دستورية ، حكومة من الشعب .. أن يتم وعلى الدست أناس يحسنون تدبير مصائر الناس وخصوصا اذا كان هولاء الناس يضحون بكل شئ ، بكل ما يملكون .. يالهم من انذال . انظر بالله الى وجهه الأحمر الطلى طلاوة وجوه النساء يوشك الانسان أن يعتقد بأن شعرة واحدة لم تنبت على خده .. ومد راحة يده اليمنى ومر بها على خده .. ثم همس لنفسه : يالهم من ناعمين هادئى البال .. كلا .. وجه دولة الرئيس لا ينم عن الهدوء ، فالذين فوقه يركبونه ويرهقون بدنه ، والذين تحته يهزون الكرسى فيكاد يميد به ، أنا واحد من الذين تحته فليعرف من أنا بعد حين قصير .

ولكن كيف يمكننى أن أترك هذه العربة الملعونة بعد أن ؟ ودفعه السؤال الى القاء نظرة من الشباك ، فحدق ببصره فاذا بالعربات تعبر شبرا البلد ثم تصل قليوب وتجتازها دون أن تلقى بالا اليها .. وها هى تقترب من بنها .. اذن فقد مضت أربعون دقيقة طويلة منذ بدأت الرحلة المشئومة ! يبدو انها رحلة الى جهنم ، وقد آن له أن يستريح من السر الذى يثقل صدره .. ثم أما كان الآوفق لى أن أتفق مع شبان آخرين الى جانب الشاب الوحيد الذى ينتظرنى بعربته عند محطة بنها ؟

غلطة .. لكم أنا ساذج !

السر الذى يحتضنه منذ شهور يكاد يختقه ...، وها هو يكاد يهمس به لهؤلاء الآخرين ذوى الوجوه السمراء .. أتراهم يخونونه أم سيكتفون بتثبيط همته ؟ آه لو أدركوا ما أنا فيه ، وما أنا اليه ؟ اذن لاشفقوا على ولوسدونى فى صدورهم اذا ما قدر لى ، ولكن صه .. انهم يسمعونك ..

وابتسم الرجل الاسمر الكهل ذو القفطان المقصب بالذهب ، فى وجهه ، وقدم له سيجارة اختفى بها خلف ساتر يبتلع دخانها فى عصبية ترى لماذا لم يسأله أحد من هؤلاء السمر عن اسمه رغم انه جديد بينهم ؟

لماذا لا يقولون لى .. من أنت .. ربما ظنوا .. ربما ..

هذه محطة بنها تبدو من بعيد ولابد له من اراحة صدره ، فتحسس ما فوق صدره ، وتحفز واستجمع كل شجاعته ، ولم يعد يذكر شيئا غير الظلام والامواج المتلاطمة التى تحيق بأشجار النخيل - وتصفع الشاطئين في هدوء قاتل .. لم يعديتذكر وجه الفاتنة ولا زنوبة .. كل شئ قد انحصر فى مخلوق واحد هو هذا الباشا الذى يسترخي هنالك فى مقعده الوثير وفى هؤلاء الضباط الذين يتفرسون فى كل وجه وفى وجوه بعضهم وفى رقبة الباشا .

وجاءت اللحظة الفريدة التى كان يتعجلها ، فقد تراجع كل السفرجية الى الخلف يسدلون الستائر لاستقبال غبار المحطة المندفعة إلى القطار، ثم رن نداء: ميه ياولد، صوت دولة الرئيس! فتقدم بسرعة وحمل كوب الماء على صفحة فضية غطاها بمفرش أبيض مطرز الحواشي.. ومر أمام المرآة الكبيرة فرأي وجهه من خلالها كئيبا لايليق بمواجهة الباشا فوسع مابين شدقيه، وأبرز أنيابه البيضاء..وتقدم خطوة خطوة ثم نقل الصفحة من يده اليمنى إلى اليسرى.. المهنة وأصولها

تقضى أن يقدم كل شيء باليمنى..ما من سفرجى فعل ما أقدم عليه، إلا أن يده اليمنى هى القادرة على إنزال الضربة، فلابد من اخلائها من الصينية ومن الحمل الذى لالزوم له، فليس من حق هذا الباشا أن يشرب.. كفاه ماشرب فى دنياه وليرو ظمأه هنالك فى جهنم.. لعنة الله عليه والرحمة لى يارباه.

وغاب كل شيء عن ناظريه، إلا رقبة الباشا حتى حسب أنه ما من أحد غيره فى العربة..وغير تلك الرقبة، فأخذ يدنو وهو يحمل الماء فى يسراه ويمد الأخرى فى حذر إلي فتحة قفطانه على الصدر، ويستقر بها على مقبض البلطة الصغيرة اللامعة، وتراءى له الباشا فى هذه اللحظة غافلا عن كل شيء منهمكا فى تصفح جريدة، فرنسية أو انجليزية لايدرى مليئة بالأرقام، فتشجع ودنا منه فى خطى متعثرة وعيناه تتقدان بالعزم.

وفجأة ودون أن يدرى لماذا.. تذكر الفاتنة فاختلطت صورتها بصورة الرقبة ولكنه هز رأسه بشدة ليطرد هذه الصورة ثم وجد نفسه على بعد خطوة واحدة من الباشا فانطلق بيده اليمنى من فتحة القفطان ودفعها بالبلطة الصغيرة الحادة فوق رأس الباشا المائل إلى الأمام..

وتخيل الدم ينبثق من تلك الرقبة تخيله يسيل، وتخيل أعمدة الصحف وصورته، صورة وجه أسمر وشعر مثل حبات الفلفل الى جانب صورة الباشا، ثم أهوى بالبلطة فى قسوة ولكن يده شلت فجأة..أمسكت بها قبضة حديدية هائلة. قبضة تلوى ذراعه بقوة خارقة، ثم امتدت قدم وضربت ساقه ضربة قاسية تدحرج بعدها إلى الأرض وفى أذنيه رنين البلطة يصلصل من حوله.. ثم أحس أنه يهوى إلى بئر سحيقة الأغوار، وإن كابوسا ثقيلا ينيخ على صدره! لولا هذه الركلات اللعينة والرفسات فى بطنه واضلاعه لنام!.

وحانت منه التفاته جانبية الى مكان الباشا وهو يتفادى إحدى الركلات فوجده ممتقع الوجه زائغ النظرات، والعرق يتصبب على جبينه ورقبته بل،ومن ياقة قميصه الحريرى، كان الباشا يرتعش ولايلفظ بكلمة واحدة إلا أن يده اليسرى كانت تشير إليه وهو فى عجب واستنكار فالباشا لم يتصور فى يوم من الأيام أن تأتيه الضربة من واحد مثله، بوجه أسود،..لقد توقع الشر دائما إلا من الوجوه السود!ء، فإنه لم يعتبرهم فى يوم من الأيام أناسا يتطاولون للتفكير فى أمور الدنيا وفى الظلم ويفكرون فى الانتقام..توقعه دائما من وجوه بيضاء رسم عليها القدر ماركة حزبية مستقلة..كلا.. لابد أن هذا الشاب الأسود مجنون! وإلا فما الذى دفعه إلى هذه الجريمة.

وفى هذه اللحظة وحدها تذكر الشكاوى والعرضحالات المكدسة فى الوزارة مرسلة من الدر، ومن تلك القرى النوبية النائية، وتذكر أنه لم يقرأها أبدا..ربما كانت هى السبب..

وأحس الفتى الأسمر والباشا يشير إليه بخوف شديد، وبرعشة تدب فى كل ذرة من جسده..هناك فقرة من سلسلة الظهر..فقرة خلف القلب مباشرة تنبض بعنف كأن مسمارا ضخما قد دق عليها، وحلقه قد جف ولسانه لم يعد يتحرك..لماذا كل هذه الرعشة..أأنا خائف بعد أن

تخيلت نفسى بطلا أم أن الغضب من الفشل هو الذى يثير كل هذه الشحنات الرعديدة فى مفاصلى؟ كلا فإننى ماأزال بطلا.. إنه السجن المؤبد..بل أنه الاعدام ولكننى لاأبالى..

واستسلم لحزن مباغت، وأحس بقبضة باردة تعتصر قلبه وتشل مخه وتجمد فروة رأسه..يالى من أبله غبى..ماالذى اتى بى الى هذه العربة الملعونة..

وداسته الأحذية وأدمت الركلات واللكمات وجهه وجبينه.. كليتاه كادتا تتمزقان، فإن أحد الضباط مضى يدفع حذاءه المدبب فيهما حاول أن يصرخ ولكنه لم يسمع صوتا أو صرخة تخرج من حنجرته فاستكان لمصيره، واستسلم للركلات فلابد لها من نهاية.. كم يود أن تنتهى كل هذه المهزلة..وياللمصير الذى يحاكى لون التراب..سأموت وسوف يعيش الباشا ولن يكف الطوفان رغم ذلك أو ربما كان بدر أفندى على حق..

وتوقفت العربات عند بنها وشعر أن نبض قلبه قد توقف: وأحس بملمس الكلبشات البارد حول معصمه وهم يدفعونه دفعا إلى رصيف المحطة ويحيطون به من كل مكان..

قفطان جمال تمزق، أما الحزام الأحمر فقد انتزع منه خشية أن يشنق نفسه به، والطربوش أصبح عجينة متكورة شائهة..

وعلى الرصيف رأي الفاتنة شاحبة الوجه فبدت فى ناظريه بشعة لاجمال فيها ولاسحر. كانت نظراتها جامدة هالعة وفى نفس الوقت مزدرية..

ومر أمامها والعساكر يسوقونه فانكمشت الى الخلف كما ينكمش المرء حين تقع عيناه على ثعبان أو عقربة أو خنفسة صغيرة.. فاطرق برأسه والجنود يدفعونه دفعا ويصفعونه على قفاه: ابن الكلب..يابربرى الكلب.. وديتنا فى دهية! ومن خلفه كان كل السفرجية، حتى الرجل الكهل يساقون مقبوضا عليهم وإلى جانبهم بعض عمال القطار..

والناس على الرصيف حشروا في شريط ضيق مضوا يتطلعون اليهم كما يتطلع الناس الى موكب غريب يعرض للفرجة،ويتبعونهم بعيون متسائلة حتى استقروا والكلبشات فى أيديهم فى مكتب الضابط القضائى فى المحطة..

واقبل الباشا بعد أن استعاد رباطة جأشه وتفرس فى وجهه ثم لكزه بطرف حذائه وقال فى نعومة: ولد بربرى..من الذى حرضك

- ...

ورن صوت الباشا من جديد..

- والله سأعفو عنك..طيش شباب لاأكثر..سأعفو عنك لو ساعدتنى ..

ثم سأل فى ذكاء وهو يغمز بعينيه..

- أهو النحاس .دعنا منه.. أهو الجندى مضبوط..هو بالذات الذى حرضك..

وهنا هز الفتى الأسمر رأسه بشدة، وأجاب فى صوت واثق:

- كلا..فإن أحدا لم يحرضنى..

- هل أنت مصر على هذا ياولد..؟

- مغفل تريد أن تتستر على المجرمين!.

- لاأتستر على أحد..أنا وحدى المسئول..

فبصق الباشا فى وجهه ،وهب واقفا واتجه إلى القطار فى نفس اللحظة التى اقبلت فيها قوة كبيرة بقيادة حكمدار بنها اقتادت المتهمين فهكذا أصبحوا يلقبون الي عربة كبيرة حشروا فيها حشرا ومن حولهم سناكى مشرعة تلمع وبنادق ومسدسات تسدد فوهاتها الى صدورهم.

وأمست القاهرة لتلمح بطرف خفى ساهر عربة كبيرة تحمل وجوها سوداء تمر بهم على ميدان بوابة الحديد تماما أمام كازينو البسفور ثم تعبر بهم فوهة شارع أبو اصبع لتتوقف بحمولتها عند بوابة سجن الأجانب..

وألقى بهم جميعا فى زنازين ضيقة انفرادية لايرون ضوء الشمس إلا من خلال النوافذ ولايسمعون من جوف القاهرة إلا همهمة العربات وقاطرات المترو وزفير قطارات السكة الحديدية..

وفي كل يوم كانوا يأتون ويرهقونهم فى سين وجيم.. واتخذ حسين طه سياسة الصمت لايفوه فى كل مرة إلا بكنمات بسيطة.. كنت وحدى..لاأحد..الباقون مظلومون..ليس فيهم من يعرفنى..تسللت وحدى إلي العربة..القفطان.اشتريته بنفسى.. هؤلاء لايعرفون شيئا..لم يحرضنى أحد.أنا بنفسى قررت ..بنفسى نفذت..أخطأت ..أخطأت حين فشلت..

وفى أحدى الأمسيات عاد حسين إلى السجن من حيث كانوا يحققون معه ليجد عددا أكبر من الزنازين مشغولة بأناس آخرين وبنفس الوجوه السمراء ومن خلال ثقوب المفاتيح تطلع خلسة اليهم فلم يتعرف عليهم ..فقد كانوا إما منكفئين على وجوههم وإما مولين وجوههم إلى النافذة.بعضهم كان ببدلة والآخرون بجلاليب وعمائم.. ولكن كيف أتوا بهم ومن أين؟أهم من رجال النادى النوبى القائم خلف محكمة عابدين أم إنهم من الاسكندرية؟ لايدرى إلا الله..حتى سيد جمال الذى تسلل اليه؟ لم يقل له شيئا...وقد وعده أن يتلقى رسائله..ياله من شجاع لعنة الله علي الفشل، جر معى وفى ضربة واحدة كثيرين من الأبرياء إلى هذا المأزق الذين يعيشون فيه دون ماذنب ارتكبوه. وعلى عاتقى أنا وحدى تقع مسئولية انقاذهم ليجاهدوا حتى بطريقتهم العقيمة.

وحز فى صدره أنه قابل أباه فى التحقيق فى موقف شائن لايقبله العقل فقد دخل الرجل عليه فهب واقفا ليحييه والكلبشات فى يديه فإذا بالرجل يشيح بوجهه ثم يستدير ويبصق على وجهه ويخرج ..لكنه توقف عند الباب واستدار اليه والى وكيل النيابة والحرس وفتح شفتيه ليعلن فى صوت مرتفع تبرأه منه هو: هذا الولد الجاحد المجرم! ثم انطلق خارجا لايلوى على شىء ودون أن يودعه، أتى بجسده الضخم وقد علق نيشانه على صدره، لم ينس مدالياته التى حصل غليها فى السودان من الحاكم العام قبل أن يحال إلى المعاش..

هذه النياشين أصبحت جدارا بينه وبين أبيه ليته سرقها حينما كان فى السودان وقذف بها فى النيل عند المقرن..

وبكى وهو يتذكر أباه وكلماته القاسية وترك الدموع تنثال دون أن يحاول إيقافها، ثم استلقى على السرير ملصقا ظهره بالملاءة البيضاء ووسد رأسه على راحتيه. ومضى يحدق فى السقف، ثم أحس بظلمة باطنية غريبة أسدل عليها جفنيه فوجد نفسه يهوى فى جب عميق تملؤه وحوش

ضارية تصرخ فى وجهه تعلن براءتها منه.. ثم صك أذنيه صوت غريب يصرخ عاليا فى كلمات واضحة، فأخذ يصيخ السمع حتى وجد فيه صوته هو.كان يهتف فى إصرار..

- أنا وحدى المسئول..أنا وحدى أنا..وحدى.

وضاع صرير الباب فى دوى صوته، ثم أطل عليه السجان وهزه من كتفه ففتح عينيه وسمعه يقول فى صوت أجش: اسكت حتى لاتوقظ الآخرين.

فهب جالسا علي سريره يسأله فى إصرار : ومن هم الآخرون.

لكن الصوت الأجش كان قد بارح المكان فلم يجد إلا الباب الغليظ والصمت الأسود فارتمى على سريره من جديد، جاحظ العينين مقطب الجبين حائرا لايدرى متى سيكون الفجر.

٢٨

عرفوا سبب اعتقالهم، وايداعهم في سجن الأجانب. حاول أحدهم اغتيال صدقى باشا فى عربة البولمان وفشل، وربطت الحكومة بين الحادث وبياناتهم وشكاواهم المختلفة، وبرقيات بدر أفندى الساخنة، فساقوهم مكبلين بالحديد من الدر ومن أسوان والقاهرة والأسكندرية إلى هذا السجن، بعضم مازال فى سلاحليك مركز الدر، بينما البعض فى حجرة مركز أسوان.

وفى زنزانتـه، الأولي على يسار الداخل من بداية السجن، بدا فتانا الأسمر، وقد نضا عنه قفطان جمال، وعاد الى بدلته الرمادية كان يستيقظ قبيل الصباح، ويصلى ثم يؤدى بعض التمرينات الرياضية، ويتناول إفطارا خفيفا، يقوم بعده يذرع الغرفة وهو ينفث دخان سيجارته، ويتوقف بين الحين والآخر عند الباب الغليظ الموصد يطل من خلال ثقب فيه على الردهات المحدقة بفناء السجن، فيلمح فى بعض الأحيان طرف بدلة أو زر طربوش، أو عمامة بيضاء، وقد يلمح شاربا رفيعا مدببا، يجتاز أمام الباب بسرعة، ليوصد بابا آخر خلفه.

كم ود لو استوقف واحدا منهم ليصرخ بكلمة تشجعه أو ليتلقى منه همسة تسوق الراحة الى قلبه.

وأبى: مازال سادرا..فهل قرر أن يجحدنى إلى الأبد؟ تبا له! فهو لايعرف معنى للأبوة! فلماذا أنجبنى إذن؟ لأعانى في هذه الحياة القاسية؟؟

وفي إحدى سرحاته الفكرية تذكر بدر أفندى، فأطل من ثقب الباب، فلمح طربوشا يتوقف أمام عينيه لحظة، فصرخ عاليا: أنا حسين. لم أقل شيئا عنكم، ماذا قلتم أمام النيابة؟ ثم توقف عن الصراخ، فقد تحرك الطربوش بعيدا، وانزوى وترك نفسه فريسة لأفكاره وارتد إلى سريره وارتمى عليه فى يأس، وانثنى يحدق فى مصباح النور وخيوط العنكبوت التى التفت حوله، ولم يدرك أن بدر أفندى يقبع فى الزنزانة التى على يساره وأن الأستاذ سيمان عجيب هنالك. وإلا لظل ينقر لهما على الحائط كما كان يفعل فى الخرطوم مع رفاقه فى السجن.

ثم دفعته الذكريات الى الخزان، ثم إلى الشطئان الشعبانية التى تظللها غابات أشجار النخيل وإلى ميدان أبو «زقان» في الدر، الي بيت بدر أفندى، وتذكر حديثهما هنالك على المصطبة فى إحدى أمسيات . فقد ظلا يتحاوران ،هو بحماس فائر، والرجل بحكمة لاتخلو من الحماس. ينهاه وقد رفع سبابته الى وجهه، عن ارتكاب الحماقة التى اعتزمها، وهو مازال يذكر الكلمات التى صرخ بها فى وجه الرجل:

- منطق عجائز ياأستاذ بدر!

ولم يغضب الرجل، بل قال له فى هدوء:

- حسين- أنت مازلت صغيرا!

وهز رأسه فى عجب وأردف: إذا ما قطع الذنب، ظلت الأفعى تنفث ياحسين .

وقاطعه هو فى حماس: لست أنوى قطع الذنب، بل الرأس الرأس، أسمعتنى؟.

وأجابه الرجل فى هدوء: تخال الذنب رأسا ياحسين. مازلت بعيدا عن الفهم..دعك من هذا

الحديث الذى لا طائل تحته..

- وأى شيء أهم مما نحن فيه؟.

- هذا البيان .أعد صياغته، واكتبه بخطك الجميل. وإذا وجدت بيتين من الشعر لحافظ ابراهيم..خرج البيان قويا. خذ

وتناول البيان منه، ومر عليه فى سرعة، ثم أعاده ويده ترتعش كأنما لدغته عقربة، ثم قام لينصرف غاضبا، وخاف بدر أفندى من مغبة غضب الشاب فقال كأنما يذكره بشيء: وأبوك مارأية فى كل هذا لأمر؟.

فاستدار اليه وقال فى صوت حانق: أبى! إنه رجل الحكومة ولارأي له.

تذكر كل ذلك وتساءل: ترى ماذا يقول الرجل عنى وهو جالس على مصطبته هنالك فى الدر؟. ثم فغر فاه فجأة وقال لنفسه.. كم أنا ساذج! لابد أنه هنا. الطربوش الذى رأيته من ثقب الباب لابد طربوشه، وسليمان عجيب! هل تركوه دون اعتقال؟ كلا فهو وفدي يؤمن بالنحاس إيمانه بنفسه، ولكن النحاس بعيد عن الحكم، ولا طائل تحته الآن، ثم ماللنحاس ولتلك القرى النائية؟ ماذا يهمه غرقت فى اليم تلك القرى أم اخضرت؟! يقولون أنه كان قاضيا فى الدر ويروون عنه الأساطير.حكم على نفسه بغرامة..ياللعدل؟.. ولكنه الآن لايفعل شيئا غير الخطب. هو ومكرم إلا أن تقديرات حكومته الأخيرة للتعويضات كانت تبدو مجزية.

ونهض الى الباب واتكأ عليه يفكر فى الذين من حوله فى الزنزانات الضيقة ماذا يقولون عنه؟ وماالذى أفضو به أمام النيابة؟ أتراهم قالوا كل شيء هرف به هو فى المنتديات؟ وفكر لحظة ليقول: كلا لا يمكن. وتخيلهم وهم يواجهون الناس فى الدر، فى القرى بعد أن يعترفوا عليه فعاد يؤكد : كلا لايمكن.

ثم اختلطت صور الرجال بصور زنوبة وجمال، ثم صورة الفاتنة التى تفرست فى وجهه بازدراء ، وهى تلاحظ الكلبشات فى معصميه على رصيف بنها- ترى هل يعود فيرى ذلك الوجه؟. وهل يلتقى بزنوبة يوما؟ مالك بها؟. دعها وشأنها فإنها لغيرك. ثم خطر له سؤال: ترى لماذا لم يتزوج وقد بلغ الثلاثين؟. ومضى يستعرض حياته وانتهى إلى قرار. خير له أنه مازال أعزب بلا زوجة وأولاد يقللون ويقيدون حركته! وماذا هم فاعلون به؟ أيلفون الحبل حول رقبته؟... أم يرسلونه الى الليمان فى طره، تلسعه سياط الشمس وتهرى كتفيه الحجارة ويعشى الجير عينيه؟ أليس الموت أفضل؟! لعنة الله على الفشل. وتذكر على عبد اللطيف ومايعانيه في صبر..فقال ليتنى فداؤه وتخيل نفسه فى دور بطولى، يفتدى فيه هذا الزعيم الذى سجنه الانجليز، فاستسلم لخيالاته حتى هدأت نفسه، ثم أصاخ السمع قليلا، فقد ظن أن صوتا يعرفه قد تناهى إلى سمعه..صوت بدر أفندى..تماما فى الزنزانة التى على يساره يطلب ورقة وقلما..

وأسرعت قدمان، وفتح باب، ثم أوصد وهدأ الصوت المرتفع، وبدأ هو ينقر على الحائط إلا أن أحدا لم يستجب له!.

فقد انهمك الرجل، يكتب شكوى من سوء المعاملة ويطلب مصحفا يقرأ فيه وطوي الشكوى، ثم بدأ يكتب جوابا إلى ابنه كامل، وهو يهمهم لنفسه كالمجنون..لقد نفذ وعيده.. لكم

نهيته.ليته استمع الى النصح .خسارة!.

وتذكر الرجل نجع النجيلية «في الدر وأبناء» وصعد زفرة حارة ثم مضى يملى على القلم عبارات حارة يضيفها الى الشكوى: قتل فرد جريمة لاتغتفر أما وأد أمة فمسألة فيها نظر!!..

وفى الزنزانة الأخرى الملاصقة إلى اليسار بدا عجيب شابا أبنوسي الوجه فى ملامح فتية ذكية، وقامة طويلة، يحدق في فضاء الزنزانة ويفكر فى المصيبة التى حلت به وحلت بهم جميعا..فعرقلت كل مشاريعه ومشاريعهم.

ونودى على حسين فتلصص عليه من ثقب الباب وهم يقودونه للمرة العاشرة الى النيابة وعاد إلى سريره فى تأملاته وتذكر أيامه وهو يعمل مدرسا في «الدر» ويستذكر دروسه فى القانون، مجهدا نفسه حتى نال الليسانس، ثم تذكر أيام طوافه فى الحملة الانتخابية هنالك فى القرى النوبية، ومازال الهتاف له يطن فى أذنيه: الطير يقول: سليمان عجيب. الطير يقول..ومازال يتذكر أيامه الأولي فى مجلس النواب بين زملائه النواب وهم يتفرسون فى وجهه الأبنوسى، ويتندرون به، وتذكر إجاباته اللاذعة الساخرة حتى ألفوه والفهم فى نهاية الأمر!.

وتساءل أتراني أحقد على حسين؟ وأجاب بسرعة: كلا ، فليس إلا بطلا ضاقت به الحيل فانتهى إلى الفشل. وتعسا لأبيه! أهذا أب؟! وهرش رأسه متفكرا، ثم همس ..الولد فى حالة صعبة لابد من محامين أكفاء يرسلهم الوفد..

ثم مد يده الي حلقه، إذ أحس بظمأ شديد، ظمأ يكاد يقتله فدفع بالماء في جوفه دون جدوي، فأن الظمأ الذى يعانيه لايقتله الماء القراح. لعنة الله على هذا السجن، وعلى صدقى وعليك ياحسين. لقد حرمونى من جلستى فى بار اللواء. ثم غامت عيناه، ومضى يوقع بقدمه على الأسفلت ، ويغمغم: ياخفافيش أقبل الصبح وشيكا فادبروا ..ثم راح يوقع التفاعيل على أصابعه!.

***

وفى مكان غير بعيد، وعلى سرير فى أحدى المستشفيات رقد الشيخ فضل يتأوه وقد حسر عمته عن رأسه، فإن ساقه راحت تنز ألما ولعنة الله على الأرض وعليك ياعبد الله الجزار..عند نهاية الساق ألام شديدة يحس بها تصعد الى كل جسمه وإلى نافوخه.

لقد أفاق منذ لحظة من تأثير البنج. ولم يكن قد علم بعد أن الأطباء قد انتهوا من بتر ساقه، والغريب أنه أحس منذ إفاقته بالألم فى نفس الساق، أحس بثقلها تحت البطاطين وبخدر مؤلم يسرى فيها وفى الأصابع..

وبالأمس زاره أقاربه يحملون الهدايا، يواسونه بكلمات طيبة، ثم انصرفوا بعد أن منحوه قطعا فضية كثيرة« يمشى حاله» بها فى المستشفى! لقد زاره شقيق عبد الله الجزار الذى يعمل بوابا فى عمارة فى الزمالك، وقد بعث ظهوره فى مخيلته ذكريات قفزت به عبر المدينة والحقول الشاسعة والكبارى والجسور والشريط الحديدى إلى الشلال ثم إلى النجع نفسه. ما الذى جعله يتذكر زوجته« فضيلة» وبرعى؟. ربما ظهور شقيق الجزار..وربما هذه الممرضة الرومية هى التى جعلته يتذكر امرأته فمضى يعقد المقارنات بين النساء فى مصر وفى البلد، الغريب أنه فضل نساء قريته

على جميع نساء العالم!.

وتداعب ذكرياته إلى داريا سكينة وشريفة والحاج برعى عليه قبل أن يرحل ليسعى إلى أبيه فيقبل زواجه من الفتاة ..لكن هذا «العكروت» لم يرسل حتى جوابا واحدا. ترى ماالذى أعاقه؟ أتراه مايزال يجرى خلف شريفة؟ أم أنه اشتبك من جديد مع البسطاوى؟ إننى قلق وحائر. ولكن ماالذي يجعلنى ألومه؟ فأنا منذ أسبوعين لم أرسل خطابا واحدا.قد ظللت أبحث عن جمال، حتي حسين النجار لم أستطع الالتقاء به ليرشدنى إلى مكانه، وها أنا طريح السرير فى المستشفى. قالوا : إنهما عزلا من شبرا..إلى أين؟.

ثم قفزت صورة برعى مرة أخرى إلى ذهنه، فهو يحب الفتى قفزت لأن أحد المرضى سعل فى عنف سعالا يضغط على صدره، فتذكر على الفور: دولحظ دولحظ.. ومضى يعنف برعى فى مخيلته: لماذا لم يرسل ليستفهم عنه؟ ..أنا نفسى لم أرسل لهم إن الأطباء قد قرروا..

ومد يده..يتحسس ساقه فلم يجدها فامتلأ بالتقزز والرعب، وتصور نفسه يسعى فى النجع على ساق خشبية، فأظلمت الدنيا فى عينيه، واشتد أنينه حتي سعت الممرضة اليه تبتسم وتهدىء من روعه.

ولو أوتى الشيخ فضل بصيرة تجتاز الأبعاد لعبرت به مصر كلها وقفزت به فوق التلال، ولفتحت أمام عينيه باب السجن الصغير خلف مركز الدر، ليرى هناك فتاه منطرحا على الأسفلت بعيدا عن نجعه يجتر أحزانه.

لقد سمع فضل، وهو طريح، أن رجلا.. شابا أسمر حاول أن يغتال صدقى باشا، فانتشى للنبأ، وإن عاودته الكآبة للفشل. أما إن يقبض على برعى بسبب هذه المحاولة فأمر لم يكن يمكنه أن يتصوره.

***

وهنالك في الدر، فى الزنزانة الوحيدة الملتصقة بالسلحليك جلس برعى فى نفس اللحظة على الأرض معتمدا رأسه بين راحتيه يفكر فى الأحداث التي جرت لهم.

أدرك بعد التحقيقات التى أجريت معه بحضور الشيخ مرسى أن حسين طه حاول قتل رئيس الحكومة، أن بدر أفندى قد سيق مثله إلي السجن في مصر، وفهم أن اسمه الذى وقع به على البيانات مع أحمد محمود سبب اعتقاله هو وأحمد وبعض الشباب الذين اعتاد الالتقاء بهم عند بدر أفندي منذ شهور إنهم يسألونه فى المركز هل يعرف حسين طه، وهل يعرف دولة الرئيس. أى رئيس هذا الذى يتكلمون عنه؟ إنه لايعرف إلا رجال النجع، العمدة وداريا سكينة وابنتها شريفة والبسطاوى وبعض هؤلاء الشبان. نعم إنه يعرف بدر أفندى، قالها رغم تحذير المأذون له. ولكن ماشأنه بدول الرئيس، إنه لم يسمع حتي باسم حسين طه الذى يرددونه فى أسئلتهم!.

وتذكر وهو يعتمد رأسه بين راحتيه كم كان جسده يرتعش وهو يجيب على المأمور بكلمات متعثرة مختلطة، ولايدرى لماذا كانوا يضحكون كلما قال كلمة بالعربية.، عربية حسن المصرى. كان أمام المأمور مثل الأبله تكاد دموعه تخون رجولته..آه لو رأته شريفة علي هذه الصورة، إذن

لانتهت كل أحلامه، ومازال يذكر أن المعاون كان يردد بعد كل كلمة يلفظ بها هو: أنت بجم ولاتفهم شيئا ورغم ذلك.

ورغم أن لايفهم شيئا فقد أبقوه هنا مع أحمد محمود الذى يفهم، ومع المأذون وصحابه الصغارمن مختلف القرى..

ولم يشعر الفتى في الزنزانة بجوع ولا بظمأ، فقد تكفل أهالى الدر برعايتهم يحملون إليهم طعامهم، ويراد الشاى الساخن باللبن فى الصباح وفى الضحى، وفى الأصيل بعد القيلولة.

وزارهم من النجع أحمد عودة والشيخ أمين، حتى البسطاوى جاء مرة وقال أن المحامى قد سيق مكبلا بالحديد إلى أسوان، والنجع كله يطالب العمدة بالتدخل عند المأمور للإفراج عنه.

ظلت الصور الغريبة تنثال على مخيلته مشوشة مختلطة ومرعبة توهم معها أمورا لم يختبرها أحد في قريته. جبا يلقون به فيه حيا كما فعل أبناء يعقوب بيوسف الصديق الذى عاش فى السجن سنوات طويلة بعد ذلك!.

وهؤلاء الصحاب والمأذون، أيكونون معه فى نفس الجب، أم يدفعون بهم إلى قاع النيل أحياء فتنهشهم الأسماك وتتلاعب الدرافيل بأجسادهم؟!.

ومد يده، وستر بها عينيه حتى لايرى تلك الصورة البشعة التى تراءت له، صورة رجال من نجعه يصرخون والأسماك تعض فى أجسادهم ، ثم تهالك على الأرض ، بينما المأذون يروح ويجيء فى تمتمة دائمة يرتل من سورة يسن يتعلل بها ويبعث الشجاعة في قلوب الآخرين.

ثم أطل من الباب الضيق وجه حموى، جاء لزيارتهم يحمل لهم أخبار النجع .. الشيخ فضل لم يرسل جوابا بعد، سعدية وبخيته وداريا يسلمن عليكم. زوجتك سبيلة ياشيخ صابر بخير كلنا ، حتى العمدة كل يومين هنا في المركز، وقد أكد أنه زاركما، حامد وأوش الله وبكر يريدون أن يأتوا معكم.

وتوقع برعى أن يردد الرجل اسم شريفه، ولكنه لم يفعل، فعاوده اليأس، ولم يعد يستمع إلى كلمات المأذون، ولا إلى المناقشة التى تدور بينه وبين أحمد محمود عن الطوفان والتعويضات والرحيل عن المنطقة فإن قلبه كان يغالب حنينا إلى النجع وإلي المتجر وحامد الصغير. وتذكر حسن المصرى . الحلبى طليق وحده هنالك ! خلا الجو له وللبسطاوى ليعبثا كما يريدان فى غيبته وعند هذه الخاطرة رفع رأسه فجأة الى المأذون يسأله: أيمكن لحسن المصرى أن يتزوج من البلد؟ فعلت الابتسامة وجه المأذون ساخرا من هذا السؤال الصبيانى، لكنه رأى الإصرار فى وجه برعى فأجاب: كلا إلا إذا كانت جارية. ولكن لماذا تسأل؟ وتردد برعى لحظة ثم همس: لاشيء فقط أردت أن أعرف ولكزه أحمد محمود، وأضاف مستحيل، فأحمد يعرف حب برعى لشريفة وغيرته الشديدة، ولذلك فإنه مضى يتندر به بينما انزوى هو في ركنه ليسمع الي اصطخاب الموج. ووشوشة أشجار النخيل خلف السلاحليك، ثم اختلط بكل صوت قلابات باخرة وخفقات شراع ولايدرى لماذا استقرت مخيلته على صورة شريفة ملقاة علي النتوء الشرقى ممزقة الثياب، تتنفس في صعوبة وهى تغالب الموت. وتساءل ماالذى بعث بهذه الصورة الي ذهنه؟ أهي مريضة؟ ولماذا لم يرد حموي أن يذكر اسمها؟.

وأغفى ليجد يده فى المنام تمتد لتلمس خصلة شعر مرتفعة فوق رأس شريفة، مثل ذؤابة الهدهد وفى ليلة زفاف!.

***

وعبرالجبل والمنحنى الذي يفصل الدر عن القرية: كان الناس واجمين يتسا ءلون عن مصير الأولاد. زوجة المأذون تكاد تقتل نفسها من الحزن عليه ،وأم برعى كادت تقذف بنفسها إلى النيل،إلا أنها اكتفت بالدعاء من الله أن يبتلى بالكساح كل الذين تسببوا فى المصيبة التى حلت بولدها، شالت النيلة والرماد على شعرها، وراحت تجوس الدروب من نجع إلى اخر لتنتهى إلى دار العمدة، تربض عندها باكية لحظات وتشد شعرها الأشيب، ثم تهب فجأة لتعود، حتي أقسم زوجها ألا تبارح دارها..والرجل نفسه يعجب كيف تم له أن يعزم ويحلف بالطلاق . لقد نهض من مجلسه على طرف المصطبة قرب الباب، نهض فى عزم حين رآها تلطم خديها، وتهب منطلقة الى الخارج فاعترض طريقها، وحاولت التملص منه، لكنه فتح شفتيه فى عزم واشرأب على كعبيه ، ومط عروق رقبته وأطلق صوته المتشرخ: على الطلاق ثلاثا لو خرجت من البيت! وفغرت هى فاها، وهمست : الطلاق: يالله ! خمسون سنة لم يطلقنى فيها والان ، الطلاق أنه يمزح ، لكنها رأت فى عينيه شرارة الغضب، فدارت على عقبيها مسلمة قيادها له، ترتعش كلما تذكرت كلمة الطلاق، بينما أحس الرجل أن الشباب قد تجدد فى عروقه وأن كلمته مازالت العليا فى البيت، واعتاد منذ ذلك أن يقول لها اذا ما بكت : اخرسى يابنت.. فتخرس، وتمسح دموعها بسرعة قبل أن تسيل علي خديها الأجوفين: وتسدل الطرحة على شعرها الأبيض ولاتعود إلي البكاء إلا حين يبارح البيت وهو يتوكأ على عصاه.

وتتالت الأيام بالناس وهم يتوقعون فى كل ساعة أن يرتد المأذون وبرعى والمحامى إليهم، ثم اعتادوا الانتظار، وعادوا ينهمكون فى مشاغلهم، فإن عيدان القمح كانت قد نا ءت بحملها من السنابل، فعادت الحقول تزدحم بهم من صباحية الله إلي مسائه، ثم يعودون مرهقين يستا ءلون عن المأذون والمحامى وبرعي فتى النجع الصغير.

ثم تباعدت الأيام، حتى وجد أهل برعى والمأذون أنفسهم مضطرين الى اكترا ء الناس ليضموا غلالهم، وعرفوا قيمة برعي فى هذه الأيام فأقسم أبوه ألا يغلظ له إذا ما عاد سالما، وأن يسلمه كل شئون البيت وأن يتهاون معه إلا في مسألة شريفة، ألم يكسر أقاربها ساق خاله؟! وكم نحن مشتاقون الي هذا الخال؟. ماذا فعلت مصر بساقه، ولجأت فضيلة إلي أبى فأعارها حسن المصرى يساعدها في ضم القمح، ورفضت أن يمد لها البسطاوى يد المساعدة. ألم يكسر ساق زوجها!؟ وعكفت داريا وشريفة علي حقلهما الصغير، وضمتا العيدان المتناثرة .فقد أكل الملح معظم العيدان. ولم تحصدا إلا كيلتين ، ثم مضتا تجهدان نفسيهما عند الناس لتحصلا فى نهاية اليوم على ربع أو نصف كيلة، قلباهما مازالا ينزان بالألم، كانتا تستريحان عند الظهر وتتذكران جمالا وتبكيان حظهما المنكود.

ولايدرى المرء مالذى ينتاب شريفة بعد أن غاب برعى؟ أتناسته أم أنها تذكرته وبكت عليه؟،

لقد ازداد جمالها في الشهور الأخيرة فاكتمل جسدها واستدار وبرز نهداها. وتحولت عن تضفير شعرها في جدائل بفروة رأسها، وتركت له العنان لينسدل على ظهرها في ضفيرتين كبيرتين بعد أن اتخذت من شعر البيضاء« أم زين» نموذجا لشعرها

كانت تبكر فى الصباح، وتغسل وجهها بقطعة «الصانلايت» الصغيرة التي تخفيها في السحارة، ثم تبل شعرها بالشاى من الغلاية، وتمشطه فى عناية بالفلاية التى اشترتها من حسين فييس وتحل جيدها بالعقد الخرزى - هدية برعى - وتسدل طرحتها ، وتمضى خلف أمها لتكدح طول النهار ثم تعود فى المساء غاضبة عابسة لسبب لا تدريه «داريا سكينة» قد نشب فى صدرها صراع تعرف مأتاه وتجهل المخرج منه! فهى دائبة التفكير فى ديون الشيخ أمين التى لا تنتهى ، وخيل لها انها لو تزوجت أراحت أمها ونفسها من عناء كل هذه الديون. وقد يئسنا من جمال وحوالاته التى لا تجئ ، وفوق ذلك فإن جسدها بدأ يسومها العذاب ، فقد سهرت يوم زفاف جميلة طوال الليل تفكر فى كل ما يمكن ان يحدث بين رجل وامرأة ، ثم تلك السيدة البيضاء وأحاديثها الشيقة عن الحب فى مصر.

وما زال حسن المصرى يرتاد بيت البيضاء ولا يدخل بيت شريفة الا لماما ، انه يتحاشاها لامر لا تدريه ، بينما الشوق يقتلها الي لمسة واحدة مثل التى افلتت منها بين عيدان الذرة ، كانت تتخيلها ، وتشعر بخدر لذيذ يسري فى كل جسدها ، فيبتهج صدرها فى سذاجة ثم تنتبه لنفسها وتعض على شفتها السفلى ، وينشط من جديد عقلها المكدود ، وتقرر أن برعى انسب زوج لها ولكنه فقير غلبان ، وربما حملها التفكير الى البسطاوى فتقبله زوجا فى خيالها ، يبسط عليها حمايته ، فأهله موسرون وهو من أقاربها ، وما الفرق بينه وبين برعى؟ الا انها تحترم برعى لشجاعته ولرجولته ، ثم يقفز قلبها الصغير الى القمة ، يصرخ : أنا هنا ماذا تريدين ان تفعلى بى؟ حسن المصرى هو كل شئ ، فتعود الي التشوق لقبضته على فخدها ، فيعاودها الخدر اللذيذ ، فترتبك خطاها ، ويختلج جسدها برعشة مفاجئة.

لاحظت ذلك جدتي وهما جالستان حول الرحى ، فهمست لها : قومى يا بنتى ، أعدى لنفسك فنجانا من الشاى ، مالك ساهمة حائرة؟ أتفكرين فى جمال ؟ حرسك الرب يا ابنتى ، جمال سيعود بعد حين ، لا تهلكى نفسك من اجله ، قومى يا شريفة فسوف تعود بطة لتساعدني ، قومى أنت.

وقد زاد من آلامها تلك التعاسة التى بدأت تخيم صباحا ومساء على وجه أمها ، «داريا» قد تركت شئون البيت على عاتقها ، ولم تعد تذهب الى المتجر ، بل ترسلها هى لتلاقى الشيخ أمين وديونه ، أمها لم تعد تنشط فى العمل كما كانت تنشط من قبل ، فسريعا ما تتركه وتجلس لتندب حظها ، وتدعو على جمال ، وقد تنهال عليها هي بالسباب المقذع حتى ودت المسكينة لو خلصها احدهم حتى لو كان البسطاوى ! البسطاوي الذى شدد من تعرضه لها فى كل مكان ، يتودد اليها لاسيما بعد ان غاب برعى عن الميدان

وكادت تستسلم لولا وقاحته التى لا تبارى ، فقد أراد الكثير مما لا تستطيع فتاة شريفة أن تمنحه ، انه لا يأبه ابدا بالقيل والقال ، ويعتقد ان قراطيس السكر والشاى تمهد طريقه فى أي

مكان ومع اية فتاة.

البسطاوي قبل ذلك كان يترك حديث الزواج لخاله عبد الله الجزار اما الان فانه هو الذي يثرثر عنه، ويمد يده الى صدرها هو يقول: ما المانع ان تكوني زوجتي؟ فتبتعد عنه ، وتختفي من طريقه وهي تلعن وتسب اباه.

وتراكمت الهموم على رأسها حتى وصلت الى حالة من اليأس في أصيل احد الايام بعد نزاع بينها وبين الشيخ أمين حول ديون أمها ، قررت ان تغري البسطاوي ليتزوجها بسرعة حتى يريحها من كل شئ.

وطدت العزم على ذلك ، الا ان هذا هذا نفسه انهار تماما في اصيل اليوم التالي ، حين ساقتها قدماها الى المرور بالقرب من تحويشة عبد الله الجزار.

كانت تمضي الى جانب سور التحويشة الذى يحيط ببستان نخيل يملكها الرجل ، ودون ان تدري وجدت نفسها تطل من السور الى الداخل فرأت بين اشجار النخيل شبحين يتهامسان : فتاة حاسرة الرأس سقطت طرحتها على منكبيها في اهمال ، تستند الى جذع نخلة ، وتلقى برأسها الى الخلف ، فينبعج صدرها ، تياهة بشبابها الغض ، وأمامها وعلى مد الذراع منها شاب طويل ينحنى عليها ، ثم تقدم هذا الشاب خطوة صغيرة جعلت جسدها محشورا بينه وبين جذع النخلة.

ولم تدر شريفة ما الذى جعلها تتوقف وتستمع الى همساتهما ، فقد ملأ ما سمعته قلبها بالألم والخوف والسأم.

كان الفتى يقول لها: سعدية هبيني قليلا - فترد الفتاة لاهثة من أى شئ يا بسطاوى ؟ فيصمت الفتى ، وكأنه يستجمع ارادته ويهمس: من الجنه يا سعدية! من عجوتك الطرية؟ ويكف الفتى عن همسه ، ويقترب منها يكاد يصهرها ، فتهمس : حسبك .. اطلب الجنة من شريفة ! أنت تجرى ورا ءها .. رأيتكما بعيني .. التهمها كلما تلتهم العجوة الطرية ، صدرها مثل صدرى ووجنتها ، بل هي أحلى مني .. لكنها رغم كلماتها هذه كانت تميس بقدها وتتمايل مبعدة خصرها ، مدنية ، في نفس الوقت ، وجهها من وجهه ، بينما يتقلص وجه البسطاوى ويريد ويتحول الى ذئب مفترس ، فلا تولى هارية ، ولا تزيد على كلماتها الا بآهة متدللة وكلمات اخرى عن شريف : قلت لك دعني ، امض الى شريفة ، انها تنتظرك في البيت ، في الحاصل او في الخرابة الملاصقة للبيت ، أنت غشيم شريفة تلعب بك وببرعى وحسن المصرى ، ألا تراهما في بيتها ؟ لماذا لا تذهب اليها ؟ انها اجمل مني ، وكلكم مفتونون بها.

وقال البسطاوى، وكأنه يستنكر كلماتها : شريفة ! وأين شريفة منك؟ أنت اجمل الف مرة منها ، ومد يديه الى صدرها ثم أردف : أنت بيضاء مثل البدر ، أما هي ، فليست الا جارية سوداء ، هي قريبتي ولكنك أجمل منها ، امها نجسة ،لقد طلبت مني أن استر عورتها ووسطت عبد الله الجزار ولكنني رفضت ، تعالى يا سعدية ، وانهال عليها فغامت عيناها ، ومدت يديها تحمى ما بين فخذيها ، بينما هو يمد يده ليعتصر رمانتيها.

وفى هذه اللحظة افلتت شريفة قبضتها على باب التحويشة ، فوقعت على الارض ،هى والباب ، فانبعث دوى من ارتطامهما ، فتنبها ، وراحت سعدية تعدو ، بينما وقف البسطاوى

يتلفت حوله ، ثم اطلق العنان لساقيه خلف سعدية.

ونهضت شريفة على قديها ، وأحست بدموعها تنسال على خديها: ابن الكلب ، يقول انه رفض الزواج منى؟ امى طلبت منه ان يستر عورتى؟ سعدية احلى منى الف مرة ! لست الا جارية سوداء ! آه لو كان جمال هنا! وأين برعى ليحشو فمه بالتراب ؟ حسن المصرى وبرعى يعبثان بى !!!! بنت الكلب.

وكان فى ظاهر يدها خدش تسيل منه الدماء فأخدت تمتصه بين شفتيها ، وهى تغوص فى دوامة افكارها : ليت برعى هنا ، وهل رأتنى سعدية ؟ أم انها لم تتبين وجهى ؟ وهل رآنى البسطاوى؟

وعادت وهى تشعر بالحمى تسرى فى جسدها ، وقلبها ينتفض بالغضب وبالحنين الى برعى ، مسكين .. انه محبوس ، ولا ادرى متى يعود ؟!

واستدارت عند المنعطف لتجد نفسها وجها لوجه امام البسطاوى الذى اخذ يتعرض لها ، فاشاحت بوجهها عنه ، ثم لكمته فى صدره ومضت تعدو ، حتى وجدت نفسها منطرحة على المصطبة الداخلية تجهش بالبكاء.



ومن جديد عادت الشمس الملتهبة تجلد ظلال النخيل ، وترهق الأبدان وتميل بها الى الدعة بعد كدح متصل منذ الصباح ، ومن جديد طوق جيد كل نخلة بعقود حمراء تشوبها نقط خضراء سرعان ما تحولت الي صفرة باهتة ، ظل لونها يميل الى الاحمرار حتى جفت العناقيد ، وتيبست الثمار فناءت بحملها ونفضتها الى الارض ثم أهلت الفوانيس في السحر تتصيد ما بين أشجار النخيل ، لتعود خابية النور أمام ضوء الشمس .

واخضرت الجزيرة ، حتى لم تعد تبين الا كباقة خضراء ، ونشرت وريقات اللوبيا خضرتها الطاغية فى كل مكان ، ورست المراكب السوداء على المرافئ ، وتسلق عم نوح كل نخلة ، وتجمع الناس تحتها يحتضنون السباطات المتساقطة ، ومشت الدواب بين الشاطئ والمتاجر ، وانطلقت المزامير ووشوشت الغوايش الزجاجية على المعاصم ، وسرت الطواقى الزاهية فى كرنفال ، ودخل «الحلب» قريتنا من الشمال الي الجنوب ، والتقى حسن بفكيهه ذات ليلة ، وشطبت صفحات من دفتر الاستاذ واليومية بالكوبيا ، ونقلت سطور الى دفاتر أخرى ، وصرخت المشاجرات فى الحلوق ، وبكت درايا سكينة حظها العاثر ، فابنتها لم تعد تميس بين الحقول وأشجار الحقول ، بينما سعدية تنتقل مثل الفراشة ، والبسطاوى من خلفها كانه ذيل جرجارها ! «شريفة» طريحة الفراش تشكو داء لا تدرى الام مصدره ولا نهايته ، فمضت تهلك نفسها بين أشجار النخيل لتعود فى الأصيل تضم الفتاة الى صدرها فى حنان بينما تنشج الصغيرة : خلاص يا أماه .. لا فائدة ترجى منى ، فتقول من بين الدموع : بعيد الشر يا ابنتى ، ما زلت مثل جمار النخل ، لا تخافى .. لو أكلت شيئا .

وتدنى ملعقة خشبية ملأتها بالعصيدة من فم الفتاة ، فتنحيها بيدها وتهمس : رأيت فى المنام يا أماه أننى أقضم حزمة من الحلبة الخضراء ، فتتركها فى يد «بطة» وتسرع وتجرى بين الحقول ، والظلام يغشى النجع وتعود لاهثة لترمى بالحزمة بين يدى فتاتها ، بينما تدخل جارة تهمس: الحمد لله ، مالك يا بنتى بعافيتك ، باسم الله ما شاء الله !

فتهمس المسكينة وهى تغالب آلامها : الحمد الله يا خالتى فضيلة : ثم تسيل دموعها على خديها ، فيلصقون لبخة القرطم على جبينها ويقولون سخونية .. لا شئ غير سخونية ، تزول بإذن الله .

وتتسمع خالتى أمينة بايا الى دقات قلبها من ظهرها ، وتدير عينيها لتؤكد لنفسها أن الفتاة فى خطر ، ولكن شريفة لا تعرف ما بها ، انها لا تحس بألم ما فى مكان محدد من جسدها ، كل ما تحس به هو أن شعرها يتساقط على الوسادة وفى يدها ، فتبكى وتشعر بالهزال ، وتحس انها مقبلة على الموت ، وتروح أحيانا فى غيبوبة ، ثم تهلوس : سعدية : «البسطاوى» .. التحويشة ، الجنة .. يالفخدى .. يده كانت قاسية بين عيدان الذرة .. اشطبها يا أمين وحياة ابنك حامد ..

برعى .. أين برعى ؟ .. مسكين يا جمال ! وتطلق صرخة ثم تفيق لتحدق فى النسوة المحيطات بها .

وتسألها أم سعدية .. ما لها يا بنتى ؟ فتسكت شريفة ، بينما سعدية تراقبها بعينين واجفتين من خلف رأس أمها ، وتشير اليها وكأنها تقول : لم أقل شيئا عنك .. أستريني حرام عليكى يا شريفة ،أنت تموتين وسوف يحاسبك الله ! غير أن شريفة لم تفهم شيئا ، بل مضت تحدق فى وجه سعدية ، وتتمنى أن تكون فى يدها مرآه لتقارن بين وجه سعدية ووجهها ، وتحدق أم سعدية فى وجه ابنتها وتتنهد فى حيرة .

وتقترح فضيلة استدعاء جمال ظريفة ليقيم زارا لشريفة ، فتتضرع هذه اليهن الا يفعلن ، فجمال ظريفة يتطلب نفقات كبيرة ، فيكتفين بتعليق حجاب على ضفائرها وعنقها ، ثم يلهثن هنا وهناك بحثا عن الوصفات وجاءت الست آسيا المولدة ، ومضت تعتنى بها كأنها ابنتها غير انها لم تتماثل الشفاء .

وفى احدى الامسيات ، وهن من حولها ، ورنت زغرودة هتفت سعدية بعدها : المأذون وبرعى دخلا النجع منذ لحظات ، ففتحت شريفة عينيها على هذه الكلمات ، وتألق بريق غامض فيهما ، وعاودها التفكير فيما رآته بعينها فى تحويشة الجزار وفيما سمعته بأذنيها ، وتمنت لو انتقم لها برعى قبل أن تموت .

****

وخرجت القرية كلها الى مفارق الطرق تستقبل المأذون ورفيقه الصغير ، وراحت أم برعى تعدو وتركض حافية وقد انتفش شعرها الابيض حتى ارتمت فى أحضانه والهه تبكى بحرقة ، والفتى يربت على ظهرها ويطلب منها أن تكف عن البكاء ، فهو لم يعد طفلا صغيرا ، بينما مضت زوجة المأذون ترمق زوجها فى ذهول ، وتدفع أناملها فى جسده تتأكد من وجوده حيا أمام عينيها .

سارت خلفه تقول : هوى .... هوى .. لا تنطق باسمه ولا تشكو فهى راضية ، لم تشعر بجوع عند غيابه ، فقد تكفل الناس بها ، لكنها شكت شيئا غريبا لم تكن تحس به أبدا ، شكت طوال غيابه حنينا اليه الى لمساته ومداعباته ، وها هى تمشى خلفه كما يمشى عبد وراء سيده يلمس ثيابه بيده ، وتتمنى أن يتركه الجميع ليفرغ لها .

ورأى الناس برعى فأيقنوا أن شيئا ما قد تغير فيه ، شيئا ما لا تخطئه العين وان كانت لا تستطيع أن تسميه ، شيئا مرتسما على ملامحه وحركاته يرسل ومضات من بين حدقتيه ، فانه اليوم أميل الى الصمت ، وقد تزايل عنه الوجوم ، وأمتلأ قلبه بجرأة وثقة فى النفس عاد بهما من

تلك الزنزانة.

جلسا عند الساحة أمام المتجر ، وأديرت فناجين الشاي ، وأفرغت كئوس الحديث . والله سلامات ، كفارة يا شيخ صابر .. كفارة يا برعى والسجن للرجال ، ماذا فعل - العساكر بكما ؟ أشربتما شايا هناك أم أنهم تركوكما للصداع ؟

وطفقا يرويان النوادر عن المأمور والمعاون والشاويش عتريس وبعزق أبو رحاب ، وقال أن المأمور كان يمر عليهم ويحييهم واقفا ، ويسألهم عن أحوالهم ، الا انه كان يضحك كثيرا مثل المجانين ! وقال صابر ان المأمور قال لبرعى : أنت بجم فضحك برعى وهتف : بل قالها لك يا شيخ ، قل الحق ولو على نفسك! وضحك الناس ، بينما أخذا يتبادلان النظر والناس ترمقهما فى اعجاب ، فان ابنين من أبناء النجع قد عادا من رحلة غير مأمونة العواقب ، بعد أن تعاملا مع الحكام .

ولمحنى برعى أندس بين الصفوف ، وصوب نظرة الى وكأنه يسأل : أين شريفة ؟ وشعرت بنفور منه ، فانه لم يعد برعى الذى اعرفه منذ الصغر ، قد تحول الى شئ آخر لا أستطيع العبث معه كما كنت أفعل منذ عام واحد .. قد شد على يدى كما يفعل الكبار ، ولم تصافح قدمه قدمى ، ولم يرسل النوادر التى اعتاد أن يرسلها ، أصبح معتدا بنفسه منتشيا ، ولكنه رغم ذلك بدا قلقا في مجلسه ، تدور عيناه فى الغبش تستقران على وجه فتاة ، وتعودان الى تكرار نفس السؤال : أين شريفة؟ وخيل لى أن أرنبة أنفه كانت تتقلص ، وأن البريق الذى ينطفئ ويخبو فى تلك اللحظات ، ثم نفذ صبره ، وأدنانى منه وكاد أن يوجه السؤال المرتقب هامسا ، لولا أن لاحقه الرجال بالاسئلة عن التعويضات والطوفان وصدقى باشا ، انهم كبار ، ولكن فتاهم الصغير قد خالط الحكام ، وتحدث مع الشاويشية العالمين ببواطن أمور الحكام ، ولم يشأ هو أن يترك المأذون يتكلم فمضى يشرح : التعويضات ستكون قليلة ، لا يا شيخ ، الحكومة ليست فقيرة، ولكننا نحن الفقراء وبعيدون هنا.

وقال المأذون: والبعيد عن العين بعيد عن القلب ! لا يا أخينا ، ربنا معنا ، ولكن بدر أفندى سيزيد التعويضات ، مسكين بدر أفندى ساقوه مكبلا بالحديد الى مصر .

وهتف المأذون : المهم أن نجد أماكن نستقر فيها بعد الطوفان .. سنعيش هنا ، وأشاروا الى السفوح ، لا يا ناس .. أنعيش مع الضباع والذئاب ؟ بل نستطيع أن نستقر فى «كران نوج» على الضفة الغربية .

ولأول مرة تراءى كران توج بصحاريه المترامية من حوله كمسكن لهم ، فالطوفان لن يبلغ الصحراء ، والمعيشة هناك أفضل من الرحيل .

سوف يستطيعون مشاهدة نخيلهم غارقة تهتز بجريدها الأخضر فوق الماء ، كلا ، الطود أفضل وكوم أمبو ، دعونا نشهد بلاد الله والقطرات ! وبرعى حائر فى أمره وأمرهم جميعا ، ويود لو تخلص منهم ليندفع لا الى بيت أمه بل الى بيت شريفة وتدور عيناه فى الناس ، ثم يطمئن حين يرى البسطاوى وحسن المصرى بينهم ، وصرخ أحدهم : ليت الخزان يتهدم .. لا يا شيخ .. تغرق مصر اذا تهدم ؟ مصر أم الدنيا ، ملح الله فى أرضه .. وفيها أولياء الله ! ولكن لماذا لا يحولون الماء المتراجع خلف الخزان الى الصحراء من خلال الخيران ؟ أمر الله ، هكذا أراد الله ولا راد لقضائه .

وفى هذه اللحظة لاح المحامى من بعيد يطوح بعصاه ، وينسل بين أشجار النخيل ، يتجه اليهم بخطى ثابته ، فتهللوا وهبوا واقفين يستقبلونه بالاحضان : كفارة .. حمد الله على السلامة ، بينما مضى هو يعانق الآخرين : ثم جلس الى جوارهما يروى فى لغة فصيحة ، كيف أفرج عنه منذ يومين فى بندر أسوان ، وكيف استقل رفاصا رسا به عند النتوء الشرقى ،.. رفاصا عائدا الى حلفا يقوده «كنزى» يعرفه .

وطفق يروى كيف جعل الحكمدار يرتعش شارباه ، كانا يهتزان مثل ضفيرتى فتاة صغيرة ، ومضى يروى الكثير عن المحاكمات التى سيجرونها لحسين طه وقص لهم قصته كاملة ، قصة محطة بنها ، و البلطة الصغيرة اللامعة ، وكيف رحلوه من بنها الى مصر ، بنها بلدة صغيرة مثل بلدتنا ، كلا ، انها بندر كبير ولها حكمدار مثل حكمدار أسوان .

ثم دس يده فى جيبه وأخرج ورقة عريضة أجفل برعى حين رآها ومضى يقرأ فى الصمت الذى أحاط به : بيان من النادى النوبى بالقاهرة نريدتعويضات مجزية وأرضا ومساكن جديدة ، ومضى البيان يعدد المظالم ، ويطالب بمحاكمة عادلة لحسين طه أبو زيد الذى يتهمونه بمحاولة اغتيال صدقى باشا .

واستمع الناس الى البيان واجمين ، وهم يتطلعون الى وجه المحامى ولا يلاحظون أن شيئا ما قد تغير فيه ، شيئا لا يستطعيون تحديده ، والبيان يهدر على شفتيه يرسم صورة قاتمة لمصير ديارهم ، ستتهدم وينتشر البعوض والبهارسيا والانكلستوما وأمراض العين ، ويعم الوباء ، وتفسد الأخلاق ، تكثر الهجرة ، خراب وقطران وزفت لا قطران ولا زفت بعدهما ، حياة مهيبة لا تليق الا بالثعالب ، والأرض كلها ستمتلئ بالدود يسرح فيها ، كل شئ سيكون عفنا تزكم رائحته الانوف.

وانفض السامر فى منتصف الليل ، والوجوه صارمة حزينة يزيد من حيرتها ضوء الفانوس الباهت والشوارب الغليظة التى لم تشذب .وآوى المأذون وبرعى الى داريهما ، بينما انطلق المحامى الى دار العمدة .

وأبت أم برعى أن تتركه يبارح البيت فى الصباح ، وأقسم الاب أن يمكث الضحى واليوم كله فى البيت ، فالناس سيأتون لزيارته : كفارة يا برعى ، سلامات ، والله سلامات فمكث طول النهار على مضض يشدون على يده ، ويشد على أيديهم ، ثم سمح له أبوه أن يشرب قليلا من عرقى البلح ، فكم كان الرجل ذو التسعين فرحا بابنه ، يأمره أن يحكى للناس قصته مع المأمور ، فيعيد تلاوتها ، ويزيد عليها فى كل مرة من خياله ، فيقول الرجل مؤنبا: نسيت هذه فى المرة السابقة. أعدها فيعيد وهو يفكر فى الوقت نفسه فى اللحظة التى ينتهى فيها أبوه من زهوه حتي يبارح البيت ، فقد كان مهموما بعد أن أسرت اليه امه أن شريفة ترقد فى الفراش مريضة منذ مدة طويلة ، فراح يعد الثوانى والدقائق ثم انتهى به مطاف الحكايات الى القيلولة ، فقام يحاول النوم عبثا ، الى أن استحالت الشمس فى الافق الى لهب أحمرإلى قرص يلقى ظلال الأشجار طويل على الأرض فارتدى جلبابه «البوبلين» وترك الدار ، واتجه فى خطى ثابتة ومر بشجرة الجميز يطوح بكمه الواسع ، ويهز عصاه ترى كيف حالها ؟ وكيف ستلقاه ؟ أمنكفئة على وجهها تبكى أو راقدة على ظهرها وقد جحظت عيناها ؟ فهكذا رأى المحمومين يفعلون ، وهل حقا ركبها الجن كما قالت له أمه .. أم .. ؟

واقترب من البيت ورأى درايا سكينة تنفلت وتخرج من الباب دامعة العينين لا تلقى اليه بالا ، فتركها وأحس بقلبه ينقبض ، وألقى نظرة متلهفة الى البيت ، فوجد شيئا ما حزينا يخيم عليه مع ظلال المغيب ، فما من ضحكة بل وجوم ! وأمسك بالباب من ضبته الخشبية ودفعه فصر صريرا موحشا ، نقطة واحدة صغيرة من الشحم كافية لاسكات هذا الباب عن أنينه ، واستمع الى عرق ينبض خلف أذنه اليسرى ، فضغط عليه بأصابعه ، ثم دخل من الباب الى الدهليز ..

ورآهن فى نهاية الدهليز ، كومة من الثياب السوداء تبرز منها أكف معروقة تروح على كومة أخرى تنطرح على «عنجريب» .

وأحس بالكلمات تتكور فى حلقه ، وتتزاحم ، ولا تريد الفكاك من بين شفتيه ، الا انه تمكن فى النهاية أن يبتلع ريقه ويهتف : احم دستور يا أهل البيت . فتلفتن نحوه بعيون ذاهلة ، وابتسمن لتحيته ، ثم أطرقن ، فدنا منهن ، ومال على الفتاة : يقول شريفة .. شريفة..

وحملقت بعينيها ، كانتا اوسعتين كبيرتين تبرزان بشكل مخيف فى وجه معروق زال عنه اللحم حتى بان نحيلا يملأ كف اليد ، وحاولت أن تنهض بعد أن أرسلت شهقة جافة الا أنها تراجعت الى الخلف ، وارتمت على الوسادة من جديد .

– شريفة ما بك يا شريفة ؟

وصمتت قليلا ثم همست : لا شئ ، حمد الله على السلامة ، ثم عادت الى الصمت تبتلع ريقها ، وتتنفس فى صعوبة ، ثم أغلقت عينيها ، فتلفت الى الأخريات ، فأشرن اليه : سخونية بسيطة ستزول .. لا شئ غير ذلك .

وود لو انكب عليها يقبلها ، لكنه تراجع الى الخلف يتمتم بأدعية حفظها من المأذون هنالك فى الزنزانة بينما أطلق ا لعنان لدموعه ، واستمع الى صوت فتاته وهى «تجض» من الالم ، فأحس أن الارض تميد به ، فلم يستطيع البقاء لحظات أخرى ، فانطلق الى الباب ، وفى الطريق أمسك بقطعة حجر صغيرة تعثرت فيها قدمه وقذف بها فى اتجاه لورد الذى كان قد أقعى ، ولوى ذيله بين ساقية الخلفيتين ، ومضي يرفع رأسه الى السماء ويعول عويلا محزنا انقبض له قلبه ، فطارده حتى ابتعد به عن بيت شريفة .

****



وتصوصو أسلاك البرق بين القاهرة والقرية ، وتصعد البواخر فى النيل ، وتهبط بين الشلال وحلفا ، ترسم علي الشاطئ ألوانا شتي بشرياتها ، وتذيب الضوء في أغوار النيل .

والأيدى تتناقل وريقات صفراء ، برقيات من مصر ، من أناس عائدين إلى الوطن ، ورسائل كتب على أغلفتها : فوق الشلال ، حضرة المحترم .. من أعيان «قته» ثم تحت العنوان بخط مائل رقم عريض لا أدري لماذا أصررنا دائما على كتابته على كل غلاف فوق خط متعرج ينتهى بذيل ..... بدوح ١٢٤٨ .

وسألنا أحمد محمود مرة عن بدوح هذا فضحك ثم قال: تعال نسأل عوض أفندى .. وكنا حينذاك أمام مكتب البوستة نستلم خطابات أهلنا .

قلنا للرجل لماذا نكتب بدوح ١٢٤٨ على كل ظرف ؟ فتأملنا قليلا ثم قال :

- بدوح هذا يا ولدى هو اسم الجن الذي يحمل البريد بين البلاد .

وازدادت حيرتى وقلت: لكن البريد يأتى فى الباخرة، فلم يجب الرجل، بل تركنا وانحنى على أوراقه، ومضى يهمهم بينما انصرفنا نحن، نحمل رسائل ذوينا..والرسائل كثيرة فى هذه الأيام، وهى بشأن منازعات حول شريحة ضيقة من الأرض يدلى فيها المغتربون بآرائهم ويفوضون فلانا لفض هذه المنازعات، هكذا كان مجلس العائلة فى مصر يحكم، وحكمه لابد أن ينفذ، فتتلاقى رءوس أهل الخير فى النجع وتتم المصالحات بقبلة يطبعها رجل على رأس رجل آخر لمجرد أنه أكبر منه سنا. ثم يعود الوئام ليتجدد النزاع من جديد.

والبرقيات تعلن إما عن وفاة عزيز يقام له مأتم يثرثر الناس فيه عن الطوفان والأراضى الجديدة، وإما عن قدوم عزيز مغترب.

وفى أصيل كل أحد من الأسبوع يترقب الناس فى نجعنا أن تصل الباخرة، وينتظرون مقدم الشيخ فضل بعد ابلاله من مرضه.

ووصلت البرقية تعلن قيامه من مصر، فطليت واجهة بيته من جديد وفرش الديوان بالرمل الأصفر وأعيدت أطباق الصينى الى موضعها على الجدران وأخرجت فضيلة. منذ الظهيرة، كل هدومها من السحارة، وهبطت بها إلى الشاطىء، وركزت على الجرف صخرة صلدة مستديرة، ثم وضعت عليها قطع الثياب، ووقفت عليها تدلكها بقدمها ، أو تفركها بقطعة حجر أخرى، ونشرت الملابس على غصون الأشجار، وانتظرت حتى تجف تراقب الأصيل، وحل المساء فجمعت غسيلها ثم واجهت النيل تدعو الله وكأنها تعتقد أنه يسكن فى أغوار النيل، تدعوه أن يصل الزوج الغائب سالما، ثم تتلفت حولها، وتلتقط قطعة من القرميد الأحمر مضت تحك بها كعبيها، تصنفرهما فى قسوة حتى احمرا بعد أن زالت كل الشقوق الجارية فيهما. كل زوجة يمكنها أن تتحمل أية قسوة مادامت تنتظر زوجها العائد من مصر.

ومر يومان، إذن بعدهما فى الناس أن الباخرة تجتاز المنحنى الشمالى، وتكاد تبلغ النتوء الشرقى ، فهرع الناس إلى المحطة النيلية فى أبريم ينتظرونها.

داريا أيضا تنتظر، فقد اعتادت منذ شهور أن تنتظر الباخرة وجمال رغم أن أحدا لم يعلن لها مقدمه، كانت تقف على الشاطىء تنتظر وفى عينيها دمعة حائرة ثم تعود مهيضة الجناح تداوى ابنتها، وألف الناس محنتها ، فبكوا مثل بكائها، وحار الناس حيرتها، وها هى ترقب الباخرة بعينين والهتين، تتمنى أن ترى جمالا على ظهرها.

دنت الباخرة، وتمخطرت على النيل حتى رست عند المرفأ، ومدت السقالة، وفى مقدمتها وقف الشيخ فضل بقامته المديدة، لم يتغير من قسماته إلا تجاعيد صغيرة أضافت شهورا مضنية قضاها على سرير المستشفى إلى عمره، وخطا خطواته الأولى ونحن نراقبه ثم تعثر، وكادت ساقه تنفلت منه إلى اليم، لولا أن تداركه عوض أفندى . فردة واحدة من مداس أحمر أخذت تلمع فى إحدى قدميه. أما الأخرى فكانت حدوة حديدية تلمع هى الأخرى، وتبدأ منها ساق خشبية اعتمد الرجل عليها فى اصرار، فراحت تدك على خشب السقالة، وتبعث رنينا حز فى قلوب الجميع. حتى تزاحمت الدموع فى العيون.

وبدا الشيخ فضل متجهما، تتقلص عضلات وجهه، رغم محاولاته المتكررة ليرسم بسمة علي شفتيه يستقبل بها أرض الوطن.

إذن فهذا هو الشيخ فضل، رجل النجع، والذى رحل منذ شهور بساقين، إحداهما جريحة عاد بدونها وبساق خشبية يشدها إلى فخذه بسيور من جلد وقماش، يزك عليها فوق السقالة، ويخاف عليها خوفه على لحمه ودمه.

وانتهى إلى الشاطىء وتوقف لحظة، واندفعنا اليه نحتضنه ونرمق ساقه الأخرى فى نظرات متلصصة خشية أن نجرح أحاسيسه، ونفسد عليه بهجة العودة من الغربة بسلامة الله.

ولاحظ وجوم الناس،فأراد كعادته، أن يبدده فابتسم فى عيونهم، وشرع يتندر على نفسه ويوبخ الناس: مالكم حزانى؟. أمات الناس جميعا أم اختطفت الذئاب عيالكم؟.. باللتكشيرات...مثل تكشيرات القرود ، أم أن الطوفان حل دون أن ندرى؟ وصمت وجال فى الناس بناظريه ثم أردف: أم إنكم حزانى من أجلى؟ وانحنى ، وكشف الجلباب عن ساقه الجديدة، وأضاف مبتسما، مالها حلوة ورخيصة.. لاتكلف شيئا ، رمضان نجار السواقى يستطيع أن يصنع لكل واحد منكم سيقانا جملية مثلها قصيرة، طويلة..ومتوسطة- اذا أردتم وبالتفصيل حسب الطلب، ثم لاحظ أن الوجوم مازال يربض على الوجوه فأطلق ضحكة وأضاف: ثم هى لاتقبل الجروح، ولايسيل منها الدم ولاينبعث منها الوجع، واذا كسرت يمكن أصلاحها بمسمار هنا أو هناك، قلت لكم أن رمضان النجار...

وانطلق المأذون يهتف: حمد الله على السلامة يارجل: ولايهمك يافضل.. البركة فيك أنت يامجدع، وأضاف أحمد عودة: إرادة الله ويجب علينا أن نقبلها ، فهتف الرجل فى صوت لايبالى:

ومـاذا فى يدنا لو لم نقبلها؟.. فـصـاح المأذون من جديد: استـغـفـر الله يارجل، لايريد الله الا الخير..لعل مصيبة أخف من أخرى. من يدرى أحمد الله يافضل..

فضحك الرجل وهو يزك على ساقه الجديدة وصاح: الحمد لله على كل حال.. نحمده ونشكره.. تنفعنى فى خناقة أخرى، وبدأ الناس يضحكون ، فشعر بالرضا بينما تجاسر شاب صغير وهتف: لكن حين تنام ، عليك يعم فضل أن تخفيـهـا فى الحاصل أو «بيت الأدب» حتى لاتصل إليـهـا فضيلة، وأدرك الرجل مايعنيه الفتى.. فبادره على الفور قبل أن يضحك الرجال: ولكن قل لى ياولد، قل لى من الذى يغطى أمك بالليل؟ ودوى الشاطىء بالضحك ، بنما تلعثم الشاب وأجاب في نبرة ضاحكة: إنه أبى يـافضـل، إنك تعـرفـه..عـريض وطويـل يمكنه أن يغطى أى شىء! فرنت الضحكات من جديد لتغوص في ثنيات صفير الباخرة وهدير قلاباتها، وهى تستدير لتتوسط مجرى النيل، وتصعد فيه إلى الجنوب إلى حلفا..

ولاحظ الناس أن فضلا يخاف شيئا ما على ساقه كما يخشى الناس على سيقانهم السليمة، إذ راح يخطو بها فى حذر مخافة أن تغوص فى الوحل أو تنغرز فى شق من شقوق الأرض.

واتكأ الرجل على برعى دو لحظ، حتى أسلمه الى فلوكة عادت به إلى الموردة، فسرى منها ، مع الليل ،إلى بيته، فتحلق به الناس كما تحلقوا بأحمد عودة يوم عودته وسألته داريا نفس السؤال: جمال..هل رأيت جمالا؟.. وعادت ، والحسرة تأكل قلبها، لتكذب على شريفة الطريحة على فراش المرض. أبشرى ياشريفة ، الشيخ فضل قابل جمالا..كلا لم ير زوجته البيضاء! التقى به فى الطريق ولكنه« خالى شغل» ووعده خيرا حين يجد عملا.. آه يابنتى لو عاد جمال، شدى حيلك لتستقبليه على قدميك..

والفتاة تعرف أن أمها تكذب، فتصمت وتذرف دمعة ، وتغوص من جديد فى غيبوبتها، بينما تدور الأحاديث فى بيت الرجل كما دارت دائما فى العامين الأخيرين حول المصير الذي يتوقعونه ، وقال فضل:

– كان معى رجل فى الباخرة، حزروا ، ولكل واحد منكم سيجارة ماكينة لو عرفتموه!.

ومضوا يخمنون فى حماس، ثم غلب حمارهم، فسألوه : من هو؟. فقال بعد أن لمعت بسمته: رجل عظيم. كبير كبر الدنيا..قالوا المستر هيس باشا! كلا..أقول لكم أنه رجل عظيم تقولون لى عن النصرانى. قالوا : سفرجى باشا الملك؟ وضحك الناس جميعا فإن سفرجى باشا لم يبرح القرية وكان من بين مستقبلى الرجل. وحاروا فى أمر الرجل الذى رافق الشيخ فضل فى سفره، وقالوا وهم يضحكون لماذا.. لماذا تتعبنا وتصدع أدمغتنا يارجل؟. قل لنا من هو وفضك من هذا الملعوب!.

وتبسم الرجل فى زهو، وقال بعد أن تنحنح، بدر أفندى فلمعت عيونهم فى تطلع بينما استرسل: أطلقوا سراحة بعد أن أثبت براءته بنفسه ودون محام! وأعادوه إلى وظيفته، وسوف يتسلم كل فلوسه من الشهور السابقة.

فحمدوا الله فى صوت واحد، وراحوا يرفعون أكفهم إلى السماء ويدعون للرجل ولذريته وذرية ذريته بالسعادة وطول العمر..

وقطع المأذون دعاءهم وسأل: وحسين طه ماذا فعلوا به؟ أأفرجوا عنه هو الآخر؟ وصمت الجميع يترقبون الإجابة فى لهفة ، وجاءت الإجابة مخيبة لكل رجاء:سبع سنين اشغال شاقة!.

فصاحوا فى حزن: مسكين ياولداه! ومضى فضل يروى لهم كيف ساقوا حسينا إلى الليمان مكبلا بالحديد، وكيف مشى بين صفين من الجنود رافع الرأس، والجرنالجية يصورونه، حلقوا له شعر رأسه حلاقة زيرو..مسكين..

- وهلا تشفع له أبوه؟.
- كلا بل تبرأ منه، ونشر بذلك إلعانا فى الجرانيل.

وانبرى أبى يقول : لعنة الله عليه.. ضناه وفذلة كبده ثم يتخلى عنه عند الشدة! وصرخ المحامى فى أسى.: ما أصنى فؤاده، ثم أطرق صامتا، بينما راحوا يحدجونه بنظراتهم، فإنهم لم يسمعوا منه هذه الكلمة منذ عاد من حجز أسوان.

ثم عاودوا حديثهم عن التعويضات، وأجمعوا أن جنيهين للنخلة الواحدة تعويض يمكن أن يقبلوه.

ولمحنى الشيخ فضل ، وقربنى منه، وحدثنى عن خالى عثمان ثم سأل:
- ألم تذهب بعد إلى المدرسة؟
- كلا ياعم فضل لم أذهب بعد!

ورمقت أبى بنظرة جانبية، بينما مضى فضل يسأل:-
- ومازلت تذهب إلى الكتاب؟ وكيف حال الشيخ طه؟.
- نعم.أما الشيخ طه فقد كان مريضا حتى ظن أنه يشرف على الموت.

وروع الرجل، إلا أن المأذون أضاف: لاتخف فقد تماثل للشفاء، وعاد يتربع على مصطبة الكتاب، وإن كان لايزال يعانى من ضعف الصحة ..إنه الكبر يافضل عافاه الله.

فصح فضل: كبر! أتحسبه عجوزا ياصابر..لقد حضر وقعة الدراويش وهو لايزال صبيا صغيرا. عافاه الله. لن أستريح إلا بعد أن أزوره. ثم التفت إلى من جديد وسأل:
- وكيف حال عيشة جدتك؟

قلت إنها بخير. ولكنها لم تستطع أن تراك ياعم فضل.
- سلم لى عليها ياولدى..قل لها إننى سآتى لأشرب فنجال القهوة.
فقد كانا صديقين يتبادلان قراءة الفنجال لبعضهما فى ساعات الأصيل.

والتى قلت إنها بخير هى التى ترقد الآن على عنجريب المرض تتأوه « وتجض» من الألم وتلمس ركبتها اليمنى فى أسى وتحدق فينا. فى الأم وفي بطة وفى أنا.كأنما تشبع ناظريها بنا ثم تهمس:
- لك الحمد يارب..شكة إبره ولاشىء غيره ثم لاأستطيع الحراك! لك الحمد ياربّاه..حامد دلك ساقى ياحامد.
فأمضى أدلك ساقها وفى عينى دموع. ولاأدرى لماذا اعتبرت نفسى مسئولا عما حدث لها! إنها تموت ولاأدرى كيف أحتمل الحياة بدونها..
أنا الذى اعتدت منذ الصغر أن أنام إلى جانبها فوق عنجريب واحد تشدنى إلى خاصرتها بحبل متين خشية الذئاب، أنا الذى اتخذت منها أما بعد أن تباعدت عنى أمى، وتباعدت عنها. ها أنذا أعض على شفتى وأنا أدلك ساقها كلما تأوهت، وأتذكر ما تسميه هى شكة الأبرة، فلم تكن شكة إبرة بل مصيبة لاندرى كيف يمكن للناس أن يتفاودها في حياتهم.
والشكة كانت بسطية وسريعة، ولكن قاتلة. كنا نعود معا في أصيل أحد الأيام- بعد عودة الشيخ فضل من بيت شقيقتى جميلة التى كانت فى شهرها التاسع.

كانت تمسك بيدى وتروى لى حدوتة عن أميرة شكتها إبرة فنامت سنين طويلة حتى أيقظها أمير تزوجها، وتريثت ريثما تنعطف فى الطريق الزراعي وتجتاز حرشا صغيرا تلتف به أشواك العاقول والحسك البرى وفتحت شفتيها، وهي تستدير نحوى لتكمل قصتها فإذا بهما تطلقان صرخة داوية تنكفىء الجده بعدها على الأرض تمسك بركبتها وهى تشير إلى الحرش، إلى شطىء أسطوانى طويل لامع بلون الفضة يزحف ملتويا إلى حجر بين الأحراش.
وصرخت أنا فى رعب: ياالله. ثعبان؟ ماذا جرى ياجدتى؟.
واختفى الثعبان فى مكمنة، لقد داست الجدة عليه دون أن تدرى فانتقم لنفسه، فقفز إلى ركبتها، وغرز فيها أنيابه، ثم مضى مسرعا ليختفى فى جحره، بينما هى تتأوه ، وتشكو من برد يلسع ركبتها.

وعدت بها إلي البيت فانطرحت على العنجريب تطل عليها أمى وبطة والخالة أمينة بايا..بعيون والهة.
وقصصت عليهن، وأنا أبكى ، ماجرى لجدتى، فأسرعت الخالة تستدعى رمضان النجار فأقبل مهرولا ، وفى يده موس حادة فصد بها ركبة الجدة بعد أن ربط مافوقها وتحتها بحزامين غليظين، ثم ألصق شفتيه بالجروح الصغيرة يمتص منها دما يبصقه على الأرض مع السم الناقع، ثم انصرف

بعد أن أمرنا بأن نسقيها محلول السكر والليمون.

لكن جدتى لم تستعد صحتها أبدا بل مضت تذبل حتى غار خداها، وجحظت عيناها، واحمرتا، بل راحت يداها وساقاها تتراخيان حتى أنها لم تستطع أن تحركها.

وزارها فضل، وجاءت جميلة، رغم آلام الحمل، تسهر على رأس الجدة التى راحت تتكلم عن الدنيا الغرورة ومتاعها الزائل، وتنصح الشقيقتين نصح راحل لن يعود.

وأمرتنى مرة أن أستدعى لها الشيخ طه، فعدت به وهو يرسل سعالا حادا..ويبصق.. ويداه ترتعشان من آثار المرض الذى ألم به.

انحنى الرجل عليها يلمس جبهتها بيده الراعشة يحاول أن يهون عليها الأمر ويعشمها فى رحمة الله الواسعة.

وصبرت حتى خلص من دعائه ثم قالت: ياطه..لى رجاء عندك.

- قولى ياعيشة ونحن طوع أمرك..

فطافت بعينيها فى وجهه، وفى وجوهنا، ثم قالت بعد آهة أطلقتها:

- أقرأ سورة ياسين على قبرى يوم أموت.

فارتبك الرجل وقال: بعد عمر طويل. قالت: زارتنى روح أمى ومضت تقبلنى وتستدعينى إلي زيارتها فى بيتها الجديد، فعرفت أن الأجل قد دنا، ولافائدة ترجى من الدنيا..عليك ياطه أن ترعى حامدا..

وأن تمن على هؤلاء، وأشارت الى الشقيقتين والأم وأضافت: ببركتك.

وتنحنح الرجل نحنحة باكية راعشة وهمس: أنهم أولادى، ولكن لاتقولى كل ماتقولينه، بل أنا الذى أتمنى أن تروى أنت الصبار على قبرى حين أموت. لقد كبرت ولم تعد ساقاى تحتملان جسدي.

وأرسل سعالا حادا ملأ بالرذاذ وجوهنا، ثم دعا لجدتى بطول العمر وانصرف بعد أن لمس جبينها البارد بيده.

ومر شهر، ثم مات الرجل، فبكاه النجع، وخرجت القرية كلها تشيع جنازته، وأغلق الكتاب، فخلصت لجدتى أدلك ساقها، وأسند ظهرها على صدرى، وأسقيها محلول السكر وهى تبكى الشيخ طه وتترحم على روحه وتأمرنى بزيارة قبره بإبريق الماء لأصب الماء على الصبار عند رأسه وفوق القبر نفسه.

فاعتدنا بعد ذلك أنا وأش الله وصالح أن نزور المقابر كل صباح جمعة، نترحم على الرجل، ونقرأ آيات فوق رأسه والصمت، صمت الموتي يلفنا من كل مكان.

وعدت مرة لأجدها، مغطاة ببطانية ثقيلة، ومن حولها الأم واجمة وبطة بعد أن رحلت جميلة إلى بيتها لتعود فى صباح اليوم التالى.

كانت تتنفس بصعوبة، والبطانية من فوق صدرها ترتفع وتنخفض فى حركة دائبة ملأت قلبى بحزن ثقيل أناخ على صدرى بكلكله، فوقفت على رأسها أذرف الدمع وأمرتنى الأم، بنظرة، أن أقرأ شيئا، فمددت يدى ، ووضعتها على رأس الجدة.. ورحت أهمهم، وتريثت الجده حتى أنتهى، ثم أمسكت بيدى وهى تهمس فى صوت خافت متقطع: حامد، اقرأ سورة ياسين على قبرى صباح كل جمعة.

وزارها الشيخ فضل، والمأذون وأحمد عودة، وذرفوا دموعا حاولوا جاهدين أن يخفوها عنا ثم انصرفوا، وازدادت العلة عليها عند الظهر، وغشيت عينيها قتامة، حتى أنها لم تعد تميزنا إلا بأصواتنا، وواتتها صحوة أمرتنى فيها أن أستدعى أبى، فأسرعت وعدت به، فأمسكت بيده وراحت تهمس: لاتقم للحزن على وزنا ياأمين إذا ما جاء حسنين، يجب عليك أن تزوج «بطة» وإياك أن تغضب بنتى مرة أخرى، إنها مريضة.

وأطلقت يده، بينما مضى يقول: حاضر ياعيشة، على العين والرأس فأشارت إلى بطة، فدنت منها، وأمسكت بيدها، وهمست:

- أقسمى بحياة أمك ألا تؤجلى زواجك بسببى.
- لاتقولى شيئا ياأماه، ستعيشين، وأى فرح يحلو لي بعد أن ترحلى ياجدة؟.!

وبكت الفتاة ا فى حرقة إلا أن صوت الجدة عاد حازما رغم خفوته:

- احلفى يابطة بحياة أمك.

وازاء إصرار الجدة أقسمت الفتاة بصوت باك فاستراحت الجدة وقالت:-

- روحى ستزغرد لك من بيتى الجديد.. هناك فى الجنة!.

وصعدت بنظرها إلى السماء، ثم فاجأتها اغماءة أفاقت بعدها لتمسك بيد أمى وتهمس فى حشرجة بادية:

- إياك أن تتركى البيت لضرتك اياك!.
- لن أتركه، ألم أعش فيه معك؟. ألم نبنه معا طوبة بعد طوبة؟.

وأجهشت بالبكاء وهى تؤكد: لن أتركه لأحد.

- لاتتركيه حتى يأتى الطوفان.

فقالت الأم فى هلع: ولن تتركيه أنت يا أم.. ستعيشين فيه وتستردين صحتك. والطوفان! لاطوفان، زارنى شبيكة بالليل فى المنام، وبشرنى أنك ستعودين إلي قدميك وسخر مني حين سألته عن الطوفان.

- رحمه الله،، فلقد كان وليا يتكشف الغيب له!.

وعادت تمسك بيدى، وتطلب منى أن أقرأ شيئا على رأسها تخفف آلامها، فرحت أهمهم بالآيات التى حفظتها من نفس السورة التى طلبتها من الشيخ طه ومنى بعد موته، وطفقت هى ترمقنى فى إشفاق من خلال عينيها الذابلتين.

وأحسست وأنا أقول: حتى عاد كالعرجون القديم، أن يدها تتشنج على يدى، فتلفت لأراها ترتمى على الوسادة، وكأن رأسها قد انخلع عن رقبتها المعروقة ، ثم تراخت اليد، وأطلقت بعدها حشرجة هدأت بعدها .

وذهلت الأم لحظة أطلقت بعدها صواتا عاليا دوى فى النجع كله، ثم انكفأت على نفسها منزوية في الركن ترسم الخطوط المستديرة، وتذرف عليها الدموع فى صمت مستسلمة لاتفعل شيئا بينما الاقدام تتحرك من حولها.

أما أنا وبطة فقد انكفأنا على الجدة نطوقها ونتادى: أفيقى ياعيشة! لاتتركينا! حتى أقبلت الخالة، وأمرتنا فى حزم أن نتركها تستريح، فعبرت باب الدهليز، ومضيت فى الطرقات أبكى، والدنيا تخال لى جحورا مليئة بالسحالى والثعابين، وبت منذ ذلك الحين أكره الألوان البارقة بلون الفضة، وملمس الثوب الناعم اذا كان من هذا اللون تنزلق عليه اليد.

لقد ماتت الجدة صديقة الطفولة بسبب ثعبان، فلماذا خلقتنا يارب وخلقت الثعابين وكل هذه الهوام في نفس الوقت؟.

وبكى الناس عليها في النجع، وراحوا يعددون مآثرها، كرمها وتقاها وبرها على الفقراء!، وطفقوا يتحدثون عنها فى المأتم الذى أقيم لها أياما سبعة يزدحم فيه المعزون من النجوع الأخرى ومن «عنيبة» قرية أبيها حيث ولدت، لقد جاء هذا الأب الذى بلغ المائة أو تزيد من عمره يتلقى التعازى ومن حوله أشقاؤها!..

وتحدث الرجال فى اليوم السابع عن الطوفان والتعويضات، ثم عادوا إلى ذكرياتهم عن الشيخ طه، ومضوا يعددون أسماء الذين تعلموا على يديه، ويتكلمون عن صغارهم الذين يهيمون فى الطرقات بعد أن أغلق الكتاب، وتساءل الشيخ جعفر: ألا نستطيع فتح الكتاب من جديد؟.

وأجاب أبى: من الذى سيتولاه ويتولى الصغار بالرعاية؟.

فلابد من رجل شيخ يدير الكتاب، يتعهد بتربية صغارهم ، فالكتاب هو المكان الوحيد الذى يتعلمون فيه.

وكاد رأيهم فى نهاية الأمر يستقر على إرسالنا، نحن الصغار إلى كتاب الشيخ يعقوب فى إبريم، إلا أن الشيخ شليب أهل عليهم فى هذه اللخطة وألقى بالتحية ، وجلس إلى جوار أبي والشيخ فضل الذى لم يكن قد اشترك بكلمة واحدة فى المناقشة التى دارت حول الكتاب.

وفاجأته الفكرة فى اللحظة التى انتهى فيها شليب من تحية الرجال فصاح بها على الفور: الحمد لله، ليتول الشيخ شليب شئون الكتاب.

الكتاب فى بيت الشيخ طه، وشليب صهر الرجل: زوج ابنته، والمرحومان الشيخ طه وأبوه علما

الناس في نفس المكان، نفس الكتاب الملاصق لبيته.

ومن الحق أن شلبيا لم يختم القرآن، ولكنه يجيد القرآة والكتابة بخط حسن ويعرف الحساب. أليس تاجرا صغيرا ؟ سنتكفل بشئون بيتك، لاتخف ياشيخ.. هناك تلاميذ كبار يكونون عرفاء لك.

ووافق الرجل، وقرءوا الفاتحة معه. ومن غد يوم السبت يعاد فتح الكتاب، ولكن لابد من حصر جديدة لفرشها، حاضر.. سنعد لك هذه الحصر فى أسابيع قليلة.

وانتهى المأتم وحملنا ألوف القطع من الحصباء والزلط التى ترحمنا عليها منذ الصباح الى قبر جدتى. ثم عدنا واجمين من دار الأبدية تبلل الدموع عيوننا لنجد جابرا ينتظرنا فى الساحة الممتدة أمام المتجر..

رآنا فهب واقفا فى الحال، وأقبل علينا وحيانا وهو يقول:

- مبروك جميلة رزقت بولد...



وكرت الأيام، وتتالت الأسابيع والشهور، وانقلب الشتاء البارد إلي ربيع أخضر، ومع الأيام تأرجحت امال الناس، وتصوراتهم، بينما الأزمة تأخذ برقابهم وأسعارالبلح تنخفض، والمغتربون يملئون المقاهى فى عابدين ليل نهار لاعمل لهم، يرتزقون منه، يضيعون قروشا قليلة يكسبونها من « الظهورات» فى المقاهى وفي استطلاع ورق اللوتريا ».

وأخذت البواخر ترسو على المرافىء كالحة خاوية لاتحمل أملا مالقلوب الناس الذين اعتادوا انتظاره، وألفوا ترقب الرسائل عند مكاتب البريد ليعودوا إلى النجوع وأيديهم خاوية، فلا طرود ولارسائل، حتى أصبح ما عاشت داريا سكينة تشكو منه وتبكى له هم كل الناس منذ باتوا فى مجاعة حقيقية، فذبلت الوجوه، وراح الأطفال يلتهمون البلح المر قبل أن يصبح بسرا يستسيغ المرء مذاقه، وأرسلت الحكومة صدقاتها، بضعة أطنان من الدقيق الاسترالى،« العلامة » تنال منه كل عائلة حفنتين أو ثلاثا ، وغل التجار أيديهم فوق أن رفوفهم خلت من السلع،، ولم تعد أقلام الكوبيا تشطب إلا سطورا قليلة من دفتر الأستاذ و اليومية، وتكدس ماتبقى في رفوفهم من طرح وفوال وكريشة والسادة، وركدت سوق السكر والشاي إذ لم يعد معظم الناس يشترونهما ،

والذين يشترون الشاى يكتفون بشربه وقد وضعوا بين أشداقهم ثمرة بلح أو تمرتين يستحلبونها مع الشاى المر. تدر الشاى فى النجع، الشاى الذي أصبح أفيون الناس منذ ألفوه في الصبا وفي المهود.

وهل تأتى الطوبة فى المعطوبة؟ قد لاتأتى في كل مكان، ولكنها أتت فى معطوبتنا نحن فى هذه الأيام! إذ هجمت على القرى جحافل لاتحصى ، جيوش صفراء تطن فوق الروس، وتحط الرحال على الجريد والسنابل وتأتى عليها فى لمح البصر.
فمن الشرق ومن الجنوب ومن بين شعاب الجبال راحت أرجال الجراد توغل فى النجوع، وتحجب ضوء الشمس وتتهاوى على الزروع، ولاتبقى على شىء أخضر.

وتلقينا نحن الصغار فى النجع أرجال الجراد الغازية بالترحيب، ورحنا نطاردها ، ندق على الصفيح لأن آباءنا يدقون عليها ، ونشعل النار فى العاقول والحسك لأن أباءنا يشعلونها، ثم نقيم الولائم حولها ونزدرد الجراد الذى تتهاوى منه المئات والألوف فى النار لتحترق، فنقرمشها ونحن نرسل صيحاتنا المرحة، ثم ننقلب لنحزن كما يحزن الآباء.

ومع الطوبة التى نزلت فى المعطوبة أخذ الناس يتطلعون إلى الطوفان والى التعويضات، يتشوقون إلى الملاليم تشوقهم إلى الحياة نفسها، وأصبح الجدل حول تقدير عادل للتعويضات يخفت ليحل محله التطلع والتشوق إليها أيا كانت تقديراتها. لم يكونوا يريدون بالطبع أن يبيعوا أملاكهم بثمن بخس ولكن البطون الجائعة بدأت تهيىء العقول لقبول ما يأتى به القدر، فكيف يمكن لرجل مثل نوح تهرأت ثيابه وتعرت ابنته الوحيدة «مندوهه» أن يقاوم إلى أن ترضخ الحكومة لتقدير عادل؟.

وأدركت حكومة صدقى ما كان الناس يعانونه من تشوف وجوع؟. فأوغلت فى تعسفها، فاعتبرت تعويضات الوفد مبالغا فيها، ونهبا لأموال الدولة، فخفضتها إلي الربع، ومضت تلوح للناس بالجنيهات الخضراء.
وأحس ابناء القرى المتعلمون فى الدر، وفى القاهرة وفى كل المدن بما يعانيه الناس فى كل مكان من يأس وجوع، فراحوا هم ورسلهم بداية من رجال النادى النوبى، فقير والباقر، وعجيب وجمال والطرابيشى نهاية إلي الرجل الصامد في الدر: بدر افندى والمدرسون من حوله يكتبون البيانات أو يطوفون بالقرى. يحضون على المقاومة ، ويستصرخون الضمائر أن تفيق لنفسها وللمصير البائس الذى يعد لها- وبدءوا الاتصالات بالنواب والشيوخ، ونجحوا فى كسب عطف رجل منهم عمل مأمورا فى زمن مضى فى الدر فعرف الكثيرين من أبناء النوبة، وقف وحده فى مجلس الشيوخ يندد بتقديرات حكومة صدقى وتعسفها مع النوبين، واستغلالها المشين للأزمة الاقتصادية، فأعادت كلمات هذا الرجل- الشيخ أبو الفضل الجيزاوى- أملا كان قد خبا فى بعض

القلوب.

وباتت دواوين الحكومة تغص بالمتشفعين والالتماسات، وأصبح المستر هيس ملكا غير متوج يجلس في الجيزة على عرش مصلحة الري والمساحة، يسعى إليه الناس ليزيد من تقديرات تعويضاتهم، فيهش ويبتسم لهم، ثم يشير إلى الطرابيش، وكأنما يقول لهم: نحن الانجليز لاشأن لنا بمشكلتكم هؤلاء هم المسئولون، ويلوى شفتيه وهما تلوكان الغليون في حركة ذات مغزى، فيعودون خائبين، يصخبون ويجدفون ثم يغرقون همومهم في كئوس الطافيا إذا وجدوا الي ذلك سبيلا.

وبدأت الصحف لأول مرة تنشر صورا لنسائنا متشحات بالطرح، وصورا لنخيلنا ومرافينا..صور عجيبة.. كانت صور أناس وأشجار وبيوت يرين عليها البؤس الذى يرين على وجوه أشقياء حكم عليهم بالاعدام.

رغم هذه الهموم فإن النجع كان يمرح لحظات يعود بعدها إلي الكآبة، إذ يتزوج القليلون في قريتنا أو في القرى المجاورة الأخرى فيتناسى الفلاحون آلامهم لحظات يتراقصون فيها. ثم بدأ بعض الرسل يخطبون في هذه الحفلات، أحمد محمود والشيخ صابر والمحامى يدعون إلى تعويضات عادلة ومعاملة طيبة لحسين طه في سجنه.

واستمع «مداح» سودانى لهذه الخطب مرة، وبدت الحيرة في عينيه وهمس في أذن جاره: شنو يقولون؟.

- التعويضات يازول والطوفان.
- وأين تذهبون إذا ماحل بكم هذا الطوفان؟.
- نرحل هنا وهناك.

فصلى «المداح» السودانى على النبى وقال بعد تفكير عميق:

- السودان واسع ياناس، هناك في رحاب الميرغنى تجدون البركة والخير، فلماذا لاترحلون إلي السودان؟ حبابكم عشرة، الميرغنى ولد النبى يرحب بكم.

وانبرت الأصوات تصلى على النبى وعلى آله وتبع التابعين« رضي الله عنهم أجمعين «امين» إلا أن القليلين هم الذين استطابوا فكرة الرحيل إلى السودانى بينما دافع آخرون عن الهجرة إلي الصعيد، وصمتت جمهرة الناس وهزوا رءو سهم في أسى، أن مجرد فكرة هجر ديارهم كان يأكل قلوبهم، فيطوونها على غيظ، ويصمتون لايريدون ملاحاة ضيف، أو نزاعا يشجر بينهم أمامه.

وبدا أبى برما مهموما، فالدكانة توشك علي الإفلاس، ديونه تتراكم على الناس على أمل موسم جديد. وديون عبد الراضى مختار في أسوان والحاج على سلطان في بولاق تتراكم بدورها عليه ،وتنيخ على صدره وصدر أحمد عودة.

وكانت حجوبة قد بدأت تشترك في إدارة المتجر، فعرفت هموم الرجل عن كثب وراحت تبحث

عن حل. ويبدو أنها وجدت بعض الحل فى شخصي، فأشارت مرة بطرف خفى إلى وقالت تسأل أبى: ولماذا لايسافر حامد إلي مصر؟ لقد كبر.

ودهشت أنا، وقلت لماذا أسافر؟ أنا لاأريد الالتحاق بالأزهر.

فقالت وعيناها تومضان فى خبث: اطمئن وسافر، ولاتدخل الأزهر.

قلت: وهل التحق هناك بالمدرسة مثل التى فيها مصطفى؟.

قالت، وبعد أن تفرست فى وجهى وقاست بنظرتها طول قامتى: بل ستعمل هناك مثل كل الناس، وترسل طرودا إلى أبيك.

وعجبت من حديثها فإننى لم أكن قد فكرت فى مصر من هذه الزاوية الغريبة،أن اشتغل مثلما يشتغل جمال، أن أتوه فى مصر مثلما تاه، ورغم أن مصر ارتفعت فى عينى وهي تحدثنى، بلدا غارقا فى بحار النور، وفي أردية قصيرة على أجساد النساء، فإننى كرهت مصر، وبدت «الدر» ومدرستها أجمل منها ألف مرة، فقمت حانقا، وعبرت باب المتجر إلى الساحة، والتقيت بخالى وارتميت عليه أبكي، فربت على رأسى فى حنان وطمأنني وهو يقول: لاتشغل نفسك، فلن تشتغل فى مصر كما يشتغل جمال، بل ستذهب إلى المدرسة إن شاء الله ومسحت هذه الكلمات بعض شجونى فقبلت يده وهو يبتسم لى فى طيبة ورقة بالغة تعود أن يعاملني بها منذ أن ماتت جدتى.

***

ومرت شهور، واستحال البلح لأخضر فاحمر، ونمت عيدان الذرة، ونا ت القناديل، فتفتحت الامال فى قلوب الناس، ومضوا يتطلعون إلى السماء خشية أن تهجم أرجال الجراد من جديد، وراحوا يتناقلون، وهم يتطلعون إلي السماء خشية أن تهجم أرجال الجراد من جديد، وراحوا يتناقلون ، وهم يدبون على الطريق بين حقول الذرة أخبار التعويضات لقد خفضت إلى الربع، ولكن مازال القرار الرسمى بها لم يصدر بعد، والأخبار تترى عن قانون لنزع الملكية ستصدره الحكومة مصحوبا بهذا القرار الرسمى عن التقديرات الأخيرة للتعويضات، ولم يعد بركات أفندى يجوس الديار بدفاتره، فقد سجل كل شيء ولم يعد له عمل فرحل، والناس يقولون إن أفندية آخرين سيحلون بالقرية بعد أن يصدر هذا القانون ليصرفوا التعويضات.

وفى انتظار صدور هذا القانون نشط بدر أفندى، والرسل يكتبون الشكاوى والعرضحالات، ونشط المأذون والمحامي ويرعى فى النجع يحضون الناس على توقيع هذه الشكاوى.

وحل الخريف وضم الناس محصولا جيدا، وجاء الموسم، ودخل الحلب قريتنا من جديد، والتقى حسن المصرى بأخرى غير فكيهة، وسار كرنفال الغوايش والمزامير بين النخيل، ثم رقدت الأرض تستريح وتسعد للشتاء.

وبينما أعود مرة فى أصيل يوم من الحقول ، التقيت بالشيخ شليب على دابته، فحاولت أن

أختفى ، لكنه لمحنى واستدعانى اليه، فأقبلت ألثم يده، ووجدنى ساهما فقال: أمازلت تبكى جدتك ياولدى؟ رحمها الله. ولماذا أنت حزين؟. عوضك الله عنها خيرا فى أبيك وأمك، قلت إن حجوبة عادت تتحدث عن سفرى إلى مصر، قال : حدثنى خالك عن الحاقك بالمدرسة، وقد نهيتك عشرين مرة عن التفكير فى هذا الموضوع، أبوك نفسه لايرضى بذهابك إلي مصر لتشتغل، فمازلت صغيرا.

ومد يده إلى رأسى وفرك بها شعرى، ثم سأل: وأين برعى؟ هل رأيته فى مكان ما؟ أبحث عنه، وإذا وجدته قل له إنني والشيخ صابر ننتظره فى الدكان.

فمضيت أبحث عن برعى ، ومازال حديث الشيخ يطن فى أذنى، والتقيت فى الطريق بسعدية تعود من طريق النيل وعلى رأسها «كوبيه» نحاسى يبرق فى ضوء الشمس الغاربة وتسيل منها قطرات على نحرها فيلمع، وعلى صدرها فتبل ثيابها.

ومن خلفها كان البسطاوى يسوق بقرة خاله الجزار، يتبعها باسما ويبدو أنهما- هو وسعدية- قد التقيا على الشاطىء بين النخيل بعيدا عن العيون، فقد تطورت العلاقة بينهما حتى أن أم سعدية بدأت ترى فى البسطاوى زوجا لابنتها.

وسألت سعدية: هل رأيت برعى عند النيل؟.

قالت: لا.وأضاف البسطاوى: يقولون أنه ذهب إلى الجبل. فتذكرت فى الحال غزوات برعى للجبل يبحث عن الثعالب، فقد أشيع أن داء شريفة لاعلاج له إلا إذا أكلت لحم ثعلب جبلى يشوى على نار هادئة فلم يعد برعى فى الشهر الأخير يلقى بالا إلى المناقشات الدائرة عن التعويضات، بل أخذ على عاتقه مهمة البحث عن هذا الثعلب واصطياده ليكون شفاء لشريفة حبيبة قلبه على يده هو.

لقد ضمر برعى وأصبح الدمع دائما يتألق فى عينيه، كلما تحدث الناس عن مرض شريفة الذي لاينتهى، فقد تحولت المسكينة الى عود هش يكاد يطير إذا ما نفخت فيه، وراحت حالتها تزداد سوءا على مر الأيام، فها هو الربيع قد تحول الى صيف قائظ تحول بدوره الى الخريف دون أن تقوم من رقادها الطويل! وجدير ببرعى وهو يرى فتاته تذبل أن يذرف الدمع، وأن يسعى هنا وهنالك ابتغاء وصفة أو تميمة عند الناس ، أو لصيد ثعلب برى، ثم يعود من رحلاته ليطل عليها فى هلع فتشفق عليه وتهمس:

- ماذا تريد منى؟ يابرعى؟ ها أنذى أموت؟

فيذرف الدمع، ويتنهد، ثم يشيح بوجهه، ويخرج ، لينفلت على السفوح، وفي يده شرك كبير وفى جيبه خنجر حاد.

التقيت به عائدا من الجبل، يحمل ثعلبا بريا يسيل الدم من رقبته فأنهيت إليه أمر شليب، فهمس وكأنه يمشى فى مأتم: سألحق به فى الحال.

وحينما دلف برعى إلى الدكان، كان الرجال يتحلقون بالشيخ شليب والمأذون يطالعون فى أصوات خافتة مرتعشة أرقاما اجمالية عن التعويضات كانوا واجمين يثقل الحزن رؤ وسهم وقلوبهم وهم يطالعون الوقائع المصرية.

وصاح أبى ويده تدق على بنك الزنك:

- إذن فقد عملها الداهية!

وحملق خالى فى النخيل عبر باب المتجر وقال:

- لعنة الله عليه.

وبصق الجزار فى اتجاه الشمال،وسوى عذبته حول أذنه اليسرى وهتف: حكم الله ولاراد لقضائه، فانبرى الشيخ صابر يقول: قضاء الله يارجل؟! هذا ليس قضاء. الله عادل رحيم، وتردد حموى وأضاف كل شئ مكتوب، والمكتوب لازم تشوفه العين، وانفجر الشيخ جعفر، مكتوب، مكتوب أن نموت يارجل؟.. لاياشيخ..ليس الله ظالما.. أما الشيخ فضل فقد ربت على ساقه الخشبية ذات الحدوة الحديدية وحملق فى وجوه رفاقه وفى عينيه نبرات غضب، فقد كان يكظم غيظا يهد الجبال، بل وبدا وكأنه يريد أن يصرخ، أن ينطح شيئا ما بدماغه، أن يضرب أحدا بساقه الخشبية، أن تطول أظافره الى مخالب يود لو غرزها فى رقبة أحد الناس، بينما أقبل المحامى وألقى نظرة على الأرقام، وصاح

-انا دككنا الجبال دكا دكا! فبأى آلاء ربكما تكذبان؟!

وحملق فى وجوه الآخرين ثم قال: ألم أقل لكم؟ ثم انتزع ورقة من فوق زنك البنك ومحبرة وقلما وأخذ يكتب محموما والرجال يلتفون به كل يقدم اقتراحا.. ومضي هو يكتب ويكتب لايأبه بثرثرتهم حتى أوفى على الصفحة، وشرع يقلبها ليكتب على ظهرها فاستمهله الشيخ فضل بعد أن حبا قليلا اليه، ثم أنشب أظافره فى الأرض، وعاد بيده محملة بالتراب يتجه به إلي الورقة لينثره عليها حتى يجف الحبر، لكنه تريث وعرج به على أنفه يتشممه قليلا مقطب الجبين، ثم ترك ذرات التراب تتسرب من بين أصابعه فى تؤدة وصبر حتى غطت الصفحة بينما المحامي ينتظره فى صمت ودهشة.

ومن بعيد ، من بين نخيل نجع «السوارداب» كانت بعض الدواب تدنو من الساحة، وعلى ظهورها رجال بملابس متباينة ،ترجلوا مباشرة أمام باب المتجر كان بينهم الرجل ذو الشارب الطويل والقامة النحيلة وقد استبدل بالبدلة جلبابا من الحرير الأبيض بياقة تنسدل بأذنين مدببتين على

جانبى رقبته، وكان فى عينيه نفس الإحساس بمرض عضال لايفيق منه، ولكن ما من شيء آخر تغير فيه، فالسجن لم ينل منه.

ترجل هذا الرجل- بدر أفندي- ومن خلفه نفس الشيخ الذي فرك شحمة إذن الغلام فى الدر أمام المدرسة، ومن خلفهما الشيخ ياسين.

وانبعثت المدرسة إلى مخيلتى حين رأيت الشيخ مرسى، وظننت أنهم أقبلوا للحديث مع أبى بشأنى وبشأن المدرسة، وأيقنت أن مسعى حجوبة وما تعده لى من مصير سيخيب فى هذا المساء، ألا أن ذلك لم يكن مقصدهم في تلك الأمسية.

وهب الرجال وقوفا يرحبون بالضيوف، ويفسحون لهم مكانا رحبا على دكة عالية مرتفعة على يمين البنك، ثم أديرت فناجين القهوة فمضوا يتحلبونها في هدوء، ثم انكبوا من جديد على الوقائع المصرية إلى أن طواها بدر أفندى، وقذف بها على البنك، وهو يصرخ: هذا هو الظلم بعينه ظلم لايرضى الخالق ولا المخلوق.

وتفرس فى عيون الناس وهم يستمعون إلى الشيخ مرسى يقول:

- يجب أن نقاطع لجان التعويضات حين تجيء فلانصرف مالم تعدل التعويضات.

وهز الناس رءوسهم بينما استطرد بدر يقول:

- الوقائع تقول أنها ستنشر القانون في عدد آخر، وستنشر أسماء أعضاء اللجان، عما قريب سيأتون ، ويجب علينا ألا نتعامل مع هذه اللجان فما رأيكم؟أمنعوها بالقوة عن صرف مليم واحد.

وهز المأذون وبرعى رأسيهما فى إعجاب شديد بالرجل الذى عاد يسأل من جديد : مارأيكم؟ ثم أطرق لاينتظر إجابة، فقد كان يعرف طباع القرويين، فإنهم مجاملون وقد يقولون : نعم. فتكون الإجابة التى يقصدونها ، كلا وقد يهزون رءوسهم فتكون علامة الرضا ،!.

ورمق الرجل، في دهشة، ساق الشيخ فضل وحدوتها الحديدية فسأله عن حاله. وأجاب الرجل يشكره، ثم مد يده وكبش فى التراب وعيناه تبرقان فى نبرات غاضبة تعبر عن اليأس والحزن.

وبين دهشة الضيوف وحيرتهم ، رفع الرجل يده وهتف فى صوت دوى فى النجع: اللهم لانسألك رد قضائك، بل نسألك اللطف فيه.

٣٢

وأخيرا جاء يوم قررت السماء أن تبتسم فيه لداريا سكينة وابنتها شريفة، فقد أبلت هذه من علتها ، وأخذت تسترد نضارتها ، وبدأت الغمازتان ترتسمان من جديد على خديها وتكسبانها جمالا يأخذ القلوب ، فيشرع البسطاوى يحوم حولها من جديد ! فصدته فى قسوة ، وبدأت سعدية رغم ذلك تظن بها الظنون ، تتهمها بأنها تتصيد البسطاوى منها .

ودون جدوى .معت بطة وبخيتة بينهما .

وعادت داريا تأمل أن يعود جمال، فان الباخرة أخذت تصب فى القري بصنوف من العائدين رحلوا منها منذ سنوات طويلة ، ولكنها كانت تعود فى كل أسبوع تندب حظها ، وفى هذه الأمسية كانت درايا وابنتها عائدتين إلى بيتهما من المتجر بعد حساب عسير بينهما وبين أبى عادتا واجمتين تتساندان ، وبينما هما تحاذيان الخرابة الملاصقة لبيتهما قفز بينهما شئ صرختا اذ لم تتبيناه فى غبش المساء لأول وهلة ، وظنت شريفة أن البسطاوى يقتحم طريقهما ، وظنت درايا أن غولا قد خرج عليهما من الخرابة فشرعت تطلق صرخة داوية إلا أنها حبستها ، فقد عرفته من صوته : واحد .. أحد ، صمد ، ومن الشعر الغزير المنسدل بين فخديه ، فأطمأنت بالا ، وابتسمت له فتتبعهما على عقبيهما حتى دلف معهما إلى الدهليز ، فطاف بكل جدار ثم توقف عند كرباج طويل لم تغيرا مكانه منذ أن رحل جمال ، فانتزعه وطرقع به فوق رأسيهما ، وطلب زيتا دهن به على الكرباج وأعاده الى مكانه ، وانفلت خارجا لا يستجيب لندائهما فلبثتا صامتتين تتأملان رسم قدميه على الأرض ، وتحدقان خلفه ، ثم ارتمت الأم فجأة بين أحضان ابنتها وهى تهمس من بين الدموع : شريفة تذكرنا الله . سيرسل جوابا .

ولم تلفظ باسم جمال ، لكن الفتاة أدركت ما تعنيه أمها فقالت : ليته أرسل يا أماه ، ليته ... فكم أنا مشتاقة الى أخباره .

وربتت الأم على كتفها وقالت : بل سيطلق البيضاء يا بنيتى سيطلقها قلت لك سيطلقها .

وراقبتها الفتاة عن كثب ، ثم قالت ، بشكل فجائي ، : لماذا لا تقولين يا درايا انه سيعود ، فشدت الأم من قامتها ، وعجبت كيف لم تواتها هذه الفكرة قبل شريفة ، لكنها احتضنت الفتاة، ثم مضت تتحرك فى البيت تحجل وترقص وتترنم : سيعود ، قلت لك سيعود يا شريفة ، أما رأيته يطرقع بالكرباج فوق رأسينا ؟

وبدأتا تنتظران الباخرة فى لهفة ، ومع كل باخرة كانتا تفقدان الأمل وتستسلمان لليأس وتعودان إلى العبوس والبكاء فى اشفاق من الأحداث التى كانت تتالى ، أحداث تتطلب سواعد الرجال .

****

واستدارت الشمس ثم لفظ عام ١٩٣٢ أنفاسه الأخيرة ، وولد العام الجديد ، وعند مولده ، فى ضحى اليوم الأول منه غصت دار العمدة بالناس من كل نجع ، والدار فسيحة يتصدرها دهليزان ينتهى أحدهما بالسلحليك ، والدهليز الأول فرشه العمدة بالعنجريبات والكنبات المكسوة فى ألوان زاهية ساذجة وبكراسى الخيزران تتوسطها ترابيزة من الخشب الأبيض عليها مفرش أبيض لم يتبقع بعد .

وعلى طول حائط الدهليز - وفى هذا اليوم بالذات كانت أوراق عريضة معلقة اقبل الناس يطلون عليها بأمر العمدة يقرءون فى أصوات عالية أسماء سكان النجوع ، ويقرءون أمام كل اسم رقما .

ونادى أحدهم على اسمى وهتف : منزل ، أربع غرف مسقوفة فى حالة جيدة وحوش واسع ، اثنان وثلاثون جنيها ، ونودي على جمال ابن درايا سكينة : منزل خمس غرف وحوش واسع غير مسقوف ، أربعة وعشرون جنيها ، وقيراطان بالحوض القبلى بنجع الزينية ، عشرة جنيهات ، مائة وخمسون نخلة ، ثلاثون جنيا .

وتتالت الأسماء والأرقام ، والقرويون يهزون رءوسهم ، ويمصمصون شفاههم ، بعضهم كاسف البال حزينا ، وبعضهم بهروا بالأرقام والجنيهات التى ترن فى الدهليز ، جنيهات كاملة لم يلمسوها بأيديهم منذ عشرات السنين ، وها هى تسعى إليهم ، اذن فالديون ستسوى والأطفال سيكتسون والزيجات ستتم .

هؤلاء بدءوا يتطلعون فى لهفة إلى تعويضاتهم كعلاج لجراح غائرة فى صدورهم وبطونهم فمتى يصرفونها ؟

وبين هؤلاء كان يتجول رجل من القرية المجاورة ينظر اليهم فى ازدراء ، هذا الرجل توقف أمام الجزار ، ورمقه بنظرة قاسية ، ثم رفع يده يسكتهم ، فأصاخوا السمع إلى كلماته ، يالهم من بلهاء أهذه هي التعويضات التي تتشوقون إلي صرفها ؟ مجانين ! بيوتكم وأشجار نخليكم وسواقيكم وقبور موتاكم .. كل هذا مقابل لا شئ ؟

فصاح به الجزار : وماذا نفعل يا وابور ؟ وصرخ حموى : يا سيد أحمد وابور قل لنا ماذا نفعل ؟! الفلوس حلوة ونحن مدينون للتجار، الفلوس تمشى الينا برجليها ثم نرفضها ؟ أهذا كلام يا وابور ؟ فرمقهما الرجل فى احتقار وصرخ من جديد : مجانين . أنتم مجانين ، فساد الهرج من حوله ، وانبري برعى والمأذون يصرخان في الناس.

ويشقان طريقهما إلى الرجل ليقفا إلى جانبه . وهتف برعى متذكرا كلمات الأستاذ : يجب أن نقاطع التعويضات .

واعتلى المأذون مصطبة الدهليز ومضى يقول : أتدركون معنى هذه الأرقام ، النخلة بعشرين قرشا والغرفة بأربعة جنيهات والفدان .. يا هوه فدان الطين بأربعين جنيها !

وفرك الناس عيونهم ، ولجأوا إلى وابور يستفسرون منه عن تفاصيل الأرقام .

وابور هذا رجل متفتح الذهن ، رحل كثيرا ، ولابد أن يفهم المرء هويته من اسمه ، فهو مولع بكل أنواع الماكينات والبوابير ، فهى شغله الشاغل ومدار أحاديثه فى القريتين : قتة وابريم ، كان يدور دائما على المصاطب والساحات ، وفى جيبه عينات من التراب يتفرس الناس فيها فيقول لهم : هذه عينة حديد تراب من حديد أسوان «وهذ هو تراب الذهب من جبل العلاقى» . وقد بلغ شغفه بالماكينات حدا جعل الناس يلقبونه بسيد وابور وهو صاحب الطاحونة الوحيدة المنتصبة فى بداية ابريم ، تطحن الغلال ، الكيلة بتعريفة أو بيضتين .

تراه دائما وفى جيبه ،إلى جانب العينات ، قصاصات من الصحف عليها صورة آلات وماكينات ، وهو يحلم دائما بالمشاريع يقيمها من أموال المنكوبين ، هنا طاحونة ، هنالك جاراج لإصلاح السيارات في إحدى المدن ، وقد تشترون أسهما فى الشركات ، وقد تدقون الابار الارتوازية فى الجبال التى تنتقلون اليها ، وقدتتعاونون وتقيمون طلمبات المياه فى قراكم الجديدة.

كان ينام ويحلم بهذه المشاريع ، ويصحو ليتحدث عن الماكينات والبوابير حتي لقبه الناس بسيد وابور .

هذا الرجل الذى ساد الهرج بسبب كلماته انفلت مرة أخرى يسب الحكومة ، ويلعن أهل القرية الغافلين ، ويبين لهم مدى الغبن الذى أوقعته الحكومة بهم ، كل التعويضات يا ناس ثلاثة أرباع المليون جنيه . ،أشجار النخيل التى سجلت تبلغ وحدها دون البيوت والأرض مليونا وسبعمائة ألف .

وحار الناس فى الأرقام ، ولكن احدهم قال : أى والله صحيح .. النخلة بأقل من عشرين قرشا فعلت الهمهمة ، وتصايح الناس ، وارتفع صوت برعى من جديد : يجب أن نقاطع التعويضات .

- وكيف نقاطعها ؟

- لا تذهبوا الى مكان صرفها .
- واذا جاءوا الى بيوتنا ؟
- أغلقوا الابواب فى وجوههم .

وجاء العمدة يطلب منهم الهدوء ، فانصرفوا إلى الساحة أمام الدار ليجدوا المحامى يصرخ : عملها اللص ابن الكلب ، لابد من رفع قضية على رئيس الحكومة ووزير الأشغال ، فتطلع وابور اليه فى سخرية ، وأمره فى هدوء : خذ أقرأ هذه الورقة ، فمرت عينا المحامى على الحروف المطبوعة وأحس أن الدنيا تظلم أمام عينيه ، لقد صدر القانون رقم ٦ لعام ٣٣ وبمقتضاه تنزع ملكيات كل الناس ، قانون يتلوى فى بنود كثيرة أخذ المحامى يتلوها فى صوت مرتعش ، ليس من حق أحد أن يرفع دعوى على الحكومة بسبب نزع الملكية ولا بسبب تقدير التعويضات .

- وماذا نفعل إذن ؟
- نشكو إلى الله ، نشكو إليه سبحانه وتعالى .

وأشار وابور اليهم يطلب الصمت ، فواصل المحامى قراءة الكلمات المطبوعة على الورقة ، ومن حق الناس أن يتظلموا إلى مهندس الرى المختص وإلى لجنة إعادة التقدير ، فانفرجت بعض الاسارير ، فقد ادركوا أن فى وسعهم أن يتظلموا ، ثم انصرفوا متفرقين وجماعات والحيرة مرتسمة على وجوههم.

واتفق المحامى وسيد وابور على كتابة هذه التظلمات ليرسلها الناس موقعة باسمائهم إلى لجان التظلم فى أسوان أو فى الجيزة حسبما نص القانون ، وفى الطريق التقي وابور بداريا سكينة مطرقة ساهمة ،ورفع يده اليها ورفع رأسها وهويقول : مالك ياخالتي؟ فلم تجب بل أجهشت بالبكاء فقال: ألم يصلك جواب من جمال يا خالتى ؟ فقالت : اناس جميعا يعرفون مصيبتى وخيبتى في ولدي ، فلماذا تسألنى يا وابور ؟ كم أحبه ! سجلت كل شئ باسمه ، فقال : ومن الذى يصرف تعويضاته إذن ؟ قالت في اعتداد : أنا داريا ، سأصرفها .
- لا يجوز ذلك فقد كتبت كل شئ باسمه كما تقولين .
- ولكننى أمه والعمدة يعرف ، كل الناس يعرفون أننى أمه داريا بنت سكينة عثمان زوجة المرحوم أبيه .

فضَحك الرّجل وقال : الحكومة لا تعرف شيئا من ذلك ، ولن تصرف التعويضات الا لجمال ، فنظرت اليه في ارتباك وحيرة ، ثم شهقت ولطمت خديها ، وهى تهمس فى كلمات متقطعة : عَبيطة .. طول عمرك عبيطة ياداريا .. رحت كالهبيل وسجلت كل شئ باسمه،باسم جمال الذى لا يعود . جمال الجاحد ، القهى يا جمال .. لكنها كفت عن الدعاء عليه ، والتفتت إلى وابور الذى كان فى هذه اللحظة يسير إلى جانبها وقالت : لكن العمدة سيقول للحكومة أننى أمه ، فقال فى هدوء: صدّقينى يا داريا لن تصرف الحكومة شيئا إلا له أو لك إذا ارسل توكيلا باسمك.

وأحست المسكينة أن الدنيا تحاربها ، فانطوت على نفسها تبكى وتعول والمأذون يواسيها بكلمات طيبة ، وينصحها بأن ترسل له فى مصر بسرعة تشرح الأمر له ليعود ، أو ليرسل توكيلا، وانطلقت هى تركض إلى بيتها ، بينما مضى المأذون وبرعى يتهامسان ويبحثان الطريقة التى يمنعان بها الناس من صرف تعويضاتهم ، وكعادته صاح برعي : نمنعهم بالكرابيج ، سنقف لهم فى الطرقات والعمدة نفسه سيكون معنا .

وحين دلفت أنا من باب الدهليز فى الأصيل وجدت داريا سكينة وابنتها شريفة فى بيتنا تنتظران عودتى ومعهما البيضاء الست أم زين .

وتهللت أسارير الأم حين رأتنى ، وأقبلت على ترجونى أن أجلس فى الحال ، وأسطر لها رسالة إلى حسين النجار فى مصر ، فانتزعت ورقة من الكراسة التى أكتب فيها ، ومضيت أكتب بلغة متكسرة رسالة استرحام كلها دموع تمليها البيضاء على قلمى كلمة كلمة : أمك داريا سكينة ترجوك يا جمال ، يا فلذة كبدى ، ترجوك أن تعود ، داريا لا تريد شيئا منك ولا شريفة ، كل شئ سجل بأسمك فى دفاتر التعويضات والتعويضات لن تصرف إلا لك ، أمك يا جمال تنتظرك فى كل أسبوع على المحطة ، وتعود حين لا تجدك ، وتبكى طوال الليل بين أحضان شريفة . أمك يا جمال تحبك أكثر مما تحبك زوجتك ، فكتبت فى دفاتر الأفندية كل شئ باسمك ، البيت وأشجار النخيل والقيراطين المرهونين ، أمك يا جمال تنزل كل يوم إلى شاطئ النيل وتدعو لك ، وإذا كان قلبك لا يطاوعك أن تترك زوجتك وتعود فأرسل توكيلا ، وسوف أتسلمه وفى العين دموع وفى القلب حرقة يا جمال .

ملحوظة : شريفة كانت مريضة وشفيت والحمد لله وتهديك ألف ألف سام .

وعلى الظرف : مصر ، عمارة بحرى : حسين النجار .. بواب مصر المحروسة .. بدوح ١٢٤٨ .

٣٣

- لا يا جمال ..إليك عنى فإنك لم تعد تحبنى .. والأ لوجدت عملا .. وأشاحت بوجهها ، وحدقت فى الجدار ثم أردفت : اتركنى أعود لعملى ، ثم لملمت بأناملها خصلات شعر تناثرت على الخدين ، ومضت تغالب الدموع ، وتندب الحظ العاثر الذى أوقعها فى جمال الذى كان فى هذه اللحظة يجلس على سرير تهرأت مرتبته تغطيها ملاءة بيضاء نظيفة تشوبها زرقة خفيفة ، يتأمل وجه زنوبة التى مضت تغمغم بعد أن ارتفعت إلى السرير وفى يدها قطعة كبيرة بيضاء من العجين تلصقها هنا وهناك على الحائط تتصيد حشرات البق .

كان يفكر فى حبه وغرامه الجارف لزنوبة ، الحب الذي لم يهدأ بعد زواجهما فرفع رأسه يرقب جسدها هياما بها وهى تتحرك بيديها فوق رأسها ، فيبرز النهدان يتحديان القميص البمبى الذى حبست فيه جسدها الفاتن ، ورغم افتتانه بالجسد الفائر فان الارهاق كان باديا على ملامحه السمراء كما ارتسم يأس لا نهاية له فى عينيه .

فقد أخذت المسكينة تركب أعصابها وتثور لأتفه سبب ، وقد اشتبكا بعد دقائق فأعملت أصابعها فى عنقه تخربشه وأسالت الدم من منكبه ، ثم راحت تدق على صدره كما يدق الناس على باب موصد وتصرخ بين دقة وأخرى .

- جمال ، طلقنى يا جمال !! لم أعد احتمل هذه الحياة.
- زنوبة ، اعقلى يا بنت ، حكمى مخك.
- وأين مخك أنت ؟ حكمه إذا كان لديك .
- لو كان فى دماغى مخ لما تزوجتك وتركت كل أهلى .
- أهلك وهل لك أهل ؟ ولماذا لا يساعدونك ؟

فأمسك بها يحتضنها فتطامنت وقالت : ثم إنك لا تتركنى ، تأخذك الغيرة فتأبى أن أعود إلى عملى فى مصر الجديدة ، فى قصر الباشا ، القصر كان مباركا علينا نحن الاثنين ، ألم نتعارف هناك يا جمال ؟

- عيب يا زنوبة ، أنت حرمة وأولاد الحرام وأولاد الباشا كثيرون وأخشى عليك منهم .
- تخشى على منهم ولا تخاف من الجوع ولا من البهدلة.

وصمتت لحظة ثم أضافت :

أتذكر يا جمال متى أكلنا اللحم آخر مرة ؟

- اصبرى يا زنوبة ، اشتريت اليوم ورقة لوتارية ، لعلها تكسب ونأكل ما نشتهيه .
- هئ هئ يا دلعدى ، لوتارية ، موت يا حمار ..
وشهقت وحدقت فى وجهه وأردفت :
اياك يا جمال . لماذا تأكل عيناك مصاغى ؟ .. اياك ..
- لا شئ يا زنوبة انما امتع نظرى بصدرك الفاتن .

ومد يده إلى الرمانتين ، وأضاف : تبارك الخلاق يا زنوبة.
فصاحت فى يقظة : نعم يا سى جمال . كل مخى بحلاوة ، صدرك وتبارك الخلاق ثم المصاغ ! .. جحا أولى بلحم توره يا جمال . حجا أولى يادلعدى .

وابتسم الفتى وتطامن ، فقد كان يعرف أنها تحبه ، وانها تستطيع أن تضحى بكل شئ فى سبيل حبها ، وليست مشاجراتها الا أمرا طارئا بسبب تعطله وسرعان ما تفيق من شجارها لترتمى فى أحضانه ، فيداعب بأنامله صدرها وشعرها الناعم الجميل ، لقد اعتزم اليوم أن يبيع مصاغها وأراد أن يفاتحها لولا هذا الصراخ المتصل الذى بادأته به ، فقرر أن يسلك طريقه من خلال ذكرياتهما الحبيبة فمضى يتغزل بسذاجته الريفية فى كل ذرة من جسدها وهى تزداد صمتا ثم تغرق وتغوص فى ذكريات ليال دافئة أمضياها معا فى غرفتهما هذه وفى بيت الباشا قبل أن يتزوجا .

وألقت بقطعة العجين جانبا ، وغسلت يديها ، وارتمت إلى جانبه على السرير ، فأيقن أن فرصته سانحة ، فمال عليها وطبع قبلة على جبينها فتبسمت ، وكأنما تدعوه إلى ثغرها ، فضمه بين شفتيه ثم مضي يهمس :

- عدت تلوين بوزك .. خبرينى بالله : أأنت فى حاجة إلى هذا المصاغ ؟ جيدك عاريا أحلى عندى .. المصاغ يحجب عن العين نضارة بشرتك الصافية ، ومعصماك عاريين فيهما من الجمال فوق ما تتصورين ..
وقام إلى الحائط ، وعاد بمرآة رفعها أمام عينيها وهمس :
- اخلعى هذا المصاغ وانظرى .. جربى .

فنحت يده ، وتنهدت ، ثم لفت عنقه بذراعيها ، ورفعت رأسها قليلا عن الوسادة وقبلته وهى تقول : لا يا جمال . كله الا المصاغ ، فراح يهمس : فداك عيونى يا زنوبة ، عما قريب أجد عملا، وحين ذاك اشترى لك أضعاف هذا المصاغ ، أنظرى ، أليس من الموضة القديمة ، بلدى ؟وساد الصمت لحظات مضت زنوبة تفكر فيها مقطبة جبينها. ثم قفزت في خفة، من السرير إلي الأرض، وعقدت البرقع والعروسة. النحاسية المذهبة على أرنبة أنفها ، والتفت بملاءتها ، وراحت تخطر

امامه ثم توقفت وهى تقول:

- افتح فمك مثل العبيط ، لماذا تجلس هكذا تتفرج على ؟ قم واستعد للخروج .
- إلى اين يا غزالى المحبوب ؟
- إلى الصاغة .

فقفز قلبه وشعر أن جوعه قد انتهى ، فقام على ساقيه واحتضنها وهى تتملص منه فى دلال ، ثم صفقا باب الغرفة البغدادلى خلفهما ، وتركا معروف ، وعبر ميدان سليمان باشا ، ثم العتبة ، وعرجا على شارع الأزهر ، والفتى الأسمر يتلفت حوله فى حذر يترصد عيون الناس السابحة على جسد زوجته ، ويكظم الغيظ حين أخذ الاطفال يصيحون من خلفهما سيب النعجة يا خروف .. أما هى فلم تعد تأبه بمثل هذه المشاغبات ، بل كانت تسر بها وترويها فى الليل على مسامعه.

وازداد غيظه وهو يستمع إلى صبيان المقاهى يتندرون بلونه ، ويشبهونه فى ردائه الابيض ببرغوث غاص فى كوب لبن ، وينعطفون نحوها يمطون شفاهم فى قبلات يرسلونها على الأثير : محبة فى النبى ..

وتنقلا من صائغ إلي آخر ، ساعة كاملة عادا بعدها وقد تعرت هى تماما من حليها تمشى إلى جانبه حزينة تفكر فى مصيرها مع جمال ، هذا الفتى الأسمر الذى تحبه ، والذى ساء حظه فلم يعد يجد عملا ، انه يحبها حب العبادة ، مقطوع لها فهو لا يعرف أهله ، ولا يزورهم منذ تزوجها ، ولا يزورونه ، وليس هو الملوم ، فقد أجبرته هى على هذا مستغلة جمالها وحبه العارم ، بل لقد حالت بينه وبين الاختلاف إلى مقاهيهم ضنا بالقروش التى يكسبها من شغل الظهورات ، واذا كان جمال لا يوافق على عودتها إلى قصر الباشا فمن فرط حبه لها وغيرته عليها ، وتبا للعمل فى قصور الباشوات ، أبناؤهم شياطين ، لديهم بنات صديقات وفلوس ، لكنهم يتعرضون حتى للخادمة ، وبالذات إذا كانت جميلة مثلها ، وما زالت هى تذكر الإبن الأكبر للباشا حين حشرها فى المطبخ يريد أن يعريها ، ويعبث بها وهى تقاوم ولا تصرخ خوف الفضيحة ، ثم دخل الطباخ فأنقذها منه ! والابن الاصغر وأبناء العم كلهم أرادوا أن يعبثوا بها ، ولولا الصدف العارضة لنالوا منها ما يريدون ، أما الآن فانا ست لها زوج يصونها من كل بهدلة ، لعنة الله على الجوع .

وتساءلت وهما ينعطفان عند العتبة ، ترى أكنت على حق حين قطعت ما بينه وبين بنى عمه ومقاهيهم ؟ انه يحبهم ويحبنى ويعانى من مقاطعته لهم ، ويتألم كلما تذكر دارياو شريفة ، لو كان على صلة بهم لساعدوه فى محنته .. كنت عبيطة .. حتى حسين الذى نفحهما جنيها عمل عملته السوداء مثل وجهه، وغيب فى الليمان يقطع الحجارة مثل زوج خالتى .

كنت آمل أن يتوسط أبوه عند البيه فيجد عملا لجمال . المغفل كان يظن أننى أغريه ،

كان ذلك واضحا في عينيه .. مسكين .. ظل أمينا على شرف جمال رغم كل ذلك ، وكم كدنا أنا وجمال نموت في جلدنا بعد أن قبض على حسين ، لقد استخدم قفطان جمال فى ارتكاب جريمته ، لكن الحادث مر بسلام ، وأثبت حسين انه جدع والحمد لله .

راحت تجتر أفكارها صامتة ، وجمال يدب إلى جانبها ، يفكر فى حظه العاثر الذى ألقى به فى براثن هذه المدينة العاتية ، أما كان الاولى بى أن أعود إلى أمى وإلى شريفة التى ربما تكون قد كبرت ؟ كم يحن اليهما وكم تتعذبان بسببه ! ، فقد قطع رسائله عنهما ارضاء لزنوبة ، سأرسل لهما دون أن تعلم ، وما زال يغيظه انه لم يثبت بعد فحولته بمولود وحدق فى وجهها فوجدها ساهمة ، فوضع يده على منكبها وهتف ، الصبر يا ست .. الصبر وعما قريب يأتى الفرج ، فلم تجب بكلمة واحدة الا انها انعطفت بوجهها اليه ، وتبسمت ومضت تتأمله ، كانت قد عبرت بخيالها مجاهل لا تعرف عنها شيئا الا من احاديثه الطويلة عن قريته وأمه وشقيقته وتذكرت فى هذه اللحظة أمها التى ماتت وهى تعمل فى القصر العينى تمورجية، ماتت من «الموراتزم» وراحت تتساءل، ترى ما شكل أمه؟ وهل شريفة خفيفة الدم مثله؟. أم تراها تعفر شعرها مثل لداتها، هنا فى عابدين، بالرائحة الكريهة، رائحة الصندلية. ؟

ولاتدرى لم أحست بالإشفاق عليهما فى هذه اللحظة ،مسكينتان إننى أتعذب من البؤس الذى أعيش فيه، فما بالهما هناك فى آخر بلاد الله؟. لابد أنهما جائعتان جوع خالتى فى البلد بعد أن سجن زوجها أرسلتا جمالا ليعمل فى البيت حيث يقيم أودهما، وها أنا قد أجبرته علي قطع علاقته بهما، مرة واحدة استطاع حسين النجار بواب عمارة بحرى أن ينتزع جنيها منه أرسله لهما، مسكينتان، رحمة الله عليك ياأمى كنت تنصحين النساء دائما بحب أهل أزواجهن، حسين النجار لايعرف أننا فى معروف منذ عزلنا من شبرا.

وأحست أن قلبها ينز بالألم والإشفاق على أمه وشقيقته، فتفرست فيه ورأته مهموما طال وجهه وعبس، إنها تكرهه حين العبوس، فميزة جمال الوحيدة هى خفة دمه ومرحه ورجولته، أتراه غاضبا عليها بسبب أمه؟. وفجأة ،وكنتيجة لتقلب نزواتها، قررت أمرا طوت عليه صدرها ، قسمة ونصيب ، الفقر يذل الرجال ، لعنة الله على الفقر. وكادت أن تسر اليه، وهما فى الطريق ، بقرارها الجديد، ولكن جمالا لكزها قبل أن تحرك شفتيها وهمس: تعالى ندور حول جنينة الأزبكية من الآخر فنختفى من وجه حسين النجار فإنه يغذ السير إلينا، وحانت منها التفاتة إلى الخلف، فرأت الرجل يلهث وراءهما، وكادت أن تسرع الخطى إلا أنها أثارت دهشة جمال حين أخذت تتمهل فى مسيرها، بل تجره إلى الخلف وهى تهمس: لماذا نهرب منه ياجمال؟ عد إلى أهلك.إننا لم نسرق.. فهمس فى عجب: أعود إلى أهلى..ماذا تقصدين؟ أتركك وأعود إليهم؟ مجنونة. قالت: كلا..سنختلط أنا وأنت بهم. إنهم لم يسيئوا الينا فى شىء..أنا التى أساءت إليهم..سامحنى ياجمال..

وأطل حسين النجار عليهما، وهو يصرخ فى لهاث: يابنى آدم، أنا دخت عليك، بحثت عنك أسبوعا كاملا فى كل مكان حتى رأيتك هنا فى ميدان الأوبرا خذ..

وعبث فى جيب الصديرى وأخرج جوابا، فتوقف جمال ليقرأه بينما اتجه حسين النجار إلى زنوبة يحييها، فلاقته بطرف باسم، وقالت: لافائدة من القراءة فى الطريق، تفضل إلى مسكننا فى معروف..تفضل..

وألقى جمال نظرة جانبية عليها تعبر عن الدهشة والعجب ثم ساروا فى صمت حتى عبروا ميدان سليمان باشا، ودخلوا معروف، وارتقوا السلالم، وبلغوا حجرة البغدادلى فوق سطح العمارة.

وأعدت هى فنجانين من الشاى، واتكأت على السرير تستمع إلى حديثهما عن البلد، وجمال مازال ممسكا بالجواب. ثم فضه ومضى يقرأ والدموع تتألق فى عينيه حتى أوفى على غايته، فاعتمد رأسه بين راحتيه غارقا فى أفكاره لايلقى بالا إلى الرجل ولا إليها، فتقدمت منه واختطفت الجواب، وفحصت خطه المتعرج، وتأملت كلمتين أذابتهما قطرات الدموع، فرق قلبها ومضت إلى نهاية الغرفة، وتوقفت إلى جانب المرآة الصغيرة فبدت وكأنها تتأمل وجهها هناك، إلا أنها مدت يدها إلى صدرها، وأخرجتها بمنديل صغير مطوى فضته، وعادت تدفع بجنيه كامل إلى يد جمال، وهى تهمس فى صوت متهدج: أكتب لهما ياجمال، أرسل لهما أن زنوبة ترسل لهما هذ الجنيه، «هه ياعم حسين ماتقول؟».

وفغر بواب عمارة بحرى فاه، وعجب من تغيرها المفاجىء، فزال الحقد من قلبه وتنهد وقال: بنت أصل.. الرك على الأصل..

وهمس جمال: سأرسله لكنهما تطلبان عودتى. ولافائدة من البقاء هنا، ولن أغيب إلا شهورا أصرف فيها التعويضات ثم أعود، مبلغ كبير ولن يصرفه غيرى أو أمى أذا أرسلت لها توكيلا. مارأيك؟ أم تسافرين معى. خير لنا أن نسافر معا.

فتفرست هى فى حسين تقرأ على وجهه مايجول فى خاطره، فلم تتبين شيئا، وانثنت إلى زوجها تثبت عليه نظراتها، فإنها تعلم ماالذى يدفعه إلى مثل هذا الحديث، أن تسافر معه، لماذا يريد أن يحملها معه إلى آخر بلاد الله؟ إنه يغار عليها ويخشى أن تعود إلى قصر الباشا، إلى الذئاب كما تعود حسين طه أن يسميهم، وقرأت الإصرار فى وجهه ولكنها قالت بعد صمت: ياه، بلدك بعيدة ستة أيام سفر بلياليها! وردد الضيف من بين أسنانه: لتكن فرجة وفسحة ياست،

فضحكت معجبة بكلمة ست هذه، فكشفت عن ثناياها البيضاء، وقالت فى دلال وقور: ولكن

هل يسرهما رؤيتي ياعم حسين؟. قال : سبحانك مادام جمال يحبك ياست. ثم سكت الرجل موقنا أنه يكذب.فهما لن ترحبا بها وإن كانتا ستكرمانها إكرام الضيف حبا في جمال..

وتركهما الرجل بعد حين، وتريثت ريثما سمعت وقع خطاه على السلم يتلاشى فمدت يدها تخلع حذاء جمال، وتدلك قدميه، وتدغدغ باطن القدمين إلى أن تعالت قهقاته، واستثير فنهض يدفعها في صدرها، وفار الدم في شرايينه وهي ترتكن على السرير وأحس بخدر لذيذ حين احتكت أنامله بجسدها البض وبالرمانتين اللتين أثقلتا صدرها البديع، وهمست في دلال: لاياجمال ليس الآن، ولكنهما رغم ذلك اندلقا على السرير، ثم مضى الهمس بينهما يملأ الحجرة الضيقة بسحر غاصا معه في غيبوبة ارتشفا من خلالها كأس الهناء، ثم غرقا في النوم وقد تشابكت الصدور.

الذين قـرأوا اسمـاءهم وهم في دار العـمـدة وأخـذت بألبـابهم المئـات بدأوا يفيقون ويحسـون أن حيـاتهم كلهـا ، أن الأرض التى عشقـوها منذ الصبا ، وأشجار النخيل والبيوت لم تعد لهم، وأن الحكومة من يكيد لهم، فبات الواحد منهم يسير فى الطريق الذى يشق المزارع من الشاطىء إلى السفوح الشرقيـة ويتأمل ذرات التراب التى تشكل شريحتـه من الأرض، ويتنهد كما يتنهد إنسان رقد ابنه الوحيد على فراش الموت، ويعد على أصابعه ما يجتنيه كل عام من أرضه ومن كل نخلة يملكها ، ويعقد المقارنات بينها وبين تقديرات الحكومة لأثمانها فيحس بالغبن، ويشعر بالثورة والعجز في نفس الوقت، ويسرى فى كل بدنه احساس بأنه يستغفل، فتجحظ عيناه،و يتفرس فى شريحة الأرض والنخلات من جديد، ثم يلقى بنظرات ساهمة غاضبة فى اتجاه الشمال.

فهكذا شق الشيخ جعفر وأحمد عودة وأبى «أمين كلثومة» هذا الطريق، يسيرون في تؤدة لأن الشيخ فضل كان يمشى معهم بساقه الخشبية فى حذر وبطء، فإن ملتقى هذا الساق بالفخذ أخذ منذ فترة يسبب له ألما يثير فيه إحساسا بالإغماء.

سار بينهم ووجهه يطالع الرجال في ذلك الأصيل من شتـاء عام ١٩٣٣ بمشاغل كثيرة فوق آلامه تعتصر قلبه وكأن نصلا حادا قد غاص بين ضلوعه..وبدا منظرهم وهم يسيرون في صمت منظر أناس عائدين من المقابر، فقد زموا شفاههم لايتكلمون، بل يحدقون فى عيدان القمح النامية وشجيرات الفول المتمايلة وفى الأفق البعيد.

وبدت شفاههم وكأنها صمتت منذ لحظة قصيرة فهى منفرجة قليلا، ولعلهم تكلموا كثيرا، ووصلوا إلي نقطة يحسـن لهم السكوت عندها، أيقـولون لا أم يقـولون نعم؟ أيرفـضون صرف التعـويضات أم يقبلون؟ كل واحد منهم يصمت فى انتظار أن يدلى الآخرون برأيهم ليزن الأمور علي حقيقـتها. أيمشون فى ركاب بدر أفندى وأنصاره أم ينكصون على أعقابهم فى منتصف الطريق؟. ومـاذا يكون مسلك الحكومـة؟ أتجرهم إلى زنزانة المركـز فى الدر كـمـا فعلت ببـرعى والمأذون والأفندى نفسه أم أنها ستترفق بهم احتراما لحرمة السن والمقام؟.. وهل يجديهم فيما هم فيـه مـا يطالبـهم به الأفندى وبيـانات النادى فى مـصـر والاسكندرية؟ علي بك أبو زيد ليس من رأيهم. أما الاخرون فـيسيرون فى ركاب الأفندى ويحترمون رأيه ولكن يبدو أن الأفندية، وهم الموظفون الذين يضمنون راتبا شهريا، لايدركون حقيقة الأمور. فالفلوس شحيحة ومابـاليد حيلة، والجراد وسوء المحصول وانخفاض أسعار البلح والمجاعة. كل ذلك الذى يدفع الناس فى كل النجوع والقرى فيـوشكون للرضوخ، كل ذلك لايدركه الأفندية ولايحسون به. إنهم يمنون الناس بتـقدير أسخى لممتلكاتهم إلا أن الفلوس المعروضة ليست فى علم الغيب بل فى متناول اليد، فيـغلق التاجر أمين كلثومه وأحمد عوده وكل تاجر آخر فمه حين يستوفى ديونه، ويشطب قلم الكوبيا ولأول مرة منذ عشرين سنة اخر سطر فى دفتر الأستاذ واليومية حتى يقضى الله أمره.

كل واحد منهم كان يفكر بطريقته الخاصة. فالشيخ أمين وأحمد عودة كانا يفكران في ديونهما. سوف يستوفيانها على داير المليم وزيادة إذا ما صرف الناس تعويضاتهم ولكنهما ، فى الوقت نفسه، يعرفان مافى التقديرات من إجحاف وغبن فيتأرجحان، ويصمتان طويلا، ولايدليان برأي ما خشية أن يغضبا الآخرين.

ولأول مرة منذ قطعوا حديثهم صاح الشيخ جعفر فى نبرة غاضبة: ملعون أبو الدنيا وماعليها! فالتفت اليه أبى فى تحفز وكأنه أمه هى التى لعنت وصرخ: استغفر ربك ياجعفر، فإرادة الله ستكون. الله يارجل.. ولم يذعن جعفر بل مضى يجادل: الله..الله..دائما تقولون الله..إنه رحيم بعباده ولايريد بنا الشر. فازداد وجه فضل تجهما، وتأمل في الرجلين وهو يكز على أسنانه دون أن يقول كلمة واحدة بينما انطلق الجزار يقول: لن يكون فى وادينا ربيع أخضر، ثم صمت كأنما يفكر وأردف : والعلف اليابس لايجدى، من أين أذبح لكم؟ ونظر إليه أبى فى عجب وهمس كأنما يردد لنفسه: بع لنا لحما ميتا كما فعلت منذ شهور! فغضب الجزار، وصاح: لحم ميت! حرام عليكم ياهوه، أأنا مسلم أم نصراني؟ والتفت الشيخ جعفر وأضاف: اللحم كان جملى وبطة الغشيمة لم تعرف كيف تطبخه، وعلى أية حال كل اللحوم ستكون ميتة بعد الطوفان!!.

وبدا واضحا أنهم يفيضون فى الحديث عن أى شىء غير النقطة التى توقف عندها حديثهم. أيقبلون أم يرفضون، رغم أن المسألة ملحة وعاجلة؟. لقد سمعوا« الشيخ صابر» يخطب الجمعة فى كلمات ومعان متصلة بحياتهم ترددت لأول مرة فى جامع القرية. تكلم عن الظلم ومقاومته، وتحدث عن عمر بن الخطاب، إلا أنه فى نهاية الخطبة ردد آية احتار هو نفسه فى تفسيرها وتكييفها حسب المناسبة: « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ». فمن هم هؤلاء المتفرون؟ ولامترفون ولاحاجة ياشيخ صابر. قالها النجار وقالها العمدة وقالها هو بعد حين.

لقد اعتادوا حل مشاكلهم ، مشاكل القرية فى براعة، إلا أنهم اليوم يواجهون مشكلة معقدة، وعقول الأفندية وحدها كما زعموا هى الكفيلة بحلها ، وليت «حسين طه» نجح فى اغتيال صدقى باشا لاستراحوا اذن من تصديع الأدمغة ولتلاشت المصاعب.

الشس تذهب خوص النخيل وتصبغ السماء بشفق أرجواني شفاف ينعكس فى إيقاع جميل مع النسمات الرطبة التى نلفح وجوه الرجال. وهناك تحت الصخرة المعلقة على كتف الجبل فى محاذاة النتوء الشرقى شوهد طابور من الدواب يتحرك تنوء بحملها الثقيل، ومن حولها رجال يحملون أثقالا أخرى، ومن خلفهم الخفر والجنود. وبدت على ظهور الدواب والرجال مكاتب ومناضد ومفارش وأسرة وصلت فى الرفاص منذ الضحى وأفرغت عند النتوء فى الظهر، وعلى ظهر جمل استقرت خزانة حديدية ثقيلة تسهر عليها بنادق مشرعة فى وجوه الناس الذين تجمعوا علي

عتبات البيوت يرمقونها بعيون ذاهلة. هنالك الفلوس، على ظهر الجمل، فلوس التعويضات، رجل قصير القامة أشيب الفودين، عيناه تختفيان خلف عوينات سميكة يهبط بها إذا ما أراد تحديق البصر إلى أرنبة أنفه، وظيفته رئيس لجنة التعويضات. مضى رفاقه ينادون عليه بألقاب مختلفة: الأستاذ غطاس بيه. غطاس افندى . سعادة البيه.

وغابت القافلة عن العيون، لكن الرجال لم يتحدثوا عنها بل حار فى أذهانهم سؤال لم يلفظوا به: ماالذي يراه العمدة في كل مايدور حوله وفى لجنة الصرف التى تمضي لتستقر فى دواره؟ هو والمشايخ لم يقولوا كلمة واحدة إلا الشيخ جعفر الذى مضى يصيح فى كل مكان: يجب أن نفعل شيئا ، ولايسميه، ولكن أين هذا من رأي يبديه العمدة؟ أليس رأس أكبر عائلة فى القرية أن قال نعم قالت العائلة معه نعم، وإذا ما نهى انتهت عن كل شئ، ولكنه لايفوه بكلمة واحدة، بل يزم شفتيه، وإن كان البعض، الذين يفهمون، قد أدركوا من تلمحياته وحركاته أنه يشير عليهم بمقاطعة الصرف.

واشتدت حيرة الرجال. وهم يراقبون الخزانة الثقيلة تهتز على ظهر الجمل، وتمشى كأنما علي قدمين لتستقر فى بيت العمدة، وأمعنوا النظر فى وجوه بعضهم دون أن يقولوا كلمة واحدة، التقيت بهم عند البقعة التى تعلو فيها الأرض لترتفع إلى السفوح، وأقبلت عليهم فتلقانى أبى بوجه باسم ووضع يده على رأسى وقال: أين كنت؟ قلت : كنت عند مصطفى افندى! فقطب جبينه وغمغم: أفندى! مرة أخرى عند مصطفى! ألم أقل لك عشرين مرة؟ الشيخ شليب يشكو منك مرة أخرى. وألقى نظرة فى اتجاه خالى وأردف: أصبح بليدا منذ التقائه بهذا الولد.

وتمنى الشيخ فضل نفسه أمنياته القديمة، وتحدث عن الأزهر والجبة والقفطان الشاهى اللذين سأعود بهما ليتحلقوا بى دروس الدين، فأحسست إزاء ذلك بنفور شديد، بل شعرت بالدموع تقفز إلى عينى، وأدرك أحمد عودة ماأعانيه فدفعنى من ظهرى وهو يقول: عد إلى البيت، كلا يافضل أنه لايريد الأزهر، وغمغم الجزار: يريد إذن أن يكون فلاحا. ولكن لن تكون هناك أرض ياولدى حامد!!

ومال الشيخ فضل إلى الأرض، وأنشب فيها راحة يده، وعاد بها تحمل حفنة من التراب تركها تتسرب من بين أنامله فى اتجاه الريح، وتمعن خالى فيما يفعله وهمس فى صوت حزين: ستقتلك الأرض يافضل، فقال هذا: إنا إليها راجعون. وواصل أبى حديثه معى: بهرتك المدرسة ياحامد، وأضعت سنة بحالها دون حفظ، بل إن الشيخ يقول إنك تنسى ماحفظته.

وفكر قليلا ثم أردف كأنما وجد حجة قوية: والمدرسة فى الدر أغلقت ، ولاندرى متي يعيدون فتحها: يقولون أن الحكومة ستنتهز فرصة الطوفان وتغلقها إلى الأبد. وهمس خالى : لعلهم يفتحونها بإذن الله.

وزاد الأمر وضوحا حين أكد: على كل فإن إغلاق المدرسة هو ما يتخوف منه الشيخ مرسي.ولكننى كنت في عنيبه بعد وفاة عيشة ورأيت رجال الحكومة يبنون المدرسة والمركز والمحكمة والسوق فى أرض فضاء بين عنيبه ومصمص.

وقبل أن أتحرك لأعود رمقنى الشيخ فضل باسما وسألنى:

أتصرف التعويضات ياحامد أم ترفضها ؟ فضحك الجزار وسأل: إنه صغير ما شأنه بالتعويضات؟ وردد الشيخ فضل: البيت الكبير مسجل باسمه. ونظر إلى الجزار في حسد وهمس: إذن فأنت غنى؟ فأرسل أبى ضحكة خافتة وقال: الغنى غنى النفس ياعبد الله.. ثم لكزنى خالي بيمينه وهو يردد السؤال نفسه، وتذكرت أنا كلمات برعى والمأذون وبدت المسألة جلية فى مخيلتى، مسألة بسيطة أهتف بها كما هتف بها برعى لكننى تريثت، فلم أكن أعرف رأي أبى وخالى فحرت فى أمرى ، لم أكن أحس بالأزمة التى يعانيها الرجل، ولم أعرف أن المتجر على وشك الإفلاس. كل ماأدركته هو أن الرفوف تخلو يوما بعد يوم وأن المنازعات تتزايد بين التاجرين وعملائهما. وقد أحسست مرة بنفور شديد من أبى يوم صحبنى معه إلي بيت داريا سكينة يطالبها بالديون، أصر على اقتياد كل ماالستطاعت تربيته من معيز فى موسم الذرة فلم يبق لها ولابنتها إلا واحدة كانت شريفة تدللها وتسميها معزتى..معزة لامعة الشعر بغرة بيضاء على الجبين. يتدلي من فكها الأسفل عثنون صغير كسا وجهها بوقار مضحك. حتى هذه كان أبى يريد أن يأخذها، فبكت الفتاة، وراحت تستعطف، وانضممت اليها حتى تركها أبى، ثم انصرف وهو يصرخ فيهما: كتر خيرنا. احمدا الله. وداريا تجيب فى كلمات متعرثة: كلها أيام ونصرف التعويضات ونسدد كل الديون ياأمين..

تداعت هذه الصورة فى مخيلتى، وهم يرددون السؤال الذى لم يستطيعوا الإجابة عليه، ثم برز برعى أمام عينى وهو يردد: التعويضات قليلة. فأخذت أجول بعينى على وجوههم فوجدت خالى مايزال يبتسم لي وينتظر اجابتى علي سؤاله. فعزمت وقلت: ارفض صرف التعويضات، فضحكوا جميعا دون تحفظ.. ثم ردد أبى: يالكم من صغار لاتدركون من أمور الحياة شيئا. وقاطعه فضل. إنهم هم الذين سيلحق بهم الضرر ياأمين، فقد عشنا حياتنا، أما حياة حامد والصغار فهى التى تتأرجح اليوم على كفة الميزان.

وأحسست بالاعتزاز، فقد أصبح لى رأي أقوله تماما مثل الكبار.

وشعرت بالامتنان لأمى التى أصرت على تسجيل البيت الكبير باسمى فلولاها لما سألنى أحد، هل أقبل صرف التعويضات أم أرفضها ؟ شجعتنى كلمات الشيخ فضل فقلت دون وجل: أنا لن أصرف التعويضات إلا إذا زادوها مائة جنيه. ونظرت إلى الجزار وقلت: أما أنت ياعم عبد الله فيمكنك أن تصرف مادمت تريدا. فانطلقوا مرة أخرى ضاحكين، وانكفأ الشيخ فضل على الأرض إذ أفلتت ساقه الخشبية منه حينما اهتز جسده بالضحك، فأسرعوا اليه وأقالوه من عثرته، فاتجه لى ، وربت بيده على رأسى وراح يردد: عفارم ياحامد، ولد من صلب ولد. باسم الله ماشاء الله،

وكأنك بدر أفندى لاأزهر ولاحاجة ابعث به إلي المدرسة ياأمين.

فتجهم أبى، وانتهرنى، وذكر الرجال بقصة ضاربة الودع التى أكدت أنني سأقف أمام المحاكم ثلاث مرات، فصرخ فضل الماساوى يقاطع أبي: حرام عليك يا أمين، كذب المنجمون ولو صدقوا.

وانشغلت أنا عنهم بتصوراتى للمدرسة الجديدة والمصاعب التى تقف فى طريقى إليها، وكنا قد بلغنا الطريق التى تنتصب أعمدة البرق على جانب منها، فتوقفنا قليلا عند الشونة نستمع إلى صوت المؤذن يدوى من فوق منذنة الجامع خلف بيتنا، فأخذ الرجال يتمتمون بالدعاء، ثم انصرفوا إلى الجامع، بينما انصرفت أنا إلى المتجر حيث كان « اش الله » يباشر العمل.

وعاد الرجال من الجامع، وبينما كانوا يهبطون فى الدرب المتعرج أقبلت داريا سكينة عليهم متهللة تتطاير طرحتها من حولها فتكسبها صورة غامضة، كانت تصرخ: جواب ياشيخ أمين. جواب من جمال ولدى! ومن خلفها كانت شريفة تسرع لتلحق بها وعلى وجهها شك وخوف. لعلها كانت تفكر فى المأساة التى طالعتها فى أول خطاب تلقياه منذ عامين، وانتهي أحمد عودة من قراءة الرسالة على ضوء فانوس، فأطلقت داريا زغرودة ملأت النجع كله، ثم احتضنت ابنتها، ومدت يدها بالحوالة إلى أبى وصاحت:

أعد لى معيزى يا أمين كلثومة. لقد أرسل جمال وسوف يرسل فى كل شهر..معيزى ياأحمد عودة. وصمتت لحظة، وتناست معيزها تماما ثم قالت: سوف يعود يا أمين، فالرسالة كانت تقول إنه يفكر فى العودة، ولأول مرة عرفت داريا وشريفة مدى حبه للبيضاء التى تصيدته فى مصر، ووجمتا عندما علمتا أنها هى التى أرسلت الجنيه لهما.

وكما أن للحزن دموعا فإن للفرحة دموعا مضت تسح على وجه شريفة وهما تعودان إلى دارهما فى خطى راقصة.

وأطلت بطة من الباب عليهما تسأل ما الخبر؟. فجذبتها شريفة إلى صدرها وهي تهمس: تعالى لنسهر سويا. سأساعدك فى إعداد ثيابك فلا تعتذرى بها.

وسرى الموكب الصغير يطلق الزغاريد، وعرف النجع كله أن جمالا أرسل جنيها كاملا لأمه «داريا سكينة».

الساحات والمصاطب والمتاجر ومكتب البريد فى كل قرية تحولت إليمنتديات صاخبة يتجمع فيها الناس، ويتحدثون عن اللجنة وغطاس بيه وأمثاله فى كل مكان. لكنهم وكعادتهم، كانوا لايطرقون الموضوع مباشرة بل يدورون حوله بأمثال شعبية يتعسفون فى نسبة بعضها إلي النبى، وقد تسبقها على شفاه البعض : قال سبحانه وتعالى، ثم يرددون طرفا من أخبار مصر، يرددونها بأسلوب يجعلك تعتقد ألا صلة بينها وبين مايعانون، ثم يتوقفون عند مشارف المشكلة، ويظلون إلى ساعات متأخرة من الليل يحجمون ويقدمون حتي ينفذ صبرهم..

وفى الصباح يمرون على دار العمدة، ويطلون على مقر اللجنة، ويستعيذون بالله من الشيطان الرجيم. ويتمنون على الله أن ينهى عذابهم الذي بدا أزليا لايزول.

وفى هذه المنتديات دار برعى والمأذون والمحامى ووابور كما يدور النحل، واليها قصد غطاس بيه مرة بعد أخرى ومعه رفاقه يحاور القرويين ويداورهم ليلة بعد أخرى. كان يتنحنح ثم يبتلع ريقه، ويهبط بعويناته إلى أرنبة أنفه، ويعيد عليهم تلاوة القانون رقم ٦ لعام ١٩٣٣:

- القانون يامحترم يقضى بنزع الملكيات نزعا كاملا إلا فى توماس وتوشكى غرب وأبو سبمل وبلانة وأرمنا، هذه البلاد لن يكون النزاع كاملا فيها، ولن يصرف إلا نصف التعويض، وهى البلاد التى ستقام فيها مشاريع صيفية للرى، على حساب النصف الثانى يامحترم.

- وبلدنا ياأستاذ ؟.

- البلاد الأخرى مثل بلدكم تنزع ملكيته نزعا كاملا، وتصرف تعويضاتها كاملة، ولكم الخيار فى الرحيل إلى أي مكان تفضلونه، أو البقاء هنا على الجبل.

ويصمت قليلا، ثم يهز عويناته على أرنبة الأنف ويستطرد:

- والحكومة ستساعدكم فى الانتقال إذا أردتم. فيقول الشيخ فضل: ولكن التعويضات قليلة، فبماذا تشير علينا ياسعادة البيه؟.

فيخلع الرجل نظارته يمسح عليها بمنديل، ويشرح: حسب القانون يامحترم من حقك أن تتظلم إلى لجنة المساحة، وسوف تكون معنا هنا لجنة تظلمات خاصة.. صبرك بالله..دعنى أشرح لك..بعد أيام ستكون معنا هذه اللجنة قبل الصرف الذى سيتم بعد أن تسوى كل الحسابات.

وتدخل المحامى هنا فى غلظة: ولماذا لانرفع الدعوى على الحكومة نفسها ؟ ومتناسيا الكلمات المطبوعة التى تلاها على الناس بنفسه؟.

ولايميل القريون إلى رأيه، فإنهم لايدركون كيف يمكن للمرء أن يتجرأ ويرفع دعوى علي الحكومة نفسها، فيوجهون اليه نظرات مؤنبة وكأنما يقولون: أسكت ياشيخ، جعلت رقابنا مثل السمسمة أمام البيه! ثم يعلو صوت رئيس اللجنة- غطاس بيه- القانون يامحترم يحرم ذلك، لكن

المحامى لايقتنع بل يكابر: انا أعرف القانون أفضل من معرفتك له فيضحك الأفندية فى أدب ليواصل رئيس اللجنة حديثه: لايامحترم: القانون يؤكد أنه ليس من حق أى كائن أن يرفع دعوى على الحكومة بسبب نزع الملكية أو تقدير التعويضات. الدعاوى ممنوعة!.

ويسود الهمس والهمهمة ثم تعلو الأصوات فيهز غطاس أنامله فى وجوههم محذرا.اسكت يامحترم. استمع لكلامى أفيد لك. لكنهم لم يسكتوا بل صاح صوت.. فماذا نفعل إذن؟ يا.. يامحترم من حقكم أن تتظلموا . عشرين مرة وأنا أردد هذا الكلام..نعلم فى المتبلم.

وسكتوا موقنين أنه ليس أمامهم إلا أن يحرروا التظلمات كما فعلوا من قبل، وأن ينتظروا الرحمة من السماء وإعادة التقدير من المستر هيس ومهندسيه. وبدا التذمر واضحا على وجوههم، فركب الخوف كل الأفندية فعادوا أدراجهم ، وتلكأ العمدة يطالع وجوه الناس، ويتركهم يطالعون وجهه، ثم تبع الموظفين فى خطى مسرعة.

وأحس الناس أنهم يغوصون فى اليم عند دوامة هائلة لاتلوح لهم فيها حتي قشة تافهة يتعلقون بها. أحسوا أنهم تائهون فى صحراء لانهاية لها . صحراء من الأحاجي والألغاز والأرقام وبنود القانون ومختلف اللجان.

رلحق سيد وابور الأفندية عند مصطبة أخرى، ووقف يستمع مليا إلى أحاديثهم، ثم هتف بالناس: إذن فليس أمامنا ألا أن نعتصم أمام اللجنة، ونرفض صرف العويضات. وفى انتظار ذلك علينا أن نغرق اللجان ورجال الحكومة بتظلماتنا.

فهز غطاس بيه يده محذرا . ثم بارح المكان الي مصطبة أخرى ونشط المحامى ورفاقه في هذه الأيام فكتبوا التظلمات ودفعوا بها إلى أسوان والجيزة، وأخذ بدر أفندى يحل في هذه القرية أو تلك، ساعة يحرض الناس على مقاطعة الصرف ويكتب لهم نماذج جديدة للتظلمات.

وجاء يوم كانوا يتوقعونه، وفيه بينما الرجال يعودون بأبقارهم وفئوسهم متجهين من الغيطان إلى السفوح الشرقية في غبش المساء، دوى صوت فى النجع ينادى عليهم : يا أهل الزينية ! فركزوا الفئوس على الأرض وأصاخوا السمع: يأهل الزينية. ثلاثة أيام وبعدها، فى يوم السبت اذهبو جميعا إلى بيت العمدة. وماذا سيكون فى بيت العمدة؟. كانوا يعرفون الإجابة، لكنهم كانوا يتساءلون على إجابة أخرى تنحدر اليهم من السماء، وظل الصوت يتردد فى النجع: من يوم السبت صباحا ستبدأ اللجنة فى صرف التعويضات، فانطلق السؤال يتصاعد إلى الأدمغة، انفجر كما ينفجر البركان : أنقاطع أم نصرف التعويضات؟ نصرف ونتكل علي الله! لايابن الكلب نمتنع.أنت ياداريا لن تصرفى قبل أن يعود جمال فاسكتى. إياك ياعبد الله ،إياك أن تفعلها..

صبرك بالله..ماهى إلا أيام حتى تقبل الحكومة زيادة التعويضات!

وخرج الشيخ فضل من بيته بعد أن سمع النداء، وأخذ يدب بساقه الخشبية فى الدروب، يطرق باب كل بيت، ثم عاد وتربع فى الساحة الممتدة بين المتجر والشونة ينتظر حتى أقبل الناس عليه، فطفق يشرح لهم أهمية مقاطعة اللجنة، أعرف أن الجوع كافر، لكن في إمكاننا أن نصبر أياما، الديون! سينتظر الشيخ أمين عليها.. لاتخافوا. الحكومة لن تعتقل أحدا إلا إذا كان وحده. وماله؟ السجن للرجال..وهل يضيع حق وراءه مطالب؟ امتنعوا عن الصرف وسيتم كل خير بإذن الله.

وهز الناس رءوسهم هزات اعبترها فضل «رضا» وسر لها برعى الذى توقف عن كشب يراقب خاله فى إعجاب وزهو. وكاد المجلس ينفض إلا أن المأذون انبرى يقول: ولماذا لانقرأ الفاتحة على ذلك؟ فوجم البعض إلا أنهم رضخوا فى نهاية الأمر، ووضعوا مصحفا كبيرا ركزوا أكفهم عليه وقرءوا الفاتحة وأقسموا ألا يصرفوا إلا معا: وتمتموا : آمين. إلا أن عبد الله الجزار تلكأ..ثم وجد العيون تحدق فيه فقال آمين: في صوت خافت.

وهذه هى دار العمدة، فسيحة يترامى خلفها بستان تهتز فيه أشجار النخيل وتنمو بعض الخضر تحت سيقانها، وفى محاذاة الجدار المقابل للطريق العام تجري مصطبة عريضة ترتفع عن الأرض، وتطل عليها أربع نوافذ، ينفذ منها ضوء الشمس إلى الدهليز خلال الجريد المتاقطع. ثم إلي غرفة السلحليك ومعه نسمات تهب من الحقول عبر الطريق العام..

وثمة تعديلات أدخلت على الدهليزين. فقد أعدا كمكاتب للموظفين ترفرف عليهما ستائر خفيفة أخذ الموظفون يطلون من خلالها على الناس، ستائر تحجب في نفس الوقت نظرات القرويين عنهم..والأرضية فرشت بسجادتين عريضتين، وتحت النوافذ مباشرة، ومن حولها رصت مكاتب وكراسي للموظفين، أما غرفة السلحليك فقد قسمت إلى مكتبين خصص أحدهما للخزانة، بينما اتخذ غطاس بيه من المكتب الثانى مقرا يدير منه أعمال لجنة التعويضات.

وعلى المصطبة الخارجية، وفي غرفة الخزانة عساكر يقفون علي أهبة الاستعداد لتفريغ رصاصاتهم فى صدر كل من يحاول الاقتراب من الخزانة الثقيلة، أما الخفر فقد ارتدوا جميعا، منذ جاء الموظفون، ملابسهم المضحكة كاملة، يمر عليهم العمدة وشيخهم، وبعض مشايخ الحصص يأمرونهم بالسهر على راحة الغرباء، ويبعدون عن الضيوف جموع الناس التى بدأت تطل فى دهشة، وتلح فى السؤال عن المصير الذى ينتظرهم.

العمدة ومشايخه يحسون بالحرج ، فهم وكلاء الحكومة ورجال الضبطية والمكلفون بأمن اللجنة وموظفيها، وعلي عاتقهم إكرام وفادة الغرباء، ومواجهة أهل القرية لتنفيذ أوامر ضابط صغير جاء من المركز ليلقى أوامره هنا وهناك مزهوا بشبابه، قليل الخبرة بعادات الناس وتقاليدهم..

العمدة والخفر والمشايخ من رجال القرية، نبتوا وعاشوا فيها، يعرفون كل النسا ويدركون المصير الذى ينتظرهم والناس، أراضيهم وقبور أجدادهم ذات الشواهد الحجرية البيضاء ستغوص فى اليم كما تغوص أراضى الآخرين.! ويكنون مثلهم المشاعر نفسها حيال الموظفين. ومادام الناس يجأرون بالشكوى من التقديرات المجحفة لتعويضاتهم فإن العمدة والمشايخ جديرون مثلهم بالشكوى ، وإن كانوا فى الوقت نفسه يدورون حول الموظفين فى خبث، يولمون لهم ويسهرون على راحتهم.

استدعى العمدة « عبدة بتيت » ونفرا من رجال عملوا فى مصر وتقاعدوا فى البلد منذ سنين، ورجاهم أن يشرفوا على راحة رجال الحكومة، فمضي واحد يعد لهم طعاما شهيا يتفنن فيه، وراح آخر يعد لهم شرابهم قهوة وشايا، بينما انبرى آخرون يخدمونهم فى المكاتب، ورغم ذلك فإن العمدة حائر،وخليق به أن يرفع يديه إلى السماء أن تنقذه من الورطة التى تردى فيها دون ذنب جناه،

فمنذ أيام كان قد عبر المنحنى إلي الدر عن طريق الجبل، واجتمع بين لفيف من عمد القرى الأخرى «ببدر افندى» الذي حدثهم طويلا عن الطوفان والتعويضات، وتعسف حكومة صدقى باشا فى تقديراتها.

وطاف بهم الحديث فى كل مدار إلي أن طلب منهم الرجل أن يقسموا قسما لايرجعون فيه: أن يتركوا الناس أحرارا فلايضغطون عليهم أن لم يحضوهم على مقاطعة لجان الصرف مقاطعة كاملة، حتي تتخذ الحكومة موقفا عادلا يرضون عنه، والرجل كان لبقا، فأدار الحديث في فطنة لمعرفته بظروفهم، فلم يشر عليهم ولو من طرف خفى- بالامتناع عن صرف تعويضاتهم إلا أن أحد العمد بدا أثناء القسم والحديث كله متململا، يتحرك كثيرا فى جلسه، وينفث دخان لفافاته في عصبية ظاهرة، وحين حانت الفرصة رفع صوته يسأل ، وهو يطرق إلى الأرض.

ولكن يا استاذ بدر . لامؤخذاة لو سمحت لى يا بدر افندى .
واتجه بدر أفندى إليه فى اهتمام وواصل الرجل حديثه :
- وماذا نفعل نحن العمد ؟ أنقاطع الصرف أم نقبل عليه ؟ فانك سيد العارفين بأوضاعنا ؟

ويبدو أن بدر أفندى كان يعرف الأسباب التى حملت الرجل على مثل هذا التساؤل ، فصمت طويلا وهو يدير حبات مسبحته ، ويحدق فى عيون الآخرين ليقرأ فى بريقها لهفة لسماع رأيه فى المعضلة التى يواجهونها ثم مر بأنامله على شاربه المدبب فى حيرة ومس رباط رقبته ، ومضى يتكلم فى صوت هادئ رزين : اتبعوا ضمائركم ، والناس على دين ملوكهم ، وخصوصا بعد المجاعة والجراد ، وانخفاض أسعار البلح كما تعلمون ، فهزوا رءوسهم معجبين بالرجل الذى لم يؤثر السجن فيه ، وأحسوا انه مثلهم - معرض للأخطار نفسها ، بل أن الحكومة قد تنتزعه من وظيفته التى تدر عليه مالا لايستهان به ، وقد تقاضيه الحكومة وترسله الى الليمان كما فعلت بحسين طه منذ شهور ، وها هو رغم ما كابده ورغم المرض الذى يعانيه يتحدث اليهم فى حماسة ، وينتقل من قرية الى أخرى يحرض ، ويشعل نار المقاومة فى أناس يعرف أن الجوع يهز قواهم ومقاومتهم ، انه رجل عجيب ، ولذلك فانهم عاشوا فى تلك اللحظة يرمقونه فى اعجاب واشفاق موقنين أنه لا يعمل لمصلحته بل لمصلحتهم جميعا ، فاستداروا الى وجوه بعضهم يطالعون فيها شيئا يريدون أن يتأكدوا منه ، ثم هزوا روءسهم وكأنهم قد وافقوا على كل كلمة قلها الرجل ، ثم نهضوا بعد ذلك يعبرون الطريق العام ، ويجتازون الجبل الى قراهم ، وعلى وجوههم ترتسم امارات تشير الى أنهم سوف يتصرفون وفق ما أوصاهم الأستاذ به .

وليس عليهم الا أن يوعزوا للناس تلميحا دون تصريح ، مع الاندفاع فى تكريم الموظفين حتي لا يظنوا بهم الظنون ، ولقد أدار بعضهم على المصاطب ، وفى هدأة الليل ، أقراصا سوداء تهدل مثلما يهدل الحمام : عصفور حصان للولد ، الحزمة بمليم يادرة .. خذينى باليمين .. باليمين

انا راقد شمال .

وبرغم ما أحس به من راحة ازاء ضيافته وباطمئنان الموظفين فقد بدا العمدة واجما وهو يواجه من فوق مصطبته جموع الناس الذين ربضوا بعيدا عن الدار ، عبر الطريق يحملقون في رءوس الموظفين المرتسمة على ستائر النوافذ .

وطاف المنادى بالنجوع مرة أخرى ليلة أمس ، وتعالى صوته يطلب من الناس التوجه الي دار العمدة عند مشرق الشمس ليصرفوا تعويضاتهم ، وظل العمدة موقنا ، مثل غطاس بيه وموظفيه أن أحداً من النجوع لن يمس عتبة الدار .

ولكنهم جميعا رجالا ونساء وصغارا كانوا هنالك منذ بزوغ الشمس ، لقد وفدوا لا من نجع واحد بل من جميع النجوع راجلين أو راكبين .

وتساءل العمدة : ترى لماذا ا قبلت كل هذه الجموع ؟ ولماذا يتجمعون هنالك عبر الطريق ، لماذا جاءوا يفترشون الأرض كأنما هم فى مأتم .. ولا يقتربون ؟ لماذا يربضون هناك مثل القطيع صامتين كأنهم سيعيشون هنالك الى الأبد ؟ أتراهم يخافون من الغدر ، أن يحنث أحدهم بالفاتحة التى قرأها على المصاطب فيخترق سياج المقاطعة ؟

وفى اللحظة نفسها أطل غطاس بيه من النافذة ، وألقى نظرة عجلي على الجموع ، وعاد بطرفه الى التلغراف الذى ورد له ليلة أمس ، وأسرعوا فى الصرف ، انتهوا منه فى أسابيع فتوترت أعصابه ، وسب ولعن خاش الصرف والدنيا وهؤلاء السود الذين يحرنون كما تحرن الحمير ، أدمغتهم مصفحة ، أدمغة من حجارة لا تلين ، ولكنه رغم ذلك يأمل أن يتقدم مخلوق واحد ، مجرد إنسان ولو كان كسيحا ليكسر النحس ويصرف تعويضاته ، وحينذاك ستدور العجلة فيتدفق النأس ، ولا يستطيع أحد الوقوف فى طريقهم ، وانتشى من هذه الخاطرة ، وابتسم لنفسه ، ثم عاود النظر إلى الجموع ، واعتمد رأسه بين راحتيه وأغرق فى التفكير ، ترى ماذا تفعلين وحدك الأن يا نرجس فى مصر ؟ مسكينة ، وماذا تفعل أمك؟ هيه هؤلاء الكلاب السود ، ثم حانت منه التفاته إلي الخزانة التى كان قد فتح بابها منذ لحظات يطمئن عليها ، فومُضت الأوراق الخضراء الجديدة فى عينيه وواتته فكرة قام على الفور لينفذها ، فمد يده إلى رزمة كبيرة من الأوراق الخضراء ودفع بها فى جيب معطفه ، واندفع يعبر الطريق ، وعلى جانبيه الضابط والحرس يتبعهم العمدة فى وقار ، اندفع حتى دنا من الجموع، فتوقفوا عن اللغو الذى كانوا فيه منذ الصباح ، وهبوا إلى أقدامهم واستداروا بعيونهم إلى موكبه الصغير ، ثم توسطهم الرجل ورفع يده اليمنى فوق رأسه وحيا ، فردوا بهمهمة غامضة لم يفهمها لكنه شرع يتحدث : «نحن هنا يا محترمون لخدمتكم ، جئنا إلى بلدكم النائية هذه لنكون تحت تصرفكم ، فلماذا لا تتكرمون

بتيسير مهمتنا ؟ لنا يا جماعة أولاد مثل أولادكم الصغار يتلهفون علي عودتنا ، واذا تغيبنا طويلا طال شقاء هؤلاء الصغار اذ يقلقون على مصيرنا ، أنتم تعرفون لوعة الغريب على أولاده، نأكل عيشنا بالعمل ونعيش كثيرا حياة الغربة .

وصمت بعد أن مس وتر داميا فى قلوبهم ، بعد أن ذكرهم بأبنائهم المغتربين والذين لا يعودون فأصاخوا السمع لمزيد من كلماته مشفقين عليه : التعويضات سخية وليست مجحفة ظالمة كما يشيع البعض أسألوا حضرة العمدة .

وأشار الى الرجل باحترام ، فهز رأسه علامة الموافقة ، وتريث حتى استدار فطاس بيه ليواجههم ، ويغمز لهم بعينيه : لا تصدقوه اياكم أن تصدقوه ، بينما عاود الرجل حديثه فى بطء وثقة أكبر ، الا ان الرجال عادوا واجمين لا يستبين الرجل على وجوههم أثرا واضحا لكلماته ، أنظروا الى هولاء الموظفين ، كثيرون منهم يتقاضون ستة جنيهات وأقل ، تعويض عشرة أو خمسة عشر نخلة وأياديهم هي التى ستصرف لكم مئات الجنيهات مقابل هذه الاشجار وهذه البيوت الطينية وشرائح الأرض الصغيرة التى تكدحون فيها ، وأشار بيده الى البيوت فى غير احتفال ، فسرت همهمة فى الناس وبدا الغضب على وجوههم الداكنة وأحس الرجل انه قد مس جرحا فى قلوبهم ، فعدل من لهجته الساخرة ، ومضى يحدثهم من جديد فى لهجة ودية جعلتهم ينصتون اليه ، ويحدقون فى وجهه فاغرى الافواه ، وقد ازدادت عيونهم لمعانا فى اللحظة التى قرر الرجل فيها أن يخاطب جوعهم فدفع بيده فى جيبه ، وعاد بها تحمل رزمة الاوراق المالية الخضراء ومضي يفرها أمام عيونهم ، أوراق جديدة لامعة ترسل حفيفا مثل حفيف أوراق الاشجار ،مغرية وجميلة ، تنفذ الى قلوبهم وأدمغتهم الحائرة ، فالكثيرون منهم ، الا الذين عملوا سعاة فى البنوك ، لم يروا طوال حياتهم كل تلك الاوراق الخضراء الزاهية دفعة واحدة ، لقد اعتادوا المقايضة ، كيلة بلح بكيلة ذرة وعشرون مترا من الدبلان بعشرين كيلة من التمر . أما العملات الفضية القليلة التي يحصلون عليها من أولادهم قد اعتادوا أن يودعوها في سحاراتهم لا يصرفون منها إلا عند الحاجة الماسة ، وها هم يشاهدون رزمة كبيرة من الأوراق المالية الخضراء الزاهية وخيل لهم أن في وسعهم أن يشتروا بها الدنيا كلها ، فلماذا لا يطيعون هذا الرجل ؟ .. لماذا لا يصرفون ؟ .. نفس السؤال الذى تردد فى أدمغتهم .. ينبعث فى هذه اللحظة ، وينفجر في صدورهم ورءوسهم ، وأخذت حناجرهم تتحرك ، وراحوا يتبلعون دفقات اللعاب التي سالت حيال المشهد الجميل الذى ترقرق فى عيونهم .

وراحت داريا التى لم تقع عيناها فى يوم من الأيام على ورقة خضراء كاملة ، راحت تهمس :
= وونور .. يا رب .. كم هى كثيرة ؟ .. وونور .

ولكزها الشيخ فضل ، وقال فيما يشبه الهمس : اختشى يا وليه لاتفضحينا ، فغضت من نظرها ، وانزوت فى ركن تجتر أحزانها وأحلامها ، وتفكر فى جمال ورسالته فمتى يعود هذا الولد العاق ؟!

ويكاد عم نوح يندفع من بين الجموع ، ليختطف الاوراق الزاهية لولا نظرات العمدة والضابط والحرس الذين أحاطوا بغطاس بيه ، فاستكان وأخذ يبتلع فى سكون ، ثم مضى يجتر ذكريات حياته القاسية . انه ما زال يذكر أنه دفع لأهل زوجته مهرا خمسة أرادب من القمح ، وأنه تقاضى مهرا لابنته الكبرى التى ماتت عشرة أرادب كما انه لا يتوقع ان يتلقى مهراً لابنته الصغيرة مندوهة أكثر من ذلك ، فلماذا يعزف اليوم عن صرف التعويضات ؟ وارتفع صوته فجأة من بين الجموع وهتف :

= اتركو نا يا ناس نصرف تعويضاتنا ونستريح .

وأراد أن يواصل هتافه الا أن المأذون = الذى كان قريبا = مد يده وأغلق فم الرجل ، وقاده بعيدا بين نظرات مستنكرة وأخرى حائرة الى مكان قصى .

ولاحظ وابور ، الذى اقبل منذ لحظة ، أن غطاس بيه يكاد يمسك بناصية الناس ، فقرر أن يتحداه ، ولا سيما بعد أن سمع العمدة يهمس بالنوبية للواقفين من حوله ماراجارا .. «كذب» .. لا تصدقوه فتقدم خطوتين الى الامام وتوقف على مسافة قصيرة من رئيس اللجنة وقال فى صوت محموم :

= تسمح يا غطاس بيه ، كم تبلغ كل التعويضات .
= تعويضات بلدتكم كبيرة وافرة والحمد لله
= أريد أن أعرف تعويضات كل القرى فى إجمالها
= ومن ادرانى يا محترم ؟ أظن أنها تبالغ حوالى ۸۰۰ ألف جنيه .

ثم تقدم واجتاز «وابور» ومضى يلوح بالاوراق المالية أمام عيون الناس .. الا أن «وابور» لاحقه : وهل هذا مبلغ كبير ؟ فاستدار الرجل اليه وصاح : يا هوه .. مليون جنيه ! لو كانت لى لبنيت قصرا فى الاسكندرية أنزل فيه صيفا وآخر فى أسوان أنزل فيه شتاء تماما كما يفعل البارونات ، ثم وجه كلامه الى وابور ..

= مليون أو ۸۰۰ ألف جنيه يا محترم قدر ميزانية إمارة شرق الأردن .

وهمهم الناس : شرق الأردن ! ما هى شرق الاردن هذه ثم ماذا تريد أن تقول يا وابور ؟ فضنا من هذا الحديث ، غطاس بيه ما زال يقول : مبلغ كبير تمتنعون عن صرفه وأخشى أن تحس الحكومة بأزمة مالية ، بعجز فى الميزانية ، فتقتطع من تعويضاتكم والاشاعات كثيرة ولا يدرى الانسان ما الذى يأتى به الغد ، وبدأ الناس يزومون ، بينما انتهز وابور الفرصة وقال :

- وكم نخلة سجلتها الحكومة ؟ سجلت مليونا وسبعمائة ألف نخلة ، تعالوا نعمل حسبة وسنجد أن النخلة لم تقدر الا بعشرين قرشا ، ذلك اذا تركنا البيوت والاطيان جانبا وقبور آبائنا وأجدادنا كذلك . ثم واجه غطاس بيه ومندوب المساحة الذى ترك المكاتب منذ لحظة ليقف الى جانب رئيس اللجنة وصرخ : معنى هذا أن الحكومة تسرقنا!

- تسرقكم ! كيف تسرقكم الحكومة يا محترم ؟ الا تعرف انك تشتم الحكومة ؟ أخشى أن يغضب حضرة العمدة . أخشى أن يغضب حضرة الضابط ؟

وهنا أحس العمدة بالتهديد ، فاندفع حتى تجاوز رئيس اللجنة وأولاه ظهره .. ومضى يخاطب الناس بصوت أجش ، عميق آمر : انصرفوا الآن ، وأضاف ، باللغة النوبية : لا تحرجونى أمام هؤلاء الأغراب .

فعادوا جماعات ومتفرقين يتواعدون على اليوم التالى ، ويغرقون فى دوامة الحيرة والارتباك ، فقد أسالت الاوراق المالية لعابهم ؛ بيما كلمات وابور الهبت عقولهم بسياط من نار : النخلة بعشرين قرشا اذا ما حسبنا البيوت والاطيان خارج العملية كلها .. يااللظلم !

وانكبوا فى الليل يتجسسون على مقر اللجنة ويكتبون الشكاوى والتظلمات .

وجاءت داريا الى المتجر وقد ربطت حول رأسها عصابة سميكة تتوجع وتشكو من الصداع ، وتتردد فى ذكر ما جاءت بسببه ، ولأول مرة منذ شهور طويلة تنازل أبى عن لهجته القاسية ، وتودد اليها ، فلم يطالبها بديونها !

فعادت وهى تحمل الشاى والسكر اللذين جاءت فى طلبهما ومدت يدها فى طريق العودة وفكت العصابة السميكة من حول رأسها كأن الشاى وملمسه قد بعثا البرء فى جسدها .

*****

وجاء رئيس لجنة المساحة فى رفاص وأرغى وأزبد .. وعاد بخفى حنين ، وأعقبه مأمور المركز فعاد حتى بدون هذين الخفين ، ثم رسا رفاص آخر نزل منه مدير المديرية ، وتلطف مع الناس فتلطفوا معه ، الا انه لم ينل غير وعود أبرق بها الى مصر ، ثم جاءهم النائب على بك أبو زيد ،

جاء وقد قد علق على صدره النياشين التى منحها له الحاكم العام فى السودان قبل أن يحال الى المعاش ويعود الى مصر لينضم الى حزب الحكومة فيكون نائبها عن الدائرة ، ولم يعرفه الناس بل مضوا يتهامسون : من هذا ؟ فأسر اليهم السفرجى باشا : ألا تعرفونه ؟ انه على بك أبو زيد ، ولأمر غاب عن ذهنه وجدهم الصدر المرصع بالنياشين حين وقف أمامهم بقامته الطويلة وجسده العريض وشعره الابيض الوقور اللامع من تحت طربوشه واجمين ، يستقبلونه فى فتور ، ولا صوت الا ذلك المنبعث من ضجة الخفر والجنود ، وترحيب العمدة والمشايخ ، وتنحنح الرجل ، ورفع يده بالتحية فاستجابت لها همهمة خافتة أحس بها ثم تكلم : يا أولادى .. سمعت أنكم ممتنعون عن صرف التعويضات ، ويشيعون أننى لم أساعدكم ، أننى لم أقف الى جانبكم ، والحقيقة أننى لا أحب الكلام الكثير ، فقد تركت ذلك للشبان ، الحقيقة أننى أسوى ليكم من تحت تحت .

ووجد الناس صامتين ، يديرون عيونهم فى وجهه ، فتلعثم ثم قال : دولة الرئيس يحب النوبيين ، ولولاه لكانت التقديرات اقل بكثير ، حكومته تعطف على أولادها النوبيين ، ولا تسمح بانزال أى ظلم بهم ،إنها أعدت لكم أراضى فى «الرديسية» وفى الطود ، وفى دراو وكوم امبو وطلمبات رى هنا اذا ما أقمتم ولم ترغبوا فى الرحيل .

واستمعوا اليه فى أدب وصمت ، فأحس الرجل انهم راضون فاسترسل فى كلماته ذات اللهجة السودانية حتى أوفى على غاية كلامه وأخرج منديلا حريريا يمسح به جبينه ، وعيناه تتفرسان فى وجوههم ، ثم زاموا وغمغموا - ولكنه ، برغم الغمغمة ، استمع الى كلمة واحدة تترد ، سؤال واحد ألقاه المأذون وبرعى فتتردد بسرعة : أين حسين ابنك ؟ وكيف تبرأت منه ؟ فغضب ، ولكنه تجاهل الامر ، واستدار ومعه مرافقوه ، وانصرف الى دار العمدة ليرحل إلى غير رجعة .

فشلت كل المساعى ، ودب اليأس فى قلب غطاس بيه .. وفى قلب مندوب المساحة والموظفين فأخذوا يزجون فراغهم بالتندر على الناس ولعب الورق ، وهم يتطلعون الى الخارج عبر النافذة عل واحدا منهم يقترب ويخترق سياج المقاطعة.

وقد خيل لغطاس بيه فى احدى الليالى - فى منتصف الليل - وبعد أن آوى الى فراشه انه سمع أصواتا تتهامس تحت شباكه مباشرة فأصاخ السمع ، ولم يتبين الا اسمه يتردد بين كلمات نوبية كثيرة لم يفهمها ، ثم ارتفع صوت العمدة ينتهر امرأة راح صوتها يتهدج ، وكلماتها تختنق بالدمع ، فقفز من العنجريب الى الارض ، فاصطدم بالعمدة عند المدخل العمومى متجهما يغمغم لنفسه بكلمات لم تصل الى مسمعيه .

ووقفا وجها لوجه برهة من الزمن ، فالرجل قد بدأ يشك فى العمدة ، وخيل له فى اللحظة التى التقيا فيها أن امرأة ما جاءت لتقابله هو فى الليل ، لأمر يتعلق بالتعويضات ، وأدرك بغريزته أن العمدة قد حال بينها وبينه ، فتميز غيظا ثم همس فى صوت مستريب : أين تلك

السيدة !وبانت الدهشة والارتباك في الوقت نفسه على وجه العمدة ، لكنه قال :

- سيدة ! وكيف تأتى سيدة الى بيتى فى منتصف الليل ؟ عيب ليس فى البلد امرأة واحدة تلاقى غريبا فى منتصف الليل .. ولا يجب أن يسمع أحد فى البلد مثل هذه الكلمات من رجل كبير المقام مثلك .

فأحس غطاس بيه انه قد تورط فى أمر يمس تقاليد الناس وشعر بمكر العمدة فانسحب معتذرا عما بدر منه .

وتريث العمدة حتى أيقن أن الرجل قد عاد إلى مرقده ، وتسلل خلف داره ليجدها هناك تبكى فى صوت مكتوم ، وقد وقف على رأسها شبان يهدئون من روعها ، ثم راحت تقول فى صوت خافت حالما رأته : جمال لن يعود يا أحمد حسين ، وأشارت الى العمدة الذى انحنى عليها وقال عودى الى بيتك يا داريا فلن يصرف تعويضاتك أحد غير جمال ، وسوف أرسل له ، والغريب عيب أن تلجئى اليه ، كيف سمحت لك بنتك أن تأتى فى منتصف الليل وحدك .

= تركتها نائمة وتسللت ، فربما رق الرجل لدموعي وصرف لى .

= كيف تصرفين والناس جميعا لا يصرفون يا ولية ؟

= أننى جائعة ، جائعة ، والديون تتراكم على رأسى يا أحمد حسين.

وأضاف شيخ الخفر : حرام عليك يا ولية ، لولا أن راك حضرة العمدة قبل أن تطرقى على الشباك لكانت الفضيحة ، امرأة تقابل أفنديا فى منتصف الليل !!! لو كان جمال هنا لما فعلت ذلك .. اياك أن تحضرى هنا مرة أخرى .. لا نريد أن نراك هنا أبدا الا يوم نستدعيك فهمت أم لم تفهمى يا مجنونة ؟..

فقالت فى صوت متشرخ :

= فهمت ، وما دام العمدة سيرسل الى جمال ليعود ، فليست بى حاجة الى مقابلة الغريب .

وقامت تنصرف الا ان العمدة استمهلها ، وأشار الى ابنه ، وأسر فى أذنيه بكلمتين أسرع اللتى بعدهما الى الداخل ، وعاد ومعه الجارية تحمل على رأسها كيلتين من الذرة أسلمتها لداريا وقال العمدة :

= عودى إلى اذا ما انتهيت من الكيلتين .

وتأبت داريا قليلا ، ثم انصرفت فى ظلام الليل وقد حملت هديتها على رأسها بعد أن أكدت للعمدة أنها ستسدد حين التعويضات ، وتسللت إلى بيتها ، وفتحت الباب لتجد ابنتها تتلفت هنا وهناك مذعورة حتى إ نها هبت تستعيذ من الشيطان حين سمعت صرير الباب ، فأدركت داريا مخاوف ابنتها فقالت : لا تخافى يا شريفة ، أنا داريا سكينة.

وتفرست ا لفتاة فيما تحمله أمها ، وغرزت يديها فى الذرة ووجهت الى أمها نظرة متسائلة وقصت عليها الأم ما حدث خلف دار العمدة ، فلوت بوزها وهى تغمغم : آخر الزمن أصبحنا

شحاتين لهفي عليك يا أبي .. لهفي عليك يا جمال ، افتضحنا ..

وراحت تنشج وتلطم خديها ، فانبرت الأم تخفف من لوعة الابنة الباكية :
- وماذا نفعل يا شريفة ؟ تزوجي البسطاوي ؟
فارتجفت الفتاة ، وانكفأت تبكي حظها العاثر ، ولاح لها برعي وهي لا تدري انه قد شهد ما حدث لأمها من مكان قريب ، وقد امتلأ قلبه بالخزي .

وراحت تبكي حتى أغفت ، وفي الضحى كانت عند بطة تشكو همومها .. فقد أصبحتا صديقتين لا تفترقان ، وقد ازدادت الألفة بينهما منذ بدأت بطة تعد ثياب زفافها تساعدهما سعدية .

وقضين اليوم كله يحكن الثياب ، ويخضن فيما كان الرجل يخوضون فيه ، تكلمن عن الطوفان في سذاجة ، وعن النخيل وشباب النجع ، وانبرت سعدية ، التي اشتهرت بلسانها المسحوبُ الطويل تقول :
- وابن عملك يا بطة ،هل رأيته ؟
- كلا يا سعدية
- غريبة ، تتزوجينه دون أن تعرفيه ؟ .. وماذا تفعلين اذا ما اتضح لك انه عجوز في سن أبيك ؟

- وهل ترفضين اذا ما تقدم لك يا سعدية ؟
- أنا لا يكفيني عجوز ، أنا لا يكفيني الا شاب قوي مثل الثور شاب سرح ، شارب من بز أمه ، أو من ماء البحر وهو نائم !

وترددت لحظة ثم قالت وهي تحدج شريفة بنظرة جانبية : شاب مثل برعي، فزحست بطة بالحرج وقالت بسرعة ، علاقتكما يا سعدية معروفة أما برعي فهو لغيرك ، لا تكوني طماعة.

فأحست بطة بالحرج وقالت وضحكتا بينما لزمت شريفة الصمت ، فهي حانقة على سعدية منذ تحويشة الجزار ، منذ حديثها عنها وعن أمها مع البسطاوي .

والتفتت بطة اليها بوجه باسم وراحت تداعبها : مالك حزينة ؟ أتفكرين في برعي فقالت بسرعة : أصابك الله بالعمى قبل زواجك ، لماذا تخطرفين بهذا الكلام الذي لا فائدة فيه ! أنا لا أفكر في أحد ، غيري أولى بالتفكير .. موتي أنت من شدة التفكير في حسنين أهو عجوز أم هو شاب سرح مثل الثور أم صغير نحيل !

وأدركت سعدية انها تعرض بها فتجهمت وأرادت أن تثور ، ولكنها خشيت أن تفضحها شريفة بقصة التحويشة وتصنعت أن الأبرة قد انغرزت فى أصبعها وراحت تتأوه وتمص أصبعها بين شفتيها ، لكنها لم تملك نفسها رغم ذلك بل مضت تقول : ربما كان البسطاوى هو الذى يشغل بعض الناس ، فحدجتها شريفة بنظرة قاسية جعلتها تطرق برأسها الى الارض ، حينما راحت بطة تقول : سعدية ، أنت محقوقة .. أنت تعرفين انها تفكر فيه .. الهى يبتليك بمرض لا تفيقين منه ، لماذا تكذبين ؟ انها لا تميل الى البسطاوى ولا تطيقه ، فانبرت سعدية تقول : وما له البسطاوى ! شا ب سرح ، أليس رجلا مثل برعى وحسن المصرى .

فصاحت شريفة :

- معلوم ، رجل ليس مثله رجل ، خصوصا اذا ما حشر جسد واحدة بين جسمه وجذع النخلة فى تحويشة الجزار .

وهبتا واقفتين وكادتا تشتبكان لولا أننى كنت قد فتحت باب الدهليز ودلفت منه ، وفأجاتهما وهما تدفعان بطة التى توسطتهما لتخلصا إلى ضفائر بعضهما .

ودخل أبى ورائى ، فعدن الى الصمت فجأة ، وانهمكن فى تطريز الثياب ، ثم قامت شريفة وانصرفت ، بينما بقيت الأخرى حتى خرج أبى من الباب الخلفى ، فارتمت على صدر بطة تبكى ، وتكذب شريفة وتنعتها بكلمات بذيئة ملأتنى بالغيظ فقلت:

- لا تصدقيها يا بطة فإنها تكذب ، سعدية طول عمرها كذابة .

فانتهرتنى بطة : فأمسكت بحفنة من التراب ضربت بها وجهيهما وعدوت اجتاز الباب العمومى إلى الطريق ، ثم الى بيت شريفة أروى لها ما حدث .. وكيف دافعت عنها ، فانحنت على ، وطبعت قبلة على جبينى وهى تهمس :

- برافو يا حامد ..

****

وفى خضم الأحداث التى عاشتها القرية نزل حسنين فى بيت ابن عمه فى النجع ، فمنذ أسبوع رست الباخرة التى أقلته من الشلال فى «عافية» فى الضفة الغربية، فى مكان لاينأى كثيرا عن كران نوج ، ومنها عبر النيل عل مركب شراعية بيضاء ، ورست به عند النتوء الشرقى ، فاستقبله رجال النجع وحملوه فى زفة كبيرة لينزل ضيفا مكرما علينا ، وليستقر فى بيت ابن عمته صالح.

طويل القامة ملئ الجسد لامع السواد ، وسيم الطلعة الى لونه الأبنوسى البارق ، يهش ويبش فى وجوه الناس ولا يبخل عليهم بنكاته ونوادره ، فهو يتمتع بموهبة نادرة فى التعرف على الناس والتودد إليهم ، يستدير به الناس دقائق ، ولا ينهضون الا واثقين انهم أصدقاؤه منذ عشرات السنين ..

عاش فى القاهرة طويلا يعمل فراشا مع أبيه فى السكة الحديدية ، وتطبع بطباع اهل القاهرة ، حتى انك تحسبه برغم لونه الأبنوسى واحدا منهم لا يكاد يختلف عنهم فى شئ ، فالمرح يطفو من قلبه على وجهه ثم يجرى فى لسانه كما يجرى الماء طليقا فى الجداول ، يرسل النكتة البارعة فتنتعش القلوب ، وتزول من الجباه آثار النكد والشقاء الذى عاش الناس فى نجعنا يرزحون تحته.

ولم يكن غريبا إذن أن يصبح حسنين فى الساعات الأولى من وصوله ينبوع سمر لا ينتهى ، يستديرون به ويسألونه عن مصر أم الدنيا وعن التعويضات والتعسف فى تقديرها وظلم صدقى باشا ، وهل تجدى شكاواهم أم لا ؟ فاذا به يحول الساحة الى ضحكات عالية ، فقد مضى يقول :

– شكاوى ! تطلبون فيها تقديرا جديدا ؟ أتعرفون ما الذى ستفعله الحكومة ؟ ستقدر عود القمح بجنيه كامل .. وجذع النخلة بمليمين .

قالوا كيف ذلك .. أهى عمياء ؟

والله انها عمياء عمى الدببة ، و ا سمعو ما حدث لى حتى تصدقوا .

وقال الشيخ فضل : وماذا حدث لك ؟

قال : أنا وأبى نعمل فى مكتب واحد ، وأرادت الحكومة أن تعرف سن كل واحد منا ، وطلبت من أبى شهادة ميلاده ، قال : أننى لا أملك شهادة ، أما أنا فقد أخفيتها .

– فماذا فعلت الحكومة .. هل طردتكما ؟

– أبدا .. أرسلت كل واحد على حده الى دكتور لتسنيننا ..

– عال .. ريال والتسنين يكون على ما يرام .

وأطلق حسنين ضحكة وقال :

– وقر ر الدكتور أن أبى يبلغ خمسة وثلاثين عاما .– عال .. صفروه .. لابد أنه دفع جنيها كاملا .. وماذا قال دكتورك ؟

– قال ان عمرى خمسة وأربعون عاما!!

وضجت الساحة بالضحك ، بينما انبرى حموى يقول : تستاهل لابد أنك لم تدفع الا مليما ، وقال الجزار : ولعلك أخذت منه بقشيشا ، والله كلامك صحيح على الحكومة : مجنونة أو غشيمة .

واستدارت نسوة النجع به فى بيت ابن عمته يسألن عن الأزواج والأبناء الغائبين فمضى يلذعهن بنكاته ، فملأن الجو ضحكا ناعما نديا ، ينبع من القلوب .. وسأل احداهن :

- صدرك عال ، رغم أن لك مثلا عشرة عيال ؟

فأطرقت برأسها ومضت تشكو من العقم .. قالت :

- وعدنى زوجى أن يستدعينى فى مصر ويعرضنى على الحكما .

فالتقط حسنين فرصته السانحة وصاح :

- زوجك لا شك هو المعيب .. فقد جرب نفسه ..

ورفعت المرأة حاجبيها تسأل : جرب نفسه ! يالهفى هل تزوج ؟

- كلا لم يتزوج .

- فى الحرام ؟

- فى الحرام ، فى الحلال . كله واحد ، أنت مسكينة مع زوجك فهو لا يغطيك كما يجب .

- وكيف يغطينى كما يجب يا حسنين .

- انتظرنى الليلة فى بيتك فى الحاصل القبلى وأفرجك ..

وراح يقلد ويحاكى التصاق المرأة بالرجل ويستلقى على ظهره بينما انطلق يضحكن وهن يشحن بوجوهن واصطبغ وجهى أنا بأمارات الخجل فنهضت من مجلسى لكنه عاجلنى .

- حامد . تعال هنا .. لماذا تهرب ؟

وأمسكن بجلبابى وأنا أحاول التملص ، بينما ابتسم هو صرخ :

- بلغ أختك يا حامد أننى أحب أكل الحمام المحمر ، ولست غولا يأكل البنات ، بلغها أن تكف عن التلصص من ثقب الباب ، دعها تحضر هنا ، ولن أفعل بها شيئا أمام الناس فهى ابنه عمى .

فأطرقت برأسى خجلا بينما ظل هو يرسل نكاته ، ذلك أن بطة اعتادت منذ وصوله أن تختفى عن وجهه ولا تراه الا من خلف باب متطلعة الى التعرف عليه ، فانها لم تره قبل ذلك ، ولا شك انها ما زالت تذكر الطقوس التى كانت شقيقتها تمارسها فى أيام الخطبة ، وما زالت قصة أمينة ماثلة فى ذاكرتها .

وبرغم أننى شعرت بنفور من نكاته فى هذه اللحظة فاننى أحببته فأخذت لا أفارق مجلسة ابدا وهو ينتقل من مصطبة إلى أخرى ، ويناقش الطوفان بطريقته غير المكترثة.

ودهش الناس حين تعرف حسنين ببساطه على غطاس بيه ، فما رآه حتى أقبل عليه يحييه : سلامات ازيك يا غطاس بيه ، واتضح للناس أن «غطاس» هذا عمل فى يوم من الأيام صرافا فى السكة الحديد وأن حسنين عمل فراشا معه فى سوهاج.

وراح غطاس يشكو لحسنين همومه ، فمضى يهون من مشاكله ، ثم تحدث مليا عن نرجس الصغيرة العفريتة : أنت الذى علمتها الشقاوة يا حسنين ، والله انها عفريتة من بطن أمها .

وأصبح من الامور العادية أن يجدهما الناس يتمشيان فى العصارى يتذاكران أيام سوهاج ومباهج مصر ويتندران على النجوع ، والناس ويرسلان الضحكات ، والناس برغم ذلك لم يظنوا بحسنين الظنون فانه لا يملك أرضا ولا بيوتا هنا يتفق مع غطاس على صرف تعويضاتها أو يغدر بهم في سبيلها .

واعتدت أن أدور معه هنا وهناك ثم أعود لاقص على عروسه ومن حولها شريفة وسعدية وبخيتة نكاته ونوادره فيضحكن ، ويستلقين على الظهور من فرط الضحك ،. لكننى برغم كل هذا المرح كانت تعترينى كآبة تدوم لحظة ، تعترينى وأنا أفكر فى جدتى التى ماتت منذ شهور فأعتقد أن الناس يغدرون بها بل يتزوجون ، الا ان صورتها الأخيرة وهى تحمل بطة على القسم بألا تؤخز زواجها كانت تسرى عنى ، فأنبعث من جديد أتحرك وأضحك مع الضاحكين ، وأفكر ؛ حين أخلو بنفسى ، فى البيت بعد أن ترحل بطة كما رحلت جميلة ، انها سترحل لا الى مكان قريب بل الى مصر البعيدة عنا بعد السماء .. من الذى سيعيش معى فى البيت الكبير غير أمى ؟ وكيف يمكننى أن أحول بينها وبين نوبات الإغماء التى قد تلقى بها فى النار فتحترق ؟
ودامت السهرة فى بيتنا ساعات طويلة كنت واجما فيها ، أفكر فى الذى يحدث أمامى من إعدادات نهايتها أن ترحل بطة وتتركنى وحدى ، إلا أننى وجدت بعض العزاء فى كلمات خالتى أمينة بايا . كلمات وجهتها الى حسنين .
– أنت تعرف الحال يا حسنين ، البنت لا تستطيع أن ترحل معك على الفور .. لن ترحل معك الا حين يقترب الطوفان ، حتى لا تترك أمها وحيدة فانها صاحبة مرض .
قال : لتبق معها الى الأبد فانا لا اريدها بعد الزواج.
وضحكنا جميعا ولكنه استرسل : لتبق حتى الطوفان ، فقد نلت أجازة طويلة وسوف أمدها ، وأنا هنا لتطول اقامتى وأتمتع بها ، ولكن مالى أراها دائما متجهمة ، أتظن انها ستتزوج غرابا ؟ بلغيها يا أمينة أننى أحبها ضاحكة . وتساءلت أمينة بايا : وأين رأيتها ؟ هنا فى البيت من فوق سطح البيت المجاور ، كانت تستحم .
– حسنين . كف عن الهذر فى موقف الجد .. انها ستغضب حقا ؛ والإشاعات .. ماذا يقول الناس ؟

- طيب .. طيب . اسكتى فاننا لسنا فى مأتم ..

واسترحت أنا لهذا الحديث فسوف يطول بقاء بطة فى بيتنا بعد أن تتزوج ، ولم تبارحنا وترحل بسرعة كما رحلت جميلة ، وألقيت على هذه نظرة جانبية فوجدتها سعيدة مشرقة تتحرك وقد حملت وليدها الصغير في خفة ، تهلك نفسها فى العمل ، لا تستريح ولو لحظة واحدة ولا تنجو من نكات حسنين ، قال لها مرة :

- اذا كان زوجك لا يعجبك ، فأنا مستعد للزواج من الاثنتين فتوارت عن ناظريه يوما كاملا.

وها هى الشقيقة الكبرى تلعب دور الأم وتزجى الى أختها النصائح فى حنان ، وتحدثها عن مصر كأنما عاشت فيها ، وتقص عليها كل ما سمعته من زوجها عن هذا البلد الغريب .

وبانت السعادة مرتسمة على وجوه فتيات النجع ، وشريفة وبخيته يكنسن ويجهدن أنفسهن في إعداد الشعرية والابريج والفشار وفى الغسل ، وكأنهن خادمات لبطة .

سعدية وشريفة لا تتبادلان كلمة واحدة ولكنهما تتنافسان فى العمل ، ولا تسمحان لبطة أن تمد يدها الى أى عمل حتى مضت تقول :

- كتر الله خير كما ، انشاء الله سأكون خدامتكما يوم زفافكما ورمقتها سعدية بنظرة ساخرة ثم قالت :
- معارة .. مثل حسين فييس ، ولماذا ؟ والله أنت معارة مثل زوجك حسنين .. أتريدين الحقيقة يا بطة .. لو طلبنى للزواج لارتميت عليه ، انه يكبرك ولكنه طويل وعريض ، يضحك طول الليل والنهار ليته تزوجنى يا بطة.

وصمتت لحظة تتأمل وجه بطة التى مضت تضحك وأردفت ..... أما أنك خدامتنا فليس الا كلاما ، فسوف تكونين فى مصر حين أزف هنا إلى زوجى .

وانتهزت شريفة فرصة صمتت فيها سعدية وقالت :
ستكونين فى مصر تلفين الملاءة الحريرية علي جسدك ، وتستحمين بالصابون «أبو ريحة» وتحت الدش وأما نحن فياعينى علينا ، سنبقى هنا نجمع «الجلة » ونشيل التراب على رءوسنا .
وراحت بطة تصرخ .. الله ،الله يا شريفة .. أنا سأخدمك وأخدم سعدية فى أى مكان ، سأرسل لكما هدية من مصر أم الدنيا .

- كلا ، أنك ستنسينا يا شيخة ، فمصر كبيرة ، والدنيا تلاهى ألم ينسنا جمال ؟
وقطبت جبينها فأسرعت العروسة تهمس :
- لكن جمال رجل يا شريفة ، كل الرجال ينسون وأما نحن البنات فهيهات أن ننسى بعضنا .
وغمزت سعدية بعينها ، وحركت حاجبيها ، وهزت أردافها فى حركة ذات معنى وقالت :
- أما أنا فلن أنسى أحدا ، لن أنسى الرجال ، كل الرجال حتى الصغار منهم ، أليس كذلك يا حامد ؟

وأقبلت على تداعبنى بينما انفلتت شريفة وبطة تبارحان الفناء، وتعبران الدهليز الى الساحة لمشاهدة تفصيل جلباب أعدته شريفة لإحدى الجارات ، وتركتانى وحدى مع سعدية بينما جميلة والأم والخالة منهمكات فى الديوان .

كنت أنا منهمكا أيضا فى تنظيف صومعتى الصغيرة .. فاذا بسعدية التى استدار جسدها فى انحناءات بديعة تمسك بى من الخلف وتدير وجهى اليها ،ثم ترفعنى فى حركة فجائية الى صدرها وأنا أحاول أن أتملص دون جدوى .

مضت تفرك صدرها بصدرى الى أن غامت عيناها ، وتركتنى فجأة ثم تبسمت بسمة انسان يفيق من غيبوبة ألمت به ، وابتعدت عنى بسرعة فى اللحظة التى انبعث فيها صرير الباب الخارجى .

****

وفى الأيام القليلة التى تلت انقطعت سعدية فجأة عن بيتنا ، وألمت بنا جميعا دهشة حين أعلن فى النجع أن سعدية تستعد للزواج من البسطاوى في نفس الليلة التي ستزف فيها بطة ؟

وأخذتنى الحيرة .. ما الذى جعل البسطاوى يقرر الزواج على هذا النحو الفجائى ؟ وهل يئس من شريفة ؟ وما هو احساس شريفة ازاء هذا النبأ الغريب ؟ ولم تدم حيرتى طويلا ، لقد أفضى لى برعى بسرهما وهو يستلقى على مصطبة نخلة من نخلات أبيه ، أخذ يرويها فى هدوء بال وعيناه تلمعان ببريق الفوز ، ولقد شرع فى روايتها بعد أن سب ولعن الجزار وحموى وأقاربهما الطماعين. تناولهم واحد واحد بألفاظ تقذعهم ، واتهمهم بالتحليل على الفاتحة ليصرفوا تعويضاتهم ، فلقد ضبط حموى يتسلل إلى دار العمدة ليقابل الموظفين فانكب عليه الشبان يعنفونه حتى يبتعد عن المكان .

وجاء دور البسطاوى فأخذ ينعته بالولد البايظ الذى لا يجدى فيما يجدى فيه الرجال رغم طوله وعرضه ، أنه ليس رجلا .. .
قلت له :

البسطاوى سيزف الى سعدية بعد أيام ويصبح رجلا له بيت وله زوجةبينما أنت ما تزال .. ولم يتركنى أكمل حديثى بل استشاط غضبا وصرخ فى وجهى : ألا تعلم لو أردت الزواج من سعدية لتزوجتها منذ سنة بأكملها .. أنت صغير ولا تفهم .. البسطاوي .. هيه .. لا أخلاق ولا محافظة على شرف الناس .. لكنك صغير ولن تفهم ما حدث بينهما ؟

وقطبت جبينى وأردت أن أنصرف غاضبا لتكراره أننى صغير الا أن فضولا قاتلا تملكنى فمضيت ألح عليه :

بالله عليك قل لى ما الذى حدث بينهما يا برعى ؟ .. بالله عليك .. فحدجنى بنظرة جانبية ثم قال فى وقار غاضب :
- حجاج العجوز .. جد سعدية . وعبد الله الجزار ..
- أهما اللذان اتفقا على تزويجهما ؟
- ايوه .. أسكت حتى تعرف .. كانا يمران فى عصر يوم بمحاذاة تحويشة الجزار ورأياهما هنالك .. فاتفقا ..

- ماذا كانا يفعلان هناك يجمعان البلح أو الوقود ؟

- بلح ! أى بلح يالكعى ؟ ألا تعرف .. كان قد رفع ثيابها واحتضنها وهى تلهث مثل الكلاب ، مستندة الى جذع النخلة ..

وتذكرت على الفور ما كانت شريفة تهرف به فى ساعات مرضها منذ شهور .. سعدية البسطاوى .. تحويشة الجزار ! فقصصت له قصتهما ، فهز رأسه فى غضب وقال : اذن فانها لم تكن المرة الأولى ..

وشهدت برعى ، لأول مرة منذ شهور طويلة ، يضحك كما يضحك الصغار ، فرحا لا تطيقه الدنيا ولا تسعه ، وكأنه هو الذى تقرر زواجه بعد أيام ، فقد استراح من البسطاوى ولن يعود هذا البسطاوى خطرا على أحلامه وأمانيه فى شريفة.

****

تناسى الناس غطاسا ولجنته ساعات من حياتهم ، فاهتزوا على نغمات الدف وهزوا السماء بتصفيق الاكف ، ورجوا الأرض بأقدامهم وتراقصوا والبدر يبتسم فوق هاماتهم ، بل كان غطاس نفسه وبعض موظفيه بين الذين أطلقوا صرخات الاستحسان .

وزف حسنين الي بطة ومد يده ومس ذؤابة الشعر المرتفعة فوق رأسها كما يرتفع تاج الهدهد .. تطلعت أنا الى موكب الزفاف فى هذه المرة بخطى أكثر ثباتا وبادراك ، اذ كنت على مقربة من العريس نفسه ، ورأيت يده ترفع الشقة البيضاء وشهدت بطة مطرقة مسدلة الجفنين ، ورأيتها وهى تلوذ بنفس الحاصل فى سرعة البرق .

وفى بيت أم سعدية حدث الشئ نفسه ، تقدم البسطاوى فى موكبه والدف ينقر من حوله ورفع الشقة البيضاء نفسها وسعدية تسدل جفنيها وترمقه من تحتهما ثابتة الجنان لا ترتعش ولا تخجل ، وربما أحست بنشوة غريبة تسرى فى بدنها ، وهى تتلقى لمسة يده على تاجها الفاحم ، ويقولون انها ابتسمت فى رضا بعد أن أستدار العريس .

تم ضمها الديوان ويقولون : انها شاغبته طول الليل بفنون من الصمت والدلال حتى وضع في يديها جنيها كاملا ، استنامت بعده لغزله وتودداته ، ثم أرسلت صرخة صغيرة أنهت حياتها كعذراء .

وفى الصباح حين ألمت بها صاحباتها مضت تحكى لهن فى مرح متأوه ما حدث بينها وبين عريسها فى ليلتهما الأولى وكيف جعلته يجن بها ويضربها بالكرباج دون أن تبوح هى بكلمة واحدة.

وشمرت عن ساعديها تعرض عليهن آثار الضرب ثم تساءلت وماذا فعلت الاخرى ؟ لا نعلم شيئا فانها لم تقل كلمة واحدة عن ليلتها الأولى ، ولكنهن يعتقدن أنه تغلب عليها بنكاته ونوادره.

ومضى السمر فى بيتنا كل ليلة حول حسنين يتحفهم بنوادره وحكاياته بين رشفات الشاى ، ثم ينزلقون دون أن يشعروا الى غطاس بيه ولجنته والى المشاكل المعلقة فوق رؤسهم .. أيصرفون أم يمتنعون ؟ ثم بعد الصرف هل يبقون أم يرحلون ؟ وقال حسنين مرة :

– بلا بلد ، بلا كلام فارغ ، أتركوا كل شئ واهجروا الديار فسوف تصبح خرابا ينعق فيه البوم ، البلد تطهق وتقتل الانسان كئيبة يدب فيها الحزن على قدمين .

وقالوا له : معلوم طول عمرك فى مصر .. معلوم يا عم ..

– يا سلام على مصر أم الدنيا .. وجوه سمحة ومناظر تشرح .

– ومد الشيخ فضل يده وأنشب أصابعه فى التراب ، وربت بيده الأخرى على ساقه الخشبية وقال :

– ولكن الأرض يا حسنين عزيزة ، تماما مثل الأبناء .

– الأرض .. الأرض .. وماذا تملكون ؟ شرائح لا تزيد عن اذن حمار .. ثم تصرخون : الأرض

.. الأرض وكأنما تملكون الأبعديات أنا بنفسى سأشترى أرضا فى الطود .

- وأين الطود ؟

- بالقرب من الأقصر أبو حجاج .

- وهل يجرى النيل أمامها ؟

- كلا النيل بعيد ..

- وهل فيها مشروع ؟

- ولا مشروع.

- إذن فالارض قاحلة لا تنبت زرعا ، أرض بدون ماء ليست الا تربة للموتى ، مأتم .جسد بلا روح ، يا شيخ فضك من هذا الحديث .

- ولكن الأرض هناك بتراب الفلوس ... الفدان بجنيهين .. يا بلاش أرض شديدة لم تزرع منذ أيام نوح عليه السلام.

وأطرق فضل وكأنه قد تذكر قصة حام ووجهه الأبنوسى ، وتفرس في وجه حسنين وكأنما هو حام بوجهه اللامع ثم رفع رأسه وقال :

- وهل نحفر آبارا فيها ؟
- كلا ، بل ستقيم الحكومة مشروعا للرى .

وقهقه الشيخ فضل ، فانه لا يصدق أبدا أن حكومة الباشوات يمكن أن تفعل شيئا غير إغراق الناس وسرقة حياتهم وكد عمرهم ، حكومة لصوص .. وحرامية..

وعاد حسنين يلح عليهم أن يهجروا المنطقة كلها إلى بلاد الله الواسعة ، ثم مضى يتندر على ساق الشيخ فضل وعلى مهارة النجار الذى أعدها له من خشب الورد ، وأخذ يقلد فضيلة وهى تستعد لاحتضان فضل فى منتصف الليل . ما الذى تفعله المسكينة مع هذه الساق ؟ يقولون انها تدهن الساق بالسمن حتى تطيق ملمسه ، ويشيعون انها ضاقت بها مرة وأرادت أن تكسرها

وترمى بها فى النار لولا أن تداركها الله برحمته فى آخر لحظة .

وتلقى فضل دعابته بمرح ونادى عبر الديوانى .

- بطة تعالى يا بطة ، اخبرى زوجك أن ساقى لا تؤذى أحدا تعالى ، ورنت الضحكات ناعمة فى الحاصل الصغير .

وفى هذه اللحظة دخل القاعة برعى والمأذون واجمين موهومين يصعدان الزفرات الحادة ، وحدق الرجال فيهما موقنين أن شرا مستطيرا قد حدث فى دار العمدة، إلاأنهم أطبقوا الشفاه ، ثم حاولوا المضى فيما كانوا فيه من مرح . غير أن المأذون انفجر كما ينفجر البركان فى وجوجهم :

المنحوس ابن الكلب .. عملها ابن الكلب ! وران الصمت فى لحظة راح المأذون بعدها يردد الكلمات نفسها ، يصاحبها برعي بايقاع حزين على يديه يفركهما ويدق بهم على صدره ، وضاق حسنين بهما فصاح :

- ما الذى حدث يا صابر ؟ ولد يا برعى ما الخبر ؟

والذى جرى كان مفجعا ، انغرز فى قلوبهم كما تنغرز النصال الحادة ، فقد هتف المأذون :
عمدة(...)
ياسيدى صرف
صرف..صرف فى داهيه
قالها حسنين ثم صمت بعد أن لاحظ الوجوم والتحفز على وجوه الناس من حوله ، وجوه صامتة عابسة ، ترتفع بعيونهالتراقب حركة الشيخ صابر الذى ارتمى على دكة عالية يمسح عرقا تصبب على جبينه رغم برودة الجو .. ودفع الشيخ فضل «برعي» فى صدره وقال:
- برعى .. قل لنا كيف تم ذلك ؟

وتطلع برعى الى الوجوه فابتأس فوق ابتئاسه ، وراح يحكى فى كلمات متقطعة لاهثة ما تناهى اليه من اخبار الدر ، منذ أيام رسا فى الدر رفاص نزل منه المستر هيس ، الرجل الذى رطن معه عبده الفرنساوى باللاوندى ، وكان حانقا فمضى يصرخ هنا وهناك دون جدوى : بات ليلته فى استراحة المركز ، ثم بكر فى الرحيل الى (كروسكو) .. ليلتقى بالرجل .. كان يعرف أن العمدة متورط فى مشكل ، فقد سجل باسمه أطيان جماعة من الكشاف ودأب على تعجل صرف التعويضات عنها قبل أن يتمكن خصومه من اقامة الدليل على بطلان ملكيته لهذه الأطيان ، ويقولون : أن المستر هيس عرف من الشكاوى التى أرسلها الكشاف الى المركز أن عمدة (..)

سيقبل الصرف فزاره فى بيته وسهر معه ، ولم يبرح القرية الا بعد أن عقد اتفاقا صريحا مع الرجل ، يزيد الخواجة تعويضاته ، ويتكفل بشطب كل القضايا اتى ترفع ضده ، ويتعهد العمدة من ناحيته أن يفك الحصار المضروب حول اللجنة فى قريته وأن يحض الناس على صرف تعويضاتهم .

- لعنة الله عليه .. نصرانى ابن كلب ..

قالها الشيخ فضل ثم استدرك :

- ولكن الذنب ليس ذنبه ، اللوم كله يقع على الرجل الذى باع نفسه ، فانبرى المأذون يقول :

- والمصيبة أن «بدر أفندى» حينما علم بالحادث عجل فالتقى به ، وراح يستعطفه بل عرض عليه أن يعقد صلحا بينه وبين الكشاف ولكنه وعد دون صدق . وفى الصباح عند طلوع الشمس عرض نفسه على رئيس اللجنة وصرف تعويضاته ومن بعده تقاطر الناس واحدا بعد واحد ، وانتهت اللجنة من عملها فى يومين وحزمت أمتعتها وهجرت القرية إلى حيث لا يدرى الناس .

- المتعوس ابن المتعوسه ، مأواه جهنم باذن الله ..

- بل سيكون الجزاء عادلا يا فضل وعاجلا ، سيصاب بالعمى فى حياته ألم يحنث بالفاتحة ؟!
وصاح المأذون :

- داهية أن يعرف الناس فى بلدنا بالخبر فيتقاطرون هم أيضا على اللجنة !

فأحس برعى بندم شديد منذ توقف بحسن نية عند كل مصطبة يشرح الخبر ويذيعه ابتغاء فضح الرجل ، وتحذيرا للناس من مصيره الأسود ..

وران الصمت والوجوم ، حاول حسنين أن يطلق أحدى نكاته فأشاحوا عنه عابثين ثم قاموا ينصرفون واحدا بعد واحد .. وعلى وجوههم أمارات حزن وقلق وحيرة تثقل صدورهم .

وناموا نوما قلقا حتى أشرق الصباح .

وقبل أن تنتشر أشعة الشمس فى الوادى كان برعى ووابور والمأذون وعدد من شباب النجوع الاخرى قد ضربوا حصارا محكما حول دار العمدة ، يحولون دون وصول الناس اليها ويراقبون

الموظفين وتحركاتهم فى صبر ، ويبتسمون حين يجدون العمدة يطل عليهم من النافذة ليلقى اليهم نظرة تشجيع .

فالجموع تنتظر إشارة البدء لتعبر الطريق الفاصل بينهم وبين اللجنة فى سرعة البرق لتطرق على أبواب اللجنة لتصرف وتستريح من كل هذا العناء دفعة واحدة..

فنسوا حقولهم ، فلم يعودوا يروونها الا فى الليل ، ولاحظ وابور وهو يتنقل بين القريتين أن الخور قد بدأ يدب فى النفوس ، وأدرك أن الطعنة التى وجهها عمدة (....) للقضية يمكن أن ينفذ إلى كل الصدور ، فأمسكت به حمى الشكاوى والتظلمات والتنقل السريع على المصاطب .

وألقى بدر أفندى بثقله فى المعركة فمضى يتنقل بين القرى ، ولا يعود الى المكتب الا ليرسل البرقيات والبيانات إلى كل مكان .

وعلى طول الخط وفى كل مكان كان الرفاص نفسه يرسو لينزل منه نفس الوجه المتقع يضحك فى وجوه الناس ، ويتندر معهم ويبدى اعجابه الشديد بعاداتهم وكرمهم وشهامتهم وينسبهم إلى العرب والاتراك .. فاستمال قلوبا وخطب ود القليلين بإيغار صدورهم وإثارة حفيظتهم ضد المصريين .

وفجأة وفى أصيل أحد الأيام والرجال يخترقون طرقات النجع عائدين الى بيوتهم وحقولهم بعد أن يئسوا من محاصرة دار العمدة رفرف العلم الأخضر فوق سارية رفاص أبيض رسا عند النتوء الشرقى ، وقفز الى الشاطئ الوجه المتقع نفسه ، فدب الذعر فى قلوب بعض الناس يخشون أن يطب عمدتهم فى «الخية» .. المنصوبة له .. بينما أمل الآخرون أن ينهى الرجل الأحمر عذابهم بكلمة واحدة.

ولكن الفريقين من الناس فوجئوا فى صباح اليوم الثانى برحيل العمدة مع الشيخ حسين إلى الدر .

ومر يومان أشيع بعدهما أن العمدة قد رحل إلى أسوان ، فارتبك الناس ، ثم عادوا يتجمعون صفوفا حول داره يراقبون مقر اللجنة بقلوب واجفة مذعورة ، ينتظرون أية اشارة من ابن العمدة الذى أخذ يصرف الأمور فى غيبة أبيه .

****



وفى غيبة العمدة عاشت القرية فى مشاحنات وصدام لاينتهى، بينما فى بيته تدب الحركة نفسها: غطاس بيه وموظفوه يلعبون الورق. ويطلون على الجموع من خلف الستائر. والابن الشاب، ابن العمدة ونائبه وزوجة العمدة يعيشون فى رعب دائم خشية أن يعود الوجه الأحمر من جديد.

وقد ظل الرجال والنساء يعسكرون أمام الدار فى مجموعات تتناوب الحراسة فلم يجرؤ أحد على اختراق سياج المقاطعة. الا أن الرجال كانوا ينصرفون عند الاصيل، يتناقلون الأخبار التى ترد اليهم من هذه القرية أو تلك.. فى شمال كرسكو وجنوبها مازالوا صامدين. وفى الغرب: توماس وعافية مازالوا يقاومون. ثم دار الهمس عن قرية فى أقصى الجنوب عند حدود السودان.. حيث شجت الرءوس أمام مقر اللجنة وسيق بعض الناس مكبلين بالحديد الى المركز.. والبيانات والشكاوى لاتزال تنهال على مكاتب الحكومة فى مصر، والبواخر لاتزال تقذف إلى المرافئ باعداد كبيرة من الشبان العائدين لصرف تعويضاتهم، ولجان المساحة ومندوبو اعادة التقدير لايتحركون، بل يتركون الناس يفرغون شحناتهم فى بيانات وتظلمات تلقى فور وصولها الى سلة المهملات ليحرقها الفراشون النوبيون والسعاة دون أن يعلموا من أمرها شيئا، والمستر هيس وحده مع عدد من كبار رجال المساحة يتصرفون بجرأة وينصبون الفخاخ لإغراء الناس. ومازال برعى والمأذون والمحامى ووابور يكذبون الاشاعات بل يختلقون غيرها مؤكدين أن القرى كلها صامدة، ويتلون عليهم رسائل مشجعة تأتيهم من النادى فى مصر. ومن بدر أفندى فى الدر.

ولكن فى أمسية من الأمسيات تناهى الى الاسماع فجأة خبر غريب اهتز له الناس. لقد صرف الجزار.. عبد اله الجزار صرف تعويضاته.. ياللملعون.. وكم صرف؟ زاده مندوب المساحة خمسين جنيها.. هكذا قال نوح فى لهجة انسان يريد أن يعرف وقع الخبر على الناس. الا أن برعى اعتلى مصطبة عالية أمام بيت الشيخ جعفر وصرخ: أنت كذاب. الجزار لم يصرف. اياكم أن تقتربوا من دار العمدة.

وطوح بالنبوت فوق رأسه متهددا متوعدا وصاح من جديد: كذابون، الجزار رأيته فى الصباح. لم يصرف .. لم يصرف حتى العصر وليس هناك صرف بالليل..

واندفع صوت أجش يقول.. أنت نائم ياسيدنا فى العسل.. الكلوبات حولت الليل الى نهار هناك..

– كلوبات..! سنكسرها. تعالوا نكسرها..

ودون أن يعى أطلق عواء الذئب رهيبا تردد صداه فى النجع فأثار نباح الكلاب ودفع «أوش الله» الى الوقوف على عتبة المتجر ليردد العواء نفسه. ولسبب لايدريه على وجه التحديد انطلق برعى يسب ويلعن العمدة ونائبه؟. بل أمسك به من كتفه يهزه ليفيق من النوبة الهستيرية التى ألمت به: العمدة أبى أن يتفق مع الخواجة الانجليزى فساقوه الى أسوان. الله يعينه.، حتى أخباره لم نعد نعرفها. وظهر وابور فى هذه اللحظة ورأى «برعى» يطوح بالنبوت بينما المأذون يتعلق بذراعه، وأدرك وابور أن «برعى» هائج كالثور.. مجروح الكبرياء.. ألم يكلفه بدر أفندى بالحيلولة دون اختراق سياج المقاطعة. أنه لن يصدق أن أحدا قد غدر به. فمضى يصرخ: كلا أنتم

كذابون. الجزار لم يصرف. وزمجر حتى اختنق حلقه بالدموع وتهاوى على المصطبة وهو لايزال يسب الناس. لقد فاجأته حالة هسترية عجيبة. المسألة كلها عنده مسألة كرامة وجدعنة. لقد خانه الناس وخانوا معه بدر أفندى. كلاب. بهايم تماما كما وصفهم المحامى عشرات المرات. وليست هناك قوة تجعله يصدق أن الجزار قد تجرأ وحنث بالفاتحة التى قرأها. واقترب وابور منه وهمس: اهدأ يابرعى لنتدبر أمورنا. لقد تسرب آخرون الى اللجنة وأنت تصرخ هنا كالمجنون، ثم أمسك به من كتفه ومضى يهمس من جديد: اهدأ. ياولدى ستجن. ماعليك أنت لقد سعيت وسعينا وقد نفشل، ألم يفشل حسين طه؟ كل الناس يخسرون، ألم تخسر ابدا ياولدى فى لعبة «الطاب» أو الحجلة؟ فلم يجب الغلام بل ومضت عيناه ببريق غريب هب بعده ولقفا يصيخ السمع، ويمد بصره الى منعطف الطريق. فمن هناك ارتفعت جلبة أخذت تعلو، فاستداروا جميعا على أعقابهم يمعنون النظر، ويحدقون من خلال الظلام لتقع أبصارهم على نفر من الرجال يستديرون بواحد يناقشونه الحساب فى أصوات عالية: ستعمى مادمت قد حنثت بالفاتحة. سيصيبك الكساح. خراب ذمة وبيوت يارجل ياضلالى.

فاقتربوا منهم ليجدوهم مستديرين بعبد الله الجزار. يطل عليهم بوجهه الكالح تلمع عليه حبات العرق رغم لفحات النسيم. كان خائفا يحاول الافلات من الذين أحاطوا به. وفى عينيه أمارات خزى ومذلة.

وتفرس برعى فى وجهه وأدرك كل ماكان يعتمل فى صدر الرجل: لاشأن لكم بى. أتركونى استرح منكم ومن العذاب. أننى لا أعرفكم، لست من نجعكم وسأرحل بعيدا عنكم. ومد برعى يده وأهوى بها على وجه الرجل فى لطمة قاسية بدأت بها معركة جمعت الناس من كل درب. حتى البسطاوى ترك عروسة وجاء والحناء لايزال يبرق فى كفيه يمسك بهما نبوتا تطوحان به فوق الرءوس..

وازدحم المكان وارتفع الصوات، ثم تمكن أحمد عوده ونوح والشيخ جعفر من فض المعركة.

وتلفت الناس ليجدوا الجزار يعدو الى بيته، وهو يضم الى صدره قميصه ليطمئن على أوراقه الخضراء المودعه فى جيب الصديرى. والتقى به الشيخ فضل. فواجهه برعشة تشمل جسده. بعثتها نظرات الاحتقار التى ومضت فى عينى غريمة الحادتين. فلم يبال بل مر به سريعا ليدلف من باب بيته ويرتمى على المصطبة الداخلية.

وفى الطريق العام كان المحامى والمأذون وبرعى يسرعون الخطى فى لهاث.

وهذه هى دار العمدة من جديد: الستائر مرفوعة. والكلوبات تفرش الارض بنور كشاف حوّل الظلمة الى نهار. وهؤلاء هم الناس يتسللون الى داخل اللجنة ثم يعودون واجمين وقد وضعوا أيديهم على صدورهم ويتلفتون، وكأنما هم لصوص يعودون بعد غزواتهم الليلية.

وانهال برعى ورفاقه بالسياط على ظهور الناس. فانبعثت آهات وصرخات بعثت الذعر، فى قلب الضابط الصغير، فهب من مكانه الى جانب الخزانة الثقيلة وانتصب على عتبة الدار، يصدر أوامره، فدوت طلقات الرصاص وتطايرت فوق الرءوس تشيع الفزع والرعب.

انبعث صوت الرصاص غريبا فى القرية. أول رصاصة سمع الناس دويها. أول دوى من نوعه

ردد الجبل صداه. أنهم لم يسمعوا صوتا مثله من قبل الا فى المدن. ذاكرتهم تعى صوت الدوى على الطبول وارتطام ألواح الخشب بالماء أو انهيار جدار: أما هذا الصوت البارق فأنهم لم يسمعوه قط. الا الذين عاشوا فى الصعيد أو فى قرى الوجه البحرى أو العجائز الذين حضروا الدراويش.

انبطح المحامى على الأرض حين سمع الدوى، أما برعى فانه قد التقط بشكل غريزى حجرا صغيرا قذف به وجه العساكر. وقلده الرجال فانهال الزلط والطوب ودوت الرصاصات. وخدشت ساق برعى خدشا بسيطا أثار جنونه. فاندفع الى العساكر فى مغامرة جنونية كادت تقتله لولا أنه ارتطم بجسد المحامى الذى كان قد انبطح على الارض، وسمع ، وهو يتمرغ فى التراب، صوت نائب العمدة: حضرة الضابط.. ماهذا ياسعادة البيه؟ اسحب عساكرك والا سوف يحدث مالايحمد عقباه. وأشار الى الخفر الذين كانوا يسرعون الى المكان مصوبين بنادقهم الى العساكر.

وأحس الضابط الصغير بحمق أوامره. فصاح فى رجاله: كفى.. انسحبوا الى الخلف. بينما اندفع نائب العمدة يقو للناس: كفى.. عودوا الى بيوتكم.

ثم شددت الحراسة على مقر الجنة..

* * *

وباتت القرية ليلتها ساهرة لاتنام ومازال بعض الناس متماسكين لايريدون أن يقتربوا الى مكاتب اللجنة فظلوا يقسمون على ذلك، الا أنهم برغم ايمانهم كانوا موقنين أن شيئا مالن يوقف مد الناس الذين سيصرفون منذ غد، إن جسر المقاطعة قد كسر الى غير رجعة!

وراحت داريا تدور هنا وهناك، وتتخذ مظهر الحريصة على مصالح النجع، وتسب وتلعن عبد الله الجزار، فحدق الشيخ فضل فيها مرة وقال فى سخرية: نجسة. كل شئ باسم جمال ولاتستطيع المنكودة أن تصرف. لو كان فى يدها لصرفت فى أول لحظة. ألم تكن هى التى حاولت أن تلاقى «غطاس» فى منتصف الليل؟

وانطلق حسن المصرى يحكى عن الرصاص فى بلاده: أماهنا فطلقتان من الرصاص.. لعب عيال! مضى يحكى والناس لاهون عنه وعن الرصاص الذى بعث الرعب فى قلوبهم بمشاغلهم.. ماذا يفعلون فى غد؟

منذ أيام مضت بدت المقاطعة قمة صاعدة، ثم أخذت الرياح تقتلع منها الحجارة الصغيرة ثم الصخور الكبيرة وتزيح عنها الرمال حتى بدت عارية تنخر العاصفة فى قلبها.

ولم يعد أحد يذكر اسم بدر افندى. ألم يخذلوه؟ أولى بهم أن يتناسوا الرجل ويتركوه يعيش آلامه وحده يتجرع مرارتها فى كأس طافحة. وبدأ يتردد على الألسنة: الجوع كافر. ولو كان الفقر رجلا.. آه.. لو كان رجلا. قالها المأذون فى حسرة ورددها برعى بعد أن حفظها وكتبها المحامى فى رسالته الى النادى والى الصحف.

ومر يومان. ثم يوم ثالث ورابع. والجسر يتحطم واليأس يدب فى قلوب دعاة المقاطعة فاستكان المأذون يصلى، ويذكر الله وعاد وابور الى طاحونته مهزوما يهز رأسه فى أسى، ويلقى على الناس نظرة ازدراء. أما برعى..فقد مضى يغرق أحزانه فى العرقى يعب منه.. ثم يندفع الى الارض.. يكدح طول اليوم. ويحوم حول شريفة.

وأخذ المتجر يستوفى ديونه. ولأول مرة شهدت فى درج البنك عشرات من الأوراق الخضراء الجديدة تبتسم فى دلال وترسل حفيفا ممتعا كلما مستهايد. وأخذ قلم الكوبيا فى يد أحمد عودة يشطب السطور الاخيرة فى نشوة ويمزق الصفحات. الوحيدة التى لم يمتد القلم الى صفحتها هى داريا سكينة التى راحت تعيش فى قلق متصل، تعدو الى مقر اللجنة، تستعطف دون أمل، وتعود خائبة تدعو على جمال وعلى زنوبة، وتمسك بخناق شريفة وكأنها المسئولة عن شقائها!!

وتلفت أبى مرة الى أحمد عودة: أنصرف نحن غدا ياأحمد؟ قال: صبرك بالله علام العجلة. دع الناس يصرفون وماذا نخسر لو صبرنا؟

- لاشئ ولكننا- لو صرفنا- نستطيع أن نتدبر أمورنا.

* * *

وفى ضحى اليوم التالى. مضى بى أبى إلى دار العمدة..بعد أن ارتديت أحسن ثيابى.وأنا أحس بنشوة غريبة، فسوف أصرف كما يصرف الكبار تعويضاتهم- لافرق بينى وبين أبي ولا الشيخ فضل، حتى برعى لم يصرف مثلى أنا.

واخترقنا صف العساكر وتخطينا عتبة الباب، ودلفنا الى الدهليز لنجد الشيخ جعفر يطل على رأس غطاس بيه ويحدثه باهتمام فى مشكلة داريا سكينة، ويبدو أن صبر غطاس كان قد نفد إذ احتقن وجهه وقال:

- نقول لكم ..تور ..تقولون احلبوه..ياهو.. لابد من توكيل ثم رفع رأسه وشملنى بنظرة نافذة، وارتد يرمق أبى ويحييه ويسأل.

- الاسم أظنه أمين.

- نعم ياسعادة البيه..أمين هاشم.

ثم أخذ يعبث فى دفتر كبير بسرعة غريبة وهو يهمهم حتى توقف عند صفحة عريضة فيها سطور قليلة يتصدرها اسم ابى...سطور بالأحمر والأزرق وجنيهات وقروش وملاليم. أمامها خانات لم تملأ بعد.

ومد الرجل يده ووضع تحت صفحتين أو ثلاث شرائح من ورق الكربون، وأخذ يكتب بسرعة ويهمهم بأرقام. ثم توقف ليقول:

- أليست هذه أملاكك؟.

ومضى يعدد عدد أشجار النخيل وغرف البيتين الكائنين بنجع الزينية والقراريط التى نملكها فى الحوض البحرى. وهز أبى رأسه بالإيجاب. فاستدار البيه الى الخزانة الثقيلة وسحب رزمة من الأوراق المالية، ومضى يعدها بسرعة فائقة جعلت عينى تتحركان بنفس السرعة. ثم وضعها فى يد أبى الذى أخذ يعدها بدوره حتى اطمأن ودفع بها فى جيب الصديرى..ودفعنى إلى الأمام حتى أوقفنى أمام رئيس اللجنة اسمك حامد؟..نعم.. هو ابنى..البيت الكبير مسجل باسمه.ثمانى غرف. وحوش وأربع حجرات مسقوفة. البناية جديدة ياسعادة البيه.

وأمرنا الرجل أن نوقع. ثم طلب منا أن نبصم فبصمنا ووقع جعفر شيخ الحصة من بعدنا. ثم

اندفعنا الى الخارج لنجد الشيخ فضل ينتظرنا فأخذنا ندب فى الطريق لنعود إلى النجع.

كنت أود أ أنطلق إلي أمى بأقصى سرعة حتى أضع الجنيهات الاثنين والثلاثين فى يدها، فهى التى أصرت على تسجيل البيت باسمى، وظللت ممسكا بها فى جيبى فى حرص غريب. وبدلا من الإسراع الى النجع أصر أبى والشيخ فضل على تنكب الطريق العام إلي شاطىء النيل يشيران إلى البر الغربى، إلي الرمال الصفراء والقفار المحدقة بكران نوج..وقال فضل:

- يمكن أن نعبر النيل غدا لنشهد المكان بأعيننا..

وأجاب أبى: اذهب اأنت يافضل أما أنا فإننى أخاف من ذلك القصر ،والقفر الذى حوله، اذهب انت..

- سنعمرها ياأمين. الأرض الصفراء ستخضر. قلت لك أننى لن أرحل من هنا، ستمتد بيوتنا علي البر الغربى. على تلك الأرض المرتفعة التى لن يبلغها الطوفان.

وأخذت أنا أمعن النظر فى الهضبة المرتفعة حول كران نوج، وأتخيل البيوت هنالك، فسرت فى جسمى رعدة. ثمّ تبعتهما وهما يتحركان فى بطء حتى حاذينا النتوء الشرقى، وهنا قربنى أبى منه ومد يده الى جيبى، وانتزع جنيهاتى ودسها فى جيبه وأنا أحدق فيه مشدوها. كنت أفكر فى أمى. فهى التى أصرت علي تسجيل البيت باسمى.فلماذا يأخذها أبى؟. ولكنه طيب خاطرى حين قال: لاتخف ياحامد. قل لأمك أننى سأحتفظ لك بها الى يوم سفرك الى الأزهر. فسكت على مضض...وأردت أن أقول شيئا إلا أن المشهد الذى فاجأنا فى النيل استرعى أنظارنا جميعا. فاستدرنا لنرى صنادل سوداء طويلة تقطرها بواخر صغيرة تصعد النيل. مزدحمة بأمتعة ثقيلة تكاد تغوص بها فى اليم.

وعلى النتوء كان مصطفى يراقب الصنادل، يلوح لها بمنديل أبيض فابتسم أبى وقال: هذا الولد مجنون. فأجاب فضل: لعله يلوح لأناس يعرفهم فى البواخر.

ودنونا منه وفاجأناه فأصيب بارتباك. قال لنا وهو يتلعثم. : عزال المدرسة.. وصمت.: ثم أضاف الصنادل تنقل عزال المدرسة من الدر إلى عنيبه.

- ولماذا ينقلونها يامصطفى؟.

- إلى المدرسة التى يبنونها في عنيبة ياعم فضل..

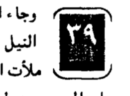
وضحك أبى ، ووقفا يراقبان الصنادل بينما انضممت أنا إلى مصطفى أشد على يده فى حماس، وشعرت وأنا أشد على يده أن عنيبة هى الأمل الذي يجب أن أسعى إليه..

وتريثنا حتى غابت الصنادل عن أنظارنا، وعدنا الى الطريق الزراعى نخترقه، حتى أوفينا على السفوح المرتفعة حيث كانت تصطف بيوتنا الطينية. وتوقفنا عند باب الشونة فى ذهول فقد انطلقت داريا تخرج من بيتها وتندفع الينا وهى تهتف..أمين.. أمين ياكلثومة جمال سيعود. وسنصرف التعويضات..

وتلقيناها بالابتسام، ثم تناولت منها البرقية وقرأت فيها: انتظرينا على المحطة: جمال..فقال الشيخ فضل: داريا..جمال لن يعود وحده..لكنها لم تأبه بشيء.. بل مضت تخترق النجع تصفق وتهتف وتزغرد..ثم ارتدت الى بيتها..ومن خلف الجدران تناهى إلينا صوتها: زغردى يابنت ياشريفة..زغردى يابخيته..جمال سيعود.

وانطلقت الزغاريد فى دفقات حنونة. ودبت أقدام الناس تعبر الطريق الى بيت داريا سكينة، ومنذ الصباح ستطلى الجدران من جديد. ويرتب البيت لاستقبال العائد الجديد..

ولن تمضى أيام طويلة حتي يقف جمال أمام غطاس أفندى..



وجاء اليوم الموعود ووقفت داريا وشريفة ولفيف من رجال النجع ونسائه على شاطى النيل عند مرسى الباخرة. يظللون عيونهم بالأيدى ويراقبون حركة الباخرة التى ملأت النيل بأضوائها الزاهية وهى تعبر النتوء وتتوسط النيل ثم تميل برأسها لتتطامن على المرسى بعد لحظات.

تساندتا بقلبين واجفين تتعلق عيونهما بالباخرة وكأن الحياة كلها تعيش على متنها..كيف يكون لقاؤه؟ وهل يأتى وحده أم تأتى معه البيضاء؟.. تبا لهذه الغجرية لماذا تتبعه إلى آخر بلاد الله؟.. ليته عاد وحده حتي نستمتع به وحدنا.

وتهادت الباخرة أمام عينيهما.. ثم أوقفت محركاتها وارتطمت بالشاطىء واهتزت وهى تطلق نفيرا داويا اندفع الناس معه إلى السقالة التى مدت من الباخرة الى الشاطىء. وأطل جمال بوجهه الأسمر وبسمته الوادعة اللطيفة وقامته المديدة. كان قد ترك طربوشه فى مصر ولف على رأسه عمامة بيضاء من فوق طاقية زاهية الألوان..

وتفرست داريا فيه وهو يلوح لها بيده فانخلع قلبها، فالى جانبه كانت فتاة بيضاء نحيلة واسعة العينين ترتدى جرجارا طويلا أعدته فى مصر وعلى رأسها طرحة خفيفة ملونة تنسدل فوق شعرها الفاحم الجميل، وتسترخى على كتفيها، ويلتقى طرفاها على صدرها فوق رمانتين بارزتين.

إنها تتشبث به وتلقى نظرات سريعة على الشاطىء وأجمات النخيل، وتبدو مذعورة كاسفة

البال وكأنها تتساءل: ياه.. كل هذه الوجوه السوداء التى لاتبين فى الظلام.

وخطا بها جمال إلى الشاطىء وهى ترتد الى الخلف كأنما تريد ألا تبارح الباخرة. وعند السقالة ألقت داريا نفسها عليه تعانقه وتبلل وجهه بالدموع وتصرخ: جمال..حلم أم علم ياولدى؟! جمال أنا أمك ياجمال يحرسك الله..هل عدت حقا؟ جمال..أم أنا واهمة؟..

وتوقفت زنوبة عند خطوتها الأولى تمعن النظر فى حماتها وفى شريفة مرتبكة تسأل نفسها: كيف يكون استقبالهما لى؟. أنهما ولاشك تكرهان زوجة أبعدت عنهما جمال سنين طويلة عاشتا خلالها فى حنين جارف اليه. يالهذه الأم لكم تحبه! وما الذى تقوله تلك الفتاة؟. إنها ترطن ولا أفهم كلمة واحدة من كلماتها..أتراها تسبنى وتنفر جمالا منى..كلا إنهما لم تفرغا لى بعد..

وتنبه عبده بتيت إلى زنوبة، فأقبل عليها يقول أهلا بالست..شرفت البلد..بلد جمال..متشكرة..محسوبك عبده الفرنساوى عم جمال.، كيف حالك؟ الحمد لله ياعم عبده..بنتك زنوبة خدامتك.

وتعرفا على الفور ثم جذبها الرجل إلى جمال وأمه وشريفة وتنبهت هذه إليها ، ومضت تحتضنها فى غير ود ثم جاء دور الأم التى حدقت فيها لحظة ثم شدت على يدها فى غير ود. فطفرت الدموع الى عينى زنوبة وأخذت تحبسها حتى لا تسبب ضيقا لجمال..

إلا أنها استطاعت فى أيام قليلة أن تألف البيت وجدرانه المتشققة وأن تأنس اليهما. لقد هدأتا وأخذتا تكرمان وفادتها ولا تسمحان لها بأى عمل. ومضى جمال يهون عليها ماتلاقيه من عنت أمه وشقيقته حتى قررت أن تكسبهما إلى جانبها بنفسها.

ولم يكن غريبا أن تقول شريفة لأمها بعد أسبوع: لسانها مثل السكر. وأشهى من السكر.فقالت أمها : مكارة ياشريفة..بنت مصر..

فقد مضت زنوبة تقص عليهما فى كل ليلة نوادر مصر وحكايات لاتنتهي عن سيدنا الحسين والسيدة زينب والسينما والتياترو والتراموايات حتى ألفتاها وإن ظلتا تنقمان عليها تصيدها لجمال وإبعاده عنهما كل هذه السنين.

إنها على كل حال ضيفتهما وزوجة جمال. وهو قد عاد وكفاهما أنه قد عاد بها أو بغيرها..

***

ودخلت الزوراق الخضراء الجديدة بيت داريا، وراح جمال وجاء إلى المتجر يحاسب أبى ويسدد ديون أمه حتى استوّفاها على آخر مليم. وارتسمت البسمة على وجه داريا وشريفة ولم تعد تترقرق الدموع في عينيهما بل حلت الفرحة محلها..

واستجمعت شجاعتى مرة وقصصت على أمى كيف انتزع أبى مالى وأودعه فى جيبه فذرفت

دمعتين وعادت الى خطوطها المستديرة ترسمها فى أناة. حتى أصابها الكلال..فنامت نوما متقطعا أخذت تهذى فيه بكلمات مبهمة.

ورغم النفور الذى كنت أشعر به نحو بيتنا الكبير، فقد أخذت ألوذ به فى هذه الأيام كثيرا..أتمتع بدعابات حسنين ونوادره وأشاغب بطة التى لم تكن قد ألفت نوادره بعد..

وقد عاد الصفاء بيننا وبين حجوبة، فإن هذه قد اقتنعت أنه لافائدة ترجى من نزاع يستعر بينها وبين ضرتها حول بيت حكم عليه بالاعدام، بيت سوف يكتسحه الطوفان فلم تعد تغشاه كما كانت تفعل قديما.. ولم تعد تسخر من أمى واغماءاتها ، بل تجنبتنا ولاسيما بعد أن أيقنت أن أبى قد نقل إلى جيبه جنيهاتى التى صرفتها تعويضا عن هذا البيت الكبير..

فأخذت تنظر الى فى اشفاق وتقول: كل شىء الى زوال ياحامد، البيت الكبير والبيت الصغير. فأهز رأسى وأداعب محمود الصغير.. أدغدغ باطن قدمه فيضحك ويبرطم بأصوات مبهمة لاتفهم.

ولم تعد حجوبه تردد أحاديثها عن إرسالى إلى مصر لأشتغل. فإن أحوال المتجر تحسنت منذ أخذ الناس يسددون ديونهم. وعادت الرفوف تزدحم بالطرح الملونة والفوال وبأنواع الحلوى المختلفة..

وبدأ الناس يتجمعون كل ليلة فى الساحة الممتدة أمام المتجر يتحدثون عن المصير الذي يتوقعونه. وعن الطوفان. ومتي يكون؟..

وعادت الحياة تجرى كما كانت تجرى. الرجال يتسلقون النخيل. والأطفال يمرحون فى ظلالها، والنساء ينزلن الى النيل وقد ركزن على حوايات فوق الرءوس كويبهات نحاسية يتوهج عليها ضوء الشمس، وتسيل منها قطرات الماء تنحدر فوق النحور وتبل الثياب وتلصقها على النهود.

وعلى الأرض التى تعرت من عيدان الذرة أكوام من العلف تجف، وتحزم حزما صغيرة معدة للرحيل، بينما المتاجر تعفر الشون بالرماد لاستقبال البلح. وقد بدأت الطلائع الأولى للمراكب الشراعية السوداء تصعد فى النيل لترسو على المرافىء من جديد. وعاد النيل إلى ثورته فبدت أمواجه الكاسرة تكاد تقتلع النتوء وتحمله بعيدا الى الشمال، وتضرب قوائم السواقى والشواديف

ضربات عاتية تبعث الرعب فى قلوب الناس.

وعدنا نحن الصغار الى صوامعنا نعد الليالى الساحرة حين تنطلق الفوانيس ترسم هالات مضيئة حول أقدام فتية تدب حتى تصل إلى أجمات النخيل.

ووقفت أنا حائرا ؟أمام صومعتى الصغيرة لاأدرى ماذا أفعل؟ فقد تزوجت الشقيقتان ورحلت إحداهما بينما الأخرى تنتظر يوما قريبا ترحل فيه إلى مكان بعيد، ولم تعودا تهتمان بالصوامع ولا بالفوانيس، وقد مات بعدهما في نفسى سحر الفجر والصومعة الصغيرة، فضربت على جانبيها بعنف وركلتها وأنا أقرر ألا شأن لى بعواء الذئب ولابالسهر بين النخيل. ومازلت أعدو إلى الكتاب وأعود منه وقد دميت قدماى فى الفلكة، إذ تحولت الآيات منذ لقائى بمصطفى الي طلاسم لاتستقر فى ذهنى ، بل أصبحت أعافها واجترها لتتسرب من ذاكرتى حين يأمرنى الشيخ بتلاوتها.

والقرية هي نفس القرية والنخيل هى ذات النخيل وساقيتنا مازالت تدور فيها بقرتنا والشواديف مازالت تركع وتقوم..ولم يتغير فيها شيء غير ثقوب فى الدلاء رتقت منذ حين.

ما من صورة تغيرت فى قريتنا. حتى بيوتنا ظلت كما كانت. ما من شىء تغير إلا هؤلاء الشبان الذين عادوا من أرض الغربة وملأوا القرية بنوادرهم ، وإلا زنوبة التى استقرت فى بيت جمال تجتذب أنظار وأفئدة الناس بما تصطنعه من حنو وعناية بالمرضى والأطفال، تغسل كل جرح وتضمده وعلي شفتيها ابتسامة حلوة. وتنال اعجاب الناس واحترامهم حتى ألفوها وتمنوا لو عاشت معهم إلى الأبد، غير أنها كانت تعرف أنها لم ولن تتمكن من قلوبهم، فإنهم لم ينسوا بعد أنها قد تصيدت فى مصر واحدا من شباب النجع كان جديرا أن يتزوج واحدة من بنات النجع، ولن تنسى داريا وشريفة أن زنوبة أبعدت عنهما جمالا سنين طويلة ذاقتا فيها مرارة الحرمان والبؤس ولوعة الشوق.

كل شىء جائز وممكن إلا زواجها من جمال. وقد يحبها هؤلاء الرجال وقد يشتهونها ويلتهمونها بعيونهم، وقد يتمنون لو تمددوا الي جانبها ساعة من الليل إلا أنهم رغم ذلك لايغفرون لها ما فعلته بجمال، ولاجدوى ولافائدة ترجي إذا عن لها أن تصرخ في وجوههم: أحببته وتزوجته ومازلت أحبه..وفى سبيله أتيت إلي دياركم النائية هذه لافائدة، ليس عليها إلا أن ترضى بما قسمه الله لها من رضا وإعجاب هؤلاء القرويين. إنها غريبة فى هذا الوطن ولو لا جمال، لولا أنها تخلو اليه إذا ما جن الليل تبكى فى أحضانه لحسبت نفسها تعيش فى جحيم لايطاق، فأين مصر وجنات مصر من هذه القرية الكالحة الضيقة، الغريب أنهم يحبون قريتهم هذه كما يحبون نساءهم. قالت لجمال مرة وهما فى الفراش: أمك تكرهنى ياجمال..فهمس بعد أن تثاءب: كفاك تخريفا يازنوبة .إنها لاتكرهك. فارتقت كوعها، وأطلت عليه تهمس فى حزن:

- النساء يفهمن م فى عيون الأخريات ياجمال. إنها تمقتنى.

- إنها لاتمقتك بل تغار منك، فأنت بيضاء جميلة بينما هى سمراء عجوز.
- حتي شريفة افتح عيني عليها فجأة فأضبطها تراقبنى خلسة وفى عينيها حيرة.
- أنت الملومة يازنوبة. لماذا تفتحين عينيك عليها فجأة. المسألة يجب أن تترك للزمن.

ثم أطبق شفتيه وتظاهر بالنوم، وأرسل شخيرا خفيفا من منخريه. لكنها اكتشفت خدعته الساذجة فضربت ساقه بساقها وهمست فى دلال: حان الوقت ياجمال- فمد يده الى صدرها يدغدغ رمانتها، فضربت على يده وهى تقول: : أقول لك أن الوقت حان، فتمد يدك إلى صدرى! يالك من ماكر.. يجب أن نعود إلى عشنا فى معروف..فضحك وسخر منها: قولى عشتنا ياشيخة، فزوت مابين حاجبيها وهمست: لاأطيق الحياة هنا ياجمال. التعويضات انتهينا منها وليستا فى حاجة إليك. فصمت مليا ثم لكزها وهو يقول: اسكتي فأنت لاتدرين شيئا، يجب أن نبقى حتي تستقرا فى مكانهما الجديد. حينذاك نعود إلى مصر ونعمل، فرقصت الفرحة فى عينيها وقالت: لنعمل! إذن فقد وافقت أن أعود إلى قصر الباشا ولن تصيبك الغيرة. ففرك أذنها وقال: كلا لن أسمح لك بالعمل. فتأملته علي ضوء القمر المتسلل من خلال الكوة وشهقت وهى تهمس: لاتعبس هكذا ياحبوب. ثم أخلدت إلي الصمت لحظات غامت فيها عيناها وحملتها الذكريات عبر الكثبان والحقول إلى معروف، الى كل مجالات مصر، فأرسلت تنهيدة صعدتها من قلبها وقالت ياسلام كم أحن اليك يامصر، فتثاءب وأمرها: نامى ملعون أبو الدنيا، ملعون أبو مصر. نامى ياست.

وفيما عدا جمال فإنها لم تأنس لأحد من الرجال إلا عبده الفرنساوى، فكم استقرا على عتبة البيت يتذكران مصر وشوارعها والحفلات التى أقيمت فى مصر الجديدة وقصر البارون امبان وفي الزمالك.واستهجن جمال فى أول الأمر صلتها بعبده الفرنساوى لكنه تطامن بعد قليل فزنوبة تكاد بقتلها الملل والسأم، فلماذا لايترك لها متعة هذه الصداقة مع رجل عجوز تأنس اليه.

وفيما عدا زنوبه والشبان الذين وفدوا وحفلتى الزفاف والجنيهات الخضراء فإن كل شيء فى القرية ظل كعهدنا به. اذا ما ألقى المرء نظرة عابرة على الناس وحياتهم. أما اذا تعمق هذه الحياة فإنه سيحس بالتغير الحقيقى الذى أخذ يضطرم فى قلوب الناس. لقد عاشوا فقراء لكن باسمين تغربوا كثيرا وتفرقوا وعانوا الآلام، ولكنهم يعرفون دائما وهم فى أرض الغربة، إنهم عائدون الى بيوتهم ليناموا نومتهم الأخيرة فى جبانتها العمومية..أما اليوم فإنهم يشعرون أن كل شيء، إن حياتهم كلها تتسرب قطرة قطرة..

فمنذ شهور كانت النوادر والنكات، وحسين فييس وأحلامه الوردية الكاذبة ونوار الفول وأريجه فى الحقول، والموسم وفرق الحلب وضاربات الودع والباخرة وتوقع الرسائل والطرود والخلود إلى الزوجات اذا ماانتصف الليل، والدف وأنغامه ، هو الذي يصبغ الحياة بألوانه الساحرة فيبسمون لها سعداء رغم الفقر والجوع، أما اليوم فإن حياتهم فى مهب الريح لاتراها فى عيونهم إلا قلقا يلمع، وهواجس تنوء الصدور بها فتطفح على الوجوه غضونا تضيف إلى السنين وتحنى الظهور، وتقلص الشفاه وتعجل بخطاهم الى القبر.

تأمل فى رفاق العمر هؤلاء الذين وقفوا على الشاطىء عند الموردة يطلون على النيل يقيسون أبعاد مجراه ويقارنون بينه وبين المنسوب الذى سيبلغه الطوفان..تأمل فقد يطالعك وجه المأذون والجزار وفضل وعودة بغضون كثيرة وشفاه مزمومة..

لقد أصبح الصمت دا ء يعانون منه، فلا يبتادلون إلا كلمات قليلة عن مصر والنادى وبدر أفندى طريح الفراش.

– مصيبة..لاقبل للناس بها. شيء يكفر. حتي بدر أفندى أقعده المرض.

فانعطف الجزار برأسه فى سرعة وقال: استغفر الله ياصابر، مصائب الغير أدهى وأمر. أجارك الله من عذاب الضمير، وسكت ليطالع نظرات التأنيب في عيون الآخرين،: صفاقة! حنث بالفاتحة . وعاد يتكلم عن الضمائر ! واغتم حين قال الشيخ فضل: حقا ياصابر..لكل الناس مصائب يبتلون بها لكن مصيبتنا من النوع «الدكر» الذى لامثيل له، وهز رأسه قليلا وعاد يقول: أن تغوص سفينة بمن فيها من نساء وصغار فى يوم عيد مصيبة، أن يحترق بيت..لكن الدنيا تظل رغم ذلك بخير.

وحار الجزار وهتف متعجلا: مصائب وحرائق وخير. فضك يارجل من الفلسفة. فتجهم فضل فى وجهه واسترسل: الدنيا تظل بخير رغم ذلك..صبرك بالله ياعودة فإنني لاأتفلفس.أجل الدنيا تظل بخير مادام هناك آخرون يقدمون العون، مادام اليتامي الذين غاص آباؤهم فى اليم يلاقون العطف منك ومنى.

وبصق ثم انشب أظافره فى التراب ومضى يرسل كلماته الحزينة: الذين لم تحترق بيوتهم يساعدون فى ضرب الطوب وحفر الأساس وتقليم الجذوع ويقيمون بيوتا للمنكوبين..

وصاح الجزار من جديد: والله إنني لاأفهم ماتقول يافضل فهتف الرجل غاضبا. ومتى كنت تفهم؟ ألم تحنث بالفاتحة يارجل؟ ألم تصرف قبل كل الناس؟ لماذا تحشر نفسك في كل حديث؟ واستدار أحمد عودة حين أطرق الجزار برأسه إلى الأرض، وقال: لكن المصيبة التى تتهددنا مصيبة لامقيل منها، فسوف يحل الطوفان بنا جميعا دفعة واحدة، كل واحد سيكون مسئولا عن نفسه ،لن يتمكن أحد من مساعدة غيره، سنكون جميعا مثل السمك يهيج ثم تلقى الشباك عليه دفعة واحدة.

وفغر الرجال أفواههم وأطبقوا الشفاه على كلمات ارتفعت إلى حلوقهم، ثم نفض الشيخ فضل يده من التراب كأنما ينهى حديثه، وربت بهما على ساقه الخشبية ومضى يزك بها مبتعدا عن رفاقه دون أن يقول كلمة وداع ثم تبعه الآخرون صامتين.

***

وفى المساء ، وعلى المصاطب وعند ساحات المتاجر، كانوا يجتمعون ويتلاحون ويحاولون البحث عن أفضل الطرق لاستثمار جنيهاتهم الخضراء ويقفز وابور بينهم فتحتدم المناقشة. هاتو فلوسكم وسوف تكسبون الذهب، مقهى فى أسوان. جاراج في الاسكندرية. بوفيه فى أحسن

ميدان فى مصر أو فى الاسكندرية، قمينة للفحم من أخشاب السنط يابشير عثمان..بئر فى الغرب تزرع الأرض أو سوق فى القرية الفلاتية بالأقصر، يبتاع منها المسافرون، لكن القطار لايقف هناك، وماله؟. سنطالب بانشاء محطة هناك. طيب دعونا من كل ذلك. ألا نستطيع تربية الماشية.

فيشيحون عنه بوجوههم ولايفكرون ألا فى اختزان أوراقهم الخضراء فى السحارات. إلا بشير عثمان فقد انحاز اليه وقرر أن يحفر بئرا فى الصحراء..

وغمغم نوح: لو اشترينا مليون شتلة نخل من السودان، ها.ها ..سوف تموت يانوح والكراديف فى أحضانك، فيصمت الرجل ويجتر أحزانه. بينما يلتفت أحمد عودة لأبى ويهمس: اشتريت أرضا فى الطود، ونشر خريطة من مصورات المساحة أمام عينى أبى ومضى يشير بعود ثقاب هنا وهناك: الحوض نمرة ٥٠ فى الطود. الفدان بجنيهين. فيمعن أبى النظر فى الورقة ولايدرك شيئا مما يقوله، وإذا أدرك فإنه لايؤمن بكلمة واحدة من حديثه: صحيح أن الأرض بور لم تركبها المياه بعد ولكن الفدان بتراب الفلوس..

يكاد أبي يقتنع إلا أنه يتردد وهو يذكر قصة حجاج جد سعدية الذي جمعت العائلة له تعويضاتها فراح وجاء ورشا موظفى المساحة وعاين الأرض وعاد دون أن يقدم حجة تمليك واحدة، فظنوا به الظنون، إنه في مصر قابع فى الجيزة يتشفع، والأسرة تنتظر وتلطم الخدين متأملة حبات الذهب التى بدأت تبرق حول عنق زوجته العجوز، لقد خانهم الرجل، كلا إن الرجل لايمكن أن يخونهم، ولكنه مبذر والموظفون يضحكون عليه ويبتزون أمواله..مسكين. لاياأحمد. لن أشترى أرضا الآن. لكن الأسعار سترتفع بعد قليل..كلا .كلا.قلت لك أننى لن أشترى أرضا ياأحمد.

وقال نوح : كلا..أنا لن أشترى فى الصعيد..سوف يقتلوننا هناك. لماذا لانشترى فى بلانة؟ فى الجنوب بالقرب من «أبو سمبل». هناك أخوة لنا، ولن يبلغ الطوفان أراضيهم. أنا ومندوهه سنرحل الى بلانة إذا قدر لنا أن نشترى هناك..

وهز أبى رأسه حائرا ثم قال لفضل: الغرب أفضل عند كران نوج. فتبسم الرجل وربت على ساقه ثم على ظهر أبى وانصرف الى بيته.

***

وأقبل الموسم ومازالت الحيرة والارتباك يسودان عقول الناس، فاستقبلوه فى فتور، واخترق الحلب قريتنا من شمالها إلى جنوبها، فلم يحفل بهم إلا الصغار وحسن المصرى الذى التقى بضارية الودع في الخرابة الملاصقة لبيت داريا سكينة. وشكت المراكب الشراعية السوداء من الكساد وران الوجوم على وجه باشرى فبدا حزينا لايبارح سفينته إلا لحظات قصيرة يتردد فيها على دكانة

أبى: النخل كيف ياشيخ أمين: ارادة الله. بعد سنين لن تكون هنا نخلة واحدة، في «دابود» الصخور تخنق كل شتلة نحملها من هنا أو من السودان.

واستدار الرجال به يعجبون من حديثه عن النخل ولايصدقون أن أشجارهم سوف تموت، لقد عاشت مئات السنين وسوف تصمد إلى الأبد . لايارجل..لاتيأس من رحمة الله. سوف ننتقل الى الغرب ونراها من هناك ثم نلقحها وننتظر ثمارها كما كنا نفعل فى كل موسم. وأراد الرجل أن يجادلهم لولا أن قاطعه الشيخ فضل: باشرى. نحن فى حاجة الى مراكب شراعية تحملنا الى الغرب..

وحمى النقاش وهز باشرى رأسه وقال: بعد شهر أقود إلي مراسيكم مراكب كبيرة تشترونها .أما البيوت فى الغرب فإنكم ستبنونها بأنفسكم كلا.. لن نتمكن.. نحن نريد أن نبنيها بسرعة.. إذن فسوف أتكفل بذلك.. لقد انتهى ألوف البنائين والحجارين من عملهم فى التعلية..وعادوا الى الكلح..قريتهم..إننى أعرف الكثيرين منهم. ناس طيبون.

وتذكر حسن المصرى شيئا فتغض وجهه وأربد، وكز على أسنانه سيبنون لكم بيوتا كالحة. الأفضل أن تأتوا ببنائين من سوهاج.

ولم يبال به أحد إلا باشرى الذى قال: لكنني لاأعرف السوهاجيين.

***

وعند الأصيل من اليوم التالى أعد باشرى سفينته فجمع حبالها وفرد أجنحتها البيضاء وتوقف هو وولداه على حافتها يطلون فى اشفاق على الشاطىء الأخضر، الشاطىء الذى عادوا اليه عشرات المرات الشاطىء الذى لن يعودوا اليه بعد ذلك.

ثم أقلعت السفينة فأخذت أشجار النخيل تصعد نحو الجنوب فى تثاقل شديد وأمسكت بالشراع غصون تقبله فى عناق حار، وارتفع بحر ابن باشرى الى الصارى وأزاح الفروع وفك الشراع من إسارها فامتلأ بالريح،ومضت السفينة تجرى بين أحضان المجرى الواسع، والرجل مايزال على حافتها، يطل على الشاطىء الطينى الأسمر وعلى الرجال الذين وقفوا يلوحون، بينما أطل «بحر» على النيل يدرس تعرجاته ودواماته. فقد قرر باشرى الحاقه بعمل ما فى رفاص أو يخت بأمل هفا قلبه اليه دائما أن يتمكن ابنه من قيادة باخرة من هذه البواخر التى تمخر النيل بين الشلال وحلفا.

وتريثوا حتى غابت السفينة السوداء وراء الأفق عند المنحنى فانعطفوا الى الطريق الزراعية يدبون عليها صامتين لايتبادلون الا همهمات قليلة غامضة..

وتبدى عند بداية الطريق شاب أسمر انحلت عمامته وتطايرت حول كتفيه، تهتز كلما لكز حماره أو أوجع ظهره بكرباج قصير فى يده اليمنى، فتلفتوا اليه ولمحوا على وجهه أمارات حزن ثقيل، وعلى ثيابه غبار سفر، فتوقفوا يراقبونه حتى دنا منهم، فتعرف عليه المأذون وصاح: أحمد ..ماذا وراءك ياأحمد محمود ؟! أهو الطوفان ياأحمد؟

فلم يتوقف الفتي بل أسرع بركوبته يجتازهم، إلا أنه انعطف بوجهه اليهم وهتف في صوت مختنق: إنا لله وإنا اليه راجعون ..

لقد انتهى الرجل. فصاح به الشيخ فضل: ماذا تقول ياولدى؟ من الذى انتهى؟.. فتفلت الى الخلف وهو مازال يلكز ركوبته، وقال في حزن تلمع الدموع في نبراته: بدر أفندى. مات عند الظهر فى بيته! ومضى لايلوى على شىء بينما ترنحت قدما الشيخ صابر، فجلس على الأرض يذرف الدمع بين كلمات حزينة دارت فى حلوق الاخرين...

ومد الرجال أطراف أصابعهم إلي العيون يكفكفون دموعا ساخنة تألقت فيها وأطرقوا بالرءوس خاشعين للقدر العاتى.إنا لله وإنا اليه راجعون..لاحول.

وبدت القرية واجمة حزينة. وكأنها فى مأتم كبير وتحركت أقدام وأسرجت ركاب ومضت بالرجال عبر الجبل يجتازونه إلي «النجيلية» فى الدر، الى بيت الرجل يلقون علي جسده المسجى نظرة وفاء قبل أن يواروه فى التراب...



وأقيمت المآتم فى كل نجع، وأطلق برعي لحيته وهام في الطرقات شهرا كاملا ..
ينطلق من النجع الى الجبانة يترحم على كل الموتى. فهم أحباؤه بعد أن كره الأحياء!
ألم يخونوا الرجل الذى افتداهم بحياته؟ ألم ينقلبوا عليه؟. تعسا لهم جميعا..
لماذا يعيشون وقد مات الرجل؟! الحياة ليست إلا مقبرة..

غير أنه انقلب بعد وقت قصير، فأزال لحيته وجال وصال فى أماكن اللهو كأنما يغرق آلامه في بحر عميق الأغوار، ولم يعد الناس يرونه إلا في صحبة جمال والندمان من شبان مصر العائدين، يغرقون همومهم فى كئوس العرقى وأنواع أخرى من الخمر سالت في قرانا لأول مرة فى حياتها على جروف النيل. فقد رست على الشطئان مركب شراعية مزدانة بالاعلام والبيارق تفوح منها رائحة غريبة تنبعث من دنان رصت فى قاعها . وهرع اليها الفتيان من كل نجع وعادوا وبين طيات ثيابهم زجاجات الزوتس والكونياك يتجرعونها علي ضوء القمر، قبيل إقامة حلقات الذكر!.
وانفلت برعى من نجع إلى نجع ، بل من قرية إلى أخرى يزور صحاب الزنزانة وفى رفقته المحامى وجمال. وعادوا يقصون النوادر والروايات المضحكة عن النجوع التى زاروها والقرى حلوا ضيوفا على ندمائها..

ففى قرية الى الجنوب خبأ نفر من الشبان زجاجاتهم فى سلال من الخوص الملون حملوها الي المقابر يفرغون الكئوس على مشهد من الأجداد والأباء الراقدين، ونبات الصبار المتجهم الحزين الذى لم يبال بضحكاتهم العالية. ثم أخذ السكر بهم كل مأخذ فترنحوا هنالك وجلسوا يتبادلون الزهو بالجنيهات الخضراء التى حصلوا عليه. سنصرفها فى أيام ثم نرحل إلي مصر ،،لاياشيخ. هل الدنيا إلا الخمرة. ماذا تقول؟ والله أنه ليتواضأ بالخمر.. شخشخ ركبه.. نعم رأيتها سكرانة تترنح وتكاد تعرى نفسها أمام الخدم. أليست أميرة؟. أمثالك هم الذين يدخلون النار. أما هى!..أما هذا الرجل فولى من أولياء الله يشرب الخمر فتصل إلى حله محرقة ثم تتحول إلى لبن لا إثم فيه..اللهم لاتجعل خمرتى لبنا.. مساكين هؤلاء الراقدون.. إنهم لم يشربوا إلا العرقى..لامؤاخذة ..عن إذنك..

وقام الفتى يترنح وفي يده زجاجة كاملة، انعطف بها إلى قبر أبيه حيث وقف خاشعا يتمتم: كم انت ظامىء ياأبتاه! إننى أعترف بجميلك ..لقد ورثت عنك كل هذا خد.. اشرب ياأبى! إنك لاتعرف مذاق هذه الخمر..خذ..إنها لاتسكر..كلا ليست زجاجة عرقى.

ومضى يهز يده بقطرات الخمر من الزجاجة التى أمالها فوق القبر، فوق الشاهد والصبار وقطع الحصباء: ولترتو عظامك حتى النخاع.
وضج برعى والمحامى بالضحك ثم تجهما ، يراقبان فتى آخر داكن السوداء غليظ الشفتين مثقوب المنخر والأذن يتجه بخطى مترنحة إلي أحد القبور حتى توقف عليه فى غضب يتمتم:

نخلتـان وبيت واحد تهدم وقيراط واحد! لكم عذبتني في الحياة.. أنت لاتستحق غير الموت:
وأهوى بعنق الزجاجة على القبر يطعن أباه، في القلب والبطن حتى خيل له أن الدماء تسيل من جسد أبيه.

.لقد سالت الدماء، إذ تشرخ باطن يده وظاهره فتخضبتا بلون أحمر ارتاح له الفتى فأطلق قهقهة عالية لم يفق منها إلا وقطعة حجر صغيرة صلدة ترتطم بصدره فتلفت حوله يسأل: من الذي يضربني. ابن الكب ..أبي كان أحسن أب. أنا جدع. وهاج يريد البطش ببرعي..وحار الندمان في الحجارة الصغيرة التي انهالت عليهم في غبش المساء، وظنوا أن الأرواح تطاردهم، فقاموا في فزع يتعثرون في طريق العودة..وهناك عند منحنى السفوح لمحوا الجسد العاري ينفلت مسرعا إلى البيوت، وهو يرمي بحجارته الصغيرة في كل اتجاه.واحد....صمد.. أحد.. طراخ!.

***

وخيل لي في تلك الأيام أن برعي نسي شريفة وغرامه بها ولكنه انعطف مرة إلى سعدية التي راحت تميس أمام عيوننا وغمز بعينيه كأنما يقول: مسكينة..وقعت في بسطاوي، إنها غاضبة عند أمها منذ يومين!!

وأطرق لحظة ثم قال: سوف أفاتح جمالا، فإذا ماقيل تزوجت قبل الطوفان، فهززت رأسي تماما كما يهز الكبار رءوسهم في وقار: أسرع حتى لاتفلت منك. ففرك أذني وهو يضحك وهمس: تفلت مني! مستحيل أنا وراءها للنهاية. كنا على المصطبة الداخلية في بيتهم حينذاك، وقد هبط المساء منذ لحظات يغشى الفناء بظلمه لولا نور خافت ترسله مسرجة في يد أمه التي مضت تتحرك بين المطبخ ومخدع الأب، فنظر اليها مليا واقترب وجلا وهمس : أمي . سأذهب لمقابلة جمال.. مارأيك؟.فتفرست فيه وأشارت إلى المخدع في يد مرتعشة وكأنها تقول: الرأي رأيه يابرعي، فارتد كاسف البال وانكفأ على المصطبة يفكر ثم هب واقفا وارتدى جلبابه البوبلين وأمرني: عد إلى بيتك وإياك أن تقول شيئا عني هناك. سوف أذهب إلى جمال ..إياك!.
وتأبط زجاجة كنا يخفيها في حاصل التبن وانفلت إلى تحويشة الجزار، فقد تواعد جمال وندماؤه اللقاء هنالك بين أشجار النخيل.
وحياهم ثم انطرح على الأرض ومضى يقارعهم الكأس صامتا، ويعب الخمر دون أن يسعل كأنه مدمن قديم، ويستمع إلى نوادرهم عن مصر وعجب لهم حين قال أحدهم.مكثت طويلا هنا يازين.. أأنت خالي شغل؟. كلا بل قد سافر الكلاب إلى سويسرا؟ الكلاب! أتراه كان يخدم كلابا مثل لورد؟، ثم قهقه عاليا حين اتضح له أن ندمانه يلقبون كل مخدميهم بالكلاب!!.
ثم أخذه الصمت ومضى يفكر: سوف أفاتحه الآن. وكاد يهتف بجمال، إلا أن شيئا ما أمسك بلسانه. ألا ترى يامغفل أنه سكران طينه؟. وراح يرمق جمالا باعجاب ويشرب وفي ذهنه دوامة

الحيرة: أيطلب يد أخته فى الحال؟ أم يؤجل ؟ ولكن ماذا سيفعل إذا رفض؟ ولماذا يرفض؟ ألم يكن صديق صباه؟ لكن شد ماتغير جمال. وتخيله فى أحضان زنوبة ثم تخيل نفسه فى أحضان شريفة فتحلب ريقه وانتشى ، لعبت حميا الخمر فى رأسه وأرسل أغنية جميلة استمع اليها الرفاق فى نشوة. حتى زين ابن البيضاء الذى لم يفهم كلمة واحدة من أغنيته مضى يهلل له. عجبا لهذا الولد. ألا يعرف مايدور بين أمه وحسن المصرى. لكنها إشاعات..مجرد إشاعات..

وعاد إلى الكأس والتفكير: متى تنتهى ياجمال؟. إن فى قلبى سرا أريد أن أنفضه عن صدرى فأستريح..متى؟ إنك لاه عنى بنكاتك ونوادرك عن الست الكبيرة العجوز التى ارتمت عليك تفوح رائحة الخمر من بين شفتيها حين نام الناس فى القصر. والست الصغيرة التى وقفت أمامك عارية..أمامك فى الحمام دون حياء.

وحانت الفرصة حين مال جمال على زين يأمره: اجمع بعض الكراديف يازين واشعل النار. فالدنيا برد. فهب زين وبعض الندمان واقترب برعي يهمس : جمال..أريدك فى مسألة هامة.

– حاضر. فى الحال. أصبر.

وعب جمال كأسا ثم عاد إليه: هيه يابرعى ماذا تقول؟ فجمع شجاعته وكور الكلمات فى حلقه ليقذف بها مرة واحدة، إلا أن شيئا غريبا قد حدث فى اللحظة التى حرك شفتيه فيها، فقد انبعثت فى النجع جلبة حبست الكلمات في حلقه وأطارت نشوة جمال ورفاقه فهبوا من مجلسهم يشبون على أقدامهم على سور التحويشة ويشرئبون بأعناقهم متسائلين؟.

وانزعج برعى، ولكنه قال هامسا: لاشىء ياجمال، إنه كلب يطارده العيال.

– كلا يابرعى. تأمل فى الساحة أمام المتجر. هناك رجل يصرخ بكلمات عالية. تعال راقب الأمر بنفسك. اسمع ماذا يقول؟

ودنا الصوت الداوى من التحويشة. واتضحت نبرات الرجل. نبرات محمومة تدوى فى النجع: ١٥ يوما..انذار من الحكومة ، ١٥يوما!..

واشرأب برعي بعنقه وأصاخ السمع واخترق غبش المساء بناظريه، فرأي الشيخ فضلا يعبر شريحة الأرض المزدحمة بالحلفا يزك على ساقه الخشبية متمهل الخطى حتى تعثر بجدول مردوم وأفلت ساقه فانكفأ على الأرض مرسلا آهة قصيرة أنشب بعدها أنامله فى التراب كأنما يبحث عن شىء ضاع منه، فقفز برعى من السور الى الطريق وأسرع اليه ومن خلفه جمال ورفاقه ومضى يصرخ : ما بك ياخالى. أأنت مريض؟ ساقك؟.هذه هى الساق. ولم يقل الرجل كلمة واحدة بل أشار فى اتجاه الساحة الى الرجل الذى استدار به الناس وصرخاته الهستيرية: ١٥ يوما وبعدها الطوفان.

ودلفوا الى الساحة فى اللحظة التى كان أحمد عودة يقول فيها: عملها ابن الكلب.. احتفلوا فى أسوان بالسدة الشتوية الأولي ! وماذا نفعل «ياوابور»؟وأجاب هذا فى صوت مختنق بح من صرخاته الداوية: يجب أن نعزل بسرعة إلى أي مكان حتى لايفاجئنا الطوفان..

وران الصمت لحظة بدت فيها الوجوه مقطبة عابسة ارتسم عليها ماكان يعتمل فى صدور الرجال والنساء من ألم وخوف: ياالله خمسة عشر يوما ثم نفترق! البعض الى الغرب وآخرون الى الصعيد أو الى الجنوب؟.

كانوا واجمين. وكانوا كتلة من اللحم تسرى فيها شحنات الغضب والحقد والعجز واليأس واختلاجات البكاء.

وعبر باب المتجر بالقرب من الشونة تمايلت أشجار النخيل فى أسى ترنو إلى السماء فى حزن صامت صمتا قطعته نخلة سامقة: مدى جذورك فى الأرض حتى لاتقتلعك الأمواج، وأنت أيتها الصغيرة ارتفعى إلى السماء قليلا حتى لاتختنقى.
وفي المتجر كان الرجال يشبون بأقدامهم يطالعون فى أوراق النتيجة المعلقة على الحائط يعدون على أصابعهم مابقى لهم فى ديارهم من أيام.
ولمعت الدموع فى العيون، وأطرقت الرءوس ثم انفلتوا يعبرون الساحة ثم الطريق إلى بيوتهم.



يمكنك أن تعتقد وأنت جالس على حافة السفينة الشراعية أن القرية خالية لايتحرك فيها أحد، فان غابات النخيل الكثيفة تحجب عن عينيك مافيها من صخب وأشجان تغور فى الصدور وترتسم على الوجوه.

فمنذ أن تنادى الناس بالانذار ازدادت هذه الوجوه عبوسا، ودب الشيب المبكر فى بعض الرءوس. وراح الرجال والنساء يهرعون هنا وهناك. ويذرعون القرية من الشمال الى الجنوب كأنما يطوفون بها للمرة الأخيرة، ويتلاقون عند مفترق الطرق ويتهامسون كأنما هم فى مأتم: دنيا. سبحان مغير الأحوال. يفرجها الله. ويتطلعون الى السماء فى ضراعة.

وأخذ المحامى وسيد وابور يعترضان طريقهم صائحين: علام هذا الجرى هنا وهناك؟ استعدوا فالايام تجرى.

- ماذا نفعل؟
- هدوا هذه البيوت . انقلوا أمتعتكم الى الغرب.
- لكن مهلة الانذار قصيرة.
- اشتغلوا وسوف نطلب مهلة.
- ممن نطلب المهلة ياوابور؟
- من الحكومة.
- حكومة! أية حكومة! لن تسأل عن شكوانا.

* * *

وتوقفوا أمام دار العمدة حين شاهدوه مستندا على كنبة عالية مفروشة يبتسم لابنه ولنائبه ويلقى اليهما بكلمات خافتة عن الانذار. فتريثوا حتى فرغ لهم فحيوه بقلوب صافية فقد أحبوه منذ رحيلة الى أسوان بأمر المستر هيس.

كان قد عاد قبل أن ترحل اللجنة بيوم واحد وعلى وجهه آثار ماكابده فى أسوان على يد الحكمدار والمدير الذين أتهماه بتحريض الناس على مقاطعة التعويضات، فتخلص من أسئلتهم بلباقة وبمزيد من التملق والثناء. وأمراه أن يعود ليكون أول انسان يصرف تعويضاته.. حاضر ياسعادة الباشا... الأمر أمرك!

ثم تعلل بمرض أصابه وبقى فى المستشفى اياما حتى وافته الأخبار تؤكد أن الناس قد بدءوا يصرفون فأتصل بالمدير والحكمدار وأوهمهما أنه امتثل لأوامرهما وأرسل للناس من فراشه ليصرفوا تعويضاتهم.

ثم عاد واللجنة تكاد تنهى أعمالها وكان آخر انسان تسلم أمواله وهاهو حائر مثلهم لايدرى ماذا يفعل.

وأفسح لهم مكانا على المصطبة يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة دون ترتيب فى أول الأمر، فان كل انسان كان يبدى رأيا ثم يعدل عنه. كانوا يبدءون من نقطة وينتهون عند غيرها دون أن يصلوا الى قرار ما، حتى سئموا النقاش فأخلدوا للصمت لحظات استدار فيها الجزار الى المحامى بعد أن أرسل رذاذا من فمه تناثر على وجه المحامى وقال: سأبقى هنا أنا وصغارى.. هنا فوق

الجبل..

ولم يصدق أحد فان الجميع كانوا يعرفون أنه كذاب ويخفى أمر رحيله المزمع الى مكان بعيد، فإنه لم يعد يحب الناس كما أن الناس لم يعودوا يحبونه فلماذا يبقى معهم؟ ولماذا يرحل اذا مارحلوا؟..

وتفرس المحامى فى وجه الجزار ومد اصبعا كأنما يريد أن يفقأ عينيه وصاح:

- الى متى تكذب يارجل؟ ابنتك أنبأتنى البارحة أنك راحل الى طنطا.

فتظاهر بالدهشة ثم أطلق ضحكة قال بعدها: والله أنك عبيط يامحامى.. أتصدق فتاة مجنونة مثل ابنتى؟ وتأمله برعى قليلا فى عجب، ثم تفرس فى وجوه الاخرين وقال: وكيف يرحل الذين يريدون الانتقال الى الصعيد؟ فوجموا لهذا السؤال. صحيح أن غطاس بك قال لهم مرة أن الحكومة ستساعدهم فى الانتقال، ولكن يوم الحكومة بسنة، وقد يأتى الطوفان قبل أن تفكر فينا. فاستداروا الى العمدة يتوقعون أجابته.

قال: اطمئنوا.. لقد اتفق الحكمدار معى على ارسال صنادل تقلكم الى الصعيد.

قالوا: متى ياحضرة العمدة؟

قال: أيام بسيطة ثم ترسو الصنادل على شواطئنا.

وقال وابور: عال بقيت المهلة. الا ترى ياحضرة العمدة أن نبعث ببرقية طويلة نطلب مهلة أخرى نرفقها بشكوى مفصلة.

واعتمد الرجل رأسه بين راحتيه، مطرقا برأسه يفكر فيما قاله وابور ثم رفع رأسه ليقول:

اكتبوا البرقية والعرضحال فورا. وسوف أطلب من المأمور بنفسى هذه المهلة غدا.

وهنا تدخل سفرجى باشا فى الحديث بنحنحة عالية أدارت الرءوس نحوه، فانشأ يتكلم فى أناة وصبر وكأن الطوفان لن يحل بهم الا بعد قرون. بسمل وصلى ثم انطلق يسرد ذكرياته عن القصر والكلمات النوبية التى تعلمها الملك على يده. وتكلم عن الباشوات وعاداتهم، وماذا يشتهون وكيف يشربون: محمد محمود باشا صعيدى. قلبنى أحب تركية اسمها بلقيس، والنحاس هليهلى. أما زيور فيصلى وهو سكران. وصدقى مكار ولكنه انحنى أمام الملك وقبل اياديه يوم تولى الوزارة وانتهى الى أن المسألة كلها موكولة الى الله والوساطة وكتابة التماس الى مراحم دولة الرئيس والسدة الملكية.

ثم تمخط وسكت وراح يرمق الناس وكأنما قال الكلمة الفاصلة التى هم فى حاجة اليها. ورغم أن ذكرياته جميلة ومغرية فان الناس لم يفهموا معنى لها، لكن الجزار انبرى يقول: عفارم عليك ياافندى. قصر الدوبارة هو المكان المناسب لشكاوانا.

وابتسم العمدة، فاطمأن الجزار، الا أن وابور اندفع يقول: الا قصر الدوبارة. أتريد ياحضرة العمدة أن يقول الناس فى «الجرانيل» أننا لجأنا الى الانجليز... لعنة الله عليهم. والتفت الى عبد الله وقال ضاحكا: ياعبد الله أنك لاتنسى الشهرين اللذين خدمتهما فى قصر الدوبارة. فالانجليز انجاس.. والله انجاس. بلا قصر الدوبارة. بلاها ياأخى.

ثم انكب المحامى يكتب وأسرع برعى بما كتبوه بعد أن تأكد من توقيعاتهم الى مكتب البريد

فى أبريم.: فالمسألة مستعجلة ياولد. أياك أن تتأخر.

ويبدو أن نبيا ماقد طاف بالقرى يزين لها كتابة هذه الشكاوى وبرقيات الاحتجاج. فانهالت على دور الحكومة فى أسوان والقاهرة. ففى كل مكان، فى القرى ومختلف البنادر والمدن تزاحم النوبيون على مكاتب البريد يرسلون الشكاوى والاحتجاجات عبر الأسلاك حتى بلغت أربعين ألفا فى الأيام الخمسة الأولى تلقاها الموظفون دون اكتراث واودعوها سلة المهملات.

وقد تجرأ الناس فى الدر وفى بعض القرى فطالبوا بالافراج عن حسين طه الذى أوصدت الأبواب فى وجهه فعاش مع المجرمين يقطع الحجارة فى ليمان طره.

ويبدو أن الناس كانوا لايؤمنون بجدوى هذه البيانات والشكاوى فى مصيبتهم، واثقين أن صدقى باشا لن يكترث بها. ألم تنشر الصحف صورته وهو يقص الشريط الحريرى فى أسوان ايذانا بالسدة الشتوية الأولى.

لقد بدأت الجفون الحديدية الغليظة تنسدل جفنا بعد آخر على عيون الخزان الواسعة ذات الرموش الجرانيتية الصلدة. فراحت المياه ترتد الى الخلف تغرق القرى الشمالية وتملأ خور رحمة ثم تفيض على الجانبين، وتسرع الى الجنوب تكتسحه شبرا بعد شبر. وهاهو النيل يرتفع مربد الوجه كالحا على الشطئان. ولن تجديهم برقيات الاحتجاج فتيلا، فالحكومة لن تبالى بها. فانفلتوا يقتلعون اشجار السنط ويكومون العلف الجاف على الشاطئ ويهدون سقوف البيوت وينتزعون الأبواب ويتعاقدون مع أصحاب المراكب الشراعية ويتجولون على كثبان الرمل فى الغرب حول «كران نوج» يتخيرون الأماكن التى سوف يستقرون فيها.

وهاهو حسن المصرى وبرعى وجمال يعملون منذ الصباح فوق ساقيتنا يفكون تروسها، بينما أنا جالس على الهودية المرتكزة فوق الأرض ارقبهم متطلعا الى النيل الذى عرفت منبعه ومياته السحرية وعيونها الثلاث فى مكان مامن أرض الجنة.

وغاصت بى ذكرياتى الى ماضى بعيد فتخيلته وهو يبتلع شريفة، وتصورته هائجا مائجا يندفع دائما الى الشمال ويرتطم بالفلوكة التى ماتزال رابضة أمام عينى فى الموردة، تواجه الجزيرة التى وقف «اش الله» على شاطئها يساعد أباه فى اقتلاع شادوف من مكانه، ثم يتسلق الجدار الى سقف يقتلع جذوعه ويلقى بها الى الارض.

كل شئ فى قريتى يتهدم: السواقى والشواديف والبيوت والحظائر: كل شئ يتلاشى.

وأفقت على صوت جمال: حامد. اجمع هذه الحبال فسوف نحتاج اليها. فقمت اجمعها وأكومها على الشاطئ وفى قلبى حزن ثقيل.

وحانت منى التفاتة الى الشرق فرأيتهما تقبلان: زنوبة وشريفة. تحملان وعاءين نحاسيين يتوهج ضوء الشمس عليهما فيلقيان بريقا أصفر على وجه السمراء وسحرا غريبا على وجه البيضاء. ودنتا من الموردة. وتوقفتا تتهامسان: زنوبة. لا تقولى شيئا لجمال، فأن حسن المصرى غريب لا أهل له ولاهو من ولد العم ولاالخال. ولاهو من النجع. أنه حلبى وسوف يقتلنى جمال اذا ماعرف.. اياك يازنوبة.

– كلام فارغ. وهل كان جمال من جنسى ولونى.. إنه القلب ياشريفة يميل فيتزاوج الناس.

- لكن برعى يريدنى، أنظرى اليه ستدركين حبه.
- ولماذا لايتقدم لجمال؟
- تقدم لأمى فصدته لعل البسطاوى يتزوجنى.
- ياه...أوف... تقيل الدم. الحمد الله انه تزوج من سعدية.
- كان غريبا زواجهما الفجائى يازنوبة.
- ربنا أمر بالستر.

وتنبهتا لوجودى. فأطبقتا الشفاه، ومضتا تعبثان بقدميهما فى الماء، بينما الرجال لاهون عنهما فى فك التروس والقواديس وتكويمها على الجدول الكبير. لكننى دنوت منهما أتأمل وجه زنوبة الأبيض أتوسم فيه وجه زوجة خالى عثمان فى مصر. وقررت أن أسالها عن شئ ما لاسمع صوتها الجميل. الا أننى توقفت فجأة حين رأيتهما تتجهان ببصريهما الى الشمال ترقبان خطوطا سوداء تتحرك على سطح الماء، وتنفث دخانا كثيفا يتعالى الى السماء، ليتبدد فى قبضة الريح. وراحت الخطوط تكبر وتعلو وترج النيل بطنينها حتى بدت قافلة طويلة من الصنادل تجرها بواخر سوداء صغيرة.

وتهشم قادوس فى يد برعى وهو يصرخ: الصنادل ياجمال. لقد جاءت الصنادل. ثم انطلق ينادى عبر الحقول. صابر.. ياشيخ صابر. جاءت الصنادل ياصابر. ومن خلفة جمال وحسن المصرى يعدوان الى النتوء الشرقى، فإليه كانت تتجه باخرة صغيرة انفصلت عن القافلة بصندلها الطويل الأسود لترسو عنده. بينما القافلة تواصل طريقها الى الجنوب.

وصرت الأبواب فى الجزيرة وتطلعت عيون النساء والرجال فوق شاطئها الى القافلة ، وانقبضت صدورهم فسوف تحمل هذه الصنادل اعزاء تشتتهم فى أماكن نائية.

واستلقى بحارة الباخرة على الرمل يحدقون فى اتجاه زنوبة وشريفة اللتين توارتا خلف جذع، تتلصصان عليهم وعلى الباخرة والصندل الطويل. بينما انهمك برعى يسأل عن الباخرة وكيف تتحرك قلاباتها، فتركوه حائرا دون جواب، بيد أنه تأكد أن الصندل سيقل المهاجرين الى الطود غدا أو بعد غد.

وعدنا أنا وبرعى فى المساء نتحدث عن الباخرة والصنادل حتى انعطفنا الى الطريق العام. ومن هنالك لاحظنا، فى دهشة وعجب، شيئا غريبا يرفرف فوق متجر أبى: شريطا أبيض طويلا بين ساريتين عليه كلمات عريضة باللون الاحمر.

وأدرك برعى سبب وجومى، فأراد أن يبدد الصمت بكلمة فقال: جاء رجال الصحة وأغلقوا المتجر. وهززت رأسى فى كبرياء وأنا أقول كلا. الا ترى الباب مفتوحا ؟.. وها هى بطة وزوجها يخرجان منه ويعبران الساحة الى دهليزنا. فأمعن النظر فيهما وفى الشريط ثم همس: تعال نقرأ...آه... المحل... ثم تمايل الشريط مع النسيم فاختلطت الكلمات والحروف.

ودنونا من الساحة ودخلناها. وتوقفنا عند الباب نرتفع بعيوننا الى الشريط الأبيض ونقرأ الكلمات : المحل منقول الى البر الغربى ٢٥٠ مترا قبلى كران نوح.

وأصابنى الوجوم رغم أن هذه الكلمات تكررت أمامى منذ يومين حين أمسك الشيخ شليب

بكراستى يكتب: بعد أيام ينتقل الكتاب الى كران نوج.

وغابت الشمس وانسدل الظلام كثيفا على النجع وعلى الشريط الأبيض، والعمدة ورجاله مايزالون يدورن فى النجوع يأمرون الذين اعتزموا الرحيل بالتأهب.

وتجمع الناس من جديد فى الساحة يتساءلون عن المصير ويتناقشون فى أسعار النقل بالمراكب وظلم أصحاب هذه المراكب. وثوقفوا عن الحديث حين أطل عليهم مأذون القرية الشيخ صابر، فأفسحوا له مكانا وتركوه يرتشف فنجان الشاى دون سؤال.. ثم مال عليه أبى يسأل: ومتى ترحلون ياصابر؟ غدا باذن الله... عند المساء ياأمين.

- حسنين سيسافر غدا. وسوف ترحل معه بطة.

- أيرحلان فى الصندل معنا؟.

- كلا- بل على الباخرة النيلية الى الشلال ومنها الى مصر.

وأحسست بانقباض فى صدرى. بطة سترحل وابقى أنا وحدى مع الأم وأمراضها. ياالله كم هى قاسية هذه الحياة. وطفرت الدموع من عينيى فسالت حتى شعرت بمرارتها فى حلقى. وزاد من مرارتها تلك الكلمات الحزينة التى أخذ الرجال يتبادلونها: غدا.. ياصابر.... لماذا لاتؤجل الرحيل؟ مصيبة.

- مشيئة الله. هكذا أراد ولا راد لإرادته، كم أود أن أبقى معكم الى آخر يوم. لكن الصنادل...

- وهل يسافر أبوك أم مايزال مصرا على البقاء هنا؟.

- مايزال ياعم أمين.

- والحاجة؟

- ستبقى معه. انها تخاف من القاطرات والعربات والبواخر فلكم عانت منها أيام الحج.

- لعلها تريد أن تركب «زبلن»

واستضحك الناس فلم يرسلوا الا ضحكات فاترة.

* * *

وقبل أن تبزغ الشمس كان الرجال والنساء يتجهون الى بيت المأذون يقتلعون الأبواب، ويحزمون الأمتعة، وينقلون بعضها الى بيت أبيه.

وقبيل الظهر كانت جدران بيته مثل جدران كران نوج، معتمة رغم السقف الذى رفع، فتأملته لحظة، استندت بعدها الى جدار أرسل نشيجا خافتا اختلط ببكاء سبيلة زوجة المأذون.



بدأت الشمس تميل وتتوارى خلف شواشي النخيل، تملأ القرية بلون الذهب متوهجة على قضبان معدنية مغروسة فى الأرض ترسم الكنتورات المائية التى يبلغها الطوفان. وأخذ شئ مايغيب فى عيون الرجال والنساء كلما تعرت بيوت جيرانهم من كل شئ متحولة الى كائنات مسنوحة ترسل الرعب فى العيون. فان الشمس الغاربة تقرب معها ساعات الوداع فى المساء، فمضوا يحبسون الدمع، ويرسلون آهة بعد أخرى، ويطوحون بعصيهم فى الفضاء بينما شفاههم تتمتم.. لا اله الا اله، سبحانه الباقى وحده.. هيلا هوب. أسرع يابرعى. أنت ياإش الله خذ هذا «اللحاف» ضعه فى تلك السحارة. حسن يامصرى شد حيلك ياسبع..

هكذا مضى الشيخ جعفر يصيح بنا، ونحن نساعد الشيخ صابر وزوجته سبيلة فى حزم أمتعتهما ونقلها الى النتوء الشرقى حيث رسا الصندل الطويل.

وانتهى كل شئ. فبدا بيت المأذون مهجورا خاليا الا من التراب وجحور تسرح العقارب والخنافس منها فى كل اتجاه. ثبتت عليه عيون الناس الدامعة فى حسرة وأسى صامتين صمتا قطعه صوت المأذون: تعالى. فقد آن لنا أن نسير. فجاءت مختنقة الخطا متثاقلة، مطرقة الرأس وقد أحنت قامتها النحيلة ثم استدارت فجأت ورمشت بعينيها اللتين احمرتا بلون الدم، وتلمست الجدار بيد بينما اليد الأخرى تحيط بصغيرها المتشبث بصدرها فى نهم، ثم انحنت على العتبة تقبل مواقع الأقدام وتنشج فى صوت مسموع: ليتنا بقينا..لن أرحل ياصابر، ثم راحت تبكى أمها وأباها اللذين ماتا منذ أعوام: التعساء ياأماه لايبلغون شبيكة. التعساء ياأبتى لايفرحون، الغلابة ما من أحد يرحمهم. من لنا غيرك يارب.. هئ.. هئ.. ونور... يارب..

وأخذ الطفل يصرخ فلم تبال به. بينما زوجها يرمقها بعينين جامدتين ووجه عابس لايقوى على احتمال بكائها ولا على الاقتراب منها.. أنه لايسمع حتى صرخات أحمد عوده: أنتشلها من الارض ياصابر.. لا تتركها تقتل نفسها من البكاء. فلم تبدر منه حركة تشير الى أنه سمع بل مال الى جذع نخلة استند متهالكا يبكى هو الأخر.

ومن بين الجموع تقدمت فضيلة تأمر سبيلة فى حزم: هاتى الولد ياسبيلة ولا ترضعيه لبن الحزن. فتطلعت اليها فى دهشة، وتركتها تنتزع الصغير من بين يديها، فاستدارت به الى برعى ثم عادت تحتضن سبيلة فى قوة تنهضها وتسير بها فى خطا متمهلة تهذى هذيان الحمى: أين بيتى؟.. حتى مصاغى سرقه صابر.. والسحارة.. سحارة أمى «هئ. هئ»

والرجال، يرمقونها فى وجوم وصمت، ولايفعلون شيئا فقد انشغلوا عنها بدموعهم يخنقونها بين الجفون، متأثرين بهذا الفراق الوشيك، وتوقع وداع اليم للشيخ صابر، الرجل الذى أحبوه، الرجل الذى عقد زيجات أبنائهم وبناتهم والذى عانى مرارة الحبس فى المركز من أجلهم.

وهاهم يقتلعون اقدامهم ويسيرون فى خطا متثاقلة حول الزوجين، ينعطفون الى الطريق الزراعية ويتوقفون حين يتوقفان لتأمل كل شئ من جديد، شرائح الأرض وساقية البئر والحلفا.. واشجار النخيل.

ومن النجوع الاخرى سارت على نفس الطريق مواكب أخرى تمضى متأنية. تتوقف بين الفينة والأخرى كأنما هى جنازات تحمل نعشا ثقيلا الى الجبانة العمومية.

وفى السكون الذى لف النجع.. السكون الذى لاتقطعه الا نهنهات سبيلة وصراخ وليدها انبعث صوت شائخ يركض عى طول الطريق: صابر. ولدى. خذنى معك ياصابر..

وهمهم أبي: مسكينة.. العجوز تجرى لاهثة. توقف ياصابر.

فاستدار وتوقف، حتى اقتربت العجوز وارتمت فى أحضانه تمرغ رأسها بصدره، ثم لحق بهما الأب ليمسك هو الآخر بكتف المأذون ليرمقه بعينين دامعتين تسحان على لحيته البيضاء.

- مع السلامة ياولدى... مع السلامة.

- مع السلامة. سامحنى ياأبى. ودعتك فى البيت حتى لاأحملك آلام الفراق.

وها أنت.. ماعلينا. لماذا لا تأتيان معى؟..

وانبرت العجوز تصرخ: سوف آتى معك وأترك العجوز وحده.. سأتركه . ولم يصدق صابر كلمات العجوز فلسوف تتراجع. أنها لا تستطيع مغادرة النجع.. انها تريد البقاء.. هنالك فى الغرب. لتطل منه على النخيل والوطن القديم. أما أن ترحل فأمر صعب. أنه تركهما وسوف يعود لاقناعهما.. ليته لم يشتر تلك الأرض فى الطود .. ليته بقى. ولكن..

واستأنف الموكب سيره حتى توقف على النتوء يواجه الباخرة الصغيرة والصندل بين مواكب أخرى سبقته الى النتوء.

وولت سبيلة ظهرها للباخرة، واستدارت تواجه قريتها. مضت تتفرس فى كل نخلة وفى الشمس الغاربة التى تذهب خوصها، وظلال الأصيل الطويلة. ولايدرى المرء كم من الصور والذكريات انسالت على مخيلتها فى تلك اللحظة.. لعها تصورت نفسها طفلة صغيرة تلعب بين هذه الجذوع منذ عشرين عاما، ولعلها تصورته- زوجها- يلعب معها لعبة العروس فى ظهيرة يوم تحت غصون هذه الشجرة. لكم مضى يقبلها حينذاك والفتيان يستحثونه. ولعها تصورت الفانوس فى ساعات السحر.

وهنا بالقرب من هذا النتوء توقفا هى وصابر فى صباحيتهما الأولى. ومن هذا الطريق عادا الى بيتهما الجديد والشمس تداعب عيونهما باشعاعاتها الدافئة. انها حياة كاملة تلك التى تتسرب فى هذه اللحظة أمام عينيها. فهاهى تمضى على هذا الصندل الى غير رجعة تمضى الى بلاد نائية لاتعرف شيئا عنها. لك الله ياصابر. لماذا تكبدنا كل هذا الشقاء؟ أنت أدرى بالذى قالته البيضاء. أنت أدرى بقصص حسن المصرى عن الصعيد . هناك لايخرجن من بيت الا محمولات فى نعوش. هناك يقتلون الناس فى الظهر الأحمر. هناك الرصاص. وهؤلاء الأعزاء جميعا أحياء. حتى هذه التى تقبل نحوى فى احجام- لخصومة بينى وبينها لأنها لم تعز فى أمى- حتى هذه يصعب على القلب فراقها.

وتذكرت أمها. فأرسلت نشيجا متصلا..ليتنى زرت قبرها اليوم قبل الرحيل. ليتنى فعلت ذلك قبل أن تلتهم الأسماك جسدها الطاهر. ولكن الأوان قد فات. ولامناص من الرحيل. سامحينى ياأماه.

والقت نظرة على الناس. على أمين كلثومة، وأمينة بايا، والشيخ فضل وفضيلة وبرعى وأبيه وأمه.. فاختنق صدرها وانقبض. الجميع كانوا واجمين.. وعيونهم دامعة. فان كل واحدة مضت

تتصور نفسها وهى تفارق الأحباب. تنتزع من بين أحضانهم وترحل.

ومضت الشمس تغوص خلف كران نوج بينما طار سرب من الغربان ارتفع فى حدقات العيون وأعولت الريح تصفر بين أجمات النخيل، وتماوجت صفحة النيل وطفقت «الشمندورة» الحمراء تلمع وتتراقص عند الدوامة الهادرة. وتعالت صيحات الأطفال وصراخ النساء . وانطلق من الباخرة صفير مثل عواء الذئاب. فأقعى لورد وأرسل نباحه الممطوط، وتعالى صوت الريان، فوق ذلك كله، فى حزم: تعالوا فقد حل المساء- لابد من الرحيل. فاخترق نداؤه شغاف القلوب، فأقبل كل واحد وواحدة يعانق صاحبه. وعلى مقربة من الرجال صغار يبكون فى عناد. صغار تعودوا أن يلعبوا فى الساحات معا حتى يغيب القمر ولن يلتقوا من جديد. فعرفوا الأسى والحزن الثقيل فى تلك اللحظة. فمنذ غد فى المساء حين يتجمع الصغار فى الساحات سيفتقدون لداتهم الذين رحلوا. وهذه فردوس وسعيدة وأمينة يهاجرن فكيف لهم أن يعاودوا لعبة العروس بدونهن؟.

ولمحت طفلا صغيرا يتجه فى احجام الى طفل آخر من المهاجرين بينهما خصام بدآه فى الكتاب، وظننت أنه سينتقم منه. الا أنه ارتمى على صدره باكيا يقول: سامحنى يافوزى. ماعليك ياصادق... لكنك شتمت أمى.. وأنت شتمت أبى.. خالصين وافترقا والدموع تتألق فى العيون.

وارتمت بطة وجميلة فى أحضان المهاجرات وذرفن الدمع ثم عادتا مسرعتين، فبطة راحلة هى الأخرى فى منتصف الليل مع زوجها الى مصر، ولسوف تقلع بهما الفلوكة الى المحطة النيلية. ومضيت أراقبهما وفى قلبى أسى، فأننى أعيش فى ألم يشتد ساعة بعد ساعة منذ تقرر رحيلها.

وانتزع حسنين نفسه وعاد، بينما أقبلت سعدية تجرجر جلبابها الطويل واتجهت الى حيث وقفت صديقتها خديجة مولية الباخرة والصندل ظهرها واجمة تذرف الدمع وداعا للنجع وأهله وتعانقتا ثم خلعت سعدية عقدا خرزيا، وأحاطت به عنق خديجة فارتسمت بسمة مشرقة على ثغر هذه ثم مدت يدها الى بطن سعدية وقالت ولد انشاء الله. فتبسمت وهمست: ولد أو بنت.. كله من عند الله. فلم تضع خديجة فرصتها المتاحة فقالت: أو من البسطاوى.. أمازلت غاضبة؟ كلا فقد عدت اليه من أجل الجنين.. برافو.. ومن أجل.. فأطلقت سعدية ضحكة عالية كانت هى الضحكة الوحيدة التى اطلقت على الشاطئ منذ ساعات.. ويبدو أن بوما قد أفزعته الضحكة الصافية فأرسل نعيقا مروعا انداح فى الوادى يغطى على صوت الشمندورة الحمراء المرتطمة دائما بسلسلتها.

وتعالى صوت الريان من جديد.. هيا. لقد آن وقت الرحيل. واستدارت الباخرة الصغيرة محركة قلاباتها فى دوى، مرسلة رذاذا من الماء تعالى الى الشاطئ، وشمخت بأنفها ثم ارسلت دخانا كثيفا مضت معه تقطر الصندل الطويل الغاطس فى النيل، فطبع الشيخ صابر قبلة الوداع على جبين أبيه وعلى رأس أمه. ثم التفت الى زوجته فى حزم. تعالى ياسبيلة. وجذبها من كمها الواسع فتشبثت بالارض وارتمت تنتحب وتقبل الوحل والطمى. ثم دفعتها أمينة بايا دفعا حتى وقفت مع زوجها على حافة الباخرة تشيع الوادى بنظرات حائرة.

وقبل أن ترفع السقالة اندفع الجزار وراء رجل كان يبتعد متكئا على ساقه الخشبية، أمسك به من الخلف وقال متهدج الصوت: سامحنى يافضل. لعنة الله على الأرض. فرق فضل ولان وترك

الرجل يحيطه بذراعيه ويبلل صدره بالدموع وهمس: القلب للقلب رسول ياعبد الله. امضى فى سلامة الله.

وأطلقت الباخرة من جديد صفيرها طويلا ممطوطا. ومضت تشق النيل بقلاباتها وتترك خطا أبيض من ورائها حتى فارقت الشاطئ وأوغلت فى المجرى العريض. ووقف المهاجرون على حافتها يلوحون وفى أصواتهم دموع بينما وقفنا نحن على الشاطئ نلوح ونلوح حتى غابت الباخرة خلف المنحنى الشمالى فعدنا أدراجنا وفى قلوبنا حزن ثقيل مثل الرصاص. وفى عيوننا بريق غريب يلمع بالغضب. وبجانبى كان يخطو برعى وقد أمسك بيدى لايريد تركها حتى بلغنا الطريق الذى يحازى بيوتنا.

وهناك فوجئنا بمشهد غريب. فان أعمدة البرق والتليفون كانت قد هجرت الطريق. فلم يعد هناك عمود واحد. ولم تعد القاهرة تصوصو لقريتنا، وتلفتنا لنجد الأعمدة منطرحة على الأرض. متراخية الاسلاك. فقد جاء عمال الحكومة منذ ساعة يقتلعون الاعمدة بسرعة يرتفعون بها الى قمم الجبل الشاهق ويشدون بينها الاسلاك.

ولمحت حسنين يدلف من باب الدهليز فانطلقت خلفه لأجد أمى فى ركنها ترسل نظراتها الحانية الطويلة الى بطة ثم ترتد بطرفها الى الارض وتعبث بأناملها فى التراب. بينما الاختان توشوشان فى الركن الاخر فانضممت اليهما واختلطت دموعنا ونهنهاتنا تخلق جوا حزينا فى الدهليز.

ونهضت بطة واتخذت سمة الأم، ترمقنا من خلال الدموع وتأمر شقيقتها الكبرى: لاتتركى حامد وحده ياجميلة. حاضر يابطة.. وأمى اياك أن تغيبى عنها طويلا. فسوف يقتلها الحزن.. وانت ياحامد..

وانبرى صوت الأخرى يقول: اهتمى أنت بنفسك يابطة، فأنت راحلة الى أرض الغربة. اياك أن تنسينا. اياك والعناد. زوجك هو الأب والشقيق. أنت تعرفين أبى وزوجته. لاتعودى اليهما. حسنين رجل مثل السكر.. اياك أن تفرطى فيه.. حامد مايزال صغيرا. وابوك عجوز وقد يفارقنا، بل لقد تمكنت منه حجوبة منذ الآن. ولامعين لنا الا الله. ومن بعده زوجك وزوجى. حتى يصبح حامد رجلا..

وقلت هنا فى صوت متهدج: بطة لاتخافى فإننى رجل. فتضاحكتا وأحاطتانى بذراعيهما وبللتا وجهى بالدموع.

وجاءت ساعة الوداع حين تقدم الليل ووقفت الأم وجها لوجه.. أمام بطة ابنتها الصغرى. ترمقها فى دهشة وعجب لترتمى بعد لحظة على صدرها تبكى بكاء هز كل جسدها . وصممت لأول مرة أن تصحبنا الى الفلوكة والمحطة النيلية.

وعلى المحطة وحين أهلت الباخرة ذات الثريات الكهربائية والعائدة من حلفا ركب شقيقتى الصغرى جنون فانطلقت تبكى وتصفع كل من يحاول الاقتراب منها معتزمة العودة الى النجع فرارا من الباخرة ومن الرحيل.. ووقف زوجها حائرا لايدرى ماذا يفعل. ثم تدخلت أمينة بايا وأحمد عودة وأعادا العروس الجامحة الى صوابها. فانعطفت علينا تقبلنا لترتمى على صدر أمها

لحظة سارت بعدها مطرقة الرأس الى السقالة الى أن وقفت على حافة الباخرة تراقبنا بعينين غائمتين.

وغابت الثريات الكهربية عن أنظارنا فأظلم الكون حتى بدا كل شئ قاتما حزينا.. كل شئ فى طريق عودتنا كان واجما. حتى الدهليز كان حزينا كئيبا معتما لولا المسرجة الصغيرة التى مضت تلقى ظلالها على السحارة الخشبية التى احتفظت فيها أمى بكل ذكرياتها الصغيرة.

٤٤

لم يبق الا يومان ، والناس يتحركون فى هلع ما بين السفوح والشاطئ وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة يلهثون تحتها ، يسرعون الخطى كأنهم فى سباق مع الثوانى والدقائق،والنيل يرتفع فى كل لحظة يكاد يبلغ قمة الشاطئ ، وعلى صفحته عشرات المراكب تجرى بين الشرق والغرب غاطسة فى النيل إلى غور بعيد ، تصفق بأجنحتها البيضاء و تجتاز النتوء بأحمالها وتستدير عند الطرف الشمالى للجزيرة تاركة الشمندورة الحمراء وراءها لترسو على الضفة الغربية فى محاذاة كران نوج وتفرغ شحنتها ثم تعود إلى البر الشرقى حيث تجمع الناس على أكوام من الأمتعة المختلفة : أبواب غليظة وسحارات خشبية ثقيلة . وجذوع نخل وحصر متعددة الأشكال ، وصوامع وأبراش وأطباق خوصية ملونة وغلال وغرارات بلح .

وعلى الشاطئ الشرقى كان يحتدم الفصال بين الناس والمراكبية الذين انتهزوا ضيق الوقت فراحوا يغالون فى أجورهم موقنين أن الناس سيرضخون لمشيئتهم ، فما هى إلا ساعات ويبلتعهم الطوفان ..

وتريث عم نوح حتى رسا بمركبه فترك مندوهة عند العفش - وخطا نحو المركب : مرسال يا ولدى .. اتفقنا على اليوم ، سوف أدفع لك أجرك .

فعبث مرسال بالشاغول وألقى بالمدراة على الشاطئ وصلصل بالهلب وغرسه فى الأرض ثم قال فى صوت أخنف : قلت لك على الأجر وأنت لا تريد أن تدفع ، يحسن بك أن تتفق مع عوض كتيه يا نوح فاننى مشغول كما ترى بعينيك ..

وأطرق العجوز لحظة ثم انبعث صوته يقول : أنت تعرف يا مرسال أننى لا أملك عفشا كثيرا : ثلاثة أبواب وسحارة صغيرة ، علبة لا تسع شيئا وعنجريبين ، وبعض الابراش والاطباق .. اما ماشيتي فقليلة معزتان وخروفان صغيران ضامران وأزواج من الحمام والدجاج ..

وأضاف بعد تردد :و بقرة وحمارأصغر منها ..

- قلت لك يا نوح .. للعفش وللماشية نقلة أخري.

- تساهل معي يا مرسال ، أنا رجل فقير .

- الله الغني يا نوح .. أنا أفقر منك ، كان جدي عبدا وأبى لم أرث عنه شيئا ..

ومضي يفكر : العجوز يظن أنني استغفله .. ولا يعلم أن الشيخ صادق صاحب المركب يحاسبنى حساب الملكين والموسم موسم شغل وقد لا أجد عملا بعد الموسم ، لم يبق يا نوح الا أن تنقدنى كيلتين من البلح ! ثم ارتفع بصوته . قلت لك سبعة جنيهات ولن تنقص مليما ، ثم دخل ابى وقبل مرسال أن يتقاضى خمسة جنيهات ، واستدار يساعد الشيخ جعفر فى شحن أمتعته ، ثم تريث لحظة شرب فنجان شاى فى استهانة شديدة فى رمضان ونقر على الدف وأدار الدفه الي الغرب وأوغلت المركب في النيل حتى تجاوزت النتوء ثم استدارت عند الطرف الشمالى للجزيرة.

وارتد ابى بطرفه الى الشرق وتأهب لاستقبال حسن المصرى وأحمالا ثقيلة جاء بها من بيت حجوبة. ثم انهمكا فى ترتيب العفش وربط النعاج والمعيز حتى لاتفلت منهما فى الحقول المقفرة.

وعلي الجرف عند الساقية المتهدمة كانت عائلة جمال تكوم أمتعتها.. بينما انكفأت زنوبة على الجدول الكبير تذرف الدمع وفى صدرها دوامة من الذكريات والحيرة أفاقت منها فجأة على صرخات داريا تسبها. لقد عاشتا منذ أيام الصرف فى نقار متصل حار له جمال متناسيًا أنه السبب فى نقارهما. ألم يرضخ لنزوات زنوبة فاختلس لها من أمه جنيهات عشرة ارضاء لزوجته وتعويضا عن المصاغ الذى باعته فى مصر.

ولم تبال زنوبة بصرخات حماتها. فاندفعت اليها هذه تدفعها فى صدرها وعيناها تتقدان بالغضب.. انهضى للعمل، قومى يابنت يازنوبة. فاستشاط غضبها عند هذه الكلمات. لكنها أشاحت بوجهها تطيل حبال الصبر. وأصمت أذنيها: بنت يازنوبة! متى سمعت يازنوبة هذه الكلمات؟ بنت يازنوبة! تكررت هذه الكلمات على مسمعيها صباحا ومساء هنالك فى قصر الباشا فى مصر الجديدة- كانت الست الكبيرة تنادى من مخدعها يابنت يازنوبة فتسرع اليها خفيفة الخطى بالكريم والبودرة.. وهذه هى داريا التى تفوح منها رائحة الجلة والعرق تردد نفس الكلمات. بنت يازنوبة!.

وكان صبر داريا قد نفد، فأهوت على خدها بلطمة أطارت صوابها، فهبت مثل هرة برية متوحشة. وأنشبت أظافرها فى عنق داريا ثم طرحتها أرضا غير مبالية بصرخات شريفة.

ودب الجنون فى رأس جمال، وأمسك بكرباج غليظ أهوى به على زنوبة فى ضربات أسالت الدم من ساعديها. فانطرحت على الأرض تنشج: طلقنى ياجمال. طلقنى فانحنى عليها يأمر: انهضى يامجنونة اغسلى يديك من الدم. انهضى.

ثم مال عبده الفرنساوى عليها وارتاحت لمرآه فاستقامت على عجزها تشرب كلمات الرجل العجوز الذى مضى يطيب خاطرها بكلمات حلوة اعتاد أن يلقيها فى آذان النساء.

وعاد جمال يقول : انهضى ياست. دعينا نرحل. فهزت رأسها بشدة وهى تقول: كلا لست راحلة. سأبقى مع عم عبده حتى أرحل من هنا: طلقنى ياجمال. طلقنى. فأبتاس وقطب جبينه وأحس الغضب على أمه يأكل قلبه. لكنه زم شفتيه وانصاع لعبده الفرنساوى الذى غمز له بعينيه.. اتركها الى غد فسوف يستقل هو نفس المركب مع الشيخ أمين.

وعند الضحى فى اليوم التالى وفوق نفس الشاطىء تهيأ أبى لصلاة الفجر التى نام عنها فاتجه إلى القبلة ورفع يديه الى أذنيه ليكبر لكنه رأي فى هذه للحظة اش الله يندفع صارخا: عم أمين ياكلثومة..فعدل عن صلاته، ومضي يرمق الغلام الذى توقف أمامه لاهثا يشده من كم جلبابه. يريدونك. عمتى فاطمه تصرخ وتضرب حسن المصرى بالمغرفة. واستمع أبى إلى هذه الكلمات فى دهشة. ثم غمغم: المجنونة بينما اندفعت أنا فى الطريق.وانطلق هو من خلفى غارقا فى آلامه وأفكاره. فلقد أبت أمى، فى عناد، أن يرفع سقف البيت وكررت للمرة العاشرة أن الطوفان لن يبلغ بيتها. ألم يزرها شبيكة فى المنام يفضى اليها بالنبأ السعيد؟. فحاول هو مرة بعد أخرى أن يثنيها فلم يلفح فترك البيت الكبير معتزما خع أبوابه ورفع سقوفه واقناعها هى بالرحيل فى آخر لحظة قبل الطوفان بيوم واحد- اليوم- وهو الذى أوعز منذ الصباح إلى حسن المصرى أن يحتال عليها ويبعدها عن البيت بحجة ما ليرفع السقوف والأبواب فى غيبتها. ويبدو أن حسن وبرعي قد اصطدما بها فثارت ووقفت على عتبة البيت تذود عنه بمغرفتها.

كانت حاسرة الرأس مهوشة الشعر. تسد الباب بجسدها وتطوح بالمغرفة وتذودهما عن البيت وتأمرهما فى كلمات غاضبة أن يبتعدا وتلعن أباهما. بينما خالتى أمينة بابا وسيدة من الأعراب النازلين فى الجبل الذى لن يبلغه الطوفان تحاولان تهدئة روعها.

وتجاهل أبى توسلات أمينة والأعرابية فاندفع يصرخ فى نبرات غاضبة نافذة الصبر: ماذا تريدين يامجنونة يابنت ال.. فقلت باكيا كلا ياأبى..دعها وشأنها. إنها مريضة. قال: مريضة. إنها مجنونة..

اخرس انت. فأحسست بوخز فى قلبى من وقع هذه الكلمات وودت لو كف أبى عنها ولكنه مضى يهدر بها وهو يتقدم نحوها فى حذر بينما هى تهيأت بسلاحها وتسدد ضربات عشوائية اليه يتحاشاها. واقترب منها وأنا ماأزال أصرخ: دعها وشأنها ياأبى. دعها لى. سوف.. إنها مريضة. ولاأدرى إن كانت كلماتى قد أثرت فى أبى أم أنه خشى مغبة ماكان مقدما عليه. فقد

لان واستكان وتوقف يقول فى صوت رقيق: فاطمة. ألا تعرفين أن البيت سيغوص فى الطوفان؟ . سيتهدم يافاطمة. فلم تجب بل شددت قبضتها على المغرفة وراحت تراقب فى صمت شبح امرأة تبدى هنالك عند بداية نجع المجراب وعلى كتفها طفل صغير. فقد كانت تتوقع زيارة من ابنتها جميلة..

وتريث أبى ثم استرسل فى حديثه: هنالك فى الغرب... سأبنى لك بيتا جديدا لك ولحامد، فتبسمت وكأنها تقول: خداع. سوف تبنيه لحجوبة ، فهى الزوجة الصغيرة.أما أنا فاترك لى هذا البيت ..وارتفع صوتها يقول: لن يرفع سقف بيتي..سوف أعيش فيه وسوف يبقى معى حامد..فإنه رجل..

وتأملنى أبى فى دهشة وأنا أمسك بيده وأهزها وأهتف: دعها سوف أبقى معها. وتدخل برعى بكلمتين لم يبال بهما أحد. ثم تدخلت أمينة بايا تقول: عيب يافاطمة. ماذا يقول الناس عنا إذا تركناك هنا وحدك. كيف نتركك وحدك للطوفان؟. حامد مازال صغيرا.. تعالى يافاطمة. وفى اللحظة التى كانت جميلة تدلف فيهاإلى الساحة متجهة الينا برزت حجوبة من خلف المرتفع الذى كانت الشونة منتصبة عليه تلوح بيدها وتصرخ: هوى.. هوى.. المركبان تستديران حول الجزيرة.

ويبدو أن كلمات حجوبة ومرآها قد أثارا كوامن فى صدر أمى فقد طوحت بالمغرفة فوق رأسها ثم أربد وجهها، ومالت واستندت إلي كتف الباب، وتهاوت على العتبة مرسلة آهة خنقتها فى الحال أصوات ارتطامها بالأرض، وراحت تركل الباب وتذيب بين شفتيها سائلا أبيض يغلى كالحشرجة وتكبش فى التراب. وانكفأت عليها أبكى بينما أبى عابس يذرف الدمع مستنداً إلى جذع نخلة، وأخذت أمينة وجميلة - التى وصلت فى نفس اللحظة- تدلكان جسدها وترشان الماء على وجهها..

ومرت لحظات حسبتها دهرا أفاقت الأم بعدها تتلفت بعينيها الجاحظتين تبحث عن المغرفة التي كان حسن المصرى قد اختطفها وأخفاها عن متناول يدها. ثم تأملت وجه جميلة المبلل بالدموع، فأشفقت ثم نهضت وأسلمت نفسها لذراع ابنتها..فدلفتا من باب الدهليز

وتبعتهما حتى توقفت الأم عند ركن فى الديوان فارتكنت الي الجدار تقول: هنا جاءنى المخاض فيك ياجميلة! ولاأدرى مالذى جعل جميلة تقول: كلا ياأمى. لقد ولدتنى فى البيت القديم. فقطبت الأم ثم فردت جبينها بيد وقالت فى يأس: انت صغيرة ياجميلة لاتدركين .. كيف تعرفين وقد كنت حينذاك مثل كف اليد. وسكتت البنت حين تحركت الأم لتتوقف عند ركن آخر: وهنا ولد حامد. أتذكرين ؟ مسكين..كاد يموت هنا بسببى، وأجهشت بالبكاء حين تذكرت كيف ارتمت على جسدى الصغير وهى ترضعنى وراحت فى غيبوبة طويلة. وتواريت أنا خلف الباب

دامع العينين بينما ابتعدت بها جميلة إلي ركن آخر فى الحاصل جلست فيه الأم تحكى على مسامع أمينة والأعرابية ذكريات حياتها كيف رفعت جدران هذا البيت، وكيف ساعدت الزوج. ثم عن مولد جميلة وزواجها وبطة ورحيلها وحامد الذي حرمه الله من حنانها، مسكين. كانت تتكلم وفي عينيها دموع وحول شفتيها غضون وتجاعيد وسكتت لحظة ترشف الماء بصوت مسموع. فانبرت جميلة تقول: أمى تعالي معى إلى الغرب- في خيمتى، لاتذهبى مع حجوبة..شعبان طلب منى. فتفرست فيها لحظة. ثم هزت رأسها وقالت : يابنتى لك بيت تعيشين فيه مع زوجك ولى بيت هو هذا البيت.

وتريثت جميلة تفكر ثم قالت:واذا مانجا البيت من الطوفان عدنا اليه ياأمى!. وبدا لها واضحا أن الأم لم تقتنع، ولن ترضى بمبارحة بيتها. فاستنجدت بخالتها والأعرابية ولبثن ساعة حتى وافقت الأم العنيدة على حل. تسمح للزوج أن يخلع سقوف البيت والأبواب ويترك لها الحاصل تعيش فيه مع حامد، وإذا لم يكن هناك طوفان عاد السقف وأعيدت الأبواب وإلا فسوف أعيش لوحدى هنا.

وابتسمت الأعرابية وقالت: تعالى معى إلي الجبل اذا ماجاء الطوفان. تعالى معى الآن. فهزت رأسها تتمنع بينما قالت الخالة : غريبة. الشيخ فضل يعتزم البقاء أيضا إلي غد.. لاأدرى ماذا جرى لعقول الناس. الطوفان يسرع إلى النجع. وهناك من يريدون البقاء.. فقالت الأم: إذن فسوف نسلى بعضنا حتى تعودوا من الغرب..

وماهى إلا لحظات حتى أخذ حسن المصرى وبرعى يهدمان السقوف ويخلعان الأبواب بينما انهمك أبى ومرسال و عوض كتية، على الشاطيء يشحنون أمتعة البيوت الثلاثة فوق المركبين حتى بدتا فى نهاية الأمر قبتين هائلتين تربضن تحت الشراع الأبيض السامق.

ثم وقفنا على الشاطىء نلوح إلي أبى الذى استقل سفينة عوض كتية بينما استقلت حجوبة ومحمود الصغير مركب مرسال الذى أخذ ينقر على الدف نقرات أخذت تنداح فوق الشطآن بين أجمات النخيل ثم تخفت رويدا رويدا كلما تحكت سفينته توغل فى المجرى العميق، فى مواجهة الجزيرة الغارقة لتجتاز النتوء الشرقى.

وها هو يهب واقفا على حافة السفينة الموسوقة يرتفع بنقراته مودعا شطآن الشرق بألحان داوية.: أفيالوقو...أفيالوقو..مع السلامة.. مع السلامة.
ومن خلال نقرات الدف ارتفع صوت أبي يقول:
- لاتفارق أمك ياحامد. سنعود غدا لنقلكم إلي الغرب. فتبسمت أمى ابتسامة واهنة وقالت: بل ستعودون أنتم جيمعا إلي البيت الكبير.

٤٥

ومضت السفينتان تتسابقان حتى تجاوزتا النتوء الشرقى وألقتا بنفسيهما فى المجرى العريض. ثم بدأت سفينة عوض كتيه تندفع فى سرعة أكبر تاركة مرسال فى سفينته يسب الحظ العاثر ويلعن عوض كتيه الذى اعتاد توريطه فى مآزق تجعله عرضة لسخرية الكبار والصغار. فها هو ينفلت بحمولته فى سرعة وعليها الشيخ أمين وحسن المصرى يرمقان سفينته البطيئة فى دهشة وذهول.

فعند مؤخرة مركب عوض تماما تحت مقبض الدفة اتكأ أبى، يمد بصره ويراقب حركة السفينة الأخرى ويمعن النظر فى شبح زوجته، وفى الدست النحاسى الكبير القائم بين الأمتعة حتى ركبته هواجس أخذ يهز برأسه بشدة ليطاردها، ثم انهمك فى تحريك سبحته الطويلة التى اصطنعها من حبات الخروع، وغرق فى أوراد يتلوها بصوت خافت. ثم عاودته الهواجس فهب واقفا على قدميه ينادى عبر الماء.

- مرسال شد حيلك يا مرسال

فاستدار النوتى بجسده وصاح: الشدة على الله.

قالها فى غيظ، ثم عاد إلى همومه. بينما أخذ أبى يسلى صيامه بهمهمة غامضة وعيناه تراقبان التلال الغربية، يتعجل مغيب الشمس فقد أمسك بحلقه ظمأ شديد يكاد يدميه ويجرحه، أو ترتدان إلى مركب مرسال التى أخذت تتلكأ، وتتأملان الدست النحاسى الكبير والشمس تتوهج عليه بأنوار متراقصة تجعدها الأمواج العاتية.

وفى ذلك الدست كان محمود الصغير تطل عليه حجوبة وزنوبة تداعبانه، وتخشيان أن ينفلت منه فينزلق إلي اليم، ومن حولهما أمينة بابا وعبده الفرنساوى ينهمكان فى حديث عن مصر وزوج غائب لم يعد منذ سنين، لاهيين عن المد العارم الذى يواجه السفن والقوارب المائجة فى المجرى العريض.

ورفع أبى رأسه إلى السماء فوجدها مربدة تكتسحها ريح تهب نشطة من الغرب وتشتد لحظة بعد أخرى، تسوق أمامها سحبا داكنة، تحجب قرص الشمس المائلة إلى الغروب حينا، وتسفر عنها حينا آخر ملقية أضواء باهتة على الخيام والرمال والقصر الأثرى الرومانى القديم.

فأحس بانقباض يعتصر قلبه بعث فيه ندما أخذ به كل مأخذ: ليته استقل المركب الأخرى معهما.. مع حجوبة وابنه الصغير فليس إلا فى رعاية جمال وعبده الفرنساوى. وعبده لايعرف كيف يحرك يده فى الماء بينما جمال مفتون بزوجته البيضاء مشغول بنقارها مع أمه. وها هى

سفينته تتوسط المجرى الغربى العميق بعد أن استدارت حول القرن الشمالى للجزيرة، وانفلتت متجاوزة الدوامة تتجه لترسو على البر الغربى وماهى إلا خطوات حتي يشرع حسن المصرى وعوض فى تفريغ شحنتها على الجرف العالى، وربما انتهيا من ذلك قبل مغيب الشمس، بينما السفينة الأخرى ماتزال تتلكأ وتختفى عن عينيه خلف أجمات النخيل الغائصة - حتى خصورها- فى الجزيرة التى وطىء الطوفان وهادها المنخفضة منذ الليل، فجعل يشرئب بعنقه يبحث عنها ثم ضرب بيده على صدغه وقال: وماالذى جعلنى أوزع عفشى على المركبين؟ لماذا لم أترك السفينة الأخرى لجمال والفرنساوى وأمينة، لماذا؟. كان فى وسعى أن أشحن كل شىء هنا فتكون الزوجة والطفل الصغير معى. فليرعهما الله بعنايته. ثم تمتم بالدعاء وهو يخطو على السقالة إلي الجرف العالى، ليتوقف هناك لحظة يرمق الطرف الشمالى للجزيرة بعين واجفة حتي بان الشراع السامق مهتزا فوق الأمواج الهائجة، فاطمأن واستدبر الشاطىء ومضى فى خطى متثاقلة مرهقة إلى خيمته التى أعدها منذ أيام يستريح قليلا حتى ترسو السفينة قبل مغيب الشمس، فلسوف تحل حجوبة بعد لحظات فى الخيمة وتعد إفطارا لصيامه. وقال: أغمض عينيك ياأمين علك تنام لحظة تفيق نشطا بعدها.

إلا أن جفنيه لم ينسدلا على عينيه. حاول أن ينام ومع كل محاولة كانت المخاوف تنثال علي قلبه رماحا غائصة، مخاوف ضاعف منها هدير الدوامة وارتطام الشمندورة بسلسلتها، ثم هذه السحب الداكنة الزاحفة إلى الشرق والشمس التى كادت تغيب وفرقعات البيوت التى أخذت تتهاوى فى نجوع الشرق. ترى ماذا تفعلين الآن يافاطمة؟ وحامد ماذا يفعل؟.

واستقام جالسا على الرمل عند هذه الخاطرة: المخبولة. لماذا تركتها هناك؟ تريد أن تهلك نفسها. فلماذا تركت الولد حامد معها؟. ثم هاهى الأمواج تشتد وتعلو وترتفع بحجوبة ومحمود وتنخفض وظلل عينيه بيده وامتد ببصره فوق الأمواج وغمغم: يبدو أن حبالا غليظة تشد المركب إلى قاع اليم فلا تتحرك، فهى مازالت هناك بالقرب من الدوامة وعلى بعد خطوات من الجندل الثانى فى النيل.

وهب واقفا على باب الخيمة يحدق فى المجرى العميق الممتد ما بين الجزيرة ورمال الشاطىء الغربى، ولقد ارتفع الطوفان مثل جدرآن سميكة عالية الأمواج تتدافع لأول مرة من الشمال تكتسح الأمواج المستكينة الزاحفة من الجنوب وتطأ الجروف في قسوة وتحاصر البيوت، وتهوى بالجدران مثيرة غبارا داكنا ينعقد تحت السحب تخترقها بصعوبة أسراب من الأوز العراقى تسرع صامتة لتحط رحالها على الغصون هاربة من الريح التى أخذت تعوى مثل الذئاب. وها هى سفينة زوجته تتأرجح فى قبضة الأمواج والدوامة والسحب والريح.. لعنة الله عليك يامرسال! تحول ركاب سفينتك إلى أشباح فى أضواء الشمس الباهتة البادية قرصا أحمر ملتهب الحواشى تتكىء خلف التلال الغربية لتغيب.

ولايدرى لماذا أخذته غفوة النوم فى هذه اللحظة، تماما قبل مغب الشمس. قبل أن يؤذن نوح، ولايدرى كم طالت غفوته، لايدرى إلا أنه أفاق على جلبة، على صوات يتعالى ويندلح فى المجرى العريض، فوق هدير الأمواج وقهقة الدوامة ليخترق طبقة أذنه، ففرك عينيه ونهض يجرى، لايبالى بالصخور الناتئة برءوسها من الرمل ترتطم بقدمه الحافية وتدميها.

ومن حوله كانت الأقدام تتدافع من كل خيمة، من كل نجع، وخيل له أن هناك جماعات من الناس تركض حتى من ابريم، قرية الخيام المترامية إلى الجنوب من كران نوح.

وتوقف لاهثا على الجرف العالى يحيط به نسوة ورجال وأطفال صغار ينوحون، ويشقون الجيوب ويحثون التراب على الرءوس، ولمح الدموع فى عينى داريا وشريفة اللتين راحتا تعولان وترسلان فى نغم مختنق عديدا مسجوعا تبكيان الأب الذى مات والأخ الذى اختنق وتلعنان زنوبة فلولاها لما عاد جمال إلى الشرق.. لولاها! وغير بعيد ربضت أم عجوز وأخت كهلة، أم وأخت الفرنساوى تبكيان وتذرفان الدمع فى صمت بينما أخذت بنات الخالة تعولن..بينما الرجال يجرون هنا وهناك.يتنادون عبر الخيام ويقفزون من الجرف العالى إلى الشط المنخفض، ويفكون قوارب من مراسيها ويضربون الماء بالمجاديف ويسبون بعضهم فى صخب، وفوق الموج أشرعة بيضاء تنعطف نحو مركب مرسال متسممين الصوات والصرخات المنطلقة يخنقها عويل الريح المنطلقة فوق الرءوس وفرقعات البيوت المتهاوية فى أقصى نجوع الشرق إلى الشمال، ولايدرى لم توقف هو دون حراك؟. لم ترك أحمد عودة يصدر الأوامر وحده؟. لايدرى أنه ظل برهة ذاهلا ينظر إلى النسوة الناحبات فى ازدراء. نسوة لايعرفن الصبر. ثم تبدت أمامه جميلة مهوشة الشعر لاهثة فقد أخذت تجرى منذ أن سمعت الصوات العالى وتقفز فوق كثبان الرمال، حتى اندفعت إلى التجمعات الباكية، وجالت بعينيها الدامعتين وأذناها تلتقطان نداءات تنبعث من جوف الطوفان..زنوبة، محمود، ..حجوبة..مرسال..

رمقها فى نظرة خاطفة ثم أرسل نظرة غاضبة إلى النيل، وأحس بقوة هائلة تنبعث من باطنه، ترفع قدميه من الأرض وتدفع به عبر الجرف، وقد تعالى صوته بالبكاء وتقذف به إلى النيل..يغوص..ويلقى به الموج على الشاطىء ليحتضنه حموى بقوة ويرفعه إلى الشاطىء من جديد ناحبا يبكى حظه العاثر، يخرف ويسب ويكور قبضتيه يطوح بهما فى وجه السماء. ثم انكفأ على صدرها يبكى ويهتف..لماذا يارب.. لماذا تركتنى يارب«ونور» أنا عجوز. خذنى. عشت دنياى فخذنى إليك محمود صغير..صغير.. وأمه تحبه..اتركهما يارب..لقد ماتت ماتوا جميعا.. لقد انهارت جدران الشرق، جدران البيت الكبير على حامد وأمه.

وتركها ورفع عينيه إلى السماء- لماذا خلقتنا! لماذا وهبتني عيالي لتأخذهم الواحد بعد الآخر؟ الزوجتان والولدان! وكل شيء. حتى فلوس التعويضات..لم يبق شيء..لاشيء.. وانطلق يعدو إلى الجرف وهي متشبثة به، فتوقف ثم حدجها بنظرة كأنه لايعرفها وشعرت بالخوف حين تقدم إليها جاحظ العينين مرتعش الشفاه يتحسس ثيابها ويقول: من؟ جميلة..؟ لماذا جئت؟ إياك أن تقربي هذا المكان.. عودي إلى بيتك. بيتنا منحوس. يوم جمعة وساعة نحس! ابعدي..كلا تعالي. ابقي إلى جانبي، لم يبق الأك.. ثم توقف لحظة يبتلع دموعه وقال في صوت تخنقه الدموع وأين صغيرك.. أمات هو الآخر؟..مالثيابك مبتلة؟ أنت الأخرى؟ وبطة!.. من يدريني؟ ربما تدحرجت في هذه اللحظة تحت عجلات ترام..يارب وونور لماذا أسلمتنا للشيطان؟. صليت كما لم يصل أحد!. صمت اليوم.. وما زلت صائما يارب.. أطعمت المحتاجين..فلماذا تعذبني في دنياي؟ لماذا يارب؟ وونور وانكفأ من جديد على صدرها ينشج كالمجنون، فارتفع صوتها هي الأخرى بالبكاء يختلط بصوت بنات خالتها، وهيأ لها أن كل كلمات الرجل صحيحة.. من يدريها؟ فالبيوت تتهاوى في الشرق وربما انكفأت الأم في نوبة من نوبات الإغماء وربما اندلق عليها حامد، وربما انهارت الجدران في نفس اللحظة فاختنقا تحت الطين! تحت الانقاض. وتخيل لها الطوفان العارم طوفانا من التماسيح والثعابين تنهش جسد أخويها: الكبير والصغير وجسد الخالة الطيبة الشفوق فانطرحت على الأرض تسف في التراب ثم غشيها ظلام غريب..نوبة اغماء..أو غشيان لاتدري، إلا أن أصوات العويل والنواح وصرخات مثل صرخات المجانين كانت تتناهى إلى أذنيها خافتة وتنبعث في رأسها، وتدق فيه مثل دقات المسامير، وليس هذا إلا صوت أحمد عودة يقول شيئا أخذت تفيق عليه: كانت في الدست مغشيا عليه لاأدري. خذه وغطيه بحزام ثقيل. هب..هب مالك يا أمين ذاهلا؟.

وفتحت عينيها ترى أباها يتحتضن كومة تقطر بالماء، يندفع بها إلى الخيمة فانتصبت على قدميها وأطلت من الجرف تنهنه وتكاد ترفع صوتها بالبكاء إلا أن وجهها الأسمر الطيب تنور بابتسامة واهنة، فقد رأت أمينة بايا خالتها «مبتلة الثياب» ملطخة الوجه بالوحل، تتعثر مستندة على ذراع برعي فوق الشاطيء، فاندفعت تحتضنها وانفلتت مرة أخرى إلى حجوبة تعانقها باكية فبدت حجوبة متجلدة متماسكة. بل لقد- ارتسمت على وجهها فرحة تتسلل رغم الوحل والماء وهي ترمق الأب يجري هاربا بما يحمله إلى الخيام فاندفعت خلفه تجري تاركة زوجة الأب، غير ملقية بالا إلى نهنهات أم الفرنساوي وشقيقته وهما تنكفئان عليه، وقد تمدد على الرمل لاهثا يلتقط أنفاسه في عسر، ولاإلى الجسد الأبيض، الذي تعرى تقريبا من كل ثياب- إلا من السروال- والمنكفيء على كتف حسن المصري. بوجه شاحب مثل الليمونة المعصورة حتى آخر قطرة من الماء:

زنوبة ومن خلفها جمال يلهث، وقد التصقت ثيابه بجسده.

..ثم هدأت قرية الخيام وتبين من بين فرقعات البيوت فى نجوع الشرق وهدير الدوامة وصوت ارتطام الشمندورة وأنين الريح ونعيق بوم بين أنقاض كران نوح صوت قلابات يخت كان يستدير عند الطرف الشمالى للجزيرة، وقد توقفت على شرفاته وجوه بيضاء مضت تسدد نظارات معظمة إلىّ الشرق وإلى الغرب تقيس أبعاد المجرى العميق الذى جعل ينتفخ فى كل لحظة.

وتسللت من بين فرجات البوص فى الخيام أضواء نيران اشتعلت فى المواقد تبعث الدفء فى أجساد الذين أشرفوا على الهلاك فى قبضة الريح والبرد.

وأفاقت زنوبة لتجد نفسها على صدر جمال الذى أخذ يقبلها فانتفضت تتخلص منه لتصرخ: طلقنى ياجمال..طلقنى.، عد بى إلى مصر ياجمال..ياجمال! بينما أطلت حجوبة على محمود الصغير الذى كان يغط فى نوم عميق وتركت العنجريب وماتزال ثيابها مبتلة، تتجه إلى السحارة وتخرج ثيابا أخرى إلا أنها توقفت تصيخ السمع إلى كلمات أمين:

- مرسال. لعنة الله عليك. كدت تموت..وكاد الناس يموتون.

لماذا لم تسد الثقب قبل الرحيل؟قبل الإقلاع بالمركب.. لماذا ياعبد؟.

فقد تبين أن ثقبا كبيرا ، سده مرسال بخرقة لطخها بالقار على عجل كان هو السبب فيما حل بالسفينة من نكبة . تسربت المياه خلاله إلى جوفها وأثقلت خطاها، حتى ارتطمت السقاطة بالصخور فانكسرت، ثم مالت المركب جانحة فوق جانبها الأيمن. تكتسحها الريح إلى جذوع الأشجار الغائصة حتى خصورها فى الجزيرة.

توقفت حجوبة عند السحارة، وتريثت حتى أنهى الرجل كلماته فقالت: كتر خيره ياأمين! فلولاه لما عاش محمود. لقد تشبث بالدست الذى طفا فوق التيار وأنفذ حبلا غليظا فى مقبضه شده به إلى الدفة وظل يحرسه إلى أن أنقذ أحمد عودة ولدنا الصغير. وتشجع مرسال وقال: أتدرين ياحجوبة أن يدى احتكت مرة أو مرتين بكيس الفلوس على صدرك..لو كان غيرى.

وشهقت حجوبة عند هذه الكلمات وامتدت بيدها تتلمس الكيس وتخرجه وتلقيه إلى أبى فجعل يفتحه ويخرج الأوراق الخضراء. وهو يرسل آهة متحسرة.. فقد وجدها مبتلة وتكاد تتحول إلى عجينة خضراء فتهمل وأخذ يعالجها هو وأحمد عودة فى صبر بينما استمر مرسال يروى: لو رأيت حجوبة ياأمين ممسكة بالصارى تصرخ أو أمينة التى تشبثت بمقدمة المركب والدم يسيل من رأسها فقد ارتطم بمقبض مجداف. أما عبده الفرنساوى فكان يرتعش، بينما جنت زنّوبة فى لحظة وألقت بنفسها فى النيل فارتطمت بالباب الخشبى العريض.. باب بيتكم الكبير. وانحشرت بينه وبين المركب تصرخ.. ثم سكت وحجوبة تسأل: باظت كلها يأمين. قال كلا. اختلطت ألوان بعضها وتمزقت ورقتان ، فداؤك ياحجوبة!

- فداء محمود ياأمين.

واختفت وراء ساتر من جذوع النخل تغير ثيابها، وهى ماتزال تسأل عن الجنيهات التى تمزقت!
وفى الضحى ، فى اللحظة التى كانت مركب عوض كتية تستدير فيها حول الطرف الشمالى للجزيرة تسرى من الغرب إلى الشرق، الينا نحن، تلمست حجوية الأوراق المنشورة على البرش العريض. ثم مضت تحشرها فى كيس أبيض وبين شفتيها اغنية بيضاء:

- لك وحدك ياأختاه..

لك وحدك ياو لداه..

هذا الثوب الناصع مثل البدر

هذا العطر السابح فوق!



أنا وحدى هنا..أنا والرعب والشاطىء المرتفع والنيل المتراجع.. أنا وأشجار النخل والوهاد المنخفضة لتى أخذت المياه تغمرها ، وأطلال ساقية راحت الأمواج تأكل جدرانها في كل لحظة.

وليس ينسكب فى أذنى إلا خرير الماء وهدير الدوامة- إلى الغرب، وارتطام الشمندورة بسلسلتها بينما النيل يرمقنى فى تحد بالغ وكأنه يتحفز لابتلاعى.
أنا وحدى هنا وأشعر أننى لاشيء، قشة ضائعة فى مهب الريح أو على قمة موج.. وأننى لأسأل نفسى: لماذا أقف هنا ؟ لماذا أتيت؟ قيل لى أنك رجل. فرنت الكلمة فى أذنى رنين الطبل وخشيت أن أتراجع أمامها: أمام أمى والأعرابية. ولكننى رغم ذلك وجهت نظرة حائرة اليهما فانبرى الشيخ فضل يقول:

- اذهب ياولدى..أما سمعت صرخات الأمس؟ غرقت سفينة أبيك؟؟ فبالأمس، فى غبش المساء تناهت الصيحات إلى أسماعنا. فتساندنا بعد تردد ومضينا نخب فى الطريق الزراعية حتى وقفنا على الشاطىء نرمق الجزيرة التى غطتها غلالة لامعة من الماء نظرة ذهول،

ونحدق بأبصارنا علنا نستشف شيئا هنالك فى الغرب ، بين الخيام التى بدت معتمة ضئيلة الا من أنوار باهتة.

ولم يصل إلي أسماعنا الا هدير قلابات يخت يتحرك إلي الجنوب فى سرعة يكاد يجتاز الطرف الجنوبى للجزيرة .. أما بين الخيام ، فلم يكن الا الصمت بعد صرخات داوية.

مكثنا طويلا على سفينة أو معدية تعبر المجرى الواسع الينا ، فنعرف ما الذى جرى للذين أقلعت بهم سفينة مرسال فى أصيل الأمس ! وقد ملأ السكون الذى لف الوادى قلوبنا بالرعب ، تضاعف منه همسات النخيل وصرير الجنادب ونقيق الضفادع ونشيش ماء يتسلق الشاطئ المنخفض من حولنا فى صعوبة أحيانا ، وفى يسر أحيان أخرى ، فرحنا نرتعش ونتساند ونكاد نعدو هاربين عند أول حركة مفاجئة ، فهناك فى أقصى النجوع بدأت بعض الجدران تتهاوى فى دوى هائل ، فصرخت أمى صرخة كتمتها لتقول : لهفى عليك يا أمين .. لهفى عليك!

وعجبت لأمر أمى التى لم أتصور أنها تحب زوجها أو تخشى عليه من الموت !... كنت أحس أنها تمقته ولا تطيقه ... وها هى تبكى عليه فى حرقة، وتسأل فى إلحاح عما جرى للمراكب التى أقلته إلي الغرب . ووقفت أنا إلى جانبها أبكى فى صمت بينما الشيخ فضل يحاول أن يهدئ من روعنا : لا شئ يا فاطمة .. ألا ترين الغرب هادئا ؟ لا صوت ولا بكاء ، كان صخب ثم هدأ كل شئ .. ربما مالت السفينة فتعالى صوات حجوبة ثم أنقذوا جميعا ... تعالى ... تعالى نعود إلي

البيت.

وزاد بكاء أمي ونحن نعود إلي الطريق الزراعية من هواجسي فتصورت أبي يغوص للمرة الثالثة وتصورت أخي الصغير تنهش الأسماك جسده وتخيلت خالتي الطيبة تستقر في قاع اليم .. وتراءت لي زنوبة الجميلة جثة هامدة ، وبرعي وجمال .. كل هؤلاء الاعزاء ... مضيت أتساءل كيف تكون الحياة من بعدهم ، كيف تكون حياتي بعد أبي ؟ والمدرسة ومشروعات حجوية التي تصورتها ، لأمر لا أدريه ، تنجو دون غيرها من الناس وتذكرت كلمات جميلة لشقيقتها : لا تفرطي في زوجك فأبوك عجوز وقد يفارقنا وحامد ما زال صغيرا ! وتصورت حياتهما بعد ذلك اذا ما مات فازداد نحيبي وغص حلقي بالدموع وأمي تربت على رأسي تحاول أن تكسب صوتها رزانة وثباتا ، والأعرابية وفضل يهونان من مخاوفنا.

ودلفنا عبر الدهليز المتثلم والذي لم يعد له باب واجتزنا الفناء المظلم والديواني الذي رفع سقفه لنستقر في الحاصل الضيق طوال الليل ساهرين على ضوء مسرجة كاد زيتها يجف.

ومضى فضل يروي نوادر عن مصر - أيام بترت ساقه - ولا يكف الا وهو يصيخ السمع إلي فرقعة ينداح صوتها الينا من أقصى الشمال ليهتف : دوار العمدة .. كل البيوت في ذلك النجع المنخفض تتهاوى.أما نحن فنجعنا مرتفع وقد يمضي يوم كامل قبل أن يصل الطوفان.

ولمعت عينا أمي ببريق دام لحظة ثم انطفأ وقالت في همس : قهوة .. لو شربنا قهوة بن! فقامت الأعرابية تفتش في الحاصل .. وعادت تقول : عندنا سكر ولكن ليس هناك بن ؟ فابتسمت الأم واطرقت ثم قالت : حامد .. هل تخاف من الليل ؟ وصمت فاردفت : بيت أم سعدية قريّب وعندها بن.

ورأت الحيرة ترتسم في عيني فقالت : ما عليك .. لقد نسيت ذهبوا منذ يومين ... وذرفت دمعتين ثم سرت رعشة غريبة في جسدها تطامنت بعدها إلي النوم ، بينما بقينا نحن حول نار نستدفئ ونستمع إلي الفرقعات صامتين أو نعبر الفناء لنطل على الساحة والمنخفض الذي تزحمه الحلفا لنطمأن إلي أن الماء لم يتجاوزها بعد، ونعود وفي آذاننا نباح «لورد» يختلط به صوت الدوي يتناهى الينا من الشمال وعويل ريح تهب من الجنوب وتمسك بخناق النخيل في قسوة فترسل أناتها عبر الساحة وتتمايل ليلقى القمر ظلالها مرتعشة في البحيرة الضحلة الصغيرة التي تشكلت في أرض الحلفا.

وفي الضحى من اليوم التالي ، ونحن في الساحة نرقب ، تراءت لنا النجوع في وهج الشمس الساطعة بحيرات هنا وهناك ووهاداً تملؤها المياه وربى تحدق بها الامواج ، فلم يعد بيننا وبين نجع السوارداب الا شريط مرتفع يصل ما بين بيتنا والكتاب ، شريط تلاصقت عليه بعض البيوت

الخاوية متثلمة تنفذ الرياح وتتلاطم بين جدرانها.

وهناك إلي الجنوب بحيرات صغيرة أحاطت بشجرة الجميز ومياة شفافه تغمر كل الحقول ، لم ينج منها الا شريط اخر مرتفع يصل ما بين الشاطئ والسفوح المرتفعة التى أطلت منها على مساحات الماء الواسعة، تجرى طريق عاليه بينها وبين الجبانة العمومية حيث ارتفعت قبة الحاج مكاوى .

وعدنا من جديد إلي الحاصل ، وعادت أمى تتمنى أن تشرب فنجانا من الشاى وتطلب منى أن أجرى إلي بيت سبيلة أو بيت داريا سكينة.

ثم تكف وتعض على شفتها السفلى وتهمس فى صوت دامع .. نسيت مرة أخرى ... لقد رحلو ... والهفى عليهم جميعا.

ثم أطرقت برأسها قليلا وسألت فجأة : متى تأتى المراكب يا فضل؟ متى نغادر النجع فنرى كل الأحباب .. جميلة وابنها الصغير واختى أمينة؟

ومضت تتمتم ونحن نرقبها فى صمت " جاء الطوفان .. لكن شبيكة زارنى .. ربما غير رأيه حين رأى جميع الأحباب يرحلون .. ثم كفت عن تمتمتها حينما انبرى فضل يقول : حامد ... اجر عبر هذا الشريط المرتفع إلي الشاطئ علك تر يا حامد مركبا تعبر النيل أو تعرف خبرا عما حدث.

ورأي الرعب فى عينى فقال : لا تخف .. ألست رجلا؟ اجر وعد فى لحظة ، فأرسلت أمى نظرة حانية من عينيها الواسعتين مسحت بها وجهى فى اشفاق ، ثم قالت: لا يا فضل .. سوف يخاف ، أو يغرق دعه معنا .

وسخر الرجل منها وقال : حامد كبير يا فاطمة .. ألا ترينه رجلا؟ فلم أنتظر بعد ذلك، بل اندفعت متجاهلا تحذيرات أمى أعبر الدهليز والساحة إلي الشريط المرتفع ، وأعدو إلي الشاطئ ومن حولى أمواج تتدافع وألواح خشب تعوم وأطباق خوصية نسيها أصحابها يرتفع الموج بها وينخفض وصفائح فارغة مثقوبة تعوم قليلا ثم تغوص ، وبيوت لم يتبق منها الا جدار واحد ، وأحراش نخيل قصيرة لايبين منها إلا أطراف السعف ، فملأنى الرعب لكننى واصلت الركض ، وها أنذا أصل وأقف على الشاطئ وحيدا يقبض الخوف على قلبى ويعتصره.
كل شئ غامض حولى ، والبيوت المتثلمة تبدو وكأنها تتمايل لتنام رقدتها الأخيرة ، ومن خلفى عند السفوح تبدو مئذنة الجامع حزينة واجمة ، كل شئ يوحى بالأمس الحزين وبغد غامض لا أعرف لونه ولا طعمه ، أليس شيئا رهيباً هذا الذى يحدث أمام عينى وهذه الأشباح والرؤى

التى تنثال فى خاطرى .. رؤى مفزعة ، رؤى بدأت فى أصيل يوم منذ أعوام ، وقفنا فيه نحن الصغار وعلى رأسنا برعى ، فوق هذا الشاطئ نفسه .. نترقب شيئا كنا نتوقعه : باخرة تحمل الطرابيش والوجوه البيضاء .. ويخيل لى ، وأنا وحدى على الشاطئ أن وقفتى هذه بدأت منذ ذلك الأصيل الذى لفنا فيه السكون ، وبدأت أفهم أن لذلك الأصيل صلة بما هو وشيك الانقضاض على كل شبر فى هذه الأرض ، برحيل الجزار ورحيل أبى وبرعى والمركب التى غاصت بهما!

الصور ، تزحم مخيلتى ، الصور تتعاقب .. سعدية وهى ترفعنى إلي صدرها ومصطفى الذى مضى يلوح كالمجنون للصنادل وأخت رحلت إلي مصر وأخرى إلي الغرب ، وأم كانت ، حتى البارحة ، تهمس : غدا يعود ابوك فالطوفان لن يبلغ نجعنا ، ثم عادت لتقول بعد ساعات : متى نرحل إلي الغرب؟ ورجل يتشمم التراب ، وآخر ببدلة رصاصية وشاربين مدببين يخطب فى الناس وآخر يحنث بالفاتحة .. وعساكر يطلقون الرصاص وقطع الحصباء تتطاير فى وجوههم.

وأمامى عبر الجزيرة التى غطتها المياة تماما ، فلم تعد اعين تعرف حدودها الا بقمم الأشجار الممتدة فوق الماء خيام تترامى فى الغرب حول كران نوح . يجرى بينها الأطفال يعتلون وينقلون أقدامهم فى الرمل ، ونسوة ينزلن إلي الجرف العالى ورجال ينحنون ويسوون الرمال لإقامة خيمة جديدة ، ويخيل لى أن أبى بينهم وكذلك خالى والشيخ شليب.

أنا وحدى هنا على الشاطئ و الدموع تتصاعد إلي عينى ، وها هى فرائصى ترتعد ، ولكن الشيخ فضل قال لى : أنت رجل ، فهل أعود أم انتظر والام تنتظر ؟ أن رجولتى التى زعمها فضل تتسرب منى وتتسلل من خلال قدمى اللتين أخذتا تترنحان وتهزان جسدى ورأسى لتدور دوامة الخوف بى كل مدار ، وترسم لى خيالات درافيل وتماسيح تشق النيل لتلتهمنى فأستدير لأعدو فوق الشريط الضيق ، لكننى أتردد ، ثم أتوقف مولياً النيل ظهرى ثم يهدأ روعى قليلاً حين أرى لورد يركض بساقه الجريحة فوق الشريط ولا يتوقف الا ليطارد تعبانا يهرب من الماء الزاحف إلي جحر فى الجسر المرتفع..

وزام قليلا حين أفلت الثعبان منه ورفع ذيله ثم عاود زكه حتى توقف أمامى يرسل أصواتا خافتة ويحرك ذيله ويتمسح بى . ثم توقف فجأة عن كل حركة وأرسل بصره إلي النيل فى اتجاه الجزيرة فاستدرت معه لأرى مركب عوض كتية تستدير عند الطرف الشمالى للجزيرة وتتجه إلينا بأنفها فاستعدت رباطة جأشي ومضيت ألوح للسفينة املا أن يرانى من فيها أيا يكونون.

وفى لحظات الانتظار الرهيبة أخذت أربت على رأس لورد وأتمنى لو استطاع هو أن يمد ساقا فيربت على ظهرى.

ثم رست السفينة وقفز منها برعي بينما اش الله ما يزال على الصاري يصلح حبالا تقطعت.

تلقاني برعى ببسمة عريضة حين ارتميت على صدره وسألني كيف الحال يا حامد ؟ قلت : بخير ، في صوت راعش جعله يضمني إلي صدره بينما أهمس : ماذا جرى بالامس في النيل؟ قال: كاد أبوك يغوص في النيل ولكن الحمد لله نجونا جميعا ، آه لو رأيت فلوس أبيك : خضراء كثيرة ... كانت مثل العجينة حتى فصلها أحمد عودة ونشرها على البرش قلت ، والدهشة ترتسم في عيني : ولماذا نشروها ؟ فأمسك بأذني وقال : ألا تفهم .. حتى تجف.

- وكيف حال خالتي وزنوبة؟ والكل ... ومحمود الصغير ..؟
- بخير . كلهم بخير .. وأنتم . ماذا فعلتم بالليل ، وماذا تقول أمك الآن ؟
- لا أدرى ، إلا أنها لابد راحلة معنا ..
- ولماذا جئت وحدك؟
- الشيخ فضل طلب مني ذلك .. هيه .. كيف حالك يا اش الله ؟
- بخير

قالها ثم مضى يزك بساقه وهو يسأل ضاحكا : وكيف نام أبو رجل ؟

فضحكنا جميعا : حسن المصرى وعوض كتيبة الا أن نظرة صارمة من برعي أعادتنا إلي الصمت ، بينما انتقل اش الله إلي حديث آخر : والشيخ شليب أقام خيمة الكتاب ، فصحت في وجهه ... متى أقامها ولماذا ساعدتموه ؟ وضحك برعى من الغيظ الذى ركبني فصفق بيده متهللا ثم مضى يروى لي قصة المركب ، وفي اللحظة التي أخذ يقلد فيها صرخات زنوبة ، ويتندر على حسن المصرى وحركاته الخبيثة وهو يحملها جثة تكاد تموت ، انطلقت من الشرق ، من بين السفوح صرخات دافقة اقتلعت أقدامنا من الشاطئ وقذفت بنا إلي الشريط المرتفع نتسابق عليه ودلفنا إلي الساحة التي أخذت الأمواج تناوشها لنجد أمي والاعرابية على عتبة بيتنا جاحظة العينين تصرخ وتشير إلي مكان في اتجاه نجع السوارداب .. وهناك رأينا المياه تحيط بربوة صغيرة مرتفعة تقطعت السبل بينها وبين أى مكان في النجعين ، وعلى الربوة الصغيرة المرتفعة كان الشيخ فضل يلوح لنا يائسا فصرخنا في صوت واحد : فضل!

كان قد ترك أمي والأعرابية وسار في أنحاء النجع يزور أماكن عزيزة على نفسه ، ولكن المياه اندفعت بسرعة في اللحظة التي كان ينعطف فيها إلي درب في نهاية النجع ، وجثمت على كل مكان الا تلك الربوة الصغيرة التي تراءى فيها رجل ضائع أفلتت منه ساقه الخشبية فوقف حائرا ثم جلس يتلو آيات من القرآن ويلوح لنا بينما المرأتان تعولان.

وقفز لورد إلي الماء ومضى يسبح اليه حتى قفز إلي جانبه وزام ثم تحول عنه يهاجم خطوطا متلوية كانت تعدو هاربة: ثعابين وسحالى أخذ فضل يبتعد عنها ، وأصابنا فزع شديد فان المياه

كانت ترتفع وتأكل فى كل لحظة لقما كبيرة من الجزيرة الصغيرة التى جلس عليها الرجل يرمق فى حسرة ساقة الخشبية تعوم بعيدا عنه مع جحافل الماء وآلاف الأمواج التى أخذت تتسابق إلي كل مكان فى النجع ، وها هو بيت نوح يستقبلها ليتهدم جداره الأمامى فى اللحظة التى كان يتهاوى فيها تماما بيت سعدية وجدران ثلاثة من بيت المأذون ، تتهاوى مثيرة سحابة من الماء تتطاير وغبارا يعلو فوق القمم المتثلمة التى ما تزال صامدة.

وبدت نظرات الرجل من بين الغبار المتصاعد حزينة كاسفة تلومنا وكأننا لا نبالى به والجحيم الذى يعيش فيه ، انه لا يستطيع أن يسبح منذ أن بترت ساقه ، والثعابين تتلوى وتعلو هاربة ، وركبنى خوف شديد وأنا أشاهد تلك الثعابين إذ ارتفعت أمام عينى صورة جدتى والثعبان الذى غرز أنيابه فى ركبتها.

ومن خلفى اندفع حسن المصرى وبرعى يجران ثلاثة جزوع ربطوها بحبال قذفا بها إلي الماء ثم اعتلاها برعى والمصرى ومضيا يجدفان حتى بلغا الربوة الصغيرة فى اللحظة التى لم يكن قد بقى منها الا مساحة ضئيلة تكاد تتلاشى ، وتعلق فضل بعنق برعى ثم أطمأن فوق الجذوع التي استدار بها برعى .

وهمهم الرجل بكلمات لم تصل إلي سمعى ولا إلي سمع أمى والأعرابية اللتين وقفتا فى عينيهما دموع ويداهما لا تزالان تشيران إلي نهاية النجع ، إلا أن برعى قذف بنفسه فى الماء بعد تلك الهمهمة ، وعام حتى أمسك بالساق الخشبية وناولها لخاله.

وحين خطا الرجل أولى خطواته على أرض الساحة أطلقت أمى صرخة مرحة عبست بعدها تدلف من باب الدهليز وهى تغمغم : لعنة الله على الجزار.

وهمس فضل : تعالى يا فاطمة ، هاتى هذا اللحاف ، وارفع أنت يا برعى هذا العنقر... ، أما سقف الحاصل فاتركوه فليس بذى بال تعالى يا فاطمة.

واستدار بعد أن ألقى أوامره وأخذ يزك على ساقه فوق الشريط المرتفع ثم تلفت خلفه ليجد أمى لا تزال فى مكانها لا تريد أن تتحرك كانت ترمق الجدران فى ذهول ، وتطوف بعينيها على الساحة والمياه المنداحة فيما دونها من الارض ، فتوقف الرجل وصاح.:

تعالى يا فاطمة ، أنت ترين الحال. الطوفان لن يبقى على شئ.

وهتفت هى فى صوت باك : لنبق قليلا يا فضل فما زال أمامنا وقت ، فقال فى يأس : كفاك عنادا يافاطمة يا بنت عائشة.

وهنا أحست أمي كأنما لدغها عقرب ، اذ تذكرت أمها وتذكرت انها لم تزر قبرها منذ أسبوع كامل ، يا للغدر ! ها هي تريد أن ترحل دون أن تلقى نظرة عليه للمرة الأخيرة ، فانقبض قلبها ومدت يدها وأمسكت بيدي وهي تصرخ : سأزورها أنا وحامد يا فضل ثم ألحق بكم وانفلتت إلي الداخل تبحث عن شئ حتى وجدت ابريقا نحاسيا قديما كنا قد نسيناه وعادت به إلي منخفض وأمالته حتى ملأته بالماء وهي لا تزال ممسكة بيدي ثم انطلقت تعدو في اتجاه السفوح إلي الجبانة وأنا من خلفها ألهث وأخشى أن تطوقنا المياة فلا نستطيع العودة.

كنت الأعرابية قد تركتنا منذ لحظات وانعطفت قبل الجبانة إلي بيتها فوق الجبل ويبدو انها كانت تراقبنا من كوة في جدار بيتها المواجه لقبة الحاج مكاوى ، فقد سمعتها تهتف : عودا بسرعة ، لكن أمي لا تبالي بها بل مضت تركض حتى أوغلت في الجبانة ووقفت على قبر أمها خاشعة ترتل: قل هو الله أحد ، الآية الوحيدة التي تحفظها والتي تتعثر دائما عند كلماتها ، ثم أمرتني أن أتلو على روح جدتي بعض ما حفظت ، فجلست خاشعا عند الشاهد أرتل صورة الرحمن بينما مضت هي تتمتم : اغفرى لي يا اماه ، اغفرى لي يا عيشة.

ووقفت أنا أتأملها ، ومن خلال سحابة الدموع التي رسمت كل شئ في عيني قاتما مظلما ، وجدتها بائسة تبكي ، وتهتز مع نهنهاتها فرحت أصرخ : كفاك يا أم ، كفى ... الماء يحيط بنا من كل مكان ، ثم طوقتها بذراعي فلم تبال بي بل راحت تنشج بصوت مرتفع و تختلج حتى أحسست أن نصالا حادة من الألم تنغرز في قلبي ومؤخرة رأسي فارتفع صوتي بالبكاء يختلط بصوتها.

وفجأة دون أن أدرى وجدت نفسي أنطرح على الارض وذهلت لأن أمي هي التي طرحتني أرضا حين تحرك جسدها حركة غريبة تهاوت بعدها إلي الأرض غائمة العينين يغلى السائل الابيض بين شدقيها مثل رغاوى الصابون.

وأسقط في يدى ، فانكببت عليها أنادى : أمي ، فاطمة .. أفيقي. وأتلفت في حزن إلى المياه المندفعة نحونا : أفيقي لئلا نهلك ، ثم رأيت الأبريق النحاسي الذي صبت أمي منه الماء على قبر الجدة وفي حوض الصبار المتجهم الحزين منطرحا عند قدميها للتين مضتا ترفسان على حافة القبر وتبعثران قطع الحصباء المنسقة فوقه ، فالتقطه وملأته ماء ثم عدت أرش منه على وجه أمي دون حساب ، أخذت أحرك الابريق في حركات مجنونة وأنا أهتف : أمي أفيقي يا أماه ، ثم خيل لي أنني اسمع صوتا يهتف بي .. صوت جدتي .. صوت واحد من هؤلاء الاموات ... أم انه الشيطان .. انه صوت مبحوح ناعم رغم ذلك ، وخشيت أن أدور خلفي خوفا من مواجهة الرعب نفسه ، فواصلت رش الماء على وجه أمي والتي كانت لا تزال ترفس بقدميهاا .. ثم تبين

نى الصوت وهو يقول : مسكين ألم أقل لكما عودا بسرعة ، وتنفست الصعداء ، تنفس انسان أفاق من كابوس وأنا أرى الأعرابية تنكفئ على أمى وتدلك فروة رأسها بشدة .

ومن حولنا كانت الأمواج الصغيرة تتلاحق وتدور حول الجبانة لتحدق بنا من الغرب والشرق ، ولم يعد أمامنا الا شريط مرتفع يصل ما بين الجبانة والشريط الاخر المتجه إلى الشاطئ .

وعند حافة الجبانة وقعت عيناى على مشهد آثار فى نفسى شعورا بالغثيان ، فعلى سطح الماء كانت تعوم أكفان بيضاء وعليها بقع حمراء ثم تهاوى منزل الشيخ جعفر الذى حجبت جدرانه عن عيوننا الشراع السامق المرتفع على الشاطئ فتكشف لى واضحا ، وأخذت استعيد هدوئى بعد أن القيت نظرة على أمى فوجدتها هادئة لا تحرك قدميها بينما كف السائل الأبيض بين شفتيها بل كفت حشرجتها ، وان بدت كالميتة وراحتاها على صدرها تحاول الاعرابية أن ترفعهما وهى تنادى : أفيقى وعلى الشريط المرتفع بدا برعى وحسن المصرى يركضان نحونا ، فوق رأسيهما بدت الشمس قرصا هائلا يغزو ضياؤه كل شبر ويعكس صورتيهما وصور الجدران المتثلمة فى الماء المندفع حول الشريط المرتفع.

بينما بدت هنالك فى سماء نجع السوارداب أسراب شتى من الطيور تحلق وترسل صرخات داوية وترف بأجنحتها مذعورة.

وفى الجو رائحة بول وروث بهائم وعفن انبعث من الجبانة نفسها ضاقت به نفسى ، فأخذت أتعجل خطى برعى وحسن المصرى ، فقد عزمت أن أطلب منهما أن يحملا أمى وهى لا تزال فى غيبوبتها إلي المركب ، لكنها أفاقت فى اللحظة التى وصلا فيها وجالت بعينيها فى وجوهنا ، ثم ارتفقت كوعها وجلست تتمتم : الحمد لله ، بينما ملت أطبع قبلة على جبينها وأضع ذراعى تحت ابطها وأنا أقول : هيايا أمى

ولوحت الاعرابية لنا بيدها حين أقلعت السفينة ، فابتسمت لها وأمى وصاحت : زوريا فى الغرب ، فهزت رأسها وقالت ؟ سأزوركم عما قريب .. مع السلامة.

وألقى الشيخ فضل بعباءته على أمى ، ثم مال على حافة المركب ، وأخرج من جيبه منديلا فضه وأخذ يرفع منه حفنة من التراب إلي أنفه يتشممها بينما عيناه تذرفان دموعا تنسكب فى النيل وشفتاه تتمتمان أنا لله وإنا اليه راجعون.

اتخذ عوض كتية طريقا آخر لمركبه اذ لم يتجه بها إلي القرن الشمالى للجزيرة .. بل أدار دفتها واخترق بها الجزيرة نفسها بعد أن طوى شراعها واستعاض عنها بالمدارة والمجداف.

واتجه حسن المصرى ببصره إلي الشرق وأرسل لحنا جميلا اعتاد دائما أن يغنيه.

– بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر أعديلها.

وتجاوبت معه وهاد الشرق وجدرانه بفرقعات هائلة أعقبتها سحب من الغبار ارتفعت إلي عنان السماء.



كنت متكورا بجسدى فوق العنجريب ، متلفعا بحرام ثقيل يقينى البرد الشديد الذى أخذ ينفذ الينا من خلال البوص وسقف الخيمة.

وأفقت فجأة على يد تهزنى ، ففركت عينى وتلصصت من خلال ثقب فى الحرام لأجد أمى واقفة على رأسى تهمس : أفق يا حامد قبل أن يفيق النيل ، لكننى تثاءبت وعدت إلي النوم فمضت توقظنى فى اصرارها هامسة فى صوت خافت : أفق يا حامد فقد أمرتنى جدتك فى الرؤيا . فأطارت هذه الكلمات من عينى آثار النوم ، وجلست وأنا لا أزال متلفعا بالحرام أحدق فى وجه أمى ، وأشفق من سعال متصل حاد يمسك بخناقها ، قالت بعد أن تخلصت منه : جدتك تطلب منك أن تشرب من ماء النيل وهو لا يزال نائما فى السحر.

وضحكت ضحكة قصيرة وهمست : وهل ينام النيل ياأماه ؟ فقالت كيف لا ينام ، انه يمشى دائما ثم ينام ساعة يعود بعدها إلي تجواله وطوافه .. قم ودع الكسل يا حامد فالوقت يمضى.
- وكيف عرفت يا أماه أنه نائم فى هذه الساعة؟

- جدتك قالت لى فى المنام : أسرعى يا فاطمة .. دعيه يشرب الآن قبل أن يفيق .. أنه ينام يا ابنتى.
وتلفتت حولها خشية أن يسمعها أحد : سوف ترى كيف تشتد عضلاتك وكيف ينمو جسدك لتصبح رجلا فى شهور قليلة.

ثم مدت يدها وجذبتنى اليها ، وأمسكت بيدى وخرجت من باب الخيمة ثم توقفت حين لفح البرد الشديد وجهها وراحت تسعل .

ومن باب خيمتنا التى تطل على خيمة الدكان ، ومن خلفها خيمة خالى وخالتى ثم خيمة داريا سكينة وفضل ، تبدت لى قرية الخيام المتلاصقة غافية لا ينبعث منها إلا أصوات شخير يرتفع ويخفت ، وإلا همهمة غامضة تنبعث من خيمة البسطاوى وعروسة سعدية.

كان لون السحر الباهت يضفى على الخيام صورا غامضة فبدت كأغنام رابضة أو طيور عائمة لا أعناق لها.

ثم فتح باب خيمة وبرزت منه سعدية تحمل صفيحة ماء بينما وقف البسطاوى ينير لها الطريق بفانوس رفعه فوق رأسه ، وابتعدت عن الخيمة خطوات طوحت بعدها بالماء من الصفيحة وعادت واختفت خلف البسطاوى فتبسمت أمى وغمغمت : فى رمضان يا سعدية! وبعد السحور يا بنتى ! بينما مضيت أنا أتخيلها بين أحضان زوجها ، فتذكرت صدرها البض يحتك بصدرى ويكاد

يخنقنى وأردت أن أقترب من خيمتها ، الا أن أمى أمسكت بيدى واندفعت تنحدر عبر الرمال إلي الشاطئ حتى توقفنا عليه فهمست : ألا ترى النيل نائما يا حامد ؟ .. جدتك لا تكذب .. لا ترفع صوتك حتى لا توقظه.

ثم دفعتنى فجأة وهى تقول : اشرب .. قلت : اشربى أنت ، متخيلا أن جرعة يمكن أن تشفيها من أمراضها ، الا انها أصرت : أشرب أنت أولا فقد يستيقظ قبل أن تشرب منه ،فملت إلي الماء ورشفت منه ، ثم نهضت أقول لها : اشربى أنت الآن يا آماه .. فهو لا يزال نائما ، فانكبت تشرب بينما أخذ احساس غريب ينبثق فى صدرى ، إحساس بعضلاتى تنتفخ ، وبحلمة الثدى تتصلب ، وبصوتى يزداد خشونة ، كان صوت رجل هو ذلك الذى ينبعث من حلقى ، فعكفت على نفسى أتخيل قامتى الطويلة وشاربى المدبب ويدى القويتين ، وغرقت فى أحلام اليقظة الغريبة ولم أفق منه الا على فرقعات هائلة فى الشرق فهبت أمى بعدها فى فزع وواجهت المشرق فانعكس ضوء الشمس الصاعدة فى عينيها ، ثم انحدرت بهما إلي النيل وقالت : أترى يا حامد؟ .. انه يفيق من نومه ، ثم اخذت تسعل سعالا حادا هز كيانها ، وقفز بالدموع إلي عينيها.

ورأيت النيل بالفعل يفيق كلما انعكست عليه أشعة الشمس ، وكلما هب النسيم فأيقنت أن عضلاتى ستشتد وأن أمى ستشفى من مرضها ومن هذا السعال بعد لحظات قصيرة.

وارتفعت الشمس قليلا فتبين النيل على حقيقته : جداراً هائلا مرتفعا يملأ الوادى كله ويصفع الأشجار والسفوح والجروف العالية فى هدوء قاتل ويكتسح الجدران التى لا تزال متبقية فى الشرق .

ويبدو أن أمى أدركت ما كنت أتصوره فقالت : حقا ان الطوفان كاسح يا ولدى .. تعال ، وأمسكت بيدى وعادت أدراجها إلي الخيمة ، ودلفنا فى نفس اللحظة التى كانت تقول فيها حجوبة لأبى : لقد كبر يا أمين ولابد له من عمل ، وسمعته يقول : يا وليه اسكتى .. فتاح يا عليم .. اسكتى!

فحدجتهما أمى بنظرة متسائلة ثم أسرعت إلي ركنها ، وتلفعت بحرامها ثم رقدت تنام إلي الضحى نوما يقطعه سعال مستبد يهز كل جسدها.

٤٨

الضحى من نفس اليوم وها هو الوطن الجديد يمتد أمام أبصارنا تلالا صغيرة خلف صفوف ثلاثة من الخيام ... والتلال تبدو بعيدة تحف برءوسها دوائر من نور الشمس تحوم فوقها وتبعث الرعشة فى القلوب ، وتحت أقدامها تركع كثبان من الرمل الأصفر وهضبة تنحدر عبر الخيام لتطل فى جروف عالية .. والخيام ليست الا أقزاما صغيرة من البوص وفروع السنط والجريد تتلاصق كأنها مذعورة من التجهم المرسوم على الهضبة والكثبان والتلال.

وأمام بعض الخيام نسوة افترشن الأرض تلوك السنتهن مأساة الأمس وتكف عن الكلام عند كل دوى فى الشرق لتصرخ : أمى ، هذا بيتنا يغوص بالماء.

- كلا ... لابد هى مئذنة الجامع.

فترد أخرى من عتبة خيمتها : بل هى قبة الحاج مكاوى ، فتتميز فتاة من حفيداته غيظا وتصرخ : الشر لا يقوى على الحاج وقبته ، الشر لا يقوى!

- كيف لا يقوى .. أليست القبة من طين وحجارة؟

- لكننى رأيت فى المنام ملائكة بأجنحة بيضاء طوال القامة يتسورون القبة وينفخون فى الأمواج فتبتعد ، بينما جدى من قبره يبتسم لهم ويرفع يده إلي السماء : الحمد لله يا رب .. الحمد لله يا رب - بركاتك يا حاج.

ثم مدت يدها إلي رأس جدتها العجوز تفلى شعرها المخصب بالحناء بينما الصغار يخرجون من الخيام وينتشرون على الرمل ، يجمعون قطع الحصباء ويتشاجرون والشمس من فوق رءوسهم ترتفع وترسل حرارتها إلي الرمل رغم برودة الشتاء فينتقلون من قدم إلي أخرى ثم يلعبون الحجلة ، والأمهات يلقين عليهم نظرات مشفقة ويهمهمن : مساكين ... أولاد الفقر! ثم اشتد صياح الاطفال فجأة واختلطت به كلمات مشهورة : واحد واحد .. صمد .. اذ انطلق كلو ينفلت ويمرق من بين الخيام هارباً من الصغار الذين تسابقوا خلفه ليستديروا به الا انه اختفى فجأة فهتفت داريا سكينة : شريفة ماله اليوم يختفى بمثل هذه السرعة؟

- من يدرينا .. لعله غاضب علينا!

- ولعله يحذرنا من شر.

فتصايحن من كل مكان : يا شيخة .. أبعد ما حل بنا شر؟

ثم ظهر كلو من جديد من بين الجدران الطينية المتثلمة ، جدران كران نوج ومضى يركض بين الخيام حتى توارى خلف التلال الغربية ، ثم لم يره أحد بعد ذلك فى القرية.

****

الرجال يخشون أن تهب زوبعة تقتلع الخيام ، وها هم ينقلون الماء في دلاء ويعجنون الطين ويثبتون قوائم الخيام ، وبين أفواههم كلمات واجمة حزينة ، فانهم لم يفيقوا بعد من أحداث الأمس ، ثم انطلق صوت حاد يصرخ فى ألم فأداروا رءوسهم ليروا عم نوح يحمل مندوهة إلي خيمته وهى تتعلق برقبته وتتأوه فقد لدغها عقرب و صاح فضل حين علم بالحادث تستاهل .. قلت لها عشرين مرة ألا تلعب فى الجحور.

– ولماذا تلعب بالجحور؟ بنت شعنونة.

فضحك أبى وقال : نوح أمرها بذلك ، فهما يبحثان عن جعارين وتماثيل أثرية يرسلها الرجل إلي مصر والأقصر ، وقد يجدان كنزا تحت الأرض!

وقهقه فضل ومضى يزك بساقه فوق الرمل هنا وهناك ثم توقف عند بقعة من الأرض تأملها قليلا ثم انحنى عليها ونشب أنامله فى الرمل وغاص بها ثم عاد بها بحفنة من التراب أخذ يتشممها مليا ثم استدار بوجهه إلي برعى وقال:

– هنا يا برعى سوف أبنى بيتنا الجديد ، ثم جال ببصره فى الأرض المنحدرة إلي الشاطئ وقال من جديد ، ومن هنا حتى الشاطئ ستكون لنا أرض .. قراريط ستة أو سبعة نزرعها !

واستمع أبى إلي كلمات الرجل وأطلق ضحكة عالية قال بعدها : يموت الزمار .. ماذا تفعل يا فضل .. والله ان الارض ستقتلك !فالتفت الرجل إلي أبى وهمس . ماذا نفعل يا أمين ؟ لابد أن نقوم بشئ طوال الشتاء حتى ينحسر الطوفان عن الشرق فى الصيف . نفسى تتوق يا أمين إلي حزمة فجل وقضمة بصل أخضر . ألا تتوق نفسك اليها ؟ ثم أشار إلى ما حوله من رمل متجهما وهتف : ألا ترى يا رجل- هذه الأرض الضيقة الممتدة ما بين عافية وعنيبة أمام الخيام ومن خلفها ، ما من نبتة خضراء واحدة .. تأمل خرافنا .. انها تقتات بالعلف الجاف ....وتجمع الورق المتناثر .. سوف تهزل وتموت.

وحملق أحمد عودة فى الرمال القاحلة ومضى يرسم خطوطا على الأرض مطرقا برأسه يتمتم فى صوت خافت : حتى العاقول والحسك اختفيا من الأرض .. ثم هب إلي قدميه وأخذ يتجول فى الأرض ، يتريث قليلا هنا وهناك حتى توقف عند بقعة بعدها .. وهنا سنبنى بيوتنا الجديدة والأرض من هنا إلي الشاطئ ستكون لنا.

فصمت أبى وظل ساهما لا يقول شيئا .

وكانت صرخات مندوهة قد هدأت ، وتراءت الست آسيا على باب الخيمة تصرخ فى النساء : العقارب هنا بعدد الرمل يا بنات ولابد أن ينتعل الصغار حتى بالنهار فهززن رءوسهن بينما عاد

الصغار يتصايحون ويلعبون لعبة الحرب بعد أن صنفوا أنفسهم جماعتين : نحن الافغان : ونحن الانجليز ! متسلحين بأكياس الرمل وقطع الحصباء ، نافخين فى صدورهم وأوداجهم يقلدون دوى قنابل لم يسمعوه من قبل ، وراحت القلاع تتهاوى فى الشرق وفى الغرب وتعالت صيحات الصغار : نحن الأفغان ، نحن الأنجليز.

وقهقهة أحمد محمود الذى كان يجتاز نجع الخيام بركوبته وصاح : ما الذى ادراكم بالأفغان يا عيال : فصرخوا فى وجهه: نحن الأفغان . فلكز ركوبته حتى توقف أمام برعي عند باب خيمته وترجل ووقفا لحظة يتهامسان ثم دخلا ولعلهما كان يتحدثان عن حسين طه.

وطفق فضل يرمق العيال فى اعجاب حتى انتهوا من معاركهم فصاح ملوحا بيده لهم : تعالوا هنا يا عيال ، فأسرعوا اليه يتندرون على ساقه الخشبية ، وهو صامت يبتسم لهم : يا عيال .. ألاتحبون أن تزرعوا شيئا ؟ فقال أحدهم فى شيطنة .. نزرع حلاوة؟

- حاضر يا ولدى .. بعد أن يصل طرد الحلاوة من أبيك.
- طيب أزرع لنا بلحة الآن.
- حاضر يا ولدى هذه نواة بلح نزرعها هناك.

ومضت الايادى الصغيرة تنبش فى الرمل وتحفر وتهيئ مكانا للنواة، وتريث فضل ثم قال : الزرع لا يصلح بدون ماء .. أسرعوا بكوز ماء.

فانطلقوا إلي النيل وعادوا بكيزان صغيرة ملأوها بالماء يصبونه على الحفر من فوق يد الشيخ فضل الذى أخذ يغرس نواة البلح وحبات من الخروع ، ثم توقف ورفع يده إلي السماء وهتف : ادعوا معى يا عيال اللهم اجعل أرضنا خضراء .. ومر العصافير أن تشقشق فوق هذا الرمل .. آمين .. وسرسعوا من خلفه بأصواتهم الرفيعة .. آمين .. وعادوا يحجلون بينما برزت «داريا» على باب خيمتها ومن خلفها زنوبة وشريفة وغمزت لهما بعينيها وقالت : سأشترى منك يا فضل ملوخية فى يوم قريب.. تعال يا جمال ساعد الشيخ فضل ينوبك ثواب .. وقد يكون لنا نصيب فى الأرض وهمست زنوبة : لا أرض ولا حاجة .. جمال سيعود إلي مصر .. أرض؟

****

وانهمك أبى وأحمد عودة فى شئون المتجر فى خيمة واسعة رصت فى جانب منها الصناديق والصفائح والرفوف بينما انتصب بنك الزنك لامعا فى الجانب الآخر.

وتلفت أحمد عودة إلي اش الله يأمره برعاية المتجر ، وانحدروا هم مع الرمل إلي الشاطئ حيث رصت جوالات السكر والغلال يحملونها إلي الخيمة فوق ظهورهم وأنا ألهث خلفهم : أنا

أستطيع حمل شوال يا أبي. وقرر أبي في لحظة أن يداعب رجولتي فركز على ظهري شوالا صغيرا بركت به على الأرض وعرق الخجل يتصبب على جبيني بينما مضوا يهللون : أرنا شطارتك يا حامد .. شربت من ماء النيل وهو نائم .. ثم أخذت أنا أحتج : الشوال انزلق .. أنا لم أقع .. بل هو الذي وقع ، وحملوني غيره .. فلم يبالوا بي ، وانهمكوا مرة أخرى في عملهم حتى فرغوا منه

وفي الطريق إلي خيمة المتجر اعترض طريقهم رجل صغير القامة نحيل الجسد وقد أمسك بيد غلام صغير يمضي يصافح الرجال في شجاعة والرجل يقول لهم : حفيدي سرور.

- ما شاء الله لقد كبر .. متى عدت يا سرور من الاسكندرية؟
- منذ أسبوع.
- حمد الله على السلامة .. تفضل يا شيخ ابراهيم هناك في الدكان.

قال : مرة أخرى يا أمين فأنا في طريقي إلي بشير ، فقد دعاني لمساعدته في البئر.

وصاح أحمد عودة : بشير أطواره غريبة يا ابراهيم ... ليس في رأسه ذرة عقل ، كيف حدثته نفسه بحفر بئر في الجبل.

- الفلوس فلوسه ولا شأن لنا يا أحمد.
- العفريت وابور هو الذي يشجعه.
- لن يجد الماء إلا بعد سبعين مترا .. أو ثمانين مترا!

وانشغلت أنا عن الكبار وأحاديثهم بسرور الذي مضى يحدثني عن الاسكندرية والخواجة «بيل» الذي يعمل أبوه في قصره.

كنت أتأبط ذراعه وأمضي به على الرمل إلي الشاطئ نراقب الجزيرة .

وأشار هو إلي قمم أشجار في وسط الجزيرة كانت تهتز فوق سطح الماء وقال : تحت هذه الأشجار كان بيت جدي !.

ومن حوله الجزيرة كان الوادي كله قد تحول إلي بحيرة واسعة هادئة تقوم فوقها رءوس النخيل، تنسل بينها قوارب صغيرة على حافتها رجال تلمع الشراشر في أيديهم يكملون قطع سباطات لم يكونوا قد قطعوها حين أخذتهم العجلة يوم انذار الطوفان.



وصاح وش الله فى صوت مشرق : غدا الوقفة ، وردد بكر بعده: غدا الوقفة وبعده العيد ،وراحوا يحجلون بين الخيام ويتصايحون بأغاني العيد التى ابتسم لها الكبار فى فتور.

فانهم لا يستعدون للعيد ولا يفعلون شيئا غير لعب «السيجة» منطرحين على الأرض أو قراءة سيف بن ذى يزن من جديد ، والتحديق فى حسرة إلي الوهاد الشرقية التى تحولت إلي بحيرة واسعة ، فالماء قد علا حتى أوفى على غايته متشامخا مثل الجدران العالية ، وان لم يستطع اكتساح الهضبة الرملية التى استقرت عليهاخيامهم.

لقد صاموا وها هو العيد يطل عليهم دون أن يتأهبوا له الا ببعض الثياب الزاهية ، أما قلوبهم فواجمة حزينة تقفز على وجوههم السمراء ترسم عليها ظلالا من الأسى والندم الذى أخذ يتسلل الي شفاهم فى كلمات يائسة كلما طافوا بعيونهم على الكثبان والرمال القاحلة.

هذا هو أبى يرفع رأسه بعد أن أكل كلبا من كلاب«السيجة» ويقول:

- ليتنا هجرنا المنطقة كلها وتبعناك يا حسنين إلي مصر أو تبعناك يا صابر إلي الطود فى الصعيد.

وانبرى الشيخ فضل يقول ساخرا : الحال من بعضه يا أمين هنا صخور وفى الصعيد أراض قاحلة .. جرداء .. لا ماء يركبها.

وعبث فى جيبه وأخرج للمرة العشرين جواب الشيخ صابر يتلوه عليهم من جديد :لم أر النيل منذ وصلنا ، الأرض ترقد أمام عيوننا ميتة.. الناس لا يتكلفون حتى تحيتنا . انهم ينظرون الينابعيون حذرة واجفة نظرتهم إلي غرباء ، ربما أجد عملا كمرمطون فى وينتر بالاس بالأقصر .. كيف أبى وأمى؟ قل لهما يا فضل اننى ما زلت أدعوهما للرحيل الينا ، بدأنا نكتب الشكاوى نطالب بمشروع للرى يجلب الماء إلي أرضنا ، والغريب أن الحكومة تطالبنا بالمال الذى فرضته على أرض لم نتسلمها بعد. سبيله بخير ،العيد عيد الفطر المبارك سيهل علينا فى هذا البلد الغريب ، هنيئا لكم عيدكم فى البلد ، ويبتسم أحمد عودة عند هذه الكلمات ويقول :أى عيد ياصابر . النفوس لم تفق بعد مماصدمها . عيدا

أين نصلى؟ .. وليست هناك جبانة ولا قبة الحاج مكاوى وأين ملاهينا ومراح صغارنا ؟ النيل طام لا يمكن ركوبه . عيد!!

أى عيد هذا الذى تتحدث عنه يا شيخ صابر ؟ أنت لا تعرف والله إنك لا تعرف.

وقال فضل يكمل الصورة الغريبة: ولا قمح نصنع منه الشعرية .. ولا لبن .. وتدخل ابى: وماذا قال الشيخ عبد العزيز في مسألة الصلاة؟

ومضى يتذكر كيف كانوا يبكرون قبل بزوغ الشمس إلى الجبانة ويشخصون بأبصارهم إلي القبة البيضاء ثم يفترشون الرمل ويستمعون إلي الخطبة وينهضون بعد الصلاة إلي المقابر يترحمون على أجداث الآباء والأجداد ثم يسمحون لأنفسهم بعد ذلك بالمرح والصخب أياما ثلاثة بلياليها. ها هو العيد يعود وفى الصدور شجن وفي العيون قلق لا يريم والقبة البيضاء واراها الطوفان ، والبيوت قد تهدمت . وأطنان الأمواج الصغيرة ترتع فوق عظام الموتى، فأين هو اليوم؟ فما من قبة وما من مقبرة يترحمون عليها ، انهم لم يختاروا بعد مكانا لصلاة العيد وأرواح الاجداد لابد تلعنهم ، لماذا لم ينقلوا العظام معهم؟

ورفع أحمد عوده رأسه بعدإطراقة دارت به فى دوامة الذكريات وقال: ولماذا لا يصلى الشيخ عبد العزيز هذا العيد ،هنا على الرمل ، فوق شاطئ النيل؟ وهمس الشيخ فضل :قال ان من السنة أن نصلى فى الصحراء خلف الخيام أو البيوت ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك بعد أن يترحم فى الجبانة على القبور.

ولكن الجبانة لم تبدأ بعد، فما من أحد مات والحمد لله.

وقال الشيخ شليب : ترى من يكون صاحب أول قبر؟ فلكل أجل نهاية.

قالوا: اللهم ، أطل أعمار الناس.

وفى نهاية الساحة أمام خيمة المتجر كنت أنا وسرور فى حديث متصل يفيض به عن العيد فى الاسكندرية والمراجيح والحلوى وجنينة الحيوانات والفيل أبو زلومة.

****

ومر العيد حزينا كئيبا ، اللهم الا صيحات بعض الأطفال وضحكات بعض النسوة في الخيام وبكاء طفل تهرأت ثيابه ، وصلاة قصيرة لاهثة بعد خطبة طويلة عن الصبر ، وألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ترحم بها الناس على أجداث تخيلوها ، أجداث ما زالت ترقد فى الشرق تحت أطنان الماء.

***

ثم مر شهران والناس لا يفعلون شيئا غير لعب السيجة واستعادة قصص الأساطير : حام وسام .. واللعنة التى أنزلها نوح على أبناء حام، وغير ترميم الخيام والتفكير اليائس فى انتزاع أرض من بطن الصحراء والكثبان ، والتأمل رغم ذلك باستخفاف فى مجهودات بشير عثمان الضائعة .. وهو لا يبالى بهم بل يمضى فى حفر بئره عشرين مترا ثم ثلاثين دون أن يصادف ماء... بئر عقيم لا تلد الماء.

حتى الشيخ فضل لم يعديفعل شيئا غير تعهد حبات الخروع والتفكه على النساء والسخرية

من المحامي ووابور وبرعي الذين مضوا يكتبون الشكاوى من جديد : نحن منكوبي خزان اسوان.
التعلية الثانية : نتوجه خاشعين إلي السدة الملكية! ويتشاجرون حول المطالب التي يسجلونها في هذه الشكاوى والتي ينتهون اليها بعد جدال عنيف ليحملها برعي الي خيمة البريد في أبريم

وما زال برعي يفكر في شريفة ويعترض طريقها كلما أمن من جمال ويتردد في طلب يدها منه خفية أن يصده ، ويعلل تردده بانتظار بناء البيوت .. فانه لايمكن أن يتزوج في خيمة ، كما أن جمال نفسه لن يهتم، فهو مشغول دائما بالنقار المتصل بين زوجته زنوبه وأمه ففدا مثل المخبول منصرفا عن كل شئ اليهما يصلح ما تفسدانه ويتودد إلي زنوبة علها تهدأ قليلا ، ولا داعي للعجلة فعما قريب سوف نبني البيوت، فان باشرى قد ارسل جوابا يبشر فيه الناس باتفاقه مع المقاولين والبنائين والحجارين ، وما هي الا أيام حتى يقبلوا ويملئوا قرية الخيام بالصخب والضجيج.

وما زلنا نحن الصغار الذين أصبح عددنا قليلا رغم انضمام سرور الينا نترنح في خيمة الكتاب ونسرع اليه في كل صباح لا نعود منه الا في القيلولة وأكياس الكتب ترتطم بأفخادنا ولم اعد أنا أحفظ شيئا فقد انشغلت في هذه الايام عن كل شئ في هذه الأيام عن كل شئ بأمي التي ضاقت الشقة بين نوبات اغمائها والتي أخذ سعالها يشتد حتى انتهى بها السعال ذات صباح إلي أن تبصق دما أحمر بعث الفزع في قلوبنا .. قلبي أنا وقلب جميلة التي هجرت خيمة الزوجية وعادت الينا تسهر على أمها التي مضت تذبل وتتضاءل حتى جحظت عيناها واسعتين بين عظمتي الوجنة التي ضمرت.

وفي صبيحة احد الايام والشمس لا تزال آخذه في الصعود ألمت بها اغماءه منكرة لم تفق منها الا بعد لحظات طويلة لتحملق مذعورة في عيوننا تتلفت هنا وهناك في أرجاء الخيمة كأنها تفتش عن شئ أضاعته حتى أمسكت بيدي وقربتني منها على غير عادتها ثم تساندت لتطبع قبله على خدي ولتربت على شعري وهي تجهد نفسها لا نتزاع كلمات تهمس بها في أذني : حامد يا ولدي.. حين أموت .. فصرخت يائسا لا تموتي يا أماه . فقالت في صوت متحشرج : الموت بيد الله يا حامد يا ولدي ، قلت لاهثا: ليس الآن ، لا تموتي ، لا ترحلي كما رحلت الجدة. فصمتت تغالب الدموع ، بينما انتزعتني شقيقتي وهي تقول : مالك يا اماه تتكلمين عن الموت ، ما زلت شابة! فاتسعت عيناها وقالت تضحكين علي وعلى نفسك يا بنتي ، لقد أصبحت جدة وشاب شعري .. مهشابة..

ومدت يدها إلي حفيدها تتلمس رأسه في حنان وتفرك شعره بينما مضى الصغير يلعب بأصوات مبهمة في حلقة . ثم عاودت حديثها الحزين .. واذا ما انحسرت المياه في الصيف لابد أن تبحث يا ولدي عن موضع القبر ، قبر جدتك ، أنت تذكره ، وترحم عليها فلكم احبتك يا ولدي ! أما أنا فقد دنا أجلي فسوف ألتقي بها بعد قليل في رحاب الله ،ثم استريح . ووقفت ذاهلا

مطرقا لا ادرى كيف أواسيها ، بل لقد كنت فى حاجة الي كلمة مواساة تنسكب فى أذنى ، فرحت أبكى وانهنه فى صوت مسموع بح حين تذكرت ليلة القدر التي انبلجت لنا فيها السماء فانقلب شعورى كله إلي ندم لا سبيل للتغلب عليه.

ثم أ طلق أش الله عواءه يدعونا لملاقاته فى طريقنا إلي الكتاب فقلت من بين دموعى : جميلة ، لن أذهب اليوم إلي الكتاب ، فبانت الدهشة على وجه أمى وقالت : اذهب حتى لا يغضب الشيخ منك.

اذهب فذلك سوف يشرح صدرى ، وعد فى الحال بعدأن تنتهى لأننى أريدك ، ولمحتنى أبكي صامتا ، فارتفقت كوعها فوق العنجريب لاهثة .. ثم دفعتنى دفعة واهنة وهي تأمرنى : أذهب ولا تتعبها ، وإذا حدث شئ فسوف نرسل لكى تعود من الكتاب لا تخف يا حامد اذا حدث لا قدر الله..

وصدقتها وانطلقت إلي الكتاب ، وترنحت فيه أتمتم بلسانى دون أن أعى فان ذهنى ظل مشغولا بألام وهمساتها الحزينة ، وحينما انتهى اليوم وانفردت عنهم جميعا ، فقد كانوا يتلكأون ويجمعون قطع الحصباء ورحت أخطو بسرعة على الرمال وفى قلبى احساس ثقيل يتعثر في كيانى وخلف اذنى اليسرى عرق ملعون ينبض بقوة ، وفى ظهرى تماما خلف القلب فقرة تنز بألم غريب. وفى عينى صورة أمى وبشفتيها الذابلتين اللتين راحتا فى الصباح تصبان فى أذنى كلمات قاتمة عن الموت : لكل انسان نهاية ، وتذكرت ان جدتى ايضا رددت هذه الكلمات ، يبدو أن الناس يعرفون في آخر ايامهم متى يموتون فهل عرفت أمى حقيقة أنها ستموت ؟ أنها ستبارحنا ؟ والا فلماذا كررت نفس كلمات جدتى لكل انسان نهاية؟.

ولأمر لا ادريه رأيت الشمس تظلم فى عينى ، والأرض تميد بى فتسمرت فى مكانى أمام كران نوج ... تماما على حافة الخور الذى يخترق الهضبة على يمين القصر الأثرى فجلست علي كشيب مرتفع أبكى والريح تعول وترتطم بجدران القصر فى نحيب يرتفع ويبعث الرعشة بين ضلوعي يختلط به صوت الطوفان الخافت وهدير الدوامة وارتطام الشمنذورة الحمراء بسلسلتها ونهيق حمار فى تحويشة والد مصطفى.

وفجأة كف كل شئ، ولف الصمت كل مكان ولم تعد أذناى تسمعان الا صراخا عاليا ينبعث من الجنوب ، من نجعنا ، صراخا انتزعنى بقوة فأخذت اعدو واكبو فوق الرمال حتي أشرفت على مدخل النجع المائج بحركة دائبة واقدام نسوة يتحركن متجهات إلي خيمتنا ، إذن فإنها أمى.

لقد كذبت علي يا جميلة . لماذا ؟ ليتنى لم أذهب إلي الكتاب.

ولم أتوقف حين سمعت شريفة تصرخ بى : حامد تعال هناولم ابال بسعدية و لا البسطاوى اللذين اعترضا طريقى بل افلت منهما اتجه راكضا إلي خيمتنا ، نفس الخيمة التى انبعث منها صوات جميلة عاليا يشق النجع كله.

ووجدت نفسى فجأة بين ذراعى برعى الذى حملنى حملا وأنا اصرخ وأضرب صدره بقبضتى إلي خيمة شريفة التى رأيتها تعدو بين يديها صندوق خشبى مزخرف تفوح منه رائحة نفاذة ، ولم يتركنى برعي ، حين انتهى بى إلي خيمة شريفة بل واصل ضغطه على يدى وهو يقول : الصبر يا حامد .. فلكل انسان نهاية.

قلت فى يأس : اذن فقد ماتت أمى ، لماذا كذبت جميلة علي؟ ولم يجب برعى بل ذرف دمعتين سالتا على خده ثم تهاوى إلي جانبى ، وأفلت يدى دون أن يعى فنهضت واقفا ودفعت زنوبة فى صدرها دفعة طرحتها على الأرض وانطلقت راكضا ،لاألوى، إلي خيمتنا فى نفس اللحظة التى كان أبى يندفع فيها وبين يديه قطعة كبيرة من الدبلان الأبيض فتفاديته ،واندفعت إلي الركن الذى اعتادت الام ان تنام فيه ، فرأيتها مسجاة فوق العنجريب فى نفس ثيابها ، وعلى ثغرها ابتسامة واهنة تكاد تنطفئ تلقى ظلالا غائرة حول عينيها الواسعتين.

ويبدو أنها كانت تريد أن تقول شيئا قبل أن تموت فقد رأيت شفتيها منفرجتين قليلا .. لعلها كانت تهتف باسمى.

وتخلصت من جميلة وحجوبة وارتميت علي صدرها ابكى وأصرخ ثم كان الظلام الذى غشى عينى .. الظلام الذى لم أفق منه الا بعد ساعات عند خالتى أمينة بايا لأجد شقيقتى تطل على وفى عينيها دموع . فقلت لها على الفور : لماذا تكذبين؟ لماذا لم ترسلى لى فى الكتاب حتى أعود ؟ فولولت باكية وهمست : استرح يا حامد فقد أغمى عليك وأنت تبكى فوق صدرها ، ومدت يدها بخرقة بللتها بماء ساخن ودلكت بها جبهتى ، ثم تلفتت إلي شريفة : خلى بالك منه ، لا تتركيه يخرج.

فالنسوة ينتظرننى هناك. وبارحت الخيمة على عجل ، فاستدرت إلي شريفة وأنا أسأل : أين أمى يا شريفة؟ وفوجئت الفتاة بالسؤال فقالت على غير ارادة منها : دفنوها يا حامد واستدركت تقول : رحلت إلي الجنة يا حامد ، ثم صمتت وهى تعض على شفتيها السفلى ، بينما انتابنى احساس غريب بأن جسدى خفيف يكاد يطير فى جو الخيمة.

الجو الذى تلاشى فيه كل شئ غير عينين واسعتين ، عينى أمى تحدقان بينما العويل يعلو فى النجع كله يتخلله ترنيم خافت خلته هابطا من السماء.
وتحسنت حالتى بعد اليوم السابع ، بعد طقوس المرحمة .

فأخذت ألح على شقيقتى حتى صحبتنى معها إلي القبر: أول قبر فى موطننا الجديد ، أول قبر سيصلى الناس أمامه صلاة العيد والذى ستنتشر حوله القبور عاما بعد عام.ووجدت التربة مبتلة ، فقد اعتادت شقيقتى أن تزور أمها كل صباح تصب الماء على القبر وتروى صبارا لم ينبت بعد ، ووضعت يدى على الشاهد أرتل آيات من «سورة يس» وعند كل مقطع كان جسدى يرتعش . كل كلمة كانت تخرج لاهثة متقطعة منداة بالدمع خافتة لا تصل الى اذنى، ثم تبدت لى العينان الجاحظتان فرحت أخلط السور والآيات حتى لكزتنى شقيقتى وهى تقول : هيا.

وفى الطريق عند كومة من الرماد ونحن نكاد ننعطف الي صفوف الخيام تعثرت وكبوت علي الرماد كبوة حاولت أن أنهض بعدها عبثا ، فقد تيبست ساقى اليمني وانكبت جميلة على تحملنى باكية إلي خيمتنا فتلقانى أبى باكيا ومضي يلقى حراما ثقيلا على جسدى المرتعش.

٥٠

ومضت الحياة من حولى وظهري ملتصق بالعنجريب ، صاخبة فى القرية بما جد عليها ، رتيبة مملة فى الخيمة لا يتبدل فيها شئ كما روت أختى ، حتى هذيانى لم يكن يتغير ، كلمات أمي وشذرات من أحداث حياتى .. لكل انسان نهاية ، ثلاث مرات أمام المحاكم . حتى أبى اخذ يطل علي مرة فى الصباح واخرى فى المساء ينصرف بينهما يستشير الناس ويجلب الوصفات والعقاقير المختلفة : شيح .. حرجل .. بخور وينسون ، وتعاويذ لا تقع تحت حصر .
وأختى حجوبة لاتبارحني..وأمينة بايا تلصق لبخة القرطم بجبينى، بينما حجوبة تعد وجباتنا ، وتجس بيدها على جبهتى وترتد والهة تتمتم.

لقد اقتنعن جميعاان مسا من الجن قد اصابنى فى بدنى وروحى ، ألم انكفئ علي كومة الرماد قبل رقدتى هذه اليس الجان يتخذون من الرماد مسكنا لهم؟ بلي أنهم يسكنون الرماد وفوهات المداخن .. يسكنون فى كل ما هو نار، فى كل ما هو متخلف عن النار.

كنت أصحو من غيبوبتى أحيانا لأجد مصطفى أو سرورايقفان صامتين على رأسى ، ثمّ ينصرفان ليحل بعدهما برعى والمحامي وأش الله وبكر وصالح رفاق النجع يشجعوننى على ازدراء ملاعق الشريد الساخن ، لأغفو وأهذى بعدها بكلمات متقطعة : المدرسة .. تحويشة العمر ، سعدية اين بطة؟ تعالى يابطة ، ومن حولى أحاديث فى الخيمة أعى منها القليل وأخرى فى طرقات النجع لا أفهمها.

ولاأدرى من الذى أشار على أبى ؟فقد دخل يوما يصحب رجلا غريبا ابيض الوجه على سحنته آثار غبار وفى عينيه حمرة مصفرة غريبة تبعث الرعب ، قلبنى هذا الرجل على بطنى ، ثم مضى ينقر على ظهرت ويقيس الابعاد حتى توقف بأصابعه عند موضع قال بعده : هنا يا شيخ أمين ، إلي بمجمرة .فأعدت له على الفور ، فانكفأ عليها ينفخ فى النار وقد دفع اليها برأس مسمار غليظ مضى يحمرة حتى بدا مثل جمرة ملتهبة ، اندفع به فى سرعة إلي ظهرى فوق نفس الموضع الذى أشار اليه ، وهو يتمتم : بالشفاء يا ولدى.

وشعرت بالنار تلهب ظهرى فأطلقت صرخة عالية المت بى بعدها غيبوبة طويلة ورعشة متصلة ، ثم افقت افتش عن الرجل مرعوبا خشية أن يدهمنى مرة أخرى بمسماره النارى ، وقد زارنى الرجل مرتين بعد ذلك أدركت فيهما انه من البنائين الذين وفدوا على القرية منذ أيام وملئوها بالصخب الذى أخذ يتعالى.

فعلى المرافئ الرملية الجديدة كانت بواخر الدلتا الطويلة السوداء ترسو وتصب فى القرية ألوانا شتى من الرجال. فلقد بر باشرى بوعده فازدحمت قرية الخيام بالمقاولين والبنائين والنقاشين والحجارين . نفس العمال الذين عملوا فى تعلية خزان اسوان ، بل لقد حضر بعضهم بناء خزان جبل الاولياء ومكوار ، وجميعهم من قرى اسوان الشمالية أو من قرى قنا الجنوبية وبالذات من الكلح.

كانوا يديرون الكلمات فى حلوقهم يلبثون بها هناك ثم يطلقونها على الألسنة إلي الشفاه فتخرج مفرطحة خشنة مدغمة لايكاد يفهمها الانسان وزاد من غرابة الفاظهم ومخارجها تلك الشوارب الكثة والاصوات العالية التى تنحت الكلمات وتمر ببعضها من خلال الانوف.

وأخذ كل إنسان فى قريتنا يتخير مكان بيته ، ويتفق مع المقاول ومضى العمال يدبون فى كل مكان، ينسفون الصخور بالألغام ويقتلعون منها أحجارا يكومونها فى مكعبات كل متر بسبعة قروش. وأمتلأ جو النجع برائحة البارود ودوى الألغام ، بينما انطلق آخرون يعدون المونة من الطين والمغرة الحمراء والصلصال.

وعرفت النجوع ألحانا غير ألحاننا وكلمات أغان غير كلماتنا ... اسنا وكوبرى اسنا . خبطنا الهوا نعسنا اللى شبكنا يخلصنا ولا تكف الأغنيـة الا لتتلوها اخرى : سلم على ، ثم يتغير اللحن ويهدر حينا ويلهث ثم يعود إلي الصفاء الحزين يخطر وينداح فوق الهضبة وبين الخيام ويعبر بالعمال وهادا وجبالا إلي أحبابهم فى القرى التى هجروها.. أيا ناعسة وخبرينى ع اللى كاتل ياسين . ع اللى كاتل ياسين .. يابا .. يابا ع اللى كاتل ياسين.

ماجت الرمال بهم وتجمع الناس فى الاصائل يتفرجون على التحطيب . يحاولون تعلمه على أيدى الوافدين معجبين بجلدهم ولهوهم ساخرين من لهجاتهم.

وفى إحدي صحواتى من غيبوبتى مضيت اتساءل: وأين حسن المصرى ؟ فاننى لم اعد آراه منذ ايام طويلة . وعرفت انه قد رحل وهجرنا إلي الأبد ،ترك القرية خلسة فى احدى الليالى ولم يعد اليها من جديد ، شريفة وحدها التى كانت تعرف قصته الكاملة ، القصة التى جعلته يهجر قرية عاش فيها ردحا من الزمن.

فقد كانت فى تلك الامسية فى مطلع الليل تتكئ على عنجريب وتطل من فرجة أحدثتها فى بوص خيمتها على المساء ، والرجال الذين كانوا يروحون ويجيئون ،وطفقت تحلم وتتصور حياتها وما ينتظرها في المستقبل وفى قلبها غموض كانت الأمسية ذات الهلال الباهت توحى به.

وفجأة ، وامام عينيها الشاخصتين من خلال فرجة البوص تلاقى شبحان توقفا حين وقعت العيون علي العيون كأن شيئا ما يشدهما . عرفت هى أولهما ، فهو حسن المصرى ، أما الثانى فرجل طويل القامة عريض المنكبين حاد النظرات ، عرفت فيه واحدا من الحجارين الجدد الذين وفدوا على بواخر الدلتا منذ أيام ، وأحست فى صوته الخشن غلظة لم تعهدها ، فقد ارتفع به قائلا: حسن! اخيرا تقع عيناى عليك.

تردد حسن لحظة ثم قال: من أنت؟

- من أنا ! أنسيتنى يا حسن؟

وصمت متحفزا ، ثم قال ، وهو يدنو يده تعبث فى جيبه : اذن فأنت هنا ياكلب ، ونحن ندوخ فى البحث عنك ، وتراجع حسن خطوات حتى كاد يسد فرجة البوص ، وهتف فى صوت راعش خنقته المفاجأة.

- حمدان

- نعم حمْدان غريمك ،الدم غالى يا حسن ولو بعد عشر سنوات .

- أخوك هو الذى اعتدى على شرفى ولطخه يا حمدان.

- وقتلته ثم لذت بالفرار ، الذين يقتلون من اجل الشرف لا يهربون يا حسن إلا خسيس مثلك.

- أما يكفيكم ؟ لقد قتلتم ابن عمى وأخذتم بالثأر.

- أبو القمصان ابن عمك . هذا ما تقصده يا خسيس.. جزمة ابن عمى زين الرجال «برقبة» ابو القمصان.

وبدأ واضحا ان حسن المصرى كان يتراجع إلي الخلف ريثما يستعد لملاقاة عدوه فقد لمعت سكين حادة فى يده فى نفس اللحظة التى كان الآخر يرتفع فيها بخنجر يسدده إلي قلب حسن المصرى ،تفاداه ثم عادا يتشابكان ، الا ان شريفة كانت قد اطلقت صرختها الداوية المرعوبة . صرخة جاويتها صرخات أخرى اندفعت بعدها الأقدام من كل مكان .اقدام رجال النجع والعمال حتى ازدحم بهم النجع.

وحيل بين حسن وغريمه وسيق حمدان إلي خيمة العمدة ، أما حسن المصرى فقد اختفىُ ، وشريفة هى التى فتحت له باب خيمتها ومنها قفز إلي أخرى ملاصقة حتى اختفى فى خيمة برعى .

وأدرك أبى كل شئ فكلف برعى الذى ذهب به إلي مغارة فى التلال ، بعد أن سلمه أبى جنيهات خضراء يستعين بها على الهروب..

وقيل بعد ذلك انه زار البيضاء فى الليل قبل رحيله ، وقيل انه عبر النيل بقارب ، لينزل عند الاعراب فى رحاب الجبل ، وانه شوهد فى الليل يضرب فى شعاب التلال الغربية ، قيل شئ ثم تردد نقيضه فى نفس اللحظة ، بينمت أبى وبرعى والشيخ فضل يكتمون سرهم ويسحرون من الناس وإشاعاتهم.

لقد اختفى حسن المصرى تماما بينما اطلق سراح حمدان الذى امره العمدة بمبارحة [illegible] على الفور ، فمضى إلي الجنوب يبحث عن غريمه.

ولم يدر برعى ولا جمال ما الذى أصاب شريفة فى الأيام الأولى بعد هروب حسن المصرى فقد عاشت ساهمة واجمة لا تقرب زادا تطرق إلي الأرض ولا تجيب على أسئلة الناس الا بكلمات مقتضبة غامضة.

واخذ الناس فى النجع يتحدثون عن حسن المصرى وشهامته ويروون حكايات تفيض بالدم والسرقات وثلم الاعراض وأبطالها هؤلاء الوافدين .. حكايات اشعرتهم بالحذر والخوف من الذين يكدحون امام اعينهم لبناء بيوتهم .وقد حفزهم إلي مزيد من الحذر والخوف تلك القصة الغريبة التى تلاها المحامى على مسامعهم فى احدى الامسيات قبل منتصف الليل والقمر يكاد يغيب

ليترك النجع في ظلام دامس لايبدده الا فانوس باهت يتدلى من حبل أمام المتجر.

تفرس المحامى فى وجوههم ، فوجدهم متحفزين لسماع قصته فقال: فى وادى العرب بعد كرسكو ، اعتدى واحد من هؤلاء الحلب على أرملة شابة .. كان الرجل هو الذى يبنى بيتها ، وقد بناه فى شهر واحد ، كانت الارملة الشابة خلاله تشجعه وتكافئه ببسمة وبشاى تقدمه فى الصباح وعند الضحي ، قال لها مرة ، أنت حلوة ..فقالت : يا سلام أنت رجل شهم ، فلعب الشيطان برأسه وتمنى لو استدفأ بين أحضانها فى الليالى الباردة وراحت الأرملة تسخو عليه فصاح نوح: بنت الكلب : تستحق القتل.

وصاح به فضل : أسكت يا نوح.. دعنا نسمع الحكاية لآخرها.

فتنحنح المحامى مرة أخرى واسترسل : وفى اليوم الأخير، اليوم الذى انتهى فيه الرجل من بناء بيت الارملة فى مكان منعزل عن خيام الناس وبعد ان تفرق عماله ، اقترب الرجل من الارملة يقول لها: مسكة . قالت .. نعم ، وابتسمت ابتسامتها الناصعة ، فجن جنونه اندفع اليها وامسك بيدها بقوة لم تحتملها الا انها تجلدت وقالت : اننى اعرف ما الذى تريده ، ولكن دعنى أتهيأ لك .. وانصرفت الي الحاصل ، وهو يتابعها ثم اغلقت الباب دونه وهى تهمس : اتركني حتى أتهيأ.

ومضت تتحرك فى الحاصل تسأل نفسها : رباه ماذا أفعل؟
وأحست بعينيه تلتهمان جسدها من خلال ثقب واسع فى الباب فقررت ان تستمهله لحظات ريثما تصل إلي حل فأخذت تتعرى من ثيابها والرجل يتابعها بنظراته ويلهث قائلا: افتحى يا مسكة ، لكنها وقفت فى«الطشت» ومضت تصب الماء على جسدها الاسمر المدملج ونهديها الصلبين - فقد كانت ما تزال شابة صغيرة ، مزهوة بقوامها اللدن الجميل.

وأخذ الرجل الذى سمر عينيه فى ثقب الباب يصرخ: افتحى ويطرق على الباب طرقات عالية ،فخرجت من «الطشت» فجأة وتقدمت إلي الباب ترفع مزلاجه وتفتحه قليلا فأطل برأسه من خلال الفرجة.

ولم يتمالك نوح نفسه فصاح بنت الكلب العاهرة ، أهلكت نفسها الفاجرة.. اسكت يا نوح ، أطل الرجل برأسه ومد يده يريد أن يوسع من فرجة الباب ، لكنها تشبثت بقبضتها على الباب تدفعه دفعا ، حتى حشرت رأس الرجل بين ضلفة الباب والجدار..نفس الجدار الذى بناه وراحت تضغط وتضغط والرجل يصرخ صراخا عاليا ما لبث ان خفت حين اهوى على الأرض جثة ارسلت حشرجة مروعة ثم كفت عن الحركة.

- برافو .. ست مجدع .. يا سلام.

قالها فضل وربت علي ظهر نوح وهو يهمس : أرايت يا نوح اياك ان تتركهم يعبثون بمندوهة.

وتحفز البسطاوى عند سماع هذه الكلمات فانصرف حتى يكون فى حراسة سعدية بينما عاد جمال إلي خيمته ليطمئن على زنوبة واخته شريفة.

وراح فضل يسأل : وماذا جرى لها بعد ذلك يا محامى ؟

- ابدا لا شئ ،جاء ابناء نجعها والقوا بجثة الرجل فى النيل ثم شاعت قصتها ، فتزوجها ابن العمدة.

ثم قصة من هنا وأخرى من هناك عن السرقات والقتل والاغتصاب حتى دب الذعر فى القلوب الا ان المسألة ظلت فى قريتنا مجرد قصص ونوادر حتى كانت ليلة سرق فيها متجر اختى وهى ساهرة على فراشى في نجعنا تذرف الدمع ولا تبارحنى تاركة شعبان وحده هنالك.

كان شعبان ساهرا مع شقيقه ثم عاد ليكتشف ان كل شئ ضاع .. الفلوس ، الأقمشة السكر كل شئ.

هنا تنبه الناس ، وبدءوا يتجمعون ويتخذون وسائل الدفاع عن انفسهم ، ولأول مرة استندت البنادق محشوة الي جدران الخيام.

على مقربة من صفائح الجاز في بعض الخيام المتلاصقة ، وأخذ الشبان وعلى رأسهم برعى يتناوبون حراسة الخيام بالليل والنهار بينما البارود يفتت الصخور والأغانى ترتفع في كل مكان ، حتى انهم لم يصدقوا ان هؤلاء الرجال المسالمين العاملين في بناء بيوتهم يمكنهم ان ينهبوا خيامهم ، فنشأت صداقات ، وضحك الناس كثيرا رغم التحفز والترقب.

وبرز بيت من بين الخيام ، ثم ارتفع ، ومضى الناس يستحثون عمال البناء : اسرعوا ، قبل ان يأتى الصيف وتنحسر المياه.

******

وجاء الصيف ومعه كانت قد ارتفعت بيوت عشرة من سحنة الرمل المربد.

ومع الصيف كانت الجفون الحديدية الغليظة على عيون الخزان ترتفع لتتسرب مياه الفيضان من خلالها إلي الشمال ، ومع كل جفن يرتفع كان النيل يطامن من كبريائه وشموخه ويستدير ليتجه إلي الشمال فى خطى واهنة فى أول الأمر ، ثم فى خطى هائجه مائجه تهدر عند الدوامة وتهز الشمندورة الحمراء بعنف بالغ يجعلها ترتطم بسلسلتها الغليظة التى تشدها إلي القاع.

٥١

وكرت فترة من الزمن منذ أن كان الطوفان والناس يلعقون جراحهم ، كانوا مثل جيش تبدد فى فلول وتشرد على رمال الصحراء ، ثم تحرك الافندية فى القاهرة وتحرك الرجال فى كل مكان ، فترددت العبارة التقليدية التى تصدرت منذ تلك الايام بيانات وشكاوى النوبيين ،، دولتلو ،.... بعد فروض الاحترام ... نحن منكوبو التعلية الثانية .. ثم تعرض المشكلة في كلمات دامعة متوسلة والنهاية: طلمبات رى، أو إ لحاق ابن بوظيفة، أو إعادة فتح مدرسة اغلقت أو بناء مستشفى ،كل انسان كان يكتب : نحن منكوبو التعلية ثم ينتهى إلي مطالب ذات شأن أو أخرى لا قيمة لها فى نظر المسئولين لكن الناس جميعا منكوبون ولاحق لأحد ان يحرمهم من هذه الصفة.

ويقولون ان سيد وابورطفق يجوب النجوع ويرفقته برعى والمحامى وأحمد محمود.

وانهم توقفوا مرة عند خورفى ابريم يشق الهضبة يجادلون فى قيمة البئر التي يحفرها بشير عثمان في الجبل ، وارتكزوا مرة أخرى على حافة الخور الذى يجرى منحدراً إلي النيل على كثب من كران نوج، وتأملوا فى الرمال حولهم وفى الوادى الشرقى الذى انحسرت عنه المياه قليلا ، وراحوا يتحدثون عن المستقبل ، قال وابور.

- هنا عند خشم هذا الخور يمكن اقامة طلمبة رى تتخذ من الخور ترعة لها.

وحدق المحامى فى الخور الجاف مليا ثم قال : أليس غريبا تشكو هذه الأرض من ندرة الماء بينما البحيرة تترامى أمام عيوننا من الجبل إلي الجبل طوال الشتاء.

وضورب كفا بكف ثم أضاف : والغريب انهم فى مصر يقيمون الجسور لئلا تغوص الأرض!

واصر وابور على مشروعه ومضى يقول: واذا ما اقيمت الطلمبة هنا فسوف تكتسى هذه الأرض الشاحبة الصفراء بالخضرة ، حتى تلك التلال يمكن ان تغطيها الخضرة.

ورفع برعى رأسه يسأل: ومن الذى يقيم لنا هذا المشروع وتمعن وابور فى وجهه متشككا ثم قال: الحكومة يا ولدى .. الحكومة قادرة علي كل شئ.

قال: اية حكومة ؟ نفس الحكومة التى أغرقت ديارنا ! فأضاف المحامى على عجل : والتى نهبت أموالنا ، انها لم تقدم لنا شيئا غير عوامة صحية تربط هناوهناك مرة كل ستة اشهر : قد تأتى حكومة أخرى باليأس وانهما على حق فى تساؤلهما فاستدرك : قد تأتى حكومة أخرى فهتف المحامى: شهاب الدين ... آه لو كان من أبنائنا مهندسون وأطباء.

والتفت اليهما يهز اصبعا فى وجهيهما: علينا ان نعلم اولادنا يا وابور ليصبحوا اطباء وأساتذة فيحترمنا الحكام ، فلا سبيل إلي الاحترام غير المال ولا حيلة لنا فيه ، وغير التعليم ، وصمت لحظة وهو يرمق الخور فى دهشة : ولكن الآباء يفضلون ارسال ابنائهم إلي مصر ليخدموا فى البيوت ،ينحنون للذى يستاهل والتى لا تستحق وللبيه الكبير والبيه الصغير صفر عقله الصباع

والست ، والست الصغيرة.

وتنهد وزفر زفرة حارة ثم اردف : آه لو كان فى وسعنا ان نعلم كل ابنائنا ، فسكت وتأمل وجه وابور ليرى تأثير كلامه على هذا الرجل عاشق الماكينات ، فوجده صامتا يزم شفتيه فى اصرار فسأله ما رأيك يا وابور ؟ قال : التعليم امره عسير والاسهل ان نعلم ابنا ءنا فى الورش .، وأشار إلي أحمد محمود الذى ظل صامتا وأضاف: هذا المسكين لم يستطع أن يكمل تعليمه ، فتنهد أحمد ثم قال :والمصيبة آن حجوبة زوجة الشيخ أمين تريد ارسال حامد ليخدم فى مصر... والولد شاطر .. كيف حاله الآن يا برعى.

- مريض وما زال يهذى ، انه لم يعرفنى بالأمس ، شفاه الله.

وقال المحامى من جديد : لكن الشيخ أمين لم يقرر شيئا بعد وإن كان يصر على إرساله إلي مصر ليدرس فى الازهر ، لكننى أخشى على الولد أن يموت فانه يذبل فى كل يوم .. نصحت اباه أن يبعث به إلي اسوان او مصر فرفض قائلا : إن الله هو الطبيب.

وقال برعى : لو كان أحمد عودة فى البلدة لذهب به إلي دكتور أما أبوه فإنه يردد دائما :ماذا فعل الدكاترة لأمه؟ لا فائدة فيهم.

لقد ضاعفوا مرضها.

اطبقوا شفاههم واستداروا إلي النيل يراقبون باخرة بيضاء ذات نوافذ كثيرة تهبط في النيل قادمة من «ابو سمبل» تحمل سواحا تخلفوا إلي آخر الموسم ، وقد تبدى على ظهرها سفرجيان بقفطانيهما والحزام الأحمر الملفوف حولهما ، فتابعوها بعيونهم حتى اختفت فى محاذاة المنحنى ، ثم عاد وابور يتكلم عن الورش وهجر الخدمة فى البيوت وعن التعليم وعدد الصغار المؤهلين له فى الكتاب ، وقبل ان ينتهى من اسمائهم هتف برعى وكأنه يفيق من حلم رهيب.

- كله الا الخدمة فى البيوت، افضل الموت هنا جوعا فوق هذه الصخور على اذلال نفسى ، السادة يوقظوننا هناك، كما يقول جمال بأجراسهم فى منتصف الليل ويبددون حلاوة النوم ، ويجبرونك على حمل احذيتهم ، كلا ليس فى وسعي احتمال كل هذا الذل ، أما الذين يقبلونه فانهم أذلاء .

وأسرع أحمد محمود يتكلم ليرده إلي صوابه : ليسوا اذلاء يا برعى ، انهم اهلك واهلى لكنهم مجبرون ، لا تعترض ، استمع إلي كلامى حتى انتهى ، صبرك بالله .. بعض الناس يا برعى يأكلون لحما نافقا اذا ماعضهم الجوع بنابه ...قرأت يا وابور ان الناس في الصين حين ألمت بهم المجاعة..ناس مثلى ومثلك..أكلوا لحوم إخوتهم..عرق الجبين الذى يكسب مليما شريفا ليس

معيبا مهما انحنينا وحملنا للناس احذيتهم وتحملنا مباذلهم.

وصاح برعي : ولكنني لا أكاد اتصور نفسي منحنيا امام كلب وتدخل وابور: ألا تذكر كيف سافر جمال إلي مصر؟

- ومع ذلك ظلت امه وشقيقته جائعتين ،أتريد يا أحمد أن تذلنا؟
- ماشاء الله يا برعي ، أنت ما زلت شابا صغيرا مثلي لكنك لم تجرب مصر انما اردت أن أبين أن الناس الذين ينحنون مجبرون.

واختتم وابور ساخرا منهما وقال: علام كل هذا الجدل ، إنني المح نذرا لمزيد من الهجرة للخدمة في بيوت القاهرة وفي الحانات والمراقص .. في كل مكان مشردون.

وصمت ثم أضاف : الجوع كافر يابرعي وأكفر منه صراخ الاطفال الجياع ، وقال برعي في زهو : ما زالت فلوس التعويضات في جيوبنا حتى نجد مخرجا ، فهمس المحامي في قهر : سنتان وتنتهي الفلوس ثم نعود إلي البواخر تحملنا إلي مصر جياعا ، وعلى كل فان الناس اللذين يخدمون في البيوت ويمدون يد العون لذويهم أناس يستحقون الحب والاحترام، ولاشئ غير ذلك، ونهض برعي واجما ، وتركهم على حافة الخور ، وهام في شعاب الهضبة حتى يتسلل إلي خيمتنا ليزورني.

وقف ذاهلا أمام فراشي ، وفي عينيه بريق غامض ودمعة يحتجزها اكراما لرجولته ورحمة بي ، فقد كنت لا ازال مستلقيا على العنجريب ، أهذي ولا ادرك الا قليلا مما يدور أمام عيني حتى بات الناس خيالات باهتة تختلط رءوسهم وكلماتهم وحركات أقدامهم بأعمدة الخيمة وسحب الدخان.

اتسعت عيناي وتضاءل وجهي وازدادت ساقي تيبسا فبت لا استطيع تحريكها ، وما من علاج إلا الرقى والتعاويذ وجرعات من الينسون وحلف البر.

ثم جاء الشيخ مدبولي ، وبرعي لا يزال في خيمتنا ، وجس بيده جبيني واستمع إلي رواية أختي عن الحادث وكومة الرماد ثم رفع رأسه وتفرس مليا في وجه أبي وهمس : أأقول لك يا أمين أم انك لن تصدقني مثل الاخرين ؟ فدب الذعر في وجه أبي : ماذا يريد الرجل ..ماذا يعني بسؤاله؟ أيموت الولد يا مدبولي؟ أفصح يا رجل .. قل لي انه يموت والأمر لله ، الامر بيده سبحانه وتعالى ، ثم رفع صوته وهمس : هيه يا مدبولي اليس هناك امل؟.

وقال الشيخ بعد ان هز رأسه ، لاشئ ولكن الشفاء بيد الله ، وماذا يملك العبد غير الرضى بحكمته فابتلع ابي ريقه وهمس: اننا نعتمد عليك ، اعد لي ولدي .. فلم يجب الرجل الا بعد أن غمغم بكلمات مبهمة قال: سأفعل ما يريده الله ولست إلا من عبيده ، فهتف ابي في يأس كل شئ بأمره يا مدبولي ، ألا تستطيع ... فتمهل الرجل وتأنى بينما أخذ ابي يذرف الدمع صامتا ، بينما الشقيقة تحدق في الرجل جامدة الوجه تتمنى ان يقول شيئا يريحها من العذاب الذي

يفترسها منذ شهر.

وأخيرا حرك الرجل شفتيه وقال: شفاء ابنك يا أمين في شئ بسيط ، وصمت ريثما سبح باسم الله وصلى على النبي وزاد الامر وضوحا : بيضة واحدة يا شيخ أمين ، ان الله يضع سره في أضعف خلقه .. جنى دجاج .. ويزول المرض!

وكفكف ابى دموعه ثم صاح في جميلة: مالك تقفين حائرة؟ الم تسمعى كلامه ؟ اجمعى له عشرين بيضة ، فأرسل الشيخ ضحكة خافتة وقال: بيضة واحدة .. ولكن من فرخة سوداء نوحى . وتفرس ابى فى لحية الرجل وقال : الفراخ السوداء كثيرة! هيا يا جميلة ، فتهيأت هذه للخروج من باب الخيمة إلي حظيرة الدواجن ، فاستوقفها الشيخ يقول: سوداء لا يعكر سوادها أى لون .. تضع البيضة التى أريدها فى صباح يوم من أيام السبت ما بين الفجر والضحى ، ليس قبله وليس بعده!

وارتسم الوجوم على وجه شقيقتى فتبدت ضائعة لكنها تحركت إلي الخارج تستشير خالتها ، خرجت وهى تهمهم : جدتى ثم أمى ..ثم .. وكفت عن ذكر اسمي ، خرجت تذرف الدمع بينما اتجه الشيخ إلي أبى يأمره : ومع البيضة ، نحن فى حاجة إلي ورق عنب ، ابحث عنه فى كل مكان والشفاء بأمر الله ، وست صفائح فارغة نظيفة وهون ويدهون يا امين ، من النحاس.

وقلب ابى شفتيه ، ومضى يسأل عن ورق العنب ، لقد اغرق الطوفان كل تعريشة للعنب الا فى بعض الجهات المرتفعة .. فأين يجد تكعيبة؟

وكر يومان .. ثم يوم ثالث وأنا لا ازال اهذى وأضج بالألم.. بينما يد الشيخ تتلمس رأسى ، ثم رنت ضحكة مرحة قصيرة أطلقتها جميلة وهى تتلق شريفة بالاحضان فقد عادت من عافية من عند خالة أمها وبين يديها فرخة سوداء نوحى لا أثر للبياض أو أى لون آخر فى ريشها ، وانطلقت ضحكة أخرى فى اليوم الرابع حين عاد ابي من عنيبة فى أصيل يوم يحمل غرارتين صغيرتين ملأهما بورق العنب ، وصاح فى الناس: وجدت شجرة عنب عند جده الحمزيلى فى عنيبة ، وانعطف إلي لورد يربت على رأسه يهمس : كفاك أنينا يا لورد ، حامد سيشفى فزام لورد ، وهز ذيله وكأنما يعلن فرحته بالنبأ السعيد!

ولمعت يد الهون النحاسية في يد حجوبة فقد أعارها لنا عبده الفرنساوى .

وتأمل الشيخ فى كل شئ وأعلن انه سيقوم بتطبيب الولد فى الحال وارتكز على عجزه وكوم ورق العنب أمام عينيه ، وحط محبرة إلي يمينه ومضى يرسم خطوطا غريبة بقلم البوص على كل ورقة من أوراق العنب ، ولسانه يهمهم بكلمات غريبة خافتة يرتفع بها احيانا ليهتف : اخرج ايها الملعون ، أخرج من جسد حامد ابن فاطمة ، بنت عائشة .. اخرج منه يا الهى بجاه نبيك، مره فيترك جسد حامد بن فاطمة بنت بايا ابن محمد.

وأطل المحامى مرة غير ملق بالا الي غضب الشيخ من فوق رأس مدبولى على وريقات العنب ، واستدار إلي برعى يقول .. انه يكتب يابرعى بالسوريانية.. اللغة التى لايفهم الجان غيرها

لعنة الله عليك يا أمين ، ستقتل الولد.. ليت أحمد عودة يعود.

وفرغ الشيخ فى ضحى اليوم التالى من وريقات العنب وصاح فى النساء يأمرهن ، فمضت جميلة تدق وريقات تعا ونها شريفة حتى تحولت إلي عجينة خضراء لزجة فى خضرتها قتامة كئيبة.

وتأمل الشيخ تلك العجينة ثم هتف مرة أخرى : اضربى البيض يا بنتى .. ثم إلي بالصفائح الفارغة نظيفة ، فأسرعت الاقدام هنا وهناك وعادت لترص الصفائح أمام عينيه ، فمضى يوزع لقيمات من العجين الأخضر فى كل صفيحة حتى انتهى منها ، ثم وزع صفار البيض المضروب بالعدل على الصفائح الستة وأمر بماء ساخن ملأ منه كل صفيحة وراح يقلب العجينة والبيض والماء الساخن بهراوة غليظة ، حتى أرغت وأزبدت ثم تنفس الصعداء وقال: الآن باذن الله ان يشفى الولد. ثم أضاف أملاحا وانواعا من العطارة وانعطف إلي جميلة يأمرها فى صوت وقور : فى كل صباح قبل أن تهل الشمس على المعمور وفى كل مساء حين يخرج الشيطان من بئره المهجور ، أقيموا الولد علي عجزه ، ثم ارفعوا كل ثوب مخيط عن جسده.

وتوقف وانعطف إلي فقد أخذت اهذى والوح بيد معروقة وأحملق فى الوجوه بعينين جاحظتين وأتمتم: لكل انسان نهاية .. سورة النساء صعبة.. رفعتنى إلي صدرها .. شبيكة .. لا . كلا يا حجوبة ، لا ترحلى الآن ، ابعدوا عنى هذا الثعبان وانكب الشيخ يتلو الصمدية بينما انفلتت الشقيقة الكبرى تبكى بصوت لايقطعه الا ضربات ابى على كفيه ، ثم استكان جسدى حين تصبب منه عرق بارد مضت حجوبة تمسحه بطرف جلبابها ومضيت انا اتامل خيالات الاجسام المتحركة امامى وأراقب من خلال فرجة البوص عوامة كانت تجتاز شريحة النيل امام خيامنا ، وواصل الشيخ مدبولى حديثه من جديد : فى كل صباح وفى كل مساء يصب كوزان من هذا الدواء .. وأشار الي الصفائح على جسده وتفرك فروة رأسه به، ويلمس به على جسده عاريا ، ثم يرتدى ملابسه ويغطى بلحاف أبيض ، أسمعت يا جميلة. فهزت رأسها ، وقام هو يغسل يديه قبل أن يزدرد طعاما دسما اعدته حجوبة وأنا اراقبه فى شهوة عاجزة.

******

وراح التعذيب الذى بدا لا نهائيا يفترسنى صباحا ومساء .. أمينة بايا تجمع خيوط العنكبوت وترابها من كل خيمة .. من كل مكان.. حتى من بين جدران القصر الأثرى وتزيل قشرة الجرح المتبقى من الكى بالمسمار المحمى ، وتدميه ثم تذر عليه قليلا من التراب العالق بخيوط العنكبوت ، ثم تتسلمني جميلة فتعرينى وأنا أبدى مقاومة هزيلة وتصب كوزين من العفن الذى تعافه النفس على رأسى وعلى وجهها إمارات تقزز وتمضى رغم ذلك فى تدليك فروة رأسى بهذا العفن تغترفه من الصفائح الست ، وتتلمس به كل جسدى وتبذل جهدا هائلا فى دعك ساقى المتيبسة ، يالله ، كم تتعذب هذه الشقيقة ، انها تهمل نفسها تكاد تكون قد نسيت زوجها حتى وليدها الصغير تركته عند بنات خالتها لتفرغ لى أنا وحدى .

جو الخيمة لا يتركه العفن فقد تخمر ورق العنب والاملاح وصفار البيض وتجمع عليها الذباب فى جيوش ، ثم انبثق القمل من كل مسام جسدى فراحت هذه الحشرات تسرح فى شعرى وتحت

ابطي وفوق الحزام تنفلت من بين أناملي حين اتحسسها ، ولم يعد الذباب يفارق وجهيئ بل اخذ يتجمع على عيني حتى لم اعد أرى من خلاله بعد أن تكل يدى من مطاردته ، وما زال الشيخ مدبولي يروح ويجئ ، وما زال أبى يغدق عليه ويصله فى تضرع ولا يبالى بنصائح الناس ان يسافر بى وأن يلحق بالعوامة الصحية عند اية قرية ترسو عندها وقد شجعه تحسن ظاهرى بدأ في حالتى إذ أصابتنى شهية غريبة للأكل دون أن يزداد وزنى، لقد بدأت اختطف الاكل حتى من يد محمود الصغير ولكن ساقى ظلت على تيبسها لا تتحرك.

ثم رست الباخرة عند المحطة النيلية وعاد أحمد عودة من رحلته وأفضى اليه اش الله بما حل بى ، فدخل على الخيمة وعلى وجهه وثيابه آثار السفر واندفع لا يلوى على شئ إلي فراشى يتحسس جبينى ليصرخ في صوت خانق : يا للرائحة الكريهة . وطاف بعينيه فى الخيمة وأضاف: ما هذه الصفائح ؟ والقمل والذباب ؟ افتحوا الباب واطرقت جميلة برأسها تذرف الدمع وتخشى ان يدخل ابى وخالى ما زال يهدر .

فمضت تهمس وتقص عليه أنباء علاج الشيخ مدبولي الذى كان يدلف من الباب فى نفس اللحظة ، ولم ينتظر أحمد عودة حتى تكمل جميلة روايتها بل انحنى إلي صفيحة وطوح بها بعيدا وبالثانية وبالثالثة حتى انتهى منها جميعا ، ثم انكب على وحملنى حملا إلي خيمته ، والشيخ ذاهل لا ينطق الا بجملة واحدة : ستقتل الولد يا أحمد .. ستقتله واستدار اليه ، وأنا ما ازال متعلقا برقبته ، وأمر : أغرب يا مدبولى عن وجهه وسوف يعيش .. اياك أن تعود .. وخطا بى إلي خيمته وأرقدني ثم امر بحمام ساخن لى ألقى بعده جلبابا جديدا .. ومضى يحرق ملابسى القديمة أمام الخيمة وهو ينادى اش الله . أطلب من عوض كتية أن يعد مركبه.

وأطل أبى على فراشى الجديد وهمس : أودعناك الله يا ولدي واستدار إلي أحمد عودة وهمس : حمد الله على السلامة ، فأجاب فى همهمة ثم قال: سأرحل به إلي عنيبة فى الحال ، قال : استرح من سفرك حتى فى الصباح ، فلم يبال به بل قام يسلم على أهله ثم حملنى إلي الشاطئ .

واستقر جسدى الناحل على فراش اعد لى تحت « التندة » البيضاء فى المركب التى اقلعت بنا تصعد النيل إلي عنيبة ومن حولها شطئان الشرق التي أخذت المياه تنحسر عنها ، لتلمع جذوع الاشجار فى الظلام حتى تبدت كعيون نائحة تسكب قطرات الدمع فى صبر ، حتى الجزيرة كانت أشجارها السامقة قد ظهرت بعد انحسار المياة الخضراء تتمايل فى بطء وتتحرك إلي الشمال كلما مضت السفينة تجتازها.

وظل أحمد عودة واجما يرقبنى فى آسى حتى رست السفينة فى عنيبة بمحاذاة العوامة الصحية التى اعتادت منذ شهور ان تتنقل بين القرى لتستقر فترة قصيرة من الزمن فى عنيبة تعود بعدها إلي طوافها.

وتفرس الطبيب فى جسدى الناحل وعينى الواسعتين وشفتى المتشققتين وساقى المتيبسة ثم استدار يصرخ: برابرة ، بهايم ، الولد يموت يا راجل! وانحنى على يجس نبضى ، ثم انطلق فى سبابه من جديد حتى امتلأ وجه خالى ووجه عوض كتية بالذعر فمضيا يقولان فى ضراعة : ما علينا يا سعادة البيه .. اننا نعتمد عليك بعد الله ، ثم صمتا وقد تركا دموعهما المنثالة تكمل

توسلاتهما حتى قال: الولد مصاب بحمى فى مصارينه ويجب ألا يأكل شيئا الا عصير البرتقال والليمون أتسمعان؟ عصير البرتقال والليمون.

ثم عادت السفينة بى وبأقفاص ملأها أحمد عودة بالبرتقال والليمون.

****

وأخذت نوبات الغيبوبة التى ألفتنى تقل يوما بعد يوم مع كل جرعة من الدواء أرتشفها وكف هذيانى ولاحت تباشير الأمل ترتسم على وجهى .. ثم بدأت أعرف اختى وحجوبة وصغار النجع الذين دأبوا على زيارتى .. فهذا هو اش الله ، والذى يغطى رأسه بطاقية مزركشة فصالح جلق.

وهذا الشاب الطويل الذى حفلت شفته بشارب غليظ فبرعى ، أما هذه فشريفة نوارة النجع وهذه الساق هى ساق الشيخ فضل ، أما هذا الصدر فهو صدر سعدية.

وفوجئت جميلة ذات صباح وأنا أمد يدا واهية إلي رأسها أجذبها إلي واحتضنها وأهمس : كتر خيرك يا جميلة .. فلم تجب بل تفرست فى عينى ذاهلة ثم تخلصت منى وانطلقت إلي خارج الخيمة تطلق زغرودة ممطوطة ملأت نجع الخيام كله ، فأخذت أضحك واستمع إلي زغرودتها والى ألحان البنائين وفرقعات البارود فى الصخور ، ثم عادت تتلمس ساقى ويدى وتملأ وجهى بالقبل وتهمهم : شكرا لك يا رب ، الحمد لله سلمت يا حامد ، يا شقيقى يا ابن امى ، ثم تهاوت إلي جانب العنجريب تبكى وتنهنه وأنا أحاول ان اهدئ من روعها بكلمات خافتة ثم سكتت وأمالت رأسها واسندته إلي حافة العنجريب وراحت تنام فى هذا الوضع نوما عميقا.

ودخل الرجال والنساء وأدركوا سبب ما ألم بها من نعاس مفاجئ فراحوا يتهامسون حتى لا يوقظونها.

وانتهى الضحى ثم الظهيرة وهى ما تزال غافية ، ثم انتفضت فى الأصيل تعد مع نسوة النجع طعاما للناس نذربه أبى منذ أسابيع لله اذا ما عوفيت.

وانثنت بعد العشاء تطل على حلقة الذكر الهائجة فى الساحة وتنتشى بصوت المداح الذى أخذ الناس يترنحون على أنغامه فى ضوء فانوس باهت القى ظلالهم الطويلة المترنحة على الأرض.

٥٢ انحسر الطوفان بعد أن هيمن على الوادى شهورا ثمانية وعادت الاشجار تهتز سامقة ومن تحتها على الارض ديدان تزحف فى حركات لولبية متلاحقة بين حشائش طويلة تبرق فى ضوء الشمس وتتمايل مع النسيم في موجات متصلة، وتحركت ايدى وعضلات الرجال والنساء والاطفال بعد خمول طويل، لقد وجدوا عملا يقومون به فأطلقوا العجول وصغار الحملان فى الوادى تجتز النجيل والحشائش في شراهة ونهم وتسمن تحت بصر الناس لحظة بعد لحظة.

فمن الشاطئ الي السفوح وفي مساحات عريضة وتحت سيقان النخل، وعلى حافة الخيران والابار طفت الحشائش حتى تبدى الوادى بحرا من الخضرة المائجة لا تحدها عين، تنقلت الحملان والخراف بينها فلا تبين الا بعد ان تشبع .حتى الطريق لم يكن يستبينه المرء الا بصعوبة حتى أن برعى صاح مرة : الحشائش كثيرة، الأرض كلها مغطاة وقال البسطاوى فى حيرة وكيف يمكننا أن نزرع الأرض .. وأجاب برعي : بسيطة .. نجتز الحشائش، ونعزق الارض ثم نزرع، أما الحشائش فعلف للماشية نجففه للشتاء.

وراحت المناجل والشراشر والفئوس تلمع وازدحمت القوارب والمراكب بأحمال من العلف تعبر بها النيل من الغرب لتكوم فوق سقوف الخيام وعادت المشاجرات بين الناس، فالجداول والبتون والجسور قد طمستها مياة الطوفان، ولم يعد الناس يعرفون حدودا فاصلة بين شرائح الارض التى كانوا يملكونها، وما من جدار قائم يتعرفون به على الارض فارتفعت النبابيت وشجت الرؤس وسيق الناس الى العمدة، أو إلى عنيبة فى المركز ثم راحت الفئوس تعمل، فما هو الا شهر حتى نمت أعواد الذرة عملاقة فائقة خضراء عريضة، وقد زرعت داريا وشريفة القيراطين وقطعة الارض المتخلفة عن سقوطها دراهما بعد ان حددتها بصعوبة فى نزاع مع أبى حول ارض الخرابة التى كانت تلاصق دراها، ولولا جمال وحب أبى له لما تمكنت داريا من الخرابة وزراعتها، وها هى وشريفة تجمعان الحشائش من بين عيدان الذرة التى نمت دون ما حاجة إلى رى، وعيناها تراقبان زنوبة التى ارتكنت علي صخرة كبيرة تجيل عينيها فى الخضرة الطاغية من حولها، وعلي وجهها نضارة جددتها هذه الخضرة ووعود جمال بالرحيل وها هو برعي يتوقف عندها لحظة: يا ست، النبى قبل الهدية، أول بلحة حمراء فى الوادي، خذى، فاستملحته، وتقبلت هديته باسمه وودت لو تحدثت معه قليلا، الا ان الخجل ابتعد به وهى ما تزال تمضغ ليتوقف وينادى : شريفة .. خذى .. اول بسر أحمر خذى واحدة. فاختطفتها من يده وقسمتها نصفين ناولت شطرا منها لأمها وهى تبتسم فى دلال : داريا، هدية من برعى .. ثم انحنت على ساقيها تصرخ : ياالله، هذه الديدان التى تتسلق ساقي، ونفضت ساقها ثم اسرعت إلى جمال الذى كان ينوء بحمل ثقيل من الحشائش غطى رأسه ورقبته، يسير به مقوس الظهر إلى الشاطئ ومن خلفه البسطاوى وسعدية التى اكتفت ببطنها المنتفخة بجنينها.

ومر شهر والناس يكدحون على الضفة الشرقية يتأملون فى زهو عيدان الذرة التى استدارت

كـيـزانهـا، ولا يعـودون الي الضـفـة الغـربيـة الا حين المسـاء، عـابرين النيل بالقـوارب والفـلاتك والمعديات، وعاد الدفء يبعث نقراته، يصاحب المراكبية الذين مضوا يتغنون بخضرة الوادى وسمرة العذارى، وتناسى الناس الام الطوفان، فـالخضرة البـاسمـة واعـواد الذرة الفـارهة والنخيـل المطوقـة جيدها بالبسر الأحمر والنيل والجزيرة التى تبدت باقة خضراء عائمة فى النيل .. كل ذلك قد بعث السلوى في قلوبهم فراحوا يتوقعون محصولا وافرا بعد الجدب الذى عاشوه في الشتاء فتمتلئ الصوامع بالغلال والتمر.

توقف الشيخ فضل امام حقله يتأمل عيدان الذرة، ولمح من بعيد رمضان نجار السواقى وصاح به ضـاحكا : مـسكين رمـضـان، صـامت يدك عن العـمل، فـأجابه : تمـامـا مـثل سـاقك يـا فـضل، وتضاحكا ثم راح فضل يقول: لا سواقى ولا شواديف .. الأرض امتلأت بطنها بالماء طول الشتاء وليست فى حاجة إلى سواقى ترفع الماء .. ولا شواديف .. ما عليك يا رمضان .. في الشتاء نقيم ساقية فى الغرب، وأشغلك صبيا تحت يدى فحدج النجار ساقه ومضى يضحك حتى انعطف إلى الطريق الزراعية.

واستدار فضل يتجه إلى الشاطئ وهناك انغرزت ساقه فى الوحل فهوى على الارض مرسلا آهه قـصيرة ثم تمكن من الوقـوف وتخليص سـاقـه من الطين وهو يتـمتم : عين الحـسود .. يالك من حسود يا رمضان..

اللعنة عليك .. عينك تفلق الحجر.

وألقى نظرة على النيل وصاح : تعال يا أحمد يا عودة، تعال .. فلحق به ابى وأحمد عودة، فأشار إلى النيل هامسا : انه يعلو في كل لحظة، يعلو بسرعة غريبة. يبدو ان الفيضان سيكون عاليا فى هذه السنة وأخشى .. ثم حدج حقول الذرة بعين مشفقة - واسترسل :

أخشى ألا نهنأ بالمحصول.

ولم يطق أحمد عودة حديث الرجل فقال: آراك يا فضل تتشاءم

- كلا يا أحمد .. قلبي يحدثنى .. قلبى الذى لم يكذبنى القول مرة واحدة.

وقال ابى فى صوت محشرج،وماذا نفعل؟ وهل يمكن أن تخذلنا السماء مرتين فى عام واحد؟ الله رحيم بعبادة يا فضل، ولن يترك هذه الأعواد البارقة الممتلئة تختنق في شبابها، تأمل بالله يا فضل.

أليس هذا من بديع صنع الخالق ؟ فهل يرضى سبحانه وتعالى أن يقتل ويشوه بديع صنعه يا فضل؟ أخذ الشيطان يا فضل، أخذه فزفر فضل زفرة حارة صعدها وهو يحملق فى النيل، ثم ربت على ساقه وقال:

- الانسان يا أمين أفضل خلق الله ولكنك تري منهم الضرير.ومجدوع الانف ومبتور الساق .. والأصم والأبكم والاكتع وعدو الشمس.

ثم ربت على ساقه مرة أخرى واسترسل في صوت هادئ بعد أن تأمل النيل الهائج الثائر يكاد يغرق الجزيرة ويطأ الشطئآن الشرقية والنتوء بقدميه .. اسمع يا أحمد، لماذا لا نعيد بناء الجسر ؟ قد كسره الطوفان.

وما الفائدة يا فضل؟ كلها شهور أربعة أو أقل ويأتي الطوفان ليكتسحه من جديد.

- المهم يا أحمد أن ننفذ المحصول وليأت الطوفان بعد ذلك.

وهز أبى رأسه وتأمل الجسر المطموس وقال: ولكن بناء الجسر يحتاج إلى مئات الرجال، وليس امامنا الا يومان او ثلاثة . ثم أطبقوا شفاههم على الصمت حائرين-لا يدرون ماذا يفعلون، واخيرا تطوع ابى يقترح: المباني يمكن ان تصبر يا فضل . قال : ماذا تعنى؟ المبانى لا يمكن أن تصبر الشتاء مقبل، وسكت ابى طويلا فقال احمد عودة: يمكنها يا فضل ان تصبر يومين، فليأت كل عمال البناء ليبنوا الجسر معنا ، وردد ابى في صوت هامس : ولندفع لهم يومياتهم وزيادة حبتين صادفت الفكرة هوى فى نفس فضل وقال: والصغار ،تلاميذ الكتاب يمكن ان يساعدوا ، فصاحا ى صوت واحد : لكنهم ما زالوا صغاراً.

- صغار ! لقد كنا نزرع ونقلع ونعبر النيل عائمين على ظهورنا ونحن ما نزال صغارا مثلهم.

وصمتا وكأن الشيخ فضل قد هز كيانهما بذكريات الصبا ، ثم عادوا مع شمس الاصيل إلى ضفة الغربية وأصبحوا فانطلقت بهم القوارب تحمل عمال البناء والصغار إلى النتوء الشرقى.

ويدأوا يقيمون الجسور والاغانى والمووايل الصعيدية تملأ الجو: بلد حبيبى قصاد عينى ومش در أعديلها .. يختلط بها اصوات ارتطام الجذوع والفئوس والطين وسرسعات الاطفال وسباب سوة وهدير الفيضان وصوت الشمندورة.

وراحت مندوهة تعد الشاى للناس تحت جذع نخله مصيخة السمع إلى الكلمات الغريبة التى للقها البناءون فى الوادى، كلمات مثل كلمات حسن المصرى، وعلي مقربة منها ركز أحد العمال سه وارتكز عليها واستدار إلى أبى يسأل متى جاءكم حسن ياشيخ أمين. فتأمله أبى مليا ثم ال: لماذا تسأل.. ؟؟ أأنت من بلده؟ قال : كلا لكن حمدان ظل يبحث عنه فى كل مكان حتى ـقى به هنا، وكاد يقتله، وخبط أبى خبطتين بالفأس ثم همس: الحقيقة اننى لا أذكر، سألتنى ى جاءنا حسن طيب متى ياأمين؟.. متى.. ؟ كان ذلك قبل أن يولد حامد هذا، وردد الآخر : ضبط فى نفس السنة بعد أن ارتكب جريمته وولى هاربا تاركا لبدته فى يد الحرمة.

وعادا إلى عملهما وسياط الشمس تلهب ظهريهما وظهور عشرات الرجال والصغار والنساء ين مضوا يكدحون دون كلل، يحفزهم النيل الهائج والزرع الاخضر المتمايل، وراح الشيخ فضل ق المحامي بنظرة قاسية فقد أهمل فأسه وارتقى جذع شجرة عالية تنحنى على النيل،

مستغرقا فى أفكاره لايبالى بريح ساخنة تنشط منذ الظهر وتسرع من الجنوب إلى الشمال ولا بهدير النيل أو بالالحان المتموجة من حوله، كان يقول لنفسه : وما المصير يا محامى. ألا تتزوج؟

وخيل له فى لحظة كف فيها عن التفكير فى مستقبل حياته انه يسمع طلقات رصاص وصرخات نساء هناك عبر النيل، حول كران نوج، فاستدار إلى الآخرين فوجدهم راكزين فئوسهم علي الارض يتطلعون إلى الغرب فى ذهول وانعطف اليه يعبر الجزيرة ببصره ويستجلى الأمر من فوق الجذع العالى ويميل ويشرئب بعنقه، ثم رآه الشيخ فضل يهب واقفا علي نفس الجذع ثم يقفز إلى الارض ويهتف كالمحموم : النار، النار يا جماعة .. حريقة يا هوه .. يا هوه .. حريقة.

النار .. يا لله .. النار ومئات الخيام المتلاصقة، وهذه الريح الساخنة النشطة، ثم ازدحمت صفحة النيل بالقوارب تركض بهم إلى الغرب والشمس تكاد تغيب.

٥٣ القرية لم تعد قريتنا والنجوع ليست نجوعنا والخيام كل شئ لم يعد لنا فالنار تحتدم فى كل مكان، وصفائح الجاز تنفجر وتقذف بنفسها فى الهواء ثم تهوى في بقع متطايرة من اللهب وتقفز ناجية بنفسها من خيمة إلى أخرى، فيشتعل العلف الجاف ويحترق التبن المتكوم على السقوف فى أزيز، وتجف العصارة في فروع الاشجار ثم تلتهب لتتفحم، وفوق كل ذلك بنادق ينطلق رصاصها في كل اتجاه، والناس يهرعون هنا وهناك وقد تدلت شفاههم السفلى ولمعت عيونهم ببريق الغضب واليأس وسطعت جباههم بالعرق الاحمر ينعكس عليه اللهب فيبرق، أيديهم تتشبث بدلاء الماء وأكياس الرمل يقذفون بها في النار التى مضت تسرى من خيمة إلى أخرى حتى تكونت فى لحظات قصيرة قرية من اللهب تضطرم وتنفخ اوداجها مع الريح المسرعة من الجنوب ثم ينبطحون على الارض يائسين يكبشون فى التراب ويزدردونه دون وعى، ويطلقون صرخات مرعبة تشق الفضاء وتختلط بصياح النعاج والحمير والابقار المربوطة فى حظائرها فى قلب النار المتقدة.

لورد وحده هو الذى استطاع أن ينقذ نفسه من خيمة كان يأوي اليها فاخذ يزك بساقه يجرى مبتعدا عن النار التى اشتعلت فى ذيله وها هو يتهاوى بعد آن أطلق نباحا كعواء الذئب على الأرض ويرفع رجليه إلى السماء مستسلما لينام نومته الأخيرة..

الانفاس تتقطع واللهاث يهدر بين الشفاه يشوه كلمات ظل الرجال والنساء يطلقونها : استغفر الله، أتسب الله يا راجل؟ اتق غضبه فلوسى، تعويضاتى، لماذا تركتنا يا رب؟ .. يا رب.. كلا اتركونى لا شأن لكم بى دعونى اقتحم النار .. انها نارى وليست نار احد، لا تحرمونى من النار .. يا بنت الكلب.

قطرات البترول المشتعل تتساقط على الصخور هى الأخرى .

حتى الرمل أصبح يشتعل، وها هى داريا تعدو خارجة من خيمة النيران وبين يديها علبة صفيحية تحرقهما فلا تبالى، تحرقهما فتضغط عليها بشدة. على الجنيهات الخضراء التى تبقت لها بعد أن دفع جمال للمقاول والبنائين وبعد شراء بعض الحلى والمصاغ لنفسها ولشريفة... اليد تحترق لكنها لا تبالى بل تتلفت هنا وهناك فى حذر حتى لا يراها أحد ثم تتهاوى على الأرض. وتركز العلبة فوق الرمل الاصفر وتعالجه حتى تفتحها.

ثم تلم بها اغماءه بعد صرخة هيستيرية تطلقها لقد احتك الهواء بملمس العلبة الداخلي الملتهب بالورق الملتهب.. فاشتعل ورقة ورقة امام عينيها، وها هى تنهض تهذى وتسب زنوبة وجمالا وشريفة، وتكور يديها توجههما للسماء، انت فعلت بنا كل هذا لماذا؟ ماذا جنينا، ولم يبال بها أحد، فقد أخذوا يجتازونها يحملون أكياس الرمل ودلاء الماء.

ثم تنبهت لطرحتها المشتعلة وألقت بها بعيدا وهى تحس بوخز أليم فى يديها فراحت تتأوه

وتستغيث منطرحة على الارض فانكبت عليها شريفة وزنوبة..تناديان- أماه..أماه فداك ياداريا ، ثم حملتاها إلى ركن فى بيتها الجديد، بيت لم يكتمل، لم ترتفع كل جدرانه بعد، كل الناس يتجهون إلى الشمال مع الريح مبتعدين عن خيمتنا وخيام بعض الناس حولنا فانها لم تمس لانها في صف اخر، بينما الصفوف الاخرى تلتهب، وها هو العمدة يمر أمام خيمة المتجر بركوبة ويصيح : ابعدوا صفائح الجاز والزيت والبنادق . لا تتركوا شيئا فوق السقوف، ثم استدار ينادى: عوض ..عوض يا كتية، أطلب المساعدة من ابريم وأنت يا اش الله من عافية،أماأنت يا برعى فواصل عملك بارك الله فيك. فقد كان برعى يجرى من الشاطئ إلى خيام النار فى سرعة وقد تدلت من حبال على كتفه صفائح ملأها بالماء يقذف به فى النار .. ثم يعود، توقف حين رأى العمدة واستمع الي كلماته واخذ يعدو، لكن ها هى فضيلة تمسك بعلبة معدنية مثل درايا وتجرى بها لترتكز على الأرض فلمحها برعى وهتف : فضيلة، لا تفتحى العلبة. الم تعرفى بما حدث لدرايا ؟ اسرعى بها إلى الماء، فنهضت ومضت تجرى حتى ألقت بنفسها فى النيل عند الجرف تغوص بالعلبة التى بين يديها فى الماء وتضغط عليها بجلبابها حتى بردت العلبة فرفعتها أمام عينيها وتأملتها ثم راحت تدللها ثم ارتفعت إلى الشاطئ تفتحها لتقع هى الاخرى بعد صرخة هيسترية، فقد اكتشفت فى الغلبة اوراقا وجوابات كان الشيخ فضل يحتفظ بها، أما الفلوس فلعنة الله على العلب المعدنية كلها.

واجتازتها واحدة تجري وقد حملت بيديها مخدة تهشكها وتغنى : لولو .. لو .. لولو .. يا بنتى .. ثم تهاوت علي الجرف فاقدة الوعى، دون أن ينتبه احد لصراخها، فالنار ما تزال تضطرم وترتفع تلالا عالية حمراء بلون الدم حمراء مثل جهنم، ترتفع فوق الخيام التى راحت تأكل أحشاءها، الفراش والصناديق، النار لا تزال تمد يدها وتضغط على زناد البنادق، أو تلقى صفائح الغاز إلى السماء .. النار لا تكف، النار تزحف بينما النيل يهدر فى الشرق ويكسر الجسور، والشمندورة ترتطم بسلسلها وتبرق في ضوء اللهب المنعكس.

يومان، يومان كاملان تجمع فيهما الناس من ابريم وعافية وعنيبة وتوماس يكافحون النار بالرمال والماء حتي هدأت الريح. فخبت ألسنة اللهب وتحولت الخيام الي كومة من الرمال واشلاء النعاج والخراف التى مضت الكلاب تنهش فيها، وارتمي عمال البناء على الرمال واجمين متذكرين حرائق تلتهم قراهم هى الأخرى المرة تلو المرة دون أن يبالي بهم أحد

****

ثم عاشت النجوع في الوجوم، فقد ضاع كل شئ : أعواد الذرة المختلفة في الشرق تحت وطأة الفيضان والخيام والتعويضات، وخبا بريق العيون وركب الجنون عقول رجال ونساء مضوا يصرخون فى القرية يلوحون بأيديهم للسماء وسادت الكآبة كل الوجوه . حتى وجه سعدية الناضر الجميل بدا حزينا وهي تبكي متاع عرس احترق وجنينا أسقطته حين فأجأتها طلقات الرصاص فى نجع الخيام الملتهبة.

****

ثم بدءوا يكتبون" نحن منكوبى التعلية ، احترقت خيامنا والتهمت النار تعويضاتنا وداس

الفيضان زراعتنا، ارحموا من في الأرض يرحكم من فى السماء، كانوا ينادون قلوبا ميتة تجلس هناك فى القاهرة خلف مكاتب لامعة لا تبالى عاش الناس من أبناء الشعب أما ماتوا ! ولماذا يبالون وحياتهم تجرى فى يسر ؟ لماذا يبالون وقد بدأت أراضيهم تحبل مثنى وثلاثا فى العام، وقد زاد محصول القطن والقمح وقصب السكر.

وتملك اليأس قلوب الناس فعاشوا فى مناحة متصلة يبيتون فى العراء ولا يفكرون فى اقامة خيام جديدة، ولماذا نقيمها ؟ فلسوف تحترق من جديد، لكن يد العون امتدت من القرى المجاورة فأقيمت خيام أخرى واختفت البنادق وصفائح الجاز وتعرت كل امرأة من حليها الذهبية باعتها لاستكمال بناء بيت لم يكن قد اكتمل بها .. وارتبكت أعمال البناء فهذه تقول: لا تبنوا لي بيتا .. سأبنيه وحدى بالجالوص، وهذا يهتف : عشرون فى عشرة أمتار؟ كلا اجعلوه عشرة فى خمسة واكتفوا بما بنيتموه.

ومضي الناس يرمقون درايا سكينة وزنوبة بنظرات خنجرية غاضبة فقد كانتا السبب، تشاجرتا على العلبة المعدنية ذات الاوراق الخضراء ثم انكفأتا على الأرض بمسرجه مشتعلة تطايرت منها شرارة تلقفتها الرياح ودارت بها كل مدار، كانت داريا تطرق حين تفاجئها هذه النظرات المسمومة وتغمغم : ارادة الله، زنوبة هي المسئولة أما أنا فوليه غلبانه ثم تلقى بنفسها على شريفة تبكى حظها العاثر، بينما زنوبة تغمغم : لا شأن لكم بى، لست من هنا ، وجمال حائر وشريفة واجمة لا تطيق نظرات الناس.

وعاد جمال ذات مرة ليجد زنوبة تحثو التراب على رأسها وتصرخ: جمال، طلقنى يا جمال عد بى إلى مصر .. لم اعد اطيق أمك .. لا اطيق الحياة .. والا رميت نفسى فى هذا النيل الهائج، ثم انتزعت نفسها وراحت تركض إلى الشاطئ وكادت تلقى بنفسها لولا ان لحق بها جمال ويرعى يحملانها الي خيمتها.

وافاق جمال من ذهوله، وانتحى بأمه يهمس فى أذنيها : البيت كاد أن يكتمل يا درايا بالمصاغ الذى بعناه كاف لاكماله، اسمحي لنا أن نعود أنا وزنوبة إلى مصر، قالت: طلقها يا جمال .. دعها تعود وحدها إلي أهلها ان كان لها اهل ! ولكنه ظل بها حتى رضخت وهي تقول : احلف لي يا جمال انك لن تنسانا ، فأقسم بالله، قالت له : بقبر أبيك فأقسم بقبر ابيه، قالت انك ستعيننى أنا وشريفة، سترسل لنا طرودا قال: أنا فداؤكما يا أم .. سوف ارسل .. سوف ارسل، ثم بكى واختلطت دموعه بدموعها.

وكرت الأسابيع وكل شاب يهمس في أذن أبيه وأمه وزوجته لا مقام لنا هنا يا ام، يجب ان نرحل إلى أين؟ إلي مصر أم الدنيا نقوم هناك بأي عمل .

ثم راحت البواخر ترسو علي مرافئنا وهى تصعد النيل، لا ينزل منها احد ثم تهبط من حلفا

وتقلع من المحطة النيلية فى أبريم، وقد وقف على حافتها شباب نجعنا يلوحون للشاطئين والدموع تلمع في عيونهم ؛ فأخذ النجع يخلو من كل إنسان، من الشباب والصغار فلم يبق الا العجائز من النساء والرجال والا التجار، حتى الاطفال هجروا النجوع مع آبائهم، فلم يعد فى النجع أولئك الصغار الذين كانوا يحجلون منذ شهور بين الخيام أو يتصايحون خلف كلو، لم يبق الا سرور وأنا واخر اسمه فتحي.

وها هي سعدية وأمها على المحطة النيلية تودعان البسطاوى سعدية صامتة تذرف الدمع أما الأم فهى التى تتولى الحديث : لا تنسنا. عيب يا أمى .. عيب : قل للرجل يا بسطاوى ان كل شئ قد ضاع.

ثم أوغلت الباخرة في النيل واجتازت النجع والبسطاوى يلوح للنجع بيديه ومن خلفه جمال وزنوبة التى كورت يديها حين واجهته فان داريا لم تودعها بينما رددت شريفة كلمة واحدة : آفيالوقو .. مع السلامة.

ثم جاء الدور على برعى، فهمس فى أذن ابويه وظل بهما حتي سمحا له أخيرا، برعى الذى كان منذ شهور يقسم انه لن يعمل خادما فى أي بيت وانه يفضل الموت جوعا فى النجع بدل الانحناء لأحد هناك فى مصر، برعي الذى عاش ساعات السجن يناضل مع المأذون وبدر افندى بلغ به اليائس كل مبلغ ؛ فضحى بكل ما كان يردده، بكرامته ؛ فقد ابتلعها ليسافر الي مصر يبحث عن اي عمل ولعله قال لنفسه : *ربما أجد عملا .. فيه صون لكرامتي!*

ودنا اليوم المرتقب، وها هو يودع المحامى وسيد وابور ليعود الي النجع فلا بد له من كلمة قاطعة يسمعها من شريفة، فاقتحم عليها بيتها في ساعة الاصيل فرمقته بنظرة انسان كان يتوقع هذا الاقتحام وأطاعته علي الفور وتبعته الي الفناء الخلفي واجمة لعلها كانت تفكر في حسن المصري الذى اختفى وفي قبضته المخدرة اللذيذة علي فخدها، وربما كان تفكر فى نفسها او فيه هو برعي وحياتها معه، تبعته في حذر إلى الفناء الخلفى لبيتها الذى لم يكن قد اكتمل بعد. بيتها الذى صبغته الشمس المائلة إلى الغروب بلون شاحب، وتوقفا حين استقبلتهما الدواجن بالنقيق والصياح، ثم أخذ يتهامسان: شريفة، هيه يا برعى. اريدك يا شريفة، اريدك .. الا تريدين ان تقولى شيئا يا بنت الناس؟

- ....

- قولى كلمة قبل أن أرحل.

....

- افتحى فمك، قولى أنك زوجتى.

فلم تجب الفتاة وان كانت عيناها لمعتا ببريق الدموع، دموع الفرح التى أطلقت الرجل الكامل فى ضلوعه فانكب عليها يحتضنها وهى تحاول التملص منه فى دلال ؛ ثم مد يده إلى صدرها

فعاودها نفس الخدر اللذيذ الذى بعثته قبضة حسن المصرى علي فخدها بين عيدان الذرة، عجبا لهؤلاء الرجال، لقد ماتت قبضة الغريب وها هى قبضة برعى على صدرى تبعث نفس الخدر.

- شريفة!
- هيه يا برعى.
- اقسمى أنك ستنتظرينى.
- ....

وراحت تسأل نفسها .. مم يخاف برعي ؟ ليس هناك غيره، كل الشبان قد رحلوا يا برعى، فسوف أنتظرك .. ولكن متى ؟ ثم ارتفعت بصوتها تقول : مع السلامة.

- قلبى يحترق، كل شئ فى جسدى يحترق وأنت لا تحبيين.

فسمحت لنفسها أن تقترب منه خطوة، ثم انفصلا فجأة وانزوى برعى فى ركن حين دخلت داريا الفناء وفى يدها فانوس مضاء، لقد رأتهما لكنها تجاهلتهما واستدارت إلى الركن الآخر تعتنى بدواجنها، بينما شريفة وبرعى يحبسان أنفاسهما ولا يتكلمان، ومضت داريا تغمغم لنفسها : مسكينان .. يحسبان أننى عمياء، لقد رأيتكما تتسللان إلى الفناء وأنا لا أخشى منك على شريفة يا برعى فأنت رجل، وخشيت أن تكون قد أطالت عذابهما فاستدارت اليهما فجأة ترفع الفانوس فوق رأسها وتقول : شريفة، من هناك يا شريفة ؟ فأجابت بسرعة فى صوت مرتبك : أنا يا أماه، أنا شريفة.

وصمتت الأم لحظة ثم قالت : لست وحدك يا شريفة، فتلعثمت الفتاة ولم تقل شيئا، الا ان داريا عاجلتها : برعى هو الذى معك، تعال يا برعي، وساد الصمت لحظة ثم اردفت : تعال يا ولدى فانك راحل كما رحل جمال، فأقبل الفتى عليها فى حذر متجهم الوجه وأضاءت داريا وجهه بالفانوس ورأت أمارات القلق بادية عليه فكتمت ضحكة ؛ فقد سرها أنه يخشاها، يخشى منها على سره فلكم صدته مفضلة البسطاوى عليه، وأحست أن عليها أن تلمس جراحه بكلمة طيبة فقالت: برعى، مالك حزينا ؟ شريفة أختك يا برعى .. كبرتما معا .. وها أنت ترحل ولا تدرى متى تراها من جديد فقد جئت تودعها، وأسترسلت فى حديثها : ولكنك لم تودعنى،كنت ستفلت من الباب الخلفى .. لكنى قلبى يسامحك .. فمن اجل عين تكرم ألف عين وغمزت فى اتجاه شريفة : هل ودعت كل فتيات النجع ؟ .. قال لها كلا لم اودعهن بعد، ولم أودع شريفة بعد . كنت أحدثها فى زواجنا يا داريا، فماذا تقولين : على بركة الله يا برعى .. مع السلامة، شدد علي جمال حتى لا ينسانا .. شدد عليه يا ولدى.

قال : أنت أمى وشريفة أخت. .. زوجتى عما قريب .. لن أنساكما وجمال لن ينساكما، قالت : ليته طلق البيضاء يا برعى، لا تتركه وحده يا ولدى هناك فى مصر.

- على العين والراس ا داريا.

وصمت لحظة وفى عينيه بريق حيرة، واستدار إلى شريفة يهمس لم تقولى شيئا يا داريا فى أمرنا أنا وشريفة ؟.

– قلت لك : على بركة الله.

فلثم يدها بينما هى تقول : ولماذا لم تطلب من جمال قبل الطوفان؟ كنا أتممنا فرحتنا قبل أن يسافر وتسافر.

– كان مشغولا بزنوبة ونقارها معه.

– المجرمة ! سبب كل المصائب، على خيرة الله يا ولدي .. وربتت على كتفه ثم عادت وهى تنادى ... شريفة... لا تغيبى مع الدواجن والديوك، عودى بسرعة.

وانتصف الليل و رست الباخرة وأقلعت وعلى حافتها برعى دامع العينين، وقبل ان تجتاز الباخرة به نجعنا، خيل له أن يسمع فى الباخرة نفسها صوتا يعرفه، فاستدار ليراه في هيئة غريبة : عمة كبيرة بيضاء على رأسه الكبير، وملابس فضفاضة زاهية على جسده، ويداه موثقتان بحبل، ومن حوله حارسان يرمقانه في اشفاق، ويمسحان اللعاب الذى أخذ يسيل بين شدقيه.

كان يردد فى نغم متصل: واحد .. صمد .. واحد صمد... فدنا منه وتأمل وجهه قال:

– حتى أنت يا كلو...!!

ثم ارتد الي حافة الباخرة يراقب النجع الذى أخذ يتلاشى رويدا رويدا حتى غاب عن عينيه.

٥٤

اكتمل بيت ابى والمتجر وبيت خالى، واصطفت خلفه عبر شارع ضيق يؤدى الي الكتاب الذى بني علي عجل من الطين بيوت اكتملت منها غرف آوت اليها بعض العائلات مثل سعدية وأمها وبيوت اخرى لم ترتفع السقوف عليها بعد.

وبينما أخرج أنا من الباب الخلفى،وقد علقت كيس كتبى على كتفى، وقبل أن اخطو انبعث من خلفى صوت يغلب عليه النعاس : حامد .. ولد يا حامد.

فطوست المصحف الذى كنت أنظر فيه استعدادا لتسميع الماضى على الشيخ في هذا اليوم وأدرت عنقى الي الخلف فرأيت سعدية حاسرة الرأس تقف على مصطبة عالية لم تردم بعد: حامد تعال يا حامد.

وقبل ان اقترب منها تراجعت عن المصطبة إلى الباب الخلفى واستندت عليه متثائبة. ترمقنى بنظرات غريبة، فتوقفت عند إطار المصطبة وقلت : ماذا تريدين يا سعدية ؟ قالت: لا شئ الا ان البسطاوى لم يرسل جوابا منذ ان رحل وتثاءبت ثم أضافت : وها قد مر شهر كامل ونصف شهر دون أن يفكر فينا...

-... وأريد أن تكتب له جوابا.

ثم فتحت الباب تقول فى صوت ناعس: ادخل .. ليست أمي هنا ... فقد باتت فى الشرق ليلة أمس، تعال نكتب خطابا يا حامد.

- سأتأخر يا سعدية ويمدنى الشيخ في الفلكة.

- لن تتأخر .. تعال .. أدخل... اخص عليك .. تعال ..

ترددت لحظة وكدت أخطو خلفها، وفى جسدى أحساس غريب لم استشعره من قبل وجدتنى أريد أن أسعى إليها، بدلا من أن تسعى إلى، ثم تمثلت الشيخ وفلكته فتسمرت فى مكاني ومضت هى تقول: أمى غاضبة على البسطاوي وأنا أكتب خطابا دون أن تعلم ... تعال نكتبه قبل ان تجيئ، تعال، مالك واقفا مثل الهبيل، كبة يا شيخ!

قلت : سأعود فى الظهر وأكتبه لك، وأسرعت قبل أن تقول شيئا إلى الطريق المنحدرة نحو الكتاب وفى ذهنى دوامة غريبة من الافكار تختلط فيها ايات القرأن المستعصية وأوامر أبى : احفظ من جديد .. كيف ؟ لقد مرت الحمى بازميل حاد ومحت كل سورة وآية من ذاكرتى، تعليمة الصغر، كما ردد أبى دائما، كالنقش فى الحجر، لكن الأزميل قد قوى على النقش ومحا كل آية، محا كل شئ الا القراءة والكتابة والجمع والطرح والضرب، أما السور والآيات، أما ماحفظت من نسيب الميرغنى فى النبى فقد تلاشى، حتى عدت مثل أصغر واحد فى الكتاب لقد كبرت وطالت قامتى وأحس أن فى حلمتى ثديى ترمستين كبيرتين تكادان تمزقان صدرى وأضيق من ملامسة ثيابى لهما .. فقد كبرت وأجدر بى أن أذهب إلى المدرسة، وماذا تريد سعدية؟

وتلفت الي الخلف لأرى ما اذا كانت واقفة على المصطبة أم لا .. فالتقت عيناى بعينى طفل يصغرنى .وفد الي القرية منذ أيام .. الوحيد الذى عاد من مصر، صحت فيه : فتحى، اليوم نحتفل .. قال نعم، وفى الظهر ستأتى أمي بالطعام إلى الكتاب، وضحكت متذكرا كيف لهوت فى مثل هذه المناسبة، كيف دللت وزهوت وأنا أراقب اقرانى يأكلون، فى نهم، من طعام حملته أمي وأخوتى اليهم، حينذاك كنت قد حفظت آيات وسورا حتى بلغت الاية التى تقول :«يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك، فى أى صورة ما شاء ركبك»... وهنا رفع الشيخ يده وقالك كفى يا حامد وانطلق الاطفال يصيحون ماشارا كباكا ... ماشار كباكا ودنا أحدهم منى وهمس كباكا يعنى عيش، حامد، اليس عندكم عيش؟ قلت نعم.. نعم أمرنى الشيخ: قل لستك عيشة انك قد بلغت اية ماشاركبكا، ومسح علي شعري بيده وكرر رغبته، فعدت أفضى بالخبرالي جدتي فتهللت اساريرها وقالت : بلغ الشيخ طه ان رغبته على الراس و العين، ثم انشغل البيت كله يوم ذاك بعدون العيش والفطائر اللذيذة.

وفى اليوم التالى عند الظهر رأيتهن على باب الكتاب يحملن كل هذه الفطائر وهدايا للشيخ وعائلته، وراح الاطفال يتراقصون ما شاركباكا، والتفوا بأواني الأكل يلهمونه فى صخب وضجيج بينما انصرفن داعيات لى وللشيخ.

واليوم سوف تأتى أم هذا الغلام الصغير واخوته يحملن الفطائر نفسها، وسوف نهيض ونصخب فى الكتاب.

وتذكرت المدرسة ومصطفى الذى قال لى منذ أيام : المدرسة ستفتح فى عنيبه، ولن يمر شهر الا ويكون بين لداته بطربوشه الاحمر وبدلته، لقد اعد ابراهيم عم فتحى هذا هناك لوكاندة ومطعما لنوم وأكل التلاميذ مقابل اجر زهيد، لماذا لا تذهب معى يا حامد إلى المدرسة؟

لكن أبى ما زال مصرا على رغبته : عاود حفظ القرآن يا ولدى عاود، فسوف تذهب إلى الازهر، وتعود شيخا كبيرا يستدير الناس بك في اجازتك ويقبلون يدك.

وها انذا اعود واترنح فى الكتاب، ولكنى فى هذا الصباح مبلبل اتوقع فطائر فتحي وتداعب ذهنى صورة سعدية، وأعجب لماذا تثير سعدية كيانى فى هذه الأيام، كنت أخاف منها أما اليوم فلقد اصبح جسدي يشرئب كلما رأيتها وتذكرت صدرها البض واحتكاكه بصدرى منذ سنين تتلوها صورة حسن المصري وهو ينقض على شريفة بين عيدان الذرة ويرعى وهو يهمس لشريفة بين النخيل فى السحر، حتى مندوهة بنت نوح، عروستى فى اللعب أخذت صورتها تداعب أفكارى وتلح.ولولا الخوف من حجوبة التى بدأت أحس أنها تتلصص على، لدخلت اليوم وراء سعدية لأكتب لها جوابا إلى البسطاوى ولأتركها بعد ذلك ترفعنى الي صدرها كما تريد.

وجاءت ساعة الفطائر فانشغلنا بها، وقبل ان ننتهي منها رأينا الشيخ يهب واقفا على قدميه

ويرحب بجماعة من الناس اقبلت علينا.

واختلست النظر وتعرفت عليهم على الفور: المحامى ووابور يتوسطهما الشيخ مرسى تسبقه رائحة عطرة، ورقص شئ ما بين ضلوعى حين رأيتهما يجلسون على المصطبة الي جانب الشيخ شليب وقبل ان ينتهوا من رشفات الشاى كان الشيخ شليب قد صفنا جيعا، أمام ضيوفه ليقول: أنتهينا من تسميع الماضي منذ دقائق، وقال الشيخ مرسى: وهل يدرسون المطالعة والجمع والطرح،والضرب؟ فأجاب شيخنا فى زهو: والقسمة أيضا يا سيدنا الشيخ، ثم راحوا يتهامسون بينما نحن نراقبهم والحيرة مرتسمة على وجوههم، ثم تذكرت حديثا جرى أمامى منذ سنين فى الدر علي مصطبة بدر أفندى عن المدرسة.

وقد تأكد لى ماظننته. فقد بدأ الشيخ مرسى يمتحننا. أخذ يستدعينا واحدا واحدا، ويأمرنا: اكتب– الصبر مفتاح الفرج:لؤلؤة..تلألأ.. من جد وجد.فنكتب نحن على الأرض. والشيخ شليب يرمقنا فى إعجاب. وجاء دور الجمع والطرح والضرب والقسمة ثم جاءت النهاية حين اتجه الشيخ مرسى إلى سرور يسأله: اسمك.:سرور واسم أبيك: صالح ابراهيم. وشغله؟ عند الخواجه بيل فى الاسكندرية. وتدخل الشيخ شليب والمحامى يقولان: ولكنه يقيم فى نجع الزينية مع جده الشيخ صالح ابراهيم. عال.. وأنت؟ حامد..وأضاف المحامى: حامد أمين.. شغله؟ تاجر.. هنا؟..نعم.

وسأل آخرين ثم هب واقفا وهو يقول: تعاليا معى، فسرنا وراءه أنا وسرور حائرين وشيعنا الشيخ شليب على العتبة وهو يدعو لنا وقد ملأته نشوة غريبة، فها هم الاكابر يهتمون بكتابه، علي يديه كما سيروي علي مر السنين والاجيال، سيتخرج موظفون ومحامون ونواب.

ومضينا نتلوى بين الخيام وأكوام الحجارة وبيوت مكتملة وأخرى ما زال العمال يكملون بناءها حتى أوفينا على النجع وأشار المحامى قائلا: هذا هو الشيخ أمين والد حامد.

كان أبى متربعا على هودية ساقية يديرها، وأمام الساقية شرائح صغيرة من الأرض الصفراء شقت فيها الجداول، الساقية غريبة الشكل، تعاون أبى وأحمد عودة والشيخ فضل علي اقامتها، وفضل هو المهندس الذى صمم بعد أن درس انحدار الارض وارتفاعها عن النيل، واقام ساقية صغيرة علي شاطئ النيل ترفع الماء منه الي جدول كبير يصب فى حوض كبير رفت عليه ساقية أخرى ترفع الماء منه إلى جدول كبير يتلوى بين الرمال كما يتلوى الثعبان، الساقيتان كانتا تدوران لأول مرة فى حياة النجع، وتبعثان في النجع، لحنهما الباكى الذي بعث في عيون النساء والرجال بريق فرح، فتوقفوا علي أبواب الخيام وعتبات البيوت يرمقون الساقيتين في اعجاب، ويعجبون بثعبان الماء الذى مضى يتلوى لامعا فى ضوء الشمس، شمس الخريف ويتخيلون الخضرة التى ستحل مكان الرمل الاصفر ... الشاحب. وراحوا يضحكون بقلوب صافية لأول مرة منذ الحريق، بل لقد تخلصت داريا من يد ابنتها وركضت إلى الساقية وتوقفت عند رأس الجدول تغنى وتهتف: يسعدك الله يا أمين وأنت يا فضل، سنأكل أنا وشريفة أول قطفة من الملوخية

على يدك يا أحمد عودة فحدجها الرجل وقال :
ان شاء الله يا درايا.

ويبدو ان فضلا كان يروى نادرة، فقد اخذ النساء يرسلن قهقة عالية قطعنها فجأة حين رأين موكبنا الصغير يتجه إلى الساقية ومضين يراقبننا بعيون مستفسرة حتى توقفنا لصق داريا سكينة علي رأس الجدول فاقترين قليلا حتى لا يفوتهن شئ مما يقال.

وكانت حجوبة هى أجرأ فقد تقدمت حتي التصقت بنا فى اللحظة التى ترك أبى فيها الهودية، ومسح يده بجلبابه ليسلم علي الشيخ مرسى الذى تحدث معه طويلا عن الساقية والأنواع التي سيزرعونها، ثم استدار بالحديث فجأة وكلمه عن المدرسة ومشاكلها : ستغلق ما لم يزد عدد التلاميذ يا أمين، ماذا تقول ؟ الازهر، لكن الازهر لن يغلق المدرسة، مدرستنا الوحيدة هى التى سيغلقونها، فكر يا رجل.

وسكت ابى وبدا على وجهه انه لم يقتنع بعد، وأدرك الشيخ مرسى انه لابد من شرح وتوضيح فتساءل : وأين الشيخ ابراهيم جد سرور؟ وقبل ان يجيب أحد تدخلت جدته تهمس : الشيخ ابراهيم هناك فى الجبل عند بشير عثمان .. فاليوم تدور ساقيته، مائة متر وأربعة أمتار، ومدت يدها إلى سرور تمسك به وهى تقول : ماذا فعل الولد؟ فى وسعى تأديبه فى الحال .. ماذا فعل ؟ لقد تعلم الشقاوة على اخر الزمن، وابتسم الشيخ بينما انطلق سرور يؤكد فى لثغة حبيبة انه لم يرتكب جرما وقال لها الشيخ، بارك الله فى ولدك يا ستى، انما نريد ان نقابل جده، ثم عاد يبدى اهتماما غريبا بالساقيتين والجدول الكبير ولمعت عيناه فى مرح حين رأي الشيخ «فضل» وأحمد عودة، فقد تذكر جلستهما فى الدر على مصطبة بدر أفندى وسألهما من جديد عن مشروعهما فأفاض فى الشرح حتى قال : عال: عما قريب نأكل القثاء والخيار والفجل والجرجير من أرضكم هذه.فانحنى الشيخ فضل أمامهم ووعد : ان شاء الله .. على أن تشرفنا سماحتك بالزيارة، ثم استدار يسأل عن الساقية الأخرى التى قالت عنها العجوز وراح المحامى يشرح : رجل منا يحفر سبعين مترا فى الجبل.

- ولا يجد الماء.
- لكنه لم ييأس، بل مضى يعمق البئر ثمانين متراً.
- ثم وجد الماء؟
- كلا الماء لم ينبثق الا بعد مائة متر.

وكاد الرجل يصفق بيديه مرحا، بل اهتز جسده طربا، ثم مال على أبى : لماذا لا نقوم إلى البئر ساعة تقابل فيها جد هذا الكلام فاحدثكما معا في المسألة الهامة التى زرت نجعكم بسببها، عصفورتان بحجر واحد .. نرى البئر وصاحبها، ونلتقى بالشيخ ابراهيم وهناك نتفق على كل شئ . هلم معنا.

****

خلف البيوت والخيام وعلى مقربة من الجبانة الحديثة رقدت الارض الرملية الصفراء تتجهم فى عيوننا الا شرائح صغيرة سويت وأعدت للرى، تشقها الجداول والبتون والجسور، وفى قلب هذه الشرائح ساقية عالية تلهث، فوق مدارها أربعة أبقار، ويبدو اننا وصلنا فى اللحظة المناسبة فان مائتين وأربعين قادوسا احمر كانت تهبط إلى البئر لتعود مثقلة بالماء لتصبه فى الجدول الكبير، وقد تربع على الهودية بشير نفسه يرمق الرجال والنساء الذين جاءوا يحتفلون بمشروعه فى نشوة وزهو يفرقع بكرباج طويل على ظهور الأبقار الاربعة ..

عا.. عا.. عا..

وتسللنا نحن بين الناس دون أن يلحظنا أحد فى أول الأمر فقد كانت عيونهم مشدودة إلى القواديس . كان هناك العمدة و سفرجى باشا وعبده الفزنساوى الذى مضى يهتف: فورميدابل .. فورميدابل هائل!

ودارت القواديس دورتها وعادت تلمع فى وهج الشمس ثم مال اول قادوس وأسال الماء فى الجدول وتلاه قادوس آخر فثالث وهنا انبعث الهتاف والتصفيق المتصل، وانطلقت زغرودة مثل رنين الذهب تنداح مع الماء الفضى ليتلوى بين الرمال الصفراء.

ثم اوقفت الساقية وتجمع الناس حولها يشربون شايا اعد لهم وينفثون دخان لفافات وزعها عليهم بشير بنفسه، ثم استداروا بعيونهم ليروا «وابور» يعتلى ربوة مرتفعة، ومن هناك وكأنه نبي يبشر من فوق جبل تدفق فى حديث حماسى يهنئ ابن عمه بشير بالفوز، ثم مضي يصور لهم الخضرة التى ستكتسح الصفرة القائمة المتجهمة من حولهم فراحوا يتخيلون نخيلا سامقا يفرش الارض بظلاله، وحقول قمح ذرة، فنعموا بلحظة هناء أتاحها لهم بشير والقواديس التي صبت الماء.

وكاد وابور أن ينهى حديثه ويترك المنصة لغيره، إلا انه لمحنا: لمح الشيخ مرسي فصاح فى الناس : وليحيا الرجال العاملون .. ليحيا الاستاذ، مشيرا بيده إلى الرجل ثم انهي وابور كلمته بالعبارة التقليدية التي اصبحت علي كل لسان : نحن منكوبى التعلية .. نطالب بطلمبات ري تملأ هذه الصحراء بالخضرة والحياة، ثم أسرع إلى الشيخ مرسى يشد علي يده ويرحب به بينما الناس يستديرون به.وشد الشيخ مرسى علي يد بشير يبارك عمله ثم خلص إلى الناس يتحدثون اليه عن الطوفان والحرائق والفيضان وضرورة إعادة صرف التعويضات وإقامة طلمبات الرى.

ثم تحدثوا إليه عن الرسائل التى ترد من الصعيد تشكو من الأرض القاحلة التي نزل فيها المهاجرون من أهل القرية، وتكلم الشيخ مرسي عن كل شئ في لغة سلسلة شيقة ثم خلص إلى المدرسة حين قال : لو كان الحكام يحترموننا لما نزل بنا كل هذا الشر، وصمت الناس جميعا

يحاولون فهم كلماته ومراميها ثم رفع العمدة رأسه وقال: وكيف نحملهم علي احترامنا يا فضيلة الشيخ؟ بالتعليم .. وهل هناك غير التعليم؟ وسأل العمدة : لكن التعليم يحتاج إلى مال كثير ... فأين لنا بالمال، وشرح الاستاذ ان النفقات زهيدة وأنهم فى سبيل حمل الحكومة على تحويل المدرسة إلى مدرسة داخلية مجانية يأكل وينام فيها ا التلاميذ دون مليم يدفعونه، وسرد السفرجى باشا قصة الباقر وجمال وكيف تعلما ثم عادا استاذين كبيرين يشرفان النوبيين وكيف يتعلم أولاد الباشوات علي يديهما.

وتهلت أسارير الناس فان الاستاذين من القرية الملاصقة، ثم اندفعوا يتكلمون فى فخار عن أبناء القريتين الذين تعلموا وأصبحوا فى مناصب كبيرة:

– تصوروا، لقد كان أبوه طباخا فى بيت أحد الباشوات، نجح هو بينما رسب أولاد الباشا، فسافر إلي بلاد الانجليز وتفوق حتي علي أولاد الانجليز الأوروباوية.

– وفلان .. من مصمص، عاد مدرسا فى مدارس النهضة فى الاسكندرية، ثم فى عنيبة وسرد لهم الشيخ مرسى قصة المدرسين النوبيين في المدرسة وكيف يكافحون فى سبيل حماية المدرسة وتعليم الابناء، فالحكومة تعمل على إغلاقها متذرعة بمختلف الحجج، ومنها قلة عدد التلاميذ، انها تقول : النوبيون لا يريدون أن يتعلموا ولا شك يا ناس ان الباشوات يقولون فى قرارة أنفسهم : واذا تعلم النوبييون اين نجد طباخين وسفرجية وخدما يخضعون لنا؟ وصاح المحامى ووابور : مضبوط صرح أحد النواب بقوله ومن الذى يعمل في بيوتنا اذا ما تعلم هولاء .؟ يحسن أن نفتح لهم مدرسة للطباخين؟

وطاف الشيخ مرسى على وجوه الرجال بنظراته وشعر انه سيفوز فقال :

– المسألة في ايدينا .. الحكومة تقول ان التلاميذ عددهم قليل فلماذا لا نزحم المدرسة بتلاميذ من أبنائنا.

وسكت يتأمل تأثير كلامه واسترسل: فاذا ما أرسلت كل قرية اثنين أو ثلاثة من أبنائها زاد عدد التلاميذ فتبطل حجة الحكومة وتستمر المدرسة، أما الآن..

ثم مال على أبى والشيخ ابراهيم، هذان الولدان خسارة لماذا لا ترسلانهما إلى المدرسة؟ لن يكلفاكما شيئا يذكر . حرام .

وهز الشيخ ابراهيم رأسه وقال : موافق وسأبعث الي ابيه يا فضيلة الشيخ، أما ابى فقد مر بيده علي جبهته وعلي صلعته الخفيفة ثم سأل : اليس الازهر افضل يا سيدنا الشيخ؟ . ولقد تعلمت فيه سماحتك.

وكنت أراقب وجهه وعرفت أنه يوازن ويفكر بعمق وأنه سيوافق في نهاية الأمر . وأراد الشيخ مرسى ان يعجل باقناعه فقال : الازهر لن يغلق، مدرستنا هى التى ستغلق يا رجل، وابنك سيكون بجانبك هنا فى المدرسة، أما هناك فى الازهر فسوف يغترب وقد تلهيه مصر عن دراسته،ومصر كما تعلم مكتظة بالدراجات والعربات والفتيات!

ولم يجب ابي بكلمة واحدة علي الشيخ، بل استدار نحوي بين نظرات الناس الحائرة المتسائلة ووضع يده علي رأسى وهمس فى صوت مختنق:

- غلبتنى يا حامد .. على خيرة الله..

فابتسم الشيخ وقال : عال، نلتقى صباح السبت فى عنيبة بعد شهر.

ولم أعد انا الي النجع بل إلى بيت شقيقتى جميلة أجتر معها سعادتى.

٥٥

المساء يسدل غلالته الرمادية علي القرية الجديدة التي سأعيش فيها، ارمقهاي وجوم من مكاني في هذه اللوكاندة الصغيرة لوكاندة ابراهيم، مطعم ومقاعد وحوش واسع مسقوف اعد لمبيت التلاميذ الغرباء، وفي المبني الطيني نفسه مقهي يصخب رواده حول الورق والنرد، رواد من ألوان مختلفة،بينما الصغار يتكئون علي دكك عاليه مع ابائهم يرمقون مثلي في وجوم موطنهم الجديد وان نهض بعضهم تواقين للعب والتصايح برغم نصائح آبائهم.

وها هو خالي احمد عودة يرمقني في أشفاق ويمد يده ينفض غبارا علق ببدلتي الرماية وينتزع طربوشي يخلصه من قشة انغرزت في صوفه الاحمر، ويعلمني للمرة العاشرة كيف انظف حذائي بخرقة بيضاء اودعها منذ الآن في جيبي، والنصائح تتلاحق من حولنا : إياك ان تنزل في النيل، انت تعلم كم تحبك امك، وكم احبك، عد كل يوم خميس ... حاذر ان تتسخ ملا بسك، هه يا هجين، أتسمع كلامي أم أنت شارد ؟ سرور ما هذا الطين الذي تعبث به؟ الا ترى كيف تلوث اظافرك؟

وأفيق من شرودى على كلمات خالي: اجتهد في دروسك والا فانت تعلم اين تريد حجوبة ان ترسلك، فهززت رأسي في طاعة، ثم عدت إلى شرودى أتأمل القرية الرابضة أمام عيوننا، غابة من النخيل وأشجار الاثل والسنط تغمر مياه الطوفان قاماتها ولا تترك منها الا رءوسا تهتز في حزن بينما يرتعش الماء تحت الظلال القاتمة المرتسمة على صفحته.

ومن خلف الغابة شراع أبيض تتناهى منه إلي أسماعنا نقرات دف ترجع جبال الشرق اصداءها فتنداح علي القرية الوادعة لا تشوبها الا فرقعات «الدبش» و «الدش» وصيحات اللاعبين بالنرد.

وعلي يمين اللوكاندة طريق لم ترصف بعد، على جانب منها سوق وحانات ومقاه بينما تصطف علي الجانب الاخر بيوت غير البيوت التي الفتها في قريتي، بيوت سمراء متصلة ومنفصلة بنيت من حجارة منحوتة، تدور حولها مظلات خشبية رمادية، تمر من تحتها ردهات ضيقة يلمع رخامها وعلى افريزها صواني صفراء عليها قلل فخارية لامعة تنسدل من خلفها ستائر منمنمة مطرزة، ومن بين الستائر تمتد الي القلل أيدو سواعد بضة تختفى بسرعة، وحول كل بيت سور منخفض تمتد خلفه حديقة لم تزرع بعد، والطريق العام يمر أمام هذه البيوت ينتهي بساحة واسعة تتوسط سوقا ومقاهى، وبيوتا، في محاذاتها علي الجانب الاخر مبني المركز والمحكمة ومكتب البريد، والجامع الذي تنبثق امامه في اتجاه النيل مبان اخري يتعرج الطريق امامها ليفضي الي ساحة اخري، في جانبها الشرقي مستشفي لم تعمل بعد وفي جانبها الغربي مبان من نفس الطراز تطل من نوافذها الايدى نفسها والسواعد البضة، وأمام مبني المركز الذي رفرف عليه علم أخضر مبني المدرسة يعترض الساحة تطل عليها نوافذ الفصول ومكتب الناظر وحجرات المدرسين .

درنا انا وخالى حول هذا المبني حتي واجهناه ووقفنا نتأمله كان مبناه الاساسي يبدو خطا مستقيما ينتهي بخطين آخرين افقيين يشكلان الفصول الواقعة علي جانبه الشرقي والغربي .. الفصول كلها تفتح ابوابها علي ردهة طويلة من البلاط ترتفع عن الفناء بسلالم اربعة عريضة منعطف منها الي اليمين لندلف الي حجرات المدرسين ومكتب الناظر تواجهه حجرتان : المخزن ومكتب المعاون، وننعطف الي اليسار لنطل علي عدد من الفصول.

وأمام المبني الأساسي ساحة صغيرة تنتهي في الطرف الاخر بالمرافق العامة ودورة المياة، وفي محاذاة هذه الدورةجرس كبير وقف تحته رجل عجوز اسمر في هندام نظيف يتمتم وفي يده سبحة طويلة من الكهرمان، لقد صلي عم عوض المغرب منذ لحظات تحت الجرس ومضي يتمتم حتي تقدم منه فراش آخر شاب صغير، يحييه ويسأل في خبث : هل أعددت الجرس يا ريس؟ فنظر اليه الرجل في استنكار ؛ فمنذ متي يعلم الفراشون رئيسهم واجباته واشاح عنه، تمتد يده وصلصل الجرس صلصلة خافتة، ورمق الشاب ازدراء وقال : في الساعة الثامنة الا خمس دقائق يدق هذا الجرس لأول مرة في هذه المدرسة الجديدة، بارك الله في مدرستنا الجديدة وفي الجرس، وضحك الشاب وصاح في خبث : وفي اليد التي تشد الجرس، متي أشده انا؟

وأطبقا شفتيهما حين دنونا منهما، وتبادلا التحية معنا وتعارف خالى مع الرجل العجوز الذي طفق يروي في زهو احداث عشرين عاما من حياته مع النظار والمدرسين والتلاميذ. قال : لقد كبروا جميعا لكنهم لا ينسون عم عوض، أصبحوا موظفين، بارك الله فيهم وما زالوا يسألون عني، قال خالي : أطال الله عمرك حتي تراهم جميعا في مناصب كبري، وما زلت قويا بحمد الله، فتهلل الرجل وقال: الحمد لله يا ولدي .. كنت في مصر منذ ايام، اتعرف من الذي قابلني في شارع ابو اصبع؟ تصدق بالله لقد عانقني دون ان أشعر ففزعت ثم استدرت اليه لاجده في بدلته الانيقة يقبل يدي ! وتخابث محيي - الشاب الصغير- وقال: من يكون غير ابن عمك ؟ فتجهم وجهه وصرخ في مرءوسه : اسكت يا ولد، واستدار الي خالي واسترسل في حماسة: الاستاذ عجيب نفسه .. ثم الاستاذ جمال .. ما زلت صغيرا يا محيي، لا تعرف حتي أصل المهنة ولولا طيبة أمك ونفوذها وفصاحتها لما عشت معنا يا فتي .. لقد شهدتك تكبر وشهدت الصغار يكبرون ويتزوجون، ثم يبعثون بصغارهم الي المدرسة نفسها.. الي انا يا محيي ليسمعوا صليل الجرس الذي سمعه آباؤهم، والله يا شيخ أحمد ان هذا الولد لا يفهم .. اسكت .. اسكت ياو لدي ودار محيي من خلفه ولكزه تحت ابطه فقفز الرجل قفزة عالية وهتف: الله اكبر .. ثم صب غضبه علي الفتي المهزار وطرده، ثم تنبه لي وربت علي رأسي وهو يهمس :بارك الله فيك يا ولدي، تعال غدا مبكرا في الصباح قبل ان يدق الجرس، اما الان فانصرف .. واخرج ساعة كبيرة من جيبه وتأملها ثم أردف :حضرة الناظر والمدرسون والمأمور سيحضرون بعد دقائق يستعدون لافتتاح المدرسة وشد على يد خالى وهو لايزال يروى ذكرياته. وقد تقدمنا إلى الفناء الخارجى ثم عدنا أدراجنا وفى

رفقتنا محيى الذى مضى يشير قائلا: بيت المأمور. بيت الشيخ مرسى والدكتور، إنه لم يحضر بعد وهذا بيتى. وأدركت من حديث بينه وبين خالى أن مصطفى ينزل فى هذا البيت، فاستبد بى حنين إلى رؤيته رغم أننى كنت معه فى النجع منذ يوم واحد. ولكن خالى رفض الدخول فاتجهنا إلى اللوكاندة نتناول عشاءنا ونستمع إلى الجرامافون. ثم نمت والأحلام تداعبنى وتدغدغ جسدى وتبعث فيه خدرا لذيذا.

وها هى السبورة السوداء تلمع أمامى وعليها سطر أبيض: حصة الدين. والشيخ ياسين يلقى علينا درسه الأول. إننى أستمع إليه مرتفقا بكوعى على القطمر وبجانبى سرور. لكننى لا أفهم كلمة واحدة مما يقوله الأستاذ لأن الفرحة الغامرة التى تشملنى لاتترك لى فرصة الاستماع والفهم..

ثم تعاقبت الدروس وجاءت الفسحة الكبيرة. فانطلق الصغار يتعارفون. ويعقدون أواصر صداقات جديدة.. ويعجبون بملابسهم. كان واضحا أن بعض الآباء قد لفقوا ملابس لأبنائهم. فقد أخذ المدرسون ينظرون إليها شزرا، حتى ركبنى خوف شديد فرحت أتوارى حتى لايلاحظ أحد شيئا على ملابسى برغم أنها كانت لاتزال جديدة ومرضية، لكن الخوف الحقيقى الذى ركبنى فى اليوم الأول والأيام التالية كان خوفا لايبارحنى البتة. فمنذ أسابيع نجحت فى امتحان القبول، إلا أننى رسبت فى الكشف الطبى على نظرى فعدت باكيا أنهنه وأدب إلى جانب أبى فى الطريق إلى اللوكاندة يائسا خائب الأمل.

ولكن الصدفة العارضة جمعت بيننا وبين الشيخ مرسى الذى سأل: إلى أين ياشيخ أمين؟ فأخذ يروى بالتفصيل قصة خيبتى فى الكشف الطبى وقال: ليس فى الأزهر كشف على النظر، ويبدو أن الله لايريد له غير الأزهر، فتبسم الرجل ورجانا أن نعود معه.

ولاأدرى ماذا فعل الرجل، فقد دخل من باب وخرج من باب آخر، ثم انحنى على ممرض وأشار إلى باسما، وأمرنى أن أقترب منهما، ثم وقفت أمام اللوحة، والرجل من خلفى يلكزنى وهو يقول: يمين. شمال. فوق. تحت.

ونجحت ..ولكن سر نجاحى وتآمر الشيخ معى قد خلقا فى نفسى خوفا لاأطيقه خشية أن يكشف أمرى، فأطرد من المدرسة، إلا أننى برغم ذلك سعيد وأنا أواجه هذه السبورة السوداء وأتأبط كتبى وكراريسى وأحشو جيبى بالأساتيك والمساطر والأقلام وألوى شفتى بأبجدية اللغة الانجليزية، سعيد وأنا آوى إلى فراشى فى اللوكاندة، وأذاكر دروسى على ضوء الكلوب الكبير. مائة وعشرون قرشا فى الشهر ثم نأكل ونشرب وننام فى فناء واسع مسقوف على عنجريب حملته من بيتنا!.

وصحوت فى ليلة من الليالى على يد تهزنى.. وفتحت عينى لأجد «الشيخ مرسى» يطل على ويهمس :غط نفسك ياولدى..ستمرض. خلى بالك ياشيخ ابراهيم، ومضى يفتش ويبحث مع صاحب اللوكاندة أمر راحتنا.. لقد اعتاد أن يراقب حياتنا، ودروسنا واستذكارنا لها وطعامنا ويصلح ما بينى وبين هجين هذا الفتى المتمرد الذى توطدت صداقتى معه برغم نقارنا المتصل. لقد أصبح الرجل أبا وأما لنا نحن الصغار جميعا.

ومر خميس عدنا فيه أنا وسرور وفوزى ابن عمدة ابريم إلى أهلنا..خميس وجمعة قضيتهما مع شقيقتى وابنها الصغير وسمعت الناس يتهامسون من حولى: جاء الأفندى وراح الأفندى..همس. الأفندى ينام، فامتلأت بالزهو وشعرت بسعادة غامرة وأنا أعود فى أصيل الجمعة إلى عنيبة.. حيث المدرسة والشيخ مرسى ورفاق المدرسة واللوكاندة.

ومضت الحياة هانئة باسمة. الساقية تدور أمام بيتنا والأرض الصفراء تخضر والناس أفاقوا قليلا من نكبة الحرائق والفيضان والدروس تتلاحق سهلة ميسورة إلا الرسم فقد تعثرت فيه، أرسم خطا بالمسطرة فيتلوى كما يتلوى الثعبان.. خطوطى كلها تتعرج ويبدو أن حظى كان يتعرج مثلها، يبدو أن حلاوة الدنيا لاتكتمل إلا بمرارتها، فقد حل بنا الخميس الثالث متجهما لسبب لا أدريه. المدرسون النوبيون جميعا كانوا واجمين. يدخلون الفصول وعلى عيونهم نظارات سميكة ويتهالكون على الكراسى ويلقون الدروس فى فتور. دخل الشيخ ياسين وأعقبه الشيخ مرسى وألقيا درسين قصيرين ثم جلسا لايقولان كلمة واحدة حتى دق الجرس فبارح كل منهما الفصل وفى عينيه أسى. ثم دخل مكى أفندى المسلمانى مدرس الحساب وفى يده مسطرة تعود دائما أن يضغط بها طرابيشنا وتهالك على الكرسى، ومضى يملى علينا مسائل الجمع ولم يتوقف إلا حين تناهت إلى أذنيه طرقات خافتة على الباب.. أمر سرورا بعدها بفتح الباب ليدخل عم عوض واجما هو الآخر فابتدره الاستاذ: هيه ياعم عوض قال لاتبتئس يا استاذ فلعله قد عدل الآن وتناول طعامه ولربما تحسنت ظروفه فالله لاينسى عبيده. وأطرق الاستاذ وقال: لقد انتهى اليوم العشرون من اضرابه عن الطعام، وصحته تتدهور فى كل لحظة كما يقول الجواب ياعوض، ليته يعدل ، ثم راحا يتهامسان همسا كان يصل إلى آذاننا، وتردد فيه اسم حسين طه ثم استدار عوض إلى الباب وكاد يخرج إلا أنه توقف كأنما تذكر شيئا، فعاد إلى الأستاذ وناوله ورقة صغيرة وهو يقول: حضرة الناظر يطلب هذا التلميذ، فتأمل الأستاذ قليلا فى الورقة ثم نادى: حامد أمين، فنهضت مستندا إلى حافة القمطر، فتأملنى الأستاذ ثم استدار إلى عم عوض: خده معك. حضرة الناظر يريدك ياحامد..زرر جاكتتك..أزح الطربوش قليلا إلى الخلف.

وتبعت الرجل فى الردهة الطويلة حتى توقف بى أمام المكتب ومضى ينقر على الباب ثم فتح الباب قليلا وأغلقه من جديد وهو يقول هامسا: يبدو أنه ليس فى مكتبه الآن. انتظره هنا، ثم ابتعد خطوات واستند إلى الدرابزين يتأمل الجرس الكبير بينما أخذت أتمشى فى الردهة قلقا

خائفا. وفي هذه اللحظة وحدها أحسست أن في حذائي عيبا، فهي تدك البلاط دكا وتبعث ضجيجا لفت إلى أنظار بعض المدرسين فأطلوا من أبواب الفصول يرشقونني بنظرات قاسية توقفت بعدها منكمشا استند إلى جدار المكتب الخارجي، لقد أبى ألا أن يحصن حذائي بحدوة مثل حدوة الحصان فمضت ترتطم بالأرض وتصك الآذان بصخبها.

ومرت لحظات ظلت الردهة فيها هادئة ثم ارتفع صوت عبد الرحمن افندي مدرس الانجليزي يقول في الحجرة الملاصقة لمكتب الناظر، في حجرة المدرسين: لكنهم لن يغلبوا الأحباش وأجابه صوت أجش: هوه..هوه.. يبدو أنك لاتعرف موسوليني وجيشه وطائراته وغازاته السامة. وارتفع صوت الشيخ «ياسين زنادة» في نبرة محتدة: لعنة الله عليه وعلى جيشه. ثم ساد الصمت لحظة تردد بعدها الصوت الأجش نفسه: وهل أعلنت الحرب فعلا: فأجاب عبد الرحمن افندي: بدأت دون أن تعلن والنجاشي ملك الملوك يستصرخ ضمير العالم بينما عصبة الأمم لاتفعل شيئا. فقال الشيخ ياسين: وماذ يقول الانجليز: فالحبشة على حدود السودان؟.

- لاشيء؟

- إذن فالأحباش غنيمة في يد الطليان.

- اللهم اقض على الانجليز وعلى الطليان.. وانصر أمة الأحباش فقد استضافوا رسل النبي صلى الله عليه ورضي عنهم.

أخذت استمع إلى أحاديثهم وأتساءل عن النجاشي والأحباش والطليان ثم رأيت عم عوض يتحفز ويرفع يديه بالتحية، فشددت من قامتي، وألقيت نظرة في اتجاه المرافق، ورأيت البيه الناظر يقبل علينا بوجهه الطيب. لكن خوفا غريبا ركبني برغم ذلك حين دنا الرجل مني حدجني بنظرة متفحصة. ولم يبارحني الخوف حتى تجاوزني ودخل مكتبه ثم صاح: هاته ياعوض. فدفعني الرجل حتى وقفت أمام الناظر واجما. ثم واتتني فكرة ارتعشت لها. لقد اكتشفوا سر نجاحي في الكشف الطبي وسوف يعيدونني إلى بيتنا مطرودا، فطفرت الدموع إلى عيني. فرحت أغالبها وأقضم أظافري وأبتلعها ثم رفع الرجل رأسه يتأملني وسأل في صوت خافت: حامد ... ؟ فلم أجب وبدا لي أنه يردد أسما غير اسمي، فعجب الرجل من ارتباكي وكرر الاسم من جديد: فمكزني عم عوض فقلت: نعم.. نعم ياسعادة البيه. فتبسم الرجل ابتسامة طيبة. ثم دس أنفه في أوراق كثيرة وقال، وبين يديه ورقة صغيرة. هذا خطاب من الوزارة وتأملني مليا ثم أضاف: يعدم قبولك في المدرسة. فلم أفهم شيئا مما يقوله الناظر. وبدا واضحا له أنني لم أفهم فكرر كلماته في أناة ثم أضاف: لايقبل في السنة الأولى من تجاوزوا العاشرة من عمرهم!

وساد الصمت لحظة وقبل أن أقول كلمة واحدة انطلق عم عوض يقول: ولكن هذا الولد عمره لايزيد عن العاشرة!! فتفحصني الناظر من جديد وقال باسما: أنت ياعوض تحب كل الأولاد خصوصا السمر والسود. كلهم عيالك. ولكن ألا ترى جسمه، ثم طلب منه أن يقترب وعرض

عليه ورقة عريضة قال بعدها: شهادة ميلاده.فارتد العجوز هامسا: أبوك مغفل. من الذى نصحه بتقديم هذه الشهادة.؟.. مغفل! ثم دفعنى إلى الخارج وهو مازال يغمغم: ثلاثة عشر عاما، ثم يقدم أبوك شهادة ميلاد! ولم يتوقف إلا أمام مكتب المعاون والصقنى بالجدار حانقا ثم دخل وغاب لحظة طويلة أطلقت العنان فيها لدموعى، ثم قررت أن استميت هنا فلا أبارح المدرسة.. وأخذت ألعن الناظر وأصب جام غضبى عليه.. لماذا يطردنى ابن الكلب؟. لقد نجحت فى امتحان القبول. المدرسون جميعا راضون عنى إلا مدرس الرسم والأشغال. لابد أنه هو الذى وشا بى.. ابن الكلب.. ذو الوجه الأحمر. وأخذت دون أن أشعر أنهنه بصوت عال رن فى الردهة الطويلة فهرز الشيخ مرسى برأسه ثم تقدم حتى وقف أمامى يقول: من؟ لماذا تبكى ياولد؟ ماذا حدث؟ وقبل أن أجيب استدار إلى الشيخ ياسين الذى هتف باسمه وقال: تم كل شيئ ياشيخ ياسين.. أرسلت برقية وخطابا مستعجلا، فتنهد الآخر وقال: لعل وعسى.. ليته يعدل فيأكل طعامه. وهل أرسلت إلى أبيه.؟ قال فى نبرة محتدة: والده!! أتسمى هذا الرجل أبا؟ لعنة الله عليه..

وخيل لى أنه قد تناسانى حين بدا ينصرف وهو يمسح عينيه بمنديل حريرى أبيض فرفعت صوتى بالبكاء فعاد من جديد يسأل: ماذا حدث ياولدى؟ فشرحت له فى كلمات لاهثة مختنقة ما فعله الناظر بى، فاستمع إلى كلماتى الدامعة فى صبر وتغلب على أحزانى وابتسم لى وهو يقول: بس كده، ولايهمك..أرجع إلى أهلك وسوف تعود، ولكن لماذا قدم أبوك شهادة الميلاد ؟.لاتبك وكن رجلا ..قل لأبيك يرسل شكاوى. وسوف أزوره أنا بنفسى. ثم انصرف من حيث أتى.

ولم تمض إلا لحظة واحدة حتى عاد عم عوض يدفعنى إلى الفصل وفى يده قائمة بالكتب والكراريس والمساطر والأقلام التى تسلمتها منذ أسبوع، ودلفنا من باب الفصل فاتجهت أنا إلي درجى بينما انحنى هو على الأستاذ يهمس فى أذنه.

واستدار الصغار يحدقون فى وجهى الذى بللته الدموع متسائلين فقلت لسرور وأنا أجمع أدواتى: طردونى لكبر السن. فأطرق واجما ويده تتشبث بساقى وكأنه يقول: لاتذهب. لكننى تخلصت منه اخرج وراء عم عوض وأنا أرمق وجه الأستاذ لسبب لاأدريه. فوقف ومد يده وربت على كتفى وغمغم: ما عليك ياولدى فسوف تعود ثم اسلمنى عوض إلى الطريق وهو يقول: قل لأبيك أنك ستعود إذا كتبت شكاوى.

***

وعدت إلى القرية ودخلت مشارف نجعنا والمساء يسدل غلالته الرمادية فوق الخيام والبيوت، اتسلل فى طريقى من الشاطىء إلى النجع خائفا من نظرات الشماتة فى عينى حجوبة وأبى، ورحت أقدم رجلا وأؤخر أخرى وفى رأسى دوامة من السخط والكراهية والحيرة وصور مدرسين واجمين. ولعنة الله على والده. وهذا خطاب من الوزارة بعدم قبولك. قل لأبيك يكتب شكوى.

وعلى صفحة النيل أمام بيتنا مباشرة كانت أضواء تلمع، أضواء زورق بحرى صفير يشد من خلفه شمندورة حمراء يقترب بها من الدوامة الهادرة، فإن الشمندورة الحمراء كانت قد انطلقت من أسارها وعامت فى النيل أسبوعا كاملا إلى الشمال وارتطمت بجفون الخزان فأعادوها بسلسلة جديدة إلى مكانها المعهود، يشدونها من جديد إلى قاع اليم.

وارتميت يائسا بين أحضان خالى، وقد خيل لى فى تلك الأمسية القاتمة أن كل شىء قد ضاع وأن الحمى ستعاودنى، لكننى سرعان مانمت نوما عميقا أفقت منه فى الضحى لأرى المحامى رابضا أمامى يركز ورقة على ركبته ويكتب.. نحن منكوبى تعلية خزان أسوان الثانية.. الخ..



ومضت الأيام وأنا فى النجع أراقب الخيام تختفى، والبنلنين وهم يرسلون حنينهم فى أغنيات دافقة وأساعد أبى فى تدوين حسابات المتجر وأحاول بين هذا وذاك أن أتذكر كلمات انجليزية كنت قد بدأت ألوى بها لسانى منذ أيامى الأولي فى المدرسة.

وبلغ الضيق بى حدا جعلنى أنهض احيانا وأترك الساحة الممتدة أمام بيتنا وأهيم فى الجبل وأتوقف عند البئر العميقة التى شقها بشير عثمان فى بطن الهضبة على كثب من قبر أمى، وأتأمل عيدان القمح القزمية، وقد قضمت الأرانب البرية بعضها ولفحت الشمس أوراقها فاصفرت، وأشفق على أبقار منهوكة القوى تنزح الماء من بئر تغوص فى أحشاء الأرض مائة متر.

وفى أصيل يوم وأنا أعبر الفضاء الممتد حول تلك المزرعة لمحت فى العشة الصغيرة المستندة إلى جدار الساقية صديقى سرور بجلبابه البوبلين المقلم ذى الياقة المدببة الأطراف على دكة خشبية يتصفح مجلة سمير التلميذ فدنوت منه وقد اشتد بى الحنين إلى المدرسة وألقيت بالتحية فرفع رأسه عن المجلة ثم ألقاها جانبا ونهض إلى يشد على يدى بحرارة وقال: تعال.. طلب منى عمى بشير عثمان أن أحرس الغيط حتى يعود، وأراقب الأرانب البرية وأطاردها بالفرقلة.. إلى أين ياحامد؟. قلت: إلي بيت أختى. كيف حالك؟ ماهى أخبار المدرسة وهل فاتتنى دروس كثيرة؟.

– فاتك الكثير ياحامد، ولكننى سأساعدك إذا ما عدت. وماذا تفعل فى بيت أختك؟ أجلس..

– لاأريد أن أتأخر فإننى أحمل إليها خطابا من مصر أرسلته بطة وزوجها.

ثم جلس وأخذت أتصفح المجلة بينما أنشغل سرور بمطاردة أرنب عاد بعدها لاهثا، ومالبث حتى استعاد أنفاسه وأخذ يروى حكايات هيجت كوامن الشجن فى صدرى. حكايات عن المدرسة واللوكاندة ومشاحنات الرفاق ومدرس الانجليزى ومكى أفندى وكيف فرك أذني. حذار أن تقع فى يده حين تعود فهو دائما يكبس الطرابيش على الرؤوس ويأمرنا بالجلوس «ديز» على البلاط بركبنا العارية حتى تدمى فتنهدت وأنا أقول: من قال أننى سأعود ياسرور؟ فلم يجب على سؤالى بل قال: أتعرف أن «صانع أفندى جمال» شكل فرقة للكشافة وأنا فيها رئيس جماعة أحمس بينما فوزى رئيس جماعة بعنخي ومصطفى رئيس جماعة أبو سمبل.. أننا نقيم الحفلات وحامد أفندى يعزف لنا على العود ونحن نغنى.

– ماذا تغنون ياسرور؟. كلا.. الكلمات مع اللحن ياجدع.

فتنحنح وأصلح حنجرته وراح يغنى: ياثيران اشتغلي يا ثيران اشتغلي.. إن الشغل عدو الكسل. وارتفع صوته ينداح فى الصحراء ويعود إلينا رجع غنائه من التلال الغربية.

وقبل أن يكمل لحنه ارتفع صوت أجش: سرور ياخيبتى فيك، الأرانب تأكل الزرع وأنت تغنى؟ فوقفنا لنرى «بشير عثمان» يطل علينا من باب العشة ومن حوله أحمد محمود والمحامى وسيد وابور. ولا أدرى لم أحسست بضيق حين رأيت وجوههم أ لأنهم قطعوا خلوتنا؟. أم لأن صحبة سرور متعة بددها؟ أم لعله ذلك الوجوم الذى ارتسم على وجوههم؟ كانوا ساهمين، عيونهم غائرة ترمق الأفق البعيد، حتى أحمد محمود تجاهلنى وتربع على الأرض بعد أن سواها بيده وأخذ ينكث الأرض بخيزرانته المدببة، ثم ساد صمت ثقيل قمت خلاله أريد أن أنصرف من العشة إلى بيت أختى قبل أن يحل المساء، إلا أن الكلمة التى قالها وابور وقطع بها الصمت استوقفتنى فعدت أصيخ السمع إليهم.. فقد سأله بشير: كيف مات رحمه الله.. ألم يكن شابا؟ ولم يجب وابور على الفور بل أطرق إلى الأرض حزينا يرسم على الأرض بأصبعه وجه رجل بطربوش طويل وأذنين طويلتين كأذنى الحمار.. ثم تمخط وبصق فوق الرسم غاضبا وقال.. لاأدرى. لقد كان شابا فهكذا كانوا يقولون أيام الحادث وفى عنيبة. وقال أحمد:

- لم أكن أعرف ياوابور وهم يسألوننى عنه هناك فى المركز أنه سيلاقى مصيره فى الليمان من المجرمين، عجيبة، الخط يبقى زمانا بعد كاتبه.. وصاحب الخط..

وارتفع بشير عثمان بصوته يقول: دنيا..وماذا يملك العبد؟. الانسان ضعيف. أضعف من الناموسة وهل يملك رد القضاء؟. لكل إنسان نهاية ياوابور. لكل إنسان..

واستمر وابور يرسم الأذنين ثم همس فى صوت متشرخ: لكن البنى آدم فى فراشه وبين أهله. لم نسمع أن أحدا مات من الجوع.

وهمس أحمد: إنهم يموتون من الجوع..قرأت أنهم فى الصين.. لكنهم يقولون أنه هو الذى قتل نفسه من الجوع. فصاح بشير. قتل نفسه من الجوع؟ كيف كان ذلك؟! ثم ساد الصمت طويلا قطعه وابور بكلمات باكية: ظل يقطع الحجارة فى الليمان.. ويعاملونه معاملة المجرمين والكلاب يضربونه ويشتمونه: يابربرى الكلب. ويشدون سلاسل الحديد حول خاصرته وفى قدميه.

وصمت قليلا يتأمل وجه زميليه فرأى الحزن المرتسم عليهما ثم واصل حديثه المحموم: يقولون أنه أرسل شكوى إلى الحكومة، ولكنها لم تبال به بل كان العساكر يقولون له: يابربرى الكلب.. لم ييئس المسكين وأضرب عن الأكل ثلاثين يوما.

- وهل تركوه دون طعام؟ ياولداه!!.
- كلا، بل تعمدوا اغراءه بما لذ وطاب حتى يعدل لكنه أصر، رأسه مثل حجر الصوان الذى

لايلين، ثم ألقوه على الأسفلت العارى حتى بصق الدم.. الدم الأحمر.. وراح الأطباء يحقنونه ثم كانتالنهاية..

– مسكين اللهم لاتبتل صديقا ولا عدوابما ابتليت به حسين ..لابد أنهم دفنوه فى جنازة كبيرة أعدها البيه أبوه.

– جنازة! لقد رفض أبوه تسلم جثته ودفن دون أن يعلم أحد..وبقى الخبر سرا حتى أذاعه أحد سعاة مصلحة السجون.

– لاحول ولا قوة إلا بالله.

– لقد باع الرجل ابنه فداء ولائه للحكومة.

ويصق بشير بصقة صفراء ومسح شاربه بطرف كمعه ثم هتف حانقا: لعنة الله عليه من أب. ضناه وفلذة كبده!!

ومال سرور على وقال: الشيء نفسه كانوا يقولونه بالأمس فى عنيبة. لقد رحل الشيخ مرسى ومكى أفندى، وجميع المدرسين النوبيين، والفراشين إلى الدر، قالوا: إنهم سيقيمون مأتما فى الدر وفى كرسكو قرية حسين طه، ولكن لماذا سجن ياحامد فلم أجب: إذ كان الرجال قد وقفوا يودعون بشيرا ويتواعدون على صلاة الجمعة فى غد.. صلاة الغائب. وتلفت الينا بشير وقال: انصرف ياسرور فالشمس تكاد تغيب.. ويبدو أن السماء ستمطر. خيرا وبركة.

فاتخذ كل منا طريقه، هو إلى النجع وأنا إلى بيت أختى فى أبريم. ومن فوقى دوى رعد وغيوم تلبدت بها السماء فجأة ثم رذاذ مطر اشتد حتى بلل ثيابى، وقوس قزح كبير يرتسم عند الأفق ويلقى الوانه المتداخلة على الهضبة الصخرية المترامية وتتلاشى كلما مالت الشمس إلى المغيب، وبرق خاطف ينير جوف الخور ثم يخبو ليبعث الرعب فى قلبى.

ومضيت أجرى خائفا، مبتعدا عن المزرعة حتي انعطفت إلى الطريق المؤدى إلى بيت أختى، وقبل أن أدلف من بابه رأيت السماء تنبلج بشهاب لامع تماما مثل انبلاجها فوق رأسينا أنا وبطة فى ليلة القدر، ووجدتنى أقول دون وعى: أشف ياارياه أمى. أشف أمى ياارياه، ثم سكت فجأة والحزن يعتصر قلبى حين تذكرت شاهد القبر الذى مررت به منذ حين

كرت الأيام والأسابيع وأنا لاأزال فى النجع لا أفعل شيئا غير مساعدة أبى فى تدوين حسابات المتجر والترنح فى الكتاب وتحمل شماتة حجوبة التى عادت تتحدث عن



رحيلى إلى مصر، ومراقبة النيل الطامى والبواخر الصاعدة فيه وكتابة جوابات النسوة العجائز إلى الأبناء الغائبين!.

وظل الأمل للعودة إلى المدرسة يداعب خيالى فى الأيام الأولى ثم تبدد بمرور الأيام فعشت حياة مليئة بالضجر والتمرد المكبوت، إلا أن الساعات التى كنت أقضيها على هودية الساقية كانت أسعد ساعاتى فقد اعتدت أن أتربع عليها أراقب بقرتنا وهى تدو ر وتروى الرمال الصفراء، والشيخ «فضل» وهو يزك بساقه الخشبية وقد انحنى ظهره قليلا يتنقل بين الشرائح الصغيرة الخضراء يشتل البصل ويتلمس أوراق الجرجير. والفجل وأحراش الطماطم واللوبيا فى نشوة، ثم يمد يده. إلى الأرض يعود بها محملة بالتراب يتشممه متقززا ثم يعيده إلى الأرض وكأنما يهرب منه.

وعلى مرمى البصر وغير بعيد من الساقية حركة أقدام تتدافع وحناجر تهدر بأغانى العمل فمازال عمال البناء يحملون الحجارة والمونة فى صف يدور بين المحجر والمعجنة والمبنى ويتلقى الملعم منهم أحمالهم ويضرب عليها بالمسطرين ويطلب المزيد فيدورون كما تدور البقرة فى الساقية يرددون مقاطع أغنية بطيئة اللحن، يرددونها خلف واحد منهم وقف على ربوة عالية يلوح بيديه ويغنى فين أميل فين أنام، فتردد الحناجر من بعده فى دوى بطىء: تحت ظل الساسابان: تحت ظل الساسابان.

والخيام تختفى وتحل محلها بيوت ذات أفنية واسعة وتتغير صورة النجع، صفوف ثلاثة من البيوت المبنية بالحجارة البيضاء تطل على النهر، وعلى أجمات النخيل العائمة برءوسها على سطح الطوفان ولو لا حركة البناء والأغانى ولولا الساقية التى تدور والشادوف المنحنى دائما ليرتشف من النيل رشفات صغيرة يلقى بها إلى الرمال، ولولا نواح ساقية بئر الجبل التى شقها بشير عثمان، ولولا شجيرات خروع خضراء تهتز فى قبضة النسيم والريح ويذكرنا حفيفها بأشجارنا فى الشرق، ولولا رسائل من مصر والمدن يجتمع الناس حولى لأقرأها عليهم لدامت رتابة الحياة ومللها القاتل.

حتى داريا سكينة بدأت تبتسم وتضحك. فقد بر جمال بوعده ..ولم ينس برعى أباه وأمه، لم ينس داريا ولاشريفة، فقد أرسل يقول لهما: أنا مازلت عند كلمتى، فتبسمت شريفة ولعل خدرا لذيذا سرى فى صدرها عند النهدين.

أما البسطاوى فقد ابتلعه زحام المدينة ولم يرسل كلمة واحدة إلى سعدية وأمها، نسيهما فارتسم القلق على وجه الزوجة الصغيرة. فبدت تعيسة كما كانت شريفة وأمها منذ عامين. ولعل البسطاوى قد انشغل فى مصر بما انشغل به جمال، لعله التقى بواحدة. وسعدية لايمكن أن تنسى كيف كان يطارد كل فتيات النجع. فما الذى يمنعه هناك فى مصر؟ إنه طليق، ليتها تمكنت من السفر معه..لكن......

ولعل انقطاع أخباره هو الذى جلعنى دائما أفكر فى سعدية التى لاتزال جميلة تفكيرا أخذت أنكره على نفسى ثم أعود اليه.. استعذبه وأطيله. فإننى كنت لاأراها إلا وتنبعث فى مخيلتى صورتها وهى ترفعنى إلى صدرها منذ أعوام أربعة، ولاتتركنى إلا بعد أن تغيم عيناها، فأتمنى أن أرقد على ذلك الصدر البض، ولكننى برغم ذلك كنت أخشى الاقتراب منها خوفا من حجوية التى أخذت تتلصص على وتشى بى عند أبى. وظللت أتجنبها حتى وجدتها مرة تعترض طريقى فى أصيل خميس من يناير عام ١٩٣٥، أصيل شديد البرودة تعول فيه الريح.

كنا وحدنا، فقد آوى الناس إلى بيوتهم ولاأدرى ما الذى جاء بها فى تلك اللحظة التى كنت أعود فيها من أبريم إلى النجع. أكانت تترقب عودتى أم أن الصدفة وحدها هى التى جمعت بيننا فى ذلك الأصيل؟

حاولت أن أتجنبها لكنها سدت السبيل أمامى وقالت: تعال ياحامد لنكتب جوابا إلى البسطاوى..فارتبكت ولكننى تداركت نفسى وهمست: ليس الآن ياسعدية فإننى مهموم لاأستطيع كتابة جواب.. غدا.

- مهموم. كفى الله الشر. ولماذا؟ بسبب المدرسة؟ ولماذا تشغل نفسك؟ ولا يهمك ياشيخ. ألست رجلا مثل البسطاوى ويرعى؟. ورنت كلمة «الرجل».. ومثل البسطاوى » فى أذنى رنينا عجيبا، ونفذت إلى قلبى ولكننى تأهبت لأقول لها: دعينى هذا المساء وغدا أكتب لك جوابا، إلا أن البريق الذى لاح فى عينيها والشعاع الذهبى الذى ألقته الشمس الغاربة على وجهها وشعرها من خلال طرحتها والريح التى دفعت بجلبابها إلى الخلف فضاق فوق الصدر وانطوى بين الفخذين، والكائن الجديد الذى أخذ يشرئب فى جسدى ويبعث إحساسا غريبا ملتهبا بالسعار يشدنى اليها.. إلا أن كل ذلك جعلنى أنسى كل تعلاتى وأهمس: وأمك أليست فى البيت؟ فتبسمت ثم همست:

- لكنها فى سابع نومة ولن تفيق إلا مع الفجر.. تعال. فأمى نفسها تريد أن تكتب جوابا إلى أبى!!.

همست بهذه الكلمات باسمة ومازالت الريح تطوى جلبابها بين فخذيها ثم استدارت إلى بيتها فى خطى متثاقلة فتبعتها دون تردد من خلال الباب الخلفى ثم دارت بى فى كل الغرف وعرفت أنها كانت تكذب فإن أمها لم تكن هناك، وتوقفت بى عند عنجريب وتأملتنى ثم استدارت تلقى بطرحتها على السحارة وقد أسندت قدمها إلى العنجريب كاشفة عن ساقيها..وأردت أن أبدد الصمت فقلت : الجواب ياسعدية.؟ أين الورق؟ فقد كنت خائفاً..

- الورق..!

واستقامت لتتجه إلى السحارة مارة بى فى طريقها، لكنها توقفت فجأة أمامى وطوقتنى بشدة متوقعة أن أقاوم كما كنت أفعل منذ أعوام مضت ألاأنها سرعان ما أدركت التغير الذى طرأ على جسدى وأحست بالسعار الملتهب فيه وشعرت بجسدى يشرئب ويتحفز لأول تجربة فاندلقت بصدرها البض على صدرى، تضغط عليه فى قوة لاهثة وتطلق صرخات قصيرة مكتومة ثم انطرحنا على العنجريب ، وأحسست أننى أغوص فى عالم من الرؤى، عالم يتبدد فيه الخوف، لتحل محله الثقة والزهو، عالم تلين فيه سعدية بين ذراعى تقاوم قليلا لتستشيرنى. ثم تستسلم لتهتف: أصبحت رجلا ياحامد.. رجلا مثله.منذ شهور وأنا أريدك أن تكتب لى جوابا وأنت لاترضى. أكتبت جوابا لمندوهة أو لشريفة ياحامد؟ قلت لاهثا وفى سرعة: كلا. ثم انفصلنا لحظة مطرقين برأسينا إلا أنها عادت تطوقنى بذراعيها فأخذت أقاوم وقد ركبنى ندم عجيب، ركبنى إحساس بالأثم وشعور يدفعنى إلى أن ألقى بنفسى فى النيل وأغوص فيه لأطهر روحى وبدنى. موقنا أن أبى وحجوبة، إن كل إنسان يرانى قبل أن أغوص فى الماء سيكتشف جريمتى على وجهى وفى عينى.

ثم انبعث صرير باب موحش، وصوت مبحوح ينادى: سعدية.. أين أنت؟ أليس حامد هو الذى دخل البيت معك؟ فتركتنى وأسرعت إلى الباب الخارجى بينما قفزت أنا من السور الخلفى وأخذت أجرى إلى النيل تتعقبنى صور من العار حتى خلعت ملابسى على الشاطىء وغصت فى النيل وعدت مسرعا وأنا أرتعش من البرد أختبىء فى تحويشة البهائم أمام المتجر.

ووقفت هناك أراقب الساحة من فرجة البوص. وهالنى أن اسمى يتردد على كل لسان، فهذا هو صوت أبى يجلجل: أين غار هذا الولد؟ وصوت خالى وحجوبة.ثم صوت المحامى الذى توقف مباشرة أمام فرجة البوص ينادى. فكتمت أنفاسى، وأنا العن حجوبة التى وشت بى ، لابد أنها قد تلصصت على ولعلها لاحظت شيئا على وجه سعدية.

لكن الكلمات التى أطلقها المحامى أوقفت تيار أفكارى السوداء هذه، فقد أخذ يقفز من رجل إلى أخرى وينادى. حامد . أين هذا المغفل،؟ ثم يضيف فى زهو: ألم أقل لكم؟ الشكوى التى أكتبها تردع الحكام فى مصر.. كلمات.. ياسلام على يدك وخطك وفصاحتك يامحامى. كلمات مثل النار تفتت القلوب القاسية.. فأدركت أنهم يبحثون عنى لسبب آخر ولعل الشكوى التى كتبها المحامى عن الفيضان قد نشرت فى الصحف ولعل أبّى يريد منى أن أقرأ للناس هذا الخبر! فتسللت من مكمنى ووقفت أمام المحامى فتلقفنى صائحا: مبروك ياولد..تعال قبل يدى. مبروك عدت إلى المدرسة ياحامد!.

وأحاط الناس بى بينما وقفت أنا واجما لاأدرك شيئا مما يقولون، ثم تقدمت خالتى أمينة بايا وأمسكت برأسى تهمس: ألا تسمع ياحامد؟ مالك لاتفهم؟ ستعود للمدرسة مع مصطفى يوم السبت!

وأضاف المحامى: أنه لايصدق.. خذ هذه الورقة. أرسلها الشيخ مرسى مع مصطفى اليوم. خذ!.

حينذاك فقط أحسست أن فرحة غامرة تعربد فى صدرى فتركتهم وأطلقت العنان لساقى عائدا إلى أبريم، إلى بيت جميلة، أزف إليها الخبر السعيد: سأعود إلى المدرسة فى عنيبة ياشقيقتى، يا أمى الحنون!.

وتأهبت للرحيل فى أصيل الجمعة وبعد أن ودعت أهلى قفزت على الركوبة، اهمزها لتنطلق بى إلا أن الشيخ «فضل» اعترض طريقى يزك بساقه الخشبية، وعلى وجهه ابتسامة عريضة نورت وجهه الطيب، فترجلت أشد على يده، فصافحنى الرجل بيد قوية خشنة، بينما مد يده الأخرى، وهمس فى صوت عميق:

– لتكن أنت ياحامد أول من يأكل من هذه الأرض.

ودفع بحزمة كبيرة من البصل الأخضر إلى يدى، فانكببت على يده أقبلها إلا أنه جذبها بسرعة وقال:

– خذ. وهذه عشر حبات من الطماطم للأستاذ.. مازالت خضراء ياحامد.

فاحتضنت الهديتين ثم قفزت إلى ظهر ركوبتى من جديد تنطلق بى إلى الطريق العام وتخب فى الرمال الصفراء..

وقبل أن يختفى النجع رأيت النيل يبرق بشريات باخرة تصعد النيل، ثم حانت منى التفاتة جانبية إلى الشمندورة الحمراء فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها إلى قاع اليم.. ترتطم ثم تهدأ لتعاود النضال من جديد.



دار الطباعة المتميزة ت: ٢٩٧٩٥٤٢



دار الطباعة المتميزة ت : ٢٩٧٩٥٤٢

هذه الرواية

الشمندورة هى أول رواية نوبية فى الأدب العربى الحديث تحكى بلغة
شاعرة قصة عالم له غناه الثقافى وفرادته الساحرة وطابعه شبه
الأسطورى الذى يحمل عطر حياة تندثر ، ويستيقظ هذا العالم ء
على التغيرات العاصفة فيأتى إليها متباطئاً حاملاً زاده الروحى .
حواديته ، أى ملحمته التى يعيد تركيبها واحد من أجمل وأذكى أ
الراحل محمد خليل قاسم ، الذى عبر عن وفائه لأهله بإهداء الإن
كلها أثراً خالداً سوف يبقى ما بقى الأدب الكلاسيكى العـ